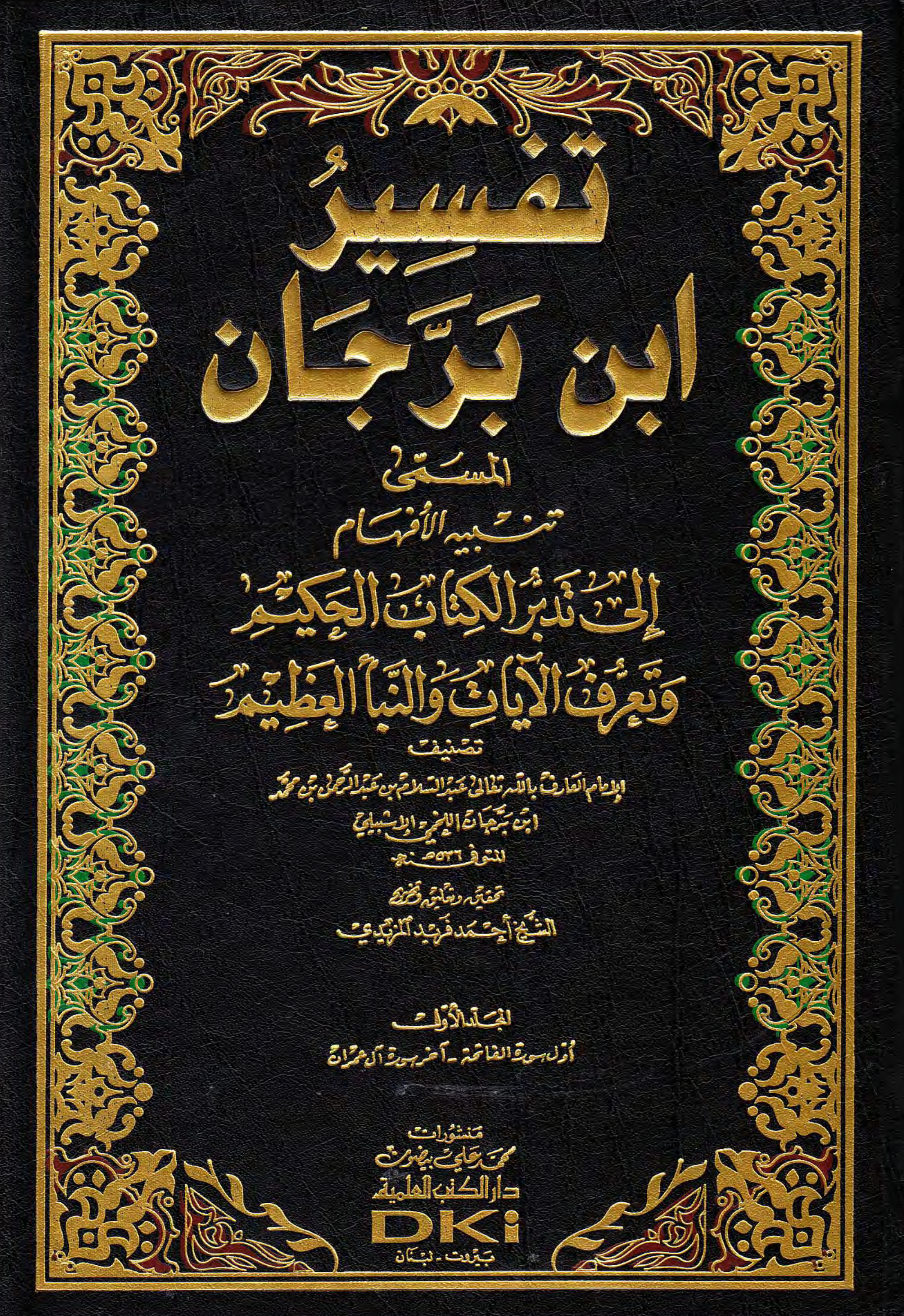


تفسير
ابن برجان
المسمى
تنبيه الأفهام
إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم
تصنيف
الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ
تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي
المجلد الأول
أول سورة الفاتحة - آخر سورة آل عمران
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

أول سورة الفاتحة - آخر سورة آل عمران



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMA
TANBĪH AL-AFHĀM ILA TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف : الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

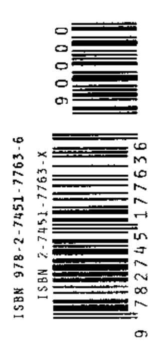
Pages (5 Volumes)	2880	(5 مجلدات)	**عدد الصفحات**
Size	17* 24 cm		**قياس الصفحات**
Year	2013 A.D. -1434 H.		**سنة الطباعة**
Printed in : Lebanon		لبنـــان	**بلد الطباعة** :
Edition : 1st (2 colors)		الأولى (لونان)	**الطبعة** :

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢+
فاكس: ٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق والدراسة

الحمد لله الذي أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، وبين له من معالم العلم وشعائر الشرائع كل ما جل ودق، ونزل عليه كتابًا معجزًا أفحم مصاقع الخطباء، وخطابا مفحمًا أعجز بواقع البلغاء، بأظهر بينات وأبهر حجج، قرآنًا عربيًا غير ذي عوج، أنزله بحسب المصالح والحِكم منجمًا، وجعله بالبسملة والحمدلة مفتتحًا وبالمعوذتين مختتمًا وأوحاه متشابهًا ومحكمًا، مزاياه ظاهرة باهرة فى كل وجه وفى كل زمان، دائرة من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان، فمن تمسك بعروته الوثقى وحبله المتين، وسلك جادته الواضحة وصراطَه المبين، فقد فاز بمناه، ومن نبذ وراء ظهره وعصاه، واتخذ إلهه هواه فقد هوى فى تخوم الشقاء، وتردى فى مهاوي الردى والاشتباه، فإن بلاغة البلغاء وإن طالت ذيولها وفصاحة الفصحاء وإن سالت سيولها، تتقاصر عن الوفاء بأدنى أوصافه، وتتصاغر عن التشبث بأقصر أطرافه، فتعود ألسنتهم عنه قاصرة، وصفقتهم فى أسواقه خاسرة، كيف وتلك الآيات والدلائل وتلك البينات والمخايل، وهذه العبارات العبقرية، وما في تضاعيفها من أسرار البرية، مما لا تحيط به ألباب البشر، ولا تدرك كنهه طباع العالم الأكبر والأصغر، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل أقصر آية من آياته؛ فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه كلام الملك العلام من الإطراء والإكرام، أوفق بما يقتضيه الحال من الإجلال والإعظام.

والصلاة والسلام على من أرسله الله إلى الخلق هاديًا وبشيرًا، ونزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا؛ فهداهم به إلى الحق وهم فى ضلال مبين، وسلك بهم مسلك الهداية حتى أتاهم اليقين، أكمل به بنيان النبوة والجلالة، وختم به ديوان الوحي والرسالة، وأتم به مكارم الأخلاق ومحاسن الأقوال، على ألطف أسلوب وأحسن أحوال، أعلى به من الدين معالمه، ومن الحق مراسمه، وبين من البرهان سبيله، ومن الإيمان دليله، وأقام للحق حجته، وأنار للشرع محجته، حتى انتشرت

الأفئدة بأنوار البينات، وانزاح عن الضمائر صدأ الشبهات، فهو حجة نيرة واضحة المكنون، وآية بينة لقوم يعقلون، بل برهان جلي لا ريب فيه، ومنهج سوي لا يضل من ينتحيه، مظهر لتفاصيل الشرائع والأديان بالاستحقاق مفسر لمشكلات آيات الأنفس والآفاق، به يُتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وبه تُكتسب الملكات الفاخرة، كلامه شفاء للسِّقام، وحديثه قاطع للخصام، عند تفاوت الأفهام وتباين الأقدام، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي، وإليه يستند فى معرفة حقائق الأشياء كما هي، أفلح من اتبعه ووالاه، وخاب من أعرض عنه وعاداه.

وصلى الله وسلم على آله البررة، وصحبه الخِيَرة، مصابيحِ الأمم ومفاتيح الكرَم، خلفاءِ الدين وحلفاء اليقين، الذين بلغوا من محاسن الفضائل غاية الغايات، ووصلوا من مكارم الفواضل نهاية النهايات، لا يتسنى العروج إلى معارجهم الرفيعة، ولا يتأتى الرقي إلى مدارجهم المنيعة، لعلو شأنهم ونهاية الإعضال، وصعوبة مرامهم وعزة المنال، فهم شموس الهدى على فلك السعادة، وبدور الدجى لهم الحسنى وزيادة، وعلى من تبعهم بالإحسان، صلاةً وسلامًا دائمين ما تناوب النيّران.

وبعد... فإن أعظم العلوم مقدارًا وأرفعها شرفًا ومنارًا وأعلاها على الإطلاق، وأولاها تفصيلاً بالاستحقاق، وأساس قواعد الشرائع والعلوم، ومقياس ضوابط المنطوق والمفهوم، وأعز ما يرغب فيه ويعرج عليه، وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه، هو علم التفسير، لكلام العزيز القدير؛ لكونه أوثَقَ العلوم بنيانًا، وأصدقَها قيلاً وأحسنَها تبيانًا وأكرمَها نتاجًا، وأنورَها سراجًا، وأصحَّها حجة ودليلاً، وأوضحَها محجة وسبيلاً.

وهو الآية الباقية والحجة القاطعة والمعجزة الخالدة لسيدنا محمد ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو الدستور العظيم الذي فصل الحقوق والواجبات، ونظم العلاقات والمعاملات، وشرع الحدود والأحكام فى آياته البينات الصالحة لكل زمان ومكان.

ولقد فهم المسلمون الأولون هذه الحقائق عن القرآن وأدركوها غاية الإدراك وآمنوا بها إيمانًا كاملاً؛ فكان القرآن هو المحور الذي تقوم عليه حياة المسلمين فى صدر الإسلام، وكان شغلَهم الشاغل عن كل شيء؛ ولهذا حفظوا آياته وتدبروا

معانيه، وتخلقوا بأخلاقه واهتدوا بهديه حتى بلغت هذه الأمة بفضل علمها وعملها به أسمى درجات الخيرية بين الأمم قاطبة وصَفَها بذلك ربّها حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقد تصدى لتفسير عويصاته أساطين الأمة، وتولى لتيسير معضلاته سلاطين الأئمة، من الصحابة والتابعين وأئمة اللغة والمفسرين، ثلةٍ من الأولين وأمة من الآخرين، فغاصوا في بحار لججه وخاضوا في أنهار ثبَجه فنظموا في سلك التقرير فرائده، وأبرزوا في معرض التحرير فوائده، وألفوا كتبا جليلة المقدار، وصنفوا زبُرا جميلة الآثار، وفصلوا مجمله، وبينوا معضله، مع تحقيقٍ للمقاصد وفق ما يُرتاد، وتنقيحٍ للمعاقد فوق ما يُعتاد.

فقدَّم كل مفسر أقصى ما لديه من علمه، وتبعًا للأنحاء المختلفة لنظرهم إلى القرآن الكريم واشتغالهم به، نرى التفاسير ذات ألوان متنوعة، فمنها ما يغلب عليه إظهار النواحي اللغوية والبلاغية، ومنها ما يغلب عليه إبراز نواحي الفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام، ومنها ما يغلب عليه استخلاص الإرشادات الاجتماعية والأدبية، فوصلت إلينا مكتبة إسلامية غنية بمختلف الثقافات القرآنية المتنوعة، كلها تنهل من معين هذا الكتاب العظيم الذي لا تنفد معانيه ولا تنقص عجائبه ولو كانت البحار مدادًا والأشجار أقلامًا.

ولهذا ذُخرت المكتبة الإسلامية بالعديد من ألوان التفسير والدراسات القرآنية بحيث تدل على عناية الأمة الفائقة بكتاب الله ﷻ ببذل جهودهم الكبيرة وأبحاثهم المستفيضة، في سبيل إبراز فيوضاته العلمية الراقية، على أيدي الأئمة الأعلام، والمفسرين العظام، من بينهم: العلامة ابن برجان الإشبيلي، الذي سنذكر أهمية تفسيره ومكانته العلمية.

ونُورد هاهنا مباحث أولها:

المبحث الأول: التفسير والتأويل وبيان الفرق بينهما

المفهوم اللغوي لكلمة « التفسير»:

يُطلق لفظ «التفسير» في اللغة العربية ويراد منه: الكشف والبيان، وقد ورد اللفظ بهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ

بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] أي: وأحسن بيانًا وتفصيلاً[١] والمراد بالكشف هنا هو الكشف مطلقًا سواء أكان هذا الكشف لغموض لفظٍ أم لغير ذلك.

واختلف فى أصل المعنى الذي أخذ منه لفظ التفسير:

١-ذهب كثيرون إلى أن التفسير تفعيل من الفسر، وهو الإبانة، وكشف المغطى، مصدر «فسر» يقال: فسر الشيء يفسره - بالكسر - من باب «ضرب» ويفسره - بالضم - من باب «نصر» فسرا أي أبانه، والتفسير مثله - وشدِّد للكثرة - فالمصدران والفعلان متساويان فى المعنى؛ وقيل: يختص المضعف بإبانة المعقولات، فالفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل [٢].

٢-يرى الإمام الزركشي أن التفسير أصله فى اللغة من التفسرة وهي البول الذى ينظر فيه الطبيب ليستدل بلونه على علة العليل، وهو راجع إلى معنى الإظهار والكشف، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض، فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصصها ومعناها والسبب الذى أنزلت فيه وكأنه تسمية بالمصدر؛ لأن مصدر «فعّل» جاء أيضًا على «تفعلة» نحو: جرّب تجربة وكرّم تكرمة [٣].

٣-ويطلق التفسير أيضًا على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس أي: عريته لينطلق فى حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري إلا أن هذا الكشف حسي نقل إلى المعنوي [٤].

وهذه المعاني كلها تدور حول الكشف والبيان، وهي معان متقاربة، ويستعمل تارة فى الكشف الحسي، وآخرى فى الكشف عن المعاني المعقولة، ولكن استعماله فى الأخير أكثر.

---

(١) (بحوث فى علوم التفسير ٣٨٥) للشيخ الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي.

(٢) انظر: (القاموس المحيط ٦٣٦/١ مادة فسر) (البحر المحيط ١/٩-١٠) (لسان العرب ٥٥/٥ مادة فسر) (المصباح المنير ٢٤٥).

(٣) انظر: (البرهان فى علوم القرآن ١٤٧/٢) (المفردات فى غريب القرآن ٣٨٠) (أساس البلاغة ٢٢/٢) (دراسات فى مناهج المفسرين ١٠، للدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة).

(٤) انظر: (تهذيب اللغة ٤٠٦/١٢ مادة فسر) (روح المعاني ٥/١).

المفهوم الاصطلاحي لكلمة « التفسير»:

تعددت عبارات العلماء فى تحديد المعنى الاصطلاحي لعلم التفسير، ومن ذلك:

قال الإمام أبو حيان: هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك.

ويمضى الإمام فى شرحه لهذا التعريف فيقول: قولنا «علم» جنس يشمل سائر العلوم؛ وقولنا: «يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن» هذا هو علم القراءات؛ وقولنا «ومدلولاتها» أي: مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه فى هذا العلم؛ وقولنا «وأحكامها الإفرادية والتركيبية» هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب وعلم البيان وعلم البديع ومعانيها؛ وقولنا: «التي تحمل عليها حالة التركيب» يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر وهو المجاز؛ وقولنا: «وتتمات لذلك» هو معرفة النسخ وسبب النزول وقصة توضح بعض ما انبهم فى القرآن ونحو ذل[1].

وعرفه الحافظ السيوطي فى كتابه: «إتمام الدراية» حيث قال: هو علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بألفاظه والمتعلقة بالأحكام وغير ذلك[2].

وقد شرح هذا التعريف الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، فقال: قوله «من جهة نزوله» يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه؛ وقوله «وسنده» يشمل كونه متواترًا أو آحادًا أو شاذًّا؛ وقوله: «وأدائه» يشمل كل طرق الأداء كالمد والإدغام؛ وقوله: «وألفاظه» هو ما يتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقة أو مجازًا أو مشتركًا أو مرادفًا أو صحيحًا أو معتلاً أو معربا أو مبنيا؛ وقوله «ومعانيه المتعلقة بألفاظه» هو ما يشبه الفصل والوصل؛ وقوله «والمتعلقة بأحكامه» هو الذي من قبيل العموم

---

(١) (البحر المحيط ١/١٢١) (الإتقان فى علوم القرآن ٢/١١٩١).

(٢) (إتمام الدراية لقراء النقاية ٢٠ السيوطي).

والخصوص، والإحكام والنسخ[١].

وقد امتدح الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة صنيع الشيخ الزرقاني؛ لكنه عقب عليه حيث قال: وهو شرح حسن لولا حمله معاني القرآن المتعلقة بألفاظه على ما يشبه الفصل والوصل، فإن هذا عندي حقه أن يسلك فى عداد الألفاظ لا فى عداد المعاني المتعلقة بالألفاظ، وإنما المراد بهذه المعاني عندي هو ما يتعلق بتفسير الألفاظ من حيث اللغة، فهو كقول أبي حيان السابق «ومدلولاتها»؛ قال: ثم إنه بقي من التعريف بعد شرحه قول السيوطي فيه «وغير ذلك» وهو قول عام يراد به جميع ما بقي مما لم يذكره غير القرآن من الدلائل الخارجية المصدقة لمحتواه الفكري والهدوي العظيم وما إلى ذلك من العلوم والمعارف التي يحتاج المفسر فى تفسيره ولا تدخل تحت ما سبق[٢].

وقال الشيخ القنوجي: هو علم يبحث فيه عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية[٣].

وقال الشيخ التهانوي: هو علم يعرف به نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها وغيرها[٤].

ويأتي الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بتعريف يلخص هذه التعاريف كلها حيث يقول: هو علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

ثم شرح التعريف فقال: والمراد بكلمة «علم» المعارف التصورية، قال عبد الحكيم على المطول: إن علم التفسير من قبيل التصورات، لأن المقصود منه تصور معاني ألفاظه وذلك من قبيل التعاريف، لكن أكثرها بل كلها من قبيل

---

(١) (مناهل العرفان فى علوم القرآن ٢/٨).

(٢) (دراسات فى مناهج المفسرين ٢٩-٣٠).

(٣) (أبجد العلوم المسمى الوشي المرقوم ببيان أحوال العلوم ٢/١٧٢).

(٤) (كشاف اصطلاحات الفنون ١/٢٤).

التعاريف اللفظية؛ وذهب السيد إلى أن التفسير من قبيل التصديقات لأنه يتضمن حكما على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعاني التي تذكر بجانبها في التفسير؛ وخرج بقولنا «يبحث فيه عن أحوال القرآن» العلوم الباحثة عن أحوال غيره؛ وخرج بقولنا «من حيث دلالته على مراد الله تعالى» العلوم التي تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته كعلم القراءات، فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها ومثل علم الرسم العثماني فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه؛ وخرج بهذه الحيثية أيضًا المعارف التي تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق فإنها من علم الكلام، وكذلك المعارف الباحثة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها فإنها من علم الفقه؛ وقولنا «بقدر الطاقة البشرية» لبيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات ولا عدم العلم بمراد الله في الواقع ونفس الأمر[1].

قلت: ومهما يكن من أمر فإن هذه التعريفات وإن اختلفت فى اللفظ بحيث طال فى بعضها وقصر فى الآخر فإنها متحدة فى المعنى، والاختلاف بينها من حيث الإجمال والتفصيل، فما أجمل فى تعريف فقد فصل فى آخر كما هو ظاهر مما تقدم، وكلها متفقة على أن التفسير هو علم يبحث فيه عن مراد كلام الله تعالى فى كتابه الكريم بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد، وبالتالى تكون المناسبة بين هذه التعاريف الاصطلاحية والمعانى اللغوية للكلمة ظاهرة، فإن التعاريف لا تخرج عن نطاق معنى التبيين والتوضيح والظهور بعد الخفاء.

المفهوم اللغوي لكلمة « التأويل»: التأويل مصدر، فهو تفعيل من «أوّل يؤول تأويلاً». وقد اختلف فى اشتقاقه:

- فقال الأزهري: ثلاثيه « آل يؤول أوْلا ومآلا » أي رجع[2].

وقال أبو عبيدة: التأويل مأخوذ من «آل يؤول إلى كذا» أي صار إليه[3].

---

(١) (مناهل العرفان ٢/٧-٨).

(٢) (تهذيب اللغة ١٥/٤٥٨ مادة أول) (الإتقان ٢/١١٨٩).

(٣) انظر: (تهذيب اللغة ١٥/٤٦٠ مادة أول).

وقال ابن الأثير: هو من آل الشيء يؤول إلى كذا أي رجع وصار إليه[١].

فهو على هذا من الأول وهو الرجوع، يقال: آل الشيء يؤول أولا ومآلا أي رجع؛ وأوّل إليه الشيء أي رجعه؛ وأُلتُ عن الشيء أي ارتددت، ومنه المآل بمعنى المرجع والمصير؛ ومنه أيضًا آلُ الرجل أي أهله وأتباعه وأولياؤه، لأنهم يرجعون إليه أو يرجع إليهم؛ وأوّل الكلام وتأوله أي دبره وقدره؛ وأوله وتأوله أي فسره[٢]، فكان المؤول يرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

- وقيل: هو مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، كأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه[٣]، يقال آل الملك رعيته إيالا أي: ساسهم؛ وآل على القوم أولا وإيالا وإيالة أي: ولي؛ وآل المال أي: أصلحه وساسه[٤].

المفهوم الاصطلاحي لكلمة «التأويل»:

اختلف العلماء في بيان مقصودهم الاصطلاحي لكلمة التأويل إلى ما يلي:

أولا: التأويل عند السلف، وله عندهم معنيان:

١-تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أكان موافقًا للظاهر أم مخالفًا له، وهو على هذا المعنى مرادف للتفسير، وهذا كثير في كلام السلف، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ وهو ما يعنيه أيضًا بقوله: اختلف أهل التأويل في هذه الآية، وعلى هذا فالنسبة بينهما التساوي[٥].

وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى الشهير بـ «ثعلب» عن التأويل فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد[٦]؛ وقال الليث: التأول والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه[٧].

---

(١) انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٨٠).
(٢) (لسان العرب ١١/٣٣ مادة أول) (القاموس المحيط ٢/١٢٧٥ مادة أول).
(٣) انظر: (الإتقان ٢/١١٨٩).
(٤) انظر: (لسان العرب ١١/٣٦) (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٨٥).
(٥) انظر: (بحوث في علوم التفسير ٣٨٦).
(٦) انظر: (تهذيب اللغة ١٥/٤٥٨ مادة أول) (لسان العرب ١١/٣٣).
(٧) انظر: (تهذيب اللغة ١٥/٤٥٨-٤٥٩).

٢-بيان ما يؤول إليه الشيء في واقع الأمر وحقيقة الحال - وهو الأغلب في كتاب الله - فإن كان الكلام من الله تعالى طلبا فتأويله فعل ما طلب، وإن كان نهيا فتأويله الانتهاء عما نهى الله عنه، وإن كان خبرا فتأويله وقوع الخبر على الوصف المخبر به، وعلى هذا فالتأويل والتفسير أمران متباينان، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف:٥٣] قال الزجاج: معناه: هل ينظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من البعث، قال: وهذا التأويل هو قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ أي: ما يعلم متى يكون البعث وما يؤول إليه أمرهم إلا الله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] أي: آمنا بالبعث، والله أعلم[١]

وروي عن مجاهد ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ قال: جزاؤه ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ قال: جزاؤه[٢].

ومنه حديث عائشة - رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن[٣] تعني: أنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر:٣].

ثانيًا: التأويل عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين:

للتأويل عند المتأخرين تعريف اصطلاحي، وهو صرف اللفظ عن معناه الراجح المتبادر منه إلى المعنى المرجوح غير المتبادر لدليل يقترن به، وعلى هذا فالتفسير أعم من التأويل، ومن ذلك قول ابن الأثير: والمراد بالتأويل: نقل ظاهر اللفظ عن معناه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ.[٤] وهذا هو التأويل الذي يتنازع عليه العلماء في الكثير من المسائل الخلافية في فروع العقيدة والفقه وأصوله وغيرها، فإذا قال أحدهم: هذا النص أو الحديث مؤول أو محمول على كذا، قال الآخر: هذا تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل؛ وعلى هذا

---

(١) (معاني القرآن ٢/٣٤١).

(٢) انظر: (جامع البيان ٨/٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٨٤) (٤٦٨٤).

(٤) انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٨٠).

فالمؤول مطالب ببيان احتمال اللفظ للمعنى المراد صرفه إليه وبيان الدليل الذي حمله على صرفه عن ظاهره.[١] ولذا قسم علماء الأصول التأويل إلى ثلاثة أقسام:

١-تأويل صحيح «قريب»: وهو إذا دل عليه دليل قوي.

٢-تأويل فاسد «بعيد»: وهو إن كان التأويل لا يستند إلى دليل قوي، أو كان لشبهة دليل.

٣-تأويل لغير دليل أصلاً «وهو لعب لا تأويل»: وهو الذي لا يتكئ على دليل أو شبهة دليل[٢].

الفرق بين التفسير والتأويل:

لم يفرق كثير من علماء السلف - منهم ابن جرير الطبري وطائفة معه - بين التفسير والتأويل، فإنهم يرون أن التفسير والتأويل بمعنى واحد لا فرق بينهما؛ وقد سئل أبو العباس أحمد بن يحيى الشهير بـ «ثعلب» عن التأويل فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد[٣].

في حين فرق كثير من المتأخرين بينهما، واختلفوا في وجه الفرق، فقيل: التفسير ما كان بالرواية، والتأويل ما كان بالدراية[٤].

وهذا الرأي نقله الإمام الزركشي في كتابه «البرهان» عن أبي نصر القشيري حيث قال ما نصه: قال أبو نصر القشيري: ويعتبر في التفسير الاتباع والسماع، وإنما الاستنباط ما يتعلق بالتأويل[٥].

وقال ثعلب: التفسير والتأويل واحد، أو هو كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر[٦].

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي: التفسير القطع بأن مراد الله تعالى كذا والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون

(١) انظر: (التفسير والمفسرون ٢١/١).

(٢) انظر: (حاشية العطار على جمع الجوامع ٨٨/٢).

(٣) انظر: (تهذيب اللغة ٤٥٨/١٥ مادة أول) (لسان العرب ٣٣/١١ مادة أول).

(٤) (الإتقان ١١٩٠/٢).

(٥) (البرهان في علوم القرآن ١٥٠/٢) (الإتقان ١١٩٠/٢).

(٦) (القاموس المحيط ٦٣٦/١ مادة فسر).

القطع والشهادة على الله[١].

وقيل: إن الفرق بينهما من وجه العموم والخصوص، فالتفسير أعم من التأويل.

وذهب الراغب إلى أن العموم والخصوص من جهة ما يكون استعمال التفسير والتأويل فيه من الكلام، فقال: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله فى الألفاظ ومفرداتها وفى الكتب الإلهية وغيرها، وأكثر استعمال التأويل فى المعاني - كتأويل الرؤيا - وفى الكتب الإلهية خاصة[٢].

وذهب بعض العلماء إلى أن العموم والخصوص من جهة كون بيان اللفظ بمعنى متبادر أو غير متبادر، فقال: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة[٣].

وذهب الإمام الألوسي إلى أن التفسير خاص بما كان مفهوما من العبارة، والتأويل بما كان مأخوذًا بالإشارة.

وبعبارة أخرى: إن التفسير هو التفسير العباري، والتأويل هو التفسير الإشاري[٤].

ورجح الإمام الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي - رحمه الله تعالى - أن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعًا إلى الدراية؛ وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا يكون إلا بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من

---

(١) انظر: (الإتقان ٢/١١٨٩-١١٩٠) (روح المعاني ١/٦).

(٢) انظر: (مقدمة التفسير، للراغب الأصفهاني) (البرهان فى علوم القرآن ٢/١٤٩) (الإتقان ٢/ ١١٨٩) (روح المعاني ١/٥).

(٣) (الإتقان ٢/١١٨٩).

(٤) انظر: (روح المعاني ١/٦).

كل ذلك[1].

أقول: والذي تميل إليه النفس أن كلا من التفسير والتأويل مقصود به البيان لمعنى القرآن الكريم والكشف عن المراد منه، غير أن النسبة بينهما هي العموم والخصوص بإطلاق، فكل تأويل تفسير وليس كل تفسير تأويلاً، فهما يجتمعان فى بيان ما يحتاج بيانه إلى التأمل وتدقيق النظر، ويتفرد التفسير فى بيان ما لا يحتاج بيانه إلى ذلك، والله أعلم.

مسألة المكي والمدني

كان للعلماء في تحديد الضابط اللفظي الذي يميز كلاً من المكي والمدني ثلاثة مذاهب، ثم رجحوا بعضها على بعض، فكان الأمر كما يلي:

المذهب الأول: هو اعتبار المكان، حيث إنه هو الاعتبار المتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة مكي أو مدني، وعلى هذا:

فالمكي: هو ما نزل في مكة أو فيما جاورها من ضواحيها ولو بعد الهجرة.

والمدني: هو ما نزل في المدينة أو فيما جاورها من ضواحيها.

وهذا المذهب لم يلق القبول عند أهل التحقيق من العلماء على الرغم من شهرته كما ذكر الشيخ الزرقاني حيث قال: إنه غير ضابط ولا حاصر؛ لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله تعالى في سورة التوبة ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**﴾ [٤٢] فإنها نزلت بـ«تبوك» وقوله في سورة الزخرف ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا**﴾ [٤٥] فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء، ولا ريب أن عدم الضبط في التقسيم يترك واسطة لاتدخل فيما ذكر من الأقسام؛ وذلك عيب يخلُّ بالمقصود الأول من التقسيم والحصر.

وذكر صاحب الإتقان عن الطبراني في معجمه الكبير من طريق الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان عن ابن عامر عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة: مكة والمدينة والشام**» قال الوليد: يعني بيت المقدس، وقال ابن كثير: بل تفسيره بـ«تبوك» أحسن.

قال السيوطي: ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية،

---

(١) (التفسير والمفسرون ١/٢٢-٢٣) (بحوث فى علوم التفسير ٣٨٦).

وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأُحد وسَلْع.

المذهب الثاني:

كان إلى اعتبار نوع المخاطب بالقرآن، فقال أصحاب هذا الرأي: **المكي** هو ما كان خطابا لأهل مكة. **والمدني** هو ما كان خطابا لأهل المدينة.

وألحق بعض العلماء بذلك قول من قال: إن ما صُدِّر بلفظ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ فهو مكي، وما صُدِّر فيه بلفظ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فهو مدني.

وعللوا لذلك بقولهم: لأن الكفر كان غالبا على أهل مكة فخوطبوا بـ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وإن كان غيرهم داخلا فيهم؛ ولأن الإيمان كان غالبا على أهل المدينة فخوطبوا بـ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ وإن كان غيرهم داخلا فيهم أيضًا، كما ألحق بعضهم صيغة ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾ بصيغة ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ أو ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾ فإنه مكي، وما كان ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فإنه مدني.

وقال الحافظ السيوطي: وحُمِل على هذا قول ابن مسعود أخرجه البخاري: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت» وهذا الحمل غير وجيه فيما يبدو لي؛ لأن الآيات والسور لم تنزل كلها في أعيان الأشخاص، وما نزل في عين شخص فليس كاد له خطابًا، والله أعلم.

ومع هذا فإن هذا التقسيم هو الآخر لم يحظ بالقبول، ولم يسلم من الاستدراك عليه لأنه كسابقه غير ضابط ولا حاصر، حيث إن من القرآن ما نزل غير مخاطب لأهل مكة ولا لأهل المدينة كما في قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً**﴾ [الأحزاب:٢٨] ومثل ذلك الآيات الكثيرة التي لم تُصدَّر أصلا بأي نداء أو بعبارة أخرى: الآيات التي لا تحتمل الخطاب لفظًا ولا معنى، مثل قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [البقرة:٢٦] وضعّف هذا القول ابن الحصّار فقال: اتفق الناس على أن سورة النساء مدنية وأولها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وعلى أن سورة الحج مكية وفيها ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**﴾ [الحج: ٧٧] وقال غيره: هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإن سورة البقرة مدنية وفيها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ [البقرة: ٢١] ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ**

حَلالاً طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨] وبهذا يظهر ضعف هذا المذهب وعدم صحة الاعتماد عليه في تحديد المكي والمدني، وعلى أنقاض هذا الرأي وذاك يقوم بنيان المذهب الصحيح وهاك هو.

المذهب الثالث:

وهو اعتبار الزمان الذي تنزلت في خلاله آيات القرآن وسوره، وعلى أساسه، فإن الضابط الذي يحدد المكي والمدني هو:

المكي: ما نزل من القرآن قبل الهجرة النبوية إلى المدينة.

والمدني: ما نزل من القرآن بعد هذه الهجرة.

نقل الحافظ السيوطي عن عثمان بن سعد الرازي أنه أخرج بسنده إلى يحيى بن سلّام قال: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني. قال السيوطي: وهذا أثر لطيف يؤخذ منه: أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحًا.

وهكذا فقد راعى أصحاب هذا المذهب عنصر الزمان، واعتبروا الهجرة المباركة هي الفاصل بين هذين النوعين: المكي والمدني، وترجح هذا المذهب عند العلماء بما أنه جامع مانع حاصر لكل الآيات القرآنية، فإننا لانجد آية من القرآن إلا وهي نازلة إما قبل الهجرة وإما بعدها، وبناء عليه فقد اعتبر العلماء بعض الآيات القرآنية مدنية وإن كانت نازلة في مكة أو جوارها، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] فإنها مدنية بهذا الاعتبار وإن كانت نازلة في جوف مكة عند الكعبة، غير أن ذلك كان بعد الهجرة يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، وكذلك قول الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] نزلت بعرفة يوم حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة، وأرض عرفة أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، ومع ذلك فهذه آية مدنية حسب زمان نزولها، ومن أمثال ذلك أيضًا صدر سورة الأنفال حيث نزلت ببدر، وكذلك كل ما نزل بأسفاره ﷺ.

ومن هذا كله يتقرر أن المذهب الراجح عند أهل العلم في تقسيم القرآن إلى مكي ومدني هو النظر إلى زمان نزول الآية، فيعرف المكي بأنه هو ما نزل قبل

الهجرة. والمدني بأنه ما نزل بعد الهجرة وإن نزل في مكة أو ما ألحق بها.

فائدة:

إن كانت هناك آيات مدنية نزلت في مكة - كما سبق ذكره - فاعلم أنه لا توجد آية تعتبر مكية وكانت نازلة في المدينة؛ وذلك لأن النبي ﷺ لم يخرج من مكة قبل الهجرة حيث لا جهاد يخرج له ولم يسافر ﷺ إلى المدينة أو غيرها، حتى هاجر فكان السفر والخروج للجهاد والعمرة والحج وغير ذلك.

انظر ذلك فى: (مناهل العرفان ١/١٨١-١٨٣) (الإتقان ١/٢٦-٢٧، ٥٢-٥٤).

المبحث الثاني: معنى التحقيق والدراسة والحاشية

أولاً: التحقيق: لفظ التحقيق مصدر «حقّق يحقّق» وهو مأخوذ من الحق وهو لغة نقيض الباطل، وجمعه حقوق وحقاق، يقال: حقّق قوله وظنّه تحقيقا أي صدّقه، والمحقَّق من الكلام: الرصين، وتقول: حققت الأمر أي تحققته وتيقنته، وحقق الأمر تحقيقا أي صدّقه[١].

وقال الإمام الجرجاني: التحقيق إثبات المسألة بدليلها[٢].

وقال القنوجي: فإذا تصفحنا عن المذاهب المختلفة المتقاربة فى الدلائل بالتعمق فى مآخذها والتأمل فى كيفيات أخذها ودرك أغراض مدونيها ودرجات فهومهم عرفنا منشأ الاختلاف وموضع الالتباس وموطن الحكاية والتمييز بين المتيقن والمظنون بتوفيق الله سبحانه وعنايته[٣].

وأما تحقيق المخطوطات فهو إخراج تلك الكتب المخطوطة بالشكل الذي يسعى إليه مؤلفها، وإخراجها على الهيئة التي يرتضيها لو كان هو حيًّا شاهدًا طباعتها؛ وذلك بتقديم نص الكتاب مقروءًا مشكولاً عند الحاجة موثقًا وإثبات صحة النص وصحة عنوانه ونسبته لمؤلفه بدليل علمي، والسهر على النص لتثبيت ما فيه من كلام وشواهد وأعلام مع العناية بضبط الكلمات التي تحتمل أكثر من وجه فى القراءة، فهو إذًا عملية إحياء لنص قديم[٤].

---

(١) انظر: (لسان العرب ١٠/٤٩ مادة حقق) (القاموس المحيط ٢/١١٦٢).

(٢) (التعريفات ٥٣).

(٣) انظر: (أبجد العلوم ١/٣٩٩).

(٤) (المنهاج فى تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات ١٧٢).

والعلاقة أو المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة «التحقيق» هي أن يكون الكتاب المخطوط أو المسألة المعينة كأنها أخرجت على هيئة مرضية يظهر فيها وجه الحق الذي يستحق التصديق.

وكثر تحقيق المخطوطات فى الدراسات الحديثة التي يكون فيها أساس البحث والدراسة أحد المخطوطات التي لم تنشر بعد، ويتم بجمع نسخ المخطوطة المتوفرة فى المكتبات المختلفة، ثم قراءة تلك المخطوطات ومحاولة التعرف على ما قد يكون منها بخط المؤلف أو كتب بحضرته أو أقرب زمن إليه فيجعل أصلا للكتاب، ثم إجراء عملية تصحيح واستكمال للمخطوط الرئيسي بمعاونة النسخ الأخرى، وإذا عجزت جميع النسخ عن التصحيح والاستكمال يعتمد الباحث على قدراته المتعددة فى ذلك بتتبع الكتب التي قد تنقل عن نفس المؤلف أو الكتب التي نقل المؤلف عنها، ثم يقدم بين يدي البحث بتعريف بالمؤلف وتعريف بالكتاب المخطوط وأهميته[١].

الدراسة:

أصل الدراسة: الرياضة والتعهد للشيء، ودرس الكتاب يدرسه درسًا ودراسة أي ذلّله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه، فهو من التعهد كأنه عاهده حتى انقاد لحفظه، ودرس الكتاب أي قرأه، ويقال: تدارسوا القرآن أي اقرأوه وتعهدوه لئلا تنسوه[٢].

والمراد بدراسة المخطوط: تقديم المحقق أو الباحث دراسة بين يدي المخطوط يتعرض فيها لعدة أمور، أهمها:

- الترجمة للمصنف ببيان اسمه ونسبه وكنيته ومولده ووفاته وعصره وبيان جهوده العلمية تعلما وتأليفا وتدريسًا.

- التعريف بالمخطوط نفسه تعريفًا علميًا مقرونًا بالتحقيق الذي يؤدي إلى إثبات صحة نسبته إلى مؤلفه، وإثبات عنوانه، والتعريف بالنسخ المخطوطة التي

---

(١) (كيف تكتب بحثًا ورسالة ١٨٩-١٩٣، د. أحمد شلبي) (المنهاج فى تأليف البحوث ١٧٥-١٧٧) (مناهج البحث العلمي فى الإسلام ٢٣٣، د. غازي حسين عناية).

(٢) انظر: (لسان العرب ٦/٧٩-٨٠ مادة درس) (القاموس المحيط ١/٧٤٨ مادة درس).

عول عليها، وبعض نماذج من تلك النسخ[١].

- تبيين موضوع الكتاب وأهميته ومن سبق المؤلفَ إليه ومن تبعه بعده أو علق عليه.

- تقويم عمل المؤلف فى الكتاب، وبيان منهجه فيه، وتوضيح قيمته العلمية[٢].

الحاشية لغة مأخوذ من الحشو، وهو ملء الوسادة وغيرها بشيء، واسم ذلك الشيء أيضًا الحشو، وحاشية كل شيء جانبه وطرفه، وحاشيتا الثوب جانباه اللذان لا هدب فيهما، وحاشية السراب كل ناحية منه[٣].

والمراد بالحاشية عند العلماء هي تلك التعليقات والشروح التي يلحقونها بالكتاب الذي يهتمون بتدريسه وتعليمه للطلاب، فإذا رأى العالم فى نص الكتاب الذي يهتم بتعليمه أو شرحه غموضا لاختلاف البدهيات على حسب الأزمان والثقافات فإنه يشرح ما يراه محتاجا إلى الشرح، وقد يعلق على ما يخالف الصواب والحق فى رأيه، ويدخل فى ذلك شرح بعض الألفاظ النادرة الغامضة والمصطلحات العلمية والتعريف بالأعلام غير المشتهرة ونسبة الأقوال والأشعار إلى قائليها[٤].

وقال فى كشف الظنون: الحاشية عبارة عن أطراف الكتاب ثم صار عبارة عما يكتب فيها، وما يجرد منها بالقول فيدون تدوينًا مستقلاً معلقًا، ويقال لها: تعليقة أيضًا[٥].

قلت: والعلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة «الحاشية» هي أن تكون تلك التعليقات والشروح بمثابة الحشو أو الملء الذي يشمل جوانب المعاني لمتون الكتاب فكأن الكتاب محشوّ ومملوء بتلك التعليقات والشروح التي

---

(١) (تحقيق النصوص ونشرها ٨٤، للأستاذ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، السادسة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) (كيف تكتب بحثًا أو رسالة ١٩٣).

(٢) (المنهاج فى تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات ١٨٤).

(٣) انظر: (القاموس المحيط ١٦٧٢/٢ مادة حشو) (لسان العرب ١٤/١٨٠-١٨١ مادة حشو).

(٤) انظر: (المنهاج فى تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات ١٧٨، للدكتور محمد التونجي، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الثانية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

(٥) (كشف الظنون ٦٢٣/١).

تحيط بأطرافه ونواحيه... وهذا نوعٌ، وآخر يكون ببعض منه سواء من قريب أو بعيد.. والله أعلم.

وتعليقنا هنا - يعد من ذلك النوع الثاني الذي يعتبر شرحًا وتعليقًا، وقد حرصت فيه على توضيح ما رأيته مشكلاً من كلام المصنف، وتأييده بما يناسبه من أقوال العلماء، ولم أدع أثرًا ولا حديثًا إلا خرجته عن قائله، عدا الغريب المورد بالمعنى النصي أو الباطن الكشفي.

وكان الغرض من التعليق تحليل خفاياه وتذليل مطاياه؛ واعلم أني ضممت إلى ذلك نفائس تستجاد وتستطاب مما لخصته من كتب الأئمة الحافلة، وإن لم يقصد فيها الإطناب.

هذا المدخل بداية لتعريف العلم الخاص به هذا الكتاب التراثي الفخيم، ثم إليك إطلالة على التراث الأندلسي والصوفي خاصة.

المبحث الثالث: التراث الأندلسي

يقول الباحث الصديق، الدكتور أحمد شفيق: عرفت السنوات الأخيرة «طفرة» في الدراسات الخاصة بالتاريخ الديني للأندلس؛ وذلك راجع للأهمية التي توليها المصادر والمراجع الإسبانية المعاصرة للنصوص الدينية باعتبارها مصادر تزود الباحث بوثائق ومعلومات دفينة، وتفتح أمامه آفاقًا رحبة؛ لدراسة وتحليل مجتمع يمثل العنصر الديني بكافة أشكاله، عاملاً هامًا وحاسمًا، ليس فقط من وجهة نظر أيديولوجية أو سياسية، وإنما باعتباره عاملاً منظمًا للزمان، ولإيقاعات الحياة الاجتماعية والعائلية والفردية، وكان أول من ألقى الضوء على أهمية هذا العنصر المنجز في الحياة الأندلسية، الباحث الكبير ميجيل آسين بلاثيوس، ولا سيما بحوثه عن ابن مسرة الجبلي، ونشره بالعربية مع ترجمة إسبانية وفرنسية لكتاب: «محاسن المجالس» للصوفي المريّ، ابن العريف، والتركيز على أعمال ابن عربي الشيخ الأكبر، دارت كل هذه الدراسات حول التصوف الأندلسي دورًا حاسمًا في لفت الأنظار بأهمية التاريخ الديني للأندلس، على الرغم من عدم اتفاقنا معه في نواحي كثيرة من تلك الدراسات، ولا سيما الخاصة بإضفاء طابع وصفي مسيحي على كل ما يتعلق بالتصوف الإسلامي، وبالأخص حول نشأته وأصوله وتعريفاته ومصطلحاته، قادحًا بذلك صفحة من أهم صفحات التاريخ الإسلامي، والتي سعت

من خلال التصوف خلق علم وأسلوب وفكر حياة جديد في كتاب البشرية.

وإذا انتقلنا إلى نهاية السبعينات، نجد دفعة أخرى تحت تأثير «المقاربة السوسيولوجية» التي تبناها الباحث الفرنسي دومينيك أورفوا، ووظفها لدراسة معطيات كتب التراجم الأندلسية، وما تزال هذه الطريقة تزهر البحث التاريخي بالأندلس، من خلال مشروع مبحث وتراجم أسماء الأعلام في الأندلس، الذي يشرف عليه مجموعة من الأساتذة البارزين أمثال: مربيل فيدو، ومانولامريد، وماريا لويسا أبيلا، ولويس مولينا وآخرين، وفى العشرين سنة الأخيرة برزت بحوث ماريا فورسباسن، ودومنيك واورفوا، وميكيل دى إيبالزا، حول الجدل المسيحي الإسلامي بالأندلس.

أما الدراسات حول التصوف بالأندلس فهي كثيرة، ويمكن أخذ فكرة عن بيلوغرافيتها من خلال العددين ١٢-١٣ من مجلة «القنطرة».

وأمام استحالة إثبات بيلوغرافية شاملة لهذا الإنتاج الإسباني الضخم حول التاريخ الديني للأندلس، يمكن أخذ فكرة دقيقة عنه الرجوع إلى المراجع المثبتة في دراسة ماربيل فييرو، في الفصل المتعلق بالدين في الجزئين: السابع والثامن من كتاب:

Los reinos de Taifas, Al-Andalus en el siglo XI. Historia de Espana. Men'endez Pidal, VIII, Coord., Maria Jeus Viguera Molins, Madrid, 1994, pp. 399-496

El retroceso territorial de al-Andalus:Almor'avides y Almohades (siglo XI al XIII), coord, Maria Jeus Viguera Molins, Madrid, 1997, pp. 437/546.

بالنسبة للدراسات الأكاديمية المتعلقة بالحالة الدينية بالأندلس، وبجانب ذلك بدأت تظهر مجموعة من الكتب المتعلقة بالتصوف يكتبها المتصوفون الأسبان المعاصرين، ولا سيما شيخ الطريقة الشاذلية الحالي بها «سعيد بن عجيبة الأندلسي الشاذلي»، فمعظم كتاباتها ترتكز على تجاربه الروحية، أو المنهج الذي يتبعه فكر مريديه، ومن أهم كتبه: *A la busqueda del manantial,* Madrid, 2002 وترجمته (بحثًا عن المنبع- طبعة مدريد).

ومن المؤكد في الوقت الحاضر أن التصوف كان من أبرز عناصر المقومات الدينية داخل مجتمعات الغرب الإسلامي، وأحد أهم عواملها الدينية والروحية

والثقافية والاجتماعية، بل وحتى السياسية والاقتصادية، فهو يعكس أحد أهم عناصر التراث الإسلامي، التي كان لها تأثير عميق في مجرى الحياة اليومية لمغاربة العصر الوسيط.

كانت بدايات التصوف الأندلسي متواضعة، وكانت تتمثل في الممارسات الزهدية، التي كان يطبقها بعض الزهاد، كما تخبرنا بذلك مختلف كتب التراجم الأندلسية، فإن التصوف سرعان ما اكتسح النسيج الأندلسي وأصبح قوة اجتماعية وسياسية فاعلة، وخصوصًا في القرن السادس الهجري/الثامن عشر الميلادي، ولمعرفة هذا الواقع والعوامل المتحكمة فيه، اتجهت أنظار الباحثين في السنوات الأخيرة للبحث عن المادة المصدرية الدفينة، من خلال تحقيق النصوص التراثية التي كانت مجهولة وقابعة فوق رفوف الخزانات العامة والخاصة، ولا تصل إليها يد الباحثين المتلهفين عليها، ولا يجدون سبيلاً للوصول إليها...

ومن هنا كانت أهمية الدراسة التي بين أيدينا؛ ألا وهي تحقيق كتاب «تنبيه الأفهام..» لابن برجان.

قد أُرجأت شخصية ابن برجان الصوفي في القرن الثاني عشر الميلادي إلى المرتبة الثانية، وعلى ظلال شخصية ابن العريف، والتي اختفت منذ زمن مبكر بجانب أعماله بأبحاث جادة ودقيقة؛ وذلك إذا أخذنا في الاعتبار البيلوغرافيا المذكورة عنه.

ومن هنا كان السبب الذي جعل ابن برجان يذكر بصورة هامشية دون تخصيص دراسة وافية ومستفيضة عن أعماله، بهدف رسم صوره توضيحية تشير إلى أفكاره ومذهبه الصوفي، وتوضح علاقته بمتصوفي عصره، وميوله السياسية.

فكل ما ذكره الباحثون عنه؛ هو ارتباطه العابر بالثورة التي عرفت باسم ثورة المريدين، وموته في مراكش؛ حاضرة الدولة المرابطية في ذلك الوقت.

على ضوء ما ذكرناه، نرى أنه من المهم أن نخص بهذه الدراسة للتعريف به، والتعريف بواحدة من أهم أعماله ذات الشيوع الكبير، ولا سيما في بلاد المشرق الإسلامي.

المبحث الرابع

أولاً: ترجمة الشيخ المفسر

هو الشيخ المكاشف المحقق المستغرق العارف بالله سيدي عبد السلام ابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي الإشبيلي، المشهور بين الأعيان بـ«ابن برجان» ويكنى أبا الحكم، وأبا الرجال؛ هو الداخل إلى الأندلس في إمارة المعتضد عباد ابن محمد.

تورّع وتزهّد وتنسّك وتعبّد وتقمّص بالصوف، وترك لبس الشفوف، وسلك طريق النجاة، وقص جناح ذوي الجناح.

قال ابن الأبار: كان عارفًا بالقرآن والحديث والكلام والتحقيق والتصوف، وبه اشتهر مع الزهد والورع والاجتهاد في العبادة.

لا يُعرف تاريخ ميلاده على وجه التحديد، ولكن على وجه التقريب ربما قد ولد فيما بين (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) أو (٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م) في حالة بلوغه ستة وستون عامًا، أو ثمانية وستون عامًا.

درس اللغة العربية والأدب والتفسير القرآني، وبلغ شأناً عظيمًا في فروع المعرفة المختلفة مثل: علم الحساب، والهندسة، والفلك؛ فضلاً عن ذلك كان متميزًا في علم الكلام، وكان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم التصوف، سمع من أبي عبد الله بن منظور «صحيح البخاري» وحدث به عنه، وسمع أيضًا من غيره طبقًا لابن الزبير[١] عند وصفه لمحتوى مضمون كتابه «الإرشاد»، يشير أنه من المحتمل دراسته «لصحيح مسلم»، وعلى الرغم من ذلك لا تثبت المصادر شيئًا من هذا القبيل، حيث أن هذا العمل يتناول البحث عن الأصل القرآني لأحاديثه؛ وفضلاً عن ذلك كله كان يوصف بالزهد والاجتهاد في العبادة.

لا تشير المصادر التي لدينا بأنه قام بالحج إلى مكة، إذا أخذنا في الاعتبار تدهور الحالة الأمنية وتقطع السبل؛ بسبب فتنة ابن تومرت والموحدين؛ علاوة على خطورة الطرق البحرية؛ لتعرض سفن المسلمين لغارات قراصنة النصارى، ولم تكن الطرق البرية بأفضل من البحرية؛ فضلاً على أن الطرق إلى الديار المقدسة بالمشرق

---

(١) انظر: صلة الصلة (ص٣٢).

كانت غير آمنة للاضطرابات التي كانت تسود المشرق، لأدركنا المصاعب والمخاطر التي كانت تواجه المسلمين في رحلتهم البحرية أو البرية، ومع ذلك كان ابن برجان على علاقة بأهل العلم الذين جازفوا بالرحلة؛ لأداء هذه الفريضة المقدسة، ورغبة في لقاء العلماء [١].

من المؤكد أن ابن برجان لم يقتصر نشاطه العلمي على مدينة أشبيلية [٢] إذا أخذنا في الاعتبار تمكنه المتميز في كافة علوم المعرفة ودراسته المتعددة، والذي بلا شك حمله إلى السفر إلى مدن عديدة بالأندلس، ولا سيما إلى مدينة قرطبة؛ لتلقي دروسه في علم الكلام، حيث كانت هذه البلدة من أهم مراكز دراستها [٣] علاوة على ذلك، يدفعنا ذاك إلى التفكير بأنه كان يتنقل بين المدن الأندلسية، ولما توجه إلى حضره مراكش رحل من قرطبة [٤].

وبالنسبة لطريقته في التصوف، فهو يعد من أهم رجال عصره في هذا المذهب، يخبرنا ابن الزبير بأنها قريبة نوعًا ما من الباطنية، ولكن على الرغم من ذلك لم يترك قط طريق القرآن والسنة؛ اقتداء بالصحابة وكبار العلماء [٥].

تطلق عليه المصادر لقب: زاهد وصوفي «ابن الآبار» هو المرجع الوحيد الذي يشير إلى ابن برجان بلقب الزاهد [٦] بينما باقي أصحاب التراجم يصفونه بالصوفي [٧] أو شيخ الصوفية [٨] مع التركيز على بعض الوجوه في ممارسته الصوفية: ميله إلى

---

(١) انظر ابن العريف «مفتاح السعادة» و«تحقيق طريق السعادة» تحقيق عصمت دندش، بيروت ١٩٩٩، انظر «رسالة لابن العريف إلى ابن المنذر» رقم ٢ ص ٩٩.

(٢) انظر ابن العريف «مفتاح السعادة» في الرسالة رقم (٢٠)، الموجهة للحسن بن غالب، يتحدث ابن العريف عن شخص يسمى: عبد الواحد بن محفوظ، ذهب لاستيطان أشبيلة بجانب الشيخ أبو الحكم بن برجان ص ١٤٧.

(3) Urvoy, D., *El mundo de los ulemas andaluces,* Madrid, 1983, p, 55.

(٤) «التشوف» في ترجمة أبي الحسن بن حرزهم رقم ٥١ ص ١٧٠.

(٥) ابن الزبير«صلة الصلة» ص ٣٢.

(٦) ابن الآبار«التكملة» رقم ١٧٩٨.

(٧) من بين من وصفه بهذا اللقب الصفدي في الوفيات؛ والكتبي «فوات الوفيات» وابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان».

(٨) انظر: الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وابن العماد في «شذرات الذهب».

العزلة، وتفضيله للخلوة، فكان يلتف حوله مريدوه المقربون، فأخذ عنه الكثير من طلبة العلم ورووا عنه، واختص البعض منهم بصحبته، ونختار من هؤلاء النفر:

- أبو بكر محمد بن أبي بكر بن أبي الخليل التميمي، والمعروف بـ«ابن ولَّم» الذي توفى سنة (٥٥٧هـ/١١٦٢م) ولد في «المرية» حيث صاحب أيضًا ابن العريف ومال إلى طريقته، وبعد ذلك رحل إلى «أشبيلية» ليكمل دراسته على يد ابن برجان[١].

- أبو محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني - من أصحاب ابن العريف أيضًا - كان يقال عنه أنه صاحب كرامات، وأنه مستجاب الدعوة، وكان يعيش حياة زاهدة، ولم يشارك في الفتنة التي أثارها المتصوفة والفقهاء، ورحل إلى المشرق في عام ٥٤٠هـ، حيث مات هناك، ولكن نجهل تاريخ وفاته [٢].

- أبو محمد عبد الله (ابن عبد) الواحد بن محفوظ، كان أيضًا من أصحاب ابن العريف، نعرف عنه القليل، من خلال رسالة موجهة من ابن العريف إلى تلميذه الحسن بن غالب، حيث تؤكد رغبة ابن محفوظ لاستيطان أشبيلية بجانب الشيخ، ورغبة في السفر للحج[٣].

من بين تلامذته أيضًا:

- أبو القاسم القنطري.
- وأبو محمد عبد الحق الأشبيلي.
- وأبو عبد الله بن خليل.
- وأبو محمد.
- والمالقى (انظر ابن الزبير، ص٣١-٣٣).

ولكن أهم تلامذة ابن برجان؛ هو ابن العريف الصوفي المري (المتوفى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م) أخطأت الدراسات الأولى في التأكيد على أن هذا الأخير هو معلم الصوفي الأشبيلي، وعلى الأخص ما كتبه المستشرق الأسباني آسين بالأسيوس،

(١) ابن الآبار: الجزء الثاني رقم ١٣٦٦.

(٢) ابن الزبير «الصلة» الجزء الرابع رقم ٥٠ ص ٣٨.

(٣) ابن العريف «مفتاح السعادة» ص ١٤٧.

ومن تبعه[١] فعلى ضوء «رسائل ابن العريف» نلاحظ أن الأمور تخالف هذا الرأي؛ فكل شيء في هذه الوثائق يشير بأن الشيخ والمعلم؛ هو ابن برجان، وأن ابن العريف يعد نفسه تلميذًا له، فالصوفي المري يدعوه: «شيخي وكبيري» أو «إمامي وكبيري» ويؤكد له في ذات الوقت شكوكه، وتجده في طريق العلم والمعرفة: «شكايتي التي شكوتها إلى الشيخ الإمام قديمًا بحالها» وأبلغ من هذا هو شوق ابن العريف إلى قراءة رسائل ابن برجان، فهو يكتب إليه: «كان من همي أن يصل كتاب الشيخ واحدي نظرًا، ومتقدمي تسليمًا ومعتبرًا» وأخيرًا نقرأ هذا الدعاء الذي يوجهه ابن العريف إلى شيخ أشبيلية: «وأنت يا إمامها بحرمة الشيب اذكرني إذا رقدت عند من له رقدت»[٢].

ويتضح من هذه الرسائل، أن ابن برجان قد ادعى الإمامة، وإذا دعاه ابن العريف شيخه وإمامه؛ فهذا يدل بوضوح على أن ابن العريف لم يكن إمام المدرسة الصوفية، كما يكتب السيد محمد عفان عندما يؤكد:

«وظهرت في الأندلس في العصر المرابطي حركه دينية خاصة، اتخذت طابع التصوف؛ وهي التي أسفرت عن قيام طائفة المريدين في غرب الأندلس، وكان إمام هذه المدرسة العلامة الصوفي أبو العباس الصنهاجي، المعروف بـ«ابن العريف» وهو من أهل «المرية» وبها ولد سنة ٤٨١هـ (١٠٨٩م)» [٣].

ومن المؤكد أن أول متمرد هو أبو الحكم ابن برجان؛ إذ يقال: «إن البلاد قد خطبت لابن برجان في نحو مائة بلد وثلاثين» [٤]على كلٍ فقد جلب أنظار السلطة المرابطية، وأرسل السلطان علي بن يوسف بن تشفين يستدعيه إلى «مراكش» في نحو ١١٤١/٥٣٦، ونعلم ما جرى عند حضوره لمراكش من خلال ترجمة سيدي علي بن حرزهم، كما جاء ذلك في كتاب «التشوف» ما نصه:

ولما أشخصه أبو الحكم بن برجان من «قرطبة» إلى حضرة «مراكش» سئل عن

---

(1) Asin Palacios, M., Tres estudios sobre pensamiento y mistica hispanomusulmanes, Madrid, 1922, p. 223.

(٢) ابن العريف «مفتاح السعادة» انظر: رسائله لشيخه أبي الحكم ابن برجان ص ١٠٦-١١٠.

(٣) انظر: عصر المرابطة والموحدين في المغرب والأندلس ١: ٤٦٥ (القاهرة، ١٩٦٤).

(٤) «الطبقات الكبرى» للشعراني ١: ١٥.

مسائل عيبت عليه فأخرجها على ما تحتمله من التأويل فانفصل عن أكثر من النقد، وقال أبو الحَكم:

والله لا عـــــشق ولا عاشـــــق الـــذي أشـــخص بعـــد موتـــي

يعني: السلطان، فمات أبو الحكم فأمر السلطان أن يطرح على المزبلة ولا يصلح عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء، فدخل على أن حرزهم رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخذ أبو الحسن بما أقر به السلطان في شأن أبي الحكم، فقال له أبو الحسن: إن كنت تبيع نفسك من الله، فافعل ما أقول لك، فقال له: أمرني بما شئت أفعله، فقال له: تنادي في أسواق مراكش وطرقها: يقول لكم ابن حرزهم: أحضروا حياة الشيخ الفاضل الفقير الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله؛ ففعل ما أمره به، فبلغ ذلك السلطان، فقال: من عرف فضله ولم يحضر جنازته، فعليه لعنة الله [1].

وقال أيضًا عبد الملك في «ذيل تاريخ ابن شكوال»: سعى عليه سعاية باطلة عند على بن يوسف بن تاشفين، فأحضره إلى مراكش، فلما وصل إليها قال له: لا أعيش إلا قليلاً ولا يعيش الذي أحضرني بعدي إلا قليلاً فعقد مجلس مناظرة وأوردوا عليه المسائل التي أنكروها فأجاب، وخرّجها مخارج محتملة مقبولة فلم يقنعوا منه بذلك؛ لأنهم لم يفهموا مقاصده، وقرروا عند السلطان أنه مبتدع، فحبسه فمرض بعد أيام قليلة، ومات في الحبس سنة ٥٣٦ هـ.

ومات على بن يوسف بعده في رجب سنة ٥٣٧ هـ ولما قيل له أنه مات، أمر أن يطرح على مزبلة بغير صلاة عليه، وألّا يدفن بحسب ما قرره معه من طعن عليه من المتفيقهة؛ فاتفق أن بعض أهل الفضل لما بلغه وفاته أرسل عبدًا أسود نادى في جهارًا في الأسواق: احضروا جنازة فلان؛ فامتلأت الرحاب من الناس وضاقت البلد عنهم؛ فغسلوه وصلوا عليه ودفنوه، ولم يستطع السلطان وأعوانه ومتفقهته أن يفعلوا شيئًا.

وقد دُفن في شهر محرم ٥٣٦هـ/أغسطس ١١٤١م وقبره الشريف مشهور في «مراكش» ويعرف بسيدي برّجان، ويقع ضريحه في رحابة الحنطة القديمة [2].

---

(١) «التشوف» ص ١٦٩.

(٢) العباس بن إبراهيم «الإعلام» الجزء الثامن ص ٥٦.

مصنفاته:

لقد عاش ابن برجان في أيام دولة المرابطين وهي الدولة التي بوأت الفقهاء مكانة عليا وأحرقت كتب أبي حامد الغزالي وعرفت في نهايتها ثورة المريدين يتزعمهم ابن قسي في الأندلس – صاحب خلع النعلين – بتحقيقنا، لكن يصعب أن تجد حلقة وصل بين أقطاب التصوف في تلك الفترة خاصة بين ابن برجان وابن العريف وابن قسي، وقد حقق الباحثون الرسائل التي تبادلها هؤلاء الأقطاب وكشفوا لنا خلالها خلالها أن ابن برجان يمثل الاتجاه الوسط بينما يميل ابن العريف إلى المهادنة وينحو ابن قسي إلى الثورة وهو الذي تزعمها فيما بعد هذا وقد وصف ابن العريف الإمام ابن برجان في رسائله بـ«الشيخ الفاضل الإمام» و«الامام أبي الحكم شيخي وكبيري».

وإذا كان بعض الباحثين قد أشار إلى الجفوة الحاصلة بين ابن العريف وابن برجان، فإن الدكتور عبد السلام الغرميني استشف من الرسائل التي وجهها ابن العريف لابن برجان أن أبا الحكم أرفع مكانة حتى وصف بأنه «غزالي الأندلس» ومن المدرسة البرجانية انبثقت المدرسة العريفية.

وقد ذكر لنا أصحاب تراجم ابن برجان أسماء تآليفه، وأكثر كلامه فيها على طريقة أرباب الأحوال والمقامات:

– «**شرح أسماء الله الحسنى**» وفى هذا العمل يعرض لأكثر من ١٣٢ اسم، وكل واحد منهم يظهر مرتبًا على ثلاثة أقسام؛ **أولهما**: دراسة عن أصل الاسم المعني ومدلولاته المختلفة، **وثانيهما**: تسمى اعتباره، والذي يشير لظهورها في الاستشهادات القرآنية واستخدامها في الأحاديث، وفى **المقام الثالث**: التعبد؛ وفيها يحاول المؤلف توضيح لهؤلاء الذين يريدون التقرب إلى الله كيف تجتاحهم سلطة أسمائه، وأن يستطيع المريد أن يكتسب الاسم المشار إليه.

ويُشير حاجى خليفة [١] بأن عمل ابن برجان هذا؛ يعد من أكبر التواليف التي كتبت عن هذا الموضوع، وبأنها تحتوى على أكثر من مائة وثلاثين اسمًا إلهيًا.

وقد امتنَّ الله تعالى على الفقير بأن حققه في مجلدين؛ فخرج لعالم الطباعة

(١) كشف الظنون، الجزء الرابع ص ٢٢.

بدار الكتب العلمية – بيروت.

- كتاب: «**عين اليقين**» ذكره ابن خلدون في كتاب «الشفاء»[1] لم يصل إلينا.

والخاصية المميزة لمؤلفات ابن برجان؛ هي اتساع حجمها؛ فتعليقاته وتفسيراته تقع عادة في مجلدين طبقًا لما ثبت عند أصحاب التراجم؛ فكحالة (٤/ ٢٢٦) وحاجي خليفة (١/٢٥٧) يؤكدان أن كتاب التفسير قد كتب في عدة أجزاء، حتى عند كتاب شرح الأسماء الحسنى، يقول البغدادي: قد كتب في جزأين.

ثانيًا: تفسيره هذا وتفاسيره الأخرى

- تفسير: «**تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم**» كتابنا هذا.

هو من أهم المؤلفات التي تركها لنا هذا العالم ويعتبر تفسير ابن برجان من أهم التفاسير التي أنتجها الغرب الإسلامي، ومؤلفه شغل الساحة الفكرية والسياسية مدة طويلة، ورغم الأهمية العلمية والتاريخية لهذا التفسير.

وجديرٌ بالذكر أن نُورد قصة خاصة بهذا التفسير وهي أن محيي الدين المعروف بابن زكي الدين الدمشقي الفقيه الشافعي، القاضي بدمشق سنة ٥٨٨ هـ كانت له عند السلطان صلاح الدين، المنزلة العالية، والمكانة المكينة، فلما فتح السلطان المذكور مدينة حلب، يوم السبت ثامن عشر صفر، سنة ٥٧٩ هـ أنشده القاضي محيي الدين قصيدة بائية، أجاد فيها كل الإجادة، وكان من جملتها بيت هو متداول بين الناس، وهو:

وفتحك القعلة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال، فإن القدس فتحت لثلاث بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقيل لمحيي الدين: من أين لك هذا؟ فقال: أخذته من «تفسير ابن برجان» في قوله تعالى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ ولما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة؛ فإنه ذكر له حسابًا طويلاً وطريقًا في

---

(1) R. Perez, La voie et la loi ou le maitre el le juriste, p. 253.

استخراج ذلك حتى حرره من قوله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

منهج الإمام ابن برجان في تفسيره هذا:

-قال بعض أصحاب التراجم: يكرس تفسيره لشرح الآيات الغريبة من خلال منهج جديد، وأسلوبه في هذا الكتاب غامض جدًّا، ولا يستطيع أن يفهم مغزاه إلا من كان على دراية بأسلوب كتابته[1].

هذا وقد بدأ الإمام ابن برجان تفسيره بذكر البسملة، فاسم السورة ثم يشير إلى أنها مكية أو مدنية وعدد المنسوخ فيها، ثم بعد يبدأ بتفسيرها، ففي سورة مريم مثلاً نجد البداية كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، سورة مريم فيها من المنسوخ أربع آيات» ثم يبدأ بتفسير الآيات في السورة مقسمًا إياها إلى جمل يقدم معناها دون استطراد، ففي سورة الإسراء، قال: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ثم شرع يفسر التسبيح وبعده فسر قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ لينتقل إلى ما بعده ﴿لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وفي كل يقدم المعني الدقيقة بدون نزوع نحو إيراد القراءات واوجه اللغة وأسباب النزول فهو وإن كان يعتمدها إلا أنه لا يتوسع في إيرادها كثيرًا، كما أن تفسيره هذا خال من الحشو حتى الأحاديث؛ فإنه غالبًا يشير إلى معناها، كما في حديث الإسراء مثلاً.

- الاهتمام بتفسير القرآن بالقرآن:

يهتم ابن برجان بتفسير القرآن بالقرآن اهتمامًا واضحًا فقد يأتي ليؤيد بها معنى محتمل من آية أخرى حيث قال في سورة الإسراء بعد الحديث هل كان الإسراء بعبده أم بروحه قال: «فصل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى* عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى*عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى*إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى* لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٣-١٨] فأخبر نصًا غير محتمل أنها كانت منه رؤية بصر.

وأحيانًا يقارن معاني الآيات ليقدم المعني الأوضح على الواضح قال: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: ١٨] ففي هذه الآية والتي في سورة

(١) ابن الزبير «الصلة» ص٣١، الشعراني «الطبقات الكبرى» الجزء الأول ص ١٥.

الشورى سواء ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] غير أن التي في هذه السورة أجلى وأبين، وجاءت آية سورة هود وفيه بعض الإشكال قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] وهي أخبار لا يجوز عليها النسخ، والتوفية في هذه الآية والله أعلم بما ينزل هو: أن يطعم بعمله ويسقى فيحس عليه الفوافي، ونعم السمع والبصر والحواس فتكون ذلك توفية لعمله، ويعطيه ربه من الدنيا ما شاء ولربما زاده على مراده ثم يحتسب له من ذلك فيما ذكرناه، دل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣] فانظر كيف سوى بين الآيتين في معنييهما وأشار على ورود الإشكال في الأخرى مبينًا تأويل ذلك كله وقوى تأويله بآية أخرى.

فإن الإمام ابن برجان يكثر من إيراد الأدلة حول المعنى الذي يسوقه في بعض الأحيان حتى تظن أنه يحاول أن يقنع شخصًا آخر حول مدلول النص القرآني، وفي بعض الأحيان يستعين بفهم الصحابة ويستدل له بآية أخرى كما في تفسيره للرقيم.

قال: «كثر الاختلاف فيه من علماء السلف - رحمة الله عليهم - ما هو، فمن قائل يقول: الرقيم الكهف ومن قائل يقول: الرقيم القرية التي خرجوا منها حتى آووا إلى الكهف، قال ابن عباس: لا أدري أهو كتاب أم بيان وروي عنه انه هو الكتاب، وهذا أولى الوجوه إن شاء الله، والله يقول الحق ويهدي: «اللهم حفظه الكتاب وعلمه التأويل» فالرقيم السبيل، قال رسول الله ﷺ هو المكتوب فيه الأعمال قال الله :﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ*كِتَابٌ مَّرْقُومٌ* يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطفيفين: ١٨-٢١] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٧-٩] سمي: الرقيم لحكمة جل ذكره الثلاثة نفر بذلك الغار الذي ذكره رسول الله ﷺ الذين آووا إليه بأعمالهم المكتوبة لهم فيها هنالك.

فابن برجان في هذه الآية استعان بتفسير الصحابة وتفسير القرآن بالقرآن ليبين دلالة الرقيم ثم بين وجه تسمية الغار به.

- **اعتماد التفسير النبوي وأقوال الصحابة والتابعين:**

يستعين الإمام ابن برجان بالتفسير النبوي للوقوف على مراد الله في كتابه

ويتضح ذلك في عدة مواضع من تفسيره.

ومن مميزاته التي يمتاز بها تدخله لتصحيح الأحاديث واعتبار ذلك في تفسيره.

فابن برجان يستدل بالحديث النبوي ويتبعه أحيانًا بأقوال الصحابة ثم أقوال التابعين، وهو منهج السلف في التفسير، لكن رد الحديث بأنه غير ثابت، مردفًا بان هذا العلم لا يتحصل بطريق الآحاد مخالفًا الجمهور، وربما شعر بعدم اقتناع المحاور فأضاف بأن رجال السند موصوفون بالضعف، لم يقتنع بعد، فأتى باحتمالين اللذين يستفاد من النص القرآني، مستدلا لهما بالقرآن مع أنه رجح القول الثاني متمسكًا بالتخصيص تاركًا العموم.

وقد يوظف ابن برجان ثلاثة علوم لتفسير هذا النص: علم التفسير وعلم الحديث وعلم الأصول، مما يبين قيمة الرجل وعلو كعبه في العلم ويمكن أن نضيف إلى ذلك علم الفقه ؛ وإن كان تفسيره هذا يكاد يكون خاليا من الأحكام الفقهية، ففي حكم داود وسليمان في الحرث قال: «وهذا إن صح الحكم فيه عن رسول الله بسند يقطع العذر فهو الحجة وإنما غير ثابت، ولوكان ذلك كذلك فقد نسخه بقوله الحديث المروي في ذلك عن النبي ﷺ: «من استهلك شيئًا فعليه قيمته» فهذا هو الحكم الحق وهو الذي صحبه العمل، والذي ألهمه سليمان والله أعلم. والشيء الجديد الذي جاء به في هذا النص هو توظيفه لعلم الناسخ والمنسوخ مع مصطلح «صحبة العمل» وهو أصل من أصول مذهب مالك، وهو السائد في الأندلس في وقته.

- **المناسبة بين السور والآيات المناسبة بين السور.**

لم يبين الإمام ابن برجان المناسبة بين جميع السور بل أشار إليها في بعض السور فقط ومن السور التي ذكر مناسبتها لما سبق ففي سورة النحل قال: «أول هذه السورة منظم بالسورة التي تقدمت في أنهما معًا للتذكار والذكر وخص جل هذه أي التذكير بالنعم على أن قال: ولما انقسم الإعلام باسم اليقين في أخذ الحي إلى الموت وإلى ما هو وعد الله بالنصر والتأييد وإظهار الدين وكل ذلك يشمله اسم الأمر قال جل وعز في مفتتح هذه: ﴿**أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ فأنت ترى الإمام ابن برجان يبين المناسبة بين السورتين من حيث موضوعها ومن حيث نهاية هذه

السورة ببداية التي بعدها وقد يقتصر على بيان المناسبة بين بداية ونهاية السورتين فقط كما فعل في سورة الإسراء قال: « وكان هذا إسراءً برسول الله ﷺ انتظم أول هذه السورة بمعنى آخر: «النحل» من ذكر ملة إبراهيم، وذكر أصحاب السبت، وذكر نبوة محمد ﷺ وأمره إياه بأن يدعو إلى سبيل ربه ﷻ ثم تمدح بإسرائه بعبده وإتيانه موسى الكتاب وجعله هدى لبني إسرائيل، ثم قال: ﴿**أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً**﴾ [الإسراء: ٢] فحصر معنى الرسالة كلها إلى ما في قوله: ﴿**أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً**﴾ من معنى التوحيد وخالص التعبد الذي حاله التوكل.

ثم قال: ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**﴾ ذكَّر بمنته القديمة؛ إذ لم يجعلهم من الهالكين بالكفر وعرض باقتضاء الشكر بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾ [الإسراء: ٣]».

فالمصنف لم يكتف ببيان المناسبة بين نهاية وبداية السورتين فأضاف بعض الأغراض التي جاءت سورة الإسراء بها ولم يأتي هذا الكلام إلا بعد أن أتم الغرض الأول الذي جاءت به السورة وهو المدح بالإسراء بالعبد.

المناسبة بين الآيات: إن الإمام ابن برجان في بيانه للمناسبة بين الآيات إما أن يذكر مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها أو يبين مناسبة لآية أخرى بعيدة عنها في الموضع.

- **الاهتمام بالقراءات**: يلاحظ أن ابن برجان يهتم بالقراءات بل إنه من أهل المعرفة بالقراءات كما سبق وذكره ابن الجزري في غاية النهاية في طبقات القراء، وطبيعي أن يوظف هذا الإمام علومه ومعارفه في التفسير خاصة تلك العلوم التي لها علاقة وطيدة بالتفسير والقراءات، فلا غرابة إذًا أن نجد ذكرًا لقراءات الصحابة والتابعين: كابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والشعبي وغيرهم، والقراء السبع وغير السبع، لكن اهتمامه بقراء الصحابة والتابعين أكثر وضوحًا، فإن المتأمل في تفسير ابن برجان يجد أنه يعتمد على قراءة الصحابة والتابعين فلا تجد عنده ذكر للقراء السبع وغيرهم إلا قليلاً.

- **اهتمامه بالمعاني الدقيقة** فهو يشد القارئ في بعض الأحيان إلى معنى ربما يكون هذا المفسر هو الذي سبق إليه وتميز به، فمثلاً في سورة الإسراء عند الحديث عن بركة المسجد الأقصى قال: «ربما سميت تلك الأرض مقدسة لتجلي

المبارك القدوس عز وجل فيها لموسى وتكليمه إياه فيما هنالك، قال عز وجل: ﴿جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] وقال: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] فليس يبعد مع هذا أن يكون الله عزوجل ذكره أبقى بركة تجليه فيما هنالك إلى يوم القيامة».

وفي قصة موسى رد ما أورده المفسرون من سبب عقدة لسان موسى وإرجاعهم ذلك السبب إلى الجمرة قائلاً: والصحيح والله أعلم بما ينزل أنه كان رجلا عبرانيًا في مجاورة القِبط في جحورهم فكان ظاهر لسانه لغة القبط، ثم تغرب إلى أرض مدين وجاور العرب، فتعرب من أجل مدة سنين كان فيها هنالك قال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طه:٤٠] فكانت من أجل ذلك لكنة لسانه، فلم يكن فصيحًا في لسانهم كأخيه هارون.

وفي ثنايا هذا التفسير نجد الاهتمام بالأمثال والعبر فعند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فنجده يفصل في العبرة وأنواع الاعتبار ويستعمل مصطلحات: فصل، تنبيه، إما ليأتي بآية أو حديث يستدل به على ما سبق أو ينبه على فكرة دقيقة؛ وانظر إلى ذلك في سورة الإسراء حيث قال فيه: «فصل: قرن بين ذكر الإسراء بعبده بذكر الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وذكر اتصال الإسراء بالعروج إلى العُلا ولم يصف بالإسراء إلا ما بين رسول الله، المسجدين أراد بذلك والله أعلم لعد الليل في السماوات العلا فوصف بالإسراء ما يسكن فيه الليل والنهار».

وتأمل كيف أول قوله تعالى: «ولا يزالون مختلفين إلا ما رحم ربك ولذلك خلقهم» قال: «مختلفين أي في التوحيد والنبوة فمنهم من كذب بها ومنهم من صدق بعضا إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم أي للرحمة والتوحيد والتصديق».

- ذكر أغراض السورة ومحاورها العامة يقول في سورة الحجر: «الغرض المقصود الأول في هذه السورة والله أعلم الذكر والتذكير فابتدأ بقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:١-٥] فسرد على ذلك: وقال: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ

الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧] ثم نظم بهذا جميع فصول السورة أو جلها «..هكذا يسترسل في بيان المحاور التي جاءت بها السورة فهو يرى أن السورة القرآنية وحدة متكاملة ينطلق بناؤها من المحور العام لذلك قال: الغرض المقصود الأول فعبر بالأول ليقرب هذا المحور إلى المواضيع الأخرى، بل إنه يرى أن القرآن كله وحدة متكاملة، قال بعد حديثه عن السبع المثاني: «فهذا يؤيد ما تقدم ذكره من العبرة والقول بان القرآن كله واحد فرد لم يتفصل بعد على كل شيء» فالقرآن عند ابن برجان إن فصل نستطيع أن نستخرج منه كل شيء، وأعطانا مثال لذلك في فاتحة الكتاب قال بعد كلامه السابق: «عبر عن ذلك قوله في مفتتح أم القرآن وأم الكتاب: الحمد لله فجاء بالحمد الذي هو جامع الثناء والمدائح والذكر أجمعه وأضافه إلى اسمه جل وذكره، والذي جميع الأسماء له شارحة ثم تفصلت عنه الأسماء جميعا كما تفصلت عن الحمد الأذكار كلها أتبع ذلك رب العالمين، فذكر الوجود كله الواقع اسم العالمين، وهو كل مخلوق وكل مذكور وموجود سوى الله فظهر بذلك ما فصله إيجادا كما أظهر بتغاير الأسماء ما فصله عن اسمه الواحد الأحد» فانظر إلى هذه الكليات التي عبر بها هذا المفسر، وكيف يفصلها ويشير إلى ما يندرج تحتها وبهذه الطريقة يفسر القرآن، إلا أنه أودع في تفسيره إشارات وإيماءات واغمض في التعبير عنها في بعض الأحيان؛ وبذلك يستعصي فهمه وإن صرَّح أن حمل اللفظ على ظاهره أولى.

الإشارات والإلهامات الربانية:

يُورد الإمام ابن برجان في بعض الأحيان إشارات فلا يكاد يعرف مراده كما في قوله تعالى: أليس قد ﴿أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] يقول: فأوجدناه من عدم وصورناه على غير مثال، فكيف تنكرون إعادته بعد هذا؟.

ثم جعل يخبر بصدق قيله عن خلقته بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جمع مشج كخلط وأخلاط ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: لنبتليه هذا إخبار منه عن خلقه آدم عليه السلام ثم عن خلقه بنيه من بعده بالتبعية، يقول: مشج الأمشاج بحكمته وأثار الكون إلى الصورة والتخطيط والتقدير، وإصارة الأمشاج إلى مقصود الخلقة من العدم من حيث العبد، والأمشاج هنا: هي ممزوج الفيحين مع الفتح مع المقصود

بالمشيئة إلى معاني اليمين أم إلى معاني الشمال، جمع ذلك كله صنع الصانع وخلق الخالق، وهذا المعني بقوله الحق: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ ثم قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢] لما كان في ممتزج الأمشاج مقتضيات الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وكان هو مما في أمشاج ذلك جعله سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا مريدًا، ثم إلى أنهى الأسماء والصفات، وكان أيضًا جاهلاً، أعمى، أصم، عاتيًا، قاسيًا، ثم ابتلاه بالأمر والنهي في المأمور والمنهي، وكان معنى الكفر والإيمان وجميع المأمور به والمنهي عنه في أمشاج ما خلقه منه، كما أنه لما مشج بأمشاج أبيه وأمشاج أمه أشبههما، وكان أقرب شبهًا بمن غلب عليه منهما، كذلك أشبه ما يكون عنه من فيح أو فتح، وإلى أيهما مالت به المشيئة العالية كان أقرب شبهًا، ثم إليه الأمر من قبل ومن بعد في تغليب مشيئته بالهداية أو الإضلال؛ لذلك يقول - عز من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

وكان ابن برجان يستشعر من يستغلق عبارته بنصحه بالتأمل والتدبر، فيستعمل عبارة «فافهم» و«فتأمل» كثيرًا.

وبالرغم من غرابة الاتجاه الإشاري لذي سلكه ابن برجان فإن تفسيره يعتبر مفتاحًا للوقوف على المعاني الدقيقة للقرآن، يقول: «فكلام الله جل وعز لا يدركه بالكيف البشر، وإنما يدرك أمره ونهيه بالمثالات والأمثال، والأسماء والحروف محدثة؛ وبذلك استبان لهم كلامه كما تقدم وصفه والحروف المحدثة والأمثال والأسماء يكتبونه ليقرؤنه ويحفظونه ويتعلمونه، فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء، وبها يستدل على كلامه تعالى وأمره ونهيه. فكلام الله جل وعز لا يدركه بالكيف البشر، وإنما يدرك أمره ونهيه بالمثالات والأمثال، والأسماء والحروف محدثة، وبذلك استبان لهم كلامه كما تقدم وصفه، والحروف المحدثة والأمثال والأسماء يكتبونه ليقرؤنه ويحفظونه ويتعلمونه فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء، وبها يستدل على كلامه تعالى وأمره ونهيه. فقوله جل ذكره: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] تنزل منه جل ذكره عن حقيقة ما هو كلامه الذي هو صفة ذاته إلى ما هو مبلغ له ووصف وعبارة عنه، وقد مضى التعارف بتحقيق قولهم متى حكى أحدهم حديث زيد وقول عمر، وقالوا: هذا كلام زيد وقول عمر، وربما طلبوا التحقيق فيقولون: هذا نص كلام زيد، وهذا حكاية قول

عمر، وإذ المعلوم أن صفة زيد لم ينتقل عنه إلى من حُكي عنه قوله، وإذا كانت صفة زيد لا تنتقل عنه إلى سواه فصفة الله أعلى وأجل. فعلى ما تقدم من البيان كلام الله هو الذي نتلوه بقراءتنا ونكتبه في مضاجعنا وهو المسموع منا في تلاوتنا بنص القرآن ودليل العقل، وهذا معترك اقتتال أهل السنة مع المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن، وفي فهم المعنى فصل الخطاب ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

بعض مصادر الإمام ابن برجان في تفسيره:

-أشار إلى كتابه «شرح أسماء الله الحسنى» في عدة مواضع.

- نقله عن الترمذي والإمام أحمد في مسنده.

-نقل عن أبي عبد الله بن أبي مسرة في «تخريجه» حديث الدجال.

-نقل نصوصًا طويلة من التوراة والإنجيل.

تلك بعض المصادر التي ينقل منها وأغلبها يتعلق بالحديث النبوي، ويلاحظ في نقله عن التوراة والإنجيل استعمل صيغة تفيد الاحتياط فقد استعمل فعل يذكر على البناء للمجهول.

- **بعض المآخذ على تفسيره:**

قال بعض أصحاب التراجم: يكرس تفسيره لشرح الآيات الغريبة من خلال منهج جديد، وأسلوبه في هذا الكتاب غامض جدًا، ولا يستطيع أن يفهم مغزاه إلا من كان على دراية بأسلوب كتابته[1].

لذلك كان ابن برجان يستشعر من يستغلق عبارته فنصحه بالتأمل والتدبر، وقد يستعمل كثيرًا عبارة « فافهم».

- ذكره لبعض الأحاديث الغريبة التي يصعب جدًا الوقوف عليها، وبعضها أتى بمعناه بلفظ غريب.

- استغراقه في حال تفسيره حيث يأتي بعبارات في ظاهرها اضطراب وإضمار غير متصلة، وما هي إلا معنىً في صدره يفهمه من تتبع أسلوبه وتعايش مع حال ذوقه.

(١) ابن الزبير«الصلة» ص ٣١، الشعراني «الطبقات الكبرى» الجزء الأول ص ١٥.

- لم ينقل عبارات تفسيره أحدٌ من المفسرين قبله، ولم ينقل عنه بصورة التتبع والنقل أيًا من علماء التفسير بعده.

- ندارة وجود هذا الكتاب من يوم أن صنفه ابن برجان، مما جعله بعيدًا خفيًا عن أيدي العلماء وطلاب العلم، وذلك راجع لأسباب كثيرة أهمها: ضياع المخطوط وتعزز نسخه، ومحاربة ابن برجان وتعرضه للمحن الصوفية كما حدث لكثير من المتصوفة كالحلاج مثلاً، والسياسية كابن رشد.

- إتيانه بآية بدل آية في موضع تفسيرها وليست هي بعينها بل هي آية أخرى، ولا هو موضع التفسير، وهذا من نوع السهو والاستغراق العقلي والقلبي.

- كتاب «**الإرشاد**» من بين المؤلفات التي تنسب إليه ولكن تظهر بصورة قليلة في كتاب التراجم؛ والتي يحاول أن يوضح فيها ابن برجان بأن أحاديث مسلم بن الحجاج تشتق من الآيات القرآنية، إما عن طريق المعنى أو عن طريق عنه دمج أكثر من آية. ولم نقف على مكان وجوده.

-«**إيضَاح الحكمة بأحكام العبرة**» على ضوء محتواه يظهر أنه تفسير آخر للقرآن. وهو مفقود أيضًا وقد أشار إليه سيدي محيي الدين ابن عربي في كتابه: «مشاهد الأسرار القدسية» المطبوع مع شرح الست عجم بنت النفيس – بتحقيقنا.

وفي **مصادر ترجمة ابن برجان**، انظر:

- ابن الآبار «التكملة»، الجزء الأول رقم ١٧٩٧ ص ٢٤٧.
- ابن خلكان «وفيات الأعيان» الجزء الرابع ص ٢٣٠و ٢٣٦، والجزء السابع ص ٣٤٠، والجزء الثامن ص ٧١.
- ابن الزبير«صلة الصلة» رقم ٤٥، ص ٣١-٣٣.
- اليافعي «مرآة الجنان» الجزء الثالث ص ٢٦٧و ٢٦٨.
- الصفدي «الوافي بالوفيات» الجزء الثامن عشر رقم ٤٣٨ ص ٤٢٨.
- الذهبي «سير أعلام النبلاء» رقم ٤٤ ص ٧٢-٧٤.
- ابن شاكر الكتبى «وفات الوفيات» الجزء الأول ص ٦٧٤.
- ابن حجر العسقلاني «لسان الميزان» الجزء الرابع ص ١٣-١٤.
- السيوطي «كتاب طبقات المفسرين» رقم ٥٨، ص ٢٠.
- الشعراني «الطبقات الكبرى» الجزء الأول ص ١٥.

- البغدادي «هداية العارفين» الجزء الأول ص٥٧٠.
- «التشوف إلى رجال التصوف» رقم ٤١ ص ١٥٦، ورقم ٥١ ص ١٧٠-١٦٨.
- ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة» الجزء الخامس ص ٢٧.
- ابن المؤقت «السعادة الأبدية» الجزء الأول ص ١٠٦.
- ابن العماد «شذرات الذهب» الجزء الرابع ص ١١٣.
- المناوي «الكواكب الدرية» (٤٢٥) بتحقيقنا.
- ابن خلدون «الشفاء» ص ٥١-٥٢.
- الناصري «الاستقصا» ص ٢١٨-٢١٩.
- حاجي خليفة «كشف الظنون» الجزء الأول ص ٢٥٧، والثاني ص ٣٤٤ و٣٤٦، والرابع ص ٢٢- ٢٤- ٢٦، والخامس ص ٣٨، والسابع ص ٧٦٧ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠.
- كحالة معجم المؤلفين، الجزء الخامس ص ٢٢٦.
- الموسوعة الإسلامية باللغة الفرنسية «Ibn Barradjan» مقال A. Faure ص ٧٥٥ و٧٦٦.
- بولس بويا «رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس».
- مجلة الأبحاث – الجامعة الأمريكية – بيروت العدد ٢٧ (١٩٧٨-١٩٧٩).
- يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء (٦٩/٢).

صحة نسبة الكتاب للمصنف

- توافق هذه النسخ الأربع التامة منها والناقصة على أنها جميعًا لكتاب ومؤلف واحد.
- إشارة المصنف لكتابه شرح الأسماء الحسنى عدة مرات في مواضع عديدة من كتابه هذا، من بدايته لنهايته.
- تشابه النص بين ما ذكره في تفسيره هنا وما أورده في شرح الأسماء في عدة مواضع منه.
- ثبوت نقل من ترجم له عن تفسيره هذا في بعض المواقف والإشارات

لبعض الآيات التي عُرف بعجيب تفسيره لها، مثل الشيخ محيي الدين ابن عربي في «الفتوحات المكية» وابن خلكان في «وفيات الأعيان» وغيرهما كثير.

هذا ولا يوجد أدنى شك مطلقًا في صحة نسبة الكتاب لمصنفه من بداية مقدمته إلى نهايته وخاتمته، وذلك واضح كل الوضوح لا مجال للريب فيه مطلقًا، والقول بغير ذلك لا يكون إلا من باب عدمية البحث والنظر في الكتاب، أو خيالات وهمية لا أساس لها.

مخطوطات الكتاب

- نسخة مكتبة فيض الله تحت رقم (٣٥) كتبت في القرن التاسع، وتنتهي بسورة النصر، رمزت لها بالرمز (ف) وهي النسخة الوحيدة الكاملة، لكنها من عجائب المخطوطات في تلفها ودقة خطها حيث عفى الدهر عليها.

- نسخة الخزانة العامة بالمملكة المغربية بالرباط تحت رقم: ٢٤٢ك، وقد قمت بطلب تصويرها وأنا في رحلتي الثانية للمغرب. ورمزت لهذه النسخة بالرمز (غ) وهي من سورة الأعراف إلى أول سورة النور.

- نسخة «قم» طهران تحت رقم ٣٥٠ ورمزت لهذه النسخة بالرمز (ق) وهي النصف الأول من التفسير فقط.

- نسخة مكتبة الوطنية الألمانية «ميونخ» رقم (mscod٨٣) ورمزت لها بالرمز (خ) وهي النصف الثاني من التفسير.

هذا وكل نسخة من هذه النسخ لا تخلو من إشكالات تخصها، فقد لقينا الأمرين وبالغ المعاناة في تحقيق هذا الكتاب لأسباب أهمها: صعوبة الحصول على مخطوطات هذا الكتاب ممَّ استغرق جهدًا وبحثًا ووقتًا وغير ذلك وصعوبة كل نسخة في نصها بما يخصها، فضلاً عن غرابة أسلوب المصنف، وعدم نقل نصوص كاملة من تفسيره لدى أئمة التفسير المطبوعة وربما حتى المخطوطة. والله تعالى الموفق والمستعان.

منهج التحقيق

قمنا بالنسخ المخطوط وكتابته على الحاسوب، ومطابقته على النسخ الخطية، وإثبات مهمات الفروق، وتصحيحه وضبطه، وعزو آياته وتفصيله وترقيمه وتنسيقه،

وتخريج أحاديثه، والتعليق على مهمات مواضعه لإيضاح غريب إشاراته وغوامض مواقعه، وشرح مشكل غريبه، وعمل دراسة ذكرنا فيه الفرق بين التفسير والتأويل ومسألة المكي والمدني، والفرق بين الدراسة والتحقيق، والحاشية والتعليق، والترجمة للشيخ المصنف ومنهجه في كتابه، ووصف مخطوطات الكتاب ووضع نماذج من صورها، وصحة نسبة الكتاب لمؤلفه.

وآخرًا فأسألك اللهم أَنْ تُصَلِّي عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ ظهوراتك وعَدَدَ مَا دَامَتْ فِي إحصائك الدَّائِمَ فِي عِلْمِكَ الْقَدِيمِ الْبَاقِي الَّذِي دَامَتْ بِقُوَّةِ دوامه السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فيهنَّ فِي غَيْبِ أَسْمَائِكَ بأسرارها وَفِي شهادتها بجريان أَنْوَارَهَا وتشعشعت النُّجومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمرُ بأنوار الصَّلاةِ عَلَى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ التي هي الرحمة فأسألك اللهُمَّ يَا رَبَّ أن تهب لي من حقيقة هذه الرحمة التي ليست حقيقتها إلا وجهك الدائم الباقي صَلاةً دَائِمةً بَاقِيَةً عَلَى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ فِي قَلْبِي بتوجهه إليك ليكون عارفًا بمعرفتك، فلا ينفك عن مراقبتك فِي جميع أحكام آياتك وآثارها فيما غاب فِي بطونه أو حضر فِي ظهوره حَتَّى أعرفك فِي معاني قيومتك وإحاطة دَيْمُومِيتِكَ وأتحقق جريان أمرك فِي كل شيء بطن بحكمك فِي بطونه أو ظهر بحكمك فِي ظهوره، وصلِّ يا ربِّ عليه عَلَى الدوام وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ عَلَى التمام. وكتبه: أبو الحسن والحسين وحمزة/أحمد فريد المزيدي في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٤٣٣هـ القاهرة.

نماذج من صور المخطوط



الثاني من كتاب تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب

وتعرف الآيات والنبأ العظيم

عبد السلام بن عبد الرحمن

بن عبد الرحمن الإشبيلي

المعروف بابن برجان

اللخمي المغربي

صورة غلاف النسخة الألمانية

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة الألمانية



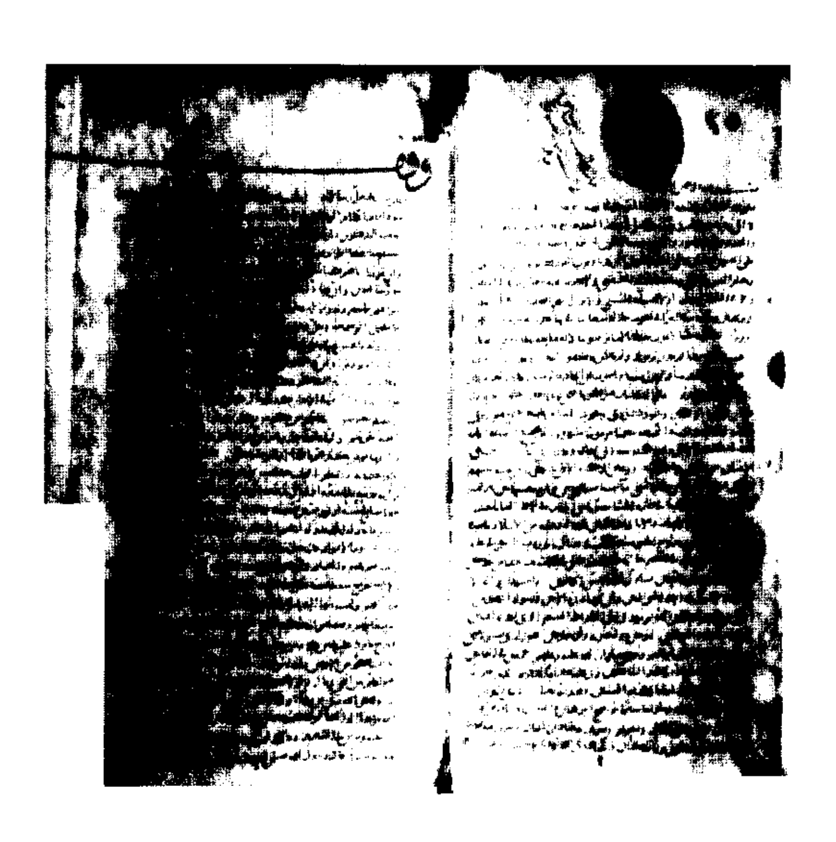
صورة غلاف النسخة الطهرانية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والصفوة من أمته وسلم
الحمد لله المتفرد بحقيقة الإلهية المتوحد بخالص الربانية الأول دون بداية والآخر لا إلى نهاية
سبق الشيء قدمه ولا قبل له وفات البعد بقاؤه ولا بعد له موجد الوجود والعدم وجاعل النور والظلم
مقدر الكون في القدم ومثبته في اللوح المحفوظ بالقلم على العرش استوى وعلى الملأ الجبروت
تنأى فدنا وقرب فاقترب بكل فلا يرى يشهد النجوى ويعلم السر وأخفى وما تعطف له العين
ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء لم يزل أولاً بأسمائه الحسنى ولا يزال آخراً بصفاته العلى
متوحداً في برهان وحدته متكبراً في نعوت جلاله متعالياً في بهاء جبروته مرتدياً بالكبرياء مؤتزراً بالعظمة
حياً لا يموت يقظاناً لا ينام قيوماً لا يغفل حفيظاً لا ينسى شهيداً لا يغيب أحداً صمداً لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفواً أحد ○ أوجد ما شاء العباد بقدرته إذ شاء كيف شاء ولم يزل متشيئاً وأضرب
عن العباد ما لم يشأ العباد لعزته وكان الله على كل شيء قديراً علم الكائنات قبل كونها فعلمه
بعد الكون على ما كان عالماً به إذ كان وجود كل ذي وجود في سابق علمه معلوماً وفي مشيئته العالية
وقدرته المحيطة مضمناً مرقوماً مشهوداً له الجميع أوصافه الكائنة منه في معلوم أنه أجل ذلك
كل منه في أحيانه وقدره إلى أوانه بدأ خلق الإنسان من الثرى وجعل منه الزوجين الذكر
والأنثى بأن خلق له من نفسه نسمة أخرى ثم جعل نسله من نطفة تمنى ما أمهينا تسلك من قرارة
معينها بين الترائب والصلب أقرت قراراً مكيناً في ظلمة الحشى مصوناً من الآفات في مهابط السابيا
حيث لا يصل إليه لطف الأمهات والآباء ذلك لما قد كان قدره له وعلمه من الابتلاء لما صور لحماً وعظماً
انبض فيه روح الحياة نبضاً وكتب له هنالك ما قدر فيه كما سبق في علمه وأمضى يقلبه في محكم خلقته
طبقاً بعد طبق في ظلمات ثلاث يخلقها من بعد خلق إلى أن سواه وعدله البشر فتبارك الله أحسن الخالقين ○
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً الحق المبين وأن محمداً عبده الأمين ورسوله المكين
الأمي من عشيرته بالدين القويم يهدي إلى الصراط المستقيم الذي أخذ له الميثاق على الأنبياء قبله
والمرسلين ليؤمنن به ولتنصرنه ولا يعد حين هو الذي بشر به عيسى ووجد ذكره في صحف إبراهيم

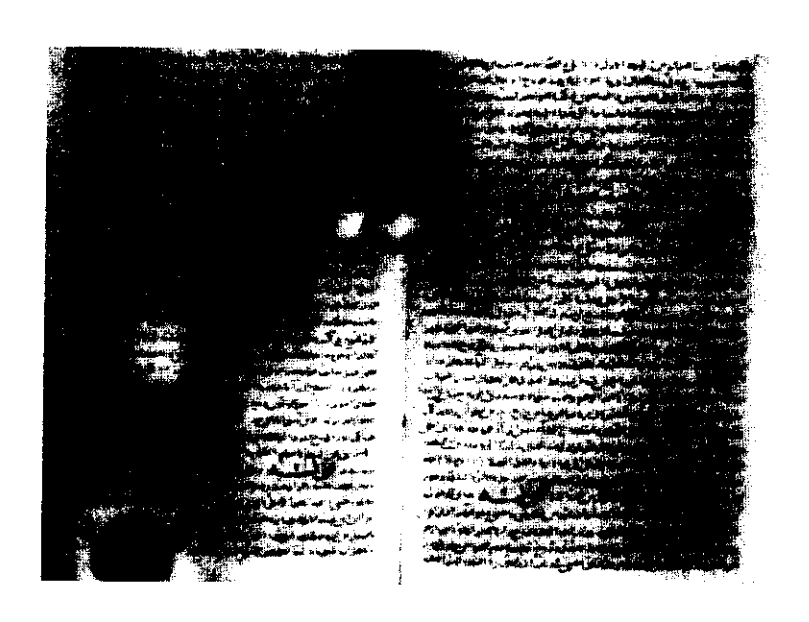
صورة الصفحة الأولى من النسخة الطهرانية

صورة الصفحة الأولى من النسخة المغربية

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة المغربية



صورة الورقة الأولى من النسخة التركية



صورة من النسخة التركية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والصفو من أمته وسلم، الحمد لله المتفرد بحقيقة الإلهية، المتوحد بخالصة الوجدانية، الأول دون بداية، والآخر لا إلى نهاية، سبق القبل قدمه فلا قبل له، وفات البعد بقاؤه فلا بعد له، موجد الوجود والعدم، وجاعل النور والظلم، مقدر الكون في القدم، ومثبته في اللوح المحفوظ بالقلم على العرش استوى وعلى الملاء احتوى، تأنى فدنا، وقرب القرب كله فلا يرى.

يشهد النجوى ويعلم السر وأخفى، وما تعطف له العقبى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، لم يزل أولاً بأسمائه الحسنى، ولا يزال آخرًا بصفاته العُلا، متوحدًا في برهان وحدته، متكبرًا في نعوت جلاله، متعاليًا في بهاء جبروته، مرتديًا بالكبرياء، مؤتزرًا بالعظمة، حيًّا لا يموت، يقظانًا لا ينام، قيومًا لا يغفل، حفيظًا لا ينسى، شهيدًا لا يغيب، أحدًا صمدًا ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ٣-٤]. أوجد ما شاء إيجاده بقدرته إذ شاء كيف شاء ولم يزل مشيئًا، وأضرب عن إيجاد ما لم يشأ إيجاده لعزته ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢٧] علم الكائنات قبل كونها، فهي عنده بعد الكون على ما قد كان علمها؛ إذ كان وجود كل ذي وجود في سابق علمه العَلي معلومًا، وفي مشيئته العالية وقدرته المحيطة مضمنًا مزمومًا[1] مشهودًا له بجميع أوصافه الكائنة منه في معدوم أنه أجَّل ذلك كله منه إلى آجاله، وقدره إلى آنائه.

بدأ خلق الإنسان من الثرى، وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى؛ بأن خلق له من نفسه نسمة أخرى، ثم جعل نسله من نطفة تمنى ماء مهينًا تسللها من قرارة معينها بين الترائب والمطي، أقره قرارًا مكينًا في ظلمة الحشى، مصونًا من الآفات

(١) أي: مجموعًا.

في قماط السابياء حيث لا يصل إليه لطف الأمهات والآباء، ذلك لما قد كان قدره له وعليه من الابتلاء.

ولما صوَّره لحمًا وعظمًا أنبض فيه روح الحياة نبضًا، وكتب له هناك قدره فيه كما سبق في علمه العلي أو مضى يقلبه في تحكيم خلقته طبقًا بعد طبق في ظلمات ثلاث خلقًا من بعد خلق، إلى أن سواه وعلمه التبيين ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٤].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الإله الحق المبين، وأن محمدًا عبده الأمين ورسوله المكين، الآتي من عند ربه بالدين القويم، يهدي إلى الصراط المستقيم الذي أخذ له الميثاق على الأنبياء قبله والمرسلين، ليؤمنن به ولتنصرنه ولو بعد حين، هو الذي بشَّر به عيسى، ووُجد ذكره في صحف إبراهيم وموسى - صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وسلام عليه وعليهم في العالمين - شهادة مقرونه بشهادة أكبر الشاهدين.

أنزل عليه الكتاب الكريم الذي ضمنه القرآن العظيم، جعله إمامًا لكتابه المستبين وهداية لعباده المتقين، بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا بواضح البرهان والتبيان ﴿**وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٥] فرق به ما بين الحرام والحلال، وصدق فيه صادق المقال، وضرب فيه محكم الأمثال، وأخبر بما يكون وما قد كان ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: ٨٨] والله أعلم حيث يجعل رسالاته. انتهى.

أما بعد... فإن الله ﷻ نهج سبل الهداية قاصدة إليه، وأقام أعلام الرشاد دالة عليه، فأوجد الموجودات للمعتبرين، وأنزل الكتب للمذكرين، وأرسل الهداة أئمة للمتقين، فاتصل بهم الجبل واستبان لهم الصراط المستقيم، سلكهما أقوام ففازوا وظفروا، وأعرض عنها آخرون فخابوا وخسروا، إلا أن قومًا أتاهم كتاب ربهم إليهم فأضربوا عن تذكيره إياهم، والتدبر له صحفًا لقوم ساهون، وإن عبادًا جاءتهم حكمة الله في مصنوعاته في أنفسهم وفي سواهم مما يبصرونه ومما لا يبصرون، فلهوا عن النظر فيها والعبرة بها لعباد غافلون.

ألم يسمعوه جلَّ ذكره يقول وقوله الصدق: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ**

وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]؟

والإعراض عن الذكر يورث عدم الشكر، وعدم التذكر يورث الطبع على القلوب، والغشاوة على الأبصار، والوقر في الآذان، كذلك قال ﷻ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣] ولما علمه ﷻ من إعراضهم وشمول الغفلة على أكثرهم قال عز من قائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] فاتقى عبد ربه، وليقبل على تلاوة كتاب ربه، والنظر في عجائب حكمته بجد من عزمه وفراغ من قلبه قبل أن تزل به قدمه فلا ينفعه إذ ذاك ندم، وإنما يقدم هناك على ما هنا قدَّمه من عمل صالح ينبته أو نور يقين يقتبسه. انتهى.

وكتاب الله ﷻ وإن كان مباينًا لكلام البشر فإنه وله الحمد قد نزله لفهم المدكر، ولئن كان كلامًا للملك الجبار ونورًا صدر عن نور الأنوار، فإنه جل ثناؤه قد أنار قلوب أهل الإيمان بنور الإيقان، وأحياهم بحياة العلم، وأيدهم بروح منه، لولا ذاك ما لمحه ببصيرة مستبصر، ولا استخرج منه غامضًا عقل متفكر، نرفع في ذلك بعضهم فوق بعض درجات لنبلوهم فيما آتاهم، وليستبقوا إليه بالخيرات، جعلنا الله وإياكم منهم، ولا يجعل حظنا من صفاتهم وصفهم، إنه حكيم عليم، بلى إن الإنسان خُلق من الأرض ومن ممتزج ما يرد عليها من علو ومن سفل فيح وفتح.

قال الله جل من قائل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١].

ولما انقسمت الآخرة إلى دارين جنة وجهنم قسم الله ﷻ العالم بحكمته من في هذه الدار قسمين: شقي وسعيد ﴿فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] ذلك لمشيئة له في عباده، خصَّ بفضله من شاء، وأصاب بعد له من شاء.

قال رسول الله ﷺ: «ومن أين يكون الشبه»[1] فأعلمنا ﷻ بما تلوناه من كتابه،

---

(١) أخرجه مالك (١١٥) والدارمي (٧٦٣) وأبو داود (٢٣٧) والنسائي في الكبرى (٢٠٣) وابن حبان (١١٦٦).

والمفهوم من عليّ خطابه إنه خلقنا من الأرض، وأنشأنا من ممتزج ما يرد عليها ويخرج منها، ويكون عنها من أمشاج نبات وحيوان، فمن الناس من غلبت عليه في حين تركيبه الضراوة والاستمرار على جري العادات والضراوات صفة التراب والأرض، وجبلتها تجمد لذلك على صفاته ومعاني ذاته؛ فكان لذلك بليدًا جاهلاً متعاجزًا لا نفاذ له في الأمور.

ومنهم: من غلبت عليه صفة النبات وقواه، فكان لذلك الغالب عليه النهامة في الأكل والشرب، والغباوة في سبل الاستجابة في الفهم وقلة الفطنة.

ومنهم: من غلبت عليه الصفة البهيمية وجبلتها، فكان الغالب عليه سوى ما تقدم ذكره: الجهل والتهور وعدم النبل وشدة شهوة البطن والفرج، ثم هو بعدُ [ذلك] إلى ما غلب عليه من الجنس البهيمي يميل إليه بالجبلة، فمن غلب عليه الجنس السبعي مال إلى سفك الدماء والغضب والغلبة وسوء الانتقام وهتك الحرم والفسق والإذاية.

وبالجملة: فإنه مائلٌ لا محالة إلى ما غلب عليه من أجناس حيوان أو نبات ما كان موكولاً إلى نفسه، ثم من غلبت عليه صفة العقل مالت به إلى صفات الفطنة والفحص والتمييز للأمور الغائبة، وكان لذلك عارفًا بقدره، مميِّزًا لظواهر الأشياء متطلعًا إلى غواشيها.

ثم من غلبت عليه الصفة الملكية كان لذلك مؤمنًا، مسلمًا، مطواعًا، كثير الحياء، قليل الخلاف، كثير الإسعاف، راغبًا في الحقائق، مبتغيًا للإنصاف والمحاسن، مجانبًا للقبائح، مباعدًا للرذائل، عاملاً بالعدل، مائلاً إلى الفضل والإحسان، وهذا والذي قبله قد أماله خالقه برحمته إلى جنبة الفتح.

ثم منهم من تركبت فيه صفة الجماد والنبات والحيوان والعقل والملك وقربت فيه من المقاومة فتركبت أخلاقه على ذلك، وتخرجت عليه أفعاله، فبما فيه من صفة النبات كان نهمًا جهولاً قليل الفطنة، وبما فيه من صفة التراب كان نسَّاءً كثير الغفلة والبلادة، وبما فيه من صفة العقل كان حليمًا، وقورًا، حسن التدبير، جيِّد الرأي، فهو لا يقدم الأمور الهائلة الأمر حيث يحسن منه المخرج وتمكن فيه العذر، صائنًا لنفسه، لا يفعل ما هو معيب عند العقل في ستر وتجمل، ولهذه الأصول كلها التى ذكرناها وما لم نذكر منها لها فيه أشباه، وله منها وراثة من حيث الخلقة، هذا من

حيث هو إنسان.

ثم قد يدخل الله ﷻ روح الإيمان على من شاء تزكيته من عباده الذين تقدم ذكرهم فيتولاه لذلك، فبقدر ذلك الروح وعناية الله به يحيي بذلك مواته، وينبسط جماده، وتنشرح قوى نياته، فتنقاد بإذن الله تعالى لذلك طباعه ويسلس قياده، ويسهل تداركه نفسه، ويتيسر له صلاح شأنه.

ولذلك - أعني: ما تقدم ذكره من جبلة الخلقة - ترى الكافر ربما كان من شأنه فعل المحاسن، والتخلق في كثير من أموره خلق المكارم، وترى المؤمن ربما تلطخ بالذنوب وظهرت على أركانه أنواع من القبائح، وربما أصرَّ على ما ليس من خلق الإيمان ولا شيم الإسلام.

ولهؤلاء وهؤلاء هنا أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وجزاؤهم إليه فيما هنالك صائرون، غير أن الله ﷻ قد أرصد لمن شاء من أهل الإيمان المغفرة والرحمة، وأرصد لأهل الكفر إحباط الأعمال والأخذ بأسوء ما جنوه؛ ليتمم بذلك حكمته، ويظهر فيهم غيب علمه في الخلط بينهم يوم أخذه الميثاق وقضائه القضية، وليتم أيضًا قوله الحق: «**هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي**»[1] وهو العليم الحكيم. انتهى.

فصل

ثم قد يكشف الله ﷻ لبصائر بعض عباده المؤمنين فيرون بها ما غاب عن أبصار رؤوسهم، وذلك أنهم لما علموا أن سبب الحجب لهم عن ربهم ﷻ امتزاج قلوبهم فيما لا يعني، وصرفها عن الاشتغال بمعرفته، والازدياد من العلم واليقين به بما لا ينبغي، فتحفظوا في طلبهم، واجتهدوا وجدوا في طلب مرضاة مطلوبهم بكل قلوبهم وجميع جوارحهم وعزم من هممهم، فرأوا بنور الإيمان وحقيقة الإيقان ما ليس بشخص ولا جوهر ولا عرض، ولا ما هو من قبيل ذلك معروفًا بفطرهم، ليس كالذي عهدوا معلومًا بحقائق ذواتهم، ليس كالمعالم سواه من الظواهر والبواطن،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٩٦) قال الهيثمي (١٨٦/٧): رجاله ثقات. وابن سعد (٣٠/١)، والحكيم (٢٠٢/٤)، والحاكم (٨٤) وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.

يرون ذلك ببصائرهم ولا يصوره عقل ولا يكيفه لهم وهم.

ثم قد يرون أيضًا ما ليس كالأجسام المعهودة، ولا كالمرائي الظاهرة المعتادة، فما كان من هذا رأته بصائرهم مرائي روحانية فيصورها مصور العقل في باطن الذكر بإذن بارئه، تبصرها البصيرة على ذلك، ويعقلها العقل إيمانًا بها، فما كان ذا صورة آمن بذلك دون تصور، وما كان من ذلك ما لا يوصف بصورة وكل ذلك إلى المصور الأعلى والعالم الأرفع، وكذلك يزيل الوقر عن أسماع قلوبهم، فيسمعون بها ما غاب عن آذان رؤوسهم ما ليس بصوت ولا حرف، كذلك في الذوقية، كذلك في الشم، كذلك في الحس، وهذه الحواس الثلاث في البواطن أغرب وجودًا وأبطأ ظهورًا مما تقدم.

والعقل فاعلم يعرف التفرقة بين ما هو مضاف إلى هذه الحواس الباطنة، وأنها ذات بطنت من مدارك الحواس الظاهرة، وكذلك يفتح لهم أبواب الذكر والشعور، والفطنة والإلهام، والتوسم في مقابلة الذكر الأول والشعور الأول والصفات الأُوَل أجمعها.

وعلى القول بالتحقيق فإنما هن صفات منهن دُنَى وعُلا، غطى على أعلاهن جهل الطبع وبلادة الغفلة، وظلمة البعد عن القرب من نور السماوات والأرض، فإذا تحصلت معالم ما هنالك، وفتح لهم باب الشعور شعروا لتلك المواهب لأجل مجانستها لما تحصل لهم قبل من تلك المعالم في معالم سواها وفي أنفسها من تفصيل لها، وتوجيه إلى غيرها، فاستجروها إلى أشباهها وألقوها إلى أشكالها، وبالفطنة تنبهوا إلى خفاياها وسرائر أسرارها.

واعلم أن نور ما هنالك يكاد يغشى البصائر ويذهل العقول لغرابة ما يرد من ذلك عليها إلا أن يؤيدها ربها جلَّ ذكره بروح منه، لكن لكثرة رأى الباطن فيه، وقوة شعاع نوره تمتدحوا من البصائر في ثاقب ضيائه وسعة ساحته.

وأما الإلهام فإنه أمر ينزل إلى لوح القلب، وهو إنباء بما في الباطن خزانته، وفي أصل الجبلّة آثاره، وأما التوسم فيحتوشه ما تقدم ذكره من الصفات فيظهر للفهم من أثناء الخطاب سر المراد، وإن كان قد توجه به غير تلك الوجه كما قد تبدو للمستعرض من المتعرض إلى وجه وقد أبدى وجهه غيرها، وذلك مكنون الخطاب، فمن ذلك ما يكون كالألغاز يعلمه الفطن عن جنب، ومنه ما يكون

كالمحاجاة يعلمه الماهر الفطن بعد فكر وروية.

ثم قد يتسع هذا جدًّا باختلاف الأغراض وتباين الدواعي كما يختلف المفهوم لذلك والعلوم، ولثاقب ضياء ما هنالك، وهداية الله جلَّ ذكره من أراده، بذلك يتحقق بصر البصير ويثقب الفهم، والله جلَّ ذكره يسمع من يشاء ويفهم عنه من أراده.

ثم قد ترتفع هذه الصفات بارتفاع محل حاملها، فتعلو به لعلو محل حاملها إلى المحادثة والتكليم، وقد يكون ذلك عن صفات الصديقية بما هو أتم وأعلى وأفخم جدًّا من أراده الله بذلك، وهي صفة كادت تفوت جبلة الخلقة؛ إذ هي تعطي التصديق بما أمامها من الإنباء والنبوة المحجورة، وكما ليس للغافل أن يكون متذكرًا إلا أن ينقله بارئه ﷻ إلى ذلك.

وإن كان التكسب لذلك والتعمل فيه ينجع فذلك منه لا يوجد إلا بإذن من الله، كذلك ليس للمؤمن أن يكون موقنًا إلا بأن يفتح عليه بارئه ﷻ ولا للموقن أن يكون صدِّيقًا إلا بفتح من الله عليه، ونقلٍ ينقله من مقامه الأول إلى الثاني.

كذلك ليس للصديق أن يكون نبيًا إلا أن يخصه الله برحمة منه وفضل، وقد انقطع ذلك فلا مطمع فيه اليوم، إنما هو الإيمان بفضل من الله ورحمة، ثم الإيقان والصديقية، والصديقون: هم اللذين صُفوا من أكدارهم فأُعلوا في درجاتهم، وهذا كله مفهوم من خطاب القرآن العزيز.

شاهد ما تقدم ذكره منه مثل قوله العلي: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**﴾ [فاطر:١٩] الجاهل والعالم.

﴿**وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ**﴾ [فاطر:٢٠] الآلهة الباطلة والإله الحق عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

﴿**وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ**﴾ [فاطر:٢١] أي: الجنة والنار.

﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ**﴾ الكفار والمؤمنون، وعلى دركات هؤلاء في الكفر ودرجات هؤلاء في الإيمان كما تقدم ذكره ﴿**إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢] إلى قوله الحق: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**﴾ [فاطر:٢٧-٢٨].

فذكر جلَّ ذكره الماء ينزله من السماء إلى الأرض واحدًا طاهرًا مطهرًا، ثم ذكر

ما يكون من ذلك الماء على طهارته ووحدته، وما يتفصل إليه في الأرض من أجل تنوعها في نفسها من حزنها وسهلها وطيبها وخبيثها، ومذاقات مطاعم واختلافات روائح، ثم كذلك حيوانها ونباتها وأناسيها باختلاف ذلك كله في أنواعه وشؤونه كلها.

ثم قال ﷻ بعد ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: كذلك الهداية فيما كان عن ذلك، واللقن والفهم والديانات والخشية لله ﷻ؛ أي: كذلك تختلف أغراضهم وأخلاقهم وخلقهم بتوابع ذلك كله فيهم كما اختلفوا في بقاع الأرض ونباتها وحيوانها، وما كان بدؤهم منه ونشأتهم.

وقد تقدم أن الدنيا جِذْية من الدار الآخرة سراؤها وضراؤها، فسراؤها من جنبة الفتح، وهو منتزع مما هو الجنة، وضراؤها من جنبة الفيح، وهو تنفس جهنم - أعاذنا الله الرحيم الكريم منها برحمته - ولكل واحدة؛ أعني: الجنة والنار من الخليقة بنون، فلا بد ولا محالة أن يخرج الشبه في البنين، لكن مشيئة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هي العالية، وكلمته هي المتممة بسنته، والله غالب على أمره، يضع ويرفع ويقدم ويؤخر، ويعطي ويمنع ويهدي ويضل، وهو العليم الحكيم.

فلم يكن الله ﷻ ليجعل كلامه الكريم ظاهرًا كله، مفصلاً كله للحكمة والحكم اللذين في كلامه، ولئلا يصل إلى فهم رفيع خطابه إلا من صرف همته إليه، وعكف بجد من ذاته على التفكر فيه والتدبر له، وتابع النظر واعتبر، فينزل كلاً من ثوابه حيث أنزل نفسه من الجد والاجتهاد في تعرف معاني خطاب ربه.

ولما تقدم ذكره أيضًا من علمه بخلقه في اختلافهم، وتفاوتهم في هممهم، وتخلف الأكثر منهم لأجل ذلك، وتقدمهم في تمييزهم وأفكارهم، وتعذر النظر على بعضهم لتفاوتهم في درجات الفهم عنه للغالب عليهم في أصل تركيبهم، ولتفاضلهم أيضًا في درجات الخصوصية من قبيل الهبات والهدايات؛ **إذ منهم**: الجاهل البهيمي الذي لا يحظر على باله ولا يحوز في فكره إلا ما أدركه حسًّا وشاهده عيانًا.

ومنهم: الفطن الفحَّاص المميِّز.

ومنهم: الملهَم المحدَّث.

ومنهم: المتوسط الحال، وما لا تحصره العبارات من الوسائط، فجعل الباري جلَّ ذكره من كلامه الظاهر الجلي والنص المرفَّع في البيان إلى أقصى غاياته

كالجسمانيات في الوجود والظاهر، وجعل منه أيضًا ما هو كهيئة المكنون كالروحانيات في موجودات الغيب.

ومنهم: المتوسط يشبه الظواهر والبواطن، أخذ كلٌّ بحظه من كلا الطرفين؛ ليصل أهل القرآن من معرفة كلام ربهم ﷻ إلى حظوظهم المقسومة لهم، كل يُغرف له من نهره ويُسقى منه بكأسه. انتهى.

قال الله ﷻ يخاطب رسوله بخطاب المواجهة: ﴿**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ**﴾ [آل عمران:٥٨].

وقال: ﴿**نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ**﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [القصص:٣] فالمواجه بهذا الخطاب هو رسول الله ﷺ ليبلغ إلى أمته ما لقنه وأوحي إليه.

والعبد وارث للنبي، فلذلك ينبغي للعبد الموقن أن يشهد في تلاوته القرآن أن ربه يخاطبه بالكلام، وأنه سبحانه متكلم على لسان هذا العبد بكلام نفسه كما جاء عن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، قال فيما وصف به محمد رسوله: «**اجعل كلامي على فيه**»[1] يعني: النبي.

وعلى هذا ليس للعبد في كلام ربه كلام، وإنما جعل له حركة اللسان بوصفه؛ ليبسر الذكر بلسانه ويظهر به لحكمة له في ذلك، فحروف الكتابة حد للعبد ومكان لقراءته، والمقروء هو كلام الله يلقيه على لسان عبده، وكما البيت الحرام قبلة للمصلي والوجه في ذلك للمعبود العلي الكبير، وكما كانت الشجرة وجهة لموسى ﷺ ناداه ربه منها وكلمه من تلقائها، كذلك القراءة حال للعبد ومكان له، وهو في حاله تلك يلقى المقروء من لدن حكيم عليم.

﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [فاطر:٣٢] المعنى إلى آخره، وهذه هي التلاوة العليا ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة:١٢١].

تطلَّب هذا واسمُ بهمتك صعدًا إليه، وجاهد نفسك وعدوك على ذلك، والله

---

(١) ذكره ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص٤٣)، والماوردي في «أعلام النبوة» (ص١٧١)، والقرطبي في «الإعلام» (١/٢٦٣).

المستعان، ولا قوة إلا به، فإنه كما لقي الرسول القرآن من لدن الحكيم العليم جلَّ ذكره فقد جعلك وارثًا، فتطلب ذلك لتُلقَّى حظك المجعول لك بالوراثة، فإنك إلا تكن كذلك حجبت عنها، وولي حكم الوراثة سواك.

ألا ترى الوراثة حكمها للأقرب من الموروث فالأقرب؟ والقرب هنا بالتشبه بالموروث والانتساب إليه كما قال إبراهيم الخليل، صلوات الله عليه: **﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [إبراهيم:٣٦].

ألا تسمعه ﷻ يقول: **﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** [القصص:٣]. **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [يوسف:٢].

فتفهَّم تفهم، وتعلَّم تعلم، يسَّر الله لنا ولك تيسير كل عسير في البلوغ إلى منال رضوانه، إنه هو العلم الحكيم البر الرحيم.

أبتدئ بقوله العلي جل وعلا: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** [الفاتحة:١].

روت عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان إذا افتتح الصلاة في الليل وحكت قراءته كان يمد بها صوته: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾** [الفاتحة:١-٤] يقف في رأس كل آية[(١)].

وروى غير عائشة مثل ذلك في وصله آية: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** [الفاتحة:١] بقوله: **﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الفاتحة:٢] [(٢)].

وروي أيضًا أنه كان يفتتح صلاة الفريضة بـ**﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[(٣)].

وكثير ما روي عنه هذه الرواية، وقد أخبرنا عن ربه ﷻ أن «بسم الله تعالى» عند بدءتنا في أمورنا وشروعنا في شؤوننا كلها، وأن نحمده عند فراغنا منها، وربما كانت قراءته إياها؛ أعني: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** ليستعين بها على الفهم عن ربه، وليبلغ عنه ذلك إلى أمته الطالبين العلم والفهم عنه، فإن شطر: **﴿بِسْمِ اللهِ﴾** هو القرآن العظيم.

وإذا قرأ العبد بفكرٍ وتدبر اجتمع له ذكر جميع الأسماء والصفات والبداية

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٨٥)؛ ورزين كما في جامع الأصول لابن الأثير (٩٢١).

(٢) أخرجه الدارقطني (١ ٢٢) عن جابر مرفوعًا.

(٣) أخرجه ابن ماجة (٨١٢).

والنهاية؛ إذ الاسم معلوم منه العُلا كله، واسمه «الله» جميع الأسماء له شارحة، وهو جامعها[1] واسمه «الرحمن»[2] معبر عن استوائه على العرش العظيم المحيط بجميع الخلائق أجمع رحمًا وعطفًا وملكًا، وعلى ما يأتي ذكر بعضه إن شاء الله.

وقد تقدم من ذلك في كتاب «**شرح الأسماء**» ما ينبئ الفطن اللبيب، ثم إذا قال العبد بعد ذلك: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢] عمَّ ذكر هذا كل شيء، وهو العبد الكلي لذلك، والله أعلم بما بلغ رسوله يقول عند ذلك: «**حمدني عبدي**» أي: إن حمده إياي قد عمَّ كل شيء موجود ومذكور، فله أجر كل حمد العالمين.

يقول العبد: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ يقول الله جل من قائل: «**أثنى علي عبدي**» أي: إنه أثنى عليه في ربوبيته ورحمانيته، بالرحمة والعطف، والوصل والحنان، والإحسان والامتنان، والحلم والكرم، والخلق والرزق، والحفظ والكلاءة، هكذا إلى جميع ما أتى عليه فعل المربي والكفيل والرحمن والرحيم.

---

(١) قال الشيخ المصنف: هو آخر الظواهر من الأسماء وأول البواطن منها، وكل الأسماء سواه من الظواهر معلم به وشارح له، وسوف يأتي هذا في شرح كل اسم منها إن شاء الله، وأما ما يخص هذا الموضع من ذلك فهو أن حروفه الظاهرة أربعة: (ا ل ل ه) ويحدث عند النطق حرفان: همزة لازمة لموضع تحقيق متصل الألوهية والوحدانية وجماع الأسماء كلها، وللحامد وتمحيق منفصل ما نزهه عنه علو جده وشموخ عظمته مما يضاد ذلك. ثم ألف حادثة في اللفظ متصلة باللام الثانية، وقد تقدم ذكرها قبل، فالألف واللام الملازمة لهما الهمزة - كما تقدم - لتحقيق المتصل وتمحيق المنفصل والألف الحادثة في اللام الثانية لمحو آثار الأغيار الهاجسة في أنفس الخليقة الحادثة عنه وبها، وقد تقدم ذكر هذا. ثم الهاء يتصل بها واو باطن ذكرها بطنت في الحظ وظهرت في الوجود كله علوًا وسفلاً أظهرها في الشهادة بذاته وختم بها فقال مخبرًا عن نفسه ﷻ: «هو» فكان هذا تفصيلاً لما أجمل في الألف واللام من حصر تقدم ذكره، وتحقيق«الذي لا إله إلا هو» هذا تفصيل لما اشتمل عليه، وبذلك تحقق معنى التوحيد في الكلمة والإخبار عنها والشهادة بها، وعاد بذلك الآخر منها بالتحقيق على أولها، وصارت بهذه الحكمة كدائرة ستة أجزاء عاد بالتحقيق آخرها على أولها، قبل بذلك أولها إلى آخرها ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾ [فصلت: ٥٤] ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤] [شرح الأسماء الحسنى ١/٥٤] بتحقيقنا.

(٢) قال المصنف: وكان إظهار هذا الاسم الكريم للخليقة يوم استوائه على العرش؛ لما أوجد عن ذكره العرش على الماء أظهر، من أسمائه هذه الاسم الكريم، اشتقه من صفته الذاتية، وكتب بمقتضاه على نفسه يومئذٍ كتابًا هو عنده على العرش: «**إن رحمتي سبقت غضبي**» [شرح الأسماء ٢/٢٨٦].

يقول العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يقول الله: «**مجدني عبدي**».

«الرحمن» هو الذي استوى على العرش ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤].

الرحمن: من بعض هذه الأوصاف أنه الملك، وإنه هو الرحيم، وهو الرحمن، وهو الرب، وهو المحسِّن والمجمِّل، وهو العظيم ذو العرش المجيد، فهو الملك الحق.

وربما قال العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يقول الله ﷻ: «**فوَّض إلي عبدي**» لما وصفه بإنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ عاجلاً وآجلاً، وأنه مالك كل شيء شهيد له ﷻ بالتفويض، والتفويض هو روح التوكل وأعلاه لذلك، وصل بهذا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فوض إليه العبد وتوكل عليه في شأنه كله، وتعبد له وحده مخلصًا بخطاب المواجهة.

يقول الله ﷻ: «**هؤلاء بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**»[1].

فقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جمع القرآن كله، وقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ إلى آخرها شارح له، كما القرآن كله شارح لسورة أم القرآن، ولهذا سميت بأم القرآن، وهذه جملة تتفصل بما يأتي بعد إن شاء الله تعالى.

قوي الرجاء لقارئ «أم القرآن» أن يكون له أجر جميع الحامدين، وجميع المثنين، وجميع أجر المجدين والمفوضين والعابدين والمتبرئين من الحول والقوة، وهم المتوكلون، هذا إذا قرأها بعلم ومشاهدة وحال يقين.

قال ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم**»[2].

وقال له الملك - عليهما السلام: أبشر يا محمد بقرآن أُوتيته لم يعطه أحد قبلك: فاتحة الكتاب وأواخر سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته[3].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، ومسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٣٠٦).

فصل

اختلف علماء السلف ﷺ في الاسم: ما هو؟ أهو المسمى أو غير المسمى؟

وكثر الداخلون في الكلام لذلك، وطال الأمد، وخلف الخلف في ذلك السلف فنُسي المبدأ، وضل لذلك الأكثر عن القصد وترك المنهج جانبًا، هذا على اتفاقهم أن المسمى هو المقصود بالخطاب المطلوب علمه.

ثم وقع الاختلاف بعد، أهو هو أم غيره؟ بأي وجه من وجوه القصد قصد؟ وقد أشبعنا الكلام فيه في غير هذا الموضع بمبلغ الطاقة، وأنه من السمو والعلاء، وأن أكثر أسماء المحدثين من السمة والعلامة؛ لعلة الإعلام به، والتمييز له من غيره، وإنه إنما يكون المسمى إذا كان مفهوم الاسم حقيقة المسمى.

ونحن الآن في هذه الدار في الغيبة عنه، والسجن الذي حُبسنا فيه عنه عز جلاله، وهذه الدار مؤسسة على الإيمان بالغيب؛ لما قضى به من المحنة والابتلاء، فأقام لنا ﷻ غيب حضوره بالإخبار عنه والإعلام به مقام المشاهدة، والذكر مقام المذكور. والاسم مقام المسمى، كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤].

وأقرب من هذا قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

وقدم العلم به والمعرفة مقام الرؤية، والخبر عن مقام الخبر، ثم أطلع الألباب على سر المراد بقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

وقوله: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقوله: «**أنا مع من طلبني وحيثما طلبني عبدي وجدني**»[1].

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] وهذا كثير، فخبر في هذا عن وجود له خاص مع عباده المؤمنين زائد على وجوده العلي بالخلق.

والأمر الذي أعلم به في قوله الحق: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] ومعهود بتقرير الشرع ووجود الوحي أنه أقرب إلى العباد من أنفسهم وذواتهم إليهم، كذلك شأنه وأمره في سائر الوجود، فأسماؤه ﷻ من هذه الجهة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٩٣).

هي: ((هو)).

ألا ترى أنه كان ﷻ في أحدية أزله، فلما أوجد الموجودات جميعًا هو أيضًا فيها ومعها من حيث هو ﷻ خلقًا وأمرًا، ثم ولاية لمن شاءه بذلك، وهي عبارة عن روح منه يؤيده به، ووالٍ يجعله فيه، وقد تعرف إلينا ﷻ بما له في الخليقة من خلق وأمر، وتسمى بذلك، ثم بما له في المؤمن من آل، ثم بما له في الولي من روح خاص له فيه، وإنه مع كل شيء ما هو لا إله إلا هو ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الروم:٢٧].

هذا وصف له، ووجود حقيقتهما هو من غير ظرفية ولا معية صحبة ﴿**هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١-٤].

كان ضياء الشمس ونور القمر الواقعان على ما وقع عليه من الموجودات، يقال لها: شمس وقمر، فالله أعلى علاً، وأحق حقيقة وجود، فافهم.

فصل

كل ما عبر عنه باسم الألوهية أو غيره من الأسماء فهو هو؛ لأنه لا تغاير في الأسماء من حيث هي أسماء، إنما التغاير في مقتضياتها، وفي المفهوم من ذلك، حيث قال الله عزَّ من قائل: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**﴾ [الإسراء:١١٠].

فصل

الأسماء قد سرت مسالكها من العالم سلوك الأرواح في الأجسام، وحلت منه محل الأمر من الخلق، ولزمته لزوم الأعراض للأجسام، فما من موجود دقَّ أو جلَّ. علا أو سفل إلا وأسماء الله جلَّ ذكره محيطة به علمًا ومعنى، ومقتضى اسم الألوهية جامع لمعاني سائر الأسماء.

قسَّم الله العالم كله إلى أمر وخلق، ثم من الأسماء إلى الحي والقيوم إيجادًا وإمساكًا، وإلى اسمه الرب والرحمن رحمة ووصلاً، وأسرى مسالك الأسماء في مقتضياتها، وعلى ذلك تغايرت المقتضيات لا في أنفسها، سبحانه وله الحمد، هو الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات.

فصل

جعل الله جلَّ ذكره كلمة «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» كما تقدم من ذكر ذلك في بداية كتابه العزيز وأوائل سوره، وعند بدايات كتبنا، وكذلك عند بدايات أمورنا كلها، كالأكل والشرب والنكاح والزكاة والحركة والسكون والنوم والقيام منه إلى غير ذلك، وكذلك كلمة «**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» جعلها في أواخر أعمالنا كلها.

وفي الخبر: إن إبراهيم ﷺ قال لأضيافه الكرام المكرمين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - لما قرب إليهم القرى عجلاً حنيذًا: كلوه بحقه، قالوا له: وما حقه؟ قال: سموا الله إذا بدأتم، واحمدوه إذا فرغتم. قالوا له: لهذا اتخذك الله خليلاً.

وقال ﷻ: ﴿**ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**﴾ [هود:٤١].

وقال في بدء التنزيل ومفتتح الوحي: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ [العلق:١-٢] وقد تقدم الكلام في ذلك على ما سنأتي به في موضعه إن شاء الله.

ثم ما من أمرٍ أوجب أن يسمى في بدايته أو ندب إليه ألا جعل كلمة «**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» في نهايته.

فصل

جاء في الصحيح المأثور أن جبريل ورسول الله - صلوات الله وسلامه عليهما - كانا قاعدين معًا إذ سمع جبريل نقيضًا في السماء، فنظر فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يفتح قط. فنزل منه ملك، قال: وهذا ملك نزل اليوم إلى الأرض لم ينزل إليها قط. فلما نزل قال: يا محمد، أبشر بقرآن أوتيته من كنز تحت العرش لم يُعطه نبي قبلك: سورة «أم القرآن» وخواتم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منه إلا أوتيته.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ لما استوى على العرش كتب على نفسه كتابًا فيه: إن رحمتي سبقت غضبي**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٢٠)، والبخاري (٦٩٦٩)، ومسلم (٢٧٥١).

وفي أخرى: «**غلبت**»[١] مكان: «سبقت».

وفي أخرى: «**تسبق وتغلب**»[٢] بلفظ المستقبل، وأما تسبيقه هنا كلمة «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» فما أراه إلا أن الآخر من فعله دليل على أوله، والنهاية آية على البداية، وإنه وهو أعلم بحكمه وبما نزله، هو مفتتح اللوح المحفوظ أو ما يكون معبرًا عنه ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾ [الأنعام:١٢].

﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام: ٥٤] المعنى: فكان هذا من تسبيق أسماء رحمة الله على أسماء غضبه، اسمه «الله» جلَّ ذكره جامع لجميع الأسماء، وكلها شارحة لمعانيه، معبرة عنه، ضمن ﷻ هذا الاسم العالم كله علوه وسفله بما فيه من عجائبه وغرائبه، ثم قسم الله ما تفصل إليه كما تقدم ذكره: عالم خلق، وعالم أمر، جعل عالم الأمر الحاكم على عالم الخلق؛ إذ كان يلي اسم الألوهية في المرتبة العليا.

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص:٢٩] فعطف الأمر بالتذكر على معنى التدبر، والتدبر هو لآي القرآن، والتذكر لآي اللوح المحفوظ، وهو الذي لا ريب فيه؛ إذ نسخته سماء وأرض وأفلاك، وليل ونهار وشمس وقمر ونجوم، كل ذلك في مطالع ومغارب، ودنيا وآخرة، وحياة وموت، وأرزاق وأعمال، وآناء مؤقتة، كل ذلك كتب للقلم الأول العلي لمقادير ذلك كله وآجاله، وكيف ولِمَ وبِم وبجميع توابع ذلك.

قال الله جل ثناؤه: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق:١٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٩٥٩٥) والبخاري (٣٠٢٢) ومسلم (٢٧٥١) والدارقطني في الصفات (١٥) بتحقيقنا.

(٢) أخرجه ابن عساكر (١٥٧/٦١) بلفظ: «تسبق» وأخرجه الترمذي (٣٥٤٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجة (٤٢٩٥) بلفظ: «تغلب».

ثم ليعبروا بما علموه في هذه الدار إلى الدار الآخرة فيتذكروا بذلك العلم بالله والمعرفة، ويوقنوا بالآخرة، وبما فيما هنالك من وجود مرغوب ومرهوب بوعد ما في هذا القرآن ووعيد، كذلك لا يتم تدبر آي القرآن للمتدبرين حتى يتعرضوا بنظهم الصائب وبصائرهم الناقدة إلى كل من خلقه الله جلَّ ذكره.

قال الله: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ**﴾ [الأعراف:١٨٥].

فصل

كما فُصِّل مجمل اللوح المحفوظ، بإظهار ما أظهره من الموجودات لوحًا بعد لوح، وعالمًا عالمًا على اختلاف ذلك كله واتفاقه؛ إذ كان المكتوب هو علمه نصًّا بقوله: ﴿**لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ [النساء:١٦٦].

وقال للقلم: «**اكتب**» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «**اكتب علمي في خلقي**»[(١)] فكتب، ومكتوب آخر المقدار مكتوب آخر؛ إذ قال للقلم: «**اكتب**» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «**اكتب ما هو كائن**»[(٢)] فكتب.

فعلمه مضمن جميع ما أوجده وما لم يوجده بعد مجملاً فصَّله تفصيلاً، كذلك أيضًا فصَّل مجمل كتابه الذي هو القرآن العزيز، الذي هو علمه من مكتوب اللوح المحفوظ بقول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج٢١-٢٢] ففصل علمه فيه عن مجمل معلومه في جميع ما أظهره من كلام، أو أنزله من كتاب، أو أرسله من رسول، أو ضربه من مَثل، أو قصه من قصص، أو أمر أو نهي أو وعد أو وعيد، وعلى جميع معاني القرآن الحكيم وضروب خطابه.

قال عز من قائل: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ**﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣] المعنى إلى آخره، فعلم القرآن لا يتم إلا في الدار الآخرة، وعلوم أهل تلك الدار فيه متفاوتة على مقدار

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٤٣٨) وأبو الشيخ في العظمة (٢٤٧/١).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٧٧٩) وابن بطة في الإبانة (١٣٥٦) بتحقيقنا - والطبراني في مسند الشاميين (٣٩٧/٢) والآجري في الشريعة (١٧٩).

تفاوتهم في علمه فيما هنا، فاعلمه.

فصل

كان من حكمة العليم الحكيم عز جلاله لما أن قصر أبصار عباده عن رؤيته بجلال شأنه عن إدراك في هذه الدار بوهم أو تصور في نفس، أو لحاق تفكر وضع لهم إدراكًا في الوصول إلى وحدانيته في نزيه ألوهيته، والارتقاء إلى البلوغ إلى حقيقة ربوبيته؛ بأن أشهدهم في البدء الأول على وحدانيته وعلى ربوبيته وعبوديتهم، تقديرًا من عزيز عليم.

وكان من لطفه ﷻ وجميل صنعه أن أظهر لعباده من معلوم علمه وموجود قدرته مقدار ما احتملته عقولهم؛ ليصل لهم بحبله حبلهم، وبفطرته التي فطرهم عليها معرفته فأشهدهم مشاهدتهم يومئذٍ فشهدوا بها على أنفسهم وله بالحق، ثم أشهدهم الآن مشاهدتهم؛ بأن أظهر لهم من أسمائه اسمه الله، وعرفهم به من أجله، وضمنه العالم كله بأسره، وجعل ذلك مقدارًا لما شاء إيجاده، وخلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق.

وهو مقتضى أسمائه وما هو المصير إليه في تلك الدار، فوقفوا بذلك على تحقيق ما قررهم عليه، وحقيقة ما شهدوا به يومئذٍ، سبحانه أنار الآيات، واستشهد بالشواهد البينات، وأوضح البراهين، فعقلت العقول، وعلمت الألباب الحق؛ لاتصالها بالحق الموصل للحق المبين، فلهذا أبصار بصائر الموقنين تنظر إليه الآن من وراء حُجب شفافة، لولا رداء الكبرياء يمنعها من التثبيت، وإجلال العظمة يقصر بها عن التبيين، وهذه آية على إتمام النعمة منه عليهم بالرؤية العليَّة، والقرب المكين في الدار الآخرة.

تفسير
سورة أم القرآن
الفاتحة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ١-٧].

قوله جل ثناؤه: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ...**﴾ [الفاتحة: ٢] إلى آخر السورة قرئ «**الْحَمْد لله**» بالنصب على المصدر، و«**الْحَمْدُ لله**» بضم الدال واللام على الإتباع، وبالكسر أيضًا لهما على الإتباع[2].

﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤] قرأ بذلك الكوفيون «**مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ**» بالألف ونصب الكاف على النداء، وقرأ بذلك جماعة وجملة من الأئمة «**مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ**» بكسر اللام ونصب الكاف على النداء أيضًا «**ملكِ يَوْمِ الدِّينِ**» بنصب الكاف والميم،

---

(١) لها أسماء تدل على شرفها: فمنها: «فاتحة الكتاب» لافتتاح قراءته وكتابته بها؛ لأن تسميتها وحمدها مبدأ كل أمر ذي بال تحاميًا عن البتر؛ لأن وجود كل شيء بظهور اسم الله تعالى فيه، وتقرره بشكره بل هو مستزيد. ومنها: الفاتحة لفتحها خزائن العلوم، فـ﴿**بِسْمِ اللهِ**﴾ إشارة إلى ذاته وأسمائه التي فوق الألوف، وجميع العلوم بمعرفته وعبادته، و﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ إلى ظهور ذاته بالوجود وصفات الكمال، ومنتهى العلوم الوصول إلى ذلك، وباء الإلصاق إلى التخلق بها والتحقق.

(٢) رُوِيَ بنصبِ «أَهْل» ورفعِه، أيْ: أعني أَهْلَ، أو هو أَهلُ الحمدِ. وإذا تكررتِ النُّعوتُ، والحالةُ هذه، كُنْتَ مُخَيَّرًا بين ثلاثة أوجه: إما إتباعُ الجَميعِ، أو قَطْعُ الجَميعِ، أوْ قَطْعُ البَعْضِ، وإتباعُ البَعْضِ. إلا أنك إذا أَتْبَعْتَ البعضَ، وقطعتَ البعضَ وجب أَنْ تَبْدَأ بالإتباعِ، ثُمَّ تأتي بالقَطْعِ من غير عَكْسٍ، نحو: «مررتُ بزيدٍ الفَاضِلِ الكَرِيمُ» لِئَلَّا يلزمَ الفصلُ بين الصفةِ والموصُوفِ بالجملةِ المَقْطُوعَةِ. [تفسير اللباب لابن عادل (٨/١)].

من يوم جعله فعلاً «مَلك يَوْمِ الدِّينِ» بفتح اللام من «مَلكِ» وجعله أيضًا فعلاً[١].

﴿إِيَّاكَ﴾ بتخفيف الياء في الحرفين جميعًا «إِيَاكَ» بفتح الهمزة فيهما هياك، وهياك في الحرفين أبدل من الهمزة هاء ﴿نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] بكسر النون وهي لغة[٢].

[قرأ الحسن:][٣] «اهْدِنَا صراطًا مستقيمًا» بغير ألف ولا لام، وقرأه جعفر

---

(١) قال ابن عادل في تفسير اللباب (١١/١): قُرِئَ: «مَالِك» بالألَف. قال الأَخْفَش: يُقال: مَلِك بَيّنُ المُلْكِ - بضم الميم، و«مَالِك» من «المَلِكِ» بفتح الميم وكسرها. ورُوِيَ ضمُّها -أيضًا- بهذا المعنى. وقال الرَّاغِبُ: المِلْكُ أي «بالكَسْرِ» كالجِنْس للملك، أي «بالضَّم» فكُلُّ مِلْكٍ «بالكسر» ملك، وليس كُلُّ ملكٍ مِلْكًا، فعلى هذا يكُونُ بينما عُمُومٌ وخُصُوصٌ مُطْلَقٌ وبهذا يُعْرَفُ الفرقُ بين ملك ومالك، فَإِنَّ ملكًا مأْخُوذَةٌ مِنَ المُلْكِ بالضمِ ومالِكا مأخوذ من المِلك «بالكَسْرِ» وقيل: إنَّ الفرقَ بينهما: أنَّ المَلِكَ: اسْمُ كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ السياسة، إمَّا في نَفْسِه، بالتمكُّنِ مِنْ زمامِ قواه وصرفها عَنْ هَوَاهَا. وإمَّا في نَفْسِهِ وفي غَيْرِهِ، سَوَاءٌ تولى ذلك أَوْ لَمْ يتولّ. وقد رَجَّحَ كُلُّ فَرِيقٍ إِحْدَى القِرَاءَتَيْنِ على الأُخْرَى تَرْجِيحًا يكادُ يسقط القِرَاءَاتِ الأُخرَى، وهذا غَيْرُ مَرْضِيّ؛ لأَنَّ كِلْتَيْهِما مُتَوَاتِرَةٌ، ويدلُّ على ذلك ما رُوِيَ عن ثَعْلَب أنه قال: إذَا اخْتَلَفَ الإِعْرَابُ في القرآن عن السَّبعةِ، لم أُفَضِّلْ إعْرَابًا على إعراب في القرآنِ، فإذا خرجتُ إلى كلامِ الناسِ، فضَّلْتُ الأَقْوَى. نقله أَبُو عَمْرو الزّاهد في «اليَوَاقيت».

(٢) إِيَّاكَ: كلمة ضمير خُصَّت بالإضافةِ إلى المُضْمَر، ويُسْتَعْمل مقدمًا على الفعل، وإيَّاكَ أَسْأَلُ؛ ولا يُسْتَعْمَلُ مؤخرًا إلّا منفصلاً؛ فيُقال، ما عنيتُ إلَّا إيَّاكَ. وهو مفعولٌ مُقَدَّمٌ على «نعبد» قدِّم للاختصاصِ، وهوَ واجِبُ الانفصالِ. واخْتَلَفُوا فيه: هَلْ هو مِنْ قَبِيل الأسماءِ الظاهرة أو المضمرة؟ فالجمهورُ: على أنه مُضْمَرٌ. وقال الزَّجَّاجُ رحمه الله تعالى: هو اسمٌ ظاهر. والقَائِلُون بأَنَّهُ ضميرٌ اخْتَلَفُوا فيه على أربَعةِ أقوالٍ: احدُهما: أنه كلمةُ ضَمِيرٍ. والثاني: عَلَى أَنَّ «إِيَّا» وَحْدَهُ ضَمِيرٌ، وما بَعْدَهُ اسمٌ مُضَافٌ إليه يبيّن ما يُرادُ به من تكلّم وغيبة وخطاب. وثَالِثُها: أَنَّ «إِيَّا» وحده ضميرٌ، وما بعده حُرُوفٌ تبين ما يُرادُ به من تكلم وغيبة وخطاب. ورابعُها: أَنَّ «إِيَّا» عمادٌ وما بعده هو الضميرُ، وشذّت إضافته إلى الظاهِرِ في قولِهم: «إذا بلغ الرَّجُلُ السِتِّينَ، فإياه وإِيَّايَ الشَّواب» بإِضَافَةِ «إِيَّا» إلى «الشواب» وهذا يُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ جَعَلَ الكَافَ، والهاء، والياء في محلّ جر، إذا قُلْتَ: «إِيَّاكَ إِيَّاه إِيَّايَ» وقد أَبْعَدَ بعضُ النَّحويّينَ، فجعل له اشْتِقَاقًا، ثمَّ قال: هَلْ هو مشتقٌّ من «أَوَّ» وقال بعضُهم: » إِيَّاكَ «بالتَخْفِيف مرغوبٌ عنه؛ لأنه بَصِيرُ: شَمْسَك نعبد؛ فإِنَّ إِيَاةَ الشمسِ: ضَوْؤُها -بكسر الهَمْزةِ، وقد تُفْتَحُ. وقيل: هي لها بمنزلةِ الهَالَةِ للقمر، فإذا حذفت التاءَ، مَدَدْتَ؛ وقد قُرِئَ ببعضِهَا شَاذًّا. [تفسير اللباب لابن عادل (١٦/١)].

(٣) الزيادة من هامش النسخة (ف).

الصادق ابن محمد - عليه السلام: «**اهْدِنَا صراط من أنعمْت عليه**». وقال ثابت البناني: «**بصِّرنا الصراط المستقيم**»[١].

﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] حُكي عنه بنصب الراء من غير[٢].

قال أيوب السِّخْتِيانِيّ: «**الضَّألينَ**» بالهمز؛ لئلا يجمع بين ساكنين[٣].

فصل

قال رسول الله ﷺ لأُبي بن كعب ﷺ: «**إني لأرجو ألا تخرج من المسجد حتى أعلمك سورة ما أنزل الله في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل مثلها**»[٤].

وفي أخرى: قال أبي هنا: أنا أصلي في المسجد إذ دعاني رسول الله ﷺ فأمهلت حتى أتممت صلاتي ثم أتيته، فقال لي: «**لِمَ لم تجبني حيث ناديتك؟**» فقلت: يا رسول الله، كنت أصلي. فقال: «**ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾** [الأنفال:٢٤] قال: فقلت: يا رسول الله، لا

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/١٦) لأبي حيان، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/٩).

(٢) اختلف القراء في الراء من غير، فقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي بخفض الراء، وقرأ ابن كثير بالنصب، وروي عنه الخفض. قال أبو علي: «الخفض على ضربين: على البدل، من (الذين)، أو على الصفة للنكرة، كما تقول مررت برجل غيرك، وإنما وقع هنا صفة لـ (الذين) لأن (الذين) هنا ليس بمقصود قصدهم، فالكلام بمنزلة قولك إني لأمر بالرجل مثلك فأكرمه». قال: «والنصب في الراء على ضربين: على الحال كأنك قلت: أنعمت عليهم لا مغضوبًا عليهم، أو على الاستثناء كأنك قلت: إلا المغضوب عليهم، ويجوز النصب على أعني». وحكي نحو هذا عن الخليل. ومما يحتج به لمن ينصب أن (غير) نكرة فكره أن يوصف بها المعرفة. والاختيار الذي لا خفاء به الكسر. وقد روي عن ابن كثير، فأولى القولين ما لم يخرج عن إجماع قراء الأمصار. قال أبو بكر بن السراج: «والذي عندي أن (غير) في هذا الموضع مع ما أضيف إليه معرفة، وهذا شيء فيه نظر ولبس، فليفهم عني ما أقول. [المحرر الوجيز لابن عطية (١/١٢)].

(٣) أي: بهمزة غير ممدودة كأنه فرَّ من التقاء الساكنين، وهي لغة. قال أبو الفتح ابن جني: وعلى هذه اللغة قول كثير.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٠٥)، ومالك في الموطأ (١٨٦)، والبيهقي فى القراءة خلف الإمام (١٠٣) وفى شعب الإيمان (٢٣٤٨) وأحمد في المسند (٨٩١٦) والدارمي (٣٤٣٦) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣٦١١) من مسند إسحاق بن راهويه.

أعود. فقال لي: «**لأعلمنَّك سورة ما أنزل الله في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل مثلها**» قال أبي: فجعلت أبطئ في المشي رجاءً أن يخبرني بها، فلما جئت باب المسجد قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتني بها. قال لي: «**كيف تقرأ إذا افتحت الصلاة؟**» فقرأت: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ...**﴾ [الفاتحة: ٢] فقال: «**هذه هي السبع المثاني**[١] **والقرآن العظيم الذي أعطيت**»[٢].

وفي أخرى: قال رسول الله ﷺ بعده: «**وهي أم القرآن وأم الكتاب، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت**»[٣].

وفي أخرى: «**وسبع من المثاني**»[٤] مصداق هذه الرواية قوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ**﴾ [الحجر:٨٧].

وإنما قيل لها: «أم القرآن» لأن القرآن كله من أوله إلى آخره يؤم ما فيها.

وقيل لها: «أم الكتاب» أي: اللوح المحفوظ؛ لأن اللوح المحفوظ يؤم بالكتب جملة وتفصيلاً ما جاء فيها؛ إذ الحمد مُعرَّفًا هو المعهود الذي هو لله ﷻ، جامع لكل ثناء وحمد مقول أو متوهم لله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، واسمه الله جامع لجميع الأسماء، والأسماء بما هي مقتضياتها في المقادير والكون.

قال الله ﷻ للقلم: «**اكتب**» قال: يا ربِّ، وما أكتب؟ قال: «**اكتب علمي في خلقي**»[٥] أي: معلوم علمي في خلقي أنزله بعلمه ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ [هود: ١٤] وقال أيضًا للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال:

---

(١) روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قرأ فاتحة الكتاب، وقال: «**هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي**». وإنَّما سمِّيت بالسَّبع؛ لأنها سبعُ آياتٍ، وفي تسميتها بالمثاني وجوه: **أولها**: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما والحسن وقتادة: لأنها تثنى في الصلاة، فتقرأ في كلِّ ركعةٍ. **ثانيها**: قال الزجاج: لأنَّها تثنى مع ما يقرأ معها. **وثالثها**: لأنها قسمت قسمين: نصفها ثناءٌ، ونصفها دعاءٌ، كما ورد في الحديث المشهور. ورابعها: قال الحسين بن الفضل: لأنَّها نزلت مرَّتين، مرة بمكَّة، ومرة بالمدينة. وخامسها: لأنَّ كلماتها مثناة. [تفسير اللباب لابن عادل (٦٤/١٠)].

(٢) تقدم في سابقه.

(٣) تقدم في سابقه.

(٤) تقدم في سابقه.

(٥) تقدم تخريجه آنفًا.

«اكتب المقدار»[١].

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وقال أيضًا للقلم: «اكتب» قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن»[٢] فكتب في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ كل شيء.

قال رسول الله: «كان الله ولم يكن شيء قبله»[٣].

وفي أخرى: «ولم يكن شيء معه»[٤].

وكتب في الذكر كل شيء، فكل الكائنات هو المعروف بكل شيء، وهو المعني بقوله الحق: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فكل شيء يؤم قوله الحق: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] تفصيلاً وذكرًا وإثباتًا.

فصل

أم القرآن[٥] سبعة فصول وسبع آيات، مشهور ذلك من عددها، وهي أيضًا

---

(١) تقدم تخريجه آنفًا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٨).

(٤) في «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته» (١٥/٢) كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي حَدِيث عِمْرَان بْن حُصَيْنٌ: «كَانَ الله وَلَا شَيْء قَبْلَهُ» و«كَانَ وَلَا شَيْءَ غَيْرَهُ» و«كَانَ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ».

(٥) في هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع: الأول: حسن الافتتاح وبراعة المطلع، فإن كان أولها «بسم الله الرحمن الرحيم» فناهيك بذلك حسنًا؛ إذ كان مطلعها مفتتحًا باسم الله، وإن كان أولها «الحمد لله» فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بما له من الصفات العلية أحسن ما افتتح به الكلام. الثاني: المبالغة في الثناء، وذلك لعموم «أل» في الحمد على التفسير الذي مرَّ. الثالث: تلوين الخطاب على قول بعضهم، فإنه ذكر أن الحمد لله صيغته صيغة الخبر ومعناه الأمر، كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٢] ومعناه النهي. الرابع: الاختصاص باللام التي في «لله» إذ دلت على أن جميع المحامد مختصة به، إذ هو مستحق لها وبالإضافة في «ملك يوم الدين» لزوال الأملاك والممالك عن سواه في ذلك اليوم، وتفرده فيه بالملك والملك. الخامس: الحذف، وهو على قراءة من نصب «الحمد» ظاهر وتقدم، هل يقدر من لفظ الحمد أو من غير لفظه؟ قال بعضهم: ومنه حذف العامل الذي هو في الحقيقة خبر عن الحمد، وهو الذي يقدر بكائن أو مستقر، قال: ومنه حذف «صراط» من قوله: «غير المغضوب» التقدير غير صراط المغضوب عليهم، وغير صراط الضالين. السادس: التقديم والتأخير، وهو في قوله: نعبد، ونستعين، والمغضوب =

سبعة أسماء، خمسة ظاهرة: اسمه الله جلَّ ذكره، واسمه الرب، والرحمن، الرحيم، الملك، واسمه المفهوم من صفة الحمد: الحميد، واسمه المستجن بين الصفة والاسم من قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهو ما أعلنه في قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا هو القرآن العظيم الذي أعطيه ﷺ.

وقد أشار إليه بقوله ﷺ: «**وهو القرآن العظيم الذي أعطيت**»[1].

وهذه السبعة الأسماء أيضًا هي السبع المثاني، وهي الأول بالمراد وبآخره، هي الآيات السبع وهن السبع، وقد عدت آية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيها بآية، وهذا يؤيد ما تقدم ذكره.

وأسماء الله جل ثناؤه في القرآن تزيد على المائة تنبيهًا في رؤوس الآي وفي أثنائها، وهي القرآن العظيم حيث جاء اسمه وذكره ذكرًا كان أو تحميدًا أو تمجيدًا وتعريفًا بها، وكيف جاءت أسماؤه في القرآن العظيم، فافهم.

قال الله جل من قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:٢١].

ثم قال عز من قائل ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] ثم جعل ينسق ذكر أسمائه العظام إلى آخر السورة، وإلا فما معنى قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] والقرآن كله عظيم إن لم يكن مقصود هذا الخطاب ذكر أسمائه وصفاته، لكن كلام الله ﷻ وسع ذلك كله.

وكذلك قال جل من قائل: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ

عليهم، والضالين، وتقدم الكلام على ذلك. السابع: التفسير، ويسمى التصريح بعد الإبهام، وذلك في بدل «صراط الذين من الصراط المستقيم». الثامن: الالتفات، وهو في «إياك نعبد وإياك نستعين». **التاسع**: طلب الشيء، وليس المراد حصوله بل دوامه، وذلك في «اهدنا». **العاشر**: سرد الصفات لبيان خصوصية في الموصوف أو مدح أو ذم. **الحادي عشر**: التسجيع، وفي هذه السورة من التسجيع المتوازي، وهو اتفاق الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروي. [تفسير البحر المحيط (١/٢٣-٢٤)].

(١) تقدم تخريجه.

لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد:٣١] وحذف ما معناه، فكان هذا أو ما شاء، وهو أعلم بما ينزل.

فالسبعة الفصول مثاني، والسبعة الأسماء مثاني، وآي القرآن كلها مثاني من المثاني، وقد نص على هذا في قوله عز قوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:٢٣] فأعلمك ﷻ أن ذكره في القرآن أسماء وصفات تبتنى على أنواع الخطاب فيه، وينشأ أنواع الخطاب عليها تقشعر منه جلودهم لهذا وتلين لهذا، وفي هذا البيان البيّن لما نحن بسبيل تبيانه لمن لقن الخطاب ووفق لقبول الصواب.

من ذلك قول رسول الله ﷺ لأُبي بن كعب - رضي الله عنا وعنه: «**أخبرني بأي آية في القرآن هي أعظم**» أوقال: «**أخبرني بأي آية أعظم في القرآن**» قال: فقلت: آية الكرسي يا رسول الله، قال: فضرب بيده في صدري، وقال: «**ليهنك العلم يا أبا المنذر**»[١] فأشار له ﷺ إلى موضع العلم منه، وكناه تعظيمًا منه له بحرمة العلم بما هو القرآن العظيم الذي علمه الله وهنأه بذلك.

ومتى تدبرنا آية الكرسي وتطلبنا المعنى الذي لأجله عظمت لم نجد إلا أنها وصف بصفة الله ﷻ ومن بالغ في البحث ألقاها مشتملة على الفصول السبعة التي جمعت الأسماء كلها كما تقدم في «شرح الأسماء»[٢] فعظمت الآية؛ لعظم قدر ذكر الله جلَّ ذكره، وعظم قدر أسمائه وصفاته، ولذلك أيضًا عظم قدر سورة الإخلاص؛ ولعظيم قدر أسمائه لو أنزلت على جبل لخشع وتصدع من خشية الله تعالى.

أخبر بذلك في كتابه العزيز في موضعين، وامتنَّ بها على رسوله محمد ﷺ؛ إذ

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٥٠)، وأحمد (٢١٣١٥)، وعبد بن حميد (١٧٨)، ومسلم (٨١٠)، وأبو داود (١٤٦٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٨٧)، والحاكم (٥٣٢٦).

(٢) انظر: شرح الأسماء للمصنف (١/١٥٠).

أنزلها إليه في مفتتح سورة ﴿طه﴾ وأعلمه أنه ما أنزل عليه هذا القرآن ليشقى، بل ﴿تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:٣] إلى قوله جل من قائل: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٩].

ثم إلى إخباره عن حديث موسى إلى قوله له: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

ثم جدد له ذكر الامتنان العلي بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه:٩٩-١٠١].

فأشبه هذا قوله في مفتتح السورة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه: ٢-٣] والقرآن كله عظيم، وهذا الذكر خاص منه، وهو الذكر الذي قال رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدق: «**الحمد لله تملأ الميزان، ولا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»[1].

عرَّض القرآن بما هذا معناه في قوله: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٤-٨].

فعرَّض في هذا الخطاب العلي بذكر كل شيء الذي هو العبد الكلي؛ إذ القائل: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] والقائل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» تصدقه العوالم أجمعها، ويصدقه كل شيء، فتقول كقوله تصديقًا له.

ولعل قول الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «**حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي، فوَّض إلي عبدي**»[2] **ثناء** من الله ﷻ على عبده الكلي الذاكر له

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (١٣٦٩).

(٢) تقدم تخريجه.

بالحمد، وثناء الرحمانية والرحمة والتمجيد والتفويض له والتعبد له وطلب المعونة أن كل شيء الذي هو العبد الكلي [فصلى له صلاته، حامدًا له، مثنٍ عليه، ممجدًا مفوضًا له، مؤتمًّا به][1].

ألا تستمعه - صلوات الله عليه وسلامه - يقول: «**إذا قال الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾** [الفاتحة:٧] **قالت الملائكة في السماء: آمين. وإذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده. قالت الملائكة في السماء: ربنا ولك الحمد**»[2].

والسماء عبارة عن جميع العلو إلى المنتهى، وإلا فما هو إلا نبأ العلي بقوله الحق: «**حمدني عبدي، أثنى علي عبدي...**»[3].

والعبد هو المصلي، يعلم أنه قد حمد وأثنى، وإن كان إمامًا عرف ذلك منه كل من ورآه، بل وهو أعلم بما يثني إخبار منه عن العبد الكلي، فما أعظم حباؤه وأكرم ثناؤه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ لهذا وما هو أعظم سماه: القرآن العظيم، وأمره أن يستغنى به عن كل شيء سواه بقوله جل قوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي**﴾ أي: سورة الحمد إلى آخرها ﴿**وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر:٨٧] هو ذكر أسمائه وصفاته.

يقول ﷻ: ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: على من لم يجب إلى هذا الأمر العلي، والجب السني ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الحجر:٨٨] الذين أجابوا وآمنوا بما جئت به، وقل لمن لم يجب: إنما ﴿**أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ**﴾ [الحجر:٨٩].

وجاء نظير هذا مختصرًا في آخر سورة «طه» منتظمًا بما جاء به من ذكر الأسماء الحسنى والقرآن العظيم في صدرها، فافهم والقن عن ربك بما فضلت أم القرآن التوراة والإنجيل والقرآن كله، وبما هي قرآن منزل من كنز تحت العرش، وبما هي أم الكتاب، وبما هي مثاني من المثاني، إن العبد الكلي الذي هو كل شيء

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في (ق) واستدرك من (ف).

(٢) أخرجه مالك (٣٠٤) والطيالسي (٢٠٩٠) وأحمد (١٢٠٩٥) وابن أبي شيبة (٧١٣٤) والبخاري (٧٠٠) ومسلم (٤١١) وأبو داود (٦٠١) والترمذي (٣٦١) والنسائي (٧٩٤) وابن ماجة (١٢٣٨) وابن حبان (٢١٠٢).

(٣) تقدم تخريجه.

ثني كلامه على كلام العبد الجزئي، وللعبد أجر ذلك، وثنى الله العلي الكبير كلامه على كلامهما، وللعبد الجزئي عن ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يقول العلي الكبير: «**إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وأطيب**»(١).

وفي أخرى: «**خير من ملأه وأطيب**»(٢).

مزيد بيان:

قال الله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**﴾ [الرعد: ٣١] إذ كان ما تقدم ذكره فقد صدقه؛ إذ كل شيء جماد ونبات وحيوان، الوجود كله علوه وسفله، وما هو كل شيء، والمشار إليه بهذا الوصف قوله: ﴿**وَهُمْ**﴾ يعني: الكفار ﴿**يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٠].

وقد تقرر مصداق هذا الخطاب باطنًا فيما تقدم ذكره، ولم يبقَ إلا إن شاء الله ذلك فيظهره؛ إذ بمشيئة الله جلَّ ذكره في أسمائه منفذ الحكم، ويتقدر الأمر، وبها يكون الوجود كله، وهذا الذكر هو المشار إليه بقوله الحق: ﴿**وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: إن ذكر الله بأسمائه وصفاته أكبر، وذكر الله عبده في الصلاة أفضل من الصلاة، وهذا الذكر هو الذي إذا يسره الله للمصلي وأحضره قلبه نهاه عن الفحشاء والمنكر.

يقول الله جل من قائل: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤] أي: لتذكرني فيها وأذكرك، وعلى الحرف الآخر ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ فخاطب رسوله بالتعريف؛ ليفشو ذلك في عرفان الوحي ومعلوم النبوة.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٣٤٠)، والبخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣) وابن ماجة (٣٨٢٢)، وابن حبان (٨١١).

(٢) تقدم في سابقه.

وفضل الذكر مشهور[1] حتى أن فضائله فاقت العقول، وقد قال أهل العلية من الأشياخ - رضى الله عنا وعنهم: ما جاء في فضائل ثواب الذكر لا يعلم سببه ولا يوجد الإيمان به إلا تسليمًا.

وقال بعضهم: لو قرأت أم القرآن على ميت ما كان بعجيب، ومصدق ما قاله - رضي الله عنا وعنه - ما تقدم ذكره مما تلونا في سورة الرعد، وفي بعض ما ذكرنا دليل عما عنه أمسكنا، هذا إلى قول رسوله الله ﷺ: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]»[2] فاستفتحوا الأبواب رحمكم الله، وارتقوا في الأسباب علمنا الله وإياكم من علمه، وأجزل حظنا وحظكم من معرفته، وأحسن عوننا جميعًا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

فصل

كما أوجد العالم كله عن أسمائه وقسمه قسمين: أمر وخلق، فكذلك أنزل القرآن العزيز على عبده إلى شهادتين: شهادة ألوهية، وشهادة رسالة.

قال الله جل من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فأخبر ﷻ أن يحمل ما أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب شهادة أن لا إله

---

(١) الذّكر لغةً مصدر ذكَر الشّيء يذكره ذِكْرًا وذُكْرًا، وقال الكسائي: الذّكر باللّسان ضدّ الإنصات ذاله مكسورة، وبالقلب ضدّ النّسيان وذاله مضمومة، وهو يأتي في اللّغة لمعانٍ: **الأوّل:** الشّيء يجري على اللّسان؛ أي ما ينطق به، ومنه قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] **والثّاني:** استحضار الشّيء في القلب، ضدّ النّسيان، قال تعالى حكايةً عن فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] أمّا في الاصطلاح فيستعمل الذّكر بمعنى ذكر العبد لربّه ﷻ سواء بالإخبار المجرّد عن ذاته، أو صفاته، أو أفعاله، أو أحكامه، أو بتلاوة كتابه، أو بمسألته ودعائه، أو بإنشاء الثّناء عليه بتقديسه، وتمجيده، وتوحيده، وحمده وشكره وتعظيمه. [الموسوعة الفقهية (٧٤٨٩/٢)].

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٦٥٢) وابن أبي شيبة (٢٩٣٦٣) وأبو داود (١٤٩٦) والترمذي (٣٤٧٨) وابن ماجة (٣٨٥٥) والطبراني (١٧٤/٢٤ رقم ٤٤٠) والبيهقي فى الشعب (٢٣٨٣) وعبد بن حميد (١٥٧٨) وابن الضريس فى فضائل القرآن (١٨٢) والدينوري فى المجالسة (١٥).

إلا الله، والإقرار بالرسالة والشهادة للرسول، والاقتداء به فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، كنى عن هذه الجملة بقوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾.

وقال أيضًا: جل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:٦٤] كذلك ما حكاه عن كتاب نبيه سليمان ﷺ إلى صاحبة سبأ قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ هذا عنوانه، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: أن مجمل ما فيه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠] هذا الإقرار بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١] هذا معبر عن الإذعان لله ﷻ، ثم للرسول المرسل والأمر بطاعته والاقتداء به ابتغاء رضوان الله، والعمل بطاعته، وكل رسول أرسله إلى أمة من الأمم إنما كان قولهم لأممهم ما معناه: اتقوا الله ما لكم من إله غيره، واتقوا الله وأطيعوني ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[مريم:٣٦] الصراط المستقيم عبادة الله وحده، وطاعة الرسول.

ثم ينقسم ما جاء به الرسول عن الله جلَّ ذكره إلى قسمين: بشارة، ونذارة بجميع أنواع الخطاب المعبر عن هذا وهذا، أمرًا ونهيًا ووعدًا ووعيدًا، وسع ذلك كله اسمه الله جل ثناؤه، ثم جميع الأسماء إلى ما تفصل إليه القرآن من معنى وخطاب معبر عنه.

تنبيه:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب على نفسه كتابًا قبل أن يخلق خلقه بخمسين ألف سنة: إن رحمتي سبقت غضبي**»[1].

مصداق هذا قوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:٤٣]. ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

كذلك أخبر عنه ﷻ وتعالى علاؤه شأنه أنه قال: في أزل أحديته: «**أنا الله لا إله إلا أنا، سبقت رحمتي غضبي**»[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وفي رواية أخرى: «**إن الله كتب على نفسه كتابًا يوم استوى على العرش: إن رحمتي تسبق غضبي**»[1] هكذا بلفظ الاستقبال وجود معنى هذا الكتاب العظيم تسبيقه كلمة «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» في بدأة أمورنا كلها وختمه إياها بكلمة «**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**» كذلك تسبيقه في قراءتنا سورة ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢].

نص على ذلك قوله الحق: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله جل قوله: «**ورحمتي وسعت كل شيء**»[2].

وقول الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا**﴾ [غافر:٧].

ومن ذلك أيضًا: خلقه عباده على فطرة الإسلام حنفاء إلى أن اجتالهم الشيطان عن دينهم بمشيئة الله وإذنه.

ومن ذلك: خلقه آدم عليه السلام وبنيه على صورة الحق، ثم أسكنه الجنة أولاً إلى أن واقع المحذور، ثم خلقه بنيه كذلك في أحسن تقويم، ثم يكفر من كفر منهم من يمسخ باطنه إلى ما شاء من موجودات المكروه، ثم إذا أماته أتم مسخه ظاهرًا وباطنًا.

قال الله جل من قائل: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [التين: ٥-٦].

هذا وجود مقتضى هذا الكتاب العلي موجود في الوجود كله، وكان ذلك الكتاب عنوانًا لمسالك الحكم والأعذار والأمهال، وما كان لأجله العفو والمغفرة والفضل إلى غير ذلك من أفاعيل الكرم والإحسان وجميل الفعال.

وفي أخرى فيما أنبأ به عن ذلك الكتاب العظيم: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[3].

بيّنه قول رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم يجعل فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١١١١٤) قال الهيثمي (١١٢/٧): رجاله ثقات لأن حماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط. وعبد بن حميد (٩٠٨)، وأبو يعلى (١٣١٣)، وابن حبان (٧٤٥٤).

(٣) تقدم تخريجه.

يضع الجبار فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط قط» أي: حسبي حسبي حسبي.

ومصداق تأويل ذكر القدم قوله عز جلاله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] فتأويل القدم هنا ما قد قدمه في قدمة الأمر قوله: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[١].

أظهر ذلك في هذه الدار بغلبته إياها بفتحه من رحمته عز جلاله كلما طفت سعيرها أو زمهريرها، وجعله الحسنة بعشر أمثالها والسيئة مثلها، وتكفيره بالحسنة الواحدة عشر سيئات.

من ذلك أيضًا: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ذلك ذكرى للذاكرين ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾** [الإخلاص:١] جزءًا»[٢].

وفي أخرى: «**فجعل سورة يس جزءًا**»[٣].

ومصداق ما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - من القرآن: قول الله جل ثناؤه: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٣٢].

وشاهد هذا في القرآن كثير جدًّا، إنما هو الله جلَّ ذكره وأسماؤه وصفاته، ثم الرسول وما جاء به من أمرٍ ونهى، ثم النظر والتفكر والتدبر والعبرة من شاهد إلى غائب.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «سورة يس قلب القرآن»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥٦٢)، ومسلم (٨١١) والدارمي (٣٤٣١).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه القضاعي في الشهاب (١٠٣٦).

ومصداق ما قاله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وإنما تعقل القلوب إذا عملت عملها الذي أوجدت له من التفكر والتذكر ونحو هذا ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢].

وباب هذا كثير واسع، ففي هذا البيان البيّن أن ذكر أسماء الله وصفاته، والثناء عليه بما هو أهله والتحميد والتمجيد وما هذا بابه في جميع القرآن هو الجزء الذي من أجله جعل ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] جزءًا، ثم ما كان من ذكر الرسالة والنبوة، وما جاءت به من أمر ونهي ووعد ووعيد وبشارة ونذارة، وما نحا نحو هذا فهو جزء ثانٍ، ثم ما جاء به من تذكير ووعظ وتذكر وتفكر ونظر واعتبار ونصب الدلائل، وجعل الشواهد على ذلك وضرب الأمثال لتنبيه الفطن، وتوليد خواطر العلم وإثبات حقائق اليقين، وما جزء إلى ذلك واجتمع إليه مما هو منه فهو من الجزء الذي جعل سورة يس منه.

فصل

ثم يصعد التفصيل إلى ستة أجزاء، سابعها: الاعتبار الذي تقدم ذكره وهو مفتاح غلقها بالإضافة إلى المتفكرين والمتدبرين في القرآن العزيز، وهي الإلهية بصفاتها وأسمائها، وفي ذلك المعرفة كلها، ثم فصل الوحدانية، وفيه العلم كله، ثم فصل الربوبية.

وفي ذلك: الوقوف على معرفة النعم والتذكار بالعهد الأول، وإثبات الأمانة التي ائتمنوا عليها حين التزام ربقة العبودية بشروطها، والإقرار بالربوبية لوليها، والتزام حقيقة التوحيد وتصديق الرسل، ووجوب الاقتداء بهم ونصرهم والتبليغ عنهم، ثم فصل النبوة ومعرفة خاصيتها.

وفي ذلك: معرفة فرقان ما بين النبي والمتنبئ، ومعرفة خاصتها المعجزة من الكرامة من المعهود الجاري على العوائد، وأن ذلك من المقدور الغائب، ومعرفة الغائب ما هو على الإجمال به، ومعرفة فرقان ما بينه وبين المعهود الخاص والحاضر المعتاد وبين المقدور الغائب وخاصّه معرفة هذا كله من الشعوذة

والتخييل، ومعرفة خاصة الولي والولاية، والخلة من الأخوة، والخلة العليا من الاصطفاء من موجود عموم العبودية.

ثم فصل معرفة التعبد بما جاءت به الرسل عليهم السلام، والإذعان للنبي والرسول، والإيمان بما جاء به من حكمة وإعلام بغيب، على تجميل ذلك كله وتفصيله.

ثم فصل الأمانة، وكيف تحمل العهد والتزام الميثاق، وإبرام عقدته والتبري من نقضها، والتعوذ من الخيانة، ونكث العهد بها ومنها.

ثم فصل الاعتبار وهو مفتاح غلقها من حيث العلم، وموضع مريد اليقين منها، حتى يصعد إلى علم اليقين ثم إلى الرؤية بعين اليقين في حقائق الإيمان.

ثم تتفصل هذه السبعة الفصول إلى مائة فصل عدد أسمائه جلَّ ذكره، وعددها عدد درجات الجنة، عنها انفصل العلم كله وإليها يرجع.

قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعون اسمًا، مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة**»[١].

وقال: ﷺ «**إن في الجنة لمائة درجة، إن ما بين الدرجتين لكما بين السماء والأرض أعدهن الله للمجاهدين في سبيله**»[٢].

وهذه الدرجات المذكورة على عدد الأسماء المروية، وهي في الجنة مما رأته العين وسمعت به الأُذن، ثم من بعد من بَلْهِ هذا الذي اطلعوا عليه ينولون منه ما لا عين رأته، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر.

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

ولله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أسماء ومحامد يظهرها في تلك الدار على فخامتها وسعتها وبقائها في آماد آبادها، ما ذلك الذي عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**في الجنة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[٣] بَلْه ما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٦٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٣٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (٨١٢٨)، والبخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣١٩٧).

اطلعتم عليه بغير حرف من قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] به أحاط بهذا، وهذا بضم الهمزة من «أخفي» وإسكان الياء، فتكون الألف على هذا ألف المتكلم، تقديره: وما أخفي أنا لهم من قرة أعين به أحاط بهذا.

وهذه الفصول السبعة للقرآن شبيهة بالفصول السبعة للأسماء، وقد تقدم ذكرها في «شرح الأسماء»[(١)] وهي أيضًا شبيهة بالأيام الستة، سابعها: يوم الجمعة، وهو جامعها وموضع مزيدها، عنه انفصلت وإليه ترجع.

ثم على نحو ما تقدم من العبرة في اسم الشهيد[(٢)] وهذه الفصول السبعة وما تفصلت إليه ترجع كلها إلى فصلين: فصل الإلهية، وفصل النبوة، ويرجعان معًا إلى فصل الإلهية الأعلى ينتظم الأسفل.

فصل

ربما تميزت هذه الفصول السبعة في القرآن بالنص كما قد تتميز مسالك الأسماء في العلم بظاهر الوجود، وربما رقَّ الخطاب كما قد تتشاكل الوجوه وتشتبه، فتمس الحاجة إلى التأمل بحدة البصيرة، وربما تداخلت المعاني فخفيت في أثناء الخطاب، فتنازعت المراد وتقسمت المعاني لذلك، فكان للخطاب الوجهان والأكثر، وربما تباعدت المعاني وتباينت كوجود الموجودات سواء، وربما قد تقدم خطاب وقد كان في سياق الظاهر أولى بالتقديم، وربما تأخر خطاب وقد كان التقديم أقرب إلى الأفهام على موضع سياق الظاهر؛ لحكمة بالغة لا يوقف على تحقيقها مع باديء الرأي، فأشكل لذلك التمييز بين مراد ومراد على ذلك.

فعليك - وفقك الله - بالتوقف على هذا؛ لتحقيق النظر والتضرع إلى مالك عظيم الإجابة ﷻ في أن يفهمك عنه، وإياك والقناعة بما يبدو أولاً من بعض الأوجه؛ فقد تعرض الفتن في بعض المواطن قبل التثبت والابتهال في العصمة، والضراعة في التوفيق، فتردد في البحث والنظر وسله الفتح والإلهام إلى الرشاد،

---

(١) انظر: شرح الأسماء الحسنى للمصنف (٢/٣٧٦).

(٢) انظر: شرح الأسماء الحسنى (٢/٣).

وذلك من أعظم العون لك، ما أنت بسبيله. انتهى.

وهذه الفصول السبعة للقرآن شبيهة بالفصول السبعة للأسماء، وقد تقدم ذكرها في «شرح الأسماء» وهي أيضًا تشبه بالأيام الستة، سابعها: يوم الجمعة، وهو جامعها وموضع يدها، عنه انفصلت وإليه رجعت، ثم على نحو ما تقدم من العبرة في اسم الشهيد.

فصل

أُم القرآن بما جمعت الثلاثة المعاني الذي تقدم ذكرها تلك الأجزاء مجملة فيها، ثم هو مفصل في القرآن كله من وقف بحقيقة الفهم عن الله جلَّ ذكره في قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فعلم أن الحمد جامع للمدائح كلها والثناء الحسن أجمعه، فعل الله حمد، وحكمه حمد، وأسماؤه كلها حمد، وصفاته حمد، وهو الحميد المحمود.

وإن اسمه الله جامع لمعاني الأسماء كلها، وإن قوله: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ جامع لمعاني العبودية والربوبية والوحدانية بتوابع ذلك كله وحقائقه، وإن ﴿العَالَمِينَ﴾ معنى جامع لكل مذكور من المخلوقين شامل لجميع الموجودات سواه، أشرف بفهمه على أن كلمة ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] أم القرآن كله.

وأن قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ بعدها أم القرآن كله، بلى من فقه عن الله - جلَّ ذكره - علم أن كل واحدة منهما أم الكتاب المبين؛ إذ رحمة الرحمانية عمت موجودات الدنيا والآخرة، ورحمة اسم الرحيم خاصة بالدار الآخرة للمؤمنين، واسمه الله ﷻ جامع جميع الأسماء كلها.

وقد كان الله أحدًا صمدًا، لم يكن موجودًا سواه أحد، ثم أوجد الموجودات وفطر الأرضين والسماوات، فكان هذا الواحد الجامع لكل شيء مذكور معدوم أو موجود، فكذلك اسمه الله ﷻ جامع لسائر الأسماء الظاهرة، وأوجد الموجودات على مقتضياتها، فكلمة ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أم للكتاب المبين وأم لسورة ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وأم القرآن كله، وهو المعني بقوله وهو أعلم: «اكتب

علمي في خلقي»[1] علمه في خلقه: أسماؤه، ومقتضاها: موجود خلقه وأمره.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ أم للكتاب المبين، وأم للقرآن الكريم، وهو المعني بقوله وهو أعلم: «**اكتب ما هو كائن**»[2].

وجملة: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ قد فاتت موجودات الدنيا والآخرة؛ إذ مدائحه ﷻ لا تبيد، وحمده لا ينفذ، وإنما أخرج إلى الوجود علمه في خلقه لا علمه بذاته ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وهو القرآن العظيم الذي أعطيه ﷺ.

فصل

جميع ما ذكره في القرآن العزيز من أسمائه مرة جعلها آيات تُتلى كأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وسورة الإخلاص وآية الكرسي ونحو هذا، ومرة جعلها مذكورة متلوَّة في أثناء الآيات، وتارة يختم بها الآيات فتكون رؤوسًا لها، وهو الأكثر، وفي سورة ثنى بعضها على بعض في الذكر والتلاوة، وفي كل صلاة، وكذلك ذكر الذاكر لله جل ثناؤه، ويثني الذاكر لله ذكره بعضه على بعض فيردده تهليلاً بعد تهليل وتسبيحًا بعد تسبيح.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١].

﴿وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

ووجه آخر: هو أن الله - جل من قائل - يقول: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فهو ﷻ إذا شاء ذكَّر عبده بأن يذكره فيذكره العبد؛ لأن ربه ﷻ ذكره بذلك فيذكره، فذكره هو جلَّ ذكره جزاءً لذكره إياه هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

فصل

﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قد تقدم أن الحمد جماع المدائح كلها، والألف واللام في قوله جل قوله: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ للتعريف وللعهد، فالعهد لتعريف الحمد الذي ينبغي لعز جلاله وعلي شأنه، والعهد معهود حمده في كتابه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الأزلي قبل البدء الأول في الدهر الداهر حيث لا حامد ولا محمود سواه.

ثم أظهر ﷻ خلقه فأظهر في ذلك حمده وحمد الحامدين له في الأولى والآخرة، فالمفهوم الأول بالأول هذه الحياة الدنيا، والمفهوم الأعظم أولية لا أولية لها متصل بآخرية لا آخرية لها.

وقوله: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ جميع ما خلق وذرأ وبرأ من شيء الذي عبر عنه بقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] المعبر عنه بالجملة المسمى بالعبد الكلي، له الحمد في ذلك كله أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا.

فصل

نحن وإن كنا نقول: إن الآيات أيضًا مثاني؛ إذ ينثني بعضها على بعض تلاوة ومعنى، كما أن ما بين الدفتين قرآن عظيم، وكما نقول: إن القرآن كله ذكر.

قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١].

كذلك قال رسول الله ﷺ في اللوح المحفوظ، وكتب في الذكر كل شيء، فكذلك يقول: إن ذكر أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته هو القرآن العظيم، وإن كان القرآن كله عظيمًا، لكن هذا هو الأعظم والأعرق في الذكر.

ولذلك قال رسول الله ﷺ وقد سُئل: أي العبادة أعظم درجة عند الله؟ قال: «**الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**» هكذا رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: قلت له: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «**لو ضرب الغازي في سبيل الله بسيفه الكفار حتى تنكسر ويختضب دمًا لكان الذاكر لله كثيرًا أفضل منه**»[1].

وروى أبو الدرداء وغيره قال: قال النبي: ﷺ «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فيضربوا أعناقكم، وتضربوا أعناقهم**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**ذكر الله**»[2].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣٧١)، والبغوي في شرح السنة (٣٧٩/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٥٠)، قال المنذرى (٢٥٤/٢)، والهيثمى (٧٣/١٠): إسناده حسن.
=

وروى عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما على وجه الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إلا كفرت عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر**»(١).

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سبح مائة بالغداوة ومائة بالعشي كان كمن حج مائة حجة، ومن حمد الله مائة بالغداوة ومائة بالعشي كان كمن حمل على مائة فرس في سبيل الله** - أو قال: «**غزا مائة غزوة**» - **ومن هلل مائة بالغداة ومائة بالعشي كان كمن أعتق مائة رقبة من ولد إسماعيل، ومن كبر بالغداة مائة ومائة بالعشي لم يأتِ أحد في ذلك اليوم مثل ما أتى به إلا من قال: مثل ما قال، أو زاد على ما قال**»(٢).

ومصداق ما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - من كتاب الله قوله ﷻ: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿**وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ وَالله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] يعني: ما تعملون من ذنوب لا بد من إتيانها؛ إذ هي مقدرة قبل الكون، يقول: نغفرها بالذكر، فذكر الله جلَّ ذكره أكبر من الأعمال كلها؛ لأنه ذكر أكبر مذكور؛ لأن ذكر العبد مقترن بذكر الله هذا للذكر، فكبر قلة الذكر لله ﷻ لأجل ذلك إلى ما لا غاية له تعلم.

قال الله ﷻ: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢] وأعمال الجوارح فيما سبيله طاعة الله لا يقاس بمتاع الدنيا، والذكر لله تعالى لا تجده أبدًا يقاس إلا بالقرب، فقد آن أن يتبين لك من هذا ونحوه أن ذكر أسمائه وصفاته هو الذكر الأكبر، وذكره في القرآن هو القرآن العظيم.

ومما يزيد المعنى إيضاحًا: قول الله جل قوله: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل...**»(٣) إلى آخر

=

والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجة (٣٧٩٠)، والحاكم (١٨٢٥)، والبيهقي في الشعب (٥١٩).

(١) أخرجه أحمد (٦٤٧٩)، والترمذي (٣٤٦٠) وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧١) وقال: حسن غريب.

(٣) تقدم تخريجه.

الحديث، فذكر ﷻ أنه يذكر عبده عندما حمده، وعندما أثنى عليه، وعندما مجده، وعندما فوض إليه، وعندما توجه إليه بالعبادة وطلب المعونة.

ثم لما وصل إليه بالمواجهة في الخطاب أعطاه سؤاله وقضى مآربه، فذكره لما ذكره، وقضى حوائجه، واستجاب له دعاءه لما وصل إليه وسأله، فكفى بهذا الحديث بيانًا وحجة لصحة قول من قال: إن معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] إنها الأسماء التي في هذه السورة، وأنها بعض من كل المثاني التي هي الأسماء والصفات، والذكر لله في جميع القرآن.

إنباؤه إياي؛ أعني: ونفسي، أخاطب أين يذهب بك أيها اللاعب المتلاهي والبطال المتغافل؟ أغفلت حظك ولهيت عن فوزك رب العالمين الرحمن الرحيم ذو العرش العظيم، يذكرك ويثني كلامه العظيم على تلاوتك، ويجعل لك حظًّا من ذكره العلي في حضرته العليا وقدسه الطاهر، وأنت على ذلك في سهوك وذهول غفلتك عن الإقبال وصدق التوجه، وترك الشكر على هذه المنة العظيمة ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

وعند الله نحتسب غفلة التخلف ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ﴾ [يوسف:١٠٧].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ [الفاتحة: ١] هو اسم ممنوع من سواه تبارك وتعالى، خاص له، لا يتسمى به إلا هو، دلائله في السماوات والأرض ظاهرة، وعلاماته وآلاؤه وشواهده في الوجود والوحي شائعة، خلق الرحمن مائة رحمة، أهبط منها إلى الأرض واحدة وأمسك عنده التسع والتسعين اسمًا، إلى أن يضيف هذه إلى ما عنده ويرحم بها عباده المؤمنين.

وقد امتلأ العالم من هذه الرحمة كامتلاء الجو بهوائه والبحر بمائه العالم كله مفتقر بعضه إلى بعض، متعاطف بعضه إلى بعض، مواصل بعضه بعضًا، فمن حامل

ومحمول بذلك تماسك الملكوت، وتماشجت[1] الرحموت، ومن نظر إلى بديع الأحكام في جملة العالم وحسن ترصيف نظامه، ووقف على اطراد تصنيف الترتيب فيه، وتماسك بعضه ببعض، وتعاطف بعضه على بعض، وأشرف بعد ذلك على قوة الضغط وشدة الدمر، وشمول هذا القهر علم يقينًا أن ذلك لا يكون إلا من رحمن ألَّف نظامه، وأحسن تعاطفه، وفاضل استجابة ما بين بعضه وبعض على مقاربة بعضه لبعض، وإن ذلك لا يكون إلا عن استجابة كله إلى كله، وأنه الغني الحميد وسواه المحتاج إليه الفقير.

وذلك عن إثارة كتاب كتبه ﷻ على نفسه يوم خلق العرش فيه: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[2]. وفي أخرى: «**تغلب غضبي**»[3].

وقد تقدم الكلام في آياته الشرعية في غير هذا الكتاب فأغنى عن إعادته. انتهى.

وأما اسمه «الرحيم» جلَّ ذكره فمبالغ من: راحم، ومقتضى اسم «الرحمن» جلَّ ذكره عام في الدنيا، شامل للمؤمن والكافر والطائع والعاصي، وفي الآخرة متناول للمؤمن خاصة إلا ما استثني من ذلك بحكم المشيئة، ومقتضى اسم «الرحيم» خاص للمؤمنين.

قال الله جل من قائل: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب:٤٣].

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي**﴾ [العنكبوت:٢٣].

ثم هما - أعني: اسميه «الرحمن الرحيم» - ظاهر معناهما جدًّا في الآخرة لعباده المؤمنين خاصة.

قال الله جل من قائل: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون:١٠١] فإذا قال العبد: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ قال الله ﷻ: «**أثنى علي عبدي**»[4] أي: أثنى الثناء الحسن بقوله: ﴿**الرَّحِيمِ**﴾ على قوله: ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾

---

(١) مَشَج بَيْنَهم: خَلَط، والمَشِيجُ: المختلط من كل شيء. انظر: مختار الصحاح (١/٢٩٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وبهما معًا على قوله: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] بكريم الكفالة وعليّ الكلاءة والحفظ والتوقية والرحمة.

فصل

كان الله ﷻ ولا شيء قبله، ولا موجود سواه، ولما كتب في الذكر كل شيء ثم أوجد أوائل ما كتبه فكان ذلك ثناء لفردانيته، ثم استوى على العرش فحمد كل شيء باستوائه على العرش؛ إذ يحيي باستوائه ذلك العبد الكلي، واستوى؛ أي: كمل وتمَّ كما شاءه المستوي العلي الكبير، فهو - جلَّ ذكره - لا يعزف عنه من موجودات عبده الكلي والجزئي مثقال ذرة في العلو ولا في المنتهى، ولا ما هو أصغر من ذلك ولا أكبر، فكان مقتضى اسمه «الرحمن» شامل للجملة، ومقتضى اسمه «الرحيم» عام للمطيعين.

ثم هو تعالى جامع رحمته بهما لعباده المؤمنين في مستقبل الشأن من الدار الآخرة قوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤].

قال رسول الله ﷺ: « **يقول الله: مجدني عبدي**»[1].

المجد لا يكون إلا بالملك والسلطان والتمكين وسعة البسطة، مع حسن الفعال وجزيل العطاء وكرم السيرة، مع شدة البأس على الأعداء، وعظيم الإحسان إلى الأولياء.

وفي أخرى: «**فوَّض إليَّ عبدي**»[2] ففي قول العبد: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ إقرار منه بالبعث بعد الموت، وإيمان بالجزاء واليوم الآخر، مع العلم بالجزاء العاجل، إلى غير ذلك من أحكام الدنيا والآخرة، فينثني هذا التمجيد على حسن الثناء، وهما على التمجيد والدين متردد إلى معنى الجزاء والطاعة.

فمقتضى اسمه «مالك» في هذا الموضع: إنه مالك بالطاعة المطيعين، وأمانة الأمينين، وخلاف المخالفين، وجزائهم من ثواب وعقاب، يعطي ما شاء من شاء من ذلك ويمنع، كما أن ظاهر مقتضى «ملك» أن له الملك كله يومئذٍ ولم يزل كذلك،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

لكن في ذلك اليوم ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار:١٩].

وقد جعل اليوم من ذلك لمن شاء ظاهرًا من الأمر ابتلاء واختبارًا، كذلك ظاهر التمجيد لاسمه «الملك» كما أن التفويض لظاهر مقتضى اسمه «المالك»؛ لذلك - وهو أعلم بما يُنزِّل - يقول: «**مجدني عبدي، فوض إليَّ عبدي**»[(١)].

قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[(٢)] [الفاتحة:٥] وهي كلمة مركبة من أربعة أحرف هن حروف المعرفة: الهمزة والياء والألف والكاف والهمزة صادرة من ذات المخاطب إلى الكاف التي هي لمواجهة المخاطب، والياء والألف سبيل إلى ذلك، وعماد له أشار بها السر المخاطب بالإخلاص للعبادة على حكم التوحيد المحض، والتزام العبودية والإقرار له بالربوبية المأخوذ عليه من أجلها الميثاق في العهد الأول مع إخلاص التبرؤ من الحول وبإخلاص الحول والقوة لله ﷻ، والتبرؤ من جميع ما تدعيه النفس أو تنسبه إلى ذاتها.

وفي ذلك تعريض لطلب المعونة والتجاوز عما يكون من تقصير عن حق من أخلص لمن أخلص إليه واستعان به ووحَّدَه؛ إذ معنى ذاك: خالص التعبد.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] إظهار الفقر والفاقة إليه، ومعنى الجملة: إنا نعبدك يا ربنا وحدك لا شريك لك، ونبرأ إليك من الحول والقوة، والدعوى في منزلة يوجبها قول أو عمل أو أمر من الأمور دون جحد منا لما أوليتناه من نعمتك، وما تقدمت به إلينا من منتك من إتقان الصور، وصحة الجوارح وسلامة الحواس، وإيجادك صفاتنا كلها الموجودة بنا دون استغناء منا بها عنك، أو مفارقة افتقار بها إليك، ولما أظهر العبد الافتقار وتبرأ إليه من الحول والقوة حسنت حالته عنده،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ هو كناية عن اسم الله تعالى، وفيه قولان: **أحدهما**: إن اسم الله تعالى مضاف إلى الكاف، وهذا قول الخليل. **والثاني**: إنها كلمة واحدة كُنِّيَ بها عن اسم الله تعالى، وليس فيها إضافة؛ لأن المضمر لا يضاف، وهذا قول الأخفش. وقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: **أحدها**: إن العبادة الخضوع ولا يستحقها إلا الله تعالى؛ لأنها أعلى مراتب الخضوع، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم، كالحياة والعقل والسمع والبصر. **والثاني**: إن العبادة الطاعة. **والثالث**: إنها التقرب بالطاعة. والأول أظهرها؛ لأن النصارى عبدت عيسى عليه السلام ولم تطعه بالعبادة، والنبي ﷺ مطاع وليس بمعبودٍ بالطاعة. [النكت والعيون (٦/١)].

فأذن له بالسؤال بقول غيب.

قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] الهداية: التسديد والإرشاد، وإتمام النعمة على المهدي هو الإصابة به الحق المقصود هنا زائد من شرح ما يُحمل في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] سُئل فأعطى وله الحمد، وأغفل عن ذلك قلوب الكافرين.

وتمام النعمة في الهداية الإصابة بالهدي إلى الحق المقصود، وحسن استعماله فيه، والخاتمة بذلك على السنن المرتضي والسبيل الأهدى، و«**الصراط المستقيم**» هو عبادة الله وحده عقدًا وعملاً يقترن بذلك الإيمان بالرسول والاقتداء به، والإيمان بالملائكة والكتب، والإيمان بالله جل ثناؤه، وبالإيمان برسله وكتبه وملائكته وجميع ما جاء من عنده من غيب وشهادة يقترن بذلك العمل والإخلاص لله وحده.

وصراط الذين أنعم الله عليهم هو هدى الأولياء والأنبياء والمرسلين والصديقين والصالحين والشهداء الذين استعملهم بمحابه، وختم لهم برضوانه؛ ولأن الأعمال إنما هي أعمالهم بالنيات، فبقدر ما اتسع علم تاليها، وعلت وعظمت معرفته بما حوته سورة أم الكتاب، وشاهد قلبه ذكر الله له وصلاته عليه، وعقل وعده، وعقل أيضًا فيها ومناجاته، وعقل سؤاله، وهو من يسأل، وإلى من يرغب ويضرع أعطى سؤله، بذلك جاء وعده الحق في قوله: «**ولعبدي ما سأل**»[1].

أعلم الله جلَّ ذكره أن الصلاة هي تلاوة القرآن على السنن المسنون فيها وأم القرآن تمجيد وتحميد وثناء عليه، وتوحيد له بالإلهية، وتفويض إليه، وتعبد وإخلاص له في ذلك.

ثم دعا وتضرع إليه، وطلب معونته وهدايته إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي أنعم به المنعم عليهم، وسؤال في إدامة ذلك، وتعوذ من ردة ومخالفة، وجمع ذلك كله مجملاً، وفي القرآن الحكيم مفصلاً.

والقرآن كله والتعبد أجمعه إنما يدور على تبين العهد الأول عهد الربوبية المقابل بها للعبودية، وعهد النبوة المقارنة للاقتداء والتسليم وحسن الاتباع لذلك،

---

(١) تقدم تخريجه.

ولما قررهم فأقروا وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا، وحمَّلهم إصر عهده فتحملوا ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

فإذا آمن ولم يتولَّ وأقر كإقراره الأول فهو من المؤمنين المسلمين، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «**من قال: آمين، فوافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[١] إلى آخر الذكر.

جمعت «آمين» التصديق بقوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] والاستنجاز للوعد الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم (٤١٠).

تفسير سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١-٥].

قوله ﷻ: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ﴾[1] [البقرة: ١-٢] انتظام معناه بما تقدم في «أم القرآن» على تقدير القول: أيها العبد الراغب في الهداية إلى الصراط المستقيم، والسائل من ربه حسن المعونة والعصمة.

---

(١) قال البغوي في «تفسيره معالم التنزيل»: قال الشعبي وجماعة: ﴿الم﴾ [البقرة: ١] وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه وهي سر القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها. قال أبو بكر الصديق ﷺ: في كل كتاب سر، وسر الله تعالى في القرآن أوائل السور. وقال علي: لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي، وقال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور، فقال: يا داود إن لكل كتاب سرا وإن سر القرآن فواتح السور فدعها وسل عما سوى ذلك، وقال جماعة: هي معلومة المعاني، فقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه، كما قال ابن عباس في ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]: الكاف من كافي، والهاء من هادي، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق. وقيل في ﴿المص﴾ [الأعراف: ١]: أنا الله الملك الصادق، وقال الربيع بن أنس في ﴿الم﴾: الألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه اللطيف، والميم مفتاح اسمه المجيد، وقال محمد بن كعب: الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم ملكه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال معنى ﴿الم﴾: أنا الله أعلم، ومعنى ﴿المص﴾: أنا الله أعلم وأفضل ومعنى ﴿الر﴾ [يونس: ١]: أنا الله أرى، ومعنى ﴿المر﴾: أنا الله أعلم وأرى. وقال قتادة: هذه الحروف أسماء القرآن، وقال مجاهد، وابن زيد: هي أسماء السور، وبيانه: أن القائل إذا قال: قرأت ﴿المص﴾ عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بـ﴿المص﴾ وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنها أقسام، وقال الأخفش: إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها؛ لأنها مبادئ كتبه المنزلة، ومباني أسمائه الحسنى.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: مطلوبك فيه ومقتضى سؤالك في اتباعه والاقتداء به فدونك، فانظر إلى السماء كيف رُفعت، وإلى الأرض كيف وُضعت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى الهواء في أقطار الأجواء كيف جعله، وإلى الشمس والقمر والنجوم كيف أجراهن، وإلى الرياح كيف صرفهن في مختلفات مهابهن، وإلى السحاب كيف أنشأهن، وكيف يتسابقن إلى ما إليه يصيرهن، وإلى الماء كيف خلقه فيهن وميز خلقه، وكيف ينزله من السماء إلى الأرض فيفصِّله إلى ما إليه شاء، كذلك فيما علا، كذلك فيما سفل، كل له طائع، ولأمره سامع، لم يعبد سواه، ولا أطاع إلا إياه.

ومن آياته: أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] لم ينثلم من العالم قط جانب ولا نازع موجده عن مراده منه منازع، بل الجميع له طائع، ولأمره خاضع، يتسخر بأمر ربه لمن لا يطعمه، ويسارع إلى طاعة من لا يرزقه، فكذلك أيها العبد، فلتكن أنت إذ أنت المعان، والمعني بهذا كله والمخاطب والمواجه والمفضل على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ألا تراه قد جعل لك الإرشاد إلى صراطه المستقيم، الإرشاد في مقابلة الاسترشاد، والمغفرة في مقابلة الإيمان، والمعونة في مقابلة التبرؤ من الحول والقوة، واستشعار الإخلاص بوعد غيب علمته الملائكة عليهم السلام، فأمَّنت عند فراغ الإمام من قراءة السورة، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه إن شاء الله.

فأم القرآن هي أم الكتاب، ولن يعدو ما هو كائن إلى يوم القيامة جملة ما حواه قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وتعالت صفات ربنا وأسماؤه أن تعد في الكتاب، وإنما عبر عنها في كتاب غير هذا الذي عبر عنه قوله: «**اكتب علمي في خلقي**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿الـم﴾ [البقرة: ١] ثلاثة حروف مرسومة ظاهرة، وأربعة رؤوس وستة توالي، دخلت لضرورة النطق بالرؤوس بالمرسومة الرؤوس، ولما كانت الهمزة إنما دخلت لضرورة النطق بالألف لحقت بالتوالي، فالتوالي إذًا سبعة، والمرسومة ثلاثة فهي عشرة، وكانت هذه التوالي للحروف المعجمة المرسومة دلالة على تطرق التأليف إليها؛ إذ هي مجملة تفصلت إلى ما تفصلت إليه بحكم التركيب، وقد كانت مفردة في حالها ذلك آيات على حروف الكتاب المبين.

فصل

فالهمزة يعطي معناها ها هنا كل ما أفهمته من معنى وما أعلمته من معلوم، وكذلك الألف، وكذلك اللام؛ إذ هي أوائل المعاني في كل ما دخلت عليه، كل صحيح معتبر على حدته، ثم هو معتبر بتركيبه، والألف مع اللام كل ما أفهماه من معنى وأعلما به.

قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ والكتاب هنا واقع على القرآن، وعلى الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ الحروف المعجمة في هذا القرآن آيات على حروف ما هنالك ودلالات عليها، دل على ذلك قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] والذي لا ريب فيه هو الكتاب المبين؛ إذ هو مشاهد للأبصار، مدرك بالعيان لمن نظر بالنور واستصبح بسراج الإيمان.

قال الله ﷻ: ﴿الـمر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ﴾ أي: آيات اللوح المحفوظ، ثم قال جل قوله: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

ثم أنشأ يسرد آيات الكتاب المبين بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

لذلك قال عز من قائل: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ١-٣].

ثم قال جل قوله بعد ذلك كله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

كما قال جل قوله في آخر السورة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] ثم قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢].

كذلك قال عز من قائل: ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢] فإذا كان ذلك كذلك فهي آيات على ما سواها، ورؤوس لما أفهمته وأعلمت به، وهي جامعة موعية، فالهمزة منبئة عن معنى الهمزة كله حيث وقع، وأكثر وقوعها للتحقيق، كقوله جل قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤].

ونحو هذا في أوائل الكلام؛ ولأنها تابعة في المرتبة في قوله: ﴿الم﴾ [العنكبوت:١] إذ لم يكن المقصود بالرسم والنطق، وإنما جاءت ليتوصل بها إلى النطق بالألف، فتناول وجودها ها هنا كل همزة توسطت أو جاءت تابعة على حال من الأحوال، فدلت بالدلالة الأولى على كل اسم أو كلم أو حكم أول النطق به همزة، وبالدلالة الثانية على كل همزة جاءت متوسطة أو متأخرة، وعلى هذا السبيل تأولها حبر العرب عبد الله بن عباس ﷺ حيث قال: ﴿الم﴾ أنا الله أعلم، ﴿المر﴾ أنا الله أعلم وأرى.

ولإمعانه في العلم بالحروف لما سُئل عن تفسير قوله ﷻ: ﴿كهيعص﴾ [مريم:١] قال: لو أخبرتكم بتفسيرها لكفرتموني.

وفي أخرى: لكفرتم؛ أي: بتكذيبكم الحق رجع الكلام.

وكذلك اعتبار كل حرف رأس أو تابع على سبيله؛ ولأن الهمزة مفتوحة تقدمها في الرسم ألف ولام، فهي تدل بذلك زائدًا على ما تقدم على كل همزة داخلة على ألف ولام لتعريف أو جنس، كقوله في التعريف: ﴿اللهُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠].

وفي الجنس: الملائكة والإنس والجن العالمون كذلك، كل ما أفهماه وأعلما به على ما تقدم، وهما داخلان على كل اسم، وقد حدَّ أهل المعرفة باللسان الاسم في بعض ما حدُّوه به، فقالوا: الاسم ما جاز أن يدخل عليه الألف واللام ويدلان زائدًا على ذلك بتأخيرهما أو بتوسطهما، وبانفرادهما أو اجتماعهما.

وكذلك حكم الألف واللام إذا اقترنا؛ فإذا تقدمت اللام الألف أفهمتا النفي، كقوله: لا إله إلا الله لا شريك له، ولا مثل له ولا عدل له، ولا والد له ولا ولد له، ولا صاحبة له ولا ولا.

هكذا فبتقدم الهمزة اللام أفهمتا الإلهية والاستثناء، وبتقدم اللام الألف في صدر الكلمة على الهمز أفهمت النفي، كقولك: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهو لا يضل ولا ينسى لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، لا تلحقه الحوادث ولا تلحقه الدهور، ولا يموت ولا يزول ولا يحول، ولا يزال هكذا يستقرئ جميع ما لا يجوز عليه ويستحيل لديه، فينفيه بـ«لا» النافية، ويستثني بـ«إلا» ما ينبغي له، كذلك الناهية وما تصرفت إليه، كقوله جل قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللهِ﴾ [لقمان:١٣] شيئًا، لا تظلم.

﴿لَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء:٣٢].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ [الإسراء:٣٣].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦] ونحو هذا.

وكذلك متى تقدمت اللام الاسم والمضمر جرت له ما أضيف له، فيقول من ذاك: هو الله الذي لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وله المجد وله الفخر وله السناء، وله الكبرياء وله العظمة وله العلا، وله هكذا أيضًا تستقرئ جميع معاني الحمد والمدائح كلها ما استطعت، وتنوي ذلك وتضيفها إليه بلام الجر.

ويقول هو جل وعلا: «أنا الله لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد ولي المجد» كذلك أيضًا.

وتقول في لام الجحد: هو الله لا إله إلا هو، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، ولم يكن له نظير ولم ولم هكذا.

وكذلك في المتوسطة من حروف الميم، يقول الله جل من قائل: «أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك، وملك لا يرام ذو الملك والملكوت، ذو المكانة المكين، ذو المهابة المهيب، المحيي المميت، المعز المذل، المريد المدبر، المقدم المؤخر، المصور المبين، المتين المقتدر، المتكبر المتعال، المؤمن المهيمن، هكذا بالميم الأولية.

وأما دلالة الميم المتأخرة الموجودة في حرف لام وحرف ميم؛ فيقول: هو الله لا إله إلا هو الحليم الكريم، العليم الحكيم العظيم، الرحمن الرحيم، السميع العليم

السلام، ذو الحكم الماضي والمضاء المتمادي، والأمر النافذ والتدبير المبرم، هكذا.

ويدخل في الاعتبار والأحكام والقصص، وتداخل القصص وتتشبث المعاني بعضها ببعض، ثم يرجع النسق بالخطاب إلى أصله، وفي ذلك كله الوعد والوعيد والحديث والقصص والأحكام، والأمر والنهي والزجر والوعظ والجدل، إلى غير ذاك من أنواع الخطاب، فوجه كل خطاب إلى ما توجه إليه، وضم كل قول إلى ما غلب عليه، وكل حرف منها ينتظم ما وافقه، وكل جملة إلى ما هو منها، والمعنى ينتظم بالمعنى، والحديث يفضي إلى مثله، والمعاني تجتلب المعاني، وعلى حسب المجاورة يقرب الجوار، وبالمعنى وإن تباعد، وتنتظم المعاني كلها على ما هي عليه.

وفي ذلك يندرج ذكر الأسماء والصفات وأنواع الخطاب بتوابع ذلك وتتم السور، وهكذا والله أعلم في مجمل حروف أم الكتاب، غير أن تلك الحروف أعم عمومًا وأجمع فائدة وأتم وجودًا وأحق حقيقة، والله واسع عليم، فاقضِ بحاضر على غائب.

ولما رأينا المعاني تندرج في هذا الكتاب هذا الاندراج مع تمام صور السور في أثناء غرائب القصص وفرائض الأحكام، وإحراز بديع الإعجاز في حسن ترصيع النظام، وهذه الحروف مجسمة، فكيف بتلك وهي روحانيات عليه، وهو الآن عز جلاله يفصل بهذه ما أجمله بتلك وتدبر ما أوجده؟.

فصل

هذه الحروف المحيطة لأنها واسطة من حروف الكتاب المبين والقرآن الحكيم إنما يستدل بها على المعني بها بما جاء معها وبعدها، والمعنى الذي أتت له هنا هو التعريف بالباري جلَّ ذكره والهداية والمطلوب من ذلك، فكأنما هي عبارة عن معنى هو جامع لما هو معبر عنه، وهو ما حواه اللوح المحفوظ من وحي ووجود، وإضافته إلى اسمه الله جلَّ ذكره الذي جميع الأسماء شارحة له الذي هو رب العالمين، رب كل شيء ومليكه الرحمن الرحيم، ثم إلى آخر السورة.

ثم سؤال الهداية والجواب عليها والوعد عليها مضمر، وهو جماع كل شيء،

ولما كان القرآن العزيز كله من أوله إلى آخره مضمنًا الإخبار عن الوجود من الوحي، والعالم لم يكن تحقيق اليقين إلا بأن يقترن النظر في اللوح المحفوظ بتلاوة القرآن العزيز، وفي ذلك اكتساب أوصاف الصديقين إذا اقترن بذلك العمل.

قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ [البقرة:٢] يمكن أن يكون إشارة إلى غائب، وهو اللوح المحفوظ؛ أي: إن هذه الحروف التي هي ﴿الم﴾ آيات عليه كما قال: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١] ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى مفهوم «الم» الحرف، وإن ذلك المفهوم بهذه الحروف آيات عليه كما تقدم، فإنه قد جاء أن هذا القرآن أنزل ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذكر العزة كناية عن عزته على الأفهام لولا تنزيل الله ﷻ إياه إلى قلب الرسول، ثم إلى لسانه كما قال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: إلى بيت العزة ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦] إليكم.

فيمكن أن تكون هذه الحروف المقطعة المعجمة من حروف ذلك الكتاب المنزل إلى بيت العزة، فهي واسطة من حروف القلم العلي الذي هو اللوح المحفوظ وبين حروفنا هذه، ويمكن أيضًا أن تكون حروف القلم العلي بنفسها ثم تفصل إلى ما تفصل إليه.

ثم قال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] إلى آخر المعنى.

وقال جل قوله: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:١-٣] إلى آخر المعنى حيث وقع.

قوله ﷻ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] [البقرة:٢] الريب: الشك، وقد يكون الكذب، وهذا وصف جميع الكتابين مع اللوح المحفوظ والقرآن، غير أن هذا

---

(١) في المتقين ثلاثة تأويلات: **أحدها**: إنهم الذين اتقوا ما حرم الله عليهم وأدَّوا ما افترض عليهم، وهذا قول الحسن البصري. **والثاني**: إنهم الذين يحذرون من الله تعالى عقوبته ويرجون رحمته، وهذا قول ابن عباس. **والثالث**: إنهم الذين اتقوا الشرك وبرئوا من النفاق وهذا فاسد؛ لأنه قد يكون كذلك، وهو فاسق وإنما خص به المتقين وإن كان هدىً لجميع الناس؛ لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه. [النكت والعيون (١/١٠)].

القرآن قد ارتاب فيه أهل الكفر، ومن لا علم عنده والكتاب المبين ظاهره نسخته للعيان فلا مرية فيه ولا شك به اهتدى المتقون، ثم بالقرآن العزيز، فإنه من نظر في القرآن طالبًا للعلم كان من المؤمنين، ومن زاد نظره وسمت به سمته إلى النظر في نسخة الكتاب المبين كان من الموقنين.

ثم ينظر من الكتاب المبين إلى القرآن العزيز فيزداد إيمانًا، ثم ينظر منه إلى الكتاب المبين فيزداد يقينًا إلى يقين حتى يشرف إلى معالم الصديقين وعلوم المقربين، وينشرح صدره بالنور، ثم يضيء له ما بين يديه وما خلفه.

قال الله ﷻ: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل١-٢] فالبشرى هنا للقرآن، والهدى للكتابين: الكتاب المحفوظ والقرآن، وبخاصة الكتاب المحفوظ.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] وأولئك الذين يحقق الله لهم ذلك النور في يوم الظلمة، ويظهر لهم هذا النور الذي اكتسبوه في دار الدنيا.

قال الله ﷻ: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ﴾ [الحديد:١٢] المعنى.

فصل

اعلم يقينًا أن ما خلق الله في العالم من شيء إلا وفي النُّباء ما يُنبئ عنه، ويدل عليه ويشير إليه ويشهد له، وإن دقت بعض الإشارات واستسرت بعض الشهادات فإن ذلك عام، فما في العالم شيء إلا وفي الوحي أصله أو ما يدل عليه كذلك ما في النُّباء من ذكر أو تذكير أو إعلام إلا وفي الوجود شاهد له ومصدق لما أنبأ به علم ذلك من علِمه وعمه عنه من عمه.

قال الله ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وهذا علم في الكتابين، فافهم.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر

منه»[1].

وفي أخرى: قال: «إن جبريل عليه السلام أقرأنيه على حرف فلم أزل أستزيده حتى انتهيت إلى سبعة أحرف»[2].

وفي أخرى: قال: «إن الله أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف، فقلت له: إني أرسلت إلى العجوز والأعرابي والأمي فخفِّف على أمتي»[3].

وفي أخرى: «فقلت: أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك»[4].

وفي أخرى: «فرددت عليه أن هوِّن على أمتى الثانية فرد إليَّ أن أقرأ على حرفين، فرددت أن هوِّن على أمتي الثالثة، فرد إليَّ أن اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألينها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم»[5].

وفي أخرى: «قال له في الرابعة: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا»[6].

وفي أخرى: «فأيما حرف قرؤوا عليه فهو كافٍ شافٍ، غير ألا يخلطوا آية رحمة بآية عذاب، ولا آية عذاب بآية رحمة»[7] انتهى.

وقد ذُكر في تفسير ما جاء عنه من هذا: وما هذه الحروف وكونها سبعة أو ثلاثة أو واحدة غير ما وجه، فمن قائل يقول: إنها حروف القراءات السبعة، واستدلوا على ذلك بقولهم: فلان يقرأ على حرف فلان، وفلان يقرأ على حرف

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٦)، والنسائي (٩٣٧)، والترمذي (٢٩٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٧)، والبخاري (٣٠٤٧)، ومسلم (٨١٩)، وابن جرير فى التفسير (١/١١) والبيهقي (٣٨٠٣)، والطبراني فى الأوسط (١٧٩٢)، وفى الصغير (٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٢٠٩)، ومسلم (٨٢٠)، وأبو داود (١٤٧٨)، والنسائى (٩٣٩)، وابن حبان (٧٤٠)، وابن أبي شيبة (٣١٧٤٣)، وأبو نعيم فى مستخرجه على مسلم (١٨٥٥)، والبيهقي (٣٨٠٠). وأخرجه ابن جرير فى التفسير (١/١٣- ط. الكتبى).

(٤) تقدم في سابقه.

(٥) تقدم في سابقه.

(٦) تقدم في سابقه.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٣٧١) والطحاوي في مشكل الآثار (٢٦٤٣).

ورش وأبي عمرو وغيرهما، وهذا وجه مقول، فالله أعلم.

غير أن هذه السبع القراءات كانت غير متعينة من غيرها في الصدر الأول، وإنما زمت وانتزعت من غيرها، ويسمى غيرها بالإضافة إليها: شواذ في العصر الثالث من غير توقيف عليها من حديث ولا قرآن سوى العلم بعدالة ناقليها وشهرتهم بالأمانة.

وفي قراء القراءات التي سموها شواذ أئمة وصالحون يجب المصير إليهم واقتفاء آثارهم قد اسندوا ما قرؤوه منها إلى رسول الله ﷺ ومن قائل يقول: إنها المعاني، فقال: أنزل القرآن على سبعة أحرف: زجر وأمر وجدل ومثل وترغيب وترهيب وقصص، ومعنى الجدل: الحجة على المشركين، واحتج على صحة قوله بأنها معاني.

يقول الله ﷻ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ**﴾ [الحج:١١] أي: على السراء دون الضراء، وبأن حرف كل شيء آخره وحدَّه، وهذا الرأي يحتاج إلى نظر؛ إذ لو وجهنا قوله ﷺ: «**إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف ثم على حرفين ثم على ثلاثة أحرف**»[١] على معنى قوله: اقرأ القرآن على الأمر فقط، دون القصص أو على القصص والأمر دون المثل والزجر والترغيب والترهيب وغير ذلك لم يكن قرآنًا؛ لأن القرآن هو ما جمع هذه المعاني كلها وغيرها معها، إذا القرء هو: الجمع، والقرآن هو جملة المقروء المشتمل على ما اشتمل عليه من حروف ومعاني وأقسام الخطاب وضروب الأحكام.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة:١٦-١٩].

قال: فكان جبريل عليه السلام إذا جاءه فقرأ عليه سكت رسول الله ﷺ حتى إذا فرغ قام، فقرأه كما وعده ربه ﷻ، ووصف ﷺ كيف يأتيه الوحي، فقال عليه السلام: «**أحيانًا**

(١) أخرجه مسلم (٨٢١) وأبو داود (١٤٧٨) والنسائي (٩٣٩) وأحمد (٢١٢١٠)، والطيالسي (٥٥٨).

يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال»[١].

وقال الله جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ...﴾ إلى آخر المعنى [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

فهذا تنزيل كلام الله جل ثناؤه منه ﷻ إلى ما شاء إلى الروح القدس، إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول على جميعهم السلام، إلى لسان الرسول المبلغ إلى الناس، ومن لا يجوز عليه التركيب فكلامه غير مركب ولا مؤلف إلا بحكم التنزل إلى ما شاء.

والكلام المجسم المركب هو الإنسان المجسم من حروف ظاهرة موزونة، مصورًا صورة ظاهرة بواسطة رسول مجسم مؤلف بصورة ظاهرة وكتاب منزل إلى لسان قوم على خطابهم وتفاهمهم بحروف ظاهرة ذوات أشكال وصور ظاهرة ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥].

وقد جاء أن القرآن أنزل جملة ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، واسم بيت العزة المنزل إليه القرآن عبارة عن عدَّة حروف ما هنالك، وما عزت حروفه علينا استغنى عن النطق بما اقتضى القرآن منه بحروفه وأشكاله بجميع مقتضيات معانيه، وما نزل إليه منها فـ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

ولو شاء الله جل ثناؤه لختم على قلب الرسول ولسانه، ومحا الباطل ومحقه، وأحق الحق بكلماته إنه عليم قدير، لكنه أكرم رسله واختصهم بوحيه وولايته ورسالاته.

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٣-٥] إلى قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ

---

(١) أخرجه مالك (٤٧٥) وأحمد (٢٥٢٩١) والبخاري (٣ ٣٠٤٣) ومسلم (٢٣٣٣) والترمذي (٣٦٣٤).

وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان:٧].

فمفهوم مجاورة قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى ما قبله موافق لما جاء أنه أنزله إلى السماء الدنيا جملة، وأنه كان نزوله ذلك تنزيلاً من سماء إلى سماء كتنزيل الأمر على سبيل السنة.

والقرآن كلام الله وأمره، ليس لمخلوق يتنزل مع مخلوق، ولا بد ولا محالة يكسبه معنى الخلق ظاهرًا لظهوره من مخلوق، ويبقى هو باطنًا على ما كان من حيث هو ليس بمخلوق، والفرق بين ما هو هذا الكلام عبارة عنه أوقع القائلين بخلق القرآن في قبح بدعتهم ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وتعالت صفاته العلا عما يظنه الغالطون علوًّا كبيرًا.

فصل

روي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأنيها رسول الله ﷺ قال: وكان يصلي فكدت أعاجله، فلما فرغ لبَّبته بردائه حتى جئت به رسول الله ﷺ فقال لي: «**ما لك يا عمر؟**» قلت: يا رسول الله، سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: «**أرسله**» فأرسلته، فقال له: «**اقرأ**» فقرأ القراءة التي كنت سمعته يقرأها، فقال: «**هكذا أنزلت**» ثم قال لي: «**اقرأ**» فقرأتها على ما أقرأنيها، فقال: «**هكذا أنزلت**» قال: فدخلني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا ما تيسر منه**»[1] فأخبر عن التخفيف الذي سأله ربه في الازدياد من الحروف.

والآن قد استقرت عندنا قراءة القرآن على ما استقرت عليه، وكانوا بعد رسول الله ﷺ ينحون بها نحو المعاني حتى خاف جميع الصحابة ﷺ تغيير القرآن عن سواء ما نزل إليه، فجمعه عثمان ﷺ على مصحف واحد، ثم كتبه سبع نسخ بعث إلى كل مصر نسخة، وعلى ذلك استقرت القراءات اليوم، ولاستقرارها اليوم

(١) تقدم تخريجه.

على ما استقرت عليه عدم فيها ما أنكرته الصحابة ﷺ إلا ما كان من اختلاف الروايات، وذلك وجه من أوجه هذه الحروف المذكورة هي ألسنة المبعوث إليهم من الأمم الداخلين في الإسلام، يقرؤون القرآن بحروفهم وألسنتهم كالعرب والفرس والقبط والأنباط والروم والحبش وبني إسرائيل والبربر، وما كان من نحوها ولاء.

فقول رسول الله ﷺ: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف**»[1] عبارة منه عن تيسير الله على عباده في تلاوة كتابه، وقراءة كلامه العظيم المنزل عليهم منه، وعن تيسير الله على عباده في تلاوة كتابه ﷻ إلى روح القدس إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول ﷺ إلى لسانه إلى العرب المبين عليهم بقوله جل قوله: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الزخرف:٣] ثم إلى الأمم سوائهم؛ لأنه ﷺ بعث إلى الأحمر والأسود، إلى الناس كافة.

ومصداق ما قاله ﷺ وبلغه إلينا عن ربه ﷻ قوله عز قوله: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله جل قوله: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ [القمر: ١٧].

ومصداق ما جاء به الملك - صلوات الله وسلامه عليهما - جوابًا لسؤاله التخفيف عن أمته، وقوله: «**إني بعثت إلى المرأة والأعرابي والضعيف**»[2] أي: الذي لا يقيم حروف كلام نفسه قوله جل من قائل: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج ٧٨].

فكان معنى قوله ذلك لعمر بن الخطاب ﷺ وصاحبه - رضي الله عنهما - أن الله قد يسره أكثر مما تظنون، فاقرؤا ما تيسر، فخذوا بتيسير ربكم، ودعوا عسر ما عندكم، فسيقرؤه من لا يقيم حروفه ولا يكاد يعقله، ولا يحسن مخارج حروفه عندما يتلوه، وربما أبدل الكاف قافًا والظاء طاءً أو التاء والباء ميمًا، ويغير أكثر المخارج، والله غفور رحيم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه هكذا.

وستدارك أمم يكونون على هذا كما قال ﷺ: «**أنا وافد العرب، وصهيب وافد الروم، وبلال وافد الحبشة، وسلمان وافد الفرس**»[1].

قال الله ﷻ: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ**﴾ أي: مهمل في حال القراءة، وتمكث إلى تدارك الناس وبلوغ تتابعهم ودخولهم في الإسلام ﴿**وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾ [الإسراء:١٠٦] أي: من لدن رب العالمين، من ليس ككلامه كلام إلى كلام المخلوقين وكلام العرب، فكما نزل مما هنالك إلى كلام العرب ولسانها، فليس بمنكرٍ أن ينزل أيضًا من كلام العرب إلى كلام أخلاط ألسنة العجم، ولا بد من ذلك والقول به، وقد أبرزه الوجود و﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾ [الطلاق:٧].

وأما معنى قوله: «سبعة أحرف» فإنه باب فتح الكثرة؛ إذ الأمم كثيرة والألسنة جم غفير، ولكل أمة في أنفسها اختلاف في لغاتها كالعرب لغة قريش تخالف لغة تميم في أشياء، ولغة بلحارث تخالف غيرها في كثير، وكذلك غير من سميناه منهم، فألسنة الأمم الأعجمية أشدّ اختلافًا.

فصل

آية ما تقدم ذكره: الماء ينزله الله ﷻ من السماء واحدًا، فيصرفه الله جلَّ ذكره في الأرض إلى نباتها وحيوانها على اختلاف ذلك كله وتغايره في ألوانه وأشكاله وطعومه ومنافعه ومضاره وأخلاقه ودواعيه ومذاهبه وأمره كله، وكثير ما استشهد ﷻ عند إفهام العقول هذه المعاني بالماء ينزله من السماء إلى الأرض.

قال الله جل من قائل: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ**﴾ [فاطر:١٩-٢١] إلى قوله جل قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا**﴾ [فاطر:٢٧] إلى آخر المعنى، فهذا أمره يستن به سنن الخلقة، وينزله تنزيلاً بعد تنزيل من علو إلى سفل منوّعه هذا التنويع كذلك نزل كلامه إلى كلام عباده وقلوبهم وألسنتهم؛ فأظهر على ذلك قراءاتهم وأعمالهم.

---

(١) لم أقف عليه.

فصل

عددت ما جاء في القرآن العزيز من أشكالها في أوائل السور أربعة عشر شكلاً، وعدة السور التي فواتحها الحروف تسعة وعشرون سورة، ولما تركبت في منازلها ومراتبها بلغت ثمانية وسبعين حرفًا، بل زادت على ذلك، وقد تقدم ذكر التوابع، وأن فاتحة «الم» سبعة بلغت توابعها عشرة، وعلى ذلك تكون التوابع إلى منتهى ما بلغ إليه ما لم يُذكر من حروف المعجم في القرآن أربعة عشر، وهي على ما هي قد ينوب ما ذكر منها مكان ما لم يذكر، فلو ذكرت كلها لكان القرآن شرح والله أعلم، ولو نقص من ذكر ما ذكره منها بعضها لكان أشد انغلاقًا وأبعد عن الفهم، والله أعلم.

والعرب كلها تنطق بجميع الحروف الثمانية والعشرين حرفًا، فلو قصر الله جلَّ ذكره المرأة والأعرابي والضعيف وعامة العرب على وفاق لغة قريش لأعنتهم ذلك أشد العنت، وكذلك لو قصر جميع الأمم الداخلة في الإسلام من جميع العجم على لغة العرب، وإقامة مخارج حروفها وجميع شروط تلاوتها لكان ذلك تكليف ما لا يطاق امتثاله، وأما تنزيله من حيث هو مقتضى له فموجود في التلاوة، مكنون في الشرح ﴿أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

فصل

من الواجب أن تتبين معنى الهداية من تالي أم القرآن في قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] وكذلك هداية المؤمنين والمتقين في قوله جل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وبخاصة في حال الصلاة؛ ليوقف على عظيم قدر الصلاة والذكر، وذلك أن العبد الموقن لما أوصله الله تبارك وتعالى وهو القريب المجيب الغفور الشكور إلى خطاب المواجهة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] أباح له ﷻ السؤال بقول كريم غيب قوله: «**ولعبدي ما سأل**»[1] وأنشأ العبد يخاطبه مواجهة له بالخطاب، وتقربًا إليه بإخلاص العبادة والتوجيه بها

---

(١) تقدم تخريجه.

وتحقيق العبودية، والتزام ربقتها ابتغاء رضوانه وتبرأ إليه من حوله وقوته.

وعرض في ذلك بطلب المعونة من مالكه ﷻ ثم أظهر السؤال وأبدى الضراعة إليه بالهداية إلى محابِّه، وطلب الاستقامة في طلب مرضاته، وأن يلحقه في ذلك بمن أنعم عليه بمراعاة عهوده وأداء أماناته، وتعوذ به من خيانة من اختان أمانته ونكث عهده أن يحيق به من الضلال عن القصد الذي هدى إليه من أنعم به عليه، والغضب الذي حاق بغيره من أجل ذلك.

فكان في ذلك من حاله في سبيل الاعتبار شبهًا باطلاعة الله ﷻ على أوليائه في الجنة؛ إذ يقول لهم ﷻ: «**أرضيتم**» فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد بيضت وجوهنا، وأدخلتنا الجنة نتبوأ منها حيث نشاء برحمتك، وقد أجرتنا من النار؟! فيقول لهم عز قوله: «**تريدون شيئًا أزيدكم، سلوني أعطكم**» فيسألونه الرضا، فيقول: «رضائي **أحلكم داري**، **وأنالكم** كرامتي، **سلوني أزدكم**» ثم يقول لهم ﷻ: «**أحللت** عليكم رضاي **فلا أسخط بعده عليكم أبدًا**»[١] ثم ينكشف بعده الحجاب فينظرون إليه فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

وفي أخرى: «**فينكشف لهم عن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[٢].

ينشأ السؤال في الدنيا بالهادية إلى منال الرضا في الآخرة، كما ينشأ العلم به في الدنيا إلى رؤيته في الآخرة، وهو الوصول الأعلى كما ينشأ التذكر والدعاء إلى المخاطبة والتكليم دون حجاب ولا ترجمان، كما ينشأ العلم بموجودات الدنيا من سماء وأرض وأفلاك ونجوم ونبات وإنس وجان، وجميع ما خلق الله من شيء.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٥١٧) والطبراني فى الأوسط (٢٠٨٤)، وأبو يعلى (٤٢٢٨)، قال المنذري (٣١١/٤): رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني فى الأوسط بإسنادين، أحدهما جيد قوي، وأبو يعلى مختصرًا، ورواته رواة الصحيح، والبزار. وقال الهيثمي (٤٢١/١٠): رواه البزار، والطبراني فى الأوسط بنحوه، وأبو يعلى باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد وثقه غير واحد، وضعفه غيرهم، وإسناد البزار، فيه خلاف. وعبد الله بن أحمد فى السنة (٤٦٠)، والضياء (٢٢٩١).

(٢) تقدم تخريجه.

ثم العلم بملكوت السماوات والأرض وما بين ذلك، وما علا وما سفل، ثم العلم بالحق الذي خلق الله ذلك كله به إلى موجودات الجنة في الدرجات العلا منها، ثم إلى مشاهدة الحق المبين ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ**﴾ [النور:٢٥] ثم إلى ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فصل

الوصول إليه ﷻ في الدنيا هو بالعلم واليقين، وذلك قد يكون ابتداء من الله جلَّ ذكره تنبيهًا للعبد وإكرامًا له، لكن المعهود من ذلك بالتذكر وعند عقيب الذكر والفكر والتدبر واستعمال العبرة.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:٢٦٩].

وقال عز قوله: ﴿**تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف:٢٠١].

فلما أبصروا وعاينوا ما وصلوا إليه بإيمانهم قالوا: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ * رَبَّنَا......**﴾ [آل عمران:٨-٩].

والصلاة بحقيقتها جمعت ذلك كله؛ أعني: الفكر والذكر والعلم، والبصيرة فيها أثقب؛ لصفاء أنوارها من أجل بركة الشهود العلي، وما جعلت الصلاة له والذكر والتذكار في الدنيا على حكم العبرة والعلم بما هو المعبور إليه هو الجنة الصغرى، والصلاة خاصتها وسرتها.

قال ﷺ في المعبور له من هذه، وهي الجنة: «**إنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**»(١).

ومصداق ذلك من القرآن: ﴿**دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [يونس:١٠] وفي التذكر والتفكر وحال وجود العلم وجود الذكر لا محالة التهليل والتسبيح والتحميد وغير ذلك من الذكر.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٧٧٦)، وأحمد (١٤٨١١)، وعبد بن حميد (١٠٣٠)، ومسلم (٢٨٣٥)، وأبو داود (٤٧٤١)، وابن حبان (٧٤٣٥)، والطبراني في الشاميين (١٠١٩).

وقال رسول الله ﷺ: «**كفى بالصلاة شغلاً**»[١].

وقال ﷺ للأعرابي الذي علمه ما يقول في الصلاة: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها ما يكون من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير**»[٢].

أو كما قال ﷺ فالصلاة إذًا جنة معجلة، فهم في حالها بين تكبير وتهليل وتحميد وتوحيد له وثناء عليه، وهو جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه على حالتهم تلك يذكرهم بذكرهم له، ويثني عليهم بذلك حتى أوصلهم إليه دون اسم تسمى به يحجبهم عنه بمعناه، بل مناجاة منه ﷻ لذواتهم بظهر الغيب، ويمكن أن يكون إنما سميت آيات أم القرآن والأسماء التي فيها وفي القرآن: مثاني؛ لأجل ثني ذكر الله ﷻ على ذكرهم له.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] أي: ما آتيناكه وأبحناه لك من المخاطبة على حال المشاهدة، وثناء الذكر على الذكر كقوله ﷻ عندما يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]: «**حمدني عبدي**» ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]: «**أثنى علي عبدي...**»[٣].

وإن هذا الذي هو من ثناء ذكره ﷻ على تلاوة عبده؛ ليقوي الرجاء في حقيقة كرمه، وعلى إجابته أنه كذلك يقول عندما يتلو العبد سائر القرآن فيثني ذكره على ذكر عبده معاني التلاوة، ولهذا كان رسول الله ﷺ كلما مرَّ في بعض تلاوته بآية رحمة سأل، وكلما مر بآية وعيد تعوذ[٤].

قال الله :ﷻ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣].

ثم قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:٨٨] المعنى.

وإن الذي أنبأ به رسول الله ﷺ عن قول الله جل ثناؤه لعبده إذا قرأ أُم القرآن: «**حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي، فوَّض إلي عبدي، هذا بيني وبين**

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣٥٩١).
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨١٣)، ومسلم (٢٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (٣ ١٢١٨).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه عبد الرزاق (٣٥٩١).

عبدي، ولعبدي ما سأل»[1] يدل دلالة تحقيق إنه ﷻ بفضله وكرمه كذلك يقول: متى قرأ العبد غيرها من سائر القرآن يثني جلَّ ذكره على ذكر عبده له، وكلامه العظيم على معنى تلاوة عبده بما تقتضيه التلاوة من معنى.

قال الله ﷻ: **﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾** [الزمر:٢٣] وهذه حال يجدوها من أنفسهم في حين التلاوة لذكرهم الله جلَّ ذكره، ولذكر الله لهم بذكرهم له على جميع ما تقتضيه التلاوة من معنى **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾** [الرعد:٢٨].

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يسمع مدى صوت المؤذن شيء من جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر** - وفي أخرى: «**ولا شيء**» - **إلا شهد له يوم القيامة**»[2].

ومدى صوته: هو ما يصل إليه مسمعه بالأسماع يسمع صوته سامعه، فيسمع السامع أيضًا ما سمعه إلى السامع منه، فيقول مثل ما قاله، ثم كذلك إلى عليين، ثم كذلك إلى أن يمتلئ الوجود كله قولاً مثل ما قاله وشهادة له.

قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله تملأ الميزان**» والميزان الأكبر: هو عبارة عن كل شيء.

قال: «**وسبحان الله نصف الميزان**».

قال: «**وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض**»[3] والسماء والأرض عبارة عن الجملة علوًّا وسفلاً.

قال: وإذا قال الإمام: **﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾** [الفاتحة:٧] قالت الملائكة في السماء:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مالك (١٥١)، والشافعي (١/٣٣)، وأحمد (١١٤١١)، وعبد بن حميد (٩٩٣)، والبخاري (٥٨٤)، والنسائي (٦٤٤)، وابن ماجة (٧٢٣)، وابن حبان (١٦٦١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٩)، والنسائي (٢٤٣٧)، وابن ماجة (٢٨٠)، والدارمي (٦٥٣)، وأبو عوانة (٦٠١)، وابن حبان (٨٤٤)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٣).

«آمين»(١).

ويقول الله جلَّ من قائل: «**إذا ذكرني العبد في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملائه وأطيب**»(٢).

وملاؤه ﷻ: هم الذين اصطفى من جملة الخليقة، وهو المكنى عنه بكل شيء، المسمى: العبد الكلي، فالملأ منهم خياره، فمتى هلل العبد أو كبَّر أو سبَّح أو حمد أو ذكر الله صدقه كل ما سمع، وسمع السامع غيره هكذا علوًّا وسفلاً، وتواصلت الشهادة فاتصلت إلى الشهيد الحق العلي الكبير.

قال رسول الله ﷺ: «**لا إله إلا الله ليس بينها وبين الله حجاب**»(٣) وكذلك غيرها، لكن «لا إله إلا الله» لها خاصة من الله ليس لغيرها من الذكر، والوجود كله مأمور بالشهادة المشهود لهم وعليهم، آية ذلك في الوجود الحاضر قول رسول الله ﷺ: «**إذا أذَّن المؤذن فقولوا مثلما يقول**»(٤).

وهذا مفصول ومأخوذ من قول الله جلَّ ذكره [أن الموجودات تسمع](٥) جميعًا بذلك، وهي قول رسول الله ﷺ: «**لا يسمع مدى صوت المؤذن شيء إلا شهد له**»(٦).

وقال رسول الله ﷺ وقد أسحر وبدا وجه الصباح: «**سمع سامع بحمد الله وحسن بلائه عائذًا ربنا صاحبنا، وأفضل علينا عياذًا بالله من النار**»(٧) فالسامع يسمع فيقول مثلما يسمع، ويسمع المسمع فيقول مثلما سمع، هكذا إلى المنتهى.

قال الله عز من قائل: ﴿**إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ**﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه ابن ماجة (٧١٨) قال البوصيري (١/٩١): هذا إسناد معلول. والنسائي في الكبرى (٩٨٦١) وقال: خالف عبدَ الرحمن بن إسحاق مالكُ بن أنس رواه - أي مالكًا - عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد.
(٥) ما بين [ ] به اضطراب في (ق) واستدرك من (ف)، وانظر تفسير حقي (١١/١٤٩).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه مسلم (٧٠٧٥).

[المطففين:١٨-١٩] تقدير الكلام والله أعلم بما ينزل: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٢٠] و﴿إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧].

ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:١٩] هي درجات تعلو بعضها بعضًا، لكل درجة أهل شهادتهم فيما هنالك وأعمالهم ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «**فرفعت حتى ظهرت لمستوى سمعت فيه صريف الأقلام، والحفظة تكتب فيما هنا، والمقربون يكتبون فيما هنالك**»[1].

ولذلك وهو أعلم قال: ﴿يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١].

وعجب من هذا الأمر بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:١٩] تعظيمًا له من شأن أنه يسمع المسمعين طبقًا بعد طبق في الوجود من رجع الصدى.

وقول رسول الله ﷺ: «**إذا أذن المؤذن فقولوا مثلما يقول**»[2].

﴿يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١].

قال رسول الله ﷺ: «**حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»[3].

كذلك قال: ﴿كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٧-٩] فأشار بهذا الخطاب إلى السفلي، والشهداء يشهدون هذا وهذا، غير أن شهداء كتاب الأبرار على القرب والمشاهدة، وشهداء كتاب الفجار علمًا حتى إذا كان حين أداء الشهداء شهادتهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور:١١] فالعالم كله على هذا كبيت مليء سُرُجًا وملأ شهادة وأمرًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٤٠] إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت:٤١] إلى قوله: ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ثم تنزيل من الكتاب المبين - اللوح المحفوظ - إلى ما هو كُتب لكم وتلاوة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢)، والطبراني (٨٢١)، ومسلم (١٦٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦).

«آمين» كلمة مركبة من معنى «آمن» و«إيمان» يقول العبد: «آمين» معناه: آمنت بأسمائك وآلائك وآياتك في الكتاب والوجود كله، وثني قولك: العلي الغائب عنا، ووعدك الحق في إنجازه «آمين» أنجز لنا وعدك يا من لا يخلف الميعاد.

الهمزة من «آمين» صورة ألف، وهي للنداء، والألف الثانية بمعنى: الأمان، وآمين لغة في ذلك كما ينادي المنادي بحرف النداء وتركه.

تنبيه:

فإذًا من آداب الدعاء وحلية السؤال والضراعة إلى الملك المالك الأمر كله أن يقدم العبد بين يدي دعائه التوحيد والإعظام والإجلال، ثم يحمد الله بمحامده التي هو لها أهل يثني عليه ويمجده ويتبرأ إليه من حوله وقوته، ثم يسأل الله الهداية إلى ما يرضيه، وحسن العون على ذكره، وحسن عبادته وشكره، فإنه يتحبب إلى الله جلَّ ذكره بذلك.

ثم يسأل الله بعدما شاء؛ لعموم قوله الحق: «**ولعبدي ما سأل**»[1].

ومن قدم أمر الدنيا نظمها الله له في نظام اقتداء بأم القرآن، وأن المطلوب الأعظم لفي أم القرآن، ويحق ما قال بعضهم: لو قرئت أم القرآن على ميت فحيي ما كان ذلك بعجب؛ لأن «الحمد» اسم من أسماء الله، وكذلك سائر الحروف.

ومصداق ما قاله رضي الله عنا وعنه: قوله جل من قائل: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى**﴾ [الرعد:٣١] فافهم فهَّمنا الله وإياك عنه.

ومعاني أم القرآن لا يبلغها بالحصر عقل صائب، ولا يحويها اللوح المحفوظ سوى علم الله العلي، وقد تقدم معنى هذا، ولا يسع العلم المحدث ولا اللوح المحفوظ علم ذات الله ﷻ وتقدست أسماؤه إلا كتبًا بحكم العموم، فاطلب العلم - وفقنا الله وإياك - من مالكه.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:٦-١٠].

قوله جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦] هذا متصل بما في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾ [الفاتحة:٦] إلى آخر السورة من معنى، فمفهوم هذا أن من العباد من لم ينعم الله عليه بنعمة الهداية ولم يفهمه من هذه، وهي النعمة الدينية، ولا نال كمال النعمة بها.

لما ذكر صنفين من المهتدين، وصنفين من الضالين، وأشار إلى صنف متوسط منهما تجاوز ذكر المتوسط إلى الأشقى بقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[1] [البقرة:٧] تقدير الكلام وهو أعلم بما ينزل: وعلى أبصارهم غشاوة مجعولة عقوبة لهم بما لم ينظروا في آيات الله تعالى وإلى ملكه حتى ختم بذلك على قلوبهم وعلى سمعهم، ومنعهم الفهم عنه والسمع والطاعة لرسله وكتبه، وجعل على أبصارهم غشاوة فلا ينظرون أبدًا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من موجب العهد والميثاق المأخوذ عليه في البدء ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره»: قال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان؛ إذ أطاعوه فـ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، قال ابن جُرَيْج: وحدثني عبد الله بن كَثير، أنه سمع مجاهدًا يقول: الرّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد من ذلك كله.

ذلك لأنهم نظروا إلى الموجودات من ظواهرها لا بحقيقة النظر في بواطنها، ونظروا إلى الرسل من حيث هم بشريون، ولم ينظروا إلى البواطن منهم، ونظروا إلى آيات الله في الوجود، والأرض والسماء من حيث المعهود المعتاد لا من حيث هن آيات يُعبَّر بهن إلى ما جعلن آيات عليه.

وشواهد لجاعلهن منذرات ببأسه، ومبشرات برحمته، ومبلغات عنه، فلم يصل النور إلى قلوبهم، ولا سمعوا النداء بأسماعهم، ولهم على ذلك عذاب عظيم، هذا عذاب وعذاب الدنيا لا يشعرون بكثير منه؛ ولذلك لا ينفعهم في الدنيا نذارة، ولا في الآخرة شفاعة.

ثم ذكر ﷻ الصنف المتوسط، وهم أهل الكتاب والمنافقون بقوله الحق: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هو الله العالم بهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩] هؤلاء هم المنافقون.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1] [البقرة:١٠] بفتح الكاف وتشديد الذال هم المنافقون ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بإسكان الكاف وتخفيف الذال هم اليهود بمشاركة في الوصف مع المنافقين؛ لأن اليهود لم يكذبوا رسول الله ﷺ وإنما كانوا جاحدين للحق الذي علموا به في كتابه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ

---

(١) قال المصنف: فانظر- وفقنا الله وإياك- إلى كل مجيء وظهور وتجلي منه على ما ليس به فهو في حق المنافقين والمكذبين وما كان من ذلك على ما هو به فهو في حق المؤمنين والموقنين لكنه لا بد أن يبقى عليهم في ذلك الموقف معنى من اسمه المبتلى والممتحن؛ لكون المنافقين والمكذبين معهم ثم ينجي المؤمنين بعصمته ويهديهم بإيمانهم وهو الرؤوف الرحيم؛ فهذا أصل لهذا المعنى كيف توجه ثم أحكمه، فمن علمه في الدنيا وعرفه كما أذن له وكما ينبغي له وكما وصف به نفسه وتسمى رآه في الآخرة كذلك ثوابًا لعلمه ومعرفته وبالضد لمن تجاهل وتعاصى وكذب وافترى؛ فنسب إليه ما لا ينبغي له واعتقده على ما ليس به وعلى الرأي تختل الأحوال هناك، وهو العزيز الذي لا يحول ولا يزول لا تختلف به الأحوال ولا تصرف له الأمثال، استرسل بنا عنان اللسان فامتد لذلك طلق اللسان حتى عدل بنا عن نسق الخطاب؛ رجاءً منا بفوز ثواب البيان عن حقيقة هذا النبأ العظيم والبلاغ الكريم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

﴿فَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة:٨٧].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾ [البقرة:١١-١٥].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾[1] [البقرة:١٤] وصف المنافقين وأهل الكتاب والمشركين.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [البقرة:١٦-٢٠].

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ في شياطينهم قولان: أحدهما: إنهم اليهود الذين يأمرونهم بالتكذيب، وهو قول ابن عباس. والثاني: رؤوسهم في الكفر، وهذا قول ابن مسعود. وفي قوله: ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: معناه مع شياطينهم، فجعل «إلى» موضع «مع» كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: مع الله. والثاني: وهو قول بعض البصريين: إنه يقال: خلوت إلى فلان إذا جعلته غايتك في حاجتك، وخلوت به يحتمل معنيين: أحدهما هذا، والآخر: السخرية والاستهزاء منه، فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أفصح، وهو على حقيقته مستعمل. والثالث: وهو قول بعض الكوفيين: إن معناه إذا انصرفوا إلى شياطينهم فيكون قوله: «إلى» مستعملاً في موضع لا يصح الكلام إلا به. [النكت والعيون (٢٠/١)].

قوله عز من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:١٦] هم أهل الكتاب الذين علموا ما اشتروه من ذلك، وما باعوه وتاجروا به، المعني بذلك: المنافقون.

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ يقول: أهل يهود في ردهم ما جاء به محمد ﷺ وعلى جميع المرسلين كمثل مستوقد نارًا كانوا على هداية نبوتهم، ولما جاء عيسى كفروا به، ومثل اليهود والنصارى معًا كالمستوقد النار ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ وبلغت إلى حد الانتفاع بها أطفوها بردهم ما جاءهم به محمد ﷺ؛ فأذهب الله نورهم الذي كان لهم والذي كان يتم به نورهم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] سبيل هدايتهم.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] إلى هداية فطرتهم، ولا إلى حيث فقدوا نورهم فيصلحون ما أفسدوه.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[1] شبه ظلمات كفرهم لما أطفوا نورهم فأظلم عليهم ما هم فيه بظلمة السحاب الممطر الشديد المطر، وفيه الرعد والبرق، فالرعد مثل لخوفهم وعيد الله، ووعيد المؤمنين ما يأتي به القرآن المشبه بالمطر الذي هو الحياء، وقد احتواه الوعيد والرهب، وقد كان المطر تكوّن في حقهم حياء لو آمنوا ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ فرقًا ﴿مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ عند صوت الرعد ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة:١٩] وهذا مثل لخوفهم من التعريض والتصريح بهم في الوحي، والأمر بمجانبتهم وذمهم، ومخافة إطلاق الأيدي عليهم.

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قال الطبري: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: الواو، وقاله الفراء، وقيل: ﴿أَوْ﴾ للتخيير؛ أي: مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين، والمعنى: «أو كأصحاب صيب».

والصيب: المطر، واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل، وأصله: صيوب، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما فعلوا في ميت وسيد وهين ولين، وقال بعض الكوفيين: أصله صويب على مثال فعيل، قال النحاس: «لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه، كما لا يجوز إدغام طويل» وجمع صيب: صيايب، والتقدير في العربية: «مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا أو كمثل صيب».

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم﴾ البرق ﴿مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:٢٠] جعل مدة إضاءة البرق لهم كمدة خطرات الهداية لهم أعني: اليهود والمنافقين، كلما خطر لهم الهدى اتبعوه، وكلما صحبتهم العافية من القتل والسبي والموت الذي لا بد منه عاشوا به.

وقد يكون معنى قوله الحق: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ أي: عاشوا ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾[1] أي: ماتوا شبه مدة بقائهم في الدنيا إلى طول مقامهم في الآخرة بخطرة البرق، وزواله بزوال الحياة والعافية عنهم.

والظلمة بعد البرق أشد إظلامًا، وكان هذا إنذار منه لهم بما أصابهم من الجلاء عن أوطانهم إلى تيماء وأريحاء، وما أصاب بعضهم من القتل والسبي، وهم بنو النضير الذي عبر عنه قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر:٢] إلى قوله: ﴿وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا...﴾ [الحشر:٣].

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

وفي حق المنافقين مع ما تقدم ذكره شبه انتفاعهم بالإيمان والذين يراؤون به بانتفاعهم في هذه الحياة الدنيا من حرز أموالهم، وقبض الأيدي عنهم، كما شبه سرعة انقضاء الدنيا عنهم بسرعة انقضاء خطف البرق إلى جنب ما يصيرون إليه من بقاء الأمد في الآخرة، والبرق موضع الرجاء من العارض المقبل على الأغلب من مجرى العوائد، والرعد موضع الوعيد.

ثم ثنى المثلين أحدهما على الآخر بعدما وجه الخطاب إلى وجهتيه كما ثنى جلَّ ذكره صنفي المؤمنين في أول السورة بعدما وجه الخطاب إلى وجهتيه إحداهما على الأخرى؛ لاشتراكهما في وصف الإيمان والهداية والفلاح، ولذلك داخل بينهما.

ثم قال في الصنفين المذمومين: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: بصفاتهم الظاهرة كما ذهب بصفاتهم الباطنة ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من

(١) قال المصنف: «أي: ثبتوا وقطعوا المشي» [شرح الأسماء ١/١٤٧].

الثواب والعقاب في العاجلة والآجلة ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠].

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] الغيب عبارة عن كل ما بطن فلم يظهر، وغاب عن الحواس الظاهرة والباطنة فلم يعلم بالمشاهدة، بل إيمانًا وتسليمًا، وهو - أعني: الغيب - في حق الأكثرين أكثر منه في حق الآخرين.

قال الله العليم الخبير: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨] يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون، ومن وقف بعلمه على أن لها غيبًا وغيوبًا لا يعلمها فهو عالم بوجه من هذه الجهة، وإنما الموت كله والجهل أجمعه عند من جهل وجهل جهله، ومن عرف علم صورة الجهل، فهو عالم عاقل، وإنما الجاهل من جهل صورة الجهل، ومن طلب الحكمة من طريقها الذي جعله الله دركًا لها وسبيلاً إلى معرفتها أدركها بعون الله تعالى.

وإنما فقدها الأكثرون لأحد وجهين: إما لجهلهم بوجودها وإن مطلوبًا هو الحكمة مدرك، ولزهدهم فيها فنكبوا عنها فلم يرهم الله ﷻ أهلاً، ورفعهم عنها عقوبة لهم؛ لأجل إعراضهم عنها، وربما طلبوها من غير طريقها فضلُّوها، ولم يدركوها من تلك الطريقة لم يطلبوها من طريق أخرى، بل كذبوا بوجودها وأنكروا أن تكون لها صورة خاصة، فيحملهم جهلهم على أن يجهلوا.

ثم قد يكشف الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بصائر بعض عباده فيبصرونها في غيابات الغيوب بما لا يراه الغافلون، ومن هؤلاء؟ هم المتقون الذين يؤمنون بالغيب، فيعلمون لله جلَّ ذكره رغبًا ورهبًا؛ ذلك لما أدركوا ببواطنهم غيوب الآخرة رأوا غيب الحق، وشاهدوه علمًا ويقينًا، وهؤلاء هم الموقنون.

واعلم أن للغيب غيبًا كما أن للظاهر غيبًا وسرًّا وخبأً، كذلك للغيب، بل هو أعرق وصفًا في الغيب، وهذا القول منا على سبيل التقريب، وبحكم ما هو مضاف إلينا، وإلا فهو علم واحد له أدنى وأعلى فافهم، فلا تزهدن في الازدياد من العلم، ولا تقنعن بأوائله، وطالب وثابر ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] ويعلم السر في السماء،

ويخرج الحب في السماوات والأرض.

فصل

وأصل التقوى: من الوقاية، وأقل التقوى: اتقاء الشرك الأكبر وما جرَّ إليه من المعاصي، وما جرَّ إليه أيضًا في أثناء الطاعات، والتقوى باطن.

قال رسول الله ﷺ: «**التقوى ها هنا**»[(١)] وأشار إلى صدره، وربما جاء ذكره مستوعبًا في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

والتقوى عمل الإيمان، كما أن الانتهاء عن المعاصي التي ركوبها نقيض التقوى من علم الإسلام بواسطة التقوى، وإذا صح التقوى من العبد فتح له باب الهداية في باطنه، فانشرح لذلك صدره، وطلعت له شمس اليقين، فانجلت بها في حقه الظلمات، وأضاء له باطنه وظاهره وما بين يديه وما خلفه.

واعلم - وفقنا الله وإياكم - أنه كما لهذه الدنيا شمس يستضاء بها ويعلم بها الليل والنهار وتتبين بها المبصرات من الأشخاص والأجرام وما يقدر تقديرها، فكذلك الباطن له من إيمانه ويقينه شمس يميز بها الصور الباطنة المعبر عنها بالمعاني، كالخير من الشر، والذكر من الغيبة، والأولى من الأدنى، ويرى بذلك الراجح التام من الناقص، والخبيث من الطيب، وعلى درجات ذلك في معارفه ودقائقه.

وإذا بلغت هذه الصفة هذه الدرجة فهي الحكمة ﴿**يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:٢٦٩] أي: الذين يتذكرون الحق الذي إليه المصير من الحق المخلوق به السماوات والأرض.

ويومئذٍ يكون هذا الباطن سميعًا بصيرًا عاقلاً يعقل تلك من هذه، وربما ثبتت الحكمة في هذا العبد فذاق بالغيب، وشم وأحس من مثل دبيب النمل رؤية وسماعًا وحديثًا حتى أنه ليحس دبيب مكروه الخطوات قبل نزولها إلى لوح قلبه الذي عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٣)، ومسلم (٢٥٦٤).

الليلة الظلماء»[1].

وقال الله جل من قائل: ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن:١١].

وقال عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾ [الحديد:٢٨].

وعن هذا المعنى المعبر بقولنا هذا عبر رسول الله ﷺ عن حاله في درجته بقوله: «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله أزيد من سبعين مرة**»[2].

وكان هذا بوجود كونه بشرًا، وبما طهره الله له، وشرح صدره، وغسل قلبه وملأه من الحكمة والإيمان، فكان يجد ذلك على بعد ويشعر له، ومن تحقق في الاقتداء به ﷺ فهو من ورثته ومن إخوانه، بلغ الله بنا وبكم أنه قريب مجيب.

ثم يكون عن النور المذكور في هذه الآية ما يفتح الله لهم من الشعر والذكر والفطنة والإلهام والمحادثة، فتتحقق التقوى في باطنه ويكون من المتقين، يعلم من معالمهم ويهتدي لهدايتهم، كما قال عن من قائل: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة:٢-٣].

قال رسول الله ﷺ: «**والله إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله ﷻ وأعلمكم بما أتقي**»[3] وبالتقوى التي تمنع عن المناهي فنجوا من العذاب، وبالتقوى التي هي من قبل العلم والإيمان ارتقوا في درجات الزلف ومنال الرضوان، وكما لابن آدم ذكر أولي وذكر أعلى وعقل أولي ثم أعلى، فكذلك في الشعر والفطنة والعلم وجميع الصفات.

وهذا قول محمول على وجه من التجوز، بل كل صفة لها أول هو أدناها إلى الفطرة، ولها أعلى وهو من قبيل حياة الإيمان التي هي العلية بالإضافة إلى حياة

---

(١) أخرجه الحكيم (١٤٧/٤)، وأخرجه الحاكم (٣١٤٨) وقال: صحيح الإسناد. وأبو نعيم فى الحلية (٣٦٨/٨) والديلمى (٣٦٧٤) والعقيلى فى الضعفاء (٦٠/٣، ترجمة ١٠٢٤ عبد الأعلى بن أعين)، وقال: جاء بأحاديث منكرة ليس منها شيء محفوظ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٨١)، وعبد بن حميد (٣٦٤)، ومسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٤٦)، وابن حبان (٩٣١)، والبغوي (٨٩)، والطبراني (٨٨٧).

(٣) أخرجه الخلال في السنة (١٠٥٢)، وأبو يعلى في المسند (٤٤٢٧).

الجسم منبعثها عما عبر عنه قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] فكذلك التقوى أيضًا لها أول وأعلى، وبالأول واستعمال طاعة الله ورسوله يدرك الأعلى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة:٢١-٢٥].

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] [البقرة:٢١] فأعلمك ﷻ نصًّا صريحًا أن الأعلى يدرك بالتقوى الأدنى، فإنهم ما عَبدوه إلا بالتقوى، ثم أتحفهم بعد ذلك بعلي التقوى، وعلى هذا يأتي ذكر هذه الصفات في القرآن العزيز.

والرزق قد يكون القوت، وقد يكون العلم والذكر والفطنة والفهم عنه،

---

(١) إن قيل: إذا كانت العبادة تقوى فقوله: ﴿اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما وجهه؟ والجواب من وجهين: **الأول**: لا نسلّم أن العبادة نفس التقوى، بل العبادة فعل يحصل به التقوى؛ لأن الاتِّقاء هو الاحتراز عن المَضَارّ، والعبادة فعل المأمور به، ونفس هذا الفعل ليس هو نفس الاحتراز بل موجب الاحتراز، فإنه تعالى قال: ﴿اعبدوا رَبَّكُمُ﴾ لتحترزوا به عن عقابه، وإذا قيل في نفس الفعل: إنه اتقاء، فذلك غير ما يحصل به الاتقاء، لكن لما اتصل أحد الأمرين بالآخر أجري اسمه عليه. **الثاني**: إنه تعالى إنما خلق المكلفين لكي يتقوا ويطيعوا على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فكأنه تعالى أمر بعبادة الرَّبِ الذي خلقهم لهذا الغرض. تفسير اللباب لابن عادل (١٤٦/١).

والإلهام لمراشده علمًا وعملاً، وهو الرزق الأفضل على ما تقدم ذكره.

قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] كما قالت مريم - عليها السلام: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يعلم»[1] فهو لا يبهم عليه باب من أحد الرزقين إلا رزقه من حيث لا يحتسب، ولا يعتاص عليه معنى من الفهم، ولا يسد عنه باب من العلم إلاجعل الله من أمره ذلك مخرجًا في الأغلب من أحواله.

ومصداق هذا قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] وأخبر ﷻ أن ذلك من أمره أنزله إلينا، وأعظم اليسر ما يفتحه الله ﷻ على بواطن المتقين، وينزله عليهم من فتوحاته وإلهامه.

ثم قال جل قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥] وإعظام الأجر للمتقين إعلاؤه إياهم إلى رفيع درجاتهم، وإصلاح بواطنهم، وفتح مغاليق ما ارتج دونهم من مغارب غيوب المعرفة، وهو نوع عظيم من القبول الأعلى.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] أي: القبول كله أول ذلك، وأدناه أن يقول العبد: «لا إله إلا الله» مخلصًا من قلبه، فيتقبل أعماله وتحبط سيئاته، ويدخل بها في الموازنة، فكيف يرى قبول عمل من قالها عالمًا بها، مشاهدًا لعلمها، عازفًا بما شهد، مستشعر التقوى بها؟ فالتقوى علم وعمل وإيمان وإسلام، وإن لربكم نفحات فتعرضوا لها.

فمن الغيب الذي هو موجود إيمانهم ومشهود غيبهم، فهو كثير جدًّا لا ينحصر أبدًا، بل لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ [ليكون العبد][2] في غاية الافتقار إلى تحصيل ما لا بدَّ تحصيله من ذلك.

---

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (١/١٠٥).

(٢) ما بين [ ] زيادة لإيضاح السياق.

قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر**». وفي أخرى: «**وبالبعث الآخر، وأن تؤمن بالقدر كله خيره وشره وحلوه ومره، وكله من الإيمان بالغيب**»[1].

ثم تفصيل ذلك بواسطة الاستدلال والنظر والتفكر والاعتبار وتحصيل البراهين للإيمان بالله ﷻ وكتبه ورسله وبأسمائه كلها وصفاته ما علمت منها وما لم تعلم.

ثم مجاري ذلك كله في العالم ومسالكه في طرقات الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو مجال رحيب وفضاء فسيح لعتاق السابقين وميدان كريم لأعلام المتقين، وهو أصل لما تفرع عنه، وأمر حق لما ورائه، وإيمان علم له ولما يأتي بعده، وإمام حق لما يؤمه منه.

فصل

ثم درجات منها تترقى إليها إن سمت بك همة، وهي ستة معالم احتوت على معارف أحكام الملكوت التي أطلع الله ﷻ عليها خصوص عباده وكلفهم تعلم علمها، وأن يعملوا أفكارهم ويصرفوا فطنهم فيها، وأن يديموا اشتغال هممهم بالبحث عنها والتفكر في معالمها، سابعها المطلوب الأكبر والمعتمد الأعظم، هو كل الكل مبديه ومعيده، وأوله وآخره وظاهره وباطنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

منها تكوينه ﷻ الأشياء كله لا من شيء، وإقراره الأشياء كلها لا على شيء، وإدخاله الواسع في الضيق، ولم يوسع الضيق ولا ضيق الواسع، وإيراده الصغير على الكبير، وإيراده الكبير على جزء من ذلك الصغير، وحجابه الإنسان عن رؤية موضعه ومشاهدته، وإظهاره له عالمًا آخر في موضعه ذلك، ولم ينقله عن موضعه ذلك، وتفتيته الجسد في التراب لأعين أهل الدنيا، وهو مع ذلك صحيح تام عند آخرين، وتنويمه الجسد عن الأكل والشرب والنكاح في موضع وإيقاظه إياه يطعمه ويسقيه في موضع آخر وعلى حالة أخرى ولم ينقله من موضعه، فدونك -

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٩٧)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وابن ماجة (٦٤).

وفقك الله تعالى وكان في عونك - هذه المعالم فابحث عنها واشغل نفسك بها.

وكل ما يرد عليك من غرائب العالم في هذا الكتاب فلن ينافي ما ذكرناه إن شاء الله تعالى، فعلمك قد سبق بـ«**أن الله جلَّ ثناؤه كان ولا شيء معه**»[١] مذكورًا سواه، ولا وجود لشيء معه في أوليته التي لا ابتداء لها، أحدًا في أوليته، صمدًا في آخرته، ولا آخرًا لم يزل، ولا يزال على ما لم يزل، ثم خلق المخلوقات، وفطر الأرضين والسماوات والعلو والسفلى، خلق الدنيا والآخرة وأوجد الزمان والمكان والمسكن وغير ذلك.

فهو خلق المخلوقات في لا مخلوق، وأوجد الموجدات والمحدثات لا في محدث، ومعنى ذلك أنه خلق الزمان والمكان لا في مكان ولا في زمان، والخليقة كلها لا في خليقة، بل أثبت ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الأشياء كلها لا على شيء، فإذًا لا حدث للجملة غير مشيئته، ولا حامل لها سوى قدرته، ولا علة لمصنوعه غير صنعته؛ إذ لو توهمنا غير هذا لوجب حكم التسلسل أبدًا.

قوله للكائن: «كن» أي: على وفق مقدار مشيئتي فيك وإرادتي منك، خطابه لذات الشيء بـ«كن» خطاب متوجه إلى ذاته وصورته ومادته وجميع توابع وجوده؛ ليكون الكائن على ما سبق في علمه وكما تقدم في تقديره له ومشيئته فيه.

كذلك ومن وصف المخلوق التغير والحيلولة والفقر والانتقال ووجود الاضطرار إلى مدبره القائم به، والاستسلام إلى عظمة موجده، فإذًا المعلوم ببداية العقول أن جميع ما أوجده هو سواه وما هو سواه، فهو عبد له، هو القائم به القيوم عليه بما هو بقاؤه ودوام وجوده، وأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الآن كما لم يزل بما لم يزل، ولا يزال كذلك أمدًا وأبدًا إلى ما لا نهاية، كما لم يزل من غير بداية.

وهو فيما خلقه بوجود عليّ لا يشبهه وجود ولا يماثله شيء، لا يتصوره وهم ولا يكيفه عقل وهو فيها بأسمائه وصفاته لا يغيب عنه شيء، وهو الشهيد القريب، لا يعجزه شيء ولا يبعد عليه، يشهد المخلوقات أجمعها بما هو خالق، والمرزوقات بما هو رازق، والمدبر بما هو مدبر، والمتحرك والمحرك والمتحرك

---

(١) تقدم تخريجه.

فيه، وكذلك الساكن والمسكن فيه.

يشهد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الضلال من الضال بما أضله، والهداية من المهتدي بما هداه، والوحدة من المخلوق بما وحده، والكبير بما كبره، وكل موجود بما هو موجود من جميع معاني الوجود كلها، يشهدها شهود حضور ومشاهدة نزيهة، لا شهادة علم فقط؛ إذ أحكام الحدوث وتوابع أحكام الخلقة لا تجوز عليه، ولا يصل إليه ﷻ عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

آية ذلك الشمس والقمر هما في علو محلهما، والضياء والنور منبسط عنهما على الأرض وهواء الجو والخليقة، فما انبسط عن كل واحدٍ منهما من ضياء أو نور، والله أعلى وأجل ﴿**لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الروم:٢٧].

هو الكبير المتعال، لا يواري عنه شيء ولا يكِنُّ عنه شيء، كما قال رسول الله ﷺ: «**لا يواري منك ليل داجٍ، ولا سماء ذات أبراج، ولا أرض ذات مهاد، ولا بحر لجي، ولا ظلمات بعضها فوق بعض**»[1] ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ [غافر:١٩].

علم في أوليته التي لا ابتداء لها الكون كله من أوله إلى آخره بتوابع وجوده كلها، بعلم هو صفته، وقدرة ومشيئة هما وصفه، ثم بعد ذلك أوجده على سواء ما قدره، شاء ما قدره، واقتدر على ما أوجده، وأحاط بذلك كله إحاطة ناهية كاملة، ولو شاء أن يشأ أكثر مما شاءه لشاء، كما لو شاء أن يقتدر على أكثر مما اقتدر عليه لاقتدر لا إلى نهاية، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

لا يعلم أحد سواه كنه قدرته، ولا سعة علمه، ولا إحاطة مشيئته، وهي مفاتح الغيب على الحقيقة، بها أظهر ما أظهر، وأوجد ما أوجد، وأضرب عما لم يشأ إظهاره وإيجاده، لم تحجبه الخليقة عن أنفسها، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فلم يمتنع عنها ولا من أجلها أن يوجد فيها بما هو حيث شاء، كيف يجوز عليه حكم ملكه أو يمنعه عناد عبده، تعالى عن ذلك القوي العزيز.

---

(١) أخرجه الديلمي (١٩٩٩).

حقيقة وجوده لا في حيث ولا في كيف ولا متى ولا أين؛ إذ أحكام الخليقة وتوابع الوجود لا تناله، ولا ينبغي لها الوصول إليه بوجه، بل هو الذي حجبها عنه بها وبما شاء من أحكام مشيئته ونعوت تعاليه وشموخ عظمته، له المثل الأعلى في السماوات والأرض وفيما علا، هو العزيز الذي امتنع عما لا يجوز عليه ويستحيل لديه، الحكيم الذي أحكم الموجودات شاهدة له دالة عليه، قانتة عابدة له، معترفة بالقصور عن وجوده العلي على لزوم وجود الآية إياها.

وكما «**كلتا يدي ربي يمين مباركة**»[1] وهو على ذلك النزيه القدوس عما أوجده في الخليقة، كذلك وجوده العلي، وهو في كل مكان بحيث لا مكان، ومع كل شيء لا صحبة ولا حلول، فإذا تمهد هذا واستنار جدًّا فهو إذًا قرب إلى كل شيء من نفس ذلك الشيء إليه؛ أعني: إلى نفس ذلك الشيء، بل أقرب بقرب لا يضاده بُعد، فعلى هذا إذًا ليس في الوجود سواه مما عداه، فأعراض عارضة وأفياء زائلة تتعاقب بمقدار إيجاده إياها وإعدامه لها إمساكًا وتدبيرًا، تثبت تارة وتستحيل أخرى، والحامل لها والممسك لها قدرته ومشيته.

فصل

آية إيجاده جميع الموجودات بعد عدمها، وإيراده إياها على قدم أبده إيجاده النوم، ثم إيراده على يقظة اليقظان، وإيجاده اليقظة ثم إيراده إياها على نوم النومان فيقبض النوم في حال اليقظة، ويقبض اليقظة في حال النوم، لكن النائم واليقظان مختلف عليهما الأحوال في حالتي اليقظة والنوم، وهو ﷻ لا تختلف على أبد قدمه الأحوال.

ومن آيات ذلك أيضًا: ﴿**اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ [يس:٣٧] والنهار يكشط عنه الليل فإذا هم مبصرون، والليل في حال النهار، والنهار في حال الليل في حكمه واختزانه.

قال رسول الله ﷺ للتنوخي يوم بلغ إلى رسول الله ﷺ كتاب هرقل، وفي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٤)، وابن بطة في الإبانة (٢١٢٦).

الكتاب: قلت: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران:١٣٣] فأين إذًا النار؟ فقال رسول الله: ﷺ «**سبحان الله، وأين النار إذًا**»(١).

ومن آيات ذلك أيضًا: جعله للآخرة في باطن الدنيا، كذلك جعل الجنة في السماوات، والأرض باطن في ذلك، وظاهره سماوات وأرض.

ومن ذاك: أن قسَّم الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الموجودات على دارين؛ خلق إحداهما وهي الدنيا عن الآخرة بالمصير إليها، وهي الأولى بالإيجاد، وهي الآخرة بالمصير إليها أوردها على الأولى، وهي بالإضافة إلى تلك أصغر جزء من أجزائها، كذلك خلق ﷻ من أوائل الأحباس كل زوج عن زوجه.

قال رسول الله: ﷺ «**إن النار اشتكت إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا، فأذن لي أن أتنفس، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف**» قال ﷺ: «**فأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير، وأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم ومن السعير**»(٢).

فهذه الصغرى تأسست على هذين النفسين، وهما شعبة يسيرة من بعض تلك الكبرى، فامتدت بها أفنانها، ولذلك ما أشبهتها فدلت عليها، لكن على المزج والقلة، والصغرى بالإضافة إلى تلك، وعلى مصاحبة الرحمة في هذه؛ إذ جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها في الدار الآخرة - مع عدم المزج فيها وعظم قدرها قد خلت من الرحمة، وتعقبت من الرأفة والنفسان المذكوران في هذه نزعهما الله رحمته ﷻ عن تعدي الحد المحدود لهما زائدًا إلى رحمته الموجودة عن سنة المزج.

ومن ذلك: ما يتصل بما قبله مفهوم قوله ﷻ: هو ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] والمخلوق من صاحبه من الزوجين هو الأنثى، والمخلوق منه هو الذكر.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التفسير (١٠٤/٢)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٥/٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣٣).

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] فخلق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه آدم ﷺ من قبضة قبضها من الأرض، صور من بساطتها خلقته الباطنة، ومن ظاهرها خلقته الظاهرة حتى سواه على ذلك، فزوج ما خلق من هذه الخلقة هو ما ظهر منها كخلقه حواء من جملة آدم عليهما السلام.

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه وحده متصلاً بما تلوناه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

وكما خلق ﷻ من كل زوج زوجه كذلك خلق لكل قرين قرينه، ولكل مثل مثاله.

قال الله ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨].

وكما قال: «لكل شخص ظل» فكذلك لكل حق حقيقة، ولكل عين معنى، ألا ترى أنه جلَّ ذكره اجتزأ بذكر سجود الظلال عن ذكر سجود أشخاصها، ثم حكم عز جلاله بحكمه الحق، والحق المسكوت عنه بحكم المنطوق به في قوله عز قوله: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ...﴾ [النحل:٤٩].

فصل

ظلال الأشخاص يدل عليها أصول النيرات

قال الله جل ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٥-٤٦].

وكان رسول الله ﷺ يقول في سجوده: «**سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي**»[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣٨).

كذلك لكل موجود ظاهر وجود باطن يدل عليه، وجود النور العلي غيبًا بواسطة العلم، آيته في الظاهر ما ينطبع في الأجسام الصقلية؛ لأن الروح إلى النور، وما هو من الأجسام المظلمة لا تنعكس فيها الأنوار، ولا تدل عليها الأضواء؛ ولهذه العلة أدرك شعاع البصر المرئي في الهواء بحلول النور فيه، وألطافه الموجودة المثالي له يتصوره البصر في الهواء كما تقدم ذكره من علة النفوذ فيه والذهاب بخلاف الأجسام؛ فالظلال التي هي ظلال الأشخاص يتبين سجودها بموجودها، ويدل على ذلك أضواء النيرات وانقباضها عنها وانبساطها عليها حال تسيارها في تقلبها يمينًا وشمالاً ووراءً وأمامًا.

والوجود المثالي يتبين سجوده للعقل بنور الإيمان وصحة إدراك البصيرة بنور الوجود العلي حال تقلبه في الكون، وحوالة الأحوال الجارية على مثاله الظاهر، ثم في حال التعبد لبارئه يحسن التوجه إليه، وهو الذي عبَّر عنه قول رسول الله ﷺ: «**سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي**»[1].

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿**وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم**﴾ [الرعد:١٥] فسجود كل من في السماوات والأرض طوعًا هو سجود جملته، وسجود الموصوف بالكره هو سجود مثاله الباطن، كسجود ظلال الأشخاص سواء؛ أعني: إنه ساجد بغير علم ما هو مثال أو ظل، وهذا عام وجوده في الكافر والمؤمن والعاصي والطائع.

﴿**ولله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ [الرعد:١٥] وهذا سجود لازم لكل موجود كلزوم الظلال أشخاصها، وكما لم يعدم الظلال إذا لم يكن عليها دليل من أضواء النيرات؛ إذ كانت العلة في وجودها وجود الأشخاص التي كانت ظلالها لا وجود الأنوار التي ظهرت بها، بل هي موجودة وجود لزوم، فإذا حضر الدليل عليها ظهرت، وإذا غاب بطنت لغيبته، فالوجود المثالي إذًا وجب لزومًا لقدوم ظاهره، وأحق حقيقة من ذلك جدًّا؛ إذ الدليل عليه لا يوصف بالغيبة ولا يحجبه حجاب، ولذلك أيضًا لا يموت وإنما

---

(١) تقدم تخريجه.

موته تغير واستحالة.

فصل

هذا المثال يتزكى بتزكي الظاهر ويتردى برداه، ما عدا الموت الجسماني.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٧-١٠] وهذا خاصة للمؤمن، وإنما استوت نفس المؤمن بما فيها من روح الله جلَّ ذكره.

أصل ذلك: قال الله جل قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله ﷻ: **«إني لا أطلع على قلب عبدني فأجد الغالب على قلبه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي تبطش بها...»**(١).

وقال ﷺ: **«يقول الله جل من قائل: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمي، وظمئت فلم تسقني، وفيه قال: يا رب، متى كنت جائعًا؟ فتطعم أو عاريًا فتكسى، فيقول ﷻ: أما لو فعلت ذلك بعبدي فعلته بي»**(٢).

ومثل هذا الكلام فمعناه في الكتاب الذي يذكر إنه الإنجيل، وهذه الطبقة المشار إليها بهذا الذكر توصف مرة بالحدوث، وبوجه لا يحسن وصفها به، وكل ما بان عن الله ﷻ وتعالى علاؤه شأنه وصفاته فمخلوق ومربوب، ومن تحققت عنده وفيه هذه الصفة النفيسة دخل في الولاية.

ثم هم درجات عند الله جلَّ ذكره ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] فلقد خاب من دساها، ولقد أفلح من زكاها. وفي وصفها قال بعضهم:

تقدس بالنفس النفيسة نفسه ... فنفس له عُليا ونفس له سفلى

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: **«يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاث**

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

عقد..»[١] والقافية: هو ما يقفو المقفو، فإذا عقد الشيطان عليها أو أصاب منها بعض بغيته أصبحت نفس المؤمن كسلى خبيثة، وبالضد مع استعمال الكيس، والأخذ بالوثيقة في مرضاة الله ﷻ.

فصل

يقرب معنى ما تقدم ويبيّنه مفهوم قول الله ﷻ: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ**﴾ [آل عمران:١٨٥] مع قوله عز قوله: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران:١٦٩] مع قول رسول الله ﷺ في الجنازة حال حملها: «**إن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير ذلك يقول: يا ويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين: الإنس والجن**»[٢].

وما جاء عنه من ذكر عذاب القبر أو نعيمه أخبر الله ﷻ بقوله الحق: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ**﴾ [آل عمران:١٨٥] فهي ولا بد ذائقة، وموتها: مفارقتها الجسد الذي قرنت إليه وزوجت به، وموت النفس وفاة.

قال الله ﷻ: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [الزمر:٤٢] ووفاتها: أن تسلب صفاتها كالعلم والعقل والميز، وهو موتها، ثم ترد إليها بعد ذلك لتنعم أو تعذب، ألا ترى أن من النوم ما يعدم النائم فيه صفات نفسه حاشا روح الحياة.

ومنها: ما تبعث النفس فيه إلى الرؤيا ومشاهدة الحقائق، فشبهت الحال الأولى بالموت للجملة، واليقظة منها بالبعث، وهي أيضًا مشبهة بالوفاة، وكونها رائية في منامها ذلك مبصرة عالمة بعث الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿**ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ**﴾ [الأنعام:٦٠] أي: في النوم، وجعل ذلك آية من آياته على بعثه الموتى في حال الموت، فإذا أحياها في حال موتها أصارها إلى حقيقة وجودها، وهو المثالي فتنعم أو تعذب وتتألم وتحس وتعقل.

---

(١) أخرجه مالك (٤٢٤)، وأحمد (٧٣٠٦)، والبخاري (١٠٩١)، ومسلم (٧٧٦)، وأبو داود (١٣٠٦)، والنسائي (١٦٠٧) وابن ماجة (١٣٢٩) وابن حبان (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٩١٢١).

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه وجده: ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ**﴾ [الواقعة:٦٠-٦١] أي: في بواطنكم نبدلها من ظواهركم التي عطلها الموت وننشئكم - أي: الأجسام - في مدة البرزخ فيما لا تعلمون، يصيرهم بقدرته في طبقات البِلَى، وأوصاف أنواع الأرض والثرى من معادنها ونباتها، ينقلها من خلق إلى خلق، وينبتهم في أنواع أتربتها، فإذا كان يوم البعث الآخر أمر كل شيء أخذ من شيءٍ شيئًا أن يرده على طريقه الذي ذهب ﴿**كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [النحل:٧٧].

لذلك قال عز من قائل: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الواقعة:٦٢] وقال عز من قائل: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾ [المعارج:٤٠-٤١] أن يذهب بهم ويأتِ بآخرين خيرًا، هذا وصف يعبر به عن تحول الأحوال على الجسم حال البلى منهم يخلفونهم.

ثم قال ﷻ: ﴿**وَمَا نَحْنُ**﴾ [المعارج:٤١] أي: إذا أذهبنا بهم بالموت والإهلاك على أن نبدلهم في أمثالهم، وذكر السبق هنا عبارة عن سرعة تأتي ذلك دون زمان موجود، بل ذلك كوجود الظل عن شخصه، وكل وجود موجود لما وجد له.

فصل

اعلم - لقننا الله الصواب - أن الموت الذي هو فراق الباطن ظاهره موتان، كذلك الوفاة وفاتان، فموت أدنى وموت أعلى، هذه عبارة عن تبديل البواطن إلى مثلاتها تأتي حال الموت.

ثم هو ﷻ ينشئها في دار البرزخ ما بطن عنا الآن، كقوله عز من قائل: ﴿**أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران:١٦٩].

وقال ﷺ في ابنه إبراهيم: «**إن له مرضعتين في الجنة**»[(١)] أو قال: «**يتمان رضاعه في الجنة**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢١٢٣)، ومسلم (٢٣١٦).

(٢) أخرجه ابن سعد (١٤١/١) والروياني (٤١٧) وابن عساكر (١٣٧/٣) وعبد الرزاق (١٤٠١٣) وأحمد (١٨٦٤٧) وأبو يعلى (١٦٩٦).

والوفاة كذلك، والعبارة عنهما بأنهما اثنان تجوز في عبارة، وإنما هو نشوء من أدنى إلى أعلى، فالموت الأدنى موت الكافر، والأعلى حال الشهيد التي لعلوها نهينا أن نسميها موتًا، وكذلك الوفاة الدنيا هي أن تسلب النفس صفاتها كما تقدم ذكره أو كما شاءه الله، والعليا: أن يلحق كثيف الجملة بلطيفها، فيتوفاها على ذلك كتوفيه رسول الله ﷺ عيسى ابن مريم.

وما بين هذين القسمين محال، ومنازل يحلها بالموت والوفاة من أهله الله لما شاءه له من ذلك، وكذلك الإسراء على ما تقدم وصفه، فعلى ما تقدم ذكره مما ورد بالكتب والوحي ليست حياة الكافر هنالك بكمال حياة المؤمن، ولا حياة من ليس بشهيد كحياة الشهيد، بل حياة ما هنالك أن يكون ظاهر الجسم استقل عنه من حياته هنا معطلاً من الحياة، مقطعًا أعضاؤه، وقد صار رمادًا أو ترابًا في حكم ظاهر الرؤية وباطنه حتى ينعم أو يعذب يحسبه الذين لا يشعرون ميتًا في بادئ الرؤية وظاهر الحال، وهو حي أشرف حياة وأكمل من حياته الجسمانية لو يعلمون.

قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧] ومن غيب الغيب أن جسم الشهيد مقطعًا ممزقًا مأكولاً وترابًا وعدمًا، وهو في الحقيقة موجود حي سوي عند الله، وعند الملائكة وأهل الآخرة، وإن كان هذا قد يبعد على قضايا العقول الأولى فإنه يقرب إلى العقل الأعلى الذي تقدم ذكره، وهو الذي عدمه الأكثرون إلا من أيقظه الله.

وأما الكافرون: فصم بكم عمي في الظلمات، أموات غير أحياء، وكما قد يحسب الكافر حيًا وهو ميت عند الله ﷻ وعند الملائكة - عليهم السلام - وأهل الآخرة، فكذلك كثير من هذه المشاهدات التي أخبر بها القرآن العزيز، وهي على غير ما يشاهد منها كأجسام الشهداء، وأهل الحياة الدينية.

وقد نصَّ القرآن على كثير منها، ربما نبهنا عليها عندما يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى، وإلا فهذا أصل لما هو في معناه، وإنما يرى هذا الشأن ويشاهد بحواس الحياة العليا التي ليست للكفار والمنافقين والغافلين، وقد تقدم من تمهيد هذا في صدر الكتاب ما يغني عن الترداد، وهي من أوائل عجائب الآخرة، ماذا يعاين ذو العينين من عجب يوم الخروج من الدنيا إلى الله؟ انتهى.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ...﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

مثال ذلك في الحاضر: حياتنا هذه الحياة الدنيا وما يتخللها من معاني الموت، كالجهل والنسيان والذهول والنوم وما شابه ذلك، وأن الأمر ينشأ إلى أعلاه.

ومن ذلك أيضًا: هذه الأجسام المشاهدة من نبات وحيوان يتغذى مما يتغذى به، فيخلق الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عن ذلك الغذاء أجسامًا لو تجمعت في الجسم المتغذي دون أن يتخللها إعدام لذهب الجسم، وبتجمع تلك الأجزاء وتراكمها عن حدوده وذهب عن المقصود به، لكن سنة الله ﷻ في خليقته أن يعدم من تلك الأجزاء ما شاء، ويخلف فيها ما شاء أجزاء غيرها، فهو أبدًا خلق.

ويعلم هكذا خلقًا وأمرًا، وهو الخلاق العليم على الدوام أبدًا، ويظهر الجسم على المقدار الذي قد كتبه القلم العلي قبل البدء الأول في كتاب المقدار تدبيرًا وأمرًا، يخلق قسطًا ويعدم قسطًا، يرفع قسطًا ويخفض قسطًا، وعلى ما شاءه من خصب وجذب زيادة فيه أو نقصان منه، فربما أبقاه على المعهود من حاله مع تحديد الزيادة فيه أو النقصان منه.

وكما قد سبقه في كتاب المقدار وفي اللوح المحفوظ فهذا موت باطن وإحياء باطن، وإعدام وخلق باطنان، وإن أحدنا لا يكاد يشعر بهذا التمزيق، ولا إعدام المذكورين لبطونهما علمًا وعقلاً، فكيف مشاهدة؟ كذلك في كل شيء في السماء والأرض والجبال وغير ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وعلى هذا أتقن صنعه ﷻ وأوجد خليقته؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] فأعلمك مما ذكرناه نصًا، والحمد لله رب العالمين، فافهم.

وكذلك فاقطع إذًا بظهور الإعدام والتمزيق، ويكون الإيجاد والتجربة بعد الموت ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١] كما قال: ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦١] هو الخلاق في جيمع الأجسام على الدوام، وهو العليم بحيث يصير ما أعدم منها، وذلك قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: الأجسام منهم.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤] كذلك هو العليم بما إليه يؤولها ويجعل إليه عاقبتها، وهو بكل خلق عليم، عبر عن هذا الحق في الوجود بقوله الحق في النبأ العظيم: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان:٢٨].

يقول وهو أعلم بما يقول: وإذا شئنا أعدمناهم في هذه الحياة الدنيا بالموت، وبدلناها في حقائقهم ومثالاتهم تبديلاً، هذا هو الحق الذي إليه مصيرنا، فاعلم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال للجن ليلة لقيهم وعلمهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فسألوه الزاد، فقال ﷺ: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوْفَرَ ما كان لحمًا، وكلُّ بَعْرَةٍ علَفٌ لِدَوَابِّكم**»(١) أي: ما يأكلونه في حياتهم هذه إلى الموت من حلال أحل لهم، ذلك هو الزاد الذي متعوا به في هذه إلى أن يصلوا إلى الآخرة المقصود بسؤالهم لرسول الله ﷺ، وجوابه إياهم التحليل والتحريم، وما يجوز لهم استباحته فعلى مفهوم هذا الخطاب أن الكفار أيضًا يجدون كل عظم مسلوبًا من لحمه أوفر ما كان لحمًا في باطن الحال عنا فأعلمهم ﷺ بما يحل لهم مما حرم عليهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١] والمؤمنون منهم لا يأكلون مما لم يذكر اسم الله عليه، والكافرون منهم ممنوع منهم ما ذكر اسم الله عليه تحريم كون، وكما يكون العظم مسلوبًا من لحمه وهو في باطن ذلك أوفر ما كان لحمًا، فكذلك جسم المؤمن والشهيد حي عند أهل الآخرة، وإن كان عند أهل الدنيا على خلاف ذلك، كذلك الكافر يُحيى بعد موته حال موته فيحس ألم ما به، ويسمع ما يقال له فيما هنالك ويعقل، كما قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسه بيده ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم**»(٢).

أقام الله جلَّ ذكره رسوله لأولئك في ذلك الموطن مقام فَتَّاني القبر

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٣٩)، والبخاري (٣٧٥٧)، ومسلم (٢٨٧٤)، والنسائي (٢٠٧٥).

والمسائلين، وكما قال ﷺ في الجنازة: «**يكون مصيرها إلى خير أو إلى شر**»(١) إنما هو يوم آخر، وهو الصواب، كذا جاء في «الصحيح» ما قال، والفرق بين الحياتين في الآخرة من جنس الفرق في الدنيا بينهما وعلى ما سيأتي ذكره إن شاء الله.

وقال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وقد استشهد عبد الله أبوه ﷺ يوم بدر: «**يا جابر، ألا أخبرك عن أبيك أن الله أحياه وأقعده بين يديه وكلمه كفاحًا، وقال له: عبدي تمنَّ علي، فقال: يا رب، أحب أن تعيدني إلى الدنيا فأقاتل في سبيلك فأقتل فيك، قال: قد سبق مني - أو تقدم مني - أنهم إليها لا يرجعون**»(٢).

وقال الله ﷻ في رجل قتل في سبيل الله: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ**﴾ [يس:٢٦-٢٧].

وأيضًا فكما يكون الحق حقًّا عند العالم به المعتقد له، ويكون ذلك الحق بنفسه باطلاً عند الجاهل به، ذلك بأنه ظهر للعالم المؤمن به وبطن عن الجاهل، كذلك يكون الجسم ميتًا ممزقًا ترابًا أو عظمة نخرة، وعُدم عند من يراه، وذكره كذلك في ظاهر الحال وقد بطنت عنا حقيقته.

ويراه أهل الآخرة حيًّا سويًّا يأكل ويشرب ويُنعَّم، أو على غير ذلك من سائر أحواله؛ إذ قد ظهرت لهم حقيقته على ما هي عليه، وعلى هذا فاقضِ أيضًا على أن موصوفات الآخرة وأحكامها على حقيقة ما جاء به النبأ الحق من عند الله جل ثناؤه، وإياك أن يستجرك أصحاب قضاء العقل الأدنى الذي به عقل أهل الدنيا في دنياهم، ولم يصعد بهم النشوء إلى ما علا منه ذلك الذي تساوى فيه الغافلون، فيشغلك ذلك عن قضاء العقل الأعلى الذي أوتيه أولوا الألباب، فإن حُرِمْتَ القيام عليه عقلاً ومشاهدة فقف عليه بإيمان جزم وتسليم وتصديق؛ لتكن بذلك تاليًا؛ إذ لم تكن عالمًا، وجانِبَ الإنكار جملة. انتهى.

---

(١) أخرجه أحمد (٣١٨)، والبخاري (١٣٠٢)، والترمذي (١٠٥٩) ما معناه بنحوه.

(٢) أخرجه الحاكم (٢٥٥٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (١٥٢).

فصل

واعرف في الغيب مما تقدم ذكره مفهوم قول الله جلّ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1] [النساء:١٠] ومفهوم قول رسول الله ﷺ: «**الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»[2].

والله جلَّ ذكره هو الحق المبين، ورسوله وكتابه الحق، وما جاء به من عند الله ما يخالف الحق ولا ما يباعده، وقد قال الله جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

وحقق ذكر الأكل بذكر البطن، وإنما يكون الأكل على المعهود من الأكل في البطن، وإنما استاق ذكر البطن للبيان وزوال الإشكال، فإن قيل: إن ذلك يكون في المآل، فقد جاء ذكر المآل مجردًا بعد هذا في قوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠] فأوجب ذلك أن يحمل الخطاب على ظاهره، وأن وجود ذلك في الحال من أكله غائبًا عنا.

ومن أعجب العجائب أن يجده الطاعم طعامًا ملذًا وشرابًا باردًا سائغًا، وحقيقته عند الله وعند الملائكة نار، لكن هذا لا ينكشف حقيقة طعمه وذوقه ووجود الحس له إلا في حياة غير هذه الحياة.

وكما أن حياة الجاهل والكافر لا يوجد بها أنواع الحقائق، بل جل حق الآخرة لا يجده، ويجده المؤمن الموقن بحياته، فيسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتجشم من أجل ذلك للأسفار البعيدة، ويبيع من الله نفسه وأهله وماله، وتبكي عينه، وينحل جسمه ويسقمه، وربما قتله وجودًا أو وجدًا، فاقضِ بهذا المعهود على ما يرد عليك من

---

(١) نزلت في المشركين كانوا يأكلون أموال اليتامى ولا يورثونهم ولا النساء. وقيل: في حنظلة بن الشمردل ولي يتيمًا فأكل ماله. وقيل: في زيد بن زيد الغطفاني ولي مال ابن أخيه فأكله. وقال الأكثرون: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون من أموال اليتامى ما لم يبح لهم، وهي تتناول كل أكل بظلم لم يكن وصيًا. [البحر المحيط (٤١/٤)].

(٢) أخرجه الشافعي فى الأم (١٠/١) والبخاري (٥٣١١) ومسلم (٢٠٦٥) والدارمى (٢١٢٩) وأبو يعلى (٦٩٣٩) وأبو عوانة (٨٤٥٥)، وابن حبان (٥٣٤٢)، والطبراني فى الكبير (٨٤٤).

حقائق الغيوب تصب البغية إن شاء الله تعالى.

ألا تسمع إلى قوله جل قوله وتعالى علاؤه وجده في تحقيق ما نحن بسبيل تبيانه: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣-١٥] يخبر عن حالهم اليوم في يوم الدين؛ يعني: حال الموت.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] أي: اليوم أو الآن، وما كان في معنى العبادة عن الحال، فانظر إليهم الآن يأكلون ويتمتعون، وعلى أرائكهم وأسرة ملكهم، وليسوا بغائبين عن الجحيم.

وقال عز من قائل في موضع آخر: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ﴾ أي: لولا الأجل المضروب لهم لعجلت لهم قيامتهم ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣] أي: بالموت أو الإهلاك لهم كما تقدم للقرون الماضية والأمم المهلكة الخالية أمثالهم.

أعقب ذلك ثم قال - عز من قائل - معبرًا عما نحن بسبيله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] فها هي محيطة بهم وهم لا يشعرون لها، ولا يجدون حريقها ولا مس لفحها، ولا يسمعون زفيرها إلا أعمالاً منهم توجب عليهم حلولها، إنما هو القهر من القاهر العزيز ﷻ، هذا الذهول موجود منهم عن الإيمان به مع وجودهم لفح سعيرها وزمهريرها، تغدو عليهم وتروح جهنم بنفسها وهم لا يشعرون أموات غير أحياء.

ولذلك هم إذا ذكروا لا يذكرون، والأشقياء منهم إذا رأوا آية يستسخرون أبطن ذلك عنهم في هذه الدار وأظهره في الآخرة كما أبطن إيمانهم بذلك منا، وأظهره منهم في الآخرة ﴿سبحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس:٣٦].

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

ومن ذلك في الإنباء قال رسول الله ﷺ «**زائر المريض في مخرفة الجنة حتى يرجع، فإذا قعد عنده غمرته الرحمة**»[1].

---

(١) أخرجه الطيالسى (٩٨٨)، ومسلم (٢٥٦٨) وأحمد (٢٢٤٩٨). **مخرفة الجنة**: أي فى بساتينها الزاهية وروضاتها البهية.

وقال ﷺ في مجالس الذكر «**إذا رأيتم رياض الجنة، فارتعوا فيها...**»[١] ونحو هذا كثير.

وألحق بهذا قوله: ﷺ «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[٢].

و«**منبري على ترعة من ترع الجنة**»[٣].

و«**قوائم منبري على حوضي**»[٤].

وإنه إنما رأى ذلك رسول الله ﷺ بما آتاه الله من ضياء النبوة وبصيرة القرب من الله والحياة الآخرة، ولما أهله الله ﷻ من الرسالة إلى عباده بشارة لعباده ونذارة إعلام لهم بأن الآخرة إليّ، والتبليغ عنه إليهم بحقائق حق الآخرة بشارة لعباده، ونذارة إعلام لهم بأن الآخرة محيطة بالدنيا، مستورة عنا، فمن أطلعه الله ﷻ على مرائي الآخرة فبلغ عنه كيف يجوز المبلغ إليه أن تناول قوله الذي هو وحي يوحى على غير المعنى الذي به جاء، ولا يرى ذلك من ليس نبي إلا إيمانًا وتصديقًا ويقينًا، وبروح من عند الله وبتأييد منه، كما لا يرى الكافر ما يراه المؤمن ولا الجاهل ما يراه العالم من حقائق ما يجب الإيمان به للموت الذي به - أعني: الكافر - وبصفاته قال الله ﷻ: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ [الأنعام:٣٩].

وقال الله: ﷻ ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾[٥] [الأنعام:١٢٢] فإذا أحيا الله ﷻ المؤمن بالإيمان أحياه الله من موت الكفر بروح الإيمان، كما قال عزّ قوله: ﴿**وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة:٢٢] ولكل درجة من هذه الحياة مقام، ولكل مقام حال ذلك على قدر الحظ الذي يؤتيه الله من ذلك الإحياء الذي به يحييه من موت الكفر.

---

(١) أخرجه الشافعى فى الأم (١/١٠)، والبخاري (٥٣١١)، ومسلم (٢٠٦٥) والدارمى (٢١٢٩) وأبو يعلى (٦٩٣٩) وأبو عوانة (٨٤٥٥)، وابن حبان (٥٣٤٢)، والطبراني فى الكبير (٨٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٢٢)، والبخاري (٦٩٠٤)، ومسلم (١٣٩١)، والترمذي (٣٩١٦).

(٣) أخرجه ابن سعد (١/٢٥٣) وأحمد (٨٧٠٦) والبيهقي (١٠٠٦٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٩٣٩١).

(٥) قوله ﷻ: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ فيه ثلاثة أوجه: **أحدها**: كان ميتًا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه. **والثاني**: كان ميتًا بالكفر فأحييناه بالهداية إلى الإيمان. **والثالث**: كان ميتًا بالجهل فأحييناه بالعمل. النكت والعيون (١/٤٣٧).

فمنها حال من عبر عنها قوله ﷺ: «**إني لا أطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»[(١)].

هناك يبصر بالنور ويتكلم به، ويسمع به ويتحرك ويسكن به، كما كان رسول الله ﷺ يدعو، وأرفع منها مقتضى قوله ﷺ: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا...**» إلى قوله: «**اللهم املأني نورًا، اللهم أعظم لي نورًا، واجعلني نورًا**»[(٢)] هناك يبصر بكله ويسمع بكله ويفهم بكله.

ومن هذه الحال كان ﷺ يسمع كلام الجوامد وعذاب المعذب في القبر، ويقول ﷺ: «**أترون قبلتي ها هنا، فوالله ما يُخفى علي ركوعكم ولا سجودكم، إني لأراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي**»[(٣)].

ومن الصديقين من يمنحه الله من هذا الحال ما شاء، وإن لم يبلغه مبلغ النبوة بمشافهة الملك ﷺ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

وفي حق هؤلاء نتحقق حقيقة قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] فأضاف ذلك إلى رؤية المخاطب، وقدره على ما أراه من ذلك، وإنما المخاطب بخاصة هذا رسول الله ﷺ وإخوانه من أمته الذين تشوق إلى رؤيتهم، وأولوا الألباب من أتباعهم، نسأل الله البر الرحيم أن يلحقنا بهم، وألا يقصر بنا دونهم، وأقل الرؤية فيما هذا سبيله رؤية أبصار الرؤوس.

قال الله ﷻ يعني الكفار والمنافقين: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ فلم يضف إليهم إلا رؤية الطيران من الطير حسب، ثم تولى الإخبار لموضع الإيمان بقوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩].

وكذلك قوله: ﷻ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ

---

(١) تقدم تخريجه بنحوه.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٧٠٦)، وأحمد (٣٣٠١)، والبخاري (٥٩٥٧)، ومسلم (٧٦٣)، والنسائي (١١٢١) وابن أبي شيبة (٢٩٢٣١)، وابن حبان (٢٦٣٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٤١١٩)، ومسلم (٤٢٦)، والنسائي (١٣٦٣)، والدارمي (٢٧٣٥)، وابن خزيمة (١٦٠٢)، وابن أبي شيبة (٧١٥٦)، وأبو يعلى (٣٩٥٢).

﴿وَالأَرْضِ﴾ لم يصفهم من الرؤية إلا بالمقدار الذي تبلغه البهائم، ثم تولى ﷻ الإخبار عن موضع خشية الإيمان بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩] إذ لا يرى غيب ذلك سواهم، كقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وأولوا الألباب شاهدها جميعهم حال الصبغة في الماء والهواء، وفي موجود السماء والأرض وما بين ذلك، ولما أوجدتم في هذه الحياة ذكرهم برسله وكتبه، فهم إن تذكروا أبصروا فعلموا، وإن تغافلوا ذهب الذكر عنهم صفحًا وحرموا بصر البصائر، وصموا عن سماع شهادة البينات.

هذا الفصل مبدل، وقد تقدمت في صدر الكتاب مقدمة يعرف بها هذا الفن من العلم، فارجع إليها وتدبر، وإياك والتكذيب بآيات الله فتكون من الخاسرين.

قال الله عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٣-٢٤] فالصبر على طاعة الله والعزم على الثبات في الأمر، ولزوم اليقين يرفع الإمامة في علوم الموقنين ومعارف الصديقين.

وقال الله ﷻ ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١].

ومن ذلك مفهوم قوله ﷻ: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] جمع عالم، فإذا تصور الجميع صورة واحدة فهو العبد الكلي الذي هو جملة المخلوقات المشتملة على كل ما دخل تحت الكون والحدوث، وعنه حكم الحدوث من مكان أو زمان أو جهة أو ناحية وقرب وبعد وروح وجسم أو وجود وعدم وقبل الروح والأجسام إلي، والخلق كله والأمر، وما تقدر تقدير ذلك وماتبعه أو كان منه فهو إذًا إنسان كلي كما الإنسان عالم جزئي، فهو من حيث له يمين وشمال ووراء وقدام وأعلى وأسفل صوَّر آدم على صورته - صلوات الله وسلامه عليه - وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صورة الرحمن**»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني (١٣٥٨٠) قال الهيثمي (١٠٦/٨): رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن

وفي أخرى: «عَلَى صُورَتِهِ»(١).

له أسماء وصفات ليس على معاني الذات، وهو أيضًا من حيث هو الكلي ليس بمجعول على مخلوق، ولا يحيط به مخلوق ولا محدث، فيكون ظرفًا له أو حاملاً أو معتمدًا له، ليس فيما يكتنفه يمين ولا شمال ولا وراء ولا أمام ولا علو ولا سفل؛ إذ ليس ما عداه منه، بل هو من حيث هو هو جملة للمخلوقات وكل للمحدثات ابتداء ما خلقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من غير شيء كائن، وجعله لأعلى شيء لم يحوجه إلى سواه، هو جلَّ ذكره يمده ويجدده ويصرفه ويدبره جملة وتفصيلاً.

هو آيته الكبرى لديه، وشهادته العظمى له، فكل ما كان من فعل يظهر آية منه، وما كان في إتيانه من افتقار بعضه إلى بعض وأخذ بعضه عن بعض وعطف بعضه على بعض فلمعنى الدلالة على صانعه جلَّ ذكره، والشهادة لفاعله ما هو له أهل

=

إسماعيل الطالقاني، وهو ثقة وفيه ضعف. والحاكم (٣٢٤٣) وقال: صحيح على شرطهما. وابن عساكر (١٠١/١٤).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢٠)، ومسلم (٢٦١٢). وقال المصنف على هذا الحديث بقوله: «أسماء وصفات ليست على معاني الذات، فالعبد موصوف بأسماء العبودية من ذل، وخضوع، وفاقة، ومسكنة، وخشوع وخضوع، وفقر. إلى غير ذلك من سمات العبودية، ومعارف المحدّثين والمربوبين، كذلك أيضًا هو موصوف بكبر، وعجب، وغلظة، وفخر، واستعلاء، وتعاظم، وغنى. إلى غير ذلك من أسماء الربوبية وصفات الإلوهية، فإذا تولى الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - العبد وقاه شر نفسه، ومن شر نفسه استعمال صفات الإلوهية وأسماء الربوبية، وهو العبد القن، فتوليه إياه هو أن ينسخ عنه تعاظمه واستعلاؤه، ونحو هذا، ويوجه بها إليه، فيجعل ذلك منه على أعداء الله، ثم يوجه صفاته التي هي سمات العبودية فيحققها فيه، ويستعمله بها بين يديه، فإذا هو ﷻ قد حاز العلا كله الذي كان في العبد من أثر الخلقة وصفات الحق ﷻ، واستعمله بشاكلة العبودية فكان هو، أي: أنه كان العظيم الحق، العلي الكبير، والغني الحق، ولم يبق من ذلك في هذا المتولي إلا ما كان حريًّا لله تعالى ﷻ ثم يرزقه الوفاق في جنبتي الوصفين، فكان عبدًا حقًّا، والله جَلَّ ذِكْرُهُ وهو الرب هو الحق ويحق الحق، فكان بذلك سمعه وبصره وروحه ويده وجوارحه الظاهرة والباطنة، أي: خلقًا وأمرًا وولاية، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] فهذا الذي تقدم ذكره هو أولى بالتأويل إن شاء الله، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. [شرح الأسماء ٣٤/١].

وعليه بما جعل له، وأوجد من أجله من معنى الابتلاء والذكر أو الفتنة لحكمة فاعله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في مصنوعه بالغة وحجة له عليه قاهرة.

كذلك ابتدأ جلَّ ذكره الإنسان أولاً من سلالة من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، فلما سواه وبلغ به منتهاه نفخ فيه من روحه وجعله متبوعًا إمامًا، وأسجد له ملائكته وسخر له ما في العلو والسفل؛ ليشتمل على مبتدعات المشيئة علمًا وفهمًا، خلقه من الأصول الأربعة وأحوجه إليها؛ لأنها أصله وهو فرعها، فمنها طعامه وشرابه وطهوره وكفايته وصلاح شأنه حيًّا كله وفساده؛ ليقرب له العبرة ويسهل له سبيل العلم بموضع مصيره حيًّا وميتًا، فهو شخص القطب ولباب اللب، ومن الجملة موضع القلب فعليه دار الأمر والنهي.

وألقى الذكر مفصلاً على معاني الديانة التي مقتضى الإسلام على معاني الأمانة التي حملها الأنام، وهي التي عجزت عن تحملها السماوات والأرض والجبال على شروط الجزاء؛ إذ كان مخلوقًا كالعالم الكلي في أصل كونه للابتلاء، فكانت الأمانة سبب الأمر والنهي، وعلة الذكر النازل من السماء على ألسنة الرسل والأنبياء - صلوات الله وسلامه على جميعهم - كالعالم الكلي سواء في نزول الأمر عليه من أعلى العرش الكريم، وشياعه في جملته خلقًا وأمرًا تتلقاه الملائكة فينفذونه بأمره ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

﴿لَّا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] كالقُوى في الجسم الجزئي والصفات سواء كونًا وشرعًا؛ ذلك ليقوم الحجة لله على عباده، ويتم مراده في جميع موجوداته؛ إذ كان هذا الإنسان علة لخلقها وسببًا لوجودها.

قال الله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ

يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٦-٢٩].

وقال عزَّ من قائل: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

وهو وإن كان بصفاته موصوفًا وأفعاله إليه مضافة وبها معروفًا، وهو محكوم بها عليه، وله حكم الجوارح في ذلك حكم الجوانج إلا ما استثني من ذلك حكم الغلبة، فالبداية في ذلك كله والنهاية، والظاهر منه والباطن لمبدعه وخالقه، وحقيقة الإيجاد معلومة لخالقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، كالعالم الكلي سواء حيث استأثر مبدعه ﷻ بحقيقة الإيجاد.

ثم وكَّل بعضه إلى بعض في ظاهر العلم وبادئ الرأي؛ لابتلاء العباد، ومشيئة الله ﷻ فوق كل مشيئة، وقدرته فوق كل قدرة، وعلمه وصفاته وأسماؤه محدثة لكل شيء، محيط بكل شيء، عنه ﷻ تكون أنواع المشيئات والقدر، وجميع معاني العباد وأسمائهم وصفاتهم.

وعن إيجاده واختراعه تكون جميع الاستطاعة والمكتسبات منهم، وهي على ذلك خلق الله جلَّ ذكره حادثة عن قدرته العليا ومشيئته الكبرى، لا يشبهه أحد من عباده بقول ولا بعمل، ولا يفوت على تقديره حادث علم كل كائن قبل الإيجاد على ما هو موجده، وكما أخرجه من العدم إلى الوجود لم يعدمه ما علمه منه أمرًا وخلقًا، لأجل ذلك انقطعت حجج القدرية، ولم تقبل اعتلال الجبرية، فالإنسان جزئي للتبعيض الموجود به، كلي في معنى الفائدة.

ألا تراه سخر له ما في السماوات وما في الأرض، وأن الأمر وقع عليه كلما قام بالإيمان بالله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وبأسمائه وصفاته، وبالعمل بطاعته وابتغاء مرضاته، منه بدؤه وإليه عوده، ثم أمر بالإيمان بغيوب باطن العالم من جنة ونار،

وملك وجان، وحساب وثواب وعقاب، وتوابع ذلك وما نحا نحوه.

وكذلك أمر باعتبار الملكوت من الأرضين والسماوات والأفلاك والنجوم والنبات، وما علا وما سفل، وكل ما ظهر وبطن ليستدل بما رآه على ما لا يراه، وليتعرف بذلك صفات الصانع ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ إذ بظاهر العالم يستدل على باطنه، وبالمصنوع الكلي يعرف صانعه، فالعبد المؤمن يشهد بعقله الله ﷻ دون واسطة سوى الدليل عليه بالربوبية.

وصفة الوحدانية كالعلم الكلي الذي لا يعلم سوى الله خالقه، ولا يشاهد سوى مدبره ومبدعه وتعالى علاؤه وشأنه فطرة من حكيم عليم ﴿**لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم:٣٠].

اعتبار الجملة والنظر في ذلك والعبارة عنه على سبيل الإجمال، سبيل القصد في ذلك إن شاء الله تعالى أن يتوهمه صورة إنسان قائم يصلي مستسلمًا لخالقه خاشعًا لصانعه، قانتًا خائفًا من بارئه، وجِلاً من رقيبه جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه وجده، له من حيث هو معاني الحدث كله قد احتوله الأمر وأحاط به الحول، أو ما يعبر عنه مما ليس به متوجهًا بكل وجهته إلى ما احتوله صوَّره بارئه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أحسن تصوير، ورتب أعضاءه أحسن ترتيب على صورة شخص واحد مركب من أعضاء مختلفة هي عوالمه، متعاونة على مطلوب واحد.

وغرض شواهد عبادته ربه له منها أعضاؤه كلها جوارحه وجوانحه مشكلة من ذلك أشكاله وصورته خلقه خالقه العليم القدير على ذلك، فأعلى منه ما ليس من الحكمة إلا أن يعلو وأسفل منه ما ليس من الحكمة إلا أن يسفل، ورتبه على ترتب ليس من الحكمة إلا أن يكون على ذلك الترتيب أوجده بكلمته، وشاءه بمشيئته وقدره بتقديره وكتبه القلم في اللوح المحفوظ بأمره، قدم منه في الإيجاد ما شاء تقديمه، وأخر منه ما شاء تأخيره، وأجراه على سنته قانتًا لربه بكليته، مصليًا لفاطره بجملته، ساجدًا له بحقيقته جملة وتفصيلاً، مسبحًا ذاكرًا له بألسن عدد الخلائق كلهم، بل عدد ذواته وأبعاض ذواته، كصلاة العبد الجزئي سواء لا يشد منه عضو، ولا يتخلف عند جزء إلا هو قائم معه، ساجد معه، متوجهًا إليه، عابدًا ربه معه.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**خُلق ابن آدم على ثلاثمائة وستين مفصلاً، فعلى**

كلِّ سُلامَى منها صدقة في كل يوم، فمن سبح الله ﷻ وهلله وكبره وحمده وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وأماط أذى عن الطريق عدد تلك السُلامَى مشى يومئذٍ وقد زحزح نفسه عن النار». ثم قال ﷺ: «ويجزئ من ذلك كله ركعتان يركعهما العبد من الضحى»[1].

فأخبرك أن الصلاة الشرعية تعم أجزاء المصلي جملة وتفصيلاً، كذلك العبد الكلي ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال عز من قائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] فهو الذي قد شمل المكان والزمان واليمين والشمال، والوراء والأمام والوجود والعدم والكيف والكم، والعلو والسفل والجهات والمقابلات، وأوصاف الكون والحدث كلها، فإذًا ما عداه فليس بكائن ولا محدث، وما ليس كذلك فليس به ولا يتصف بوصف من أوصافه.

وينفصل العبد الكلي في نفسه العالم إلى عوالم هي له أبعاض وأعضاء، كما ينفصل الجزئي إلى أبعاض له وأعضاء، ثم ينفصل التفصيل إلى أبعاض وأبعاض أبعاض وإلى آحاد، والآحاد أيضًا إلى أبعاضها وأبعاض أبعاضها، وكل جزء من تلك الآحاد أجزاء منها على صورها وهيئاتها من أمم وعوالم، وتلك الأجزاء إلى أجزاء أجزائها.

والأجزاء وأجزاء الأجزاء منه لها صورها وأشكالها وهيئاتها كصفات آحاد الأمم والعوالم، وكأبعاض الجزئي الرأس والعينين واليدين والذراعين على اختلاف ذلك كله لها صورها وأشكالها حتى يبلغ التفصيل في الجزئي والكلي إلى أمثال الجواهر في الجزئي التي تركبت عنها أبعاضه وأعضاؤه إلى جملته، فما كان من تلك الذوات مما يتصف بالعقل كلفه العبادة كونًا وشرعًا، وما لم يكمل بعد منها إلى ذلك كلفه كونًا في الظاهر.

وأما باطنًا فيما بينها وبين بارئها فهي مكلفة ذلك شرعًا، وذلك بحكم الكلمة يظهرها الله جلَّ ذكره منها عند خرق العوائد، وإظهار معجزات الرسل وكرامات

---

(١) أخرجه أبو داود (١٢٨٥) بنحوه.

الأوليات، هذا فيما هو ظاهر لأوائل العقول.

وأما في قضاء العقول الناهية والألباب الصافية، والإيمان الأعلى واليقين الأرفع فكلٌّ شمله التكليف كونًا وشرعًا لأمره في ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] أي: يفهم بعضها بعضًا، وأمم تألف كأمثالنا، هكذا قال جل من قائل في موجودات الأرض، ومعلوم أن موجودات ما علا أفصح، وفعلها أشرح، فافهم.

فما من شيء إلا يسبح بحمده طوعًا وكرهًا، فالمؤمن يسبحه ﷻ طوعًا بما هو عامد لذلك ناوٍ له، وكرهًا بما هو غافل عن ذلك ساهٍ، والكافر يسبحه ﷻ كرهًا بما هو غير مريد لذلك نافرًا عنه منكرًا له، ثم طوعًا بما هو يؤم وجهة هو مولاها قدرت له قبل إيجاده، وحمل عليها بإرادته وكسبه، يناضل عنها ويجاحش عليها جهده؛ لينال ما سيق له من مقدر في أم الكتاب، وهو بما لا يعلم ذلك من نفسه مكره عليه، وما يعرف سجودها من ركوعها من تسبيحها من حمدها من صلاتها، فربما أتى ذكره متصلاً بأولي المذكور بها، والله الموفق للصواب، وهو يقول الحق ويهدي السبيل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]

---

(١) **مسألة فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ هل «ال» للعهد أو للجنس؟ وهل «من» موصولة أو نكرة موصوفة؟** اختلف العلماء فى ذلك إلى ثلاثة فرق: **الأولى**: وهم الكسائي وأبو حيان والطيبي وصاحبي الفرائد والتقريب، يقولون: «ال» للعهد والمعهود هم الذين كفروا و«من» موصولة مراد بها عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، وحجتهم أن الناس قوم معهودون وهم الكفار الذين سبق ذكر قصتهم، وأن كون المنافقين مخصوصين بحكم النفاق لا يخرجهم من جنس هؤلاء الكفار بل يفيد تميزهم عنهم بما لم يتصفوا به من زيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما، هذا أولا وثانيًا أن جعل "من" نكرة موصوفة إنما يكون إذا وقعت فى موضع يختص بالنكرة فى أكثر كلام العرب، وهذا الكلام ليس من المواضع التي تختص بالنكرة فى أكثر كلام العرب، وأما إن تقع فى غير ذلك فهو قليل جدًّا حتى إن الكسائي أنكر ذلك، وثالثًا أنه لا وجه أن تكون ال للجنس لأن ﴿من الناس﴾ خبر ﴿من يقول﴾ فلو كانت للجنس لكان المعنى: من يقول من الناس والظاهر أنه لا فائدة فيه. **الثانية**: وهم أبو البقاء والعكبري - كما ذكره الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة فى (دراسات لأسلوب القرآن

[البقرة:٨] إلى قوله جل قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[1] [البقرة:١٣] هذا تعريف يتردد المراد به بين يهود وبين قوم منافقين كانوا يسمعون منهم ويطيعونهم.

وقوله جل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠] بتشديد الذال المراد به المنافقون، وعلى الحرف الآخر بإسكان الكاف وتخفيف الذال المراد بذلك يهود.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: المنافقين كانوا يظهرون للمؤمنين الإيمان بقولهم: ﴿آمَنَّا﴾ ظاهرًا من القول ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ اليهود ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤] ضرب الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

الكريم القسم الأول ١٥٣/٣) تقول: «ال» للجنس و«من» نكرة موصوفة، وحجتهم أن المراد بالذين كفروا هم الذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا، وبينهم وبين المنافقين تناف فلم يكونوا نوعا تحت ذلك الجنس فكيف وقد حكم على هؤلاء بالختم على القلوب وغيره فعلم كفرهم الأصلي، وعلى هؤلاء بقوله: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ وأشار إلى تمكنهم بالهدى وتنور فطرتهم، هذا أولاً وثانيًا لا يجوز أن تكون «من» موصولة بمعنى"الذي" لأن "الذي" يتناول قوما بأعيانهم، والمعنى هنا على الإبهام. **الثالثة:** وهو الإمام البيضاوي والزمخشري وسعد الدين التفتازاني والشريف الجرجاني وابن المنير يقولون: إن قدرت ال للعهد فـ «من» موصولة وإن كانت للجنس فـ«من»" نكرة موصوفة؛ وذلك بناء على المناسبة والاستعمال، أما المناسبة فلأن الجنس لإبهامه يناسب الموصوفة لتنكيرها والعهد لتعينه يناسب الموصولة لتعرفها، أما الاستعمال فلأن الشائع فى مثل هذا المقام هو النكرة الموصوفة إذا جعل بعضًا من الجنس والموصول مع الصلة إذا كانت بعضًا من المعهود، والقرآن يفسر بعضه بعضًا. وعلى هذا لا يجوز أن يكون العهد للموصوفة والجنس للموصول خلافًا لأبي حيان وصاحبي الفرائد والتقريب وابن هشام - كما ذكره الألوسي فى (روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٤٦/١) فإنهم يقولون: يحتمل أن تكون «من» موصولة إن جعل التعريف للجنس وموصوفة إن جعل للعهد لأن بعض الجنس قد يتعين بوجه ما وبعض المعينين قد يجهل باعتبار حال من أحواله.

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: ويجوز في همزتي ﴿السُّفَهَاءُ﴾ أربعة أوجه، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوًا خالصة، وهي قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبي عمرو، وإن شئت خففتهما جميعًا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوًا خالصة، وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية، وإن شئت حققتهما جميعًا.

للمنافقين مثلين:

الأول منهما: مثل لليهود، شبههم ﷻ بمن استوقد نارًا؛ يعني: ما كانوا فيه من الهداية ولما بلغت؛ أي: أضاءت ما حوله مستوقدها؛ أي: إن هدايتهم تمت بإتيان محمد ﷺ كذبوه فذهب الله بنورهم لذلك ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

ويصلح أن يكون مثلاً للمنافقين لما جاءهم الرسول والكتاب شهدوا بذلك فوجب لهم بذلك أن يكون لهم نور، ولما نافقوا في ذلك ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ ذلك لرجوعهم على أعقابهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] هذا إعلام متردد بين الفريقين إياس من هدايتهم، فهذا لليهود ثم بآخره للمنافقين.

ثم ضرب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مثلاً آخر ظاهر مفهومه للمنافقين، ثم بآخره لليهود إلي قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠].

فصل

أشبه القرآن العالم، والعالم القرآن أن العالم اشتمل على ما يقال له: نور وهدى وضلال وبيان وشفاء وضياء وخير وشر، وهلاك وإكرام وإهانة وولاية وبراءة وحب وبغض وأمر ونهي، وبشارة ونذارة وحرام وحلال وواجب وفرض ومندوب إليه، إلى غير ذلك مما يكثر تعداده مما إن بُحث عليه في أثناء الكتاب العزيز وجد فيه، غير أن الشر لأهله هناك مذكور، وعندهم فعله مذخور لهم جزاؤه، وهو في العالم موجود أو شبهه أيضًا فيما حكاه أهل الكلام على الأحوال الأصول الشرعية ووجده في ذلك حقيقة.

قالوا: دلائل الشرع موجودة فيه على ثلاثة أوجه:

- أصل.
- ومعقول أصل.
- واستصحاب حال.

فالأصل: هو الكتاب والسنة والإجماع، فوزان الكتاب في العالم الكلمة وهو المعبر عنه بـ﴿كُن﴾.

ومثال السنة: ما أخرج الله عليه الوجود كله من ترتيب واستنن به سننه من تأجيل وتعجيل، وهو المعبر عنه بقوله ﷻ: ﴿فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧].

ومثال الإجماع في الشرع: هو إجماع الموجودات وصفاتها قاطبة على شهادة الفطرة لبارئها ﷻ وتعالى بالتنزيه والتقديس والتسبيح لله وحده لا شريك له، والشهادة بالتوحيد والقنوت له.

ووجدوا أيضًا أن السنة مأخوذة من ثلاثة أوجه: أقوال، وأفعال، وإقرار.

فوزان الأقوال: الكلمة والأذن.

ووزان الأفعال: جملة المعقولات والمصنوعات، وما تناوله الكون.

ووزان الإقرار: كل ما كان لله ﷻ إيجادًا وخلقًا، وما ليس له برضا، وهي المعاصي والكفر، وتوابع ذلك مما لا يرضاه ولا يحبه ولا يأمر به شرعًا، ويلحق به كل ما لم يرد له ذكر في الشرع، وهو ما عناه بقوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة:١٠١].

واستقرأ المعتبرون الموجودات وما انبنت عليه وتركبت عنه، فوجدوها ثلاثة أشياء: جوهرًا، وجسمًا، وعرضًا محمولاً في الجواهر والأجسام.

كذلك وجد أهل الاستقراء للكلام أنه تركب عن ثلاثة أشياء: اسم، وفعل، وحرف محمول في الأسماء والأفعال، وقيل له: قرآن؛ لأنه مجموع كلام وقصص وأحكام وجدل، والكلام معبِّر عن ذلك كله.

ومن ذلك: إن الله جلَّ ذكره أجرى المسببات على أسبابها، وأموره في هذه الدار على سنته فيها، وأظهر المصنوعات بالأدوات على الأغلب هذا مقدوره الحاضر المشاهد منا وله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مقدور سوى هذا، وهو أن يجعل مكان السنة الكلمة فيظهر المسببات بغير أسباب، والمصنوعات بغير أدوات خرقًا لهذه العوائد، وتجري الأمور كلها على مشيئته في كلمته وهو المقدور الغائب عنا اليوم، إلا ما قد شاءه من ذلك وقدره.

كذلك جعل من كلمه العزيز في القرآن ما هو ظاهر مبين ومنه ما هو غيب يحتاج متفهمه إلى البحث والنظر، ومنه كالمكنون يخص بعلمه من شاء من عباده،

وعلى الكلام بالإجمال فإن أحكام الملكوت التي أطلع الله ﷻ عليها العباد وكلفهم معرفتها، ودعاهم إلى الإيمان بها، وإلى أن يعمل أولوا الألباب أفكارهم وفطنهم من هذا فيها، وأن يدعوا اشتغال قلوبهم بالنظر إليها فيها، والتفكر في سبيل البحث عن معالمها، ثم الاعتبار فيها إلى سواها ويجيلوا أبصار بصائرهم في معارفها، وهي ستة أضرب:

- **منها**: تكوينه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الأشياء لا من شيء.

- **الثاني**: إقراره ﷻ الأشياء كلها لا على شيء.

- **الثالث**: إدخاله الواسع في الضيق، ولم يوسع الضيق ولا ضيق الواسع.

- **الرابع**: وضعه الصغير على الكبير وإيراده الكبير لا على جزء من ذلك الصغير.

- **الخامس**: حجابه الإنسان عن رؤية موضعه، ومشاهدة نفسه وإظهاره له عالمًا آخر في موضعه ذلك، ولم ينقله عن موضعه.

- **السادس**: تفتيته الجسد في التراب لأعين أهل الدنيا، وهو صحيح تام عند أعين أهل الآخرة، وتنويمه الجسد عن الأكل والشرب والنكاح في موضع وإيقاظه إياه، ويطعمه ويسقيه في موضع آخر.

فهذه ستة معارف هو مطلوبها الأكبر ومعتمدها الأعظم، ولتعلم - وفقنا الله وإياك - أن لكل حق حقيقة، ولكل عين معنى، كما قد علمت أن لكل ظاهر باطنًا، وأن الباطن متى انفصل عن ظاهره أبدل بحامل يقوم له في باطنيته مقام ظاهره المفارق، ولنقتصر على هذا القدر من هذا الفن، ففيما ذكرنا دليل على ما عنه أمسكنا.

ولعلمنا أن الضرورة تدفع إلى اختلاف ما هو بسبيله في أولى المواضع به، ففي اختلاف العبارات وتغاير الألفاظ مع اتفاق الحقائق في معانيها، وفي اجتلابها إلى مظانها وذكرها عند أشباهها مجال رحب للأفهام، وعون كبير على تعرف كل خطاب ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾ [البقرة:٢١] الآيتين، هذا خطاب[1]

---

(١) **مسألة فيمن تعلق به الخطاب الشفاهي؟** إن القول بعدم تناول الخطاب الشفاهي وقت الخطاب لمن سيوجد بعد نزول الوحي هو قول الكثيرين، بل قال البعض بعدم تناوله أيضًا لغير الحاضرين والقاصرين عن درجة التكليف كالأمم الماضية قبل رسالة الإسلام والصبيان والمجانين. قال الإمام الفخر الرازي: إن الذين سيوجدون بعد ذلك ما كانوا موجودين في تلك الحالة، وما لا يكون موجودًا لا يكون إنسانًا، وما لا يكون إنسانًا لا يدخل تحت قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ (التفسير الكبير ٨٦/٢) وإنما يتناولهم مثل هذا **الخطاب** بدليل خارجي من نص أو قياس أو إجماع، أما بمجرد الصيغة فلا كما صرح به الإمام الألوسي في تفسيره (روح المعاني ١٨٦/١) وقال: وقالت الحنابلة: بل هو عام لمن بعدهم إلى يوم القيامة واستدل الأولون بأنا نعلم أنه لا يقال للمعدومين نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال العضد: وإنكاره مكابرة وبأنه امتنع خطاب الصبي والمجنون بنحوه، وإذا لم نوجهه نحوهم مع وجودهم لقصورهم عن الخطاب فالمعدوم أجدر أن يمنع لأن تناوله أبعد. واستدل الآخرون بأنه لو لم يكن الرسول مخاطبا به لمن بعدهم لم يكن مرسلا إليهم واللازم منتف، وبأنه لم يزل العلماء يحتجون على أهل الأعصار ممن بعد الصحابة بمثل ذلك وهو إجماع على العموم لهم. وأجيب: أما عن الأول فبأن الرسالة إنما تستدعي التبليغ في الجملة وهو لا يتوقف على المشافهة بل يكفي فيه حصوله للبعض شفاهًا وللبعض بنصب الدلائل والأمارات على أن حكمهم حكم الذين شافههم، وأما عن الثاني فبأنه لا يتعين أن يكون ذلك لتناوله لهم بل قد يكون لأنهم علموا أن حكمه ثابت عليهم بدليل آخر، قاله غير واحد. وفي شرح العلامة الثاني - أي: السعد التفتازاني - للشرح العضدي - أى شرح العلامة عضد الدين الإيجي على مختصر ابن الحاجب - أن القول بعموم الشفاهي وإن نسب إلى الحنابلة ليس ببعيد. وقال بعض أجلة المحققين: إنه المشهور، حتى قالوا: إن الحق أن العموم معلوم بالضرورة من الدين المحمدي وهو الأقرب، وقول العضد"إن إنكاره مكابرة" حق لو كان الخطاب للمعدومين خاصة أما إذا كان للموجودين والمعدومين على طريق التغليب فلا ومثله فصيح شائع، وكل ما استدل به على خلافه ضعيف. إنتهى. وإلى العموم ذهب كثير من الشافعية على أنه عندهم عام بحق لفظه ومنطوقه من غير احتياج إلى دليل آخر، وقد قيل: إنه من قبيل الخطاب العام الذي أجري على غير ظاهره. (روح المعاني ١٨٦/١) وانظر: (حاشية الشهاب ٧/٢-٨) (تفسير أبي السعود ٥٨/١-٥٩) (الإحكام فى الأصول ٢٩٢/٢-٢٩٤، للإمام الآمدي) (المستصفى ٢٤٢/١، للإمام الغزالي).

وقال الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة معلقًا ومعقبا على بيان الألوسي: وحديث التغليب - أعني تغليب المنتظمين فى سلك التكليف وقت الخطاب بالفعل على غير المكلفين وقت ذلك من المعدومين والقاصرين عن درجة التكليف - الذي ظن الألوسي أن فيه المخلص من هذه الحجة لا غناء له ولا لغيره فيه أصلا، بل هو فى التحقيق جار على وفق مذهب الجمهور معضد لحجتهم لا منافر لها، فإن دعوى الجمهور والحجة التي ساقوا لتأييد هذه

=

=

الدعوى يقرر كل واحد منهما على عدم شمول هذه الخطابات الشفاهية لغير المكلفين على سبيل الحقيقة، ولا مانع أن يكون شمول هذه الخطابات لأولئك على سبيل المجاز بتغليب المكلفين وقت الخطاب بالفعل على غيرهم وقت ذلك من المعدومين والقاصرين عن درجة التكليف. ومن المتقرر المعروف لدى علماء البيان أن دلالة التغليب مجاز لا حقيقة، فإنه ليس إلا التجريد البياني، وهو إما راجع لعلاقة التقييد والإطلاق - حسبما هو الصحيح المتجه - مثل قولك: قمران - تطلقه على الشمس والقمر - بحيث جردت القمر - فى أطوار ه المختلفة ومنازله الثمانية والعشرين - من قيوده المشخصة له والمميزة له عن كوكب الشمس، فإطلاقه على مطلق الكوكب المضيء الشامل لليلي والنهاري وتثنيته بهذا المعنى حتى جاز أن يشمل الشمس أو قل أن تكون الشمس أحد فردي هذا المثنى، وإما راجع لعلاقة مستقلة من علاقات المجاز المرسل. وأيما يكن الأمر فإنه مجاز لا حقيقة. وإذن فإن قضية التغليب هذه لا تنافي قول الجمهور بعدم الشمول لغير أولي التكليف إلا على سبيل المجاز. وكذلك فيما حكاه الألوسي آخرا - بما لا ندري أراد به التمريض أو لا - حيث يقول: وقد قيل: إنه من قبيل الخطاب العام الذي أجري على غير ظاهره. الخ يريد أنه وإن كان ظاهره للخصوص بالمكلفين فالمراد به خلاف هذا الظاهر من العموم للمكلفين وغيرهم ممن يتأتى خطابه، فإن الخروج عن الظاهر هو الآخر من قبيل دلالة المجاز سواء أكان من باب التغليب أم كان من غير هذا الباب حسبما حققه أهل البيان؛ فالخلاصة التي نخرج بها من هذا البحث أن قول الجمهور هو المتعين بالنسبة لهذه الطائفة - أعني طائفة المنتظمين فى سلك التكليف - من كون الخطابات الشفاهية تشملهم حقيقة ولا تشمل غيرهم إلا على سبيل المجاز. انتهى بتصرف من (التفسير التحليلي لسورة النساء ١٢٣-١٢٥)
وقال القاضي شهاب الدين: وهاهنا بحث يجب التنبه إليه وهو أن خطابه تعالى بكلامه لعباده أزلي قائم بذاته، وكذا النظم القرآني بإزائه، وخطاب المعدوم أزلاً وتكليفه، وهو مقرر عند الأشاعرة، والظاهر أنه - تكليفه - حقيقة، وإلا يكن جميع ما فى القرآن من الخطاب مجازا، ولا يخفى بعده عن ساحة التنزيل. ويوجه أيضا بتقدير "قولوا" والمأمور الرسل ونوابهم من أئمة الدين فى تبليغ الأمة إذا وجدوا، وعلى هذا الفرض والتقدير لا يحتاج إلى التجوز أصلاً كما ذهبوا إليه على أنه لو لم يكن من التأويل محيص، فالقول بأنه يدل على ما ذكر بدلالة النص المؤيدة بالإجماع أقرب. (حاشية الشهاب ٨/٢) وقال الشيخ ابن عاشور: فإن نظرت إلى صورة الخطاب فهو إنما واجه به ناسا سامعين، فعمومه لمن لم يحضر وقت سماع هذه الآية ولمن سيوجد من بعد يكون بقرينة عموم التكليف وعدم قصد تخصيص الحاضرين، وذلك أمر قد تواتر نقلاً ومعنى فلا جرم أن يعم الجميع من غير حاجة إلى القياس، وإن نظرت إلى أن هذا من أضرب الخطاب الذي لا يكون لمعين فيترك فيه التعيين ليعم كل من يصلح للمخاطبة بذلك، وهذا شأن الخطاب الصادر من الدعاة والأمراء والمؤلفين فى كتبهم من نحو قولهم: يا قوم، يا فتى، وأنت ترى، وبهذا تعلم ونحو ذلك، فما ظنك بخطاب الرسل وخطاب هو نازل من الله تعالى كان ذلك عاما لكل من يشمله اللفظ من غير استعانة

=

مرجوع معناه إلى قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] هم الذين نظروا في موجودات ما زمَّه اللوح المحفوظ في السماوات والأرض، والشجر والجبال والنبات إلى غير ذلك من عجائب آيات الله المنبئة عنه الشاهدة له.

يقول عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وهو دعاء عام للناس أجمعين إلى عبادة ربهم ﷻ كما فطر جميع ما أوجده على فطرة الإسلام، كذلك أمر جميع أهل العقول بالعبادة له والطاعة، ولا يكون الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والعمل بطاعة الله، والتزام الخضوع له بشروط العبودية إلا بمقدمة التقوى، لكنه قال ها هنا جل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] معناه وهو أعلم: لعلكم تبلغون بعبادتكم إياه، والعمل بطاعته واليقين به ذروة التقوى، وتنالون منه المنزلة العلية، قد تقدم ذكر هذا.

يقول عز من قائل: فانظروا إلى السماء كيف بناها فأظلت، وإلى الأرض كيف مهدها فاستقرت، وإلى الماء كيف أنزله من السماء واحدًا طاهرًا مطهرًا بقدرته، فأخرج به نبات كل شيء رزقًا لكم موجودات تنبئ عن خضوعها لخالقها، وتفصح بقنوتها لبارئها وتشهد لجاعلها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بصحة الوحدانية، وإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] بما أراكم من عظيم اقتداره وكريم تدبيره وشمول ملكه السماوات والأرض وما علا وما سفل إنه لا ندَّ له ولا

=

بدليل آخر. وهذا هو تحقيق المسألة التي يفرضها الأصوليون ويعبرون عنها بخطاب المشافهة والمواجهة هل يعم أم لا؟ (التحرير والتنوير ١/٣٢٥).

قلت: صحيح أن الخطاب الشفاهي لا يشمل وقت الخطاب لغير المكلفين - من المعدومين والقاصرين عن درجة التكليف - الذين لا يتصور منهم الامتثال، ولكن بحكم كون القرآن هو كلام الله تعالى صاحب أمر ونهي، وأنه يمثل خاتم الشرائع التي أنزلها الله تعالى على الناس الذين هم خليفته في أرضه، أقول: بحكم هذين الأمرين يكون كل خطاب من خطاباته يخاطب به كل عبد - بعد وجوده - عاقل بلغ سن الرشد في أي زمان بعد نزوله كأنه مشافه به على حدة وتخصيص، لأن صلاحية الخطاب لا تنتهي بعد غياب من حضروا نزوله، بل تمتد إلى قيام الساعة؛ فالذين بلغهم هذا الخطاب في أي زمان من الأزمان بعد عصر نزوله مخاطبون أيضًا به كأن نزوله يتجدد وقتًا بعد وقت، والله أعلى وأعلم.

شبه ولا نظير.

قوله ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا.....﴾ [البقرة:٢٣].

ما تقدم هو من فضل الربوبية المنتظم من صدر سورة أم القرآن، وهذا الخطاب هو من فضل النبوة منتظم بما في النصف الثاني منها من ذكر النبوة، وهم المنعم عليهم وبخاصة في ذكر الرسول محمد ﷺ، والكتاب الذي هو القرآن.

يقول عز من قائل: وإن كان ارتيابكم هذا إنما هو في صحة نبوته، والكتاب الذي جاء به ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: مَن مثل محمد ﷺ رجل لم يكتب كتابًا ولا خطه يمينه ولا علم قارئًا ولا طالبًا لعلم من تقدم، وهذا إعجاز ظاهر وفقد مشاهد بالضرورة لو كانوا يعلمون، ولذلك قال عز من قائل: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] أخبر العليم الخبير لهم عن عجز الكل من المتقدمين والمتأخرين عن الإتيان بسورة من القرآن العزيز.

فصل

وقال في سورة يونس ؑ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس:٣٨] أي: مثل القرآن في كريم نظمه وبدائع إعجازه، وعجيب وصفه وإحكام حكمته في ظهوره ولِمَ ظهر؟ وفي بطونه ولِمَ بطن؟ وفي فصيح إشارته وغرائب تلويحه وانثناء بعضه على بعض، وحسن حديثه وصدق قيله منتظم ذلك منه في تفريق خطابه وتجميعه مع إخباره عن الغيوب المحجوبة وإعلامه بغياباتها المكنونة، وترصيعه على ترتيب العالم غيبه وشهادته الموجود له في جميع ما أخبر به، وإنبائه عن جميع ما أوجد في الوجودين في مجمل هذا وتفصيله، ومجمل هذا وتفصيله.

وقد تقدم من ذكر هذا إشارة في صدر كتاب «الإرشاد» وإن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه نظمه على إحكام معاقد صنعه الحكيم معاقده ومعاطفه ودلالة الصغير منه دلالة الكبير، ومناب البعض من هذا وهذا مناب الكل، وجمع جميعه في جزء من أجزائه.

فصل

اتصف ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالإنعام والإحسان إلى عباده، وبالقدرة على

إرسال رسول كريم آتٍ بضروب من الإعجاز، وعلى تنزيل كتاب عظيم معجز للإنس والجن، منزلاً من كلام الخالق ﷻ إلى تلاوة المحدثين وقراءة المخلوقين بواسطة الروح والملك - عليهم السلام - محفوظًا من النسيان محفوظًا من الاختلاف والتبديل، مصدقًا لما بين يديه من كتاب ورسول مفصلاً من الكتاب المبين الذي لا ريب فيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [الفرقان:١].

ولا يكون كذلك إلا بما فيه من صدق الإخبار عن الغيوب، والإنباء عن موجودات الآخرة، ووصف الجزأين في العاجل والآجل، ولا يكون كذلك إلا محفوظًا من شوائب النفوس محروسًا من إلقاء الشيطان معصومًا من الوسواس والكذب والظن المرتاب به والتخييل كما قال جل قوله: ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١١] إلى آخر السورة.

وقال: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقال: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ**﴾ [الحاقة:٤٤] المعنى إلى آخره حيث وقع.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾ [يونس:١٥] هذا إلى قوله: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم:٣-٤].

فصل

سئل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟ قال: «**أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال**»[1] ومعنى ذلك: أن الملك - عليهما السلام - يأتيه من أمر الله تعالى في صوت وجلبة يكون عنها بجملته حال يشغله بذلك عما سوى ما جاء به؛ ليفرغ بذلك قلبه إلى

(١) أخرجه مالك (٤٧٥)، وأحمد (٢٥٢٩١)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٢٣٣٣)، والترمذي (٣٦٣٤) والنسائي (٩٣٤).

مراده منه، وفي أثناء ذلك يقصد بالتبليغ: موضع الإنباء من قلبه فيجمع الوحي فيه على ذلك بإذن الله ﷻ.

وفي هذا من الفقه عن الله ﷻ أن قارئ القرآن ينبغي له أن يتفرغ لقراءته ويفرغ قلبه وحواسه وجملته لتلاوة ما يتلوه منه.

قال ﷺ: «**وأحيانًا يأتيني الملك في صورة رجل**»[1] فكان يبلغ إليه عن ربه ما شاء الله.

فصل

وقال في سورة هود عليه السلام: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ...**﴾ [هود:١٣] فهذا أخرج خطابها زائدًا على إثبات رسالته ونبوته، وأن ما جاء به من عند الله حق على إثبات العلم السابق، والإخبار عن الغيوب.

ولما كان سبيل الإعجاز في الموضعين اللذين تقدم ذكرهما على ما مضى ذكره اجتزأ في إيجاد الإعجاز بسورة واحدة؛ إذ ذلك موجود في الآية الواحدة فضلاً عن جملة سوره.

ولما كانت المشارطة هنا الإخبار عن علم الله والإنباء عن غيابات الغيوب، وزاد إلى ذلك التعريض بإثبات الوحدانية والألوهية نفس لهم في ذلك إلى عشر سور؛ إذ المعهود على الأغلب أنه لا يأتي فيه هذا القدر المذكور إلا وقد أنبأ فيه بعلم غيب، ودل على توحيد وأثبت برهان من براهين الإلهية، هذا إلى إعجازه في حسن نظمه ورفيع قدره وجميل مأخذه.

غير أن الإخبار بعلم الغيوب هو إعجاز الخصوص؛ إذ المعهود أنه من أوتي بسطة في الكلام وقوة على تلقين الخطاب ربما لفق خطابًا ذا رونق يضيف فيه من أنواع الموجودات، ويتحقق في ذلك ويسلك مسلكًا يصدق فيما هو تفصيل الكتاب المبين، وتصديق لما جاء من قبله من كتاب، ويستمر على ذلك مقدار السورة ونحوها من قصار المفصل.

---

(١) تقدم في سابقه.

وأما الإخبار عن الغيوب والإنباء بما لم يكن بعد فلا يستطيعه أحد دون ذلك الحجر المحجور والسد المسدود، فكيف والحصر قد أحاط به من كل جهة، والعجز قد اكتنف من رام هذا الشأن عن كل نوع من الإعجاز الموجود في القرآن العزيز بقول الصادق الحق العليم بحقيقة كتابه، الخبير بما جعله من ألطافه في خليقته: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

قوله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤] أي: إن لم يكن لكم استطاعة على الإتيان بمثله على الشرط المشروط، هذا خطاب متوجه إلى العرب واليهود الحاضرين يومئذٍ، المجاورين مهبط الوحي بأن يبحثوا عن قواهم واستطاعاتهم على الفعل الذي يكون عنه الإتيان بمثل السورة الواحدة من مثل هذا النبي المبعوث إليهم.

ثم أعلم العليم الخبير ببواطنهم ومقادير قواهم، على أنهم لن يفعلوا؛ أي: إنهم لا يقدرون على ذلك ولا يقاربونه، نعم ولا تتوفر لذلك دواعيهم ولا تنصرف إليه هممهم، هذا هو الإعجاز الفصل والتعجيز الحق، قصر دواعيهم وقواهم عن أن يظنوا بأنفسهم قوة على المعارضة، ولذلك رأينا العرب العاربة قد عدلوا عن معارضته إلى المقاتلة، وتعوضوا من ذلك القتل والسباء ورضوا بالخروج عن الأوطان والجلاء.

وما سمع بجماعة منهم من طريق يصح نقله أنهم تشاوروا على معارضته، ولا أعلم أن دواعيهم توفرت لمناقضته، ولا أنهم تحدثوا به تصديقًا لقوله الحق: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤].

وبوجه آخر: من تبين الإعجاز في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣] أي: مثل القرآن المنزل عن كلام رب العالمين إلى ما هو قراءة للمخلوقين وتلاوة للمحدثين.

وبوجه آخر قوله جل قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: المفصل من محكم أسمائه الحسنى، ومعاني حقائق صفاته العلا إلى جميع الخطاب بكل وجه إلى كل مأخذ، فهذان الوجهان والذي قبلهما أعلى إعجازًا وأظهر قهرًا؛ لذلك وهو أعلم قال:

﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾[البقرة:٢٤].

فالقرآن الكريم إذًا معجز بنفسه، معجز بأنه محفوظ من انصراف الهمم إلى معارضته بأمر كون وقدر عزم من الله جلَّ ذكره؛ ذلك لأن السماء حرست بالنجوم، وحفظت من استراق الشيطان سماع الوحي بالرجوم، والهم بمعارضة القرآن إلقاء الشيطان، فحرس أيضًا بعد نزوله كما حرس حين النزول وقبله، ولم يكن الحفظ شاملاً للإنس والجن، فلذلك ما كذب به من كذب منهم، فقذفوه بألسنتهم ورجموه بأقوالهم وبظنونهم سحر وشعر وجنون وأساطير الأولين، وغير ذلك من أنواع أباطيلهم.

قوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] الوقود بفتح الواو: الحطب، وبرفعها: اللهب، هذا من فصل الوعيد المفصل، من فصل اسم المحنة بالنذارة التي اقتضاه اسمه المبتلي، أخبر الله ﷻ بصدق قيله أن وقودها الناس والحجارة، فذكر أهل التفسير: إنها حجارة الكبريت، وليس ببعيد ما ذكروه، ولا بمنكر ما ذهبوا إليه رحمة الله على جميعهم.

لكن رسول الله ﷺ قال في حديثه عن مسراه ليلة أسري به وفيه: «**ورأيت النار، وإذا عذاب الله شديد لا تقوم له الحجارة ولا الحديد**»(١).

فظاهر هذا إنه لم يعيِّن بهذا الخطاب حجارة الكبريت تلك تتوقد بأيسر نار، والمراد الإعلام بشدتها كما قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»(٢) أعاذنا الله الرحيم برحمته منها، فتلك الشدة من عظيم يبسها، وقوة حرها يستخرج من الحجارة والحديد رطوبة تكون عنها لها وقود، فعل هذه بالحطب فيكثر عن ذلك لهبها ويشتد سعيرها.

وإعلام آخر منه: إن موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحمن برحمته منها - يخلقها الله خلقًا يحتملون به تلك الشدة، فهي أبدًا تتوقد بهم ولا تلتهبهم.

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (ص١٧٥).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤٣١٨)، قال البوصيري (٤/٢٦١): فيه نفيع ضعفه ابن معين وأبو حاتم، والحاكم (٨٧٥٣) وقال: صحيح الإسناد. وهناد في الزهد (٢٣٤).

قال الله ﷻ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] آية ذلك ما أوجد الله ﷻ عليه موجودات الدنيا بعدم إجزائها، ويخلف لها أجزاء أمثالها وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله.

فموجودات الآخرة على هذا السبيل باقية يخلف الله منها المثل المثل، هكذا أبدًا على حكم الخلود وليس المثل غيرًا للمثل فاعلم ذلك، غير أن للنار هنالك غلبة ما بمقادير معلومة على ذلك الإمساك، والتقدير والخلق والأمر ما أريد بهم، نسأل الله الغفور الرحيم معافاته ومغفرته، وذلك الحكم موجود في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

أعقب ذلك قوله ﷻ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤] يخاطب ﷻ المؤمنين إنذارًا لهم؛ لئلا يعملوا في إيمانهم أعمالاً تدخلهم إياها، ذلك معنى قولهم في دعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران:١٩٢] استجارة منهم به ألا يدخلهم فيها، وإن أخرجهم منها - نعوذ بالله الرحيم من عذابه ما دقَّ منه وما جلَّ - والأعمال التي يدخلها الموحدون من أجلها كفر أيضًا، ومنه أصغر وأكبر.

قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[1] إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥] ارتبط الإيمان بالعمل لا بد ولا

---

(١) **مسألة فى قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾على ما عطف عليه؟**
اختلف العلماء فى العطف هنا بفعل الأمر على القراءة المتواترة - على ما عطف عليه؟ إلى مذهبين:
الأول من قال: إن هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه جريًا على السنة الإلهية من إتباع الترغيب للترهيب ومجيئه بعده حتى يعمل المكلف ويمتثل ما ينجيه من النار ويتجنب ما يهلكه من الكفر والمعاصي ويؤدي به إلى النار، فهذا عطف معنوي لا يتعلق باللفظ لأن مفهوم الجملة الأولى المعطوف عليها وصف عقوبة الكافرين، ومفهوم الجملة الثانية المعطوفة وصف ثواب المؤمنين؛ وليس هذا من قبيل عطف المفردات بعطف فعل الأمر فى قوله ﴿وبشر﴾ حتى يجب أن يطلب له ما يشاكله من أمر أو نهي فيعطف عليه، فالكلام هنا منظور فيه إلى المعنى الحاصل منه كأنه قيل: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات فبشرهم بأن لهم جنات". **الثاني** من قال: يجوز أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ الآية معطوفا على جملة ﴿فاتقوا
=

قال الله ﷻ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] آية ذلك ما أوجد الله ﷻ عليه موجودات الدنيا بعدم إجزائها، ويخلف لها أجزاء أمثالها وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله.

فموجودات الآخرة على هذا السبيل باقية يخلف الله منها المثل المثل، هكذا أبدًا على حكم الخلود وليس المثل غيرًا للمثل فاعلم ذلك، غير أن للنار هنالك غلبة ما بمقادير معلومة على ذلك الإمساك، والتقدير والخلق والأمر ما أريد بهم، نسأل الله الغفور الرحيم معافاته ومغفرته، وذلك الحكم موجود في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ الله كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

أعقب ذلك قوله ﷻ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤] يخاطب ﷻ المؤمنين إنذارًا لهم؛ لئلا يعملوا في إيمانهم أعمالاً تدخلهم إياها، ذلك معنى قولهم في دعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران:١٩٢] استجارة منهم به ألا يدخلهم فيها، وإن أخرجهم منها - نعوذ بالله الرحيم من عذابه ما دقَّ منه وما جلَّ - والأعمال التي يدخلها الموحدون من أجلها كفر أيضًا، ومنه أصغر وأكبر.

قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[1] إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥] ارتبط الإيمان بالعمل لا بد ولا

(١) **مسألة في قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾على ما عطف عليه؟**
اختلف العلماء في العطف هنا بفعل الأمر على القراءة المتواترة - على ما **عطف** عليه؟ إلى مذهبين:
الأول من قال: إن هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة، والمقصود **عطف** حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه جريًا على السنة الإلهية من إتباع الترغيب للترهيب ومجيئه بعده حتى يعمل المكلف ويمتثل ما ينجيه من النار ويتجنب ما يهلكه من الكفر والمعاصي ويؤدي به إلى النار، فهذا **عطف** معنوي لا يتعلق باللفظ لأن مفهوم الجملة الأولى المعطوف عليها وصف عقوبة الكافرين، ومفهوم الجملة الثانية المعطوفة وصف ثواب المؤمنين؛ وليس هذا من قبيل عطف المفردات بعطف فعل الأمر في قوله ﴿وبشر﴾ حتى يجب أن يطلب له ما يشاكله من أمر أو نهي فيعطف عليه، فالكلام هنا منظور فيه إلى المعنى الحاصل منه كأنه قيل: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات فبشرهم بأن لهم جنات". **الثاني** من قال: يجوز أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ الآية معطوفا على جملة ﴿فاتقوا
=

=

النار﴾ وقد اعترض على هذا الوجه بما يأتي: قالوا: إن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ جواب للشرط فى قوله: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ فإذا كان قوله ﴿وبشر﴾ معطوفًا عليه كان جوابا للشرط مثله؛ لأن ما عطف على الجواب كان جوابًا مثله، وقوله ﴿وبشر﴾ لا يصلح جوابًا للشرط؛ لأن قوله ﴿فاتقوا﴾ جواب للشرط فى محل جزم، ولا يجوز أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ فى محل جزم مثله فلا يعطف عليه، هذا أولاً وثانيًا لأن هذا أمر بالبشارة مطلقًا وليس مقيدا بقوله: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ بل أمر بالتبشير غير مرتب على شيء قبله؛ وثالثًا لأنه يفقد اتحاد المسند إليه فى الجملتين، فإن قوله ﴿فاتقوا﴾ مسند إلى الكفار المنكرين وقوله ﴿وبشر﴾ مسند إلى النبي ﷺ وعلى هذا لا يصلح أن يكون جوابًا وإذا لم يصلح أن يكون جوابًا فلا يصح عطفه على الجواب السابق، غاية ما هنالك أنه إنما يتأتى عطف الأمر للمخاطب على الأمر لمخاطب آخر إذا صرح بالنداء نحو: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم، وأما بدون التصريح بالنداء فقد منعه النحاة، هذا وليس قوله ﴿وبشر﴾ فى الإعراب مثل ما فى هذا المثال لأن قوله "احذروا" لا محل له من الإعراب بخلاف قوله تعالى ﴿فاتقوا﴾ فإن له محلاً من الإعراب وهو الجزم جوابا للشرط؛ فلذلك أمكن العطف فى المثال دون الآية؛ ورابعًا أنه لو عطف قوله ﴿وبشر﴾ على قوله ﴿فاتقوا النار﴾ كان تقدير الكلام: "فإن لم تفعلوا فبشر الذين آمنوا" فلا ينسجم المعنى بين الشرط والجواب.

ويجاب على هذا الاعتراض بالأجوبة الآتية: أما أولاً فإن قوله ﴿وبشر﴾ يصح أن يكون جوابًا للشرط لإمكان ترتيبه على الشرط وتسببه عنه؛ لأن تبشير المصدقين كإنذار المنكرين فى أن كلا منهما مترتب على عدم معارضة الكفرة لأنه حينئذ يثبت كون القرآن معجزا ويتحقق صدق النبي ﷺ فيكون تصديقه سببا للبشارة ونيل الثواب كما أن إنكاره سبب للإنذار وإصابة العقاب لأن الكفار إذا تحقق عجزهم عن معارضة القرآن ظهر أنه معجز فمن صدق به استحق الثواب ومن كذب به استحق العذاب، وهذا يقتضي إنذار الكفار وتبشير المؤمنين العاملين وبهذا الوجه يكون قوله ﴿وبشر﴾ مرتبًا على الشرط فيصلح أن يكون جوابا للشرط فيصح عطفه على جواب الشرط، هذا أولاً وثانيًا أن من تتميم عذاب الكافرين ثواب من هم أضدادهم وهم المؤمنون العاملون كأن الله يعذب الكفار بوجهين: وجه التحذير وهو إنذارهم بالعذاب ووجه التحسير - أي يجعلهم يتحسرون ويندمون - وهو بيان ثواب أضدادهم فيكون المعنى: فإن لم تفعلوا فاتقوا النار وخافوا عذابه واتقوا وخافوا من ثواب أضدادكم وأعدائكم، أو فاتقوا النار واتقوا ما يغيظكم من حسن ما سيؤول إليه أمر أعدائكم من الثواب ودخول جنات تجري من تحتها الأنهار، فأقيم ﴿وبشر﴾ مقامه تنبيها على أنه مقصود فى نفسه لا لمجرد غيظهم فقط، وهذا القدر من الربط المعنوي كاف فى عطفه على الجزاء وإن لم يكف فى جعله جزاء ابتداء فيمكن بالتالي ترتبه على عدم المعارضة كما ترتب الإنذار عليه.

وقول أبو حيان: " وليس قوله ﴿وبشر﴾ على إعرابه مثل نحو: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم لأن قوله "احذروا" لا موضع له من الإعراب

=

بخلاف قوله ﴿فاتقوا﴾ فلذلك أمكن فيما مثل به العطف ولم يمكن فى ﴿وبشر﴾ مردود عليه بأن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ وإن كان له محل من الإعراب فإن ذلك المحل الإعرابي لما لم يظهر وكان مقدرا لم يكن له حكم وصارت الجملة لذلك بمثابة الجملة التي لا محل لها من الإعراب، وبناء على ذلك فلا مانع أن يعطف عليها جملة لا محل لها من الإعراب ولأنه لما صح أن يعطف على الخبر ما لا يكون خبرًا صح أن يعطف على جملة الجواب ما ليس بجواب، فقد أجاز الفارسي فى نحو: "زيد ضربته وعمرًا كلمته" أن تكون جملة "وعمرا كلمته" معطوفة على الجملة الصغرى وهي جملة الخبر وهي "ضربته" على الرغم من أن جملة "وعمرا كلمته" لا يصح أن تكون خبرا لعدم وجود الرابط لأن جملة الخبر وهي "ضربته" وإن كان لها محل من الإعراب لكن هذا المحل لم يظهر ولم يكن له حكم وصارت هذه الجملة بمثابة الجملة التي لا محل لها من الإعراب وهذا قد جوز عطف الجملة التي لا محل لها من الإعراب وهي "وعمرًا كلمته"- عليها، فلما صح أن يعطف على الخبر ما لا يكون خبرًا صح أن يعطف على جواب الشرط ما ليس بجواب، ومن هذا المنطلق صح عطف جملة ﴿وبشر﴾ على جملة جواب الشرط وهي ﴿فاتقوا النار﴾ وإن لم تكن جملة ﴿وبشر﴾ جوابا للشرط لما ذكرنا. أما قول الإمام أبي حيان "إن قوله ﴿وبشر﴾ لا يصلح أن يكون جوابًا للشرط لأنه أمر بالبشارة مطلقًا وليس مقيدًا بقوله ﴿فإن لم تفعلوا﴾" مردود عليه بأن الواقع عدم الفعل على وجه الجزم وعدم الإتيان بمثله على وجه الجزم بدليل ﴿ولن تفعلوا﴾ وبناء على ذلك فليس هناك تقدير "وإن فعلتم فلا تبشير" ومن هذا المنطلق فإن الأمر بالتبشير واقع مطلقا وليس مقيدًا بما قبله. أما الذي ذكروه من عدم جواز عطف ﴿وبشر﴾ على قوله ﴿فاتقوا﴾ بدعوى عدم الاتحاد فى المسند إليه بأن عدم الاتحاد مضمحل وقد عوضه عدة محسنات فى هذا العطف وهي: قرب المعطوف من المعطوف عليه. رعاية الجهة الجامعة بين ﴿وبشر﴾ و﴿فاتقوا﴾ وهي اللفظية والوهمية والعقلية؛ أما اللفظية والوهمية فإن قوله ﴿فاتقوا﴾ بمعنى "فأنذروا" وأما العقلية فلاتفاق المعطوف والمعطوف عليه فى المسببة؛ لأن كليهما مسبب وناتج عن عدم المعارضة. من المحسنات البديعية التي يشتمل عليها النص المقابلة بين المؤمن والكافر وبين الجنة والنار وبين التبشير والإنذار إلى غير ذلك من وجوه الحسن، فوجوه الحسن هذه تعوض عدم الاتحاد فى المسند إليه، على أننا إذا دققنا النظر نجد اتحاد الجملتين فى المسند إليه حاصل من ناحية المعنى والمضمون لأن قوله ﴿فاتقو النار﴾ فى معنى "فأنذرهم بالنار" على ما وجهه الشيخ السيالكوتي. ويرى الشيخ الزمخشري أن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ ليس جوابا لقوله: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ وتقدير الكلام: فإن لم تقدروا على إتيان سورة من مثله وأنتم فرسان البلاغة فقد صح صدقه وإذا صح صدقه فليتق المعاند النار وبشر يا محمد المصدق العامل بالجنة، وعلى ذلك فالفاء فى قوله ﴿فاتقوا﴾ فاء الفصيحة أفصحت عن شرط محذوف وما بعدها جواب للشرط المحذوف، والجملة دليل لجواب الشرط المحذوف لقوله ﴿فإن لم تفعلوا﴾ وقد رد الإمام ابن هشام على كلام الشيخ الزمخشري بأن قوله ﴿فاتقوا النار﴾ لا يصح أن

=

محالة، على ذلك أصفق[1] خطاب القرآن العزيز، وحديث رسول الله ﷺ والوجود أجمع، أما ما جاء به الوحي فظاهر معلوم، وأما الوجود فسيأتي ذكره في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

وعلى القول بالإجمال في ذلك، فإن الله ﷻ هو السلام المؤمن الحق، وهو الخالق البارئ المصور الرازق المحسن المجمِّل، إلى غير ذلك من أسماء الأفعال، واعلم أن الإيمان في هذه الدار آية لرؤية الله ﷻ، ولا يكون ذلك إلا في الجنة، وإن العمل الصالح آية على مثال موجودات الجنة.

قال الله ﷻ: ﴿**ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٣٢].

﴿**وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة: ٢٤].

=

يكون جوابا للشرط المحذوف وأن قوله ﴿وبشر﴾ معطوف عليه لأن الأمر بالتبشير ليس مشروطًا بعجز الكافرين عن الإتيان بمثل القرآن، ويجاب عن ذلك بأنه قد علم أنهم غير المؤمنين فكأنه قيل: فإن لم يفعلوا فبشر غيرهم بالجنات أى بشر المؤمنين بالجنة ومعنى هذا: فبشر هؤلاء المعاندين الكفار بأنه لا حظ لهم من الجنة وتبشير الكفار بذلك من باب التهكم كقوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وبعد، فهذه هي كلام العلماء ومناقشتهم فى الإجابة على التساؤل السابق، وإذا أردنا أن نفاضل بين هذين الرأيين فأيهما أرجح؟ ولماذا؟ فإليك ما يلي: إن القول الراجح - على ما يراه الباحث حيث اطمأنت إليه النفوس - هو الرأي الأول وهو أن يكون قوله ﴿وبشر﴾ معطوفا على الجملة السابقة فيكون من باب عطف القصة على القصة أى عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه، لأن هذا الرأي لا تكلف فيه ولا تعسف ولا تأويل ولا يحتاج إلى حذف، هذا أولا وثانيًا لأن هذا الوجه أقضى لحق البلاغة وأدعى لتلائم النظم؛ لأن قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا﴾ الآية خطاب عام يشمل المؤمنين والكافرين وقوله ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ الآية مختص بالمخالفين الكافرين ومضمونه الإنذار، وقوله ﴿وبشر﴾ الآية مختص بالموافقين وهم المؤمنون العاملون ومضمونه البشارة، فكأنه تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ثم أمره أن ينذر من عاند ويبشر من صدق؛ وثالثًا لأن هذا الوجه لا اعتراض عليه كما فى الوجه الآخر، صحيح أنه قد أجيب على هذه الاعتراضات لكن هذا الوجه الذي اخترناه سالم من هذه الاعتراضات فيترجح لدينا هذا الوجه، والله وأعلم.

(١) أصفق: أجمع.

وقال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله غُرست له شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله فكذلك، ومن قال: الله أكبر فكذلك، ومن قال: لا إله إلا الله فكذلك، ومن صلى اثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة في يوم وليلة بني له قصر في الجنة**»(١) وهذا كثير لمن يتبعه.

قوله ﷻ **في** أهل الجنة: ﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**﴾ [البقرة:٢٥] أشبه وجود كل شيء خالفه؛ إذ كان الخالف مثلاً للذاهب، وقد يكون الشبه بين موجودات ما هنالك، وبين موجودات ها هنا كالرمانة مثلاً والتفاحة من تلك تعلم بأنها رمانة وتفاحة، وكما يعلمون فيما هنالك نساء من نساء عهدهن فيما هنا، هذا مع تحصيل العلم ببعد البون، فافهم.

فالثمرة يجنيها جانيها في الجنة، يخلف الله ﷻ مثلها مكانها دون زمان، كالمستقي بالإناء من النهر فإنه يخلف المأخوذ مكانه مثله لا في زمان.

آية ذلك: ما يخلفه الله تعالى في هذا الدار من العَرض بعد العَرض والأجزاء بعد الأجزاء، وقد تقدم ذكر ذلك، فثبتت على ذلك الأجسام والأشكال والصور والهيئات، حتى يظن الغافل بل يرتاب أكثر العقلاء غير الموفقين في الفكر، والنظر في تحقيق وجود ذلك وببعده، وكلا إن الله هو الخلاق العليم أبدًا على الدوام في هذه وفي تلك.

وخصَّ الدار الآخرة بحكم الخلود؛ لذلك أعقب ﷻ بقوله الحق: ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٢٥] هذا حكم منه لازم لكل موجود من الأجسام والأرضين والسماوات والأفلاك إلى غير ذلك، وأما الدنيا ففارقت في ذلك الآخرة في بعض الموجودات، كالثمرات وأشباهها.

فالآخرة يخلف فيها المثل المثل دون زمان، والدنيا على المهل، وفي أوقات وآناء محدودة، فكذلك تشابهت الثمرات في حقهم حتى قالوا: ﴿**هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾ [البقرة:٢٥].

---

(١) أخرج النسائي في الكبرى (١٠٦٦٣) أوله فقط. وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٧٠٦٢) آخره فقط.

قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي الجنة، فمرت علي منها خصلة عنب** - وفي أخرى: «**قطف عنب**»[١] - **فأهويت لآخذه ففاتني، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»[٢].

وإنما ذلك؛ لأنه كلما أُخذ من ذلك شيء خلفه مثاله على الولاء دون زمان.

آية ذلك: ما يكون من ثمرة كل شجرة تقطف، ثم يأتي بمثلها في عام آخر، فقرِّب البعيدة تصب الحق إن شاء الله.

أعقب ذلك قوله الحق: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**﴾ [البقرة:٢٥] أشار وهو ﷻ أعلم إلى ما قص من ذلك، أنه كلما أتى أحدهم زوجته في الجنة وجدها عذراء، وهذا مما تقدم ذكره ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٢٥] في مزيد غير منقطع ولا ممتنع، جعلنا الله الرحيم برحمته منهم في يسر وعافية. انتهى.

فصل

ألا ترى أن الغيب وغيره في هذه الدار من أنواع الثمرات والفواكه لما أن كان عن فتح رحمته بالماء ينزله من السماء يخلف منه المثل المثل كل عام، وربما كان على الفرط أكثر من ذلك، فنشأ ذلك في الدار الآخرة إلى وجود ذلك دون زمان حتى يقول: ﴿**هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾ [البقرة:٢٥] لعدم الفقد للمأخوذ المجتنى، ومشاهدة الخالف مكانه ﴿**وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة:٢٨٤].

قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت في صورة كبش أقرن، فقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيقولون: الموت، فيقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ثم يقال: يا أهل النار أتعرفون هذا؟ فيقولون: هذا الموت فيقال: ويا أهل النار خلود فلا موت**»[٣] فهذا الموت قد مات في الآخرة، وكذلك لا عدم فيها كما ليس فيها موت.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨٤٢)، وعبد بن حميد (١٠٣٦)، والضياء (٣ ١١٩٣) وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠٤)، ومسلم (٩٠٧)، وأحمد (٢٧١١)، والنسائي (١٤٩٣)، وابن حبان (٢٨٣٢) وفيه عندهم جميعًا قصة صلاة الكسوف.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٨١)، وهناد في الزهد ٢١٣)، وعبد بن حميد (٩١٤)، والبخاري (٤٤٥٣)، ومسلم (٢٨٤٩)، والترمذي (٣١٥٦) والنسائي في الكبرى (٦ ١١٣١٦)، وابن حبان (٧٤٤٩).

وجاء: «إن الولي يشتهي الطير، أو أي حيوان يشتهيه جاءه ووقع بين يديه طبيخًا أو مشويًا كما اشتهاه، فيأكل منه ما أحب، ثم يطير أو يذهب حيًا كما كان قبل» فهذه الحال منه ما هي، وحال الثمرة يقطعها جانيها ويخلفها خالفها، ما حال الذاهبة منهما وليس فيما هنالك إعدام ولا موت، وهي دار المزيد لا دار إعدام، كما هي دار الحيوان لا دار الموت، والله ورسوله وما جاء من عنده حق.

ليت شعري، كيف وجه هذا الحق؟ ومن أين سبيل يتعرف؟ وما آيته ها هنا؟

بيان: اعلم - وفقنا الله إياك - أن بين الحياة والموت حالاً متوسطة لا توصف بموت ولا بحياة، وقد توصف أيضًا بحياة.

قال الله: ﷻ ﴿**وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى* الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى* ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا** وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى:١١-١٣] أي: إنه لا يحيى حياة طيبة، وقد تقدم إنه لا موت عندهم، وقد مات الموت.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها**» وهم الذين عني بقوله: ﴿**وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى**﴾ [الأعلى:١١] ثم قال: «**فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون**»[(١)] فحياتهم موجودة بهم من حيث إحساس العذاب والآلام والخزي والهوان، ووجود الندم والعويل ودعوى الثبور، نعوذ بالله العظيم.

وإنما وصفوا بعدم الحياة من حيث إن حياتهم تلك لا تنفع ولا تطيب، وقد تأول على هذا قوله ﷻ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] أي: في دار البرزخ، وهي على هذا حياة أهل الجنة في الجنة، ولأجل ذلك طابت بهم ولهم حياتهم في الدنيا وفي حال البرزخ.

وأما آية ذلك في هذه الدار: إذ دار البرزخ ممزوجة من موجودات هذه وموجودات الدار الآخرة، فحياة المؤمن في دار البرزخ، وأعلى منها حياة الشهيد، مع ظهور ظاهرها الذي هو في بادي الرأي ضدها، وكذلك كل ما هو ينشأ إلى كمال، ويصعد بذلك إلى تمامه، فهو ميت بما هو لم يبلغ بعد، ولم يتم وهو حي بما بلغه من درجة هو فيها في طريقه ذلك، وكمال النبات بذره، وكمال الثمر نضجه وإيناعه.

---

(١) تقدم تخريجه.

ألا ترى أن الزرع ما كان على ساقه مخضرًا بعد لم يدرك البذر فهو لم يكمل بعد، يتغذى به الأنعام والحيوان في الأغلب، وما من شأنه النقصان عن الكمال الإنساني، فإذا أدرك البذر فقد كمل وصار غذاء للإنسان، والحبوب كلها والبذور أجمعها كذلك، وهي في حال نباتها أظهر في حال النبات، وحال النبات أظهر في صفة الحياة.

وقد توصف الحبوب والبذور ليبسها وعدم النشء فيها بالموت في سبيل الاستعارة والمجاز وحال باطنها ليس كذلك، بل هي يومئذٍ أعرق في صفة الحياة منها قبل ذلك، حينئذٍ صارت غذاء للإنسان معدة أن يكون بها ويحلق هو عنها.

ألا ترى أنها إذا جُعلت في مستقرها من الأرض فإذا جاءها الماء كيف تعود إلى الإنبات والحياة الظاهرة؟ كذلك الحيوان في الجنة، كما له أن يكون طعمًا للولي فيخلق الله تعالى منه أجزاء الولي فيكونه، فيصير بعد رشحًا وعرقًا وجشاء أطيب رائحة من المسك، فيعود عند ذلك طيبًا له أيضًا ونعيمًا، فليس إذًا على هذا مأكولات الجنة يطرقها الموت، وإن قطف ما هو منها تقطف أو شوي أو طبخ ما هو منها يشوى أو يطبخ وأكل، وطُعِمَ من غير موت ولا عدم، يحضر ذلك كله بخلف الخالف، ما نيل منها بغير زمان يحصل، ثم يحيا بعد قضاء الوطر كالبذر يكون عن النبات عن البذر.

وكحال الشهيد والمؤمن في البرزخ لا موت في ذلك من حيث يوصف بالحياة، هذا واعلم أن الدليل لا يقوم مقام المدلول عليه، ولا ما هو آية على المطلوب ليس مبلغ قوة وجود ما جعل آية عليه، فافهم ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤].

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾[1]

---

(١) قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ قد يبدو في بادئ النظر عدم التناسب بين مساق الآيات السالفة ومساق هذه الآية، فبينما كانت الآية السابقة ثناء على هذا الكتاب المبين، ووصف حالي المهتدين بهديه والناكبين عن صراطه، وبيان إعجازه والتحدي به مع ما تخلل، وأعقب ذلك من المواعظ والزواجر النافعة والبيانات البالغة والتمثيلات الرائعة، إذا بالكلام قد جاء يخبر بأن الله تعالى لا يعبأ أن يضرب مثلاً =

[البقرة:٢٦] يصلح أن تكون «ما» ها هنا للاستفهام، ويكون ما بعدها مرفوعًا، وقد قرئ كذلك، ويصلح أن تكون اسمًا لما دون بعوضة في الصغر والدقة، ويصلح أن تكون للإبهام، وجاء الإبهام هنا لأجل الكونين الجنة والنار.

يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ لموجودات الجنة أو جهنم بموجودة ﴿مَّا﴾ عندكم ﴿بَعُوضَةً﴾ [البقرة:٢٦] المعنى، وأما «ما» الثانية اسم لما فوقها في الكبر والعظم، ولما كان هذا الخطاب المتقدم قبل هذا يقتضي تدقيق النظر في إعدام الذوات والهيئات وإيجاد أمثالها وأغيارها في العالم، وأبعاضه على التفصيل وتفصيل التفصيل صلح أن يكون قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً...﴾ مجاوزًا له.

ولما كان هو خالق البعوض والعنكبوت والفراش والخشاش كله، كما هو ﷻ خلق السماوات والأرض والدنيا والآخرة وما بين ذلك كان الحق، فالحق المبين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا يستحيي أن يضرب مثلاً لشرار خلقه، كما يضرب ﷻ لخياره مثلاً بخيارهم ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦] وهو من فضل المحنة والإنعام، كذلك سرد ﷻ معناها معنى معنى إلى قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[البقرة:٤٠].

=

بشيء حقير أو غير حقير، فحقيق بالناظر عند التأمل أن تظهر له المناسبة لهذا الانتقال، ذلك أن الآيات السابقة اشتملت على تحدي البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في المعارضة طريقة الطعن في المعاني، فلبسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما ينزه عنه كلام الله؛ ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله بإلقاء الشك في نفوس المؤمنين، وبذر الخصيب في تنفير المشركين والمنافقين.
وروى الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس أن الله تعالى لما أنزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] قال المشركون: أرأيتم أي شيء يصنع بهذا؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ وروي عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب بها المثل ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه أن يكون هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية. [التحرير والتنوير (١٨٠/١)].

ويتنظم أيضًا بقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ المعنى إلى آخره ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] بيَّن ذلك حديث رسول الله ﷺ: «**إنما مثلي ومثلكم، كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل هذا الفراش والذباب يتساقطون فيها، وأنا آخذ بحجزكم إلي عن النار وأنتم تتابعون فيها**»[1].

أتبع ذلك قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ فأجابهم الله ﷻ بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] كذلك حكمه في خطابه عباده، يقول الحق: ويبشر الذي من أجله ضربه مثلاً، ويهدي السبيل من يشاء، ويضل عنه من يشاء.

كذلك فعل ﷻ في عده الملائكة خُزَّان جهنم - عليهم السلام - أعلم ﷻ أنهم تسعة عشر، وأخفى عنه أنهم ملائكة رؤساء يتبعهم من جنود الله جل ثناؤه ما لا يعلمه إلا الله، ولما افتتن بعض قريش بكونهم تسعة عشر، وقال: تخافون من تسعة عشر وأنتم الناس كثرة، أنا أكفيكم التسعة واكفوني أنتم العشرة.

وهو على التحقيق خطاب معبر عن الملائكة المعذبين على جميعهم السلام، في ذكر دار سقر من دار البرزخ، وهو الأظهر؛ لما قد دل الخطاب الكريم، وربما كان هذا العدد عدد الرؤساء منهم ولهم من التابعين ما شاء الله، وأما عددهم في سقر الدار الآخرة وفيما سوى سقر من محالها - نعوذ بالله منها - فما يعلم جنود ربك إلا هو.

قال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣١].

ولو يعلمون أنه تبارك وتعالى إذا شاء أخذهم بأنفسهم وأنفاسهم، وربما أمسك عنهم تجديد إيجاده فانحسر بقاؤهم وهلكوا.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٢٧) والطبراني (١٠٥١١) وأبو يعلى (٥٢٨٨) والقضاعي (١١٣١) قال الهيثمي (٧/٢١٠): فيه المسعودي وقد اختلط. بحجزكم: مفردها حجزة، وهي محل العقدة من الإزار.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾[البقرة:٢٩-٣٢].

قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] إلى قوله عز قوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] [البقرة:٢٩] إن كان الخطاب خاصة ليهود فيكون هذا تعريفًا لهم بأنهم أماتهم حينما صعقوا فأحياهم، وإن كان عامًا للجميع فهو إعلام منه لهم بأنهم كانوا أمواتًا بعد إيجاده إياهم يوم قررهم فأقروا، وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا، وإخبار لهم ولغيرهم باقتداره على النشأة الآخرة، وتنبيه على الاستدلال بالنشأة الأولى.

وهو خطاب منظم بما قبله من لدن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] وهو نص على معنى الربوبية وإثبات العبودية، والأمر بالتعبد لله ﷻ وإخبار عن الوحدانية، وتبيين نبوة محمد ﷺ إلى أن ختم الخطاب أيضًا بذكر الوحدانية والإنعام إلى قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]

---

(١) انتقال من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها وهو مما علمه ضروري للناس، إلى الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الأرض، وهو أيضًا قد يُغفل عن النظر في الاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات، ويشبه أن يكون هذا الانتقال استطرادًا لإكمال تنبيه الناس إلى عظيم القدرة. التحرير والتنوير (١/٢٠٠)].

(٢) قال المصنف: فهذا عام في كل شيء، هو في الأرض، وهو أكبر في السماء منه في الأرض. والغرض الأول المشار إليه به هو آدم ﷺ؛ إذ هو المشار إليه وبنوه في الأرض، ثم بآخره ما سواه، ولما قالت الملائكة - عليهم السلام- طلبًا منه علم ما به أنبأهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي:
=

[البقرة:٣٠] بالفاء، وقرأ الإمام زيد بن علي وغيره بالقاف[1] والخلافة تكون الخليفة على ضربين: أعلى وأدنى، ثم على درجات ووسائط بين الطرفين.

فالعلي منها: من شأنها أن يكون على حكم مستخلفه، وعلى نحو من علمه وخلقه؛ إذ هو مؤهل معه أن يقضي بقضائه، ويحكم بحكمه.

ثم تكون الدنيا منها: خلافه مجازًا أو لتسمية الشيء باسم الشيء، لكونه منه بمعنى وسبب، وبالمعنى السابق المفهوم من قوله ﷻ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ أي: يحافظ على عهدي ويعمل بأمري، ويستشهد شواهدي، فيشهد عنده ويعدلها ويأخذ عنها حكمي، يستنير بنيراتي ويستدل علي بآياتي، ثم بآخره يكون مفهومها الدنيا منها.

قال الله ﷻ: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾ [ص:٢٦] هذه من الخلافة العليا.

وقال: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٢٩].

وقال: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا**﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود:٦١] المعنى إلى آخره حيث وقع.

وقوله ﷻ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠] منتظم معناه بقوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١] والذي يذكر بعهد الربوبية ولزوم ربقة العبودية.

ثم اتصل قوله بذكر الرسالة، وذكر النذارة والبشارة، وكل ذلك يعمه معنى تعداد النعم إلى قوله: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ**

=

بما أخلقه، وكيف ويكون خلقه بما لا تعلمون، وكان سبق إليهم - على جميعهم السلام - ما هو طريقة الفساد، وكان الذي كان في علمه هو ﷻ ما استعلن في المؤمنين والأنبياء والمرسلين والأئمة الراشدين، ثم في جميع ما خلقه من شيء، ويتضح هذا على قراءة من قرأ: «إني جاعل في الأرض خليقة» بالقاف وقد تقدم إيماء أنباء إلى هذا المعنى في سورة البقرة، يشرف باللبيب إلى سواء القصد إن شاء الله تعالى. [شرح الأسماء ٢٨٨/١].

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥٢/١)، وتفسير البحر المحيط (١٧٣/١).

﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨][1].

يقول جل قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ وهذا تقدير تعجيب من وجود هذا منهم مع وجود ما يوجب عدمه وفقده، كيف تكفرون بالذي خلقكم، وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، يحفظكم ويكلؤكم بالليل والنهار ويرزقكم، وبه قوامكم ظاهرًا وباطنًا، تكفرون به وتعبدون على هذا غيره؟

فصل

الله واسع عليم، يُسمع من يشاء ما يشاء، ووسع كلامه العظيم هذا وجوه الخلافة كما وسع كلامه كل ما أراده به.

ومن الخلافة: ما هي خلافة الأنبياء ثم خلائفهم، ومنها: ما هي خلافة المتسلطين والمتغلبين الجائزين عن سبيل الله ﷻ، وهذا الضرب من الخلافة هو أول المفهوم من قوله ﷻ: «خليقة» بالقاف وبالتبعية يكون مفهوم الخلافة العليا كما المفهوم الأول، من قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾ بالفاء منقطة من أسفلها الخلافة العُليا وبحكم التبعية، يكون مفهوم السفلى منها، وقد تقدم القول إلى معنى هذا.

كذلك من الملائكة - عليهم السلام - ما هم المخلوقون من النور، وهم ملائكة الرحمة، ومنهم المخلوقون من نار السموم.

قال الله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] وهم النسل الذي كان المبلس الملعون منهم في أوليته حتى أخرجه الله ﷻ عنهم ولعنه بكفره، وأبلسه لفسقه عن أمره، فطرده عن جواره وعزله عن عملهم، فكان مفهوم ملائكة الرحمة - على جميعهم السلام - ما عبر عنهم حكم قوله الحق لقبضة اليمين: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعلمون**» وكان مفهوم القبيل الآخر ما عبر عنه حكم قوله لأهل الشمال: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعلمون**» وفي أخرى

---

(١) قال المصنف: فهم يرجعون إلى الحي الباقي الدائم؛ فلذلك يكونون عند الرجوع إليه في بقاء متوالٍ دائم، ويبين له قوله جل من قائل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧] [شرح الأسماء ١/٣٥].

في كلتي الكلمتين: «ولا أبالي»[1].

تلقى كلا الفريقين من كلامه العلي ذكر الخلافة على هذا النحو، وهو ما كان كل واحد من القبيلين موجودًا عنه وله، وفقالت ملائكة العذاب: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:٣٠] وهذا منهم على وجه التكبر، منهم على الخلائف الذين سبق إليهم علمهم، وعلى وجه طلب العلم من ربهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

تقدير ذلك: ربنا، أتجعل فيها من تخلقه وترزقه وتحييه وتميته وتجازيه بفعله، وتحسن إليه فتحفظه وتكلؤه وتمكنه وتملكه، وهم يكفرون بك ويكذبون رسلك ويردون عليك أمرك وكتبك، ويفسدون في الأرض ويسفكون دماء الآمرين بالقسط لهم من الناس، كيف هذا؟ وما وجه الحكمة في إيجاد هؤلاء؟ وكيف يكون وجود مثل هذا منهم مع وجود ما يوجب ضده؟ ولم يكن بعد ظهر من إبليس لعنه الله ما ظهر من ضلالته وفسقه ما أظهره.

ألا تسمعه جلَّ ذكره لما أعلمهم بأسمائهم، ثم قال ﷻ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾أي: في مستقبل أمركم ﴿وَمَا كُنْتُمْ﴾ قبل ﴿تَكْتُمُونَ﴾ يعني: وهو أعلم بما أظهره من شأن إبليس لعنه الله؛ ولذلك كرر قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] فجعله ﷻ ماضيًا بالإضافة إلى حال إظهاره آياته واستكباره، أسال الله العفو والمعافاة في الدنيا والآخرة.

ثم هنا محذوف من حال المقال ما هو تمام الكلام، تقديره والله أعلم: لأن أمرتنا ربنا بأمرك فيهم لنهلكنهم بإذنك، ولئن وليتنا عذابهم لننتقمن لك منهم حنقًا عليهم من أجلك وعداوة لهم فيك، ثم عطف كلام الأولين من الملائكة - عليهم السلام - بالواو.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣٠] أي: مكان من لم يسبحك منهم، ونعبدك عوضًا من عبادتهم، كما قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ

---

(١) تقدم تخريجه.

وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

ثم قالوا: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] أي: ونقدس لك عبادك المؤمنين؛ أي: نلهمهم ذكرك ونبلغهم وحيك ونلقي إليهم أمرك، ونشفع لهم عندك وندعوا لهم، كما قال جل قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧] إلى آخر المعنى حيث وقع ذلك من شأنهم.

تنبيه:

إن من أحق الحق الإيمان بالله جلَّ ذكره، ثم الإيمان بملائكته ورسله وكتبه، والشهادة بما شهد هو عز جلاله به، وإنهم الطائعون لأمره العاملون به، لا يوجد منهم له خلاف في مراد ولا يجوز عليهم، فهذا أصل عقد المسلمين، والقول بغير هذا خروج عن العقد المجموع عليه، وخلاف نص الكتاب العزيز، ورد لكلام الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

وقد يكون القول الذي تقدم ذكره: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] قولاً لجميعهم - صلوات الله وسلامه عليهم - زائدًا على ما تقدم ذكره.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] فجميعهم الموالي من والى الله، والمعادي من عادى الله فولى الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هؤلاء رحمة من شاء من عباده، وهؤلاء عقاب من شاء من عباده حكمة بالغة.

فصل

قال رسول الله ﷺ في قوله جل قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]: «**إن عليكم ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر...**» [١].

وإن أحدهما صاحب اليمين من العبد والآخر صاحب الشمال منه، وقال النبي

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/٢٩٩).

ﷺ: «**يقول الله ﷻ: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، فإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وأطيب**»[1].

وقال الله جل قوله لرسوله محمد ﷺ: ﴿**قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ [الأنعام:٥٠] وقالها نوح: عليه السلام فهؤلاء الملائكة المخلوقون من النور المقربون صلوات الله عليهم أجمعين، كما قال عز من قائل: ﴿**لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لله وَلَا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ**﴾ [النساء:١٧٢] فهذا رقي بمعنى: التفضيل إلى الغاية.

وقد قال عز من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ**﴾ [البينة:٧] وقال في الذين كفروا: ﴿**أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ**﴾ [البينة:٦].

وهذا خطاب عام في البرية المؤمنين منهم والكافرين؛ إذ من الإنس المؤمن والكافر، ومن الجن المؤمن والكافر، وإبليس - لعنه الله - كان من الجن وجاء في الأخبار: «**وقوة الوحي تفضيل الولي على الملك**»[2] والله أعلم، فإن كان ذلك كذلك.

وجاء من عند الله ومن عند رسوله ﷺ فهو الحق المقطوع به، ويكون هذا التفضيل متوجهًا بين مصطفى الإنس وبين الصنف المخلوق من النار، الذين قال الله جل ثناؤه فيهم: ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾ [الحجر:٢٧] هذا إن صح الخبر في هذا المعنى، وإلا فالسكوت أولى، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[3] [البقرة:٣٠] يعني: وهو أعلم بما ينزل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧٠٠)، وابن خزيمة (٣٢٢)، وفي التوحيد (١٤٠).

(٣) اختلف علماء التأويل في هذا الجواب وهو قوله: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ فقيل: إنه جواب لتعجّبهم، كأنه قال: لا تتعجّبوا من أن فيهم مَن يفسد ويقتل، فإني أعلم مع هذا أن فيهم صالحين ومتقين وأنتم لا تعلمون. **وقيل**: إنه جواب لغمّهم كأنه قال: لا تغتمّوا بسبب وجود المفسدين فإني أعلم أيضًا أن فيهم جمعًا من المتّقين ومن لو أقسم على لأبرّه. **وقيل**: إنه طلب الحكمة كأنه قال: إن مصلحتكم أن تعر فوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل. بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم.

وقال ابن عباس: كان إبليس - لعنه الله - قد أعجب ودخله الكِبْرُ لما جعله خازن السّماء =

ما قد شاء إظهاره من حكم خصوص، والتفضيل بالإنباء والرسالة والولاية؛ لذلك تضم به ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾[1] [البقرة:٣١] لما قال هؤلاء ما عندهم وهؤلاء ما عندهم وعبر كل عن العلم الذي علمهم ربهم عز جلاله الذي أشاروا إليه بقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] أجابهم ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

علمه جلَّ ذكره لا يقدر قدره، وما زاد به علمه على علم عباده لا يتوهمه الوهم، ولا يطرقه الفكر إلا أن يكون هذا العلم الذي أخبرهم ﷻ به نبأ قد أخرجه إلى الوجود، فيمكن العباد الإشارة إليه ولو على بعد، فمعناه وهو أعلم: إنها إشارة إلى ما جعل في آدم ﷺ من الحق، وأجزل حظ من الفطرة وخصه به من العلم

وشرفه، فاعتقد أن ذلك لمزيّةٍ له، فاستحب الكفر والمعصية في جانب آدم ﷺ وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، فقال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وقيل: المعنى عام؛ أي: أعلم ما لا تعلمون مما كان، وما يكون، وما هو كائن. [تفسير اللباب (٢٠٩/١)].

(١) قال المصنف: أي: علمه أسماؤه التي اقتضت مقتضياتها أسماء كل شيء خلقه ثم باهى ﷻ به ملائكته يوم اختبرهم بالسجود له إقرارًا منها له بخصوصيته الله ﷻ له، واقتداء به في سجوده له.

وكان ذلك أول التكليف والمحنة باعتقاد الخصوصية والإيمان بالنبوة والاقتداء بالأئمة والأمر بالنظر والاعتبار، وصرف كل مفعول في العالم إلى فاعله وتسمية كل مسمى بمعنى الاسم الذي تضمنه من أسمائه، فكان عن ذلك ما قصه علينا بصدق قبله وحكم تنزيله ﷻ، ثم توارث ذلك بنوه من بعده إلى أن بعد الأثر، وانفرق ما بين النبوة والنظر، فخلف بعد ذلك من بعدهم خلف أفردوا العقل وأغمضوا في ذلك على الإصغاء إلى الخير، فغربت شمس النبوة في حقهم واعتدت لذلك بصائرهم العمش، فهم يستقرؤون الموجودات عقلاً ومعقولاً ولا يهتدون يمشون فيما بينهما في مثل الغبش فلا يصلون، صمًّا عن الداعي عميًا عن الهادي بلهًا عن جدي الجادي، يتكلمون في الطبع والمطبوع، ويقتصرون على الأسباب والأواسط، ويعكفون على عبادة المعقولات والأفاعيل، ثم من أدرك منهم التوحيد استعمل عبادته لغير المعبود؛ إذ هو لنفسه شارع ولها بعقله ناهٍ وآمر، وهيهات هيهات إنما يضيء العقل بالنبوة.

ونفهم المراد من الله ﷻ لمبلغ الرسالة، وإنما ينظر العقل إلى غيابات غيوب الدنيا والآخرة بالنور الذي هو خليفة النبوة وهي الصديقية، هذا سبيل أتباع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. [شرح الأسماء ٣١٧/١].

وحباه من الاصطفاء، والمعنى الذي من أجله نوَّه بين الملائكة - عليهم السلام - وباهاهم به، ثم على القول بحكم العموم هو إخبار عن سعة علمه، وإحاطة خبره سرًّا وعلنًا جملة وتفصيلاً.

أعقب ذلك قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١] فيمكن أن يكون هذا الخطاب - والله أعلم - للقبيل من الملائكة، الذين أفهمهم الخلافة السفلى من صنفي الخلافتين، فباهاهم بآدم عليه السلام وعلى جميع الملائكة، وهو المصطفى من الخلائف بما علمه من الأسماء، ومقتضياتها التي هي المخلوق بها السماوات والأرض، وهو مقتضى السر فيها والعلانية.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:٣٣-٣٧].

ثم ابتدأ جلاله خطابًا آخر بقوله جل قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: ما يأتي منكم من طاعة لي في إثابة من أطاعني، وعقاب من عصاني ورد أمري، وعلى القول بحكم العموم في جميع الأمر خلقًا وأمرًا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] يريد وهو أعلم ﷻ: ما كتمه إبليس - لعنه الله - من خلافه إياه وعداوة من والاه والتبرؤ ممن اجتباه واصطفاه الذي عبر عنه قوله: «لأن سلطني عليه لأهلكنه» وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٦٢].

وعلى القول بالإجمال فإنه إذا كان الذي أعلمهم به هو أسماء الله، فإن ذلك لمقتضى جميع الوجود، وعلى التفصيل كله في وجود الكونين خيرًا وشرًا ضرًّا ونفعًا، والعلم بمنبعث ذلك كله وما هو آية عليه، وما يؤول إليه؛ لذلك قال عز

جلاله للملائكة - عليهم السلام - لما أنبأهم بأسمائهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣].

فصل

كان ذلك من الملائكة - عليهم السلام - مشهد علم، ومقام تعلم ولم يكونوا علموا أن من أهل الأرض أنبياء ولا علماء، فكشف لهم عن ذكر العلم يومئذٍ في آدم ﷺ بعلم الأسماء، لذلك قالوا عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ففي قولهم هذا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] جملة ما عنه سألهم، وبقي عليهم علم التفصيل؛ أي: أنه لا سبيل لنا إلى علم ما لم تعلمنا إلا بك تعليمًا منك وهداية إلى الصواب، فهم الآن كذلك صلوات الله وسلامه على جميعهم؛ لتعليم الله جلَّ ذكره آدم ﷺ الأسماء كلها وعرضه إياها عليهم، وذلك من طرح العالم المسائل على المتعلم، وأمره ﷻ آدم ﷺ أن أنبأهم بأسمائهم، فأنبأهم ليثبت فيهم التعلم والتعليم والتجمع على ذلك[1].

قال الله ﷻ لعبده ورسوله: ﷺ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩] وقال رسول الله ﷺ: «**رأيت ربي في أحسن صورة، فقال لي: فيمَ يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟...**»[2] فهم - صلوات الله وسلامه عليهم -

---

(١) قال المصنف: هذا أصل النبوة من عند الله جل ذكره لعبده وقوله: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] هذا أصل التبليغ من الأنبياء لأمتهم فهذه آية النبوة مبثوثة في العالم لا يجهلها إلا متجاهل. وبالجملة فالعلم ينقسم إلى معنيين: كلمة وسنة، فالكلمة: للتوحيد وما جرى إليه، والسنة: النبوة وما جرى إليها؛ لأن السنة تدل بجريان الأمر منها على سنن، سنة ذو الكلمات التامة، لا يوجد لتلك السنن تبديل ولا تحويل وتدل بذلك أيضًا على وجوب جريان الأمر الذي ضده النهي على سنن سنة الرسول الآتي من عند الله ﷻ ثم بعد هذا تتداخل الدلائل وتنشأ الشواهد على التوحيد من السنة، وعلى السنة من الكلمة وعلى هذا السبيل من الاعتبار فالعلم كله مخلوق من دلائل النبوة، كما امتلأ من دلائل التوحيد لكن لها رؤوس ترجع إليها، كما قال رسول الله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**» وكما قال رسول الله ﷺ: «**الهدي الصالح والسمت الحسن جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة**».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥) وقال: حسن صحيح. والطبراني (٢٠/١٠٩، رقم ٢١٦) والحاكم =

يتجمعون على ذلك ويفترقون عليه بإذن ربه ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان...**» وفيه: ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ**﴾ [سبأ:٢٣] **ثم كذلك إلى العنان، وهو السحاب بين السماء والأرض، فتسترق الشياطين من ذلك العلم فيكون عن ذلك ما يقال له الكهانة**».

وفي أخرى: «**إن الملائكة تجلس في العنان**»[١] ثم ما يباهي الله به الملائكة عندما يكون من عباده ما يكرمهم به من طاعة، واجتماع منهم إلى تعلم أو ذكر.

فصل

وقد تقدم فيما مضى أن أسماء الله ﷻ على ثلاثة معالم:

- اسم يدل على ذات فقط، كقوله جل قوله: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ**﴾ [الأنعام:١٩] وكذلك مذكور ومعلوم ومعبود، واسم الله من ذلك لعدم العلم باشتقاقه.

- واسم يدل على ذات وصفة، كحي وعليم وقدير ومريد ونحو هذا.

- واسم يدل على ذات وفعل، كاسمه الخلاق والرازق والكافي والحافظ والمقدم والمؤخر ونحو هذا.

فعلى هذا النحو يتطرق إلى تعرف أسمائه ومقتضياتها، وهم كذلك جميع الموجودات؛ فهي إما اسم ينبئ عن ذات الشيء وحقيقته، أو اسم ينبئ عن صفة ذلك المسمى، أو اسم يدل على فعله وعمله وما وجد له، ويزيدك إيضاحًا علمك بأن جميع الموجودات تعمها معرفتك بأن لكل عين معنى، ولكل حق حقيقة، فالعين هي الذات والمعنى فيه وعنه، وبه يكون الاسم الدال عليه.

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك...**»[٢]

=

(١٩١٣) وأحمد (٢٢١٦٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤) والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجة (١٩٤).

(٢) أخرجه الطبراني (٣٣٦٧)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٩٠).

فإذًا أسماء الموجودات كلها عند الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه معلومة، مسماة عنده بأسماء ما وجدت له من عمل أو علم أو دلالة ذات وحق حقيه أو سعادة أو شقاء، معلوم عنده أهل الجنة وأهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وبلدانهم ليست كما هي عندنا؛ إذ كان الاسم منها يدل على مسماه بآنيته وبما هو له حقيقة.

وقد تقدم أنه المسمى، ويدل أيضًا على مسماه بما هو لقب أو تفاؤل أو يكون تفرقة بينه وبين غيره من المسلمين، بل على ما تقدم ذكره من تحقيق حق؛ لذلك قال الله عز من قائل وهو أعلم للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣] ويوضح هذا قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ﴾ يعني: المسلمين ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ [البقرة:٣١].

فمن الممكن أن تكون المطالبة بالأسماء التي هي لله جلَّ ذكره، المقتضية لأسماء المسمين من الموجودات، ويمكن أن يكون بأسماء المسميات؛ إذ هي منفصلة من معانيها على ما تقدم ذكره فيهن من كونها مسماة فيما هنالك بما هي موجودة له وبه، ومما يكون مآلها ومصيرها.

وقرأ ابن أبي عبلة من حرف أبي: «ثم عرضها على الملائكة» وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «ثم عرضهن» بالنون[1]، وما من اسم لمسمى إلا له من أسماء الله ما يقتضيه.

وإذا تمهد أن تكون المطالبة بالإنباء بأسماء المسمين بها، فيمكن أن يكون معنى قوله: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] أي: بأسماء أنفسهم، فإن الكلام العلي يسع ذلك كما تقدم ذكره، وإن أسماء الملائكة - عليهم السلام - هي على حقائقهم وحقائق ما أوجدوا له كرضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار - عليهم السلام - جميع معاني موجودات الجنان مفصلة على معنى اسم الرضوان، وكذلك اسم ملك في مقارفة العصيان من المملوك والخلاف منه، فيفصل اسمه إلى جميع معاني موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - من أسر ووثاق وغضب

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/٥٤).

وعذاب وألم وجهامة وجواب وخزي، ثم إلى جميع موجوداتها إلى غاية المعلوم منها.

وقد قيل: إن اسم جبريل عليه السلام عبد الله، وميكائيل عبد الرحمن، فإن كان ذلك يثبت من طريق مقطوع به، فقد كان جبريل عليه السلام رسول الله جل ثناؤه إلى المرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - والرسالة مقتضاها البشارة والنذارة، ومقتضاها الوعد والوعيد، ثم الثواب والعقاب، فكان لذلك عليه السلام يجيء بإهلاك المهلكين وعذاب المعذبين، كما كان عليه السلام يجيء بالثواب والبشارات والنجاة والفوز لآخرين، ومن أجل ذلك قالت اليهود: «**ذلك عدونا من الملائكة**»[1] وكان ميكائيل عليه السلام يأتي بالرحمة، والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾[2] [البقرة:٣٧] انتظام هذا والله أعلم بقوله: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة:٣١] من ذلك قوله عز قوله: ﴿**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:٣٧].

وفي أسمائه عز وجل الغفار والتواب والحليم والمنان والرحمن والرحيم ونحو هذا، وقد قيل في توبتهما هذه: إنها في قولهما - عليهما السلام: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف:٢٣].

وقيل: إن آدم عليه السلام قال لربه جل جلاله: «ربِ أرأيت ذنبي هذا هو شيء ابتدعته من نفسي، أو هو شيء كتبته علي قبل أن تخلقني، قال: بل هو شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك، قال: ربِ فبما كتبته علي قبل أن تخلقني فاغفر لي فغفر له».

قد جاء: «**إنه من أذنب ذنبًا، فعلم أن الله كتبه عليه قبل أن خَلَقه، غفر له وإن لم**

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (١/١٢٤).

(٢) اختلفوا في تلك الكلمات ما هي؟ فروى سعيد بن جبير رضي الله عنه أن آدم عليه السلام قال: يا ربّ ألم تخلقني بيَدِكَ بلا وَاسِطَةٍ؟ قال: بلى، قال: يا رب أَلَمْ تنفخ فِيَّ من رُوحِكَ؟ قال: بلى، قال: ألم تُسْكِنِي جنتك؟ قال: بلى، قال: يا ربّ ألم تسبق رحمتك غَضَبَكَ؟ قال: بلى، قال: يا رب إن تُبتُ وأصلحت تردّني إلى الجنة؟ قال: بلى، فهو قوله: ﴿**فتلقى آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ وقال النَّخعي: أتيت ابن عباس فقلت: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علّم الله آدم أمر الحجّ فحجا، وهي الكلمات التي تقال في الحجّ، فلما فرغا الحجّ أوحى الله تعالى إليهما قبلت توبتكما. [تفسير اللباب (١/٢٥٣-٢٥٤)].

يستغفره»[١].

وقال الله جل من قائل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقال في كتابه الأول الذي هو عنده على العرش: «أنا الله لا إله إلا أنا، سبقت رحمتي غضبي»[٢].

ومن مفهوم الأسماء التي هي لله ﷻ قول النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»[٣].

وفي معنى هذا أيضًا: إنه العفو يحب العفو، والغفور يحب المغفرة، والكريم الحليم يحب الكرم والحلم ونحو هذا، ويثيب على ذلك، تمدح بذلك واتصف به ليس كذلك، فما عاد إلى أسماء الغضب والسخط والانتقام ونحو هذا، فلعل هذا كله وما نحا نحوه مما تلقاه ﷺ من كلمات ربه ﷻ.

وقولهما، صلى الله عليهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣] إقرار منهما - عليهما السلام - واعتراف، وإلقاء بأنفسهما بين يديه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وأنه الرب لا رب لهما سواه، يغفر الذنب ويأخذهما به، ويقدره عليهما قبل إيجاده إياهما، ثم يسوقهما إليه سوقًا، وخرجهما على أنفسهما بالخيانة عليهما؛ ليكونا بذلك مذنبين مخطئين، فيستحقا بذلك اللوم وتتوجه بذلك الحجة، ولا يقدر على ذلك سواه ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الإسراء:٦١] معنا و«إذ» هنا للعطف بها بذكر تعديد النعمة على آدم ﷺ وذريته متصلاً بقوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] فتوجه قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ إلى وصفه بالقدرة على ذلك وعلى ما جاء بعده إلى قوله: ﴿فَلا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٦٧٦) بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، ومسلم (٢٧٤٩).

﴿تَجْعَلُوا لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] يريد ﷻ أنه لا ند له.

ويوجه أيضًا قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وما بعده على تعداد النعم، وكثيرًا ما عبر عنه بذلك في كتابه من تحسين الصورة وتمام الخلقة، وعطفًا أيضًا لمعنى النبوة على معنى الربوبية، ثم كذلك إلى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الإسراء:٦١] يعدد نعمه العظام ومننه الكرام، يقول: من ذا الذي يشفع إليه فيكم؟ من الذي أوجب عليه تسبيق منه إليكم؟.

ولما كان أنبأ الله آدم بالأسماء وتعليمه إياها، وأمره للملائكة - عليهم السلام - بالسجود له من وجود الإنباء والرسالة، وبما في السجود من معنى الاقتداء كان قوله: ﴿وَإِذْ﴾ حيث جاء في هذا الخطاب منتظمًا بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] المعنى، فهذه أوجه «إذ» في هذا الموضع والعطف بها.

فصل

في هذا الخطاب البيان البيّن أن إبليس - لعنه الله - كان من قبل من الملائكة إلى أن أبلسه الله ﷻ ولعنه لأجل خلافه أمره وعصيانه له، لو كان من غيرهم لم يتوجه إليه الخطاب بالسجود، ولا كان يكون بتركه السجود عاصيًا لا يكون الأمر للملائكة - عليهم السلام - بالسجود لآدم ﵇ إلا اقتداء لسجود كان منه لربه عز جلاله، وتقدم الرب ﷻ للملائكة بالأمر بالسجود مطلقًا، اعتمادًا على ما جاء به الأمر كله من عنده من الأنبياء والرسل عليهم السلام والخليقة كلها كقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا الله﴾ [هود:٢].

والأمر بالسجود لآدم ﵇ لا يصح اعتقاده مطلقًا ألبتة دون معنى مستثنى في باطن الأمر يدلك أن الله لا يأمر بالفحشاء، ولما خلقه الله جلَّ ذكره بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قابل ما جعل فيه من عقل بالشرع وما نفخه فيه من الروح بالخضوع والتعبد، وما خصَّه به من الاصطفاء والإكرام بالسجود له بالمسارعة إلى طاعته، فإن مخلوقًا لا يستوي ولا يتم إلا بعبادة خالقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والخضوع لربه.

فأمره بالسجود له حين النفح فيه والتسوية له وحيًا أو إلهامًا، أو بما شاءه من

ضروب الوحي، فوقع لربه ساجدًا له، فكانت علامة تسويته عند الملائكة نفخ الروح فيه والسجود لربه، وكان الله جلَّ ذكره قد تقدم إليهم بالأمر بالسجود فسجدوا إليه اقتداء به وائتمامًا.

آية ذلك في الوجود: إن أحدًا من بنيه لا يوجب الله عليه السجود إلا بحضور العقل فيه، وجعل علامة ذلك الاحتلام أو الحيض في الجارية، ويسمى ذلك: بلوغًا.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أذن الرجل في أرض قفر صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة، وإن أقام وصلى صلى وراءه ملكاه**»[1].

وقال ﷺ: «**إذا قال الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾** [الفاتحة:٧] **قالت الملائكة في السماء: آمين**»[2] وهذا كله نص على ائتمامهم بنبيه ﷺ.

قوله ﷻ: **﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾** [البقرة:٣٥] ليس بمصيب قول من قال: إنهما - عليهما السلام - كانا في الجنة عريانين لا يحتشمان من ذلك حتى أكلا من الشجرة، قال: فحينئذٍ بدت لهما سوآتهما؛ لأنهما رغم أكلهما الشجرة تفتحت أعينهما وعرفا الخير والشر لأجل ذلك، وقد قال الله ﷻ: **﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾**[3] [الأعراف:٢٧].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال أبو بكر بن العربي: جاء في التفسير أن إبليس حاور آدم على أكلها فأبى، فحاور حواء وخدعها، فأكلت فلم يصبها مكروه؛ فلما رأى آدم ذلك اغتر فأكل، فنالتهما العقوبة؛ وإنما لم تصبهما العقوبة إلا بعد أكلهما، لوجود المنهي عنه منهما جميعًا، وقد استدل بعض العلماء على من قال لزوجتيه أو أمتيه: إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان؛ فإن الطلاق لا يقع بدخول إحداهما، وإنما يقع بهما معًا، حملاً على هذا الأصل، وأخذا بمقتضى اللفظ. وقيل: إنهما يعتقان ويطلقان بدخول إحداهما، وبعض الحنث حنث، كما لو حلف ألا يأكل هذين الرغيفين، فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بلقمة، لوقوع الحنث بأقل الأشياء. وقال أشهب: تعتق التي دخلت؛ لأن دخول كل واحدة شرط في طلاقها وعتقها. وقد قال مالك فيمن قال لزوجه: إن وضعت فأنت طالق، فوضعت ولدًا وبقي في بطنها آخر، فإنها لا تطلق حتى تضع الآخر؛ وعنه: تطلق بوضع الأول. والصحيح أن اليمين إن لم يكن لها نية أو =

وهذا نص منه ﷺ على أنه إنما ظهرت لهما سوآتهما؛ لأجل انتزاع لباسهما عنهما، وكتاب الله ﷻ المهيمن على كل كتاب قبله، والحجة البالغة على من خالفه.

وأبين مما تقدم دلالة قوله جل من قائل: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾ [طه:١١٨-١١٩] فلو جاز أن يكونا عاريين في الجنة لجاز أن يكونا جائعين ظامئين ضاحيين، وهذا خلاف الكتاب والله يقص الحق وهو خير الفاصلين.

بل كانا - عليهما السلام - فيما اشتهياه ما عدا حكم الخلود، لولا أن الله كتب الموت على هذه الدار لكانت دار الخلود، فلأجل الموت في هذه انفصلت من دار الخلد، فإذا مات أحدنا حصل في دار الخلود، إما في خير وإما في شر، نعوذ بالله من سوء المصير.

ألا تسمع إلى قوله ﷻ في الفريقين معًا، وابتدء بذكر الأشقياء ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [هود:١٠٦-١٠٧] ودوام السماوات والأرض في هذه الدار الدنيا.

=

بساط يقتضي الجمع بينهما، فإن الصواب مع أشهب. قال بعض الناس: إنما أكل آدم من الشجرة وهو سكران. وقيل: أكل من جنس الشجرة لا من عينها، وكان إبليس غره بالأخذ بالظاهر وهي أول معصية وقعت؛ ولهذا قيل في اتباع الظاهر: هدم الشريعة. وقيل: أكل حملاً للنهي عن التنزيه. وقيل: أكل مناولاً لرغبة الخلد. وقيل: أكل ناسيًا. تنبيه: تعلق بعض الناس بقول من قال: أكل سكران وقالوا: أفعال السكران معتبرة في الأحكام والعقوبات، وأنه لا يعذر في فعل كالصحابي، كما ألزم الله تعالى آدم العقوبة بفعل السكر، وعندنا في ذلك ثلاثة أقوال: اللزوم، وعدمه، والفرق: فلا تلزم العقود كالنكاح، ويلزم الحل كالطلاق، وتعلق بعض الناس بقول من قال: أكل من جنسها، فقالوا: من حلف ألا يأكل هذا الخبز، فأكل من غيره حنث. وقال الأكثرون: لا حنث عليه. وقال مالك: ينظر إلى بساط يمينه أو نيته: فإن اقتضيا العين أو الجنس، حمل عليه. وقالوا: عينت لآدم الشجرة، وأريد جنسها، ولو حلف: لا آكل هذه الحنطة فأكل خبزها حنث؛ لأنها هكذا تؤكل. وقال ابن المواز: لا يحنث؛ لأنه لم يأكل حنطة فراعى الاسم، ولو قال: لا آكل منها فأكل خبزها حنث، لأنه آكل منها. قال القاضي أبو بكر: أما قول من قال: أكل سكران، ففاسد، لعدم صحة النقل؛ ولأن الأنبياء بعد النبوة معصومون مما يخل بالفرائض ويؤدي إلى اقتحام الجرائم. [الأحكام الصغرى ص١٨] بتحقيقنا.

ثم قال وقوله الصدق: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٨] أي: من قيامهم إلى الحشر يوم البعث، والنشور يوم الجمع، يوم الفصل والعرض على الله والميزان والصراط، ووقوفهم قبل ذلك وفي حالتهم تلك إلى انفصال الأمر، وافتراق الجمع إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فاستُثني هذا المذكور من حكم الخلود بعدما عمه باسم الخلود وحكمه، وكون السماوات والأرض والأمر على ما هو عليه لا يخرج الجملة من حكم الخلود لولا الموت.

ولهذا كانت محاجة موسى آدم؛ لأنهم كانوا يموتون فيها، ويخرجون إليها وينشأ الأمر بهم فيها إلى ما شاء الله، ويكون كله خلود، فهذه الدار إذًا أصدق الوعد من دار الخلد، وليست منها لأجل الموت المخرج لهم عنها.

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] فسمي ليلاً من لدن غروب الشمس إلى الصبح، كما أضاف غبش الصباح في الصيام إلى النهار، مع أنه أضافه إلى الليل في حكم الصلاة، فجعل صلاة الصبح جهرًا، وإنما صلاة النهار عجمًا.

فالعشاء والغبش برزخ من النهار والليل مزج الله فيهما الليل والنهار، كذلك البرزخ بين دار الدنيا ودار الآخرة، مزج الله فيه يوم الدنيا ويوم الآخرة، والاسم الجامع لهما يوم الدنيا والآخرة، كما الاسم الجامع النهار والليل، ويجمع هذا وهذا اسم اليوم، فلأجل هذا متى غربت الشمس حصلنا في الليل، وإذا طلع الفجر حصلنا في النهار، كذلك الدنيا مع الآخرة إذا مات أحدنا حصل في الآخرة، والآخرة هي دار الخلود ليس بعد ذلك إلا حكم البعث وما فيه، ثم المنقلب منه إلى أحد المحلتين مع تمحيص بعد تمحيص، ثم يتحقق حكم الخلود ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فحكم يوم الدنيا هو ما دامت هذه الحياة، فإذا مات أحدنا فقد دخل في معنى الليل، والليل هو مقدمة النهار من اليوم وهو اليوم الآخر، وتلك دار الخلود؛ إذ اليوم يجمع الليل والنهار، فإذا بعثنا فهو النهار، والوقوف يوم الجمع بمنزلة غبش ما بين الفجر وطلوع الشمس آية على التجلي العلي، فلذلك سمي ما بعد الموت باسم الخلود، خالدين فيها إلا ما شاءه بين بعث وجمع بما في ذلك.

فصل

ذهب الأكثرون أنه أسكن جنة الخلد التي وعدها المتقين في دار الآخرة، وذكر آخرون أنه نزل من الجنة من السماء في جبل من جبال الهند، وذكر آخرون أن الجنة كانت في ذلك الجبل بالهند معروف عندهم باسمه، قالوا: ولذلك وجد فيما هنالك شجر القرنفل والعود والصندل، كاللبان والكثيراء وأنواع الطيب كالمسك وغير ذلك من العقاقير والأفاويه الطيبة.

ومنهم من قال: لم تكن جنته في السماء، بل كانت في الأرض في ناحية من نواحيها، وإن تلك الناحية هي ناحية مطلع الشمس، وأن الأربعة الأنهار التي هي فيما هنالك انقسمت عن نهر، وهو في تلك الجنة، وهو سيحون وجيحون والنيل والفرات.

وكثر اختلافهم في ذلك جدًّا مع اتفاقهم على أنه كان في الجنة، وأنه أخرج منها بذنب أصابه، وجاء أيضًا: «**إنه مكث أربعين سنة في الجنة فخاره يتصلصل**»[١].

وفي أخرى: «**بين مكة والطائف حتى نفخ ﷺ الروح، وكانت الملائكة - عليهم السلام - تعجب من خلقتهم...**»[٢].

وجاء: «**إنه مكث تلك المدة جسدًا ملقى فيه بين مكة والطائف**»[٣].

هذا الاختلاف كله مع اتفاقهم على أنه كان في الجنة خلقه وسكناه إلى أن ألمَّ به الخطب الجلل، قال الله ﷻ: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ**﴾ [ص:٧١].

قوله ﷻ: ﴿**قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ**﴾ [البقرة:٣٥] ولم يقل ﷻ: «**ادخلا الجنة**».

وقال في إخباره عن إخراجه إياه منها: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا**﴾ [البقرة:٣٦] زل بمعنى: زلق ودحض، بمعنى سواء، ومنه قولهم: الطمع هو الصفاء الزلال الذي تزل عنه أقدام الرجال؛ أي: تزهق عنه.

---

(١) أخرجه ابن الصواف في «أجزائه» (٢٤) بلفظ: «مَكَثَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ».

(٢) ذكره البغوي في التفسير (٨١).

(٣) تقدم في سابقه.

وعبَّر أيضًا عن حوالة الحال بقوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] لما زلا عن الجنة وزهقا عن مقامهما فيها طارت عنهما حُلاهما وتكشطت عنهما ملابسهما، وفي هذا دليل على أنهما كانا لا يبولان ولا يتغوطان؛ إذ لو كان ذلك لعري عنهما ما لم يعرَ قبل إلا بحلول العقوبة عليهما.

وأيضًا فليست الجنة دار إبطال وإفناء، وإنما ذلك في هذه الدار والأثقال كلها بطل وركز[1]، كيف وهي الدار التي لا تتنفس فيها جهنم بفيحها كهذه، وإن كان وجود الأركاس والأثقال هنا لأجل فيح جهنم - أعادنا الله الكريم منها - إبطال وإفناء إيجاد، فجاء من مجموع هذا أنهما خلقا في الجنة، وأن خروجهما منها زهق وزلل بحوالة حالٍ حادثٍ عليهما، كنزول من شرف إلى ضعة ومن خفض عيش إلى شقاوة كما يبسط الله ﷻ نعمته على عبده، ثم يقبضها منه وكذلك آيات الله في الوجود.

وقال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعليه، والنار كذلك**»[2].

وكما أن وجود الله أوجب لا محالة ولا مرية في ذلك في كل مكان نحن فيه، وعلى كل حال نحن نكون عليها، وذلك غيب عنا وهو شاهد صادق الشهود، حاضر كريم الحضور حقيقة حتى أن المكذب بذلك جاحد للحقيقة، خارج عن الإيمان به، كذلك وجود الجنة والنار حق دون مرية ولا ريب وجود حضور وقرب، وإن كان وجودهما غيبًا عنا.

وكذلك وجود الملائكة - صلوات الله عليهم أجمعين - وجود حق، وإن كانوا بمغيب عن مشاهدتنا وأدنى موجودات الجنة البشر كله لا ينقصهم مراد، ولا يعجزهم مطلوب، ولا يتجشمون قطع مسافة إلا أن يكون لهم في ذلك تنعيم فييسر عليهم كل تجشم مباعده النعيم.

آية ذلك: حضور ما يحدثه الله ﷻ على أيدي رسله من المعجزات، ويمنح أوليائه من ضروب الكرامات، وإن الدنيا لتنشأ بما هي عليه الآن إلى أن يتحقق ذلك فيها بحلول اليوم الآخر فتكون الجنة والنار، وعلى ذلك دلت الدنيا بسرائها

---

(١) الركز: ما لا يفهم من صوت أو حركة.

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٠٣).

وضرائها وصفاتها كلها، وإن ذلك لمن تحقيق حضورها؛ أعني: الجنة والنار، وإن كان ذلك غيبًا فكونه كذلك ليس بموجب له حكم العدم، بل هو وجود أرفع.

قال الله ﷻ في عبد له قتل فيه: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

وقال في المحتضرين: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] إلى آخر السورة.

وإنما وجود هذه الدنيا إلى جنب وجود الآخرة بمنزلة النوم إلى جنب اليقظة، وما يرى فيها بمنزلة الحلم والرؤيا إلى جنب المشاهدة، والجنة في غيب السماوات والأرض، كما كانت الدنيا يوم خلق الله آدم ﷺ في غيب الجنة مع وجود السماوات والأرض.

قال الله ﷻ للملائكة - عليهم السلام - لما أنبأهم آدم ﷺ بما أعلمه الله من الأسماء وأظهر لهم المكنون: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:٣٣].

ومن الغيب الذي أنبأهم به فيما أعلمهم به في الدنيا، وما تكون عليه فإن ذلك غيب بالإضافة إلى ما كان مشاهدًا لهم، وإنما أخرج آدم - صلوات الله وسلامه عليه - من الجنة خطيئته، فسجن لذلك في الدنيا فتاب إلى ربه، وتاب ربه عليه وهداه.

ولما مات - صلوات الله عليه - خرج من السجن لموته، وهدايته إلى ما يرضي ربه ﷻ، فالحق إذًا في أنه قد أعاده إلى ما كان عنه أخرجه؛ إذ قد تاب عما من أجله سجن في هذه، وأُخرج من تلك ويضرب الله الأمثال للعباد ويريهم آياته.

وأكثر القلوب من غفلتها في غيابات، ومن جهلها بما اجترمته في ظلمات، فهي لا تسمع لبعدها في حال غيبتها، ولا تعرف ما تجده من الحقائق لبلادتها، وربما عرفته فسألت عنه سهوًا منها عما ظفرت به لغفلتها عنه وجهلها به ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١].

فصل

الواقع عليه اسم الفاعل الحق هو الله ﷻ، ويقع على الغير اسم فاعل مجازًا

وتشبيهًا بوصف الحق، ثم الاعتبار في استحقاق مجاز هذا الاسم درجات من لدن وصف المضطرين المجبرين إلى وصف ذوي القدرة، والقصد والاختيار إلى وصف الفاعلين الذين أوقعوا أفعالهم على موافقة رضا مالكهم ﷻ، والفاعل الحق جل وتعالى ليس كمفعوله مفعول كما ليس كفعله فعل ذلك؛ لأنه ﷻ ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١١] فعله ﷻ ليس بعلاج ولا تكون مفعولاته عن مزاج وعلة كل صُنع صنعه ولا علة لصنعه.

ألا ترى أن العلاج والمزاج والعلل أغيار، والأغيار ليس، فلذلك صعد مفعوله إلى غاية كمال كل مفعول، وإنما حقيقة فعل الغير كسب وتوسط هو مكتسب لحظه في ذلك المفعول بواسطة قدرة محدثة هي خلق الله العلي الأعلى جل وتعالى حكمة بالغة من لدنه ﷻ ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ [النجم:٣١].

ولأجل هذه اللطيفة ربما خرج مفعول هذا المكتسب على غير مراده، وربما ظهر من القبح والشر أول وهلة، ولم يصعد في الكمال إلى غايته؛ إذ هو في كل أحواله ليس بخارج عن مشيئة الفاعل الأعلى جل وتعالى ومراده منه وبه.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم بيده وغرس شجرة طوبى بيده**»[1].

وفي أخرى: «**خلق الله أربعًا بيده: العرش وجنة عدن، والقلم وآدم** عليه السلام **وقال لكل شيء: كن فكان**»[2] وفي أخرى: «**وكتب التوراة بيده**»[3].

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كل ما خلقه الله خاصًا من لدنه، وأضافه إليه على خطاب الفيض الذي هو خطاب الوحدة، فهو أعرق وصفًا وأحق حقيقة ووجودًا

---

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (٢٨) بتحقيقنا. وأبو الشيخ في العظمة (١٥٥٥/٥).

(٢) أخرجه الطبراني (١١٤٣٩)، (١٢٧٢٣)، وتمام في الفوائد (٢٥٨)، وابن عساكر (١٥١/٥٢). والطبراني في الأوسط (٧٣٨)، (٥٥١٨)، قال المنذري (٢٥٨/٣)، والهيثمي (٣٩٧/١٠): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأحد إسنادي الطبراني في الأوسط جيد.

(٣) أخرجه الدارقطني في الصفات (٢٨) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٢٦) وأبو الشيخ (١٥٥٥/٥).

كإخباره ﷻ عن جملة العالم وعن خلقه آدم ﷺ، فما كان على هذا فالخير أسرع إليه لا محالة.

ثم ما كان في هذا الوجود على هذا الوجه من شر فلمعنى ما، وهو ما عبَّر عنه قوله الحق: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وأنه وإن كان ﷻ كلتا يديه يمين مباركة، وهو المنزه العلي عما سوى الخير؛ إذ هو الذي استأثر بصفات الكمال وسبحات التعالي، فإنه ربما أخرج في المصنوع معاني الشمال، وقدر ذلك في المصنوع منه وعنه بسبيل الاكتساب يكون ذلك منه أو من غيره من المكتسبين على سبيل الجزاء الموجود بحكم العدل والفضل والابتداء الموجود منه بحكم الحكمة، فقف على هذا وتدبره جدًّا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود من المعتقد في هذا: أن المفعول الذي هو له وبه من لدنه لا بواسطة قدرة محدثة ولا قصد مكتسب فهو خير كله، ثم بآخرةٍ يظهر منه وعنه معاني الشمال، والمفعول الذي بواسطة مخلوق وقصد مكتسب، وإن كان بتقدير منه ﷻ، وإرادته منه وعونه له فهو المفعول الذي قد تكون منه معاني الشمال بدءًا، وعلى ما شاءه منه وبه، ثم إن كان أوله خيرًا فالوسائط تنفعل بما أعطاها الفاعل الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من العون المجعول فيبدو ذلك منها.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦].

وقال عز قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ وقال: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠] يقرأ بفتح اللام وخفضها من «ملكين»(١).

«الوسوسة»: إلقاء العدو في النفس، وترداد ذلك ومتابعته عليهما السلام، هذا أصل ذلك، ثم اتسعوا بعد هذا وتجوزوا كالمعهود منهم، فقالوا للكلام الخفي: وسواس.

---

(١) قرأ الجمهور «مَلَكَيْنِ» بفتح اللَّام، وقرأ عَلِيٌّ وابن عباس والحسنُ والضَّحَّاكُ ويحيى بْنُ أبي كَثِير والزُّهْرِيُّ وابن حكيم عن ابن كثير «مَلِكين» بكسرها، قالوا: ويُؤَيِّدُ هذه القراءة قوله في موضع آخر: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لَّا يبلى﴾ [طه: ١٢٠] والمُلك يناسِبُ المَلِك بالكسر. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٩٧/٧)].

قال الشاعر:

وَسْـوَسَ يَدْعُـو مُخْلِـصًا رَبَّ الفَلَـقْ

وقالوا لصوت الحُلي: وسواس؛ وذلك لمقاربة يطول الكلام بسياقها.

ولما كان العدو - لعنه الله - لا يألو العبد ضلالاً وخبالاً أربح ما تكون عند نفسه صفقة أعظم ما تكون جنايته على العبد كما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:٦].

ولفظ «الوسوسة» واقع على ما كان أمرًا بكفر أو دخول بين العبد وربه ﷻ ثم عمَّ بعد اسم الوسوسة، فما كان أمرًا بصغار الذنوب وكبارها، وخاصة مخاطبة النفس لاتصاله بها بواسطة الجاري من حاملها مجرى الدم الكائن في مواد الخلقة، ثم بواسطة القرين الملازم له المتصل بالفصل الموسوس.

قال رجل: يا رسول الله، أحدنا يجد الشيء في نفسه يتعاظمه حتى يود أنه يكون حممة ولا يجده، فقال رسول الله ﷺ: «**قد وجدتموه، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة، ذلك محض الإيمان**»(١).

وذلك أن المعهود من العدو لعنه الله فيما يكون إلقاؤه المكروه منه في أرفع السر وأعلى موجود الإيمان، فيتعاظم العبد ذلك، ووده أن يكون حممة حياء من العالم الرقيب القريب، فبهذين كان ما يجده العبد من ذلك محض الإيمان.

ولما تأصل عليه العقد من أن كل ما تصور في الأوهام فهو بخلافه، فإن كل ما خالف الموجود العلي فليس فيه ﴿**فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٤].

فصل

كانت وسوسة العدو لآدم ؑ عند نفسه وما نواه من ذلك دخولاً بينه وبين ربه ﷻ أقام نفسه اللعينة في ذلك مقام الأمين الصدوق، والنصح المشفق على آدم ؑ مع ربه، البر به والودود له، وأنزل ربه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالضد من ذلك

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩٧)، وأبو داود (٥١١٢) والنسائي في الكبرى (١٠٥٠٣)، وابن حبان (١٤٧).

بقوله: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه:١٢٠].

﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢٠-٢١].

أنطق الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه العدو اللعين بما مآله تصديق ما قاله: إن أكله من تلك الشجرة على ما كان عليه كان السبيل إلى بلوغه محل الخلة ونيله الملك الدائم الذي لا يبلى.

وكان نهيه ﷻ إياهما برحمة ربه، ومن رحمة ربه به ﵇ أن جعل نهيه ذلك، عن أكل الشجرة سببًا إلى أن يكونا ملكين أو يكونًا من الخالدين في مستقبل الأمر، فكان فضل الله عليهما وعلى كثير من ولدهما منطويًا في كلامه الذي عبَّر عنه بحيث بيَّنه وإن لم ينوِّه ولا أراده، بل الله جل ثناؤه وله الحمد جعله لهما عاقبة لصبرهما، ومخرجًا من كربهما، ويسرًا أنزله عليهما من عسر أمرهما؛ بأن تاب عليهما وهداهما فرفعهما إلى الجنة العليا، وأحلهما محل الخلد في الملك السرمد الذي لا يبلى هذا له ولذريته المؤمنين.

وإنما حاق سوء العاقبة بالعدو المبلس - لعنه الله - ومن اتبعه عافانا الله، فصدق الله جل ثناؤه عليهم ظنه كما أيأسه مما نواه في آدم ﵇، ومن اقتدى بتوبته إلى ربه لما نظر آدم ﵇ بعشق الغفلة، وحرص النفس على إنفاذها شهوتها مع الحرص على تعجيل الملك الدائم، والخلود الذي قرره العدو في نفسه نسي عهد ربه إليه، وأغفل موضع الفهم فيما طواه العدو - لعنه الله - عنه في قوله وما وصف به نفسه.

وظاهر ما أضافه إلى ربه ﷻ سبحانه من إقامته إياه مقام التهمة الذي سبحه عنها كل شيء مصغيًا إلى العوراء في ظاهر وسوسته، غافلاً عن موضع الإعظام والإجلال، متدليًا إلى الخلاف على كره له كان إيمانه منازعًا إلى الترك، مغلوبًا عليه في إنفاذ المقدور.

قال الله ﷻ معبرًا عن وصف هذه الحال: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] ولم يقل: «أقسم لهما» بل أخرج ذلك على وزان المفاعلة عبارة عن وجود المراجعة لمقام الكراهة منه، والمشايعة لإنفاد المقدور ومناوشة النزوع والهرب لأجل الإيمان الموجود في نفسه، وعظمة الله في قلبه. انتهى.

فصل

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا...﴾ [الأعراف:٢٢] لما أصغيا إلى وسوسة العدو - لعنه الله - وإلقائه العوراء إليهما من القول وأقراه على ذلك كانت بداية العقوبة مما يجانس ذلك ظهور العورة منهما؛ إذ لم يستعيذا بالله من شره وشر كيده، فكانت الغيبة حينئذٍ عن الذكر سببًا للغيبة اليوم عنه إلى دار الدنيا، وكان أكلهما من الشجرة المنهي عن أكلها سببًا لمأكولات حرام في الدنيا ومباشرتها، وكان ائتزارهما بورق الجنة علامة لتبديل اللباس.

قال رسول الله ﷺ: «**تحاج آدم وموسى عند ربهما، قال موسى لآدم: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، أخرجت الناس بخطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى رسول الله وكليمه، آتاك من علم كل شيء، وكتب لك التوراة بيده، فبكم وجدت ذلك كتب علي قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين سنة. قال: أفتلومني على شيء كتب علي قبل أن أخلق بأربعين سنة؟**» قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**»[1] قالها مرتين.

أي: إنه حجه بأن عمل ما سبق له في علم الله، وكتابه أنه لا بد عامله وتمت محاجته إياه، فإنه قد تاب إلى ربه ﷻ من ذلك الذنب، وحاجه أيضًا بأن ذنبه ذلك مع ارتباطه بالتوبة كان سببًا إلى حلوله في المحل الأعلى مع الرفيق الأفضل في الملك الدائم والخلود السرمد والنعيم المقيم، ولذلك كرر رسول الله ﷺ ذكر المحاجة مرتين.

فصل

امتحن الله آدم بالشجرة كما امتحن إبليس - لعنه الله - بآدم صلوات الله عليه، فكان منهما ما سبق لهما في علم الله ﷻ بهما، فأما آدم ﷺ فتاب إلى ربه وأناب واستغفر لذنبه واهتدى، والحمد لله رب العالمين، فغفر له ذنبه وجعل له من أمره

(١) أخرجه أحمد (٧٥٧٨) والبخاري (٣٢٢٨)، ومسلم (٢٦٥٢) وأبو داود (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٤)، وابن ماجة (٨٠) وابن حبان (٦١٧٩).

يسرًا، ومن كربه فرجًا ومخرجًا، فجعل سجنه الدنيا وجنته دار الخلود، ومحل المقامة والنعيم الدائم السرمد في جوار الله ورضوانه، وجعل ذلك كلمة باقية في عقبه، وقسم له نصيبًا في توبة من تبعه وائتم به في توبته.

أما إبليس - لعنه الله - فأبى واستكبر، وحاج عن هواه وفاخر بنفسه الله فلعنه الله جلَّ ذكره وأيأسه من رحمته، وجعل جنته الدنيا وسجنه النار الكبرى في عذاب السعير، وبعدٍ عن الله وسخطه منه، وجعلها ﷻ كلمة باقية فيمن تبعه، وحمَّله أوزار من ائتم به في فعله. انتهى.

قال الله جل من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٧].

وصية من الله جل ثناؤه ونصيحة منه لنا جلَّ ذكره، يقول: لا يفتننكم كما فتن أبويكم نزع عنهما لباس التقوى، فكان ذلك منه نزعًا للباس الظاهر أراهما بذلك سوآتهما؛ أي: عوراتهما الخلقية، ثم عوراتهم الظاهرة بتقلص العصمة عنكم فتقعون لذلك في الذنوب بعد الذنوب وفي كبارها بعد صغارها، وربما آل ذلك بكم إلى أن يخرجكم من الجنة التي وُعدت للمتقين، كما قال عز من قائل: ﴿يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

فصل

التقوى في الدنيا هي الجنة فيها بدلاً من الجنة التي يدخلونها يوم خروجهم من هذه الدار، كما كانت الجنة دار آدم وزوجه، فخرجا عنها بذنبهما وطار عنهما لباسهما، كذلك يخرجكم من التقوى بفتنته ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

قوله ﷻ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه:١٢٣].

﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥] إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾[الأعراف:٣٦] ونظيرها في سورة الأعراف، وسورة طه جعل جلَّ ذكره لزوم التقوى عوضًا من الجنة التي أعدها لهم وسببًا إلى دخولهم إليها، كما جعل الكفر به والخلاف له عوضًا من النار التي أعدها لهم، وسببًا إلى دخولها

والخلود فيها؛ لأن ذلك هو يوم الخلود، هذا عهد من الله ﷻ عهد به إلى عباده منفصلاً من العهد الأول مقرون به بشارته ونذارته.

عبرة:

هذان عبدان من عباد الله ﷻ، أحدهما تاب إليه من ذنبه وأناب واعترف فنجا من عقوبته، ثم أخرجه عن داره لذلك، وأبعده من جواره، والآخر أصرَّ على معصيته فلعنه وأبلسه، ثم أخرجه عن ملكوته، وعزله عن عمالته، وحرم عليه طاعته، وحجر عليه عصمته ورحمته، ولما أخرجهما قضى عليهما بالتناسل فملأ منهما الأرض وعمر منهما الهواء، وضاقت عنهما الدنيا لصغرها فقدرهم آجالاً، وأخرجهم إلى الوجود قرنًا بعد قرن في مدد متراخية، وأزمان متباينة يقبض بالموت ويبسط بالإيجاد إلى أن يقضي فيهم أمره.

ويحصي منهم العدد الذي قدره، ويبلغ كل أجله الذي أجله، وينيله رزقه الذي له يسره، ثم يحله المحل الذي سبق في علمه أن يحله؛ إذ قد أعد لهما قبل ذلك دارًا فصلها على دارين، لا يقدر قدرهما سواه، ولا يبلغ كنه علمهما غيره خلقًا وأمرًا، فكيف بمن أهلكه من القرون الماضية والأجيال الخالية، فكم قطع بذلك من رزق ونسل؟ وكم أعدم على ذلك منهم من قول وعمل؟ سبحانه ﷻ وله الحمد، كيف ينكر منكر الإعادة بعد البداية، ويكذب مكذب بالدار الآخرة، بل كيف يصحو المصدق بهذا من خوف مزعج أو يخلو من حزن مطلق، ما أعجب هذا الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ الله كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ

تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨-٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[1] [البقرة:٤٥] طلب المعونة من مالكهما لأجل العجز عن القيام بالأمر، والعجز قد يكون عن عدم القوة على الفعل كالمقعد عن المشي والأعمى عن الرؤية، وقد يكون عن عدم الاستطاعة للشغل بغير المأمور به بدلاً منه، كالشغل بالتجارة عن طلب العلم وعن الطاعة بالمعصية، وهذا يكون من أمر الشيطان وعمله وبتوسطه، فمن هنا وجب أن يستعان بالله ﷻ على طلب الوفاق بالصبر على إكراه النفس في صرفها عن مرادها وبالصلاة - نعوذ بالله من الشيطان الرجيم - لقرب المصلي من ربه، ولأن خاصة الصلاة النهي عن الفحشاء والمنكر والأمر بما جعلت الصلاة له ومن أجله، ولذلك وصى بها وحذر من فوتها.

وفيما يذكر أنه من كلام عيسى ؑ عبد الله ونبيه: «يا معشر الحواريين، إني قد

---

(١) لما أمرهم الله سبحانه بترك الضلال والإضلال والتزام الشرائع، وكان ذلك شاقًّا عليهم لما فيه من فوات محبوبهم وذهاب مطلوبهم عالج مرضهم بهذا الخطاب، والصبر حبس النفس على ما تكره، وقدمه على الصلاة؛ لأنها لا تكمل إلا به أو لمناسبته لحال المخاطبين، أو لأن تأثيره كما قيل في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، واللام فيه للجنس، ويجوز أن يراد بالصبر نوع منه وهو الصوم بقرينة ذكره مع الصلاة، والاستعانة بالصبر على المعنى الأول؛ لما يلزمه من انتظار الفرج والنجح توكلاً على من لا يخيب المتوكلين عليه؛ ولذا قيل: «الصبر مفتاح الفرج» وبه على المعنى الثاني: لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس الموجبين للانقطاع إلى الله تعالى الموجب لإجابة الدعاء، وأما الاستعانة بالصلاة فلما فيها من أنواع العبادة ما يقرب إلى الله تعالى قربًا يقتضي الفوز بالمطلوب والعروج إلى المحبوب، وناهيك من عبادة تكرر في اليوم والليلة خمس مرات يناجي فيها العبد علام الغيوب، ويغسل بها العاصي درن العيوب، وقد روى حذيفة أنه ﷺ إذا حزنه أمر صلى، وروى أحمد أنه إذا حزنه أمر فزع إلى الصلاة، وحمل الصلاة على الدعاء في الآية وكذا في الحديث لا يخلو عن بعد، وأبعد منه كون المراد بالصبر الصبر على الصلاة. [تفسير الألوسي (١/٣٠٠)].

بطحت لكم الدنيا على بطنها، وأجلستكم على ظهرها، فلن ينازعكم فيها إلا الملوك والشياطين، فأما الشياطين فاستعينوا عليهم بالصبر والصلاة، وأما الملوك فاتركوا لهم دنياهم يتركوا لكم آخرتكم».

وليُوطِّن من رام تنفيذ هذا العهد على مقاساة أهوال، وخوض غمرات وعبور لحجج، وخشونة طريق ووحشة انفراد، فعليه بالدعاء والابتهال والعزم على جهاد النفس، والتضرع إلى القريب المجيب، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة:٤٥-٤٦].

الصبر يوهن كيد شيطان الطبع، وهو الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، وخاصة الصبر تشجيع على مخالفة الهوى، ومخالفة الشيطان القرين، وعند مخالفة أسباب ما يجلب عليه الفضل خيله ورجله من حال الغضب في حدة أو شهوة أو هوى مطبق، قد كان رسول الله ﷺ يشتد غضبه حتى يعرف في وجهه فيجليه بمعنىً من الاقتداء والتسلي، كقوله مرة وقد أغضب: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[1].

ومرة كان ﷺ يكظم غيظه كظمًا؛ ذلك بأن شيطان الطبع منه صلح، والشيطان القرين كان أسلم فانقطع كيد الفضل عند ذلك، وفي مثل هذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦] وحذَّر جدًّا من كيده مع كفر شيطان الطبع.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] خلق لأبينا آدم عليه السلام جميع ما في الجنان، وأسكنه إياها يأكل ويشرب ويتبوأ منها حيث يشاء، ونهاه ﷻ عن الشجرة أن يأكل منها، وتأويل تلك الشجرة في موجودات الدنيا تفرعت إليه فروعها إلى أربعة: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به.

ثم ما تفرعت إليه أفنانها من أنواع المناهي وضروب المعاصي، وذهبت كل مذهب حتى انقسمت كذلك الدنيا إلى ذكر وفتنة، فكلما أذهب التقى كشف العورة، وكلما غير العقل وأضر بالميز حال بين القلب وبين ربه، وكلما جر إلى مخالطة

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٨)، والبخاري (٢٩٨١)، ومسلم (١٠٦٢)، وابن حبان (٤٨٢٩).

الناس تفرعت في حقه هذه الشجرة إلى جميع أنواع المناهي، وبقدر تغلغله في ذلك ذهبت في حقه كل مذهب؛ لتبلغ غايتها حتى تتبدل في حقه الذكر فتنة.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨] فمن اعتزل عن الناس وبعد عن الأملاك المتداولة، وزهد في فتنتها الداثرة ضعفت هذه الشجرة في حقه، وقلَّ اشتباك فروعها في مسالكه.

قوله ﷻ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1] [البقرة:٤٠] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦].

الله جلَّ ذكره هو المانّ بابتداء الإحسان، ولقربه ﷻ لم يوجب لمكلف الوفاء منه بما له عنده من الخير وحسن المآب إلا بعد الوفاء من المكلف بما عهد إليه به وفيه: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] يقول جل من قائل: «وليرهب من سطوتي وأليم عذابي من لم يفِ بعهدي ولم يحفظ وصيتي».

ثم قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١] الخطاب لسبطين من يهود قريظة والنضير؛ لقرب جوارهم من موضع نزول القرآن، ثم جملة بني إسرائيل في ذلك الزمان، فكفر السبطان به على مفهوم هذا الخطاب، فوجب عليهم إثم جميع من كفر به من أهل عصرهم، ثم إثم من يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، كما أن كفر أهل عصرهم يوجب عليهم إثم من كفر به ممن يأتي بعدهم لا ينقص بعضهم من أوزار بعض شيئًا، ولذلك حذَّر السبطين من درك هذه العظيمة.

قال الله ﷻ: ﴿أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

وقال: ﷻ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ...﴾ [المائدة:٣٢].

وكما جعل على ابن آدم الأول كفلاً من وزر من قتل، فكذلك جعل لأبينا آدم

---

(١) استودعه نفسك وأمانتك وخواتم عملك وجميع ما حولك، فما استودع شيئًا قط إلا حفظه، أعاننا وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما استودعنا من شرائعه.

عليه السلام نصيبًا من توبة من تاب بعده؛ لأنه أول من أحيا نفسه بالتوبة، فما أعظم ما وهبه ربه عز وجل بتوبته تلك.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣].

يقول جلَّ ذكره لبني إسرائيل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يعني بالراكعين: أمة محمد ﷺ، كذلك قال عز وجل لإبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] يعني: محمدًا ﷺ وأمته.

ويتخرج أيضًا زائدًا على ذلك إلى أن يكون المراد بذلك صلاة الجماعة؛ أي: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصلوا مع المصلين، كذلك قال عز من قائل لمريم عليها السلام: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾ فهذا هو الأمر بالصلاة على سنة الفذ، ثم قال: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣].

كما قال رسول الله ﷺ وقد فرغ من تعليم أصحابه صلاة الفريضة في الجماعة، فوعظهم ورغبهم، ثم ندبهم إلى صلاة النافلة في حال الانفراد: «**إذا فرغ أحدكم من صلاته في المسجد فليجعل لنفسه في بيته من صلاته نصيبًا، فإن الله عز وجل جاعل له من صلاته في بيته خيرًا**»[1] وفي أخرى: «**نورًا**». وفي أخرى: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها قبورًا**»[2] فنزع بهذا ﷺ إلى المفهوم من القرآن العزيز، وكما حض على الصدقة سرًّا وجهرًا فكذلك الصلاة، وكثيرًا ما جاء ذكرهما بالمقارنة حيث جاء: السجود والقنوت كان لمن كان قبل هذه الأمة، والركوع يخص أمة محمد ﷺ نعتها الله جلَّ ذكره بذلك لإبراهيم عليه السلام قبل إيجادها في قوله: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] وربما كان قد كلف الركوع أنبياءه وأهل خاصته، والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:٤٥] دلهم على حُسن العون، وهو الصبر والصلاة.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٤٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٩٠).

فصل

الصبر في ثلاثة مواطن: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعاصي، والصبر على المصائب.

وبالجملة: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس.

والغرض الأول المقصود بذكر الصبر هنا: هو الصوم مع استصحاب عزيمة الصبر.

قال رسول الله ﷺ: «**الصوم نصف الصبر**»(١) وباستصحاب تعاهد الصوم يكتسب الصبر المعهود من كسر سورة الشهوة وتوهينه حزب الشيطان منه.

فصل

الصلاة بما هي صلاة تنهى من الفحشاء والمنكر، والصبر يقوي العزم والجلد، ويثبت الأقدام ويشجع الجبن ويشد الأزر، ويكسب ضراوة العفافة، ويقوي صفة عين اليقين، ويفرغ الأعضاء للعبادة والقلب للذكر والفكر، ويوجب الصحبة.

قال الله ﷻ: ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال:٤٦] وبهاتين الخلتين يُوفى بالعهد وتجمل السيرة ويُلزم طريقة الاستقامة.

لذلك قال عز من قائل: ﴿**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قوله ﷻ: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ**﴾ [البقرة:٤٩] السوم: الترداد على الشيء، ومنه اشتق اسم السائمة من النعم؛ لأنها تسوم الرعي وتتردد على المرعى، وهذا خطاب معطوف على قوله: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ**﴾(٢) [البقرة:١٢٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٧٤٥) قال البوصيري (٥٥٥/١) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٧٧). والقضاعي (٢٢٩) والديلمي (٣٨١٧).

(٢) **مسألة في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾ المخاطب به بنو إسرائيل:**
اختلف العلماء في تأويل هذه الآية - بعد إجماعهم على أن أمة محمد ﷺ هي خير أمة أخرجت للناس وأنها مفضلة على سائر الأمم السابقة - على النحو التالي: الأول: أي
=

=

فضلتكم على عالمي زمانكم - وهو قول ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وابن زيد وهو مذهب المصنف والتفتازاني والأكثرين من المفسرين - صرف العموم في لفظ العالمين إلى الاستغراق العرفي لا الحقيقي، أو هو من قبيل العام المراد به الخصوص، فلا يتناول من مضى ولا من سيوجد بعدهم، والقرينة على ذلك أن الأنبياء عليهم السلام والصحابة الكرام كونهم أفضل منهم مما علم من الدين ضرورة، وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء فإنه يحصل به الشرف للأبناء لأن شرف النسب معتبر في الشرع والعرف وأن فضيلة الآباء فضيلة الأبناء وإن لم يكن الأبناء موصوفين بهذه الفضيلة ولكن لا يلزم من كون بني إسرائيل أَفْضَلَ العالمين في ذلك الوَقْت كونهم أفضل من محمد ﷺ وأمته. والثاني: قوله ﴿عَلَى العَالَمِينَ﴾ عام؛ لكنه مطلق في الفضل، والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة فالآية تدلّ على أن بني إسرائيل فضّلوا على كل العالمين في أمرٍ ما وهذا لايقتضي أن يكونوا أفضل من كلّ العالمين في كل الأمور بل لعلهم وإن كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد فغيرهم يكون أفضل منهم فيما عدا ذلك الأمر فمعنى تفضيلهم على جميع العوالم أن الله تعالى بعث منهم رسلا كثيرًا لم يبعثهم من أمة غيرهم ففضلوا بهذا النوع من التفضيل على سائر الأمم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] وهو مذهب السيوطي. والثالث: قال قوم: العالم عبارةٌ عن الجمع الكثير من النَّاس كقولك: رأيت عالماً من النَّاس، والمراد منه الكثرة - قاله الشيخ الزمخشري ينظر: (الكشاف ١٣٨/١)؛ قال الإمام الرازي: وهذا ضعيف ؛ لأن لفظ العالم مشتقّ من العلم وهو الدليل، فكل ما كان دليلاً على الله تعالى كان علما وكان من العالم، وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كلّ موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات. (التفسير الكبير ٤٩/٢). قال الشيخ أبو الطيب القنوجي ردًّا على استضعاف الإمام الرازي: هذا الاعتراض ساقط، أما أولا فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، وأما ثانيا فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودًا بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق اسم العلم عليه، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات، وأما أنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان فليس في اللفظ ما يفيد هذا ولا في اشتقاقه ما يدل عليه، وأما من جعل العالم أهل العصر فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا محمد ﷺ ولا على من بعده من العصور، ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين﴾ [المائدة: ٢٠] فإن قيل: إن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم، قلت: لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزمًا لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات. اهـ من (فتح البيان ١١٩/١-١٢٠) (التفسير الكبير ٤٩/٢-٥٠)

=

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٤٩-٥٤].

ثم عطف ما تقدم ذكره قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾[1] [البقرة: ٥٠] وإذ كذلك إلى قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] يخاطب في ذلك كله بني إسرائيل، ويُعرّض لهذه الأمة بما أصاب أولئك في بيوتهم من البلوى، والامتحان بكثرة عتوهم على أنبيائهم، وعسر انقيادهم يحذر هؤلاء من الوقوع في مثل ذلك، ويؤدبنا بغيرنا ويرينا في ذلك آياته إرشادًا وتبصيرًا.

عبرة: قال الله ﷻ في بني إسرائيل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع،

=

(اللباب ٤٦/٢) (حاشية القونوي ٢٦٨/٣) (حاشية ابن التمجيد ٢٦٧/٣-٢٦٨).

(١) أي: فرق الماء يمينًا وشمالاً حين خرج موسى مع بني إسرائيل من مصر، فخرج فرعون وقومه في طلبهم؛ فلما انتهوا إلى البحر ضرب موسى عصاه على البحر، فانفلق فصار اثني عشر طريقًا يبسًا، لكل سبط منهم طريق، فلما جاوز موسى عليه السلام البحر ودخل فيه فرعون مع قومه غشيهم من اليم ما غشيهم؛ أي: غشيهم الماء فغرقوا في اليم. [بحر العلوم للسمرقندي (٥٤/١)].

حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن إذًا»[(١)].

وعصم الله جل ثناؤه هذه الأمة؛ بأن لم يجعل فيها أنبياء، وتوفى رسولهم محمد ﷺ وعلى جميع النبيين والمرسلين وعلى الملائكة المقربين وهو عنهم راضٍ، وسائر ما فعلوهم قد ألمت به هذه الأمة، فمن رأى بهذه الأمة ما حلَّ ببني إسرائيل من ذلة ومسكنة من أسر وقتل وسباء وغير ذلك فلا يرجع باللائمة إلا على مخالفته كتاب ربه وتبديله حكمه، ونبذهم إياه وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون إلى غير ذلك.

وإنما أشرنا إلى هذه؛ لئلا يظن بالله جلَّ ذكره ظن السوء، بل ظن السوء راجع علينا لسوء أعمالنا، ولو أحسنَّا لأحسن إلينا.

قال الله جل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة:٦٥] إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ إلى مفهوم قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦].

لم يبلغ الله جلَّ ذكره هذا وشبهه ليطلعنا على معائبهم حسب، بل لنتذكر متى رأينا تلك العلامات منا وفينا فنتوب إليه ونزدجر، فنسأل الله التواب توبة لجميعنا صادقة، وإنابة لأمتنا مخلصة، ورجعة إليه بتوبة قريبة يرضاها منا ويحبها بمنِّه وكريم عفوه.

عبرة وموعظة:

قال الله - تعالى علاؤه وشأنه وقوله الصدق وحكمه الحق - في بني إسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾[(٢)] [البقرة:٦١] فهذه عقوبة

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٠٤)، وقال: صحيح.

(٢) ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: جعل ذلك محيطاً بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصق بهم من ضرب الطين على الحائط، ففي الكلام استعارة بالكناية حيث شبه ذلك بالقبة أو بالطين، و«ضربت» استعارة تبعية تحقيقية لمعنى الإحاطة والشمول أو اللزوم واللصوق بهم، وعلى الوجهين فالكلام كناية عن كونهم أذلاء متصاغرين؛ وذلك بما ضرب =

لهم، وجزاء لأعمال كانت منهم.

ثم قال: ذلك إشارة منه إلى ما ذكره من الجزاء لهم والعقاب بأنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [البقرة:٦١] فبهذا استوجبوا منه الذلة والمسكنة والغضب واللعن.

ثم قال ذلك؛ أي: مِن غَضَبِنا عليهم وما ألزمناهم من الذلة والمسكنة والخلود في جهنم بما عصوا وكانوا يعتدون، فذكر أنهم عصوا الله والرسول فيما أمروا به ونهوا عنه، فكان ذلك منهم عصيانًا فلأجل العصيان وعقوبته استجرهم الشيطان من صغار الذنوب إلى كبارها، ومن كبارها إلى الكفر، وقتل الأنبياء بغير الحق، وإلى قتل الآمرين بالقسط من الناس.

ثم قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١] أي: الحدود، فليتقِ العبد ربه، وليجتنب صغير الإثم وكبيره، فإن الذنوب تجر إلى الذنوب، والعقوبات على ذلك تنشأ كما حل بهؤلاء دفعتهم صغار الذنوب إلى كبارها، وكبارها إلى أكبر منها، ثم إلى الكفر وقتل الأنبياء، فنشأت العقوبات كذلك إلى اللعن والغضب من الله وسوء المصير.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[1] [البقرة:٥١] يعد ﷻ نعمه عليهم

= عليهم من الجزية التي يؤدونها عن يَد وهم صاغرون، وبما ألزموه من إظهار الزي؛ ليعلم أنهم يهود، ولا يلتبسوا بالمسلمين وبما طبعوا عليه من فقر النفس وشحها، فلا ترى ملة من الملل أحرص منهم، وبما تعودوا عليه من إظهار سوء الحال مخافة أن تضاعف عليهم الجزية إلى غير ذلك مما تراه في اليهود اليوم، وهذا الضرب مجازاة لهم على كفران تلك النعمة، وبهذا ارتبطت الآية بما قبلها، وإنما أورد ضمير الغائب للإشارة إلى أن ذلك راجع إلى جميع اليهود، وشامل للمخاطبين بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، فليس من قبيل الالتفات على ما وهم. ﴿وَبَاءوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله﴾ أي: نزلوا وتمكنوا بما حلَّ بهم من البلاء والنقم في الدنيا، أو بما تحقق لهم من العذاب في العقبى، أو بما كتب عليهم من المكاره فيهما أو رجعوا بغضب؛ أي: صار عليهم، ولذا لم يحتج إلى اعتبار المرجوع إليه، أو صاروا أحقاء به أو استحقوا العذاب بسببه وهو بعيد، وأصل البواء بالفتح والضم مساواة الأجزاء، ثم استعمل في كل مساواة. [تفسير الألوسي (٣٤٢/١)].

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ =

=

مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] فيه ست مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو: «وعدنا» بغير ألف، واختاره أبو عبيد ورجحه وأنكر ﴿وَاعَدْنَا﴾ قال: لأن المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله ﷻ فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد، على هذا وجدنا القرآن، كقوله ﷻ: ﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النور: ٥٥] وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] قال الجوهري: الميعاد: المواعدة والوقت والموضع، قال مكي: المواعدة أصلها من اثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب، قالوا: طارقت النعل، وداويت العليل، وعاقبت اللص، والفعل من واحد، فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى «وعدنا» فتكون القراءتان بمعنى واحد، والاختيار «واعدنا» بالألف؛ لأنه بمعنى «وعدنا» في أحد معنييه، ولأنه لا بد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة. الثانية: قوله تعالى: ﴿مُوسَى﴾ موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف، والقبط على - ما يروى - يقولون للماء: مو، وللشجر: شا، فلما وجد موسى في التابوت عند ماء وشجر سُمي موسى. قال السدي: لما خافت عليه أمه جعلته في التابوت وألقته في اليم - كما أوحى الله إليها - فألقته في اليم بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه، فسمي باسم المكان، وذكر النقاش وغيره: أن اسم الذي التقطته صابوث، قال ابن إسحاق: وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ. الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أربعين نصب على المفعول الثاني، وفي الكلام حذف، قال الأخفش: التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة كما قال: ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] والأربعون كلها داخلة في الميعاد، والأربعون في قول أكثر المفسرين: ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة، وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأل قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بني إسرائيل وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة فعدوا فيما ذكر المفسرين عشرين يومًا وعشرين ليلة، وقالوا: قد أخلفنا موعده، فاتخذوا العجل، وقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى فاطمأنوا إلى قوله، ونهاهم هارون، وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠-٩١] فلم يتبع هارون ولم يطعه في ترك عبادة العجل إلا أثنا عشر ألفًا فيما روي في الخبر، وتهافت في عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفي ألف، فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقي جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون، وأحرق العجل وذراه في البحر فشربوا من مائه حبًا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة وورمت بطونهم فتابوا ولم تقبل توبتهم دون أن يقتلوا أنفسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لدن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، فقتل بعضهم بعضًا لا يسأل والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا أحد

=

في امتنانه بنبيه الذي أرسله إليهم ، إذ يقع إتمام النعمة عليه في نبوته ورسالته ومواعدته إياه وإكرامه بتكليمه، فتوجيهه وتشريفه عائد إليهم، راجع عائدته إليهم لو كانوا يعقلون، فكان منهم فيما كان يجب عليهم من شكر النعمة أن اتخذوا العجل بعده إلهًا من دون الله المنعم عليهم، وكان قد أعلم رسوله موسى أن قومه ستكون عاقبتهم أن يحل عليهم غضبه، نعوذ بالله من ذلك.

عبَّر عن ذلك القرآن بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ [طه:٨٠] إلى قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:٨١].

وأنبأ الله موسى أن قومه قد أضلهم السامري فرجع إليهم غضبان أسفًا؛ أي: حزينًا مما يتوقع نزوله بهم من غضب ربهم لمعاجلتهم إياه بالخلاف، فقال لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠] أي: غضبه

=

عن أحد، كل من استقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله حتى عج موسى إلى الله صارخًا: يا رباه قد فنيت بنو إسرائيل! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله فقبل توبة من بقي وجعل من قتل في الشهداء على ما يأتي. الرابعة: إن قيل: لِمَ خص الليالي بالذكر دون الأيام؟ قيل له: لأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة ولذلك وقع بها التاريخ، فالليالي أول الشهور والأيام تبع لها. الخامسة: قال النقاش: في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه واصل أربعين يومًا بلياليها، قال ابن عطية: سمعت أبي يقول: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري - رحمه الله - يعظ الناس في الخلوة بالله والدنو منه في الصلاة ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ويقول: أين حال موسى في القرب من الله؟! ووصال ثمانين من الدهر من قول حين سار إلى الخضر لفتاه في بعض يوم ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] قلت: وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال وأن أفضله أربعون يومًا، وسيأتي الكلام في الوصال في أي الصيام من هذه السورة إن شاء الله تعالى. السادسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١] أي: اتخذتموه إلهًا من بعد موسى، وأصل اتخذتم «ائتخذتم» من الأخذ ووزنه افتعلتم، سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء «ايتخذتم» فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفًا في «ياتخذ» وواوًا في «موتخذ» فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهي التاء، وأدغمت ثم أجلبت ألف الوصل للنطق، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: ٨٠] فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير.

بالطغيان عليه في نعمه عليكم فكان ما قصَّه الله جلَّ ذكره من أمرهم.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:٥٤] جاء في التفسير أن هذا الأمر أمر عزم بأن يقتلوا أنفسهم، وأنهم قتلوا بعضهم بعضًا وكذا جاء في كتب أهل الكتاب، فالله أعلم أكان ذلك أم لا آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليهم، وسلمنا لما هو الحق من عند ربنا، وكتاب الله أعظم فاصل وأكبر شاهد، والمهيمن على ما جاء قبله من كتاب.

وربما كان ذلك عبارة عن التوبة إلى الله، والإنحاء على الأنفس بوظائف العبادات والتشديد عليها، والتنكيل بالكسر لها، ومنعها ما لها حتى ترضى بما عليها، يدل على ذلك قوله لمتخذي العجل: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٥٤] ولو قتلوا فهلكوا لم يقل جل قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بل كان يقول: فغفر لهم.

وقد أبقى ﷻ في حقنا وله الحمد على ذلك، فجعل سنة التوبة ذبح النفوس بالكسر لها والمنع من شهواتها حتى ترجع إلى ما يرضي ربها، وذلك في الاعتبار موت في حق المذنب من الحال التي كان عليها من كسب الذنب، كما التوبة حياة في التائب عن موت الذنب، وجعل ﷻ من عقوبة متأخرهم على ذلك أن يكون خروج الدجال - لعنه الله - فيهم ومنهم، وإنهم متبعوه وناصروه كفرًا زائدًا إلى كفرهم كما كفروا به أولاً، وإنهم متبعوه، والممتحنون من أجله المقتولون حقًّا بحكم الله ﷻ وحكم رسوله عليه السلام عيسى ابن مريم.

وكما يصيب بركة السلف الخلف كذلك يشقى الخلف بشؤم السلف، نفعنا الله بصالح سلفنا، ورزقنا بركة يسر انقيادهم لنبيهم ﷺ وحسن تأتيهم، وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاء للذين آمنوا ربنا وربهم وهو الرؤوف الرحيم.

وقرأها قتادة: «**فاقتالوا أنفسكم**» من الإقالة[1]، كذلك قولهم: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] فأخذت أولئك الصاعقة بظلمهم حيث لم

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (١/٨٠).

يعرفوا أنفسهم، ويقفوا عند حدودهم، واجترؤوا على الله ﷻ بسؤال لم يكن ينبغي لهم، فصعقوا عند ذلك، وأصاب خلفهم الحجب والإبعاد والطرد والغضب ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩].

كذلك قولهم في دخولهم القرية التي أمروا بدخولها، والقرية إيليا قصر مدينة بيت المقدس: ﴿وَ﴾ قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف:١٦١] أي: باب المسجد المقدس؛ أي: للصلاة والسجود، وعلى حال من يأتي للصلاة بالخضوع لربه والخشوع ﴿وَ﴾ قيل لهم: ﴿قُولُوا﴾ في دخولكم مسجدها على حالكم تلك: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: إنكم إذا فعلتم ذلك غُفرت لكم ذنوبكم وحُطت عنكم خطاياكم، فآمنوا بذلك واعتقدوه في قلوبكم إيمانًا به، دل على هذا قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾ بالرفع؛ أي: هذه حطة، أو ما كان في معنى هذا.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:٥٥-٦١].

يقول الله ﷻ: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**﴾ [البقرة:٥٩] الله أعلم بما عوضوا مكان ذلك من قول، وعقد جاء من طريق آحاد.

قال رسول الله ﷺ: «**إنه قال: دخلوا يزحفون على إستاهم وقالوا: حبة في شعرة**»[1] وفي غيرها: «**حبة في حنطة**» والله أعلم أكان ذلك على هذا الوجه أم لا.

وطريق هذا العلم لا يثبت بطريق الآحاد، غير أنه ذكر حالاً مكنى عنها بذكر العورة، والمشي الذي لا يوصف بالاستقامة، والعرب تقول للكلمة الفسلة: العوراء، وكل من ابتدع في شرع بدعة وترك الواجب امتثاله فجدير أن يكنى عن قوله وفعله بمثل هذا، فأصابهم بذلك عتو على نبيهم، وتبديل لكلام ربهم، وَرِث خَلَفُهم بذلك قلة السمع والطاعة، فأعقبهم اللعن وغلظ الفهم والقسوة، وتحريف الوحي وابتياعهم به ثمنًا قليلاً، وكل ما كان من متاع ولو كثر فهو قليل.

قال الله جل من قائل: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2] [البقرة:٧٥].

وقال فيهم: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة:٨٨] وقال: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ...**﴾ [البقرة:٧٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (٣٠١٥)، وأحمد (٨٢١٣)، والترمذي (٢٩٥٦)، والنسائى فى الكبرى (١٠٩٨٩)، وابن حبان (٦٢٥١).

(٢) يقول الإمام الفخر الرازي: قال القاضي: إن التحريف إما أن يكون في اللفظ أو في المعنى، وحمل التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى؛ لأن كلام الله تعالى إذا كان باقيًا على جهته وغيروا تأويله فإنما يكونون مغيرين لمعناه لا لنفس الكلام المسموع، وإنما يمتنع ذلك إذا ظهر كلام الله ظهورًا متواتراً كظهور القرآن، فأما قبل أن يصير كذلك فغير ممتنع تحريف نفس كلامه، لكن ذلك ينظر فيه، فإن كان تغييرهم له يؤثر في قيام الحجة به فلا بد من أن يمنع الله تعالى منه، وإن لم يؤثر في ذلك صح وقوعه؛ فالتحريف الذي يصح في الكلام يجب أن يقسم على ما ذكرناه، فأما تحريف المعنى فقد يصح على وجه ما لم يعلم قصد الرسول باضطرار، فإنه متى علم ذلك امتنع منهم التحريف لما تقدم من علمهم بخلافه كما يمتنع الآن أن يتأول متأول تحريم لحم الخنزير والميتة والدم على غيرها. انتهى بتصرف (التفسير الكبير ١٢٣/٣).

فصل

من ضعف الإيمان وقلة الثقة بوعد الله أن يصلي العبد ويتطهر ويتصدق ويشهد ويعبد الله ويقول: «لا أدري لعلي لا يقبل عملي، ولعلي ممقوت عند ربي» بل يتطهر بنية خالصة وفعل سليم لله، مسلم له وجهته على سنن قويم، ثم يوقن بأن الله تعالى قد قَبِل منه، فإن من أحسن من نيته جزمًا وخاف من عمله نقصًا فليتب من ذلك إلى ربه، وليحتسب على الله ﷻ ذلك كما قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] فالله أحق وعدًا وأصدق قيلاً.

وليكن مجاهدًا بين نفسه وبين وعد ربه، فليؤمن بربه ﷻ وبوعده، وليكن من نفسه على حذر من وقوع في عجب أو كبر أو حسد وزهد في عمل لأجل تقصير يظنه، أو لأجل ما وعد به من تكفير لسيئاته وإثبات لحسناته، فإنه لا يدري بما يختم له، وليكن كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] فإنه إن لم يكن هكذا لعب به العدو فحقر عنده العمل ورماه بالكسل؛ لأنه لم يبلغ بزعمه ما هو المرضي عند الله، فيكون بذلك ممن بدل قولاً غير الذي قيل له.

يقول الله ﷻ: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

ويقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

ويقول هو: من أين لي ما يرضي ربي في عملي؟ فيكون بذلك من الذين لا يؤمنون إلا قليلاً، وهي مزلة كبيرة وقع فيها من كان قبلنا، وحذرناها رسول الله ﷺ، وهو الصراط في الدنيا إيمان بما وعد الله وبلغ رسوله، وحذر من تكسيل النفس والعدو، والله المستعان.

قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يخرج إلى الصلاة لا ينهزه شيء إلا الصلاة، فيصلي الصلاة التي كتب الله عليه إلا كانت كفارة**

لما قبلها»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا توضأ العبد المسلم فمضمض**» إلى قوله: «**حتى يخرج نقيًا من الذنوب**» ثم: «**كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له**»[2] ونحو هذا من حديث الرسول ﷺ كثير مشهور.

مصداقه من القرآن قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ...**﴾ إلى قوله: ﴿**مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [المائدة:٦].

وربما كان المذكور من دخولهم باب المسجد وقولهم حطة على هذا المعنى، فغيروا ما قيل لهم وبدلوه وذهبوا به عن سبيله لغلظ قلوبهم، وقلة أفهامهم واستخفافًا منهم بمعاني الوحي ولو تدبروا حقيقة ما خوطبوا به لكان معناه، إنهم إذا دخلوا المسجد مصلين ساجدين؛ أي: في حال من يأتي إلى الصلاة والسجود، فإن ذلك حطة لخطاياهم.

يقول الله جلَّ ذكره لهم: ﴿**وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة:٥٨] يعني وهو أعلم: هذه الأمة بأن جعل لمحسنيها أن يكون مشيهم إلى المسجد وصلاتهم نافلة لهم، وكتاب الله هو المهيمن على ما قبله من كتاب، هذا هو الحق لا مرية فيه، أصفق عليه القرآن وحديث رسول الله ﷺ، والمعلوم من فضل الله جلَّ ذكره وكريم معاملته، فليحذر العبد مع هذا أن ينظر إلى عمله بعين الدعوى أن ذلك له أو منه أو يتوهم النجاة والأمن من عذاب الله ﷻ؛ إذ الخاتمة محجور عليها.

وربما أداه ذلك إلى استكثار عمله، فيفضي به ذلك إلى العجب وقلة الخشية، وذلك يفضي به إلى الكبر، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولأنه يفضي به إلى استحقاق مقت الله إياه، وميراث ذلك الطبع على قلبه وذلك يورث الرين، فلا يسمع لواعظ، ولا يصغي لعاذل، كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨).

(٢) أخرجه مالك (٦٠) وأحمد (١٩٠٩١) والنسائي (١٠٣) وابن ماجة (٢٨٢) والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. وقال الذهبي: لا. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٣٤) والنسائي في الكبرى (٣٨٨).

جبار، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير، بل أيها العبد اعبد ربك وتوكل عليه، واحذر مكائد عدوك اللعين، والزم قلبك بتقوى الله وخشيته، لا يفارقنك طرفة عين، واغتبط بكرم معاملته وافرح بفضله ورحمته.

واذكر قوله الحق عز جلاله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١] أي: التقوى الأعلى.

وليعلم أن الله عنده مزيد عظيم وعُلي درجات، عصمنا الله وإياك برحمته من مصائد العدو ومكائده، والمحذور مما تقدم ذكره أورث بني إسرائيل ما ذكره الله ﷻ من تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم، كما أن دعوى العبد في العمل الذي وفقه الله له وأعانه عليه أورثه العجب.

ثم ما تقدم ذكره من مواريث الأعمال وخوف هذا، وهذا بعث الخائفين على التصنيف لدواوين الإخلاص والتحذير من الركون إلى الأماني، والأمر بالزهد في الثناء بين الناس والمنزلة فيهم، فإنه يبعث على الرياء، وهو الشرك الأصغر، بل سبيل الحق أن يستوي عندك الحمد والذم والجاه والخمول، بل الخمول أجمل لقلبك وأقصد لك في سيرك، وبذلك يتيسر عليك ترك الدعوى والعجب والحسد والكبر والأخلاق المذمومة.

وقال عيسى ﵇: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف:٦٣] فلم يطيعوه ولا اتقوا الله.

فبعث الله رسوله محمدًا ﷺ فبيَّن ما اختلفوا فيه من الحق بإذن ربه ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

فصل

قال الله ﷻ فيما خاطبنا به في كتابه العزيز من معنى الجدل لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ يعني: على محمد قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] أي: من التوراة.

ثم قال عز من قائل متعجبًا من سوء مآخذهم وفساد ما ذهبوا إليه: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١] أي: كيف يكون هذا؟ كيف

يصح اعتقاده؟ يؤمنون بما أنزل إليهم، وفيما أنزل إليهم تصديق محمد ﷺ وما جاء به، فكيف يؤمنون به وهم يكفرون به؟ بل كيف يؤمنون برسول من عند الله، ويكفرون برسل من عند الله؟ وإنما المرسلون والنبيون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كلهم بمنزلة رجل واحد، فوجوب الإيمان بجميعهم سواء.

ثم جعل يبين تناقضهم ويكسر بفصل الحق شبه أباطيلهم، تقولون: إنكم تؤمنون بما أنزل إليكم فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين، بما أنزل عليكم أفيما أنزل عليكم قتل الأنبياء، ورد ما جاءوا به وقتل الآمرين بالقسط من الناس، أهكذا يفعل من آمن بالله ورسله يكفر بما أنزل عليه.

ثم قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] وهو الذي آمنتم به زعمتم ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:٩٢] اتخذتموه إلهًا من دون الله بعدما تبين لكم بالآيات تحقيق الألوهية لله ﷻ، وثبوت الربوبية أيفعل هذا من آمن بالله وما أنزل عليه.

ثم قال جل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[2] [البقرة:٩٣] أهكذا يفعل من آمن بما أنزل عليه يسمع ولا يطيع، يؤمن ولا يعمل، بل يأبى ويشرد على ربه حسدًا وأنفة.

---

(١) أي: بالآيات البينات، وهي المعجزة الدالة على صدقه. وقيل: التسع، وهي: العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر. [تفسير البحر المحيط (١/٣٩٩)].

(٢) قال أبو حيان: سبب رفع الطور امتناعهم من دخول الأرض المقدّسة، أو من السجود، أو من أخذ التوراة والتزمها أقوال ثلاثة. روي أن موسى لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم: خذوها والتزموها، فقالوا: لا، إلا أن يكلمنا الله بها، كما كلمك، فصعقوا ثم أحيوا. فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا. فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم، وأضرم نارًا بين أيديهم، فاحتاط بهم غضبه، فقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر، وأحرقتكم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق، وسجدوا على شق؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا، فلما رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها فأمروا سجودهم على شق واحد. [البحر المحيط (١/٣١٣)].

ثم ختم جَلَّ وتعالى علاؤه وشأنه جلالهم بالكبيرة قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: لما كفروا بعد البيان واعتاضوا العجل إلهًا من دون الله رب العالمين، أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، فأخبر جلَّ ذكره بقطع الرجاء من إيمانهم وباليأس من رجوعهم؛ إذ قد أشربوا العجل في قلوبهم فصار ذلك هوى لهم.

ثم فصَّل جَلَّ الخطاب وحكم بحكم الغالب المفلح في المناظرة بقوله: قل يا محمد ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] أي: لستم بمؤمنين لو كان لكم إيمان لم يأمركم بهذا، بل هو الكفر تسمونه إيمانًا.

فصل

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: ٦٢-٧٠].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً....﴾ [1] [البقرة:٦٧]

---

(١) كان السبب في أمر موسى لقومه بذلك ما ذكره المفسرون أن رجلاً من بني إسرائيل كان =

ذكرهم الله - جلَّ ذكره - بسوء أدبهم مع رسولهم ﷺ وتعزيرهم، وتوقيرهم له يعيب عليهم قبيح ردهم عليه وعدده عليهم بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] وقول الرسول ﷺ لأمته هو الحق؛ لأنه الحق ﷺ جاء، إنما هو بشير ونذير وآمر وناهٍ عن ربه ﷻ.

وبالجملة: فإنه المبلغ إليهم عنه لو كانوا يعقلون فتعوذ الصادق الصدوق ﷺ من سوء ما قذفوه من ذلك بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧] كلام التهزي كله جهل، وكيف به إن كان فيما هو عن الله جلَّ ذكره، وكل ما خالف الحق فهو جهل.

ولما قسم رسول الله ﷺ مغانم حنين أتاه رجل كث اللحية، مشمر الإزار، واسع الجبهة، فقال: يا محمد، اعدل فإنك لم تعدل منذ اليوم، فغضب رسول الله ﷺ حتى رُئي الغضب في وجهه، ثم قال ﷺ: «**قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**»[1].

فانظر - وفقك الله - ما كان من فعل ذلك المشؤوم، إن كان آية للخوارج على الأمة يسفكون دماءهم ويستحلون أموالهم، ثم كذلك إلى يوم القيامة هو العلم للفتنة والمفتونين.

فصل

وعلى ذلك فلو أنهم ذبحوا بقرة ما لامتثلوا بذلك أمر ربهم وأطاعوا نبيهم ﷺ، لكنهم طالبتهم معصيتهم تلك بشؤمها، وأدركتهم عقوبة الإعراض وجزاء سوء الجواب، فردوا عليه بعض قوله، ولم يسارعوا إلى طاعته بقولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة:٦٨] وتأويل البقرة: السنة، والسنة مدة من المدد، والمدة قد

=

غنيًا، ولم يكن له ولد وكان له قريب يرثه، فاستبطأ موته فقتله سرًا وألقاه في موضع الأسباط، وادعى قتله على أحدهم، فاحتكموا إلى موسى، فقال: من عنده من ذلك علم؟ فقالوا: أنت نبي الله وأنت أعلم منا، فقال: إن الله ﷻ يأمركم أن تذبحوا بقرة. النكت والعيون (٥٨/١).

(١) تقدم تخريجه.

تسمى أمة أيضًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

وأما البقرة بمعنى السنة فموجود ذلك في تأويل رؤيا العزيز يوسف عليه السلام ومن تسمية المدة أمة قول الله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨].

ولما طلبوا من ربهم بيانًا لم تدفع الحاجة إليه وصفها لهم بوصف فيه إنذار لهم بعذاب واقع بهم على يدي أمة من الأمم إلى مدة شاءها الله ﷻ فظاهر الخطاب بيان للأمر المراد منهم امتثاله، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨] معناه: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] فتزدادوا بذلك عذابًا إلى عذاب ما أوعدتم به.

فكان ذلك التأويل لذلك الخطاب في وصف البقرة واقفًا على أمة فارس، أمة لا تستن بسنة نبي وهو تأويل قوله: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ [البقرة:٦٨] أي: مسنة يخبر عن قدم ملكهم بين ذلك؛ أي: ليست على هداية شرع، فكان ذلك من حكمه فيهم إلى مدة شاءها.

ثم قالوا له من بعد ذلك: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة:٦٩] فكانوا لذلك طالبين لبيان ما لا حاجة بهم إليه، فأجابهم جلَّ ذكره بما هو وصف للبقرة المأمور بذبحها، وزيادة في نعتها؛ لتعذر وجودها، وكان هذا ظاهر الخطاب وباطنه إنذارًا لهم بعذاب واقع بهم على أيدي أمة من الأمم إلى مدة شاءها ﷻ فقال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[البقرة:٦٩] وكان تأويل هذا الوصف واقع على أنه ملك بني الأصفر، ملكهم ملك معجب يعذبهم بأيديهم ويملكهم إياهم أيضًا، فلو ذبحوها على ما حُد لهم كان أيسر لوجودها، وأقرب إلى بعض العافية.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧١-٧٥].

لشقائهم ردوا على نبيهم ﷺ، وطلبوا البيان ثالثة دون ضرورة اضطرتهم إلى ذلك، فزاد البقرة نعتًا ليتعذر وجودها جدًّا، فقال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] [البقرة: ٧١].

فكان ظاهر الخطاب أنه وصف المأمور بذبحها، وباطنه إنذار لعذاب واقع على أيدي أمة ثالثة تغلبهم على أمرهم يتحقق بذلك خزيهم وشقاؤهم في الدنيا والآخرة، وهي العرب أمة مسلمة لا دخل فيها من غير الإسلام، وهو تأويل قوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ غير مذللة للمماليك، ولا عاملة بالفلاحة، لا يرد عليهم شرع

---

(١) قال أبو بكر بن العربي: هذه الآية عظيمة الموقع مشكلة في النظر، وفيها مسائل: المسألة الأولى: في سبب ذلك، روي أن رجلاً من بني إسرائيل قتل غيلة وطرح بين قوم، فدعي به عليهم؛ فسأل بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله ليبين القاتل، فدعا ربه؛ فأمرهم بذبح بقرة، وضرب القتيل ببعض منها، فشددوا في السؤال عنها، فشدد الله عليهم، فلم يجدوا تلك الصفة إلا عند رجل بر بأبويه؛ فطلب منهم فيها ملء مسكها ذهبا، فبذلوه له؛ ثم ذبحوها وضرب ببعضها، فحيي فقال: فلان قتله. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». ومعناه: الخبر عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم؛ لأن إخبارهم عن غيرهم يفتقر إلى عدالة؛ ولهذا إذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله. المسألة الثانية: أخبر الله تعالى هنا عن حكم جرى في شرع موسى، واختلف الناس هل يلزمنا حكمه أو لا؟ وتلقب هذه المسألة بشرع من قبلنا، هل يلزمنا أو لا؟ وقد قال أكثر الفقهاء والمتكلمين: إن شرع من قبلنا لازم لنا وله ﷺ ونص عليه ابن بكير.

المسألة الثالثة: لما ضرب بنو إسرائيل الميت بذلك العضو، قال: دمي عند فلان، فتعين قتله، وقد استدل مالك بهذا على القسامة، وقال: إنه يدل على أن قول الميت: دمي عند فلان مقبول، ويقسم عليه؛ فإن قيل: هذا آية ومعجزة لموسى، قلنا: الآية والمعجزة في إحيائه الميت، فلما صار حيًا صار كسائر الأحياء في قوله قبولاً وردًا؛ فإن قيل: إنما قتله موسى بالآية، قلنا: ولعله أمرهم بالقسامة، وأخبره جبريل بصدقه فقتله موسى بعلمه كما تقدم في قتله ﷺ للحارث بن سويد بإخبار جبريل له؛ وقد ثبت في شرعنا القول في حديث حويصة ومحيصة الثابت في الموطأ. [الأحكام الصغرى ص٢١] بتحقيقنا.

من نبي هو من غيرها.

ثم قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:٧٢] أي: تدافعتم الجناية فرمى بعضكم بعضًا.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي: القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:٧٣] أي: ببعض البقرة، وأحيا الله القتيل وأخبر بقاتله، فكان ذلك من حكمه في عاجل أمرهم، وأخرج بذلك ما كتم القاتلون لذلك القتيل.

فصل

كان تأويل قتل النفس المحرم قتلها في الآجل إخماد الإسلام على أيديهم، وقتل أهله وإطماس أكثر أعلامه باتباعهم الدجال - لعنه الله - على الكفر بالله، وتتابع الناس في ذلك إلا من عصم الله.

وتأويل ضرب القتيل ببعض البقرة: ضرب عيسى ابن مريم عليه السلام ما مات من دين الإسلام بعض هذه الأمة فيحييه الله عز وجل من بعد الموت.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ يوم البعث والنشور، ويحيي بعيسى عليه السلام يومئذٍ حال الموت ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ بإحياء القتيل بعد موته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣] أنه كما يحيي موتى الأبدان كذلك يحيي موتى الأديان، ويعلمون أن حقيقة ما ينبئكم به من عاجل الحكم آية على آجله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

عبر عن هذا المغيب الذي كشفه الوجود في حق هذه الأمة قول رسول الله ﷺ في حق البائس المنكر عليه يوم حنين: «**إنه يخرج من ضِئْضِئِ هذا وضِئْضِئِ هذا قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يحتقرون صلاتكم عند صلاتهم، وصيامكم عند صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية...**»[1].

والنبوة والرسالة أمر من الله جلَّ ذكره، والرسول مثل لأمته وأول لها، ولأمره ذلك بعده، فافهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٠٢١)، والبخاري (٤٠٩٤)، ومسلم (١٠٦٤).

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧] أي: متقدم كما قال ﷺ: «**أنا وافد العرب وبلال وافد الحبشة، وسلمان وافد فارس، وصهيب وافد الروم**»[1].

وقال الله ﷻ في عيسى عليه السلام: ﴿جَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] وربما جاء إلماع إلى تبيين شأنه في أولى المواضع - إن شاء الله تعالى بعونه وتوفيقه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - انتهى.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة:٧٦-٨١].

قال الله ﷻ يصف بعض بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2] [البقرة:٧٨] الأمي: مقول من الأمة مشتق من معنى الإمامة؛ أي: إن الأمي هو الذي يأتم بإمامه الذي يقلده، والأمي أيضًا: الذي لا يقرأ ولا يكتب من قوم أميين.

قال الله ﷻ: ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيّ الأُمِّيّ﴾ [الأعراف:١٥٨] أي: الذي لا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أربعة تأويلات: أحدها: إِلَّا أَمَانِيَّ؛ يعني: إلا كذبًا، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: إِلَّا أَمَانِيَّ؛ يعني: إنهم يَتَمَنَّونَ على الله ما ليس لهم، قاله قتادة. والثالث: إِلَّا أَمَانِيَّ؛ يعني: إلا تلاوة من غير فهم، قاله الفراء والكسائي، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيطَانُ فِي أُمنِيَّتِه﴾ [سورة الحج: ٥٢] يعني: ألقى الشيطانُ في أُمنيّتِه. والرابع: إنَّ الأَمَانِيَّ: التقدير، حكاه ابن بحر. النكت والعيون (١/٦٥).

يقرأ ولا يكتب، وعلى ذلك فإنه أتى بما يُقرأ ويُكتب، وقد يكون الأمي الذي يقرأ ويكتب ولا يعلم ما يقرأه ولا يفقه إنما هو يقلد غيره وإمامه، ويأتم في معقوله ومعلومه بأسلافه، ويعتمد عليهم في ذلك.

سمى الله ﷻ من كان في قراءته وكتابه هكذا: أميًا، فقال عز قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ﴾ يصرفون معاني الكتاب إلى أهوائهم وما يوافق شهواتهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] أي: يخرصون، لم يلجؤوا في ذلك إلى علم يقين، ولا استظهروه على ما يعتقدونه فيه بحجة ولا برهان.

كذلك قال الذين لا يعلمون لما قيل لهم: ﴿إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قالوا: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

«الأماني»: جمع أمنية، هو ما يتمناه المرء ويوده، أصله: إنه محبوب للنفس شهي، يأنس إليه من أجل ذلك، ويحادثه حتى يكون أملاً يؤمل وهوى يُهوى، وأماني هؤلاء في كتابهم من نحو ما حكاه الله ﷻ عنهم قريبًا من هذا الخطاب من قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة:٨٠].

وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] وكان اعتقادهم أن الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وشبهة هذا من مذاهبهم في أعمالهم أنها مشكورة وذنوبهم مغفورة.

قال الله ﷻ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف:١٦٩] يتمنون هذا ونحو هذا، ويظنونه ويعملون عليه بأهوائهم.

قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١] فكل من قال قولاً لم يأتِ عليه بدليل من كتاب الله ولا سنة ولا حكمة مشهورة فقوله متروك، ومن تناول العلم على وجه التعصب للأسلاف من غير الموثوق بهم يحتج بهذا، وينصره ويخاصم عليه فهو أمي.

وكان هؤلاء من يهود سلكوا في معلومهم ومعارفهم سبيل العصبية لأسلافهم، فما وافق منه ذلك أخذوا به وما خالفه نبذوه ليست مهمتهم في تصحيح العلم، ولا هممهم في الترقي إلى درجات اليقين، ولو بحثوا عن حقيقة العلم حق البحث،

وأجهدوا في ذلك أنفسهم، واستفرغوا الوسع منهم لارتقوا في الأسباب، وفتحت لهم إلى اليقين الأبواب، فأخذوا العلم صافيًا من منبعثه إلى منتهى المراد به، ولأوجدهم الله جلَّ ذكره إلى ذلك سبيلاً سابلة، ومناهج يمرون عليها قويمة واضحة، لكنهم زاغوا عما أمروا به فأزاغ الله قلوبهم وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون.

فصل

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[1] [البقرة:٧٩] الظاهر المعلوم بأول وهلة أن هذا المكتوب المذكور لو كان هو التوراة والإنجيل ويقولون فيه: إنه من عند الله، لكانوا بذلك مأجورين ممدوحين؛ لقولهم الحق، وتبليغهم إياه إلى من سواهم.

فلما ذمهم الله جلَّ ذكره وأوعدهم بالويل على علم كتابهم ذلك مما كتبت أيديهم ومما يكسبون علمنا أن مكتوبهم ذلك لم يكن كتاب الله ﷻ، وإنما كان تأويلاً يتأولونه على نحو أهوائهم وتشعب آرائهم طلب الوفاق، لأقوال أئمتهم ونصرًا لتعصبهم في أباطلهم وليرضوا في ذلك ملوكهم ويبلغوا بهم شهواتهم في صرف الوجوه إليهم، وبعد الصيت وتكثير الأتباع وقد صرح بذلك منهم في مواضع أخر من كتابه العزيز.

قوله جل قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ الله وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

هذا إلى ما وصفهم به ﷻ من لبسهم الحق بالباطل، وكتمانهم الحق ويعلمون أنه الحق من ربهم كما يعرفون أبنائهم؛ هذا لأن كتاب الله يتميز بما هو عليه،

(١) قوله: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ تنبيه على أمرين: **الأول**: إنه يدلّ على نهاية شقاوتهم؛ لأن العاقل لا يرضى بثمن قليل في الدنيا يحرمه الأجر العظيم الأبدي في الآخرة. **والثاني**: إنما فعلوا ذلك طلبًا للمال والجَاهِ، وهذا يدلّ على أن أَخْذَ المال بالباطل وإن كان بالتّراضي فهو مُحَرّم؛ لأن الذي كانوا يعطونه من المال كان عن محبة ورضا. [تفسير اللباب لابن عادل (١/ ٤٠٤)].

ويعرف بنفس تلاوته؛ إذ كلام الله ﷻ في كتابه لا يلتبس جملته بجملة كلام البشر، ولا البعض منه بالبعض، ليس ككلام الله كلام، هذا حقيقته في كل كتاب يتلى على اللسان الذي أنزل به كائنًا من كان.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ [الحج:٥٢] المعنى إلى آخره.

ذهب الجمهور من أهل التفسير إلى أن معنى الأمنية هنا التلاوة، وأن معنى قوله: ﴿**أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾: ألقى في تلاوته، واحتجوا على ذلك بشبه لا يقوم لها مع التحصيل وجه، ولفظ الأمنية دلالته قائمة على معهوده كما تقدم، وشواهد ذلك من أم القرآن وحديث رسول الله ﷺ كثيرة يطول لسياق بعضها الكتاب.

وفصل الخطاب إن شاء الله تعالى، وهو الموفق للصواب: إن هذه الأمنية المغيبة هنا ليست في نفس التلاوة إلا بآخره، بل هي في نفس النبي ﷺ وعلى أثر التلقي للوحي بوحيه المتمنى في الأنبياء، كالمريد في الأولياء، والنبي على الإطلاق، كالمراد بالولاية؛ فقد يكون من حال النبي في نبوته التمني مثل أن تنزل به النازلة فيود مودودًا ما، ويرجو من الله الفتح عليه في ذلك لما قد عوده الله جلَّ ذكره من ذلك.

وقد يكون بوصف آخر أعرق في حكم التمني، وهو أن يسأل الله ويرغب إليه ويدعو ويتضرع، فيتعرض بذلك لنفحات الله ﷻ، وقد يكون هذان الوصفان للمعتبر على قدر منزلته في سبل تطلابه العلم، فمن ذلك ما قد يكون حاضرًا لمن لم يتقدم منه إليه تعرض، ولا قدح له فيه تفكر، كالإلهام وما قاربه.

ومن ذلك ما يكون باستدعاء التفكر، ومعالجة التذكار، وطلب الفتح من الفتاح العليم جلَّ ذكره، وقد كان رسول الله ﷺ من وده وأمنيته إسراع من أرسل إليه إلى الإسلام وهدايتهم إلى الإيمان.

فصل

وكان ﷺ يحب أن يتوجه البيت الحرام وهو يومئذٍ يصلي إلى بيت المقدس، فقال ﷻ يخاطبه في ذلك: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً**

تَرْضَاهَا﴾ [البقرة:١٤٤].

قال يومًا وقد ذكر قول إبراهيم: ﷺ **﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [إبراهيم:٣٦] وقول عيسى: ﷺ **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [المائدة:١١٨] فرفع يديه إلى السماء وجعل يقول: «**أمتي يا رب أمتي**» وبكى فأوحى الله إليه: «**إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك بهذا وشبهه**»[١]. انتهى.

فصل

النفس موضع الأمنية، والقلب موضع إلقاء الملك، ومتى كان الوحي على ما ذكره الله ﷻ بقوله الحق: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا...﴾** [الجن:٢٦-٢٧].

وعلى ما قال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال**»[٢] فذلك الوحي محفوف بالحراسة ألبتة. انتهى.

ثم إذا كان كما قال ﷺ: «**فأحيانًا يأتيني الملك رجلاً فيكلمني**»[٣] ففي هذا المعنى - والله أعلم - قد يكون من النبي والرسول - عليهما السلام - نظر يوهم أو يسبق مراد مودود من حيث هو بشر من ذرية آدم ﷺ إلى شيء يكون له فيه اختيار، وود أن لو كان الوارد عليه على ذلك المختار المودود له عنده كوده في صرف القبلة إلى البيت الحرام، وحرصه على هداية قومه أو نحو هذا، فيجد الشيطان سبيلاً إلى الإلقاء في ظل تحت تلك الأمنية، فتخرج التلاوة على ذلك وليست بها، لكنها لاصقة بها من حيث لسان النبي أو الرسول ﷺ وتمنيه، فيعود الله ﷻ بفضله على ما ألقاه الشيطان أولاً بإذن الله سرد التلاوة، فينسخه بعزته **﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾** أي:

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢٠).

(٢) أخرجه مالك (٤٧٥)، وأحمد (٢٥٢٩١)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٤ ٢٣٣٣)، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي (٩٣٤)، والطبراني (٣٣٤٥)، والبغوي في تفسيره (٢٥٢/٨).

(٣) تقدم في سابقه.

يثبتها بما هو الوحي الحق عنده، ولولا فضل الله عليه وعلى من أرسل إليه لكان حكمه في ذلك حكم البشر سواه ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج:٥٢].

فصل

مثال ذلك في الوجود: الرجل يكلم مخاطبه بما هو متفاوضان فيه، فيخطر على قلب أحدهما خاطر يعلق به في حال المفاوضة، فيخرج إلى خطابه على معنى ما وقر في نفسه وخطر على قلبه وحصل في أمنيته، ثم يتدارك ذلك بالرجوع إلى معنى ما كان عليه قبل بأن يبدل ما عبَّر عنه لسانه بغير ما كان مفيضًا فيه، بما هو على معنى المفاوضة، وذلك شبيه ببدل الغلط، هذا سفلي وذلك علوي.

قال الله ﷻ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٣] أي: الذي لا فهم عنده، أعلم بهذا أن ذلك في حكمه وقضائه لحكمة مرصدة؛ ليتمم كلمته في إضلال من شاء إضلاله.

قال الله ﷻ: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

يقولون: قد كان منه يوم كذا كذا وكذا، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، ثم أبدله بكذا وكذا، فيجعل ذلك ذريعة إلى تجويز الغلط عليه، وخلوه من العصمة في تبليغ الوحي، وكلا والذي بعثه بالحق إن كل ذلك إلا من عند الله وبعلمه وتحقيق لنبوته، فما تحققت كلمة الإخلاص وبلغت النهاية إلا بمعنى ما قارنها من معنى النفي، فافهم فهمنا الله وإياك.

وإنما هما سبيلان الهداية والفتنة، فسبب الهداية علو ظاهر مشهور، كلما زاحم الفتن سفلاً دقَّ ورقَّ.

فصل

قسم الله الدنيا وكتابه العزيز من هذه الجهة إلى قسمين: ذكر وفتنة.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

وقال ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر:٣١].

و﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

وقد نص ﷻ على العلة التي من أجلها جعل هذه الحكمة ها هنا بقوله عز قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج:٥٣] أي: إنهم يبتغون بما يتلونه الفتنة، فيتعلقون بأيسر شبهة ويعدونها لنصر ما هم بسبيله من الفتن.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج:٥٤] أي: لعلمهم بابتلاء النبيين والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - على رفعة درجاتهم وعلو محالهم، فتخبت لهم قلوبهم لعلمهم بأنفسهم وضعفها يقولون: هذا امتحان الله عباده المعصومين، فكيف بمن هو دونهم ممن لم تضمن له العصمة؟.

ثم قال جل قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤] تأنيسًا للمؤمنين، ووصفًا لسرعة تأتيهم وحسن اتباعهم الحق حيث سلك، وخلافًا لما وصف به سواهم بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً...﴾ [الحج:٥٥].

فصل

النبي ﷺ بشر، وسنة الله جلَّ ذكره متى أزال عن محل ما حكمًا ما أن يُبقي عين ذلك المزال، وإذا أعدم العين أن يُبقي الحكم، وإن كان الله ﷻ قد تولى الرسول والنبي عليه السلام وأتم نعمته عليهما فقد أبقى عليهما أنهما على ما هما عليه من الرفعة والعصمة بشريان، ولا بد لبشريتهما أن يظهر الله ﷻ خاصتهما في وقت ما وحال ما.

قال الله جل من قائل: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤] ولا بد أيضًا للشيطان اللعين الجاري من البشر مجرى الدم أن يقوم مقامه وإن دق ذلك وخفي حكمه، وإن كان الرسول والنبي - عليهما السلام - من عباد الله الذين ليس له عليهم سلطان منفذ عليهم حكمه، فلا محالة أن يبقى له فيهما بدايات لا تتم له كما بقي عليهما أنهما بشريان من ذرية آدم عليه السلام.

ثم لا بد لصدق وعد الله ﷻ بالحفظ لذكره والحراسة لعبده، وبالإياس لعدوه

منه أن يتم، والله غالب على أمره، ثم لا بد في جملة القضاء أن يتم حكمته في كل شيء هو في الدنيا، والذكر بعد فقد نزل إلى قلب الرسول ﷺ ولسانه، وهما من الدنيا بما هو بشر، وليسا من الدنيا بما هو رسول مضمون عصمته.

ألا ترى إلى ذلك في الوجود شائعًا، هذه السماء الدنيا إنما هي سقف الدنيا أبقى الشيطان في استراق السمع على بعض عمالتهم، وبما هو المسترق المسموع من باب الإنباء والغيب والقضاء، وهو متحدث ملائكته - عليهم السلام - كان خارجًا عن حكم الدنيا، فيسلط عليهم الشهب وأرسلها محرقة لهم.

ويدلك على لزوم هذه الحراسة وسطًا؛ أعني: بين العلو والسفل موضع تلقي الرسول والنبي - عليهما السلام - الوحي، وموضع استراق السمع الذي هو سماء الدنيا إلزامه الحفظ والقيام علوًّا؛ أعني: السماوات العلا والكرسي والعرش، وكذلك الوحي من لدن موضع جبريل منه روح القدس فلم يجعل الشيطان فيما هنالك مجالاً ولا أقطع لهم عمالة.

شبهة:

احذر - وفقنا الله وإياك - أن يحرمنك توهم مغايرة في التدبير أو مناقض حكم في المملكة، أو ما يعبر عنه بهذا، وشبهه ما تسمعه من ذكر حراسة وحفظ وكلاءة من خطف موجود أو محذور متوقع، كلا بل هو الله لا إله إلا هو الأحد الصمد، لم يعجز قدرته قط شيء أراد كونه، ولا اعتاص على مشيته أمر دبره ولا موجود خلقه، ولا عاجله قبل وقته، ولا تأخر عن أجله، هو المحيط ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بكل علم وقدرة ومشية قبل كونه.

ثم أوجده على وفق إرادته ومشيته فيه، وعلمه السابق به، وعلى ذلك فهو القائل الصادق: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١].

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥].

إنما ذلك؛ لأنه ﷻ قدر سنة في خلقه على آجالها في سابق علمه، ثم رماها بالمحنة والابتلاء من أمره، وفصل بكلماته التامات ما شاء بما شاء، والحفظ والحراسة والكلاءة أمره، والمحفوظ منه المخوف من أجله ملكه وأمره، فهو يحفظ ما شاء ما شاء بأمره من أمره.

فصل

اعقل عن ربك وعن أمره وآمن به، فهو ﷻ الرافع القسط وخافضه، المقدم والمؤخر، والهادي والمضل، والمصرف الحكم كله، وحكمه بالكلمة كحكمه بألسنةٍ، ذلك كله عليه يسير، وعلى كل شيء قدير.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤] فمن هنا كان الخوض والاختلاف ظاهرًا في أبعاض الجملة، ثم الحكم العدل والقضاء الفصل في ذلك، وكّله على ما شأه من عاجل وآجلن وإلا فكل الجملة قانت لعزة الله جلَّ ذكره، مستسلم في قبضة قدرته.

وحركة أبعاضها سكون في حقه، واختلافها وفاق في مشيئته، ومصير إلى ما هو كمال للجملة، والإمساك والحفظ والكلاءة والمحترس من أجله، والممسك بسببه، والمتوقع وقوعه كل ذلك أمره ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣].

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] وذكر أهل التفسير في ذلك ما شهر عنهم أن اليهود قالوا: إنما الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الناس في النار مكان كل سنة من سني هذه الدنيا يومًا واحدًا، وهذا قول مرغوب عنه، محجوج بما ثبت من ذكر الخلود، هذا إلى البحث عن هذا المقال: هل قالوا هذا أم لا؟.

وقيل: إنهم قالوا: «هي الأيام التي عبدنا فيها العجل» والظاهر من مفهوم هذا الخطاب أنهم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم على الإسلام والإيمان الموجب للجنة والمبعد عن النار، والإيمان الموجب للجنة هو الإيمان بالله وملائكته ورسله، وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره، والعمل الصالح، فكانوا يقولون على ما هم عليه: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] أي: عدتها في علم الله ومشيئته، ثم

يخرجنا منها بشفاعة نبينا عليه السلام كالذي يقوله المسلمون(١).

فرد الله ﷻ عليهم ذلك من قولهم بقوله: ﴿**أَتَّخَذْتُمْ عِندَ الله عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ**﴾ [البقرة:٨٠] أي: إنكم تموتون على الإسلام والإيمان، ويختم لكم بذلك، فتكونوا بذلك على حال من تحل له الشفاعة إن كان ذلك كذلك، فلن يخلف الله عهده ﴿**أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٨٠] وإنما ذلك من الغيب، فمن أين لكم بعلمه، وها أنتم هؤلاء قد كذبتم عيسى ومحمدًا - صلى الله عليهما وسلم - فمن أين لكم بالخروج من النار وأنتم الكفار حقًّا؟!

ولذلك أتبع قوله: ﴿**بَلَى**﴾ وهو جواب عن استفهام وهي مع ذلك معبرة عن إبقاء بعض الحكم؛ أي: من مات منكم على الإسلام موسى وهارون والنبيين بعده وإيمانهم هذا مفهوم، بل فيما هنا، ثم ذكر بعد ذلك من كسب في إسلامه وإيمانه ما خلط به سباب وتكذيب لبعض الرسل، ورد لبعض الكتب وهذا مطلع تشرف منه على ما حدث به رسول الله ﷺ من حكم الشفاعة في الآخرة.

وقول الله: «**أخرجوا من النار، من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال شعيرة، ومثقال بُرة ومثقال ذرة أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ...**»(٢) إلى آخر ما حدث به رسول الله ﷺ في هذا المعنى، فإنا لا نبعد أن يكون لجميع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين شفاعات على هذا الحكم فلذلك قالوا: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ [البقرة: ٨٠] وتقدير ما انحذف من تمام الكلام، ويخرجنا منها نبينا بشفاعته فينا فكان الجواب على ذلك بقوله: ﴿**بَلَى**﴾ [البقرة: ٨١]

(١) سبب نزول هذه الآية أنهم زعموا أنهم وجدوا في التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، فقالوا: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم، فتذهب جهنم وتهلك. روي ذلك عن ابن عباس. وقيل: إن النبي ﷺ قال: «**اليهود من أهل النار**» قالوا: نحن ثم تخلفوننا أنتم، فقال: «**كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم**» فنزلت هذه الآية. وروي عنهم أنهم يعذبون سبعة أيام عدد أيام الدنيا، سبعة آلاف لكل ألف يوم، ثم ينقطع العذاب. وروي عنهم أنهم يعذبون أربعين يومًا عدد عبادتهم العجل، وقيل: أربعين يومًا تحلة القسم. وقيل: أربعين ليلة ثم ينادي: اخرجوا كل مختون من بني إسرائيل، فنزلت هذه الآية. [البحر المحيط (١/٣٦١)].

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، وأحمد (١٣٩٤٠)، وابن ماجة (٤٤٥٥).

أي: إنه كذلك الحكم فيمن مات على الإسلام من أهل الذنوب ولم يشأ الله أن يغفر له.

وقد وقف بعض القراء على قوله: ﴿ بَلَى﴾ وهو تقدير بحكم ما زعموه، لكن ليس على ما ظنوه، وإنما هو على حقيقة ما أخبر الله ﷻ به من قوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١] فهؤلاء قوم لم يُبقِ الله جلَّ ذكره فيهم رجاء.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٨٢-٨٥].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يريد: وتوفوا على ذلك ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨٢].

وهذا طرف آخر لم يبقَ فيه أيضًا خوفًا ولا حزنًا، ويهود ليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء؛ لأنهم كذبوا عيسى ومحمد - عليهما السلام - وأبقى الله ﷻ موضع الوسط مسكوتًا عنه مشارًا إليه، وهم الذين آمنوا بالله وبالرسل، لكنهم عملوا بالمعاصي فلم يتوبوا.

أمر نبيه ﷺ أن يبين عنه كيف الحكم فيه بقوله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] ولم يفصح بما في مشيته من المغفرة لمن شاء

أن يغفر له منهم، ولا بإخراج من النار بعد إدخاله إياهم فيها رحمة منه ﷻ بعباده، لحكمة بالغة له في حكمه؛ ليسوق عباده بصوت وعيده إلى رحمته؛ إذ علم ﷻ أن في عباده الغفول الذي لا يستحق أن يوصف بحياة؛ لانهماكه في شهواته، وانتهاكه في خلافه وقلة مبالاته بما هو صائر إليه.

ولا يستحق أن يوصف بالموت كله؛ إذ قد شهد بشهادة الحق في أصل معرفته، ودخل في صفقة أهل التوحيد في جملة شأنه، فمتى ذكر أو ذُكِّر بالنار جزاء لسيئاته سبق وهله إلى الخروج منها برحمة الشفاعة، فأغمض جهلاً منه، وجرأة على ربه ما بين ذلك كقول أولئك: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ [البقرة:٨٠] فغرَّه جهله بربه وغفلته وسوء رأيه.

ولقد بلغنا - والله أعلم - أن أحدهم ليمكث فيها مثل عمره، وقد جاء في بعض ما يؤثر عن بعض السلف أن رجلاً يمكث فيها مقدار ألف سنة.

قال الحسن البصري، رحمة الله عليه: ليتني ذلك الرجل.

فأجمعت النفوس كلها في الطمع في رحمة الله تعالى وكريم ثوابه، فمن مصيب في طلبه وطمعه ومن مخطئ، فأما أهل المخافة ففكروا في الخلود وفرقوا منه جدًّا، فتمنوا الخروج منها ولو على بعد ونأي طويل؛ إذ لم يروا أنفسهم للخروج منها أهلاً، وأما أهل الغفلة عن أنفسهم وعن أعمالهم فأغمضوا على موضع العقاب ولم يقدروا قدره؛ لموتهم عن إحساسها بالحزن عليها، والخوف منها في الدنيا.

فصل

ثم جعل جلَّ ذكره يعدد كفرانهم ونقضهم العهود التي كانوا يستوجبون بالوفاء بها الوفاء من الله تعالى بالجنة، فقال: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ إلى قوله: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [البقرة:٨٣] مفهوم هذا فبالإعراض بعد الإقبال، والتولي بعد القبول يستحق الثواب وينجى من العقاب.

ثم قال: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن**

دِيَارِكُمْ﴾(1) إلى قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥].

يقول: أهذه أعمال من يرجو ثواب الله ويحذر عقابه، ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥] أي: في مستقبلكم وفي حالكم من الكفر بمحمد ﷺ، وكتمان ما أنزل الله إليكم واتباعكم الدجال - لعنه الله - ونصركم له، وكونكم متعبدين له ونحو هذا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة:٨٦-٩٠].

ثم حكم بحكمه الحق، وأعرب عما هم إليه صائرون بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦] ذكر النصرة هنا كناية عن الشفاعة؛ أي: إنهم ممن لا ينالهم الشفاعة.

ثم أرجع المحاجة إليهم لكسر ما ادعوه، وإبطال ما ذهبوا إليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ

(١) إن قيل: فهل يسفك أحد دمه، ويخرج نفسه من داره؟ ففيه قولان: أحدهما: معناه: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرجه من داره، وهذا قول قتادة وأبي العالية. والثاني: إنه القصاص الذي يقتص منهم بمن قتلوه. وفيه قول ثالث: إن قوله: «أنفسكم» أي: إخوانكم فهو كنفس واحدة. [النكت والعيون (٦٩/١)].

بِرُوحِ القُدُسِ﴾ فكذبتم بعضًا وقتلتم بعضًا بقول الله جلَّ ذكره: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧] فعلى هذه الأعمال تطمعون في الخروج من النار.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة:٨٨] أي: لا نسمع ولا نعقل تهزوءًا منهم برسلهم، وربما جاءوهم به كما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣].

يقول الله جل من قائل: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨] ذلك الإيمان منهم لما كذبوا بعض الرسل والكتب كان إيمانهم بما آمنوا به في حيز القليل.

قال الله ﷻ فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥١].

ثم قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ يريد القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: من التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] [البقرة:٨٩] جاء أنهم كانوا يقولون للأوس والخزرج إذ كانوا يقاتلونهم: الآن يبعث الله رسولاً نقتلكم بهم، قيل: عاد وإرم. وقيل أيضًا: وهو الأشبه بمعنى الخطاب: إنهم كانوا يستفتحون عليهم فيدعون الله، ويسألونه باسم الرسول المرسل الذي وعدتنا به: انصرنا عليهم.

والاستفتاح: هو الدعاء نفسه، فلما جاءهم ما عرفوا فأعلمهم عز جلاله بخلافهم لرسولهم ﷺ، ونقضهم العهود التي ألزموها وتوليهم، ثم أعلمهم ﷻ بالأنبياء والرسل بعده، وبعيسى ابن مريم ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) أي: من قبل مجيء محمد ﷺ كانوا يستنصرون على المشركين؛ لأن بني قريظة والنضير قد وجدوا نعته في كتبهم فخرجوا من الشام إلى المدينة، ونزلوا بقربها ينتظرون خروجه، وكانوا إذا قاتلوا من يلونهم من المشركين مشركي العرب يستفتحون عليهم؛ أي: يستنصرون ويقولون: اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذي تنزل عليه الذي وعدتنا، وكانوا يرجون أن يكون منهم فينصروا على عدوهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ﴾ أي: باسم النبي ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي: محمد ﷺ وعرفوه ﴿كَفَرُواْ بِهِ﴾ وغيّروا نعته مخافة أن تزول عنهم منفعة الدنيا. [بحر العلوم للسمرقندي (٨٠/١)].

أجمعين - وبأنهم كذبوا بعضًا وقتلوا بعضًا، واستحقوا بذلك لعنة الله عليهم.

وباتخاذهم قبل العجل من دون الله جلَّ ذكره إلهًا استحقوا أن يحل عليهم الغضب من ربهم، ثم بردهم ما جاء به عيسى ﷺ، وبعد ذلك ردوا ما جاء به محمد ﷺ استحقوا أيضًا غضب الله عليهم فباءوا بغضب على غضب.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:٩٠] أعلى هذا يخرجون من النار.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩١-٩٥].

وهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

ثم أخذ يحاجهم ثانية إلى قوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] أي: هو الكفر تسمونه: إيمانًا، وليس به.

ثم صرف ﷻ الخطاب إلى ذكر ما اعتقدوه من غرور أمانيهم، وأكذوبات ظنونهم محاجًا لهم في ذلك بقوله: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤] إلى قوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] فأخبر عنهم أنهم أحرص الناس على حياة، نعم وهم أحرص على الحياة من الذين أشركوا؛ إذ المشركون لم يعلموا أن فيما هنالك عذابًا يحذر، ولا ثوابًا يُرجى، وهم يحرصون على الحياة الدنيا فرقًا من عذاب هناك يخافونه لسوء أعمالهم، وقلة ثقتهم؛ لعلمهم بأن الله عنهم غير راضٍ لقديم خلافهم إياه

وحديثه.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا الْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:٩٦-١٠٠].

يقول ﷻ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يقول عز من قائل: وما ينفعه طول عمره ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أفرأيت أن متعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] أي: إنهم على ذلك منهم، وفرقهم من سوء منقلبهم، لا يراجعون بهم ولا يتوبون إليه.

قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ....﴾[1] [البقرة:٩٧] جاء أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لولا أن الذي يأتيك بالوحي هو جبريل لاتبعناك، قالوا: لأنه يأتي بالعذاب وهو عدونا من الملائكة، فأنزل الله جلَّ ذكره ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة:٩٧] المعنى إلى آخره.

والأولى أنه منتظم بحكم المجاورة مما تقدم ذكره من كراهتهم الموت أنه جاء

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ إذ لا أمل لهم في حياة أخرى ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها، فأما المؤمنون فإن كراهتهم للموت المرتكزة في الجبلة بمقدار الإلف لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه. وفي الحديث: «**من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» وتأويله بالمؤمن يحب لقاء الله للطمع في الثواب، وبالكافر يكره لقاء الله، وقد بينه النبي ﷺ فقال: «**إن المؤمن إذا حضرته الوفاة رأى ما أعد الله له من خير فأحب لقاء الله**» أي: والكافر بعكسه. التحرير والتنوير (٦٣/١٤).

أن المؤمنين يدفعون إلى جبريل عليه السلام بعد الموت، كالكافل لهم إلى يوم القيمة، كما يدفع الولدان إلى إبراهيم عليه السلام، فهو ولي المؤمنين جاءهم من عند ربهم بالهدى والنور والشفاء في هذه، وهذا موجود في حرف من قرأ: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦][1].

﴿نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤] المعنى إلى آخره.

قوله ﷻ: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤].

وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِن دُونِ النَّاسِ﴾ [الجمعة:٦] إلى أنه يجب القطع بمحصول هذا الخطاب أن الموت للعبد المؤمن أفضل من البقاء في الدنيا، ولما أن كان المؤمن قد يرتجي الزيادة من الخير، ويرغب في التقرب إلى الله ﷻ، جاز له محبة البقاء لأجل هذه النية، فليقل: اللهم توفني ما كانت الوفاة خيرًا لي، وأحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وما ذاك إلا أن العيش في دار البرزخ أحسن من العيش في هذه الدار.

ألا ترى أن آدم عليه السلام لما خلقه جل ثناؤه وأسكنه الجنة، وأباح له أن يأكل منها رغدًا حيث شاء إلى هذا، فلم يضمن له العصمة من عدوه ولا من الموت، ولا من

---

(١) قرأ جمهور الناس: «**إن وليّيَ الله**» بياء مكسورة مشددة وأخرى مفتوحة، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه «**إن وليّ الله**» بياء واحدة مشددة ورفع **الله**، وقال أبو علي: لا تخلو هذه القراءة من أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة أو تحذف الياء التي هي لام الفعل، وتدغم ياء فعيل في ياء الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة؛ لأنه إذا فعل ذلك انفك الإدغام الأول، فليس إلا أنه حذف لام الفعل، وأدغم ياء فعيل في ياء الإضافة، وقرأ ابن مسعود «الذي نزل الكتاب بالحق وهو يتولى الصالحين»، وقرأ الجحدري فيما ذكر أبو عمرو الداني «إن ولي إله» على الإضافة، وفسر ذلك بأن المراد جبريل عليه السلام ذكر القراءة غير منسوبة أبو حاتم وضعفها، وإن كانت الفاظ هذه الآية تلائم هذا المعنى وتصلح له، فإن ما قبلها وما بعدها يدافع ذلك. انظر: المحرر الوجيز (١٣٨/٣).

الابتلاء بالأمر والنهي، بل نهاه أن يأكل الشجرة، وأمره ألا يقربها، فواقع المحذور بالقدر السابق، فأخرجه منها وسجنه في هذه الدنيا، وقيده عن الكون حيث شاء إلا بقطع المسافات وتجشم المشقات بمزاولة الترحال في تقرب أبعاد الأسفار.

فهذه دار سجن المؤمن، موضوعها: أن يكون سجنًا للعاصين سجَّانها العدو المكائد إبليس - لعنه الله - وأتباعه من الجن والإنس أعوانه ومَسَالحه لا يألونه خبالاً وإضلالاً مما جرَّ إلى ذلك، وما كان جزاء له من المكروهات والمصائب والفجائع، وتلك عمالة أقطعه إياها خالقه ومالكه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى يوم الوقت المعلوم، إن الله جعله وأشياعه سببًا وذريعة إلى كل مكروه يكون في الدارين، وفيما بينهما في هذه بالفعل والكسب، وفيما هنالك جزاء، لكن الرؤوف الرحيم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من وراء عباده المؤمنين يحسن تدبيره لهم، يصير لهم كل مكروه يصيبهم كفارة من ذنوبهم، وكل عمل له رفعه في درجاتهم.

فمن أعجب العجب عدو محبوب وغاش مركن إليه وسجن مؤمل محروص عليه، ولقد وصى عباده بأبلغ الوصية ألا يركنوا إلى هذا السجن، وألا يخلدوا إليه لموضع العقوبة التي بها عاقبهم، وألا يصغوا إلى نداء عدوهم بهوى لو يرضوا لأنفسهم بالتي هي أدنى، وأن الدواب لتحن إلى أواريها، وإن الإبل لتنقطع إلى معاطنها.

بيان: سبق من حكمة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه تحبيب الأوطان والحنين إلى محل الكون، ومنبعث ذلك الوجود ولما أراده في إتمام كلمته في البلوى، وإمرار حكمه بالجزاء لقوم، وإتمام نعمته بالتنبيه لأوليائه، أسس هذه التي عاقبهم باللبث فيها والحلول في بعد سجنها على مقتضيات أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وأوجدها جمعًا على معاني موجودات الدار التي أخرجهم عنها، المفضية إلى الدار الآخرة ثوابًا وعقابًا، صيَّر ذلك فيما ها هنا ذكرًا وفتنة.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩] فأوجب لكل فريق ما كان عنه، وما خلق به ومنه، وحنَّ إلى الوطن الذي خرج عنه، فمخطئ في محبته ومصيب لأجل الابتلاء والمحنة المعارض لهم في السبيل المسلوك بهم إليها.

فأما أهل الفتنة وهم المخطئون لما تألفت لهم شهواتها فأنسوا بها من أجل لمعان نيرانها؛ إذ أشبهت تلك الدار في معالم وافقت أسماءها وأومأت في ذلك إلى أشباهها، فخدعتهم بزينتها وأحبوها لذلك، ورضوا بها عجبًا بها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

فكان ذلك حظهم من المقصود الحق، فأما أهل الذكر فشاهدوا فيما هنا أشباه ما هنالك، تعرفوا منها أسماء وصفات للحق المبين فذكروا تلك بهذه، وتشوقوا إليها لأجل هذه.

منازلاً كنت تهواها وتألفها أيام كنت على الأيام منصورًا

آخر:

وإني لأهوى الدار لا يستفزني لها الود إلا أنها من دياركا

فزهدوا في هذه لوشيك ذهابها وسرعة تقلبها بأهلها، ولما أعلمهم النصوح الحق الصدوق جلَّ ذكره من سعة تلك وعظمها، وضيق هذه وصغرها فأخذوا أبصارهم عند ذلك في النظر إلى البون في فضل الدارين.

فما وقعت أعينهم ولا توهمت أوهامهم سوى معاني أسمائه وصفاته في هذه، وتيقنوا بذلك أيضًا بوجود العلم ما أومأت إليه هذه بشبه لما هنالك، وإن ما أومأت إليه ونبهت عليه، يدعوهم بذلك إلى نفسها ويشوقهم إليها، ويزهدهم في قليل هذه الفاني المنغص الكدر، قد أسلك هذا كله في تلك سلوك الأرواح في الأجسام، وأحلها منها محل الأعراض من الجواهر، فجميع موجوداتها في حقهم ومواقع أبصارهم تسبح خالقها وتقنت لعظمة موجدها.

ثم أيدهم جلَّ ذكره على مراشدهم؛ بأن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ينبئهم على مراشدهم، ويبصرهم بذلك حقائق مقاصدهم، فأنبأهم بما جهلوه، وأعلمهم من غيابات ما هنالك ما لم يعلموه، وأوعدهم مع ذلك في تلك بالعقبى، وضمن لهم حسن العقبى، فتشوفوا إلى ما هناك وعشقوها وآثروها، وسلوا عن هذه

ورفضوها؛ لبعدها عن المحبوب والمحل المطلوب:

أحن للبرق من تلقاء أرضهم ... ولي فؤاد إلى الآلاف حنان

محلة النفس فيهم أينما قطنوا ... ومنزل الروح فيهم أينما كانوا

إني لأبغض أوطاني وقد ظعنوا عنها ... ألا إنما الأحباب أوطان

وما الديار وإن جد الولوع بها ... إلا شجون إذا ما شط جيران

وآخر:

وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فأصل الفتنة أو الذكر الموجودين بالفريقين عن الشبه الموجود في هذه من تلك، وإن كان شبهًا بعيدًا وزخرفًا زهيدًا، بالإضافة إلى ما هنالك الطرق مختلفة، وطريق الله واحدة والاستجابة شتى، والسالكون طريق الحق أفراد.

فصل

إنه من الواجب إذًا من سجن لأجل ذنب كان سبب جعله فيه التمحيص من ذنبه، والاستتابة والإعذار إليه والإنذار في ذلك، فاستجاب لداعيه وتاب إليه من ذنبه، وأطاع ربه الذي سجنه، وانتظر به توبته من ذنبه والمحبوس هنالك من أجله أنه ينقله عند محل أجله إلى حيث أخرجه منه.

وللمعهود من العلم بحكم الشيء أن ينقله أيضًا عند محل الأجل، وانقراض هذه الدار التي سجن فيها إلى أكبر من هاتين، وأفضل من الدارين وأكرم وجودًا، كما من الواجب أنه إن لم يفِ بعهده ولا أجاب داعية ربه، ولا شعر لما سجن من أجله أن يحله عند انقراض هذه دارًا هي له أنكأ، وأبعد بعدًا وأقصى، ثم على حكم النشأة في الدار الآخرة إلى حالة هي أدهى وأمرّ، وقد أخبر بذلك من الصدق من صفاته والصادق من أسمائه، ووعد به وأوعد عليه فهو الحق اليقين.

فصل

مفهوم ما تقدم ذكره من قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ**

خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ...﴾ [البقرة:٩٤] فمفهوم هذا الخطاب أنه من قدمت يداه خيرًا إيمانًا بالله ورسله، وطاعة لله ورسله، وأوفى على ذلك فتمني الموت خير له؛ لأنه يصيره إلى ما عبر عنه قوله الحق: **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾** [الأحزاب:٤٧] إن الموت للعالم المؤمن بالله جلَّ ذكره الموقن بالآخرة ميزان عدل على أعماله بسيئها وحسنها.

فلينظر العبد في جميع أفعاله، فكل عمل لا يندم عليه عند الموت متى فجأه عليه فليستكثر منه وليلزمه، وما يخاف أن يندم عليه يومئذٍ وليستفرغ جهده في النزوع عنه ونبذه.

وميزان ثانٍ: يستعين به على ما هو بسبيله لينظر إلى كل عمل يكره أن يطلع الناس عليه ظاهرًا كان أو باطنًا فليجتنبه، فالله أعظم اطلاعًا عليه وأكرم مشاهدة، وكل عمل لو اطلع عليه العلماء بالله وصالحوا عباده فأحبوه منك وأحبوك من أجله فالزمه، واحذر أن تتظاهر به إلا ما أمرت بإظهاره من ذلك، فالمؤمنون شهود الله في الأرض.

وميزان ثالث: متى أردت أن تعلم ما لك عند الله فانظر ما لله جلَّ ذكره عندك، فإن كنت راغبًا في التقرب منه وتزلف إليه فهو أسرع إلى ذلك منك، كذلك إن رأيت أعمال السعادة والزيادة من الخيرات تتزيد منها، والشر ينتقص منك، والآخرة مقبلة إليك بأعمالها والتأهب لها، متوجه إليها وجهك وعملك بها، والدنيا مدبرة في قلبك، وهي خلقة في نفسك وأنت عنها معرض، فاحمد الله وحده، وسله الإخلاص من قلبك، وجد من عزمك إتمام نعمته عليك وليكن سرورك بما سبق لك عند الله من ذلك أشد من سرورك بعملك.

وإن كنت ترى أعلام الشقاوة تترادف عليك بأن ترى خيرك ينقص وشرك يزيد، والدنيا عليك مقبلة وأنت معظم لها مغتبط بها، قد ألهتك عن ربك، وقلبك يزداد قسوة، فاعلم أن طريق الخير مغلق عن قلبك، وأبواب الشر مفتوحة إليك، تسلك بك في طرقها.

فانظر لنفسك أيها العبد، وفرّ من هذا الحال، ولا تبقَ إلا على عمل لا تبالي أن تموت عليه ويختم لك به، وليكن حزنك على أنك عند الله ﷻ بمنزلة من لم يرضه

لخدمته، ولا رآه أهلاً لتقربه، بل ممن قدر عليه بأن تخرج أعمال الشقاء على يديه أشد من حزنك على سوء أفعالك.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩] انتظم هذا بما تقدم قبل من الكسر عليهم والرد لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران:٢٤] وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] فرد عليهم جلَّ ذكره بما بيَّن أنهم قد خرجوا عن الهداية إلى الضلالة، وأنهم كافرون بما كذبوا من الرسل وقتلوا منهم وردوا من كتب.

ومفهوم المراد بالخطاب: إنهم على ذلك لا يخرجون من النار، وإنهم ليسوا ممن يستحق رحمة الله والحلول في جواره؛ لكفرهم وفسقهم عن هدايتهم.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:١٠٠].

وكان مما عاهدوا عليه ما تضمنه قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ....﴾ [المائدة:١٢] فكان هذا منتظمًا بما تقدم من الكسر عليهم والنقض لدعواهم من تزكية أنفسهم.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠١-١٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ هو محمد ﷺ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١] أي: كأنهم لم يرسل إليهم رسول ولا نزل إليهم كتاب، فيعلمون في ذلك تحريم السحر والعمل به، والنهي عن الكذب على كتاب الله ورسله، ويعلمون من رسولهم وكتابهم إنك حق، وما جئتهم به حق.

وهذا ينظر إلى المثل المضروب لهم في صدر السورة قوله الحق: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧] مثل هذه الحالة منهم بما عندهم من ضياء النبوة والرسالة والكتاب.

ثم قال فيهم: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة:١٧] أي: حول المستوقد مثل هذه الحالة من المستوقد بما ورد عليهم من نبوة محمد ﷺ وعلى النبيين قبله ورسالته والقرآن، استوى بذلك ضياء ما حول المستوقد وشبه تركهم لما في كتابهم من تصديق له، واقتداء بترك هذا المستوقد النار وإضاعته إياها، حتى طفئت بتركهم هدايتهم بكتابهم، وتصديق هذا الرسول محمد ﷺ فطفئ لذلك نورهم قديمًا وحديثًا، وصاروا لأجل ذلك ﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

﴿صُمٌّ﴾ عن الداعي ﴿بُكْمٌ﴾ عن الشهادة بالحق أو القول به ﴿عُمْيٌ﴾ عن القصد[1] فهم لأجل ذلك ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] عن ضلالهم، أيأس عباده المؤمنين من هدايتهم، كذلك يكونون حتى يخرج دجالهم اللعين فيقتلون معه كل قتلة، لا يخبؤهم يومئذٍ شيء إلا شجر الغرقد، وما القدر الذي يخبو منهم شجر الغرقد على صغر دوحها وسخافة ظلها، وهي شجرتهم على ما هي.

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جَنَى فأبعدكن الله من شجرات

(١) قال المصنف: هذا كله يكون عبارة عن الإباء والترك للشروع والحركة والتفعل للمقدور لما عدم منهم الشروع في القول ووصفهم بعدم الاستطاعة، المعبر بها عن وجود القدرة منهم على الفعل ولما كانوا ممن يصح وصفهم بالقوة على الشروع في الفعل المأمون به أو الترك له والإباء عنه؛ صحّ تكليفهم، كما لو عجزوا عن ذلك لم يصح تكليفهم. [شرح الأسماء ٢/ ١٥٨].

عبر عن هذا بقوله: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[1] [البقرة:١٧-١٨] هذا مثل مضروب ليهود، ويصلح أيضًا أن يكون مثلاً للمنافقين بوجه ما.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:١٠٢] إلى آخر المعنى.

وصفهم ﷻ بالرجوع إلى أوليتهم مع آل فرعون وما جرهم إلى ذلك من فعل السامري، ونبذهم الكتاب والنبوة، فذلك من عمل السحر واتباع سبيل الشيطان، فإن الله ﷻ لما عزل أباهم المبلس الملعون عن عمل الملائكة عليهم السلام، وأبعده عن جواره والعمل بأمره عوضهم من ذلك التزيين والتخييل والإيجاس، وتغيير خلق الله ﷻ كما قال: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء:١١٩] فتركوا بذلك ما كان هداهم الله إليه من الصراط المستقيم إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: السحر ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢].

كما قال عز من قائل: اذهب ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨] ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

يقول في مفهوم الخطاب: فكيف يزعمون أنهم أولياء الله من دون الناس، وأن الجنة خالصة لهم من دون من سواهم وهم في هذه الشقاق البعيد؟

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] التلو: التابع، يقول: تركوا كتاب الله ﷻ وهدى الإيمان بما اتبعته الشياطين على ملك سليمان، وعلى ما أنزل على الملكين، فإنهم راموا منقض الأمرين: أمر سليمان

(١) اختيار لفظ النور في قوله: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون الضوء ودون النار؛ لأن لفظ النور أنسب، لأن الذي يشبه النار من الحالة المشبهة هو مظاهر الإسلام التي يظهرونها، وقد شاع التعبير عن الإسلام بالنور في القرآن، فصار اختيار لفظ النور هنا بمنزلة تجريد الاستعارة؛ لأنه أنسب بالحال المشبهة، وعبّر عما يقابله في الحال المشبه بها بلفظ يصلح لهما أو هو بالمشبه أنسب في اصطلاح المتكلم. [التحرير والتنوير (١/١٤١)].

والملكين عليهم السلام، بزعمهم من كذب عليهم وسحر زعموه لم يأذن الله به.

وقد برَّأ الله جلَّ ذكره سليمان ﷺ وملكيه هاروت وماروت - صلوات الله وسلامه عليهما - بقوله الحق جل قوله: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ [البقرة:١٠٢] وإنما كان سليمان ﷺ قد ملكه الله ملكًا معجزًا جعله آية على ملك أهل الجنة لم يؤته أحدًا من بعده فكان يستسخر الجن ويلزمهم السجون، ويأخذ على بعضهم المواثيق على ألا يطغوا بالإنس، ويقتل البعض منهم، وينفي البعض إلى أطراف الأرض وجزائر البحور، ويلزم البعض وظائف السخرة ليشغلهم بذلك عن الإضرار، وليبقي الله ﷻ نفع ذلك لعباده.

كان كذلك إلى أن توفي ﷺ قالوا: وكان من حيث يرونه لا يصلون إلى مكانه ذلك مدة من الزمان قائمًا على منسأته مدة من الزمان إلى أن بعث الله دابة الأرض إلى منسأته، فعملت فيها حتى وهت فخرَّ، فعلموا بذلك أنه ميت، فتفرقوا وأراحوا أنفسهم مما كانوا فيه من العذاب، بنحو هذا ذكر المفسرون والله أعلم بصحة ما قالوه.

والمراد من الحديث في القرآن وسياق معناه: إعلام الله عباده بأن الجن لا يعلمون الغيب، والذي يمكن كونه من ذلك أنه توفي ﷺ واستمرت السخرة والعذاب عليهم، وخفي عليهم موته حتى دلهم على موته المنسأة قد قطعتها دابة الأرض.

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [سبأ:١٤] يمكن أن يكون المعنى بذلك الأمر القائم الذي كانوا يلتزمون السخرة بعد الوفاة من أجله، ويمكن أن يكون خرَّ هو ميتًا كما ذكروا، والله عليم حكيم.

فالأظهر - والله أعلم - أن ذلك كان لهم علامة جعلها لهم؛ ليتصل بهم كمال السخرة، وكيف كان يكون هذا القائم ﷺ ومن سنة المرسلين التدافن، فلما خرَّ ذلك العلم استدلوا بذلك على موته ﷺ، بل كان شأن ملكه ظاهرًا قائمًا كما تركه حتى خرَّ كناية عن انهدامه لأمر، وخلاف خلف على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

فصل

ولما كان ذلك ادعت الشياطين أن ملكه ﷺ كان سحرًا ليسوِّغوه عند الناس، وأنه - أعني: السحر - معمول به، ومن فعل نبي من الأنبياء، وأشاعوا على ألسنة الناس وكثير من الغافلين أنه كان مجموع ذلك في خاتم له، وزوَّروا في ذلك أقوالاً غير صائبة الله أعلم بما هو الحق منها، غير أنها ليست بمتأصلة ولا متصلة بوجه ظاهر من الحق، والتحرج يمنع من استيفاء محاكاة أمرهم واستعراض أكثر أقوالهم.

وفصل القول في ذلك إن شاء الله ﷻ، فهو يقول الحق وهو يهدي السبيل: إن سليمان ﷺ هو نبي الله ورسوله، والرسل - صلوات الله عليهم - معصمون فيما طريقه التبليغ من الله جلَّ ذكره إلى عباده، والسحر ليس من الله جل وتعالى في شيء؛ لأنه رجس وكفر وفسق، وكذلك ما ذكروه أنه لما ذهب عنه خاتمه كما زعموا خلفه على كرسيه شيطان يحكم بحكمه طول غيبته التي ذكروها.

قالوا: وكان تخلفه مع ذلك في أهله لا ينكره الناس، ولأهله شيء من ذلك، ومثل هذا لا يصح، بل هو الكذب المفحش، ونساء الأنبياء معصومات، والله جل وتعالى أكرم من أن يترك نبيه ﷺ إلى هذه النقيصة.

فصل القول في ذلك: قوله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل:١٦].

ووراثات الأنبياء - عليهم السلام - النبوة والعلم والحكمة وما هذا سبيله، ووهبه الله لداود - عليهما السلام - نبيًا كما وهب هارون لموسى ويحيى لزكريا نبيًا.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص:٣٤] وأقرب ما يكون المعبر عنه بذكر الفتنة الذنب، وذلك ليس بمنكر، الله أعلم بذلك غير أنه قد زكاه الزكي بقوله الحق: ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] وسيأتي ذكر هذا.

وقال: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤] والمعهود من الله جلَّ ذكره أن رحمته أقرب ما يكون من العبد إثر بلية الذنب وإعقابه الندم والتوبة، كذلك في كثير من قصصه من ذكر الأنبياء سواه، وربما أتى هذا مبينًا في أولى المواضع به إن شاء الله.

وقال عز من قائل: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص:٣٤] لا يقال في حقيقة حق الخطاب في الشيطان أنه جسد، إنما يصفه بذلك من لا يعقل حق الخطاب، ولا وقف منه على سر المراد.

قال الله ﷻ، وذكر أنه لم يرسل إلى أهل الأرض رسولاً إلا من البشر لا ملكًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

ثم قال جل وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨] فأعلم العليم الحكيم بالحق ﷻ أن ما يقال له: جسدًا، إنه لا يأكل الطعام، وإنه خالد؛ يعني: إلى يوم الدين، والجن الذين هم الشياطين يأكلون الطعام، ويشربون وينكحون، ولهم أزواج وأولاد، ليسوا بخالدين إلى يوم الدين، غير إبليس لعنه الله.

وقال الله جل قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص:٣٤] لو كان شيطانًا لما وصف الله نفسه بأنه ألقاه، ولتنزه جل وتعالى عن ذلك، ولما كان من إلقاء الله ﷻ كان ملكًا بحكم من أمر الله، ويستن بسنن سليمان، عليهما السلام.

كذلك قالوا أيضًا فيه لقول الله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

ثم ذكر من أوبته وسرعة توبته، ثم ﴿عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:٣١-٣٢] قالوا: إنه قطع أعناقها وسوقها، وليس كذلك.

قال الله ﷻ وذكر سليمان وداود - عليهما السلام - وداود وذي الكفل، وعمَّ جميع الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - ثم ذكر جلَّ ذكره إخوانهم وآبائهم وذرياتهم ومن اجتباه الله، وهداه إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] وكان رسول الله ﷺ في غزوة الخندق وقد شغله أهل الأحزاب بالقتال عن صلاة العصر، فلم يذكرها نسيانًا لها وشغلاً عنها بما كان فيه المسلمون معه ﷺ، ولما تحاجز القوم بعد مغيب الشمس ذكر عمر ﷺ فقال: والله يا رسول الله إني لم أصلِّ العصر، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا ما صليتها بعد، شغلونا عن الصلاة

الوسطى ملأ الله قبورهم - أو قال: «قلوبهم» - نارًا»[١] ثم قام ﷺ فصلى بهم العصر ثم صلى المغرب، وبقي على نية جهاد عدوه إلى أن فرغ.

وإنما فعل ذلك اقتداء بسليمان ﷺ كما أمره الله، وعرض الله عليه خيل الله المعدة لأعدائه، فشغله ذلك نسيانًا كالبشر، ولما ذكر قال: ﴿**إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [ص:٣٢] كالذي اعترى لمحمد - عليهما السلام - فالخير هنا عبارة عن العمل الصالح.

قال الله عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الحج:٧٧].

وقال: ﴿**يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ [المؤمنون:٦١] لكن كل الخيرات، فذكر الله أكبر منها، فقال ﷺ لما تذَّكر الصلاة: ﴿**إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ**﴾ [ص:٣٢] أي: العمل الصالح؛ أي: شغلني عما هو أفضل فصلاها، ثم قال: ﴿**رُدُّوهَا عَلَيَّ**﴾ [ص:٣٣] أي: ردوا ما بقي منها للعرض، أو ردوا أواخرها على أوائلها.

وتفرغ لذلك الخير ومباشرته بنفسه، فمسح بيده أو بثوبه على أعرافها وأعناقها وأواخرها، ففي هذا من الفقه أن يبدأ العبد بما هو أوجب عليه، وبما هو الأفضل فالأفضل، ويتفرغ من ذلك إلى فعل الخيرات، وتلك الخيل خيل الله وخيل المسلمين وعدة للإسلام، ولا ذنب لها تعاقب عليه، إنما كان يكون الذنب عليه لو تعمد إفاتتها؛ أعني: الصلاة، فلم يتعمد ذلك، بل نسيها فلا ذنب عليه ولا عليها، فقتل الخيل على هذا من العبث، والحمد لله رب العالمين.

وقد رُئي محمد رسول الله ﷺ وهو يمسح بثوبه وجه فرس وعنقه، فقيل له في ذلك فقال: «**إني عوتبت الليلة على الخيل**»[٢].

وهذا منه ﷺ جريًا منه على ذلك السنن، وإنما الذميم من الفعل لو ترك ما كان عليه من فعل الخير وأهلكها، يدل على ذلك قصة يونس ﷺ لما لم يتيسر له من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٧٣) ومسلم (٦٢٧) وأبو داود (٤٠٩) والترمذي (٥ ٢٩٨٤) والنسائى فى الكبرى (٣٥٨) وابن ماجة (٦٨٤) وابن أبي شيبة (٨٥٩٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٠٠٧).

عمل كلفه ربه بما يرضى ترك عمله، وفرَّ إلى الفلك المشحون فركبه نادًّا على وجهه، فحبسه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في بطن الحوت وسماه: آبقًا ومليمًا.

وقال رسول الله ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ...﴾ [القلم:٤٨] إلى آخر القصة.

وإنما عزم أولو العزم ألا يتركوا عملاً لعمل، ولا يبطلوا أعمالهم، لا سيما إذا كان ذلك مما يُعزى إلى أنه فعل الشيطان، ونسيان الصلاة من فعل الشيطان، أفيترك طاعة ربه لأن أنساه طاعة واحدة هذا من عون الشيطان على عمله، واعتبر ذلك بإصلاح الصلاة وسجود السهو لترغيم الشيطان.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا وقعت لقمة أحدكم من يده فليأخذها، وليمط عنها ما كان بها من قذى، وليسمِ الله تبارك وتعالى ثم ليأكلها، ولا يتركها للشيطان**»[1].

وقال ﷺ: «**إذا عثرت دابة أحدكم به فليقل: بسم الله - أو قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» - ولا يقل: تعس الشيطان فإنه ينتفخ لها**»[2] فهذه سبيل الله ﷻ وسبل أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم أجمعين.

قوله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ﴾[3] [البقرة:١٠٢].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٤٦).

(٢) أخرجه النسائى فى الكبرى (١٠٣٨٩)، وأبو يعلى فى المعجم (٧١)، والطبراني (٥١٦)، وقال الهيثمى (١٠/١٣٢): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمران وهو ثقة. والحاكم (٧٧٩٣)، والضياء (١٤١٢) وقال: إسناده صحيح. وأخرجه أيضًا: أبو داود (٤٩٨٢)، وابن أبي عاصم فى الآحاد والمثاني (١٠٦٨).

(٣) في هاروت وماروت قولان: أحدهما: إن سحرة اليهود زعموا أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، وهما رجلان ببابل. والثاني: إن هاروت وماروت مَلَكان أَهْبَطَهُما الله ﷻ إلى الأرض، وسبب ذلك: إن الله تعالى لما أطلع الملائكة على معاصي بني آدم عجبوا من معصيتهم له مع كثرة أَنْعُمِهِ عليهم، فقال الله تعالى لهم: أما أنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم، فقالوا: سبحانك ما ينبغي لنا، فأمرهم الله أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت فأُهْبِطَا إلى الأرض وأحل لهما كل شيء، =

وقرأ ابن عباس وعبد الرحمن، رحمة الله عليهما: «الملكِين» بكسر اللام، المعنى: ملكين من ملوك الدنيا، تقدير الآية: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ وعلى ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت.

وقرأ الزهري: «هاروت وماروت» بالرفع؛ أي: هما، وقد شهد الله ﷻ لهما أن الذي كانا يعلمانه هو ما أنزله عليهما، وما أنزل الله ﷻ فلا خلاف في صحة هدايته، وأنه الهدى والحق والخير ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى﴾ [البقرة:١٢٠].

وما أنزل الله على أحد وحيًا إلا معناه: التوحيد، وتصحيح النبوة والأمر بالطاعة والعبادة له وحده بقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢] فعمَّ ولم يخص بشرًا من غيره، إلا يوحى ﴿إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وكان الغالب على ما أنزل عليهما ما هو من سبيل علم الأسماء وما تقتضيه، وما يكون دواء من السحر، وعلى الأقرب فالأقرب من معانيها وخاصة كل اسم منها في منافعه، وفي مرافقه ومواضعه من الموجودات أبقى من ذلك فيما أنزل علينا الأدعية والمعوذات، وما هو سبيل القرآن العظيم.

ثم ما عبر عنه قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨] وهذا ما بقي من ذلك فيما أنزل علينا إلى ما يكون من التمييز بين لمة الملك ولمة العدو - لعنه الله - ثم تمييز الأخلاق المرضية من غيرها، كالرضا والشكر والخوف والرجاء والخشوع

على ألا يُشْرِكا بالله شيئًا ولا يسرقا ولا يزنيا ولا يشربا الخمر، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فعرضت لهما امرأة وكانا يحكمان بين الناس تُخَاصِمُ زوجها فوقعت في أنفسهما، فطلباها فامتنعت عليهما إلا أن يعبدا صنمًا ويشربا الخمر، فشربا الخمر وعبدا الصنم وواقعاها، وقتلا سابلاً مرَّ بهما خافا أن يشهر أمرهما، وعلّماها الكلام الذي إذا تكلم به المتكلم عرج إلى السماء، فتكلمت وعرجت ثم نسيت ما إذا تكلمت به نزلت فمسخت كوكبًا، قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي هبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه، فتعجب الملائكة من ذلك، ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصعود إلى السماء فكانا يعلّمان السحر. [النكت والعيون (١/٧٨)].

والخضوع، وجميع أخلاق الإيمان.

والفرق بين هذه الأخلاق والأخلاق المردية كالرياء والعجب والكبر، وأخلاق الكفر وما ينبعث عليه العدو، ثم ما يكون عند الولاية والحب والود لله وفي الله، وفيما يحبه ويرضاه، ثم معرفة ما يتحصل ذلك من أعمال وأقوال طيبة، وأسماء الله جلَّ ذكره، وتميز ذلك من ضده، ومواقع هذا وهذا ومنافعه ومضاره، يرشده إلى غير ذلك مما الله به أعلم.

وهذا كان العلم الذي قد خصَّ به رسول الله ﷺ حذيفة ؓ من آفات الأعمال وخدائع النفوس، وكان ما أعلم به ﷺ هو ما يكون على سبيل البشارة بفضائلها، وما سمى الله ﷻ به الملكين - عليهما السلام - يعبر عما جاء به من ذلك، ويعلم أنهما من عند الله، وأن ما أنزل عليهما هو من عند الله، وأن أحدهما في مرتبتهما معًا كالحافظين: صاحب اليمين وصاحب الشمال، وكلاهما من عند الله ﷻ ومن رسله وملائكته: ﴿لَّا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] فافهم، وسل الله من فضله.

وكذلك ما يكون من التحذير عن العداوة، وتحقيق إكراه في الله، ولأجل ذلك كانت الفتنة تسرع إلى من كان ينتحله بأقل زيغ، فيدافع الكفر والمكروه بأيسر إيجاد، على قدر العلو في الرفعة تكون الرَّجبة في الوقعة، فكانا - عليهما السلام - لأجل ذلك يقولان للمتعلمين منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: لا تزغ ولا تعدل عن الطريق فيعدل بك.

وكان لا مرية في ذلك من آمن منهم واتقى الله علم رفيع العلم، ونال ذروة شرفه ونجا من الفتنة، ووصف الله ﷻ المتعلمين منهم على السبل المذمومة، أنهم إنما كانوا يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه بدل الذي يوجب الألفة وكرم الوداد في الله، ثم ما تبع ذلك لا محالة مما يضاد ما تقدم ذكره، ويضيفون إلى ذلك السحر، فإنه يقرب مما هذه سبيله بالمقابلة التي تعبر بها عن التضاد.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢] فكان الذي اتبعته الشياطين ما أنزل على هذين الملكين - عليهما السلام - من الهدى ضلالاً يؤخذ من معالم هي كفر وعناد وتعبد لغير الله بوظائف عبادات يتقربون بها إلى

روحانية كواكب زعموا أن عندها مرغوبهم من صيام وذكر لأولئك، عبَّر عن جملة ذلك قوله جل من قائل: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ يعني: يهود فيما أنزل عليهم أنه ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي: من حظ عند الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: ما أنزل إليهم في كتابهم هي كفر وعناد، وتعبد لغير الله ﷻ.

عبَّر الله ﷻ عن بعض ذلك بقوله جل قوله: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وهذا هو، وقبيله هو ﴿يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣] المعنى: لو أنهم آمنوا بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلهم واتقوا ولم يلحدوا في أسماء الله ﷻ ولا ألحدوا بها، فاستعملوا أنفسهم بما اقتضته الأسماء على سنة الرسول المرسل إليهم بذلك ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

يشير - وهو أعلم ﷻ - إلى ما في الكتاب من ثواب المتوكل على الله، المفوض إليه العالم به، العامل بطاعة إن ذلك كان يفضي بهم إلى الولاية العليا، فيُجري على أيديهم أنواع الكرامات، ويظهر لهم من غيابات قدرته من تعجيل شفاء الأسقام، وإجابة الدعوات وقضاء الحاجات، وتفريج الكرب وتيسير العسير، وتقريب البعيد إلى غير ذلك مما هذا سبيله، ومن آمن واتقى يجعل الله له المخرج من أمره وييسر له شأنه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا

سَبِيلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [البقرة:١٠٤-١٠٨].

ثم أخذ ﷻ في توصية المؤمنين ونصيحتهم بأحسن المأخذ وأكرم المخاطبة، فقال جل قوله يعلمهم بمراد عدوهم فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: اليهود خاصة، ثم من غيرهم عامة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٠٤].

كانوا يقولون: راعنا يا محمد؛ أي: أرعنا سمعك وبصرك، وهم يلحدون بذلك من قولهم إلى ما يضاد التوقير والتعزير من السب، فنهى الله جل ثناؤه المؤمنين أن يقولوا ذلك لما في ذلك من الإيهام.

ثم أعلمهم عزَّ جلاله بمراد عدوهم بقوله عز قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلَا المُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] وقد اختصكم على العالمين بدين الإسلام ورسوله ﷺ وبالقرآن العظيم والآيات والذكر الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[١] [البقرة:١٠٦] هذا كلام منتظم بما قبله من ذكر يهود، وبخاصة ذكر المنزَّل على الملكين - عليهما السلام - من علم وهداية ونور وآيات، وعلى ما هي عليه دلالات نيرات، ثم جميع الكتب والصحف المنزلة عليه بقول الله جل قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ﴾ بنونين وكسر السين وتشديدها.

وفي أخرى: «أو ننساها» بألف، وفي أخرى: «أو ننسها» وفي أخرى: «أو ننسك»، وفي أخرى: «ما ننسك من آية أو ننسخها» وهذه كلمة بمعنى: النسيان، وكلها قراءة خارجة عن القراءة الصائبة، وهي ما كان بمعنى النسيء والنسء الذي هو التأخير.

---

(١) سبب نزولها فيما ذكروا: أن اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجه إلى الكعبة، وطعنوا في الإسلام قالوا: إن محمدًا يأمر أصحابه بأمر اليوم، وينهاهم عنه غدًا، ويقول اليوم قولاً، ويرجع عنه غدًا، ما هذا القرآن إلا من عند محمد، وأنه يناقض بعضه بعضًا، فنزلت. [البحر المحيط (٤٤٥/١)].

وقرأ عبيد بن عبيد وأبو عمرو ابن العلاء ومجاهد وعطاء وغيرهم: «**ما ننسخ من آية**» أي: من اللوح المحفوظ «**ونؤخرها**» يقول: نؤخر نسخها «**نأت بخير منها**» أي: في التخفيف أو في الإجزال من الثواب «**أو بمثلها**» من اللوح المحفوظ فلم ننسخها لك؛ أي: لم ننزلها عليك نأتِ بخير منها أو مثلها[1].

حكى ذلك عنهم القاسم بن سلام - رحمه الله - وعلى هذا التأويل، فالقرآن كله منسوخ؛ أي: منقول من أم الكتاب؛ أي: من اللوح المحفوظ إملاءً؛ إذ كل كائن فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، وتنزله على رسول الله ﷺ كائن، وهو أيضًا من علم الله جل ثناؤه.

وقال جل قوله للقلم: «**اكتب علمي في خلقي**»[2] وليس المطلوب هذا.

وأما قولهم في قوله عز قوله: ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾[البقرة:١٠٦] أي: مكان المنسأة المؤخرة إن كان مرادهم أنه نأتِ بمثلها أو خير منها من اللوح المحفوظ، فليس أيضًا في هذا من الفائدة إلا إنه أنزله نجومًا، وإن كان معنى ذلك: إنه ينزله ﷻ من غير اللوح المحفوظ، وحاشا لهم من القول بذلك، هم المرفعون عن هذه الظنة.

قال الله جل من قائل: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾ [يس:١٢] وقال ﷻ في القرآن: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الزخرف:٤].

فصل

النسخ: إزالة الشرع المتقدم بشرع متأخر عنه على وجه لولاه لكان ثابتًا هذا حد وجوده، وإن كان قد يقال للنقل: نسخ.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجاثية:٢٩] لكنه تأويل لا وجه له ولا فائدة في هذا المطلب.

انتظم هذا الخطاب بالمجاورة بنسخ بعض ما أنزل على الملكين عليهما السلام، تقدير الكلام: ما ننسخ من الذي أنزلناه على الملكين، أو من التوراة

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٤٥٦/١)، وتفسير البحر المحيط (٤٤٨/١)، وفتح القدير (١٥٩/١).

(٢) تقدم تخريجه.

والإنجيل، أو من جميع الكتب قبله من أن نوجب حكمهما من ذلك اليوم، أو ننسأها نؤخر حكمها إلى أجل ما، كفعله في آيات القتال والانتصار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنسأها أول بدأة الإسلام إلى أن عز أهله وكثروا، وأظهره الله ﷻ، ثم هو يعيد ذلك الحكم الأول حين يعود الإسلام غريبًا كما بدأ، ثم يعيد الحكم الثاني وهو الانتصار في آخر الزمان إن شاء الله.

يقول الله جل قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ [البقرة:١٠٦] بخير من المهادنة، وهو القتال والانتصار أو مثلها من المهادنة.

قال الله ﷻ وذكر الجهاد وأمر بالنفير إلى عدو المسلمين خفافًا وثقالاً: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١] ثم المهادنة كالمهادنة، ألا تسمعه جل قوله يقول: ﴿نَأْتِ﴾ لفظ مستقبل بشرط لمشروط متقدم، ولذلك أعقب ﷻ القول بالتمدح والتمجيد، فقال جل قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦] يشير إلى النص خاصة، ثم إلى ما يتناوله العموم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧] وهذا إشارة إلى وعيد، وإشارة إلى ذنوب يكون التخلي عن نصرتهم لأجل ذلك.

ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٧].

فصل

وأما تأويل القراءة من هنا بمعنى: النسيان؛ فإن الله جلَّ ذكره يقول وقوله الحق: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى:٦-٧] فأخبر نصًا أنه لا ينسى، واستثنى معنى ما وجب على من لقن البحث عن حقيقة المراد.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وكما يُحفظ من الشياطين وشوائب النفوس كذلك يحفظه ﷻ من النسيان، وقد ضمن له ﷻ جمعه في صدره وقراءته، وهو المقدار الذي يتأوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ [الأعلى:٦] أي: المقروء ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى:٧] هو السنة، فإنه ﷺ قد قرأ؛ أي: جمع الحكمة من قلب الملك عليه السلام وصدره، ثم من لطيف بره وتدبيره له أن جعل تلك بذرة هيَّأها لينبتها إلى نهايتها، وطرق إليها النسخ والنسيان.

ألا ترى أنه لم يقل جل قوله: «ما ننسخ من القرآن من آية» وإنما قال: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ**﴾ وكلها آياته ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا**﴾ أي: من القرآن، أو مثلها من السنة ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة:١٠٦] من الوحي.

ويمكن أن يكون ما ينسيها حكم الآية كالمجمل ليس من شرطه أن يقرن بيانه بوقت نزوله قبل وقت الحاجة إلى امتثاله، أو يرد عليه من القرآن ما لم يعلم المراد به، والنسيان يقع على زوال الذكر، وزوال الذكر قد يقع بالذهول والغفلة ﴿**فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر:١٩] أي: أغفلهم وأذهلهم عن النظر والأخذ بالوثيقة في النجاة لها، ويقع زائدًا على ذلك بالترك ﴿**الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾ [الجاثية:٣٤] ولأن يوجه الخطاب إلى معنيين أولى من أن يوجه إلى معنى واحد، لا سيما وهو يحتمل معنيين.

قوله ﷻ: ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة:١٠٦] وليس إلا الكتاب والسنة، وقد نسخ القرآن الكتب قبله إلا ما شاء الله مما شاء إقراره وإمضاءه، ولم يأتِ أن القرآن ناسخ ينسخه إلا قول قائل لا يرجع إلى أصل وثيق، وقد نسخت السنة السنة، والنسخ يتناول الكتاب قبله من التوراة والإنجيل والسنة كنسخه: «**وإنما الماء من الماء**»[١] بقوله: «**إذا التقى الختنان وجب الغسل**»[٢] ونسخه: «**الوضوء مما مسته النار**»[٣] ونحو ذلك.

وما ورد في القرآن العزيز من ناسخ ومنسوخ فمعلوم، وهو قليل قد يسر الله جلَّ ذكره ناسخه عند منسوخه، كنسخه الصدقة عند مناجاة الرسول بالآية التي أعقبها بها، وهي لمن نظر بحقيقة النظر من المُنساء، كذلك نسخه ذبح إبراهيم ولده ﷺ متتابعًا غير متباعد، كذلك تحقيقه الثبوت من واحد لعشرة من الكفار، وعشرة لمائة منهم، وهو من المنساء أيضًا حكمه.

وكذلك ما ذكروه من إثبات اللاتي يأتين الفاحشة من النساء في البيوت،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٣)، وأبو داود (٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (أحمد (٦٦٧٠)، والترمذي (١٠٨)، وابن أبي شيبة (٩٥٦)، وابن ماجة (٦١١) وعلقه البخاري (٢٩١).

(٣) أخرجه أحمد (٥٠٥)، وابن ماجة (٢٢).

وقالوا: إنها منسوخة بما أنزله في صدر سورة النور، ليس بنسخ ولا إزالة الحكم، إنما هو بيان للسبيل الذي جعله الله لهن.

قال رسول الله ﷺ: «**خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**»[1] فكرر لما كان الحكم في محكومين الرجال والنساء والأبكار وغير الأبكار، وقد جعل الله لهن سبيلاً.

ثم جعل يبين السبيل بما هو الحديث، ومَن جعل الزانية والزاني في السجن حتى يتبين الحكم فيهما بالشهادة، أو حكم قد تعذر إنفاذه، وأمر لم يتبين وهو مرتاب فهو مصيب، ولو كان منسوخًا لم يجز على حال.

وهكذا يتخرج كل ما يدعى عليه النسخ من القرآن بالقرآن أو بالسنة إن كان بالسنة وذلك أبعد، إنما يكون ما يدعونه نسخ للقرآن بالسنة، فهو بيان لحكم القرآن، وإن كان المدعي عليه قرآنًا كان منسأ أو بيانًا لمجمل أو خطابًا قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصص من عموم أو حكم عام لخاص، أو مستثنى منه، أو لمداخلة معنى في معنى.

وأنواع الخطاب كثيرة، وإعلام نسخ ما تقدم من الكتاب قبله بحكمة بالغة لمنزل القرآن ﷻ في ذلك، وحجة قاهرة من القرآن، إنما هو مهيمن على غيره من الكتب، وهو في نفسه متصادق متعاضد.

وإن كان الكلام في نسخ القرآن بما أنزل على الملكين - عليهما السلام - فتقديره: ما ننسخ من آية مما أنزل عليهما نأت بخير منها؛ أي: أعظم مثوبة وأبعد من الفتنة، وأقرب إلى السلامة أو مثلها بما كان مما أنزل عليهما أكثر إلى الأسماء ما كان مثل ذلك في القرآن العظيم من ذكر الأسماء الحسنى والصفات العلا، كقوله جل قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى**﴾ [الرعد:٣١].

---

(١) أخرجه الشافعي (١/١٦٤)، وأحمد (٢٢٧١٨)، ومسلم (١٦٩٠)، وأبو داود (٤٤١٥)، والترمذي (١٤٣٤) وابن ماجة (٢٥٥٠)، وابن حبان (٤٤٢٥)، والنسائي في الكبرى (١١٠٩٣).

وقوله جل قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر:٢١] إلى آخر السورة.

فقد أُنزل من هذا الضرب في القرآن كثيرًا [بل هو عمود القرآن عظمًا، ونسخ سنة الواجب الذي كان يكون عنه لو شاء الله][1] عبر عنه قوله: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

وقوله ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقد كان رسول الله ﷺ يرقي بها المريض، ويعوذ بها ويتعوذ، وقد أشار إلى هذا الغرض بقوله الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ يعني: يهود والذين اتبعوا ما تلته الشياطين على ما أنزل على الملكين، وعلى ملك سليمان - عليهما السلام - و﴿آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٣].

يقول، والله أعلم بما ينزل: لأظهرنا لهم من الكرامات وإظهار المغيبات مثوبة لإيمانهم، وعلى تقواهم، لكنهم لا يعلمون، فالقرآن ينسخ ما شاء الله جلَّ ذكره نسخه من الكتب قبله، وينسخ الله ما يشاء نسخه من السنة، والسنة تنسخ بعض بعضًا، على هذا هو السنن المسنون والأصل المؤصل، إلا ما كان من ذلك نادرًا لا يقطع على وجوده، ولا ينكر فقده ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] جريًا على جواب الشرط، كذلك وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز.

قوله ﷻ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾[2] [البقرة:١٠٨] وكان مما سألوا نبيهم ﷺ أن يريهم الله جهرة أو يكلمهم، فنهاهم -

---

(١) في العبارة اضطراب لعدم وضوحها في الأصول.

(٢) اختلف في سبب نزول هذه الآية، فقيل عن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن أمية ورهط من قريش قالوا: يا محمد اجعل الصفا ذهبًا، ووسع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، ونؤمن لك. وقيل: تمنى اليهود وغيرهم من المشركين؛ فمن قائل: ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة، ومن قائل: ائتني بكتاب من السماء فيه: من رب العالمين إلى عبد الله بن أمية، إني قد أرسلت محمدًا إلى الناس. [تفسير البحر المحيط (٤٥١/١)].

أعني: المؤمنين - أن يقترحوا عليه بقرآن ينزله عليهم في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه، وهذا كلامه أو وحيه ﷻ.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾[البقرة:١٠٩-١١٣].

قوله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩] هذه نصيحة من الله جلَّ ذكره للمؤمنين، وإعلام لهم بقلة نصيحة أهل الكتاب في الله جلَّ ذكره؛ إذ الدين النصيحة لله وللرسول وللكتاب [....][1] وإنما هي منسأة، دل على ذلك قوله جل: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩] ثم صرف ﷻ الخطاب إلى أوله من ذكر أمانيهم وضلالتهم بالبرهان على صدق ما تمنوه، وما اعتمدوا عليه من كاذب ظنونهم بقوله عز قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

ثم ذكر تعالى تكذيب بعضهم بعضًا، وفي ذلك منهم تكذيب كل فريق لكتابه؛ إذ كتاب كل فريق منهم مصدق لما بين يديه ولما خلفه بقوله عز قوله: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيءٍ وَهُمْ

(١) ما بين [ ] غير واضح في هامش (ق) ومكشوط في (ف).

يَتْلُونَ الكِتَابَ﴾ أي: وفي كل كتاب تصديق كتاب صاحبه.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة:١١٣] يعني: العرب ومن لا كتاب له، فاستوى علمهم بكتابهم في هذا الوجه، يكفر من لا علم له ولا كتاب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾[البقرة:١١٤-١١٧].

ثم صرف ﷻ وجه الخطاب إلى الإخبار عن النصارى بقوله جل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ الله أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾[1] [البقرة:١١٤] يعني: النصارى، ومساجد ما هنالك هو بيت المقدس وما حوله من المساجد.

ويتوجه بهذا الخطاب أيضًا إلى قريش؛ لمنعهم الرسول ﷺ والمسلمين الحج والعمرة وعمارة بيت الله الحرام، والمؤمنون هم أولياؤه، ولهم طهره إبراهيم وإسماعيل - صلوات الله عليهما وسلامه - ولهم رفعا قواعده، ولهم بنوا بإذن ربهما، والمشركون نجس، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

وقوله جل قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ والله أعلم فرع لنسخ القرآن القبلة، والتوجه إلى بيت المقدس.

---

(١) في المانع مساجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه، أربعة أقاويل: أحدها: إنه بُخْتَ نصر وأصحابه من المجوس الذين خربوا بيت المقدس، وهذا قول قتادة. والثاني: إنهم النصارى الذين أعانوا بُخْتَ نَصّر على خرابه، وهذا قول السدي. والثالث: إنهم مشركو قريش منعوا رسول الله ﷺ من المسجد الحرام عام الحديبية، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد. والرابع: إنه عَامٌّ في كل مشرك، منع من كل مسجد. [النكت والعيون (٨٣/١)].

فصل

شرَّع الله لموسى - صلوات الله عليه وسلامه - التوجه إلى بيت المقدس في قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: مساجد ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: التي كتب الله لكم بالشام قبلة ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧] الذي يتبعون الرسول ﷺ على القبلة إلى البيت الحرام كما قال جل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣].

فلما بعث الله رسوله ﷺ صلى إلى بيت المقدس طوَّل مكثه بمكة والمدينة ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم أُمر بالتوجه إلى البيت الحرام، وكان توجهه إلى بيت المقدس استصحاب حال، كذلك أوحى الله ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

ثم ذكر ﷻ عظيم قولهم وشنيع افترائهم، وشهادة جميع الخليقة بالتوحيد، وصمودها قانتة له، وأن كل الموجودات علوًّا وسفلاً خلق له وعبيد مملوكون، فأنى يكون له من خلقه وعبيده ولد ﷻ؟! إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥] ينصرف أيضًا وجه الخطاب إلى الأميين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا

وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥)﴾[البقرة:١١٨-١٢٥].

قال عز قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ اليهود لما تجمعوا في الكفر تشابهت قلوبهم وتشابه اقتراحهم، إنما ينفع العلم والعقل مع الإيمان، كذلك إلى قوله عز قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

والآيات المبينات هو ما أودع الله ﷻ العالم كله من الشواهد، وملأه من الدلائل الدالة على الوحدانية، وأنه الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] وأنه لا كفو له، كيف وهو بديع على ألا شريك له ولا ولد؟ كيف وهو بديع السماوات والأرض أن يكون له ولد ولا كفو له؟ كيف يكون له ند أو شريك وولد والكل ملكه وعبده قانت لعظمته يسبح بحمده؟.

ثم أمره بالتولي والإعراض عنهم مع التبليغ إليهم، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

وأيأسه ﷻ من رجوعهم عما هم عليه والاستجابة له، فقال عز قوله: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾وأمره ﷻ بلزوم ما هو عليه من الإيمان بما جاءه والهدى والتبليغ عنه بقوله عز قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة:١٢٠] كقوله عز قوله: في غير هذا الموضع ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام:٧١].

ثم كشف ﷻ عن وجه الحق، ودل على السبيل المؤدي إليه بقوله عز قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ أي: قراءة ثم عملاً به ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثم عطف الكلام معرضًا بهم ومؤدبًا لسواهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: بهذا الكتاب ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١].

ثم صرف وجه الخطاب إلى اليهود والنصارى وكفار العرب، فذكرهم بأبيهم الأقرب، كما ذكرهم أولاً بأبيهم الأقصى، وكما ذكَّر اليهود والنصارى بنعمه عليهم، وتفضيله إياهم بوعظ وتخويفهم بأسه وعقابه، فذكرهم عهده إلى إبراهيم عليه السلام

وإمامته، وإنه لا ينال عهده الظالمون من عباده تعريضًا لهم بظلمهم، وقطعًا للرجاء منهم في وصلتهم مع الإقامة منهم على ما هم عليه، ومع ذلك يذكرهم بالأخوة وأخوة النسب، وأن إسماعيل وإبراهيم - صلى الله عليهما وسلم - ابتنيا البيت الحرام، يعرض لهم ﷻ بالرجوع إليه والتوجه نحوه، ويسد عليهم مكان الحسد للعرب، وإنهم وإن كانوا معهم بني أخوين وإنهم لأبٍ واحد ونسب سواء، وإنهما كانا مسلمين مؤمنين عليهما السلام[1].

وذكر ﷻ دعاهما لبنيهما بالإسلام، وتعليم المناسك والتوبة، وبأن يبعث الله ﴿رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤].

يقول الله تعالى: فها هو هذا دعوة إبراهيم وإسماعيل، وتوصية إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - صلى الله عليهم أجمعين - بهذه الملة السواء والطريق المثلى، هذا كله يحبب إليهم الدخول في الإسلام والاهتداء بهدايته والاحترام بحرمته، وإنه من رغب عن ملة إبراهيم عليه السلام منهم أو من غيرهم فقد سفه نفسه؛ إذ لا هدى إلا هدى الله، ولا دين غير دين الإسلام مقبولاً شهادة شهد بها جميعهم يوم توصية إبراهيم يعقوب وإسحاق - صلوات الله وسلامه على جميعهم - فأقروا بذلك وأشهدهم أنهم مسلمون.

يقول الله ﷻ لليهود والنصارى وكفار العرب: وها أنتم أولاً مخالفون لهم في شهادتهم وإقرارهم في قولهم للعرب: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ

(١) قرأ نافع ويعقوب ﴿لا تسأل﴾ على أنه نهي للرسول ﷺ عن السؤال عن حال أبويه، أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال، لهذه القراءة. قال الشيخ ولي الدين العراقي: لم أقف عليه في حديث؛ قال السيوطي: والذي يقطع به أن الآية في كفار أهل الكتاب كالآيات السابقة عليها والتالية لها، وقد قرّرت ذلك أتم تقرير في التأليف الذي سميته: «مسالك الحنفا في نجاة أبوي المصطفى» وانظر: (حاشية القونوي ١٨٨/٤) (تاريخ الطبري ٤٤٢/١).

ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ [البقرة:١٢٦-١٣٧].

يقول الله ﷻ وقوله الحق: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة:١٣٥] التزامًا للعهد الأول عهد الله، وعهد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، فقال جل قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله جل: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].

ثم ذكر أن الشهادة والعمل بمقتضاها هو الهدى، كقوله عز قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة:١٣٧] أي: في بعد عن الحق وضلال عن الهدى، وإسخاط الله جل ثناؤه ورسوله والمؤمنين، هذه شهادة الله تبارك وتعالى لدين الإسلام، وهو الكبير المتعال.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى

ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة:١٣٨-١٤١].

ثم قال جل قوله: ﴿صِبْغَةَ الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً﴾[(١)] [البقرة:١٣٨] نصب صبغة على الاختصاص للمدح، والصبغة هي الخلقة الأولية منه، فخلقته التي خلق عليها هي صبغته عليها جمعت مواد قوى خلقته، وعلى سببها رُكبت أركانه وإياها أريد بإيجاده.

ولما كانت اليهود تختن أبناءها داخل السبعة الأيام من مولد المولود منهم وتدهنهم بالدهن تعتقد في ذلك تهويده، والصبغة من لدن أخذ الميثاق علينا والإقرار منا له بالعبودية وله بالربوبية، ثم بثنا في خزائن السماوات والأرض ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣] هي ﴿صِبْغَةَ الله﴾ إيانا في دين الإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨].

وكانت النصارى تغمس أبناءها في ماء المعمودية داخل السبعة الأيام تنصرها، بذلك خاطبهم رب العزة ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالمعهود عندهم، يعلمهم في ذلك بأن ليست ملة الإسلام صبغة مخلوق، ولا صبغة محدث مربوب لا يملك دفع ضرر ولا تحويله، إنما هي: ﴿فِطْرَةَ الله﴾ جل ثناؤه وصبغته ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ﴾

(١) أي: هيئة صبغ الملك الأعلى التي هي حلية المسلم وفطرته، كما أن الصبغة حلية المصبوغ حالاً تقاضاها معنى الكلام، وعاب على النحاة كونهم لا يعرفون الحال إلا من الكلم المفردة، ولا يكادون يتفهمون الأحوال من جملة الكلام، وقال: الصبغة تطوير معاجل بسرعة وحيه، وقال: فلما كان هذا التلقين تلقينًا وحيًا سريع التصيير من حال الضلال المبين الذي كانت فيه العرب في جاهليتها إلى حال الهدى المبين الذي كانت فيه الأنبياء في هدايتها من غير مدة جعله تعالى صبغة، كما يصبغ الثوب في الوقت فيستحيل من لون إلى لون في مقابلة ما يصبغه أهل الكتاب بأتباعهم المتبعين لهم في أهوائهم في نحو الذي يسمونه الغِطاس. [نظم الدرر للبقاعي (١ /١٩٥)].

وجميع الموجودات ﴿عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم:٣٠] فمن أحسن من الله صبغة، وأي ملة على هذا أحسن من ملة الإسلام؛ لذلك يسجد له من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا، ويسبحه كل شيء ويقنت.

فمن ها هنا من أسلم لله وآمن به وبما يجب الإيمان به إذا توفي عرجت الملائكة - عليهم السلام - بروحه، فأحبه كل شيء كما يحب أولياء الله بعضهم بعضًا، وفتحت أبواب السماء لروحه سماء سماء حتى يصل إلى ربه ﷻ، ولعدم الإسلام في سواه لم يفتح لهم أبواب السماء ولا دخلوا الجنة؛ لأنه ليس في الوجود شيء تولاهم وأحبهم، والله ولي المؤمنين.

ومن ذلك ما هم عليه - أعني: النصارى - إذا حاولوا تغميس المنصر في ماء المعمودية يجمع إليه الحاضرون، وربما من بَعَد فيمسه كل واحد بيده اقتداء في أصل هدايتهم قبل بالموجودات في صبغة الله ﷻ؛ إذ يمسه الهواء والريح والسحاب والماء والأرض والنبات والأفلاك والكواكب والسماوات، فيوده كل شيء ويحبه كل شيء، فلذلك يفتح له أبواب السماوات ما كان مؤمنًا ووافى على الإيمان والإسلام، فإن هو تنصر أو تهود أو تمجس أو كفر بأي أنواع الكفر، كان يتبرأ منه كل شيء ويبغضه.

ثم قال عز من قائل: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ﴾ لهم يا محمد من أعلم بهم وبما كانوا عليه: ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾ وهل نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد ما تقدم ذكرهم، أم تكتمون شهادتكم في ذلك ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ﴾ [البقرة:١٤٠].

ولما بلغ من التبليغ الغاية واستوفى في النبيين النهاية قطع الجدال مفلجًا، وفصل بالحق غالبًا بقوله جل قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١] انظروا لأنفسكم وخذوا لها بالأوثق في النجاة من عذاب الله ربكم، فلستم بالمسؤولين عن أعمالهم، ولا هم بالمسؤولين عن أعمالكم، أفمن تكون هذه أعماله ومدرجته في سبيله يزعم أن الدار الآخرة خالصة له من دون الناس.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾[1] [البقرة:١٢٤]

«الابتلاء»: الاختبار.

والكلمة كل موجود على التراخي تتمه السنة، وآدم - صلوات الله وسلامه عليه - كلمة، وكذلك إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم وسلَّم - وكذلك كل ما تبعه ما هو منه، ولا يتم معنى وجوده إلا بذلك المتابع، وكل واحد من المكلفين أيضًا كلمة؛ إذ كتب له رزقه وأجله وعمله، فهو لا يتم إلا بتمام ذلك منه، ثم قد كُتب شقيًا أو سعيدًا ومكانه من الجنة والنار، وكل ما يصيبه في دار الخلود وهذا فليس له آخر ينتهي إليه تحصيلاً.

---

(١) في الكلمات التي ابتلاه الله ﷻ بها ثمانية أقاويل: أحدها: هي شرائع الإسلام، قال ابن عباس: ما ابتلى الله أحدًا بهن فقام بها كلها غير إبراهيم ابتلي بالإسلام فأتمه فكتب الله له البراءة، فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال: وهي ثلاثون سهمًا. والقول الثاني: إنها خصال من سُنَنِ الإسلام؛ خمس في الرأس وخمس في الجسد، فروى ابن عباس في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر البول والغائط بالماء. وهذا قول قتادة. والقول الثالث: إنها عشر خصال؛ ست في الإنسان وأربع في المشاعر، فالتي في الإنسان: حَلْقُ العانة، والختان، ونَتْفُ الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والغُسل يوم الجمعة. والتي في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. روى ذلك الحسن عن ابن عباس. والقول الرابع: إن الله تعالى قال لإبراهيم: إني مبتليك يا إبراهيم قال: تجعلني للناس إمامًا؟ قال: نعم، قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين، قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم، قال: وأمنًا؟ قال: نعم، قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال: نعم، قال: وأرنا مناسكنا وتب علينا؟ قال: نعم، قال: وتجعل هذا البلد آمناً؟ قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن؟ قال: نعم، فهذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم، وهذا قول مجاهد. والخامس: إنها مناسك الحج خاصة، وهذا قول قتادة. والقول السادس: إنها الخلال الست: الكواكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، التي ابتلي بهن فصبر عليهن، وهذا قول الحسن. والقول السابع: ما رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أمه قال: كان النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم لـمَ سمى الله إبراهيم خليله الذي وفَّى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: «سبحان الله حين تُمْسُونَ وحينَ تُصْبِحُونَ، وله الحمْدُ في السّماوَاتِ والأرْضِ وعَشِيًّا وحين تُظْهِرُونَ». والقول الثامن: ما رواه القاسم بن محمد، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا وَفَّى؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: وَفَّى عَمَلَ يَوْمٍ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي النَّهَارِ. [النكت والعيون (١/٩٠-٩١)].

قال الله ﷻ: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾** [لقمان:٢٧] وعلى هذا فإنه يقال أيضًا: للمأمور والمنهي عنه كلمات وكلمة لواحد ذلك كالصلاة والزكاة، ومعرفة الله جلَّ ذكره وكل ما يقع عليه اسم منهي عنه أو مأمور به؛ إذ ذلك كله مقدر في أم الكتاب، ومكتوب في الأولى لا يتم إلا بوجوده، ولا يتم وجوده إلا بوجود جزائه، وذلك غير متناهي الوجود لعدم وجود المتناهي في دار القرار، دل على صحة هذا قوله تعالى: **﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾** [الحديد:٣] فهو من حيث هو الأول هو دون أول، وهو لم يزل يعلم الوجود كله ظهرًا وبطنًا، ويشهده وينظر إليه ويسمعه ويحيط به من كل الوجوه.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية أمثال الذر، ثم قال: يا أهل اليمين، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال لهم: ألست بربكم، قالوا: بلى، قال: ثم مسح ظهره بيده الأخرى قال: وكلتا يديه يمين، فقال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى...**»[١].

قال الله سبحانه وله الحمد: **﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾** [الأعراف:١٧٢] أي: أخذ من ظهر كل ذي ذرية ذريته إلى آخر الأمر، وأشهد كل مأخوذ عليه نفسه علمًا وخبرًا[٢] ومع ذلك أشهدهم الوجود

---

(١) أخرجه الحكيم (٧٩/١)، والعقيلي (١٣٩/١، ترجمة ١٦٩ بشر بن نمير) وقال: ولا يتابع عليه، وأبو الشيخ في العظمة (٣٩) والطيالسي (١١٣٠) والطبراني (٧٩٤٣)، وفي الأوسط (٧٦٣٢)، قال الهيثمي (١٨٩/٧): فيه سالم ابن سالم وهو ضعيف وفي إسناد الكبير جعفر بن الزبير وهوضعيف.

(٢) قال المصنف: فكان آدم ﵇ نفسًا واحدة وكان في وجوده زوجه وجميع ذريته أحدًا ما لم يتوهم له ثانيًا، ولما أوجد الله ﷻ عنه زوجه وجميع ذريته فكان في نفسه واحدًا فصل عنه جميع ما سبقه العلم العلي في وجوده فكان ﵇ أولاً لما وجد عنه، ولم يكن في قوته وتحقيق وجوده أن يكون لكل ما كان عنه آخرًا إلا بحكم الانقراض والتمام، فذلك آخر له لما كان له أول كان له آخر، وكان ظاهرًا فيما أوجد عنه بحكم الوراثة والنسل والشبه والتصوير وغير ذلك، وكان باطنًا فيهم بما عبر عنه رسول الله ﷺ في قوله لعائشة - رضي الله عنها - وقد حاضت في حال سيرها إلى الحج: «إنما أنت امرأة من بنات آدم فانقضي رأسك وامتشطي وافعلي ما يفعله الحاج غير ألا تطوفي بالبيت» فألزمها ميراث =

على وجهه، وبذلك العلم الذي أشهدهم قالوا: «بلى» وهو العلم الذي يبلغه المؤمن البصير الطاهر في هذه الحياة الدنيا، ولو لم يكن هذا منه لهم لم يكن قولهم: «بلى» شهادة.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء**»[١].

وقال أيضًا: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»[٢] فهذه كلمات كلهن جامعات محيطات بما حوته.

وسئل ﷺ: أين كان ربنا يا رسول الله قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: «**في عماء، ما فوقه هواء ولا تحته هواء**»[٣] وهذا الوصف أيضًا له ألواح وكلمات كما لوصفه، وقد خلق الخلق ألواحًا وكلمات، ولكونه أولاً بلا أمد ألواح لا تتناهى أيضًا، وكلمات لا تنفذ، كذلك في أنفسها وبدأتها.

فصل

على هذا فالكلمات المبتلى إبراهيم - صلوات الله عليه وسلامه - بهن، والله أعلم هي ما ذكره في سورة النجم؛ إذ هو من لدن قوله عز من قائل: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [النجم:٣٦-٣٨] إلى قوله: ﴿**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى**﴾ [النجم:٥٣].

وما في معنى قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ [الأعلى: ١٤-١٥] إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾ [الأعلى:١٨-١٩].

=

الشبه بأمها حواء - عليها السلام- وقال: «فجحد آدم فجحدت ذريته وغوى آدم فغوت ذريته».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) والخطيب (٧٢١).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٣٣) وابن جرير في التفسير (١٢/٤) والطبراني (٤٦٨) وأبو الشيخ (٨٣) والطيالسي (١٠٩٣) والترمذي (٣١٠٩) وابن ماجة (١٨٢).

جميع ذلك ما وصف الله جل ثناؤه به خليله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١] إلى قوله جل قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

كما أن الذي ابتلي به محمد ﷺ وأمته كلمات، وهي من أمة إبراهيم عليه السلام من ذلك معنى ما ذكره في سورة التوبة في قوله ﷻ: ﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

كذلك ما ذكره جلَّ ذكره في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩].

كذلك قوله في سورة المعارج: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٢٣] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥].

وقوله في صدر سورة المؤمنين: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

وكذلك ما جاء من ذكر ذلك في سورة الأحزاب قوله: ﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] فمن عني بجميع ذلك فليلخص المكرر من غيره، ويحصل الخصال، فيجد في ذلك شفاء للغليل إن شاء الله.

وليعلم أن المكرر منه ما كرر إلا لمعنى قائم وفائدة زائدة، وليضف إلى ذلك قول رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة»[1] وما ذكره هنا مباني الإسلام الخمس و«شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة»[2] إلى ما ينضاف إلى معاني الأخلاق وكريم الفعال، والنصيحة لله وللرسول وللمؤمنين خاصة وعامة، ولينهض في جميع مسالك أعمال البر ومواطن الإيمان.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٠٤) وابن أبي شيبة (٢٠٤٦) ومسلم (٢٦١) وأبو داود (٥٣) والترمذي (٢٧٥٧) والنسائي (٥٠٤٠) وابن ماجة (٢٩٣) وإسحاق بن راهويه (٥٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٥٠) ومسلم (٣٥) وأبو داود (٤٦٧٦) والنسائي (٥٠٠٥) وابن ماجة (٥٧) وابن حبان (١٦٦).

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] [قال: «**أتدرون ما وفى؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**وفى عمل يومه أربع ركعات في النهار**»[(١)]].

وجاء عنه أيضًا والله أعلم في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال: كان يقول رسول الله ﷺ كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ...﴾ [الروم:١٧] الآيتين[(٢)] وهذا إيماء إلى أن الذي جاء به محمد ﷺ هو الذي جاء به إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - إلا ما خصَّه الوقت ونوازل الأسباب من هذا الإيماء.

قوله جل من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[(٣)] [النحل:١٢٣].

وقوله عز قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٧-٧٨] وإن تداخلت المذكورات وتكررت الخصال، فهي تلك وهن من ملة إبراهيم عليه السلام.

ولما أتمَّ إبراهيم ما ابتلاه ربه ﷻ كُتبت له براءة من التضييع والتفريط، فقال جل قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[(٤)] [النجم:٣٧].

---

(١) أخرجه الطبري (١٦/٢) وما بين [ ] مكشوط في (ق) وصُوب من (ف).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٦٢)، وابن جرير في التفسير (٥٢٨/١)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢٥٩/٤)، والطبراني (١٩٢/٢٠، رقم ٤٢٧)، قال الهيثمي (١١٧/١٠): فيه ضعفاء وثقوا. والديلمي (٤٧١).

(٣) قال القرطبي في «تفسيره»: ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان المكروهة إلى الحق دين إبراهيم، وهو في موضع نصب على الحال، قاله الزجاج؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم في هذه الحالة، وقال علي بن سليمان: هو منصوب على أعني، والحال خطأ لا يجوز جاءني غلام هند مسرعة، وسُمي إبراهيم حنيفًا؛ لأنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام، والحنف: الميل، ومنه رجل حنفاء، ورجل أحنف وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها، وقال قوم الحنف: الاستقامة، فسُمي دين إبراهيم حنيفًا لاستقامته، وسُمي المعوج الرجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما قيل للديغ: سليم، وللمهلكة: مفازة في قول أكثرهم.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير (١٩٨٩)، والحاكم في المستدرك (٢٧٥/٩).

كذلك قال في محمد ﷺ: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

وأنزل ﷻ عليه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات:٥٤].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

فصل

اختلف في قول الله جل قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤] على من يرجع الضمير في «أتمهن» أعلى الله جلَّ ذكره أم على إبراهيم عليه السلام؟ فقال قوم: هو راجع على الله جل ثناؤه، وتقدير الكلام: فأتمهن الله.

وقال الآخرون: هو راجع إلى إبراهيم عليه السلام.

والصواب: إن الضمير راجع إلى الله جل ثناؤه، وتوجه إلى إبراهيم عليه السلام وسياقه ورده إلى نظائره يعطي رجوعه إلى الله سبحانه وبحمده، هو الأول في كل شيء والآخر، والظاهر والباطن، فهو الفاعل على الحق بالإتمام فردًا تارة، وباستعمال إبراهيم عليه السلام أخرى.

وقوله جل قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] يعطي رجوعه إلى إبراهيم عليه السلام، ولعل تقديم المفعول على الفاعل في هذا الموضع في قوله ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة:١٢٤] والعادة الجارية يعطى تقديم الفاعل على المفعول بالذكر؛ ليكون ذلك إشارة إلى أن المفعول المجعول في موضع الفاعل هو فاعل أيضًا من وجه، فالله جلَّ ذكره أعلم باسمه المبتلي والمتمم والأول والآخر والظاهر والباطن.

وإبراهيم عليه السلام هو الفاعل بمعنى اسمه المبتلي، والعامل فيما ابتلي مما يرضى الله ربه بوجه، وبما هو الداعي في ذلك والعازم عليه، والله جل ثناؤه المتمم بالإجابة والمعونة والإذن، فهذا وجه التقديم للمفعول هنا على الفاعل.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الإمام هو المقتدى به، وهو المهدي الهادي؛ لأجل ذلك قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يقول: وتجعل أئمة من ذريتي،

فأقره الجليل ﷻ على ذلك، وشرط في نفس الذكر وحقيقة العهد أن ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] منهم، فكل من اتقى الله ودان بما يرضيه، وعلم وعمل كان إمامًا عند الله، ومن أوفى بعهده من الله، فليبشر المتقون.

وقد أثنى الله ﷻ على عباده فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] إلى قوله: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

فصل

وخصال الإمامة أيضًا كلمات في أنفسهن من ذلك قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فهذه كلمة تمامها في تمام ذريته، وذلك انقضاء أيام عيسى ابن مريم عليه السلام.

ومن ذلك أيضًا قوله ﷻ يبين معالم إمامته عليه السلام قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا﴾ بفتح الخاء ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] إتمامًا لكلماته التي جعلها الله ﷻ على لسانه في قوله عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وقوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:٣٧] يبين أنها من الله ﷻ.

قوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧] ومن قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] فإنه أمرٌ منه ﷻ بالائتمام به.

ومن تلك الكلمات قوله عز من قائل: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] يريد ﷻ هذه الأمة، والحمد لله رب العالمين.

ومنهن أيضًا قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يقول الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ

---

(١) قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعي إبراهيم، وهو معطوف على" جعلنا " أي جعلنا البيت مثابة واتخذوه مصلى. وقيل: هو معطوف على تقدير إذ، كأنه قال: وإذ جعلنا البيت مثابة وإذ اتخذوا، فعلى الاول الكلام جملة واحدة، وعلى الثاني جملتان. [تفسير القرطبي (١١١/٢)].

﴿قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

لم يقص ﷻ حرمة بيته وجلب رزقه إليه على المؤمنين، بل عمَّ ساكنيه برزقه، وفرق بينهم في المآب تصديقًا لكلمته التي أبقاها على لسانه ﵇: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ إلى قوله: ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

ومنهن قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾(١) [البقرة: ١٢٧] إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩] فهذه كلمات الله جلَّ ذكره ألقاهن على ألسنتهما - صلى الله عليهما وسلم - أتمهن الله بهما، ثم بالرسول ﵇ وبخصوص من هذه الأمة.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[البقرة:١٤٢-١٤٤].

قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] «السفهاء»: كفار العرب ومن قال بقولهم من أهل الكتابين وغيرهم من الأمم، والأظهر أن يكون السفهاء: أهل الكتاب؛ لنكولهم عن الرشد بعد العلم، ثم بآخره يلحق من سواهم، ومن يرغب عن ملة إبراهيم وابتغى غير الإسلام فقد سفه نفسه.

---

(١) أخرج الأزرقي عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: ذكر لنا أنه بناه من خمسة أجبل: من طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وحراء، وذكر لنا أن قواعده من حراء. [الدر المنثور (١/٢٥٨)].

فصل

قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1] [البقرة:١٤٣] عطف بالواو على ذكر إمامة إبراهيم ﵇ تذكيرًا لإجابة دعوتهما في ذريتهما قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨] الكاف في «لك» للتشبيه والمشبه به دعاء إبراهيم وإسماعيل حيث يقولون ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ....﴾ [البقرة:١٢٨] وقولهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ....﴾ [البقرة:١٢٩].

ونظم قوله جل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٣] بمعنى ما تقدم من قولهم: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] وذكرهم جل قوله في ذلك بنعمته عليهم بإرساله رسولاً إليهم، وتوجيههم إلى القبلة التي اختارها لهم، وصراطه المستقيم الذي هداهم إليه في أزله.

وأنه ما جعل القبلة إلى بيت المقدس بعد فرضه التوجه إلى البيت الحرام بقوله جل قوله لإبراهيم وإسماعيل، صلوات الله وسلامه عليهما: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] وهم هذه الأمة.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ [الحج:٢٧] المعنى: إلا ابتلاء منه واختبار التطهر عند التوجه إلى الكعبة وجود

---

(١) قال العلامة ابن عادل: قال الجوهري في «الصحاح»: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً، وهو الذي قاله: الأخفش، والخليل، وقطرب، فالقرآن والحديث والشعر يدلون على أن الوَسَط: خيار الشيء. وأما المعنى فمن وجوه. أحدها: أن الوسط حقيقة في البُعْد عن الطرفين، ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رذيلتان، فالمتوسّط في الأخلاق يكون بعيدًا عن الطرفين، فكان معتدلاً فاضلاً. وثانيها: إنما سمي العدل وسطًا؛ لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين. وثالثها: أن المراد بقوله: ﴿جُعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] طريقة المدح لهم؛ لأنه لا يجوز أن يذكر الله - تعالى - وصفًا ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهودًا له، ثم عطف على ذلك شهادة الرسول وذلك مدح، فثبت أن المراد بقوله: «وَسَطًا» ما يتعلّق بالمدح في باب الدين، ولا يجوز أن يمدح الله الشُّهود حال حكمه عليهم بكونهم شهودًا لا بكونهم عدولاً؛ فوجب أن يكون المراد من الوَسَط العدالة. ورابعها: أن الأوساط محمية بالأطراف، وحكمها مع الأطراف على حَدّ سواء، والأطراف يتسارع إليها الخَلَل والفساد، والوسط عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جِهَةٍ دون جهة. [تفسير اللباب لابن عادل (٢ /١٥٣)].

الخلاف ممن شاء الخلاف منه، وضلال من أراد ضلاله؛ إذ البيت الحرام أول متوجه وضع للناس.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: بيوتكم بالشام الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧] هذا الأمر بالبشرى لمحمد، وربما كان مع ذلك أيضًا أمرًا لموسى، معناه: وبشر المؤمنين بإنجاز وعدي بما كتبته لكم من الأرض المقدسة، وبشر المؤمنين بالقبلتين عند تحويل القبلة إلى أولها البيت الحرام، هذا على الخصوص وعلى العموم، وبشر المؤمنين بالقبلتين.

جعل الله جلَّ ذكره من لدنه على إمامة إبراهيم ﷺ وخصوصية البيت بالقبلة في الأولية آيات بينات؛ منهن: مقام إبراهيم، ومنهن: إنه من دخله كان آمنًا، ومنهن: إنه جعله مثابة للناس وأمنًا لهم، لا يزال أمن أهل الأرض ظاهرًا ما كان البيت بين أظهرهم يعظمونه ويهدون إليه ويقصدونه، فإذا خرب أتى الناس ما يوعدون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: من محنة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾[1] بالإسلام والإيمان، فأنزل السكينة في قلوبهم أولئك ما كان الله ليضيع إيمانهم؛ أي: بالوجهتين ويؤتهم أجرهم مرتين بإيمانهم بالوجهة الأولى، ثم بالآخرة ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] الذين آمنوا بالقبلتين يهديهم لما يرضيه، ثم يشكر لهم هدايتهم.

أتبع ذلك قوله الحق ﷻ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

---

(١) ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: معناه وإن التولية عن بيت المقدس إلى الكعبة والتحويل إليها لكبيرة، وهذا هو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. والثاني: إن الكبيرة هي القبلة بعينها التي كان رسول الله ﷺ يتوجه إليها من بيت المقدس قبل التحويل، وهذا قول أبي العالية الرياحي. والثالث: إن الكبيرة هي الصلاة التي كانوا صلَّوْهَا إلى القبلة الأولى، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد. [النكت والعيون (١/ ١٠٢)].

[البقرة:١٤٤] من هنا ظن من ظن أن هذا نسخ للقرآن، وإنما ينسخ هنا بالقرآن ما في كتاب التوراة.

قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس:٨٧] المعنى، بل هنا مثبت أوله في القرآن العزيز أن البيت هو أول بيت وضع للناس؛ يعني: قبلة، فهو إذًا من النسي في حق أهل الكتاب، وكان أهل الكتاب يعلمون ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤].

وقال جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤] ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٤٥-١٥٠]

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

ثم جعل ذلك من العلم الوكيد معرفته بقوله الحق: ﴿مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

لذلك قال عز من قائل: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٩] ثم صرف وجه الخطاب إلى أوله من ذكر القبلة.

قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] إلى قوله جل قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة:١٥٠] أي: أهل الكتاب ظلموا في تركهم التبليغ والنصيحة، فيما أنزل إليهم في الكتابين من نبوة محمد ﷺ وتركهم اتباعه، يبين ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطفًا بالواو وجرًّا بلام كي على نظيرها في قول الله ﷻ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الناس هنا: العرب؛ أي: إذا توجهتم نحو بيت أبيهم إبراهيم ومقصد حجهم لم يكن لهم عليكم حجة ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: الذين تحولتم عن قبلتهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ دونهم، وانتظم أيضًا قوله: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠].

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (١٥١) فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾[البقرة:١٥١-١٥٧].

لما تقدم من قوله عز قوله في دعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - ولأن إتمام النعمة هنا هو إتمام مناسكهم، فانتظم بذلك معنى: الدعاء والإجابة، يقول الله عز من قائل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ كذلك أتم عليكم نعمتي بإتمام شرائعي وتعليمي إياكم مناسككم.

ثم عطف ﷻ بالواو في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥١] أي: الهداية العلا التي هي متضمنة الاختصاص الأكبر، والنعمة التامة والعلم العلي وولاية المتقين، كما قال عز قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] أي: تبلغوا ذروة التقوى محل الصديقين والشهداء والصالحين.

ثم أوصل ذلك بقوله جل قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] أعلمهم ﷻ بهذا الخطاب جماع طريق الولاية، وتبيين الاختصاص والاستعمال والقرب، وأن هؤلاء هم المرادون والمنظور منهم، وأن من سواهم يعيش في ظلهم ويحفظ بفضل شفاعتهم.

لذلك قال رسول الله ﷺ: «**أي والله - قالها ثلاثًا - وإنهم لسبعون ألفًا وسبعمائة ألف**»[١] وإنما يتخلص إلى هذه المنزلة بعلي العلم وخالص الذكر الذي يكون عنه حقيقة الخضوع، وعظم المعرفة بالله جل ثناؤه.

قوله جل ثناؤه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] معنى ذلك: من شاء منكم إقامة الكتاب والنبوة والوفاء بالعهد ليصل مني إلى تمام النعمة عليه والتولي له، فليذكرني كثيرًا خالصًا على المداومة لذكري، واشتغال قلبه بي، وليشغل جوارحه بشكري، وليباعد كفري صغيره وكبيره، فإنه من كان كذلك ذكرته، وذكري له أكبر، وأشغله دائمًا بي، وأعصمه مما أكرهه حتى أكون بتوفيقي إياه وعوني «**سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»[٢].

هذا هو المطلوب المبتغى من العباد، وهو الذي وصَّى ﷻ بالمحافظة عليه والموافاة به، وعليه يستعان بالصبر والصلاة، كما وصَّى بني إسرائيل بقوله عز قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] الوفاء بالعهد تستحقوا بذلك الوفاء منه، وصَّى أيضًا هذه الأمة بذلك، فقال جل قوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٣] [البقرة:١٥٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٥)، ومسلم (٢١٩)، وأحمد (٢٢٨٩٠) بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قيل: سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا: سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، =

كذلك أيضًا وصَّى ﷻ من قبلنا، فقال عز من قائل: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ**﴾ [النساء:١٣١] وهو كثير لمن بحث عنه، وهو الدواء الأعظم والوزن الأعظم.

فصل في الذكر

فاعلم أيها الطالب - رضي الله عنا وعنك - رضوان الله الأكبر هو أصل العبادات كلها، وإنما شرعت الشرائع وفرضت الفرائض، وحض على النوافل وفرض الجهاد لإقامة الذكر وترتيبه ومراتبه.

قال الله ﷻ: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه:١٤] وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الأنفال:٤٥] أي: لعلكم تعقلون؛ أي: لعلكم تظفرون بنهاية البغية وإتمام النعمة.

وقال رسول الله ﷺ: «**الأعمال بالنيات، وإنما لامرئٍ ما نوى**»[(١)] والنية: خالص الذكر؛ لأنها ذكر القلب، وتوجيه العمل لله جلَّ ذكره مخلصًا، والنية: من انتويت، وهو اسم لحقيقة العبدانية الشيء حقيقه.

وقال الشاعر:

ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنَّه

وتتبع هذا يفضى إلى علي العلم ورفيع الذكر، رجع الكلام: فمعنى انتويت:

=

هزهم بهذا النداء المتضمن هذا الوصف الشريف، وهو الإيمان مجعولاً فعلاً ماضيًا في صلة الذين، دالاً على الثبوت والالتباس به في تقدّم زمانهم؛ ليكونوا أدعى لقبول ما يرد عليهم من الأمر والتكليف الشاق؛ لأن الصبر والصلاة هما ركنا الإسلام، فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة، وهو أمر قلبي والصلاة ثمرته، وهي من أشق التكاليف لتكررها، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيرًا، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة، وقد قيد بعضهم الصبر هنا بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض. [البحر المحيط (٨٦/٢)].

(١) أخرجه مالك فى رواية محمد بن الحسن (٩٨٣)، وأحمد (١٦٨)، والبخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، والترمذي (١٦٤٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والنسائى (٣٤٣٧)، وابن ماجة (٤٢٢٧).

افتعلت حقيقة الذكر من حقيقة ذاتي وقرارة نفسي.

والذكر ذكران كما تقدم من الكلام في التقوى والعلم وجميع معاني العبد، فذكر أدنى: وهو ذكر العموم من المؤمنين، وذكر أعلى: وهو خاص للمخصوص من عباد الله جلَّ ذكره، وهو الذكر الكبير، ثم جملة الذكر توجد في مَوطنين، ذكر عند الطاعة، وذكر عند المعصية.

فالأول: عنه تكون المحبة، ومنه منبعثها.

والثاني: تكون عنه الخشية، وهو ينبوعها.

قال الله عز من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] أي: جنة لغلبة هواه وكسر شهوته، وجنة لطاعة ربه، وقد جاء الوعد بالجزاء على الذكر مما هو خارج عن المعقول حتى ينحصر المعتقد فيه إلى التسليم لوعد الله جلَّ ذكره، وتصديق رسوله ﷺ، ثم ذكر ﷻ أكبر جزاء مما لا غاية له تنحصر ولا نهاية تبلغ.

يقول الله جلَّ ذكره: «**إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وأطيب**»[1] فذكر الله أكبر الأعمال على كل وجه، والله ﷻ ذاكر عبده ليذكره، فإذا ذكره العبد ذكره أيضًا بجزاء ما ذكره.

فصل

الذكر بما هو مقتضى حضور المذكور لا بد ولا محالة، فإذا كان المذكور من يغيبه البعد ويعدمه الفقد، ويمنعه الحجاب ويحده المكان، ويقيده المسافات ويجرى عليه أحكام المحدثين، فحضوره حال الذكر معنى لعينه، وحقيقه حق لوجود نفسه، يتأدى ذلك المعنى بما يتأدى به عينه مع الحضور، تلتبس تلك الحقيقة بما تلتبس به نفسه.

وكما تقدم من القول: إنه لكل حق حقيقة، ولكل عين معنى؛ لذلك كان الجزاء عليه أن يطعم المغتاب لحم المظلوم بالغيبة فيأكله الظالم، وكما لا يحضر العين موضع الغيبة قال الله جل من قائل: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ نصب

(١) تقدم تخريجه.

على حال من الأكل بعد الموت، وتجعل له الكراهة لذلك المأكول أضعاف ما كان يجده في الدنيا لو أكله جزاء يتلذذه بالغيبة؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢] أي: فإنكم في تلك الحال أشد كراهة.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ - والله أعلم - في الرجل يجد الطنين في أذنه يأمره بأن يقول: «اللهم اذكر بخير من ذكرني»[١].

ولهذا شواهد تزد على ما ذكرناه منع من اجتلابها خشية التطويل، فإنما يلقى الرشاد من وُقي العناد، وإن كان المذكور من لا يغيبه البعد ولا يجوز عليه وصفه العدم فيفقده، ولا يمنعه حجاب، ولا يحويه مكان، ولا يشتمل عليه زمان، ولا يجوز غيبته بوجه، ولا يتصف بحوالات المحدثين، ولا تجري عليه أحكام المخلوقين، فهو حاضر عينًا ومعنى، وشاهد سرًّا ونجوى؛ إذ هو القريب من كل شيء، أقرب إلى الذاكر له من نفسه من حيث الإيجاد له والعلم به، والمشيئة فيه والتدبير له، والقيام عليه والحضور كله بجميع وجوهه بحضوره ذكر الذاكر له، وهذا بعد اعتقاد نيات حضور الوجود واستحالة الغيبة والبعد.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

وكذلك قوله جل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:٧].

والنصوص على هذا كثيرة تُعلم بالحضور منه والمشاهدة، سبحانه وله الحمد، خلق الخليقة فلا تلحقه أوصافها، وأوجد الأعداد فلا تحصره معانيها، فهو في كل مكان ومع كل شيء بوصفه لا يعدو عليه خلقه، ولا يحيله عما لم يزل عليه عبده، ولا يكون هكذا غيره.

فصل

أنفع الأذكار ذكر القلب، ثم أنفع ذكر القلب ما آثاره خاص العلم وعَليّ

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٦٥).

المعرفة، وأفضل ذلك وأجزله عائدة ما نهى الذاكر عن الآثام والفواحش، ظاهر ذلك وباطنه وأعلاه ما بعث على طاعة المذكور، والعمل بما يرضيه، وأفضل ذلك ما صحبته مداومة المشاهدة ومراقبة الحضور بالتقوى، وذلك هو الذكر المرضي، وهو الذكر الفكر، وهو عليُه وخاصُه.

ثم أفضل ذكر المشاهدة والحضور ما لزمه الأنس بالمذكور، وآثار الشوق والتوق والحب، وإذا بلغ الذكر هذا المقام وصحبته هذه الأوصاف آثار الحب والتوق إلى المذكور ذاك؛ لأنه لا يعلمه أحد فيذكره بحضور من قلبه ومشاهدة إلا علم منه ما يوجب له الحب والتوق.

وبتحصيل هذا المقام يحصل في ضمنه الشكر، وانتفى الفكر لا محالة، وفي هذا يقول ﷻ: «**أنا جليس من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني**»[1].

ثم هو لحقيقة صدق قيله جليس من ذكره بجزاء مقامه على قدر إحسانه في ذكره، وهذا نص في وجود الله ﷻ عند ذكر الذاكر له؛ لجزاء الذكر وثواب العمل.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾ [النور:٣٩].

قوله جل من قائل: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٣] فالصبر لا يكون إلا بالمجاهدة، اقتضى ذكر الصبر معنى الجهاد، لفظ الجهاد مأخوذ من الجهد، فوصل القول به، وأخذ في الإخبار عمَّن باع من الله حياته الدنيا، وجاد له بنفسه وماله.

يقول الله جل قوله وهو أعلم: «استعينوا على الوفاء بعهدي بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين، ومن يكن الله معه فلن يُغلب ولن يُهزم».

ثم أعلم جل ثناؤه بخطاء من اعتقد في المقتول منهم أنه ميت، بل أخبر بقوله الصادق وحكم بحكمه الحق أنه عنده حي يرزق، ووصفهم بأنهم يفرحون ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وبما لهم عند الله من الكرامة، ويستبشرون بأنهم وجدوا ربًا رحيمًا مفضلاً منعمًا، وبأن وعده ﷻ صدق، وقوله حق، وهو نص على حياة الشهداء، وخصهم بالذكر ها هنا بمعنى الجهاد، وبأن

---

(١) تقدم تخريجه.

حياته رفيعة جدًّا هو أعلم ﷻ بصفتها ومبلغها.

فصل

ثم نظم قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[١] [البقرة:١٥٥] بما تقدم من ذكر الصبر ليوطِّنوا أنفسهم ويرضوها على الثبوت، وترك الجزع عند حلول المصائب، ومطالبة النفوس بأهوائها.

وفي مواطن اليأس قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ عبارة عن التقليل؛ أي: بالإضافة إلى جوع في الدار الآخرة وخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات، إعلام منه عز جلاله بجوع الأباعد وعطشهم وخوفهم يوم تشخص منهم الأبصار مهطعين ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] وإلى ما يصيبهم من ذلك في جهنم - أعاذنا الله منها - من خوف وآلام وعذاب، وإنهم قد خسروا أنفسهم وأهليهم.

وما كان قد أعد الله لهم في الجنة من ملك كبير لو أنهم ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:٢٥] فهذه فائدة قوله الصدق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ أي: ببعض من ذلك إلى جنب ما هنالك، يقول ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥] المعنى إلى آخره؛ لذلك كان عظم الثواب في الاسترجاع عند المصائب لمن عقله جمع ﷻ ذلك لهم في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

وأخبر أن الإيمان من أحسن العون على الصبر، وهو الإيمان بأن ما أخطأ العبد وأصابه فليس بأمر مؤتنف، بل لم يزل في علم الله السابق وتقديره القديم في

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ يعني: أهل مكة، لما تقدم من دعاء النبي ﷺ أن يجعلها عليهم سنين كسني يوسف حين قحطوا سبع سنين، فقال الله تعالى مجيبًا لدعاء نبيه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالجُوعِ﴾ الخوف يعني: الفزع في القتال، والجوع يعني المجاعة بالجدب. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ﴾ يحتمل وجهين: **أحدهما**: نقصها بالجوائح المتلفة. والثاني: زيادة النفقة في الجدب. ﴿وَالأَنفُسِ﴾ يعني: ونقص الأنفس بالقتل والموت. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ قلة النبات وارتفاع البركات. [النكت والعيون (١/١١٠)].

الكتاب المبين.

قال الله جل من قائل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

كما قال جل قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢].

فإذا استرجع العبد وقال كما أمره الله تعالى: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] فقد آمن بالله جلَّ ذكره وبالرجعة إليه، وأيقن بالمثوبة من عنده وبما هو قد عرض له أنه ينيلها إياه بكرمه وفضله ووفاء عهده، وأضاف إليه نعمه، وأقرَّ له بها، فأوجب له الصلاة من عنده والرحمة والهدى، وأوجب له أيضًا على نفسه مثال المثوبة سرًّا إلى علمه ويقينه لما كان السؤال تعريضًا به، وهو معنى منتظم بمعنى قوله ﷻ في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] كما جاء في الحديث.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧] قال: والصلاة من الله رحمة، وكل خير يكون منه ﷻ فهو رحمة، لكن من لحظ عبادته وتحقق في تحقيق البحث عن الحقيقة، وعبر عن المعنى ما يخصه كان أولى بحظ السباق.

ولو كان جمع ما كان منه إلى العبد من رحمة صلوة منه ما قال: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧].

وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

فبيَّن بما ذكرناه أن الرحمة عامة، ثم لصلاته خاصة من رحمته، ولم يذكر صلاته إلا ذكر الرحمة أو الرأفة أو كليهما عند ذلك، وهي - والله أعلم - ذكره عبده بما يريده منه من طاعة أو أمر مما يقربه منه مثل أن يذكر عبده المؤمن ليذكره العبد فيذكره هو ﷻ بمثوبة ذلك، وقد يذكره بمصيبة يصيبه بها، وفي ضمن ذكره بالصبر والتوفيق لما يرضيه ليطهره من سيئاته ويرفعه بذلك في درجاته وصلاته ﷻ

أنه يشفع ﷻ إلى نفسه بأن يخرج عبده من ضلال إلى هدى، ومن ظلمات إلى نور، ومما يكرهه إلى ما يرضاه.

هذا كله مما يعبر عنه، فإنه إخراج من الظلمات إلى النور، وصلاة الملائكة - عليهم السلام - على المؤمنين شفاعة عند ربهم ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ**﴾ [غافر:٧] إلى قوله ﷻ: ﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ**﴾ [غافر:٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يصلي فيقعد في مصلاه يذكر الله إلا صلت عليه الملائكة ما لم يحدث، ما لم يتكلم، يقولون: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**»[1].

وقال ﷺ: «**أخلصوا للميت بالدعاء، ما من مسلم يموت فيصلي عليه مائة من المسلمين** - وفي أخرى: «**أربعون**»[2] - **كلهم يشفعون له إلا شُفِّعوا فيه**»[3] والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ليس فوقه أحد ولا وراءه مرمى، فهو يشفع ﷻ لنفسه عند نفسه.

ثم قيّض له ﷻ ملائكته يشفعون عنده لمن في الأرض ولعباده المؤمنين تعبدهم ﷻ بذلك، وقيّض المؤمن وتعبده بأن يشفع لنفسه عند ربه ﷻ بأن يجيره من عذابه، وأن يدخله في رحمته، وأن يحله رضوانه، ويرغب إليه في مطلوباته من دنيا وأخرى، أقام ذلك مقام شفاعة الشافعين عنده لسواهم، كما قيض المؤمنين تعبدًا منه أن يشفع بعضهم لبعض، والكل منهم لكلهم ﴿**إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل:٧].

﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ**

---

(١) أخرجه مالك (٣٨٠)، والنسائي (٧٣٣)، وابن حبان (١٧٥٣) والطيالسي (٢٤١٥)، وأبو عوانة (١٣١٥)، والبيهقي (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٨٤)، والترمذي (١٠٢٩) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٩٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٠٩)، وأبو داود (٣١٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٤٩).

وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٥٨-١٦٣].

قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾[1] [البقرة:١٥٨] تقدم من خطابه الكريم ﷻ في ذكر الإسلام والاستسلام ومعاني الإيمان، ثم من ذكر الصلاة والتوجه إلى القبلة، ثم من ذكر الزكاة وذكر الله جل ثناؤه والجهاد والصبر، وكان وعدهم ﷻ بإتمام نعمته عليهم.

ومن ذلك أن يريهم مناسكهم، ويعرفهم شرائعهم التي يشرعون منها إلى طلب مرضاته، فقال عز من قائل إثر ذلك كله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ وعبّر عن الصفا والمروة والبدن بشعائر الله؛ لقرب ذلك من البيت الحرام، لما أضاف البيت إلى نفسه ﷻ كان ما قرب منه وأدنى إلى ذلك شعيرة، وشعار المرء أقرب أثوابه إليه، وكما قيل: الكعبة بيت الله، والحجر يمين الله في الأرض، والمحارم حمى الله، فافهم.

وما تقدم ذكره فهو منتظم بمعنى الهداية التي ذكرها في فاتحة الكتاب والصراط المستقيم، وذكر المناسك في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام.

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ....﴾ [البقرة:١٥٩] أرجع الخطاب إلى ما تقدم ذكره من كفر أهل الكتاب وكتمانهم الحق من بعد ما عرفوه، وعصيانهم الأمر بتبليغ ما تقدم إليهم به من ذلك توصية للمؤمنين، وموعظة أن يسلكوا سبيلهم أو يقتفوا آثارهم في ذلك، فيستحقوا من ذلك ما استحقوا من لعن وغضب وطبع، وعدم فهم كتاب

---

(١) سبب النزول: إن الأنصار كانوا يحجون لمناة، وكانت مناة خزفًا وحديدًا، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا، فأنزلت. [تفسير البحر المحيط (٢/ ٩٧)].

ربهم إليهم، المعنى إلى آخره.

ثم ذكر ﷻ غيرهم من الكافرين الذين ختم لهم بذلك وذكر ما لهم، ثم ذكر ﷻ توبة من تاب منهم؛ أعني: من هؤلاء وهؤلاء، وأن توبة من كان كفره بالله ﷻ وبرسله وكتبه الإيمان بما كان به كافرًا، ومن كان كفره إلباس الحق بالباطل، والكتمان بالتبيين لما كتمه، والجلاء لما ألبسه والإيضاح له، ثم الإصلاح لما أفسده.

ولما انتهى ﷻ بالإخبار عن هؤلاء وهؤلاء من الكافرين صرف وجه الخطاب إلى عباده المؤمنين مواجهًا تأنيسًا لهم وإكرامًا بقوله ﷻ: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:١٦٣] وصل خطابه الكريم هذا بمعنى ما جاوزه من قوله ﷻ: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢] وبما في الخطاب من التعريف بنفسه والإعلام بوحدانيته ورحمته ورحمانيته بمعنى ما في بدء من التنزيل من قوله ﷻ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ [العلق:١-٣] المعنى.

وبما في بدء التأليف من قوله جل قوله: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] المعنى أيضًا.

بما في دعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - من ذكر الإسلام والإيمان والنبوة والمحبة، وتعلم المناسك والكتاب والحكمة، كما قال جل قوله: ﴿**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:١٥١] ثم بقوله عز قوله: ﴿**اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢].

والذكر قد يكون بمعنى: طلب العلم، يُذكِّر عبده بذلك فيوفقه ويستعمله بمقتضاه، وطلب العلم من عليّ الأعمال وأقربها إلى الله ﷻ؛ لما في ذلك من التفكر والتذكر والاعتبار، وهو نوع من الذكر في الذكر، وهذا هو المعبر عنه بالقرآن العظيم؛ لذلك لما ذكرهم ﷻ بشهادة التوحيد، وإنه هو الرحمن الرحيم، ذكر على أثر ذلك الدلائل المؤدية إلى العلم بذلك، والشواهد المقتضية لليقين، فنظم البرهان المفروط، وأقام الشهادة للمشهود، فوضح الدليل واستبان السبيل.

قوله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ**

الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] هذا هو القرآن العظيم، مسالكه في العلم كله كسلوك الأرواح في الأجسام، وكجري الغذاء في المتغذي، وكسريان الماء في العود الناضر، ومعرفة أسمائه هو العلم أجمع، والعلم بوحدانيته هو البرهان الأكبر، والفهم عن آياته في الوجود هو اليقين فاعلمه، والعبرة من حاضره إلى غائبه هو الشأن كله.

بَشر عباده ﷻ إذا هم آمنوا به وأسلموا له أنفسهم، وشهدوا له شهادة الحق على علم منهم بما شهدوا به من ذلك، إنه الرحمن الرحيم فاشبه قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...﴾ [الأنعام:٥٤].

وقوله جل قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] ثم قال وقوله الحق: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] أي: يعقلون الغائب بالشاهد، وما بطن بما ظهر، والكثير بالقليل، والفاضل بالمفضول عبرة وعظة.

فصل

أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بما أعقب معنى الشهادة بما سرده بعدها، ووصله بها من معالم الدلالات وبينات الآيات أن أول الواجبات بعد شهادة اللسان استسلامًا، وشهادة الجنان إيقانًا النظر والاستدلال، فإن بالتفكر في مصنوعاته، والنظر في آياته، واستشهاد شواهده وبيناته يكون العلم واليقين كذلك.

قال ابن عباس ﷺ: معروف بالآيات منعوت بالعلامات، فالمعروف واحد، والمعرفة واحدة، غير أن لها أولاً مبتدأ وأعلى، ولا منتهى لها عند العارفين به؛ إذ المطلوب بالمعرفة لا نهاية تحده، ولا تبلغ كنهه، فنهج ﷻ للعباد طريق الهداية إلى معرفته، وأوضح سبل البينات بالدلالات عليه بأن أودع المخلوقات كلها، وألزم أنواع المبدعات بأسرها من ضروب التغاير.

وسمات النقص ودلالات الحدث، وضروب أوصاف الصفات، ومعاني أسماء المسميات وحقائق مقتضياتها، وبما أظهر من فعله فيها وأبدى من أثر صنعه عليها

ما زال بذلك عن بصائر المستبصرين الإشكال عن بيان انقيادها لجاعلها، وخضوعها لصانعها ﷻ الذي وسمها بالعجز والافتقار على ما قصرها عليه من تسخيرها بعضها لبعض واحتياج بعضها لبعض، بل كشف ﷻ عن وجه الحقيقة بأن صانعها قادر، عالم، مريد، حي، له الأسماء الحسنى والصفات العُلا.

ثم أمر ﷻ عباده باعتبارها وندبهم إلى تعرف تفصيلها لشهادتها مفصلة، والاستدلال بما ظهر من آياته فيها وما بطن، سبحانه وله الحمد.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦] ولقوم يعقلون ويتفكرون ويتذكرون ويعلمون ويوقنون، وجاء هذا كثير من القرآن العزيز مكررًا منوعًا.

أكثر ذلك بالتكثير للآيات، وفي ذلك البيان البيّن أن الشيء الدال بنفسه قد يكون باستقصاء التدبر وترداد التفكر دليلاً على شيء ما، وأنه على شيء آخر من طريق غيره على مطلوب آخر، هكذا فالزم التقصي في الاعتبار، فبذلك أمرت ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وفيما أعلمنا به ﷻ من ذلك بيان شافٍ أن للعلم المستفاد على تكرارها وكثير طرقها درجات للإيمان وللتقوى والعلم والعقل عن الله ﷻ، والسمع والبصر ونحو هذا.

فصل

أول درجات الإيمان لطالب هذه الدرجة الرفيعة: استشعار الإيمان والتقوى والحرص وصدق النية، ومدار ذلك: التزام حب الله جلَّ ذكره القلب حتى لا تجد

في طريقك هذه اسمًا حسنًا ولا صفة عليا ولا صدقًا في وعد، وقول حق إلا قد أحب بذلك له.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يجد أحد طعم الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**»[1].

وقال أيضًا صلوات الله وسلامه عليه: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا**»[2].

فإذا كنت أيها الطالب هكذا لم تجد شيئًا في الأرض ولا في السماء، ولا في الدنيا ولا في الآخرة إلا هو لله وبالله، ولا تجد اسمًا حسنًا ولا صفة عليَّة فائقة إلا هو للعلي الكبير استأثر بعلا ذلك ورفيعه، وجعل ما دون ذلك آيات دالات، فافهم.

فصل

أول درجات الإيمان على هذه السبيل: هي أن يعرف الله ﷻ بصفاته الكاملة ومدحه البالغة، وكريم أياديه وستره وبره ولطفه بخلقه، وما هو عليه من أسمائه وصفاته وما له من خلق وأمر وطريق يُعرف مجملاً من وجود الوحي الذي يعرف بإيمان حزم لا يخالجه شك ولا يعتقبه أدنى ريب، فالخاصة من أولياء الله جلَّ ذكره في أعلى هذه المعرفة وعموم المؤمنين في أولها، ثم هم منها من ذلك على درجات ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران:١٦٣] كذلك.

وأيضًا في كل درجة منها على درجاتهم بعد اجتماعهم في أولها الذي هو التصديق والعزم الذي هو اسم الإسلام، ودخلوا به في دين الإيمان، والشاهد على أدناها الإقرار بالألسن بتوحيد الله تعالى، وخلع الأنداد دونه، والتصديق بكتبه ورسله وفرضه فيه ونهيه.

كما الشاهد على أعلاها القيام بحق الله ﷻ، وإنكاره على جميع خلقه، وابتغاء

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٩٥٩)، وأحمد (١٢٠٢١)، والبخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤)، والنسائي فى الكبرى (١١٧١٨)، وابن ماجة (٤٠٣٣)، وابن حبان (٢٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١١١١٧)، ومسلم (١٨٨٤)، والنسائي (٣١٣١)، وابن حبان (٤٦١٢) وأبو عوانة (٧٣٥٨).

معاني الأخلاق، ومجانبة ما لا يقرب منها، فمن أراد النظر في السماء والأرض ليحقق إيمانه بموجدها ويتحقق برهانه بجاعلها ومرتبها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فليجمع فؤاده وليحضر قلبه، وليحل فكره فيما أظهر الله ﷻ في السماء من غريب الصنعة ولطيف الحكمة، فإنه يرى ما يبهر عقله ويحير لبه من سقف مرفوع لا كالسقوف المعهودة، وبناء لا كالأبنية المألوفة في عظم خلقه وسعة بسطه، وعلو بناء وارتفاع سمك مزين بأزين زينة عزيز لا تناله مطالب الطامعين، محفوظ بحراسة الرجوم عن مسترق السمع من الشياطين، محسن المنظر للناظرين بأحكم حكمة وأجمل وأجمع ترصيع وأكمل ترتيب، معلق في الهواء المرتفع، ممسك في لوح الجوّ أن تقع، ما وقعت قط عين أحد من الناظرين إليه على علائق تمسكه ولا دعائم تقله.

ثم سافر بطرفك في أبعاده، وأجل بصرك في أعماقه، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما بين الأرض والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام**»(١) وذكر مثل ذلك فيما بين سماء سماء إلى سبع سماوات، وذكر أن كثف كل سماء خمسمائة عام.

فانظر هل رث منه قط جانب، أو انهار منه طرف، أو حدث لشيء منه صدع مكشوف لعقول المعتبرين ما تعاوره على الدوام من ضروب التدبير، محجوبة عن ذلك عقول العاقلين، فاعجب لهذا كله، وقف على فصل منه بعقل وفهم.

ثم أعد النظر عند انحسار طرفك على بلوغ أمره، كيف لا يسقط مما هو فيه ويتدكدك بمن عليه مع عظم جرمه وامتداد سفر الناظر في عمقه؟ وكيف يمتسك مع هذا في الهواء اللطيف والمشاهدة تقضي والمعهود يعطي أن ريشة على خفتها لو طرحت فيه ما استقرت حتى تهوي سفلاً؟ فلولا أن صانعًا صنع هذا المصنع، وحكيمًا أتقن هذا المُبدَع، وحفيظًا يحفظه، وماسكًا يمسكه، وقادرًا اقتدر على ذلك، ومدبرًا أراده، ومنشئًا دبره، وقيومًا يقيمه، ومبدعًا أبدعه بقدرته ومشيئته، يمسكه في الهواء بأيده لانهد من قواعده وانهار من جوانبه.

ثم اعتبروا نظر لما سخره الخلاق العظيم فيما بينهما من أفلاك مسخرة بحمل

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١١).

الأمر بالشمس والقمر والنجوم على ترتيب مطرد، ونظام غير منخرم، كل يجري بما أوجده موجده ﷻ إلى أجل مؤجل، ومقدار من الأمر محصل جريًا وسطًا من غير [انبتات][1] في الطلب المسرع إلى عطب، يكون عن ذلك الليل والنهار، والإيلاج والغشيان، والصرود والحرور، والربيع والخريف، كل مرتب ترتيبًا محكمًا على أتم ما فيه المصلحة.

وقوام الأمر وأداء الشهادات من هذه البينات بالعلم الرصين والأمر الحكيم ينبئ بذلك أن هذه الدنيا نبذة من الآخرة، وقليل هذه الفانية من كثير من تلك الآجلة الباقية.

ثم القمر ينتقل في منازله ويحل كل ليلة في محل من محاله إلى ثمانية وعشرين يومًا من الشهر بعدد المنازل، ثم يستسر ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] فسلطان القمر بالليل وسلطان الشمس بالنهار شاهدا عدل لخالق الأرض والسماء ﷻ ربنا وتعالى، وإنهما آيتان مبينتان لنور الأنوار، ومقلب الليل والنهار الحق المبين.

وأما النظر في الأرض والاعتبار بها وما اتصل بها إلى معرفة خالقها، والإيمان بجاعلها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فإنك إذا نظرت إليها نظر معتبر، وجدتها جسمًا متكاثفًا، متداخلاً، متطابقًا، ذا طريق ملونة بيضًا وحمرًا وصفرًا وسودًا وغبرًا، مشدودة بالجبال الرواسي، لا تميد ميد السفينة بأهلها، فهي فراش لمن عليها يستقرون عليها، ويتقلبون فيها، ويمشون في مناكبها، ويعيشون بما يخرجه الله ﷻ لهم منها على ظهرها من زرع وثمر ولحم وشجر، فاعجب لذلك ففيه أعظم عجب، وتذكر ففيها أبلغ مدكر.

ثم اعتبر منها إلى معرفة خالقه ﷻ وتعرف من موجوداتها موجودات الآخرة، فـ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] وللحق، وتذكر بضروب ما حوته من الاختلاف في الألوان والحجارة والنبات والحيوان معرفة صفاته وأسمائه، ثم اعتبر منها إلى الدار الآخرة؛ فتذكر خير ما هنالك بما في هذه.

---

(١) هكذا في الأصل.

فصل

ثم اعجب كيف لا تنخسف هذه الأرض بمن عليها على عظم جرمها، وثقل ما تحمله على ظهرها، بل هي ساكنة لا تتحرك، وهادئة لا تتزعزع، منقادة تحمل ما حملته، خانعة للتخسير فيما سخرت، لا جرم أن لها خالقًا خلقها وممسكًا أمسكها، قادر، حكيم، كريم، حي، قيوم، مدبر، يعطي الجزيل ويسديه، ويدفع البلاء ويكفيه كالسفينة في لج البحر، لولا ماسكها لضلت، ولولا سوقها بالريح لركدت واستقرت، ولولا دفع الله ﷻ عنها لغرقت، فاعجب لذلك، ثم اعبر عنه إلى ما وراءه.

ثم انظر في قدرة صانعها ﷻ وعجيب لطف مؤلفها، كيف فجَّر عيونها وشقق أنهارها، وأطلع ثمارها وأنبت فيها ضروبًا بألوان ملونات ما بين أبيض ناصع وأحمر قانٍ وأخضر باقل وأصفر فاقع، ومازج ما بين هذه الرؤوس إلى غيرها من ألوان بديعة الأصباغ عجيبة الألوان ترود العين منها في منظر أنيق يمتع الطرف ويَسُر النفس، وقل من ذا الذي أحياها بعد موتها، وقلبها من حال همودها بالجدب إلى الاهتزاز والابتهاج والاخضرار؟.

ثم إلى هذه الأزاهير والنواوير، ثم إلى ثمرات مختلف ألوانها، كلا والكريم الجليل الحكيم ما أحياها إلا الحي الدائم الذي لا يموت، محيي الموتى ومميت الأحياء، ولا بعثها على إبداء ما أوجدها إلا باعث أهل الأرض والسماء بعدما يذيقهم الردى، ولا قلبها عن حالها في همودها وأقامها على أمرها إلا حي قيوم فعَّال لما يشاء، قدير مدبر، حكيم لطيف.

ألا تراه جلَّ ذكره كيف أخرج بقدرته المعجزة من عيدان مائلة ثمارًا مختلفة الألوان والطعوم والأرايح والمضار والمنافع، هي نابتة في قاع واحد ومسقية من ماء واحد، ليس في أعواد تلك الشجرة سبب ظاهر من مثالات تلك الثمرات؟ إن في ذلك لعبرة للمعتبرين وآيات للمتوسمين، ودلالات للمتفكرين على أن الآخرة غيب في شاهد الدنيا، وأن الحياة غيب في شاهد الموت، وأن الموت غيب في شاهد الحياة، وأن الغيب غيب في شاهد المشاهدات، فافهم.

كما أن النهار غيب في شاهد الليل، والليل غيب في شاهد النهار، وكما أن جميع الكائنات غيب في الماء، فالجنة غيب في شاهد السماوات والأرض، والنار غيب في شاهد الأرض وما تحتها ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢٢] فورب السماء والأرض أنه لحق مثلما أنتم تنطقون، فكما أن وجوه النطق منا حق واجب الوجود، فكذلك الحق الذي إليه المصير في مشهود ما نشاهده ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧].

فصل

قد كان فيما مضى من الاعتبار مقنع يصعد به المتذكر فيه والمعتبر به أن صدق الله في نظره، وكان ذا قلب شاهدًا إلى أرفع درجاته، لكنا ذهبنا إلى تكثير الطرق في الاعتبار، وتقرير الشواهد على مبالغ الأذكار؛ ليكون ذلك أيسر على الأفهام، وأوسع لمجاري التذكار.

فصل

وجود الصنعة دال على وجود صانعها لا محالة، كما أن وجود الفعل دال على وجود فاعله، وهذا القدر من العلم إن سلم من العناد ووقي من الخلاف فهو إيمان، وإلا فهو غير واقٍ عنك من الله شيئًا ولا كافيه؛ لأنه من أثبت الصانع الخالق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ولم يوحده ولا أطاعه ولا صدقه فليس إثباته ذلك بنافعه ولا بكافيه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان:٢٥].

﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

ثم بعد هذا فلتستقصِ النظر وتدأب الفِكَر والتذكر ومتابعة التفكر، وتسأل التوفيق من الله ﷻ، وحسن المعونة في معالم الصنعة وعجائب أحكام الألهية، وتدبر أوصاف معانيها، وتعرف معاقد التفصيل والتوصيل فيها ومنها، واستعمال الاستدلال على كل عالم بما هو دليله الخاص به بعد تحصيل صريح الإيمان والإسلام، وتصديق الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - يوصل إن شاء الله تعالى إلى معرفة صفات الصانع وأسمائه التي ينبغي أن يوصف بها ويُسمَّى،

ومعرفة ما يستحيل عليه وما يمتنع، ولا يجوز هذا إيمان العقل وعلمه ذلك.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٦٤-١٧٠].

قوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] [البقرة:١٦٤] ثم هذا إن هو أبقى وأصلح أضاء له ما بين يديه وما خلفه هداية ونورًا، وهذا إيمان المتقين.

قال الله جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد:٢٨] المعنى.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ المسخر: المذلل، والآية فيه من ثلاثة أوجه: **أحدها**: ابتداء نشوئه وانتهاء تلاشيه. **والثاني**: ثبوته بين السماء والأرض من غير عَمَد ولا علائق. **والثالث**: تسخيره وإرساله إلى حيث يشاء الله ﷻ. وهذه الآية قد جمعت من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ما صار لذوي العقول مرشدًا وإلى الحق قائدًا، فلم يقتصر الله بنا على مجرد الإخبار حتى قرنه بالنظر والاعتبار. [النكت والعيون (١/١١٥)].

وقال عز قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦].

ثم من وراء هذا إيمان اللب وعقله وعلمه وتقواه، وهذا الذي أيده الله بروح منه ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

قال الله عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

ثم أنشأ جلَّ ذكره يصفهم بحسن العبادة، ومواصلة الذكر وتعاهد الفكر بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١].

ثم أنباء ﷻ عن وصول العلم إلى قلوبهم بقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

أخبر ﷻ وتعالى أعلاؤه وشأنه عن لزوم الخوف أنفسهم إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢] تعوذوا - رضي الله عنا وعنهم - من دخول النار، وإن أخرجوا منها بعد دخولهم فيها فإن ذلك خزي، وأما الخلود فيها فهو الخزي العظيم، وكذلك وصفهم ﷻ بالبصائر الثاقبة والأسماع الواعية، وحسن الاستجابة لربهم جلَّ ذكره أنهم يسمعون دعاء ربهم من اختلاف الليل والنهار وجميع ما خلق من شيء.

فقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا....﴾ [آل عمران:١٩٣].

وكذلك وصفهم بالفقه وحسن اللقن عن حكيم صنعه وبديع ما فطره في عالمه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤] وذلك أنهم شاهدوا من معالم الصنعة وشواهد الخلقة، وسمعوا من دعاتها أنه لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وكذلك شاهدوا فيها إرسال الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وإنزال الكتب، والمأمور به والمنهي عنه، وصدق وعده ووعيده، أسلك ﷻ ذلك كله في مسالك عوالم، وأجراها في مجاري طرقات مخلوقاته، فاتصل بهم خبر

الكتاب والرسل بحقيقة ما شاهدوه في الخلقة، وحين بلغت شهادة البهائم إلى أن الله خالق كل شيء وأنه لا إله غيره، وأنه ﷻ مرسل الرسل ومنزل الكتب فشهدوا بالحق، وهم يعلمون شفعهم في أنفسهم واستجاب دعاهم عند ذلك.

فكما أدخلهم في أول محال الإسلام شهادتهم، وبوأهم أولى الإيمان بإخلاص القلب بها أدخلهم ﷻ في ولايته بمعرفتها من أفعالهم، وجعلهم من خاصته لما يلقوا سماعها من دعائه، واستعملهم بمقتضى ذلك على سنن رسله وكتبه، فافهم بلغ الله بنا وبك ورحمنا وإياك وعلمنا من علمه، واستعملنا به واسمعنا عنه، فإنا لا نقدر على ذلك إلا به وحده لا شريك له.

فصل

إذا كان النظر في أبعاض الوجود الكلي فإن أول موجود العقل من العلم، وجود صانع الصنعة وفاعل الفعل كما تقدم، ولا يشبه الصنعة صانعها في الشاهد، ألا ترى أن الكتابة لا تشبه كاتبها، والضرب لا يشبه ضاربه، وكذلك البناء والحياكة وغير ذلك من ضروب المفعولات، بل غاية كمال المفعول الجزئي أن يكون بعضًا للمفعول الكلي، وأن يشبه فاعله الأدنى؛ أعني: مكتسبه في أنه جزئي.

فصل

ليس من أفعال الفاعل الأدنى - وهو الفاعل المسخر - شيء يشبهه إلا ما كان على سبيل النبوة حسب، وهو مفعوله الكلي بالإضافة إليه، وليس هو الفاعل حقيقة، بل بوساطة وحكم شيء عن أمر محكم نازل من حكيم عليم ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩] وهو آية على مفعول الفاعل لا على مفعوله الكلي؛ لأنه ﷻ خلقه بالحق والحق أوجده، وله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

فصل

من المفعولات الجزئيات ما هو فعل الفاعل الأعلى جل وتعالى، وهي الأرضون والسماوات والأفلاك والكواكب، وما بين ذلك من المخلوقات، وما سفل

من سائر العالمين؛ إذ أفرد بالنظر كل مسمى مقصود ذلك بالنظر فيه، فهو عضو وجزء للكل، وهي بكثرتها أبعاض يكمل بها وبسواها المفعول الكلي فيصير كليًّا، وذلك كمالها أن تكون معدة أن يكمل المفعول باجتماعها، وعلى صورة ما هو مفعول كامل.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «**تربت يمينك، فمن أين يكون الشبه؟**»[١].

أكمل مفعول الفاعل الموجود عنه الفعل على سبيل الوساطة، وجعل الله ذلك حكمًا لازمًا في أبعاض المفعول الكلي أمم يؤم بعضها بعضًا إلى أعلاه ومنتهاه الذي هو الكلي، فإذًا كمال المفعول الكلي أن يكون على صورة فاعله، كما أن كمال المفعول الجزئي أن يكون بعضًا للكل كالعضو منه والجزء ونحو هذا.

فصل

وجود الموجود الجزئي مسخرة له أبعاض الكلي، عاطفة عليه أعضاؤه ومعاطفه، وما بين ذلك غذاء ينشئه فيه مُنشئه، ويؤول إليه صورة وذاتًا، فما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وليظهره في صورة الحق المعقول عيانًا ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣].

وقد تقدم الكلام في أن الدنيا نبذة من الآخرة صورت على صورتها سرائها وضرائها، لكن على المزج والتقليل، وأن الذي يكون عن الماء الذي ينزل من جنات وعيون، ومقام كريم شبيه بما ينزل عنه، وكذلك القسم الآخر.

قال رسول الله ﷺ: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله، والنار كذلك**»[٢].

يدل ﷻ بما نص عليه من الآيات المختلفة على ما ذكرناه، وأقسم على أن ذلك من قيله له: ﴿**إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات:٢٣] والنطق موجود

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

منا لا محالة، فما أقسم عليه هو الحق لا مرية فيه ولا شك ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] ما أحسن ما أوجد! وما أتقن ما أحكم وخلق! اللهم فهمنا عنك، ثم استعملنا بالذي يرضيك عنا، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

فصل

قد تقدم في رسم اسم الملك عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه من شرح الأسماء إشارة من التطريق إلى النظر إلى السماوات، وهذا الاسم على أي شيء يقع، وأن ظاهر خطاب الشرع ورد بأنها السماوات العلا، ثم اسم سماوات على سُمُوت أفلاك جاء بذلك بآخره ثم إلى الأرض، وأنها خلقت يوم خلقها صانعها ﷻ على شكل كرة، فسطحها ﷻ ومدها وفرشها، ثم نصب قنن الجبال على وزن أوليتها قبل تمهيدها، فجاء طلوع النيرات الشمس والقمر والنجوم على وزن ذلك مسخرات بإذن الله جلَّ ذكره.

وكان امتداد الظل وقبضه على وزن ذلك، وكان ذلك فلكي الليل والنهار، وكذلك تقدم فيه أيضًا نبذة يسيرة من الكلام في فلك الرياح، وفلك الغيض، وفلك القيض والمد والجزر، وقد تقدم أيضًا الإعلام بما هي الأفلاك المعلومة، وأنها من لدن فلك المياه إلى فلك البروج وكواكب، ثم الفلك الأعظم، وأن بتدواره تدور الدوائر كلها.

قال الله جل من قائل: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] فاعجب لهذا أن يكون تدوار الدوائر كلها على افتراق سبل الأمر بهن وفيهن يتحرك بحركة واحدة، يصعد إلى كل الكل ونهاية النهايات، وذلك معلوم في سريان الأغذية في الأجسام.

وإنما ينطبع في محالها إلى حال ما حكت فيه، كذلك ما نحن بسبيل تبيانه، كل الأفلاك يحل الأمر فيهن في محاله، فيكون منه بما سبق به الأمر، وأذنت فيه المشيئة، وأحاط به علم العلي الكبير، والظاهر أن حركتها بحركته، وحكمها بحكمه، ثم يتنوع بحركات أفلاكها على سبل مجاريها، ويكون حكم كل متحرك في كل متحرك فيه على الأمر المراد به من موضعه المدور فيه والمدور به، ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤].

وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣].

كما قال ﷻ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٨-٤٠].

تعجب ﷻ بهذا المبدع العجيب، جعل ﷻ ذلك من آيات الوحدانية، وأن الواحد الحق عز جلاله أوجد جميع الموجودات على اختلاف وجودها، وهي على ذلك لا تخرج عن حُكمه الواحد وأمر العزم القويم.

فصل

يتبين الدورات لنا بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وهو الليل والنهار، فما فوقها يتحرك في اليوم والليلة أزيد من دورة، وما كان من دونها يتحرك في اليوم والليلة أقل من دورة، يتحرك الفلك المستقيم فتستدير هذه الدوائر على دوائر دونها، والتي دونها تستدير على ما هو دونها هكذا، وحكم الأعلى ينتظم الأسفل إلى ما يكون منها كالدقائق والشعائر ودقائق الشعائر ومقاييس الأنفاس وأجزائها وأجزاء أجزائها، وعلى التحصيل الإلهي لدقتها وضيقها فكالأجزاء التي تركب للأجسام عنها يتنزل الأمر بتلك الدوائر من مستقر إلى مستودع محمول ذلك بها وفيها، كحمل الجواهر الأعراض.

كذلك قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] و﴿لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠] أي: إن هذا المعلوم هذه آيات على ما وراء ذلك مما هو غيب بالإضافة إليه، فما هي عليه آيات أن تكون كل سماء مع سمائها التي هي سقفها إلى السماء السابعة، كما هي الأرض مع سمائها من دوائر الأفلاك وأمر وغير ذلك.

وأخبر رسول الله ﷺ: «إن أهل السماء الدنيا على ضعف من أهل الأرض، وإن

أهل السماء الثانية على ضعف أهل سماء الدنيا وضعف أهل الأرض»[(١)].

كذلك كل سماء على ضعف ماتحتها مع الأرض، حتى ذكر رسول الله ﷺ في السماء السابعة على الضعف من أهل السماوات والأرض فكذلك أيضًا أفلاكهن ودوائرهن وأمرهم كله.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢] فالسماوات على هذا الاعتبار آيات على الدار الآخرة التي هي الجنة، وكذلك الأرضون التي من تحت هذه الأرض آيات على الآخرة التي هي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فإذا كان يوم القيامة وبدلت الأرض غير الأرض، والسماوات كانت آخرة، وزيد فيهن كتناسب قول رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلتها في اليم فانظر بِمَ ترجع منها**»[(٢)].

فاعجب لهذا البناء العظيم، وما أفلاك ما هنالك وما ذلك الأمر الدائر به، وما دوائره إن هذا لهو البناء العظيم والخطب الجسيم الذي نحن عنه معرضون، ومما هي آيات عليه أنها أرض وسبع سماوات، وقد جاء من طريق يوجب العلم بأن الجنة لها ثمانية أبواب.

كما أن للنار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - سبعة أبواب، وهذه سبع سماوات والأرض ثامنه، باب لكل واحدة منهن، وسبع أرضين هذه الأرض منها ما هو فيه لما سكنها المؤمنون وعمروها، ومنها ما هو نار لما سكنها الكافرون وعمروها، والله أعلم بكيفية تلك الأبواب وهيئة ما هنالك.

ومما هي آيات عليه مفهوم ما قاله رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لمائة درجة ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض**»[(٣)].

وأفلاك السماء التي تقدم ذكرها بتضاعيفها تستغرق ذلك، وهي تنتهي إليه دون تضعيف، وإنما تكون آخرة إذا حان وعد الله ﷻ بتبديلهن ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

﴿الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨].

قال الله ﷻ: **﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾** [الجاثية:٢٢] المعنى إلى آخره، و**الحق** هنا هو ما إليه المصير، وما هو يحققه الوجود فيما هنالك.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**أنت الحق، وقولك الحق، والجنة حق، والحوض حق، والصراط حق**»[1] إلى آخر الشهادات، وكلها جاء من موجودات الآخرة فيما هنالك يجب الإيمان به، ففي موجودات السماوات والأرض شواهده ودلائله، فتفهم ذلك.

قال الله ﷻ: **﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [البقرة:١٦٤] وإنما سُمي حقًّا لتحقيق وجوده هنالك لوجه، وإن ما هنا يدل عليه ويشير إليه كلٌّ على ما يقابله ويجانسه، ولتداخل معاني ما ها هنا فيما هنالك وتشابهه قد يدل مطلوب ما يدل عليه موجود ما بوجه ما، ويكون دليلاً على موجود آخر فيما هنا لك لوجه ما، حتى يستوي في النظر في الوجود فيما هذا سبيله جملة، وربما تطرق ذلك إلى بعض التفصيل، ولعسر جمع ما هنالك إلى ما ها هنا يشير العقل إلى توقيف ما ذكرناه ولا يدركه تفصيلاً.

وإنما يكون ذلك أقرب للتبيين وأيسر سبيلاً إلى مشاهدته في الدار الآخرة، وتبقى أيضًا جملة الآخرة لا يحيط بها عقل ولا يحصرها علم؛ لصدق قيله ﷻ في الدنيا والآخرة **﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** [النحل:٨] وفيه في خاصة الآخرة **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [السجدة:١٧].

ولولا غيب الآخرة والغفلة اللازمة لنا عن مثالاتها الدالة عليها لقد كاد يكون النظر فيما هذا سبيله بيّن، والعقل أذكى والبصيرة أثقب، لا يسع تلك الساحات وصفاء أضوائها وصدق شواهد ما هنالك، فافهم.

روى ابن عباس بن عبد المطلب ﵁ أن رسول الله ﷺ كان جالسًا بالبطحاء وعصابة من أصحابه - رضي الله عن جميعهم - إذ مرت عليهم سحابة، فقال النبي ﷺ: «**هل تدرون ما اسم هذه؟**» قالوا: نعم، هذه السحاب. فقال ﷺ: «**والمُزْن**»

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/٣٩).

قالوا: والمزن. قال ﷺ: «**والعنان**» قالوا: والعنان. ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «**هل تدرون ما بُعد ما بين السماء والأرض؟**» قالوا: لا والله ما ندري. قال ﷺ: «**فإن بُعد ما بينهما إما واحدة وإما اثنتان وإما ثلاث وسبعون سنة، والسماء التي فوقها كذلك**» حتى عدهنَّ ﷺ سبع سماوات كذلك.

ثم قال ﷺ: «**وفوق السماء السابعة يجر أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء، وفوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء، والله جلَّ ذكره فوق ذلك**»[1]. وروى الوليد بن أبي ثور عن سماك نحوه رفعه أيضًا[2] فهذه - والله أعلم - سماوات ما بين الأفلاك، ثم ما بين أعلاهن سماء الرفيع الذي هو سماء الدنيا، فإن فيما هنالك - أعني: كل سماء - أوعال وكرسي وعرش منه يتنزل الأمر إلى هذه السماوات السبع الأدنين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يمهل حتى إذا كان نصف الليل نزل إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من مستغفر فيُغفر له؟ هل من تائب فيُتاب عليه؟...**»[3].

وهو لا يوصف ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالتنقل ولا بالتغير وهو المستوي على العرش الأعلى، هو العظيم بالإضافة إلى ما سواه، وتنزيله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في حق قوم دون قوم، حكم ذلك التنزيل على دوائر محكمة التدوار في الإيلاج والتقلب الليل والنهار والزيادة والنقصان.

وروى الحسن عن أبي هريرة - رضي الله عنهما - قال: بينا رسول الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال النبي ﷺ: «**هل تدرون ما هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**فإنها الرفيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف**» ثم قال ﷺ: «**هل تدرون ما بينها وبينكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**بينكم وبينها مسيرة خمسمائة عام**» قال ﷺ: «**هل تدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم.

---

(١) أخرجه الديلمي (٢٣٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٨).

قال: «**فإن فوق سماءين ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة**» حتى عد ﷺ سبع سماوات، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض.

ثم قال: «**هل تدرون ما فوق ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء كما بين السمائين**» ثم قال ﷺ: «**هل تدرون ما الذي تحتكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن تحتها أرض أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة**» حتى عد ﷺ سبع أرضين، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة.

ثم قال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم بحبلٍ إلى الأرض السفلى لهبط على الله**» ثم قرأ ﷺ: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد:٣]»[1]. فهذه السبع سماوات الأرقعة بين كل سماءين سماوات وأفلاك، أو ما يقوم مقام الأفلاك في تنزيل الأمر، عبَّر عنه قوله جلَّ ذكره: ﴿**وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**﴾ [فصلت:١٢].

ومما هي الكواكب السيارة دلائل وآيات عليه شبهها أعضاء بني آدم الرئيسة التي فيها قوامها وعليها مداره، من ذلك: الشمس هي المسخنة لأجزاء ما طلعت عليه، وعنها تنبعث الحرارة الأصلية اللازمة للخلقة، ومنها تكون النفس الحيوانية بإذن الله عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه مما جعل لها من الوساطة، ويسر لها في تلطيف الأرض وتصفية الهواء، واستخراج الآخرة من أعماق الأرض، واجتذاب النبات وتبديد الغيوم، والزيادة في نمو النبات من الزرع وأنواع الشجر، وإنضاج الفواكه كلها بالطباخ المعتدل، ثم تيبس الزرع وتطيب الحب في حال كونه بذرًا في الثرى؛ ليصلح الإنبات، والكشف عن وجه الأرض غمرات المياه، وينشف البلات، إلى غير ذلك من جميل صنع الله ﷻ وحسن تدبيره لها، وبها تسخير ملائكة الملكوت - عليهم السلام - العاملين بأمره في ذلك، وتعظيم ما جعل الله من أمره فيها وبها.

قال إبراهيم ﷺ لما صعد بالنظر إليها، قال: ﴿**هَذَا أَكْبَرُ**﴾ [الأنعام:٧٨] أي: ما دونه، وكذلك القمر جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه له من الوساطة والتسخير

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨) وقال: غريب.

لأمره ترطيب ما جففته الشمس، وتهيئه للنمو وتيسره للنضج بإذن الله خالقه ومسخره.

وكذلك الزهرة جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لها القوة الجاذبة، وهي التي تظهر القوة الشهوانية القابلة للأشياء، وهي معينة للشمس في جذبها من الأرض أبخرتها وفيما عسى ألا تبلغه الشمس من الأماكن إلا بالتسخين من أرحام الأرض.

وعطارد جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه له قوة ممازجة يعدلها ويروحها ويميل مع الأغلب في طبعه، فهو مائل مع كل طبيعة.

وزُحل جعل الله ﷻ له قوة ما يعدِّل اليبوسة في أجزاء ما طلع عليه، وغرب، مثل: الزرع والثمار والحيوان، وما أشبه ذلك.

وكذلك المشترى جعل الله ﷻ له قوة غاذية لجميع الأشياء من الحيوان، والنبات يعدل الأشياء برفق ووزن قسط.

وكذلك المريخ جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه له قوة مهيجة لجميع الشهوات والغضب والحقد والطيش والعجلة.

وكذلك في الأشياء المنسوبة إلى الطبيعة جعل الله جلَّ ذكره لها صلاح هذا العالم باعتدال هذه الكواكب وفساده بتباينها.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] أي: بمواقع أفعالها، ومواضع التدبير من الله جلَّ ذكره بها.

ثم قال جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦] هذا جل قوله إلى قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢].

وهذه سماوات دلالات على السماوات العلا، وما بين هذه دليل على ما بين ذلك، كذلك صلاح الإنسان سبعة أعضاء رئيسة مواطن يظهره تأثيرها بإذن الله ﷻ على ظاهر الجسم من الإنسان الحامل لهن، وهي: القلب والكبد والطحال والمعدة والمرار والدماغ والرئة.

فالقلب في الإنسان بوجه ما بمنزلة الشمس في هذا العالم؛ هو موضع الحرارة الأصلية، وعنه انبعاثها إلى جميع الجسم.

ثم الرئة بمنزلة القمر في العالم مع الشمس تروح عن القلب الحرارة وتحللها وتلطفها في الجسم، وتحيلها إلى الرطوبة.

ثم الكبد يعدل الغذاء ويُصيِّره إلى القلب صافيًا بوزن سواء، وقسط مقسط وهي بمنزلة المشتري من هذا العالم.

ثم الطحال له قوة ماسكة تمسك ثقل الغذاء وتيبسه، وتغذيه بإذن الله تعالى، وهو في الإنسان بمنزله زحل في العالم.

ثم المعدة لها قوة شهوانية قابلة للغذاء جاذبه له بشهوة نامية، وهي في الإنسان بمنزلة الزهرة في العالم.

ثم المرار له قوة نارية مسخنة للمعدة، مهيجة لها في الغليان يزيد في شهواتها، وتنبعث منها الشهوة في الجسم، وهي المقيمة في الشهوات النارية، وهي في الإنسان بمنزلة المريخ في العالم.

ثم الدماغ له القوة الفكرية المؤلفة بين الأشياء الممازجة لها، وهو موضع ارتباط الصور وتشكل الأشكال، وهو في الإنسان بمنزلة عطارد في هذا العالم، هذا كله فيما هو صلاح فيه أو ما يضاده من جهة الخلقة.

وأما أمر الله فيهن - أعني: النيرات - فكذلك هذه الأعضاء في تنفيذ الأمر من تدبير الملائكة - عليهم السلام - فيهن وبهن في الأعمال الخلقية والشرعية والصفات، إلى غير ذلك مما يعلمه الله جلَّ ذكره ولا نعلمه، فسبيل ذلك فيها ظاهر، لا تعزب الإشارة إلى علمه ولا الدلالة على أن ذلك موجود فيها على ذي عقل سليم.

وإن الدماغ والرئة والطحال والكبد والقلب مواضع العقل والعلم والضحك والسرور والإرادة والفكر والذكر والوهم، إلى وجود أضداد ذلك كذلك ما شابهها من سماواتها مواضع الصفات المبثوثة من العالم، فاتخذ - وفقك الله - هذا شاهدًا تعبر إلى ما علا، ودليلاً تستدل به فيما هنالك يكن كل على درجته، فإنه كلما صعد النظر كان أقرب إلى الصفات القُدسية.

ثم كذلك صاعدًا إلى سدرة المنتهى، ثم كذلك إلى المستوى حضرة جلاله وساحة قدسه، آيات ذلك: إنه كلما أضيف إليه فيما هنالك جعل له من الطهارة

والقدس بقدر قربه بتلك الإضافة.

قال الله ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ....﴾ [النور:٣٦].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ [الأعراف:٢٠٦] و﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

وكما أن بين كل سمائين من هذا دوائر أفلاك أو ما يقوم مقام ذلك في تنزل الأمر، وكلما ظهر فيما ها هنا - أعني: دون السماء - فهو له على وجود فاعل، لكن أفضل وجودًا وأوسع جدًّا وأفخم ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢].

وكل يشير بل يعلم بما هو آية عليه ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١] إن في السماوات والأرض آيات للموقنين.

فصل

وربما أشكل على قارئ كتابنا هذا ما يسمعه من قولنا من ذكر قُوى وطبيعة، وإضافة فعل إلى ما لا يصح الفعل منه ولا الاختيار، فليعلم إن ذلك منَّا على سبيل التجوز؛ لغلبة العادة الجارية في التخاطب من اختصار ذكر الفاعل الأعلى تبارك وتعالى، وإنما الفعل لمن يملك إمضاءه، وعنه مصادره وموارده، وله أوله وآخره وظاهره وباطنه، فله المورد والمصدر.

وهو المقدم والمؤخر، القائم على كل شيء والوكيل عليه، والمحيط به من وراء كل حيطة، والوكيل على كل وكيل، فإنه وإن كان الإتساع في مجرى الخطاب جائزًا معلومًا، فإن ذلك على الدوام سبب لإظلام السبيل، ومؤيد للغفلة عن النظر إلى حقيقة التحقيق، وقد أعضل بذلك الداء في قوم حتى أفضى بهم إلى سوء المعتقد؛ لأجل المداومة على ذلك، ونسيان الفاعل الأعلى الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

فصل
في الاعتبار باختلاف الليل والنهار

وقال الله جل من قائل: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد:٦] وقوله جل قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤].

إيلاج أحدهما في الآخر، وتقصير هذا بتطويل هذا، وتطويل هذا بتقصير هذا، وتقليبهما - والله أعلم - هو تلونهما باختلاف القضاء؛ لتباين صور التدوير، وجماع ما يجري فيهما من حكم وأمر. يقول الله جل من قائل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

ووجه آخر، وليس بخارج عما تقدم: طلوع الشمس والقمر في يوم وليلة في غير مطلعيهما بالأمس، وكذلك بالغد في غير مطلعيهما كذلك هما في معنى زيهما إلى أن ينتهيا من حيث ابتدآ، ثم إلى أمثال ذلك، فتلك منهما آيتان على ظهور الحق المبين في الدار الآخرة، حيث لا شمس ولا قمر ولا نجوم، غير أن ذلك الحق دون أفول ولا غروب، إنما هو ضياء ثم نور.

يقول الله جل من قائل: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره**»[1].

فهذا الليل والنهار عن فيض ظهور الحق المبين، والدهر هو مدة فعل الله جلَّ ذكره، كما الزمان مدة دوران الفلك، فافهم - بلغ الله بنا وبك - ولا عدل بنا وبك عن سواء السبيل.

روي في هذا الحديث برفع اسم الدهر ونصبه، فالرفع تحقيق قول رسول الله: «**إن الله هو الدهر**»[2] سمي جلَّ ذكره ببقائه الدائم ودوامه المتمادي الذي لا أول له ولا آخر، بل ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٤٤)، والبخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبو داود (٥٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (٢٠٩٣٨)، وأحمد (٧٦٦٩)، والحاكم (٣٦٩٢).

والفتح في اسم الدهر بمعنى: تحكمه، وتنفيذ قضاياه وحكمته في ذلك البقاء النزيه الرفيع أزلاً وأمرًا؛ حيث لا أول لذلك ولا آخر، وبما أوجد الليل والنهار قلبهما بإحكام حكمته في أوليته التي لا أول لها، ومن آخريته التي لا آخر لها، وأظهر ما يكون ذلك عيانًا ومشاهدة في الدار الآخرة، جعل الآية على ذلك خلقه السماوات والأرض وما بينهما بالحق.

ثم ينشئه إلى ظهور الحق المبين الله ﷻ في الدار الآخرة، حيث لا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا سماوات ولا أرضون، سواء ما هو الدار الآخرة بأوصافها وبما هي عليه، فتحقيقه إذًا من سب الفعل سب الفاعل، وبالحقيقة فإنه من سب الفعل سب فاعله، وهو الله لا إله إلا هو لا يلحقه أذية العباد.

قال رسول الله ﷺ: «**ألا تعجبون كيف دفع الله عني هجو قريش، يسبون مذممًا ويهجون مذممًا، وأنا محمد وأحمد**»[1] وقد تكلم العلماء بمذاهب العرب وسائر الأمم، وأهل الحساب في الفصول من السنة، وحدودها وما هي الأفلاك والمنازل والبروج والسنون تركنا إعادتها طلبًا للاختصار، وربما أتى ذكر ذلك مفرقًا على مواضعه إن شاء الله تعالى.

فيبصر مفعول الحق المبين فيما هنالك مما هنا فيبصر الحق، ويحظى بالعلم الصحيح كالمشاهدة - أرشدنا الله وإياك - فمن دلائلها؛ أعني: الليل والنهار زائد على أنهما مخلوقات بخالق خلقهما، ومجعولان لجاعل جعلهما على ما هما عليه ما دلائله على أنفسهما من النقص والافتقار، ودلائل الحدث وقبول أنواع التغاير والتصريف والتسخير إنهما بوجه آيتان على الحياة والموت.

وقد تقدم بيان هذا الاعتبار في رسم اسم الشهيد من كتاب «**شرح الأسماء**» فلنقتصر على ما هنالك، ويدلان أيضًا بوجه على الضلال والهدى بما في أحدهما من نور وفي الآخر من ظلام، وبذلك يدلان أيضًا على الإله الحق ﷻ وعلى بطل الآلهة الباطلة تبيانًا لعدمها وبطلانها.

فإنه ما في الليل من لَبْس وامتناع الإبصار فيه، وما يكون عن ذلك من جهل آية

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤٥٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٤).

على بطلان إله باطل، وإنه ما في النهار من تبيان وهداية إلى المقاصد ونظر وضياء ونور آية على الإله الحق جلَّ ذكره، وبالضد من ذلك، فإن الله هو الحق، وإن ما تدعون من دونه هو الباطل، والنهار أيضًا بما فيه من انشراح واتساع ونور، وابتغاء فضل آية على الحياة.

وبذلك يكونان آيتين على ما في الجنة وضيائها وسعتها وإشراقها، وإنها ودار الحيوان وما عبر عنه قوله جل قوله: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**﴾ [القمر:٥٤].

وما هو قوله: ﴿**وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ**﴾ [النور:٢٥].

ودليل أيضًا بما هو يدل على نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - بما فيها من ظلام وضيق، ومعنى الموت الحاصل مثاله من معنى النوم، والسبات وعدم الإبصار، وعلى الموت بما فيه من السبات، والنوم والسكون وما هو بسبيله، وهما أيضًا بما فيهما من إيلاج بعضهما في بعض، وبما في الليل من ضياء قمر ونجوم، وبما في السماء من ضياء لازم عنها على الحياة في حال الموت في دار البرزخ.

وإن ذلك في اختلاف [الآيات على ما توجه] آية على اختلاف درجات الموت والحياة لأهل الموت فيما هنالك، فأرفعهم درجة في حياته [كالليل والقمر] مدة الاستسرار، فضياء ما بقي من النجوم والسماء آية على حياة الكفار فيما هنالك كما أن ظلام القمر بالليل وإظلام الأجواء بالنهار آية على ظلام قلب الكافر وظلام قبره.

والظلام موضع منزله من جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وخلو ما به من النور، وعلى فقدان نظر الله جلَّ ذكره منه، كما أن ظلام الأنوار بالنهار وإظلام الأجواء آية على مداخلة الموت هذه الحياة من جهل وغباوة وذهول ونسيان، وكل ذلك آية على ما هو بسبيله فيما هنالك.

وقد تقدم شاهده فيما سلف، كذلك ما كان من ظلم من الوقاية على ظلمات ما في القبر وفي يوم القيامة، وظلماته في جهنم، أعاذنا الله الرحيم منها برحمته.

قال رسول الله ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[1]. ذلك ما كان من عمل

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٠١)، وعبد بن حميد (١١٤٣)، والبخاري فى الأدب (٤٨٣) ومسلم (٥٧٨).

بطاعة الله ﷻ فآية على نور في القبر، ويوم القيامة الحياة في دار القرار.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد:١٢] وأفضل تلك الأعمال نور الصلاة لحضور النور الحق إياها، فقال رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الله في واجهته**» وفي أخرى: «**الرحمن**»[١].

كما أحقها تحقيقًا في الضياء الصوم، ثم سائر الأعمال نور يوجد في جزاء الأعمال في الدار الآخرة، وبالضد في وجود ظلمات أعمال الكفار والظلم كما سائر الأعمال التي تنفع العباد من صلة الرحم وإطعام الطعام وتفريج كرب وإماطة أذى جزاء ذلك ما يقابله فيما هنالك من إطعام أيضًا [ورفع أذى][٢] وتفريج كربات.

كما جاء أنه - صلوات الله وسلامه عليه - قال: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةَ أَجْوَعَ ما كانوا قطّ، وأَعْطَشَ ما كانوا قطّ، وأَعْرَى ما كَانوا قَطّ، فمن أَطْعَمَ لله - عَزَّ وجَلَّ - أَشْبَعَهُ اللهُ، ومَنْ سَقَى لله عَزَّ وجَلَّ سَقَاهُ الله، ومَنْ كَسَا لله عَزَّ وجَلَّ كَسَاهُ اللهُ**»[٣].

وقال ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»[٤].

وفي أخرى: «**غصن شجرة، فقال: لأقطعنه [لئلا] يؤذي الناس، قال: فلقد رأيته في الجنة يستظل بها**»[٥].

وبالجملة: فالأعمال كلها نور كما الوجود كله نور، فلتبصر البصائر وتفهم الألباب عن الله ﷻ.

قال الله عز من قائل: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور:٣٥] إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يوجد كشط في (ق) وتم تصويبه من (ف).

(٣) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢٢٦/١) من قول عبيد بن عمير.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (٥٠٤٩).

(٥) أخرجه الطبراني فى الأوسط (١٣٣٦) قال الهيثمى (٣٥٦/١٠): فيه أبو عاصم الربيع بن إسماعيل منكر الحديث قاله أبو حاتم.

قوله جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ﴾ [النور:٣٩] إلى قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:٤٠] المعنى إلى آخره.

أعقب ﷻ بعد ما تقدم من الخطاب قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...﴾ [النور:٤٤] فجميع ما خلق الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في السماوات والأرض حق مشير إلى حق ما هنالك، فافهم - فهمنا الله وإياك - والشمس والقمر آيتان من آيات الله ﷻ.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى الله مَوْلاهُمُ الحَقِّ...﴾ [يونس:٣٠].

قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، يقول ﷻ لأهل الجمع: ما تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد؟ فلا يبقى أحد كان يعبد شيئًا إلا اتبعه»[1] فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت.

وقد تقدم مصداقه من القرآن العزيز، وأيضًا قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩].

واستثناء الله سبحانه وله الحمد من تلك المعبودات من سبقت له منه ﷻ الحسنى فعلى هذا تكون الشمس والقمر وجميع المعبودات التي قولوها على الله ما لم تقل، وعدلوها في حقهم عن شهادتها لبارئها ﷻ وأضافوا النعمة بها إلى غير وليها تراوحهم وتباكرهم بالعذاب.

وما بين ذلك يجدده عليهم على حكم الخلود، فهذا مما يعبر إليه من تقليب الله الليل والنهار في هذه الدار، ويكون ذلك منها لهم على مقادير تعظيمهم لتلك المعبودات، وعنايتهم بها وعكوفهم عليها، وإغراقهم في الصد بها عن السبيل

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٢١) والبخاري (٤٤٣٥) ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤) والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦) وابن أبي شيبة (٣١٦٧٤).

المرتضى.

وتنقسم معاني المعبودات في الآخرة وفي دار القرار على ما اقضته من ذكر وفتنة، فما كان منها في سبيل الفتنة ففي النار، وما كان من معانيها في سبيل الذكر ففي الجنة مثل أقول: كالشمس والقمر هما من حيث تسخيرهما لمنافع العباد، وسجودهما لخالقهما، وعبادتهما لمجريهما، وشهادتهما لجاعلهما ومدبرهما، والتذكر بهما، فمعنى ذلك كله في الجنة، ومن حيث هما مزينان للساجدين ومعظمان للعابدين لهما.

وقد تقدم فيما مضى من الاعتبار في فهم سجودهما، وإن ذلك ينقسم على حالتين لهما، وإن ذلك مقدر بمقادير السماوات، فهي على ذلك طالعة في حق قوم، ساجدة في حق قوم، ومستوية في حق آخرين، جارية بوجه وساجدة بوجه، تقدير من عزيز عليم.

فهاتان الحالتان أبدًا لازمه لهما فيما كان من طاعتهما لخالقهما ﷻ في جريهما وسجودهما، ويذكرهما بولي النعمة ﷻ بما هو في الجنة ينشئ الله أمره بهما فيما هنا إلى أمره فيما هنالك الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

وما كان من تزين الشيطان لهما واقترانه بهما، وسجود الكفار لهما وسترهما عقولهم عن تخطيهما إلى مسخرها ومعيدها هو في النار دون تعذيب لهما، غير أن هذا أمره وهذا أمره.

ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ يخبر عن حال استوائها، وأن الشيطان يقارنها، قال: «**وحينئذ تسجر جهنم**»[(١)]؟!

وقد تقدم فيما مضى أن الدنيا ابتنت على نفسي جهنم سعيرها وزمهريرها - أعاذنا الله برحمته منها سعيرها وزمهريرها - وأن نزول الماء برحمته يحيي الأرض بعد موتها، ويظهر أفاعيلها ويكمل حياتها، فهذا الوجود المشاهد يخبرك بما تقدم من الاعتبار، وأن الماء آية على دار الحيوان، وأن النفسين آيتين على جهنم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٥٥)، وابن سعد (٤/٢١٦).

وإن هذه الدار ابتنت بأسرها على معنى دار القرار الجنة والنار، وسوف يعيدها خالقها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأسرها، ثم يميز خبيثها من طيبها، فيجعل هذا في الجنة وهذا في النار، أنبأ بذلك القرآن الكريم، وأعربت به الشواهد، فاستقر بتوفيق الله جلَّ ذكره وجود الموجودات علوًّا وسفلاً على هذا.

ثم أقضي بموجب الحق أن كل ذكرٍ ففي الجنة، وإن كل فتنة ففي النار.

ومن آياته بهما: إنه يبدو لعباده في الدار الآخرة، ويرونه عيانًا كما يرون الشمس والقمر، وذلك يومئذٍ من أسمائه الحق المبين؛ أي: إن هذا الحق الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما يَبين عن نفسه فيما هنالك رأته العقول في هذه الدار بحقائق الإيمان، فتراه العيون يومئذٍ على العيان والشمس والقمر لهما أفول وتغير وزوال، وهو لا زوال ولا تغير.

وهو الذي أنكره إبراهيم عليه السلام حين تطلبه ربه بقوله: ﴿**لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ [الأنعام:٧٦] ﴿**لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾ [الأنعام:٧٧].

أي: إني بريء مما تشركون، فصعد وجود الشمس والقمر والنيرات بما فيهما من وجود الحق المخلوق به السماوات والأرض إلى وجود الحق المبين مشاهدة فيما هنالك، كما ينزل بها وجود الندين والفتنة بها إلى ما يكون كلها غدًا بالمعذبين فيما هنالك.

ومن آياته ﷻ: ما شرعه من الشرائع؛ إذ ذلك مما يختلف به الليل والنهار، وإن كل يوم هو من ذلك في شأن.

قال الله جل ثناؤه: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة:٤٨].

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**﴾ [الجاثية:١٦] إلى قوله جل قوله: ﴿**وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ**﴾ [الجاثية:١٧] إلى قوله: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا**﴾ [الجاثية:١٨].

وقد فرض الله ﷻ علينا الصلاة، وأكثر التأكيد وبالغ في التوصية بصلاتين طرفي النهار قبل طلوع الشمس وقبل غروبها آية على الوفاء بعهده في قوله جل قوله: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ [مريم:٦٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**وإن منكم لمن يرى ربه بكرة وعشيًا**»[(١)].

وفرض ﷻ الزكاة، وحضَّ على الصدقات، فقال ﷻ: ﴿**أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة:٢٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعرى ما كانوا، فلا يكسى يومئذٍ إلا من كسى لله، ولا يسقى إلا من سقى لله، ولا يطعم إلا من أطعم لله ﷻ**»[(٢)].

وقال جل من قائل: ﴿**ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:٣٢].

وقال جل من قائل: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**﴾ [الحاقة:٢٤]

وقال عز من قائل: ﴿**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النمل:٩٠].

وقال في الأباعد: ﴿**هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٤٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أنفق زوجين في سبيل الله نُودي من باب الجنة**».

وفي أخرى: «**نادته خزنة الجنة: أي فل**[(٣)] **هلم**»[(٤)].

وقال رسول الله ﷺ في رجل أدخله الله الجنة على ما كان من عمل، وقال: «**فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان**»[(٥)].

فصل

ومما يؤكد العبرة لما تقدم ذكره: إنه ﷻ فرض على عباده الإيمان والإسلام، وقدر على من شاء منهم بالكفر والضلال، ثم أمر ونهى، وجعل من المأمور به أبوابًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٤) ومسلم (٢٨٣٤) وأحمد (٧١٥٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فل: المراد فلان.

(٤) أخرجه مالك (١٠٠٤)، وأحمد (٧٦٢١)، والبخاري (١٧٩٨)، ومسلم (١٠٢٧)، والترمذي (٣٦٧٤) والنسائي (٢٤٣٩).

(٥) تقدم في سابقه.

إلى الجنة، ومن المنهي عنه أبوابًا إلى جهنم، ثم قلبهم فيما شاء من ذلك بما شاء، وجعل المصير إلى دار الآخرة على سبيل ذلك.

كما قال في الأزل: «**وقد نادى هؤلاء من قبضة اليمين فاستجابوا له كما شاء، فقال: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم نادى أهل اليسار من قبضته الكريمة فأجابوه كما شاء لهم، فقال: هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»(١) ثم أخرجهم على نوبتهم لأعمالهم المقدرة لهم يومئذٍ.

ثم هو يميتهم وقد اقتضى منهم المقدر لهم أو عليهم، فيجعل أحوالهم في حياتهم حال موتهم على جزاء ذلك، ثم هو يحييهم بقدرته؛ لنجزيهم مما كانوا يعملون، ثم يرجعهم إليه في دار القرار، فيجري عليهم ثواب أعمالهم أو عقابه جزاء بما كانوا يعملون، مع مزيد أهل السعادة عنده من فضله ينيلهم إياه جزاءً لما قلبهم فيه وبه من وصف ما أسعدهم به في أزله الكريم، وبالضد لأهل البعد في شقائهم أيضًا من وصف ما أشقاهم، وهو العلي الكبير.

ألا ترى أنه عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه فرض علينا خمسين صلاة، كان قدرها لنا وعلينا في أزل أحديته حيث لم نكن لأنفسنا موجودين، ولما أوجد نبيه أرسله إلينا فأظهر إيجابه علينا، ثم برحمة منه وفضل ما خفف عنا بردها خمسًا عملاً، وأبقاها خمسين ثوابًا وأجرًا، ووقت الصلاة على مقادير حلول الشمس، فوقت الصبح طلوع الفجر، وهو عن ظهور الشمس لموضع من الأفق.

والظهر باستوائها في كبد السماء، والعصر على التوسط بين ذلك وبين غروبها، والعشاء الأول بغروبها إلى غروب الشفق، والعشاء الآخرة من لدن غروب الشفق

---

(١) أخرج مالك (١٥٩٣)، وأحمد (٣١١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) والنسائي في الكبرى (١١١٩٠) بلفظ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ».

إلى طلوع الفجر، والزكاة بالحول، والصوم بظهور هلال شهر رمضان، والإفطار منه بظهور هلال شوال، والشروع في الصيام من طلوع الفجر إلى غروبها، والحج بهلال ذي الحجة.

وقضى مناسكه في أيام الحج، وهي معلومة بأيام شهر ذي الحجة، وهذه كلها في الدار الآخرة مواسم تنعيم وتجديد حبور على الدوام بما يكون من الحق المبين من ظهور وإحكام حكمه، هذا إلى ما فيها من آية ودلالات وبينات من الأمر على الدوام.

وقد كشف حديث رسول الله ﷺ كون الشمس والقمر في الدار الآخرة منها في النار بقوله: «**من كان يعبد الشمس يتبع الشمس، ومن كان يعبد القمر يتبع القمر، ومن كان يعبد الطواغيت يتبع الطواغيت، فيتساقطون في النار**»(١).

وقول رسول الله ﷺ وقد رآها غاربة: «**إلى نار الله الحامية، لولا ما يزعها من رحمة الله...**»(٢).

ومن آياته جلَّ ذكره: مفهوم قوله الحق: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ**﴾ [آل عمران:١٩٠].

فخلقه النهار والليل دائرة على أربعة أرباع: ظلام وضياء وغبش وعشاء، كذلك الفيض والمد والجزر والغيض، كل ذلك على دوائر مستقيمة على أربعة أرباع كما تقدم آيات على ما هي الجنة والنار.

قال الله جل ثناؤه: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق:٣٠].

فهي كلما امتلأت اشتد [لهيبها](٣) وتزبَّد سعيرها، كالمعهود من النار كلما ازدادت حطبًا ازدادت لهبًا - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فهي كذلك حتى يضع الرحمن قدمه بين يدي تدبيره، فإنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه حين استوى على العرش كتب على نفسه كتابًا هو عنده على العرش: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»(٤)

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦).

(٢) تقدم.

(٣) في الأصل: كلَبُها.

(٤) تقدم تخريجه.

وفي أخرى: «**سبقت غضبي**»[1]. وفي أخرى: «**غلبت غضبي**»[2].

فهي لا تزال تتكرر منها تمتلئ وتفور، وتقول: هل من مزيد؟ ولا يزال الرحمن تبارك وتعالى يجعل فيها قدمه، فتنزوي بعضها إلى بعض أبدًا، هذا أيضًا على دوائر معلومة هناك يحكمه التدوار، كتدوار الليل والنهار، والله أعلم بطول مدة تلك الدوائر وقصرهن.

يقول الله جل قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧] كذلك آيته على هذا القهر منه لجهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - والقصر لها عن مرادها إلى مراده ما يشاهد من قصره لنفسي جهنم؛ وذلك أن يأذن لها تتنفس بحرِّها وزمهريرها، فلولا رحمة الله التي نزعها من إنزاله الماء من السماء فيكون الحاصل بين الحكمين بكرم لطفه وحسن تدبيره تبريد حر السعير وترطيب يبس الزمهرير.

وإذا أفرطت بله المياه روح بالصحو، وجعل في ذلك الدف، وينشف البلات، واستقام أمر الدنيا على ذلك من تدبيره، ويخرج عن هذين الحكمين بقدرته وفضله ورحمته أنواع الخيرات، وضروب الزرع والنبات، ويخلق على ذلك جميع الحيوان، ويظهر الزمان في حسن معاريضه، لولا ذلك من لطفه كانت هذه الدار جهنم الصغرى، وهو من أثر الصادق المكتوب على نفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: «**إن رحمتي غلبت غضبي**»[3].

وقوله جل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] ويلحق بذلك في سبيل العبرة توبة على الكافرين والخاطئين، وأن الكفر والخطايا والمعاصي منسوبة إلى جهنم - أعاذنا الله منها - وجهنم مخلوقة من غضبه، والتوبة منسوبة إلى الجنة - جعلنا الله الرحمن الرحيم من أهلها - وإلى رضوانه، وتلك رحمته.

هذا التأويل هو الذي صدقه الوجود والكتاب من قوله جل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فإن كان ذلك في الدار الآخرة زائدًا على هذا التأويل فالله أعلم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

وآية على ذلك أيضًا: الشهود والحضور المذكور من قول رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»[(١)].

وقال في حديث عنبسة: «**إذا زالت الشمس فصلِّ، فإن الصلاة محضورة مشهودة**»[(٢)] وذكر ذلك في أوقات الصلاة كلها.

وقال الله ﷻ: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ [الإسراء:٧٨] فشهوده هنا آية على مزيد نيله أوليائه في الجنة، كما أن مقارنة الشيطان الشمس آية على مزيد نيله أعداءه من النار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - ومقارنة الشيطان إياها لأوقات يحضر الكفار لعبادتها.

قال رسول الله ﷺ: «**وحينئذٍ تسجد لها الكفار، وحينئذٍ تسجر جهنم**»[(٣)] قالها لوقت الزوال.

ومن آياته على ما هنالك: مفهوم قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً**﴾ [المزمل:١-٣] هذا الثلث الأول من الليل.

﴿**أَوْ زِدْ عَلَيْهِ**﴾ [المزمل:٤] يعني: على النصف، فهو الثلث الثاني.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاءت فحمة العشاء فكفوا صبيانكم** - وفي أخرى «**مواشيكم**»[(٤)] - **فإن للشيطان حينئذٍ انتشارًا**»[(٥)].

ولما استقر الخطاب على الندب إلى قيام الليل كان النهي عن الصلاة في نشر الشيطان تعريضًا.

قال الله ﷻ: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ**﴾ [الإسراء:٧٨] مباح

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٩٤٥٢)، والنسائي في الكبرى (١٥٤٤).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤٥٥٩).

(٤) أخرجه مسلم (٨٣٢) وأبو عوانة (١١٤٧).

(٥) أخرجه أحمد (١٤٣٨١)، ومسلم (٢٠١٣)، وأبو داود (٢٦٠٤) وأبو عوانة (٨١٦٢)، والبيهقي (١٠١٢٥) والبغوي في مسند ابن أبي الجعد (٢٦٠٨) وفي رواية: «فواشيكم» جمع فاشية، وهى ما يرسل من الدواب فى المرعى. الفحمة: هي إقبال الليل وأول سواده.

إيقاعها في ذلك الوقت، وقيام الليل مستحب التحين به إلى الثلث الأول إلى ما وراء ذلك، وغسق الليل خروجه بالحنكة عن بقايا ضياء النهار، فيجتمع حينئذٍ آخر الظلام، ومن أجل ذلك تكون الفحمة.

قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] فأخبر ﷻ نصًّا صريحًا أن النهار إذا انسلخ من الليل أجمع الظلام وانتشر ظلامه، وهو الغسق ومنه التعوذ ﴿مِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:٣] أي: إذا امتلاء ظلامًا، ثم بوجه آخر متصل، فهذا يكون الغاسق إذا وقب القمر لأجل دخوله في الغسق.

فصل

هذا المذكور الذي هو الغسق أحد أرباع الدائرة، واعلم أن ليس المقصود بالربع هنا استواء أرباعها، وإنما المقصود تداول الحكمين المقدرين اللذين جعلهما الله آيتين على حقائق من موجودات الدار الآخرة، وكما ليست دائرة الغبشين متساويتين لطول الليل وطول النهار رجع الكلام نحو هذه أيضًا إلى العجمة الثلث الأول من الليل، وهو ذهاب فحمة العشاء، وذلك عن بركة تنزل ربنا ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلى سماء الدنيا.

ويتمادى هذا الربع من هذه الدائرة إلى أن يخرج وقت صلاة الفجر، كما قال ﷺ في حديث النزول، فلا يزال كذلك حتى يفرغ القارئ من صلاة الفجر، ثم أول الربع الثاني ظهور حاجب الشمس، وآخره تمكن ارتفاعها في أعلى علوها قبيل الزوال، وأول الربع الثالث أول استوائها، وآخره قبيل غروبها، وأول الربع الرابع حين يتوارى بالحجاب، وآخره انقضاء الفحمة من انقضاء ثلث الليل الأول، فكل ربع من أرباع هذه الدائرة دولتان: ذكر وفتنة.

فالذكر عن كريم اطلاعه ﷻ وعلى تنزله، والفتنة عبَّر بها رسول الله ﷺ بفحمة العشاء، وهو اجتماع الليل وظلمته، ومقارنة الشيطان طلوع الشمس واستواءها وغروبها، وكل أمره وخلقه، لا إله إلا هو، فموضع كريم اطلاعه وتنزله في الدنيا آية

على اطلاعه العلي على أهل الجنة، وقوله جل قوله: «**أتريدون شيئًا أزيدكم**»[1].

وذلك موضع المزيد فيها، وهو أيضًا آية على وضعه قدمه جلَّ ذكره في جهنم فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: «حسبي حسبي، قد قد» كما أن موضع الفتنة واجتماع الظلمة وما عبر عنه بأنه أثر الشيطان اقترانه بالشمس بثلاث مواطن على سعير جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وفورانها وامتلائها، وجوابها سائلها بقولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠] كما أن ظهور الشمس والقمر آيتان على تجليه جل وتعالى في الجنة.

فصل

لم تلحق ساعة الغسق بأمثالها، وامتناع الصلوة فيها لأجل القرن الذي في ذلك المقارن في الثلاث الساعات هي الشمس، وهي قرينه عند أهل الكفر، وهذا المقارن فيها إنما هو ظلام، وليس الظلام بمقصود بعبادة ولا تعظيم ولا بمزين عند أحد من الأمم الضالة، وربما سبق الشيطان - لعنه الله - إلى فهم السامع مع بادئ من قول رسول الله ﷺ في الشمس إذا هي قارنها الشيطان، وإذا غربت، وإذا استوت، وإنها تطلع بين قرني الشيطان، فيسول له الشيطان أويخطر على باله، فإنه قد قنع منا بالوسوسة إن للشيطان - أبعده الله - قوة على محذور من ذلك وأيدٍ، وإن له قدمًا ووجودًا في القتل.

وكلا إن هو إلا ما قاله الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾ [الكهف:٥١].

وإنما معنى الخطاب وسر المراد في ذلك لما شاء خلق السماوات وما بينهما خلق ذلك كله بالحق، وقسم ذلك الحق إلى معنين: ذكر وفتنة، فظاهر مواضع الفتنة من السماء الدنيا إلى ما سفل، وظاهر موضع وجود الذكر من السماء الدنيا لما علا، ولما أراده ﷻ من حكمته لما أوجد آدم عليه السلام أوجد له من خلقه عدوًا جعل له

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٣١٠٥)، وأحمد (١٨٩٥٥).

الوساطة فيما سبيله الفتنة، وأقطع له عما له فيما سبيله التزيين والوسوسة، وحقيقة شأنه أنه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

والشمس والقمر رؤيتها بحكم التناوب على الدوام، إلا ما استثنى من ذلك حكم الأفول والاستسراد الكائن على المحاق؛ لأن جعل الليل والنهار آيتين، وإلا كانا يكونان آية واحدة، فصَّل الله الليل والنهار باختلافهما واختلاف حكمها تقريبًا للمعتبرين وتيسيرًا للناظرين؛ ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب، كذلك فصَّل كل شيء تفصيلاً.

وقال رسول الله ﷺ: «ترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر كمالاً ودوامًا»[1].

لا أفول فيما هنالك ولا غيبوبة، سبحانه وله الحمد و﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ في الدارين ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ عما لا يجوز عليه ﴿الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] أحكم الآيات وأنار البينات.

ولظهور هذه المعرفة في كنه النبوة قال إبراهيم: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦] وإنما نظر في القمر، ولو أخبر عنه بأن نظره فيه كان حال المحاق لتبرأ منه أشد البراءة، فالحق والله أعلم أن هذه الرؤية لأهل الجنة منه على الدوام، كما كانوا يرون الحق المخلوق به السماوات والأرض على الدوام، فإن هذا الحق يشير إلى ذلك فيرونه مشاهدة وحضورًا.

وكما يرونه في الدنيا بمعنى العلم وحال المراقبة المستبطن بالنظر والاعتبار، وله ﷻ أيضًا فضل عظيم ومزيد كثير سوى ما تقدم ذكره من معنى الرؤية على مقادير الصلوات.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٧٦١).

آية ذلك: مواجهة العبد في الصلوة، والمعنى الذي عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**فالصلاة حينئذٍ محضورة مشهودة**»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الرحمن قبالته**»[٢].

وفي أخرى: «**فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»[٣].

قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فلا يبصق قِبل وجهه، فإن الله قِبل وجهه إذا صلى**»[٤].

قال رسول الله ﷺ وقد رأى نخامة في حائط: «**أيكم يحب أن يستقبله أخوه فيبصق في وجهه؟**» فقالوا: كلنا لا نحب ذلك يا رسول الله، قال: «**فإذا صلى أحدكم، فلا فيبصق قِبل وجهه، فإن الله قِبل وجهه إذا صلى**»[٥].

كذلك له أيضًا عز جلاله فضل عظيم وامتنان وإكرام برؤيته على مقادير صلاة الجمعات.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ**﴾ إلى ﴿**مَّا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس:٥٥-٥٨] فهذه حال لهم في الجنة.

وقال ﷻ وقد ذكروا النار، أعاذنا الله منها: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق:٣٠].

قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم تلقى فيها، تقول: هل من مزيد؟**»[٦] فوصف ﷻ حالها هذه أنها على الدوام.

ثم قال عز من قائل: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ [ق:٣١] وأحال المخاطبين على ما تقدم ذكره وصفه لها في كتابه العزيز.

ثم أشار ﷻ إلى المحذوف من وصف أحوالهم بقوله ﷻ: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥٧٤٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والبخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، والنسائي فى الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٢-٣٣] إلى قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

فأخبرك ﷻ بقوله الحق أن ذلك لأهل الخصوص، ومزيدهم هنا هو ما يزيدهم على دائم حالهم التي هي رؤية الحق كما قال النبي ﷺ: «كما ترون الشمس والقمر»(١) على مقادير الصلوات، ثم على مقادير صلوات الجمعات يراه ﷻ كل على عمله ومعتقده فيه ومعرفته إياه، وإحسانه في طلب مرضاته ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣].

فينزله بنزله وكريم حضوره ﷻ حضور في الجنة وشهود ورؤية، وهو أعلم بها ﷻ لا إله إلا هو العلي العظيم غير أن الذي يبلغهم ويحضرهم ويؤتيهم من ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإنما هي مواسم تتبع بعضًا على تدوار دوائر محكمة التدوار، عرفها لهم وهو أعلم تقدير العزيز العليم؛ أي: إنها ها هنا على مقادير ما هنالك، وتمدح بالعلم إنما خبأه لأوليائه وأعدائه في دار الخلود، فمن شغل نفسه وقلبه بعبادته وداوم على ذكره أدخله جنته بغير حساب، وأناله أجره ما بكرم مآب وأجزل ثواب.

وإلى هذا ينشأ الحق المبثوث في العالم المخلوق به، وفي السماوات والأرض وما بينهما، وبخاصة منه هذا الحق المشار إليه الذي هو المشهود والحضور الموجود على دوائر محكمة، فإن هذا كله يصعد في الدار الآخرة إلى مشاهدة الحق المبين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥] هذا ثم أعلم علمًا يقينًا فيما تقدم ذكره مع تدقيق النظر وتصحيح الاعتبار بهذا الحق الموجود به السماوات والأرض خلقًا وشرعًا من الآيات على ما يؤاتيهم ويصيبهم به الحق المبين عجائب تبهر العقول وتقصر عن العبارة بوصفها الألسن بما لا يحاط بالوقوف على كنه مخلوقاته فيما ها هنا.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

فصل في الاعتبار في الفلك

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ الله لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:٣١].

وقال عن من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾[١] [الشورى:٣٢-٣٣].

وقال أيضًا جل من قائل: ﴿وَلَهُ الجَوَارِ المُنشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٢٤-٢٥] وجعل ﷻ ذلك من آياته وآثار وجوده على مقتضى مشيئته.

وذكر الفلك في القرآن كثير، وإنها آيات له وآيات عليه لأولي الألباب ولكل صبار شكور.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣].

فبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فرقان بيّن؛ إذ بالأولى ندب إلى النظر بخلق السماوات والأرض كما قوله ﷻ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ﴾ [الجاثية:٤] أي: في خلقكم وتركب أعضائكم وجميع مواد خلقكم، وتعداد المفاصل، وكيفية تناسق الجملة في تركبها، ثم الاعتبار في ذلك إلى ما غاب كذلك.

قوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة:١٦٤] لذلك يتردد الأمر في كيفية النظر باختلاف الليل والنهار، ثم جعلها

---

(١) الجوار: السفن، وهي من الصفات التي جرت مجرى الأعلام، ولما كانت ثقيلة في أنفسها، وكان يوضع فيها من الأحمال ما يثقل الجبال، وكان كل ثقيل ليس له من ذاته إلا الغوص في الماء، كانت كأنها فيه لا عليه؛ لأنها جديرة بالغرق، فقال تعالى محذرًا من سطواته متعرفًا بجليل نعمته معرفًا بحقيقة الجواري: ﴿فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ﴾ أي: الجبال الشاهقة بما لها من العلو في نفسها عن الماء، ثم بما يوصلها وما فيه من الشراع عليها من الارتفاع، وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم. [نظم الدرر للبقاعي (٤١٦/٧)].

هكذا هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا، وقد تقدم إلى ذلك، أو يكون النظر في ذلك أولاً: كيف خلق هذا وهذا؟ ويتفكر الناظر في ذلك، وأما المراد بذلك؟ وما وجوه الحكمة في ذلك؟ وعلى ماذا يدلان بذلك؟ وقد مضى من ذلك تنبيه على بعض المقصود، والله نسأله تمام النعمة وحسن المزيد.

كذلك قوله جل قوله: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤] المراد المفهوم من ظاهر الخطاب عطف على قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وتقدير المحذوف وخلق اختلاف آية الليل والنهار وخلق الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس.

فيكون النظر أولاً: في خلقه المنظور فيه، كيف ولِمَ؟.

ثم ثانيًا: في المراد به، وعلى من يدل إلى خلقه وتركيبه؟ ثم بما وجد له على حق هو هنالك.

أما النظر في خلقتها: فقد يجب أن يقدم الكلام في الاعتبار، فجملة دار الدنيا وأنها - أعني: الفلك - إنما صنعت على هيئة الأرض، ولما شاء الله أن ينقذ رسوله نوحًا عليه السلام والذين آمنوا معه، وشاء إهلاك أهل الأرض بالغرق والطوفان أوحى الله إلى رسوله نوحًا عليه السلام: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: كما نعلمك ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون:٢٧] المعنى: فعوضهما الله جلَّ ذكره مما أفقدهم إياه ما يشبهه.

يقول جلَّ ذكره: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] يعني: الإبل والخيل والبغال والحمير، ومثل الفلك هي الأرض التي صنعت على هيئتها، والحيوان كله مخلوق من الأرض، فهي تجري كما قال جل من قائل: ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢] كالأرض راكدة على الماء، ونشر لها الريح من أمره يجريها في البحر، وصورها رحبة العجز مقدمها أضيق من مؤخرها، وقعرها مقعر، أعلاها مفروش كشكل الكرة منها أعلاها، وأبقى على حاله أسفلها كما فعل في الأرض.

فصل

سبيل الاعتبار بها أن يعبر من العلم بخلقتها، ولما قصرت به إلى ما تقدم ذكره

من تعرف خلقة الأرض، وأنها على الماء راكدة لا ترسب في الماء لثقلها وثقل ما يحمله، كالمعهود من رسوب أقل الثقل في الماء، بل زاد الفلك بجريها في لجج البحار بأمره بواسطة الريح، فتراها تنخر الماء مخرًا، فتعبر البحار اللجج الطوامس عبرًا، وتلك آية على وجود حق في الدار الآخرة، أما النجاة والعبور والجري على أمانه فلأوليائه.

وأما الإهلاك والإغراق والأخذ المكتسب لا محالة فلأعدائه؛ لذلك ما امتن ﷻ بإنجائهم وجريها - أعني: الفلك - برحمته، وأوعد تعريضًا بالإهلاك والإيقاع بالغرق، وأخذهم بما كسبوا تنبيهًا على ما هنالك، فإنهم يضطهدهم إلى ركوب سفن نار جهنم تجري في بحار الحميم والغساق والغسلين إلى حيث شاء من ذلك بهم، ثم نغرقهم فيها بأخذهم في ذلك بنوع من كسبهم السيئات في دار الدنيا.

يقول الله ﷻ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: على بلوى هذه وامتحانها ﴿شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣] لنعماء الله وجزيل أياديه.

ثم قال عز من قائل: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى:٣٤].

وقال الله جل من قائل: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء:٦٩] كذلك يغرقهم في الآخرة بما كسبوا.

آية ذلك: سوقه أهل الدنيا بأطماع الأرباح وحب قضاء الحاجات إلى ركوبها في البحار، فربما أنجاهم بفضله، وربما أخذهم بما كسبوا، وركبها آخرون غزاة في سبيله وابتغاء مرضاته من حج وصلة وغير **ذلك**، وربما أغرقهم بها فيجعلها لهم شهادة يكرمهم بها فيما هنالك، فإنه من قتله في الدنيا بما تقتل من كفر وهو مؤمن جعل له ذلك شهادة.

قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله**»[1] فذكرهم وزاد عليهم في رواية أخرى.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٥٥٨).

فصل

وقد يعبر منها بالنظر في جملة المخلوقات، فإن الجملة على ما تقدم ذكره ليست على المخلوق ولا يحيط بها مخلوق؛ إذ المفروض للنظر الجملة وإياها - وهو أعلم - أراد بذكر الفلك في بعض المواطن بوجه من النظر.

يقول الله جل من قائل: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان:٢٨] أي: هو يسمع المسموعات بسمع واحد، ويبصرها ببصر واحد، ويقدر عليها بقدرة واحدة كما يعلمها ﷻ.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يعني: إدخاله جميع ما سكن في الليل في هذا التقليب، ويجرى عليه هذا التدبير، ثم قال: ﴿وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩].

يقول الله جل قوله: يعلمكم و﴿يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد:٣٠] على اختلافها، ونياتكم على تباينها، وجميع المعلومات على آجالها وأحوالها على اتساع ذلك كله وانخراقه واحد على واحد كعلمه معلومًا واحدًا.

ثم حكم بحكم الحق والقسط لنفسه ولسواه ﷻ بقوله عز قوله: ﴿بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ البَاطِلُ وَأَنَّ الله هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

ثم أتبع ذلك بما ضربه مثلاً لمعنى ما تقدم تحقيقًا له بقوله الحق عز قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ الله لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان:٣١] معنى ذلك: فيشتمل ذلك الحكم جميع ما حواه الفلك؛ ولذلك قال جل من قائل: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ أي: على إدخاله الجملة في الحكم الواحد.

وقد أخبر أن ذلك آيات، ولكن هذا مفهوم تناسق الآيات المختلفة، فليتوهم جملة المخلوقات كلها علوًّا وسفلاً كشيء واحد، وذلك قد يشمل المخلوقات كلها في مخلوق واحد على موجود سوى وجوده العلي، قد أحاط ذلك بجميع الموجودات عينًا ومعنى.

فالكائنات والمخلوقات لاغناء بها عن معتمد يعتمد عليه، كالسفينة المعهودة اعتمادها على الماء، وقد كان الماء موجودًا قبل السفينة؛ إذ ليس الماء في السفينة

ولا مما حملته في شيء، حتى إنك لو توهمت عدم السفينة لم يلزم لذلك عدم الماء، فمعتمد هذه السفينة إذًا على ما فرضناه أمر الله ﷻ؛ فإذًا المخلوقات كلها لم يوجدها ﷻ في مخلوق ولا على مخلوق.

فإذا وزان الريح الحامل للسفينة من سفننا وزان الأمر من مؤخر السفينة الموهمة، ووزان الماء الذي تمخر فيه السفينة وتجري فيه هذه السفن، وزان ما عهدها به من الحول وأحاط بها من الحوق ولزَّها من الاقتدار والأمر، وذلك وزان ما أحاط بهذه من زمان ومكان وتوابع ذلك ﴿**إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا**﴾ [فاطر:٤١].

ووزان حدافها وملاحها والمسافرين فيها وزان الملائكة - عليهم السلام - والقوة التي تحللت المخلوقات، ووزان المسافرين المكلفين العباد بتقلبهم من غربتهم إلى قرارهم بأمره، ومن غيبتهم إلى حضورهم وشهودهم ومساكنها وسائسها في أعلاها بأمره، فينقذونه ويسمعون له ﴿**لَّا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:٦].

﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ**﴾وكذلك لو حط الشراع مساك فيه وعطل السكان والملاحين للعب بهم الموج، وربما عدا الريح عليها وهال البحر فأهلكها ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ [الشورى:٣٣] على ما أمر به ونهى عنه، وعلى [شكره] لنعم الله ﷻ، إن في ذلك لآيات لأولي الألباب الذين عبروا من هذه إلى تلك، فشاهدوا الغيب من شاهد الأمر[1].

---

(١) لما كان ما فيها من المنافع بالتكسب من البحر بالصيد وغيره، والتوصل إلى البلاد الشاسعة للفوائد الهائلة، وكانت أعمالهم في البحر الإخلاص الذي يلزم منها الإخلاص في البر؛ لأنهما بالنسبة إلى إبداعه لهما وقدرته على التصرف فيهما بكل ما يريده على حد سواء، سبب عن ذلك قوله: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاء رَبِكمَا**﴾ أي: النعمة العظمى ﴿**تكذبان**﴾ أبنعمة البصر من تحتكم أو غيرها من الأسفار، في محل الأخطار، والإنجاء عند الاضطراب والريح في محل الخسار، والإرشاد إلى ذلك بعد خلق مواد السفن وتعليم صنعتها وتسخيرها بمثابة جميع الكون، فخدامها كالملائكة في إقامة الملكوت وتحسين تماسكه بإذن ربهم، والمسافرون بها الذين أنشئت لأجلهم وزان المأمورين المكلفين المتهيئين الذين من أجلهم خلقت السماوات والأرض، وما بينهما فعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم، ومن غيبتهم إلى =

وقد تصرف الاعتبار بالفلك، فتكون السفينة جارية في البحر آية على قطع المؤمن أيام الدين، فالدنيا هي البحر، والسفينة بدنه وهي حاملته، والعقل والعلم دليلان مشيران عليه بما فيه هدايته وبلوغه إلى وطنه، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبيره إياه محيط بها، والإيمان أمنتها والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والعمل بطاعة الله ﷻ يصلح ما فسد منها، والرسول ﷺ سائقها وقائدها بشارة ونذارة.

وقد يصرف الاعتبار بالفلك إلى أن تكون جارية في البحر آية على قطع مدة البرزخ، لذلك قال الله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:٣٣].

وقال جل قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١-١٢] فعجب ﷻ بذلك، ويعلم أنه قد أوجب البحث عن خفي السر المستودع في الخطاب بما تقدم، وثنى ﷻ بأنه العجب العجيب.

كما قال عز من قائل في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦] ألا تسمعه ﷻ كيف صرف وجه الخطاب متصلاً بما تقدم في سورة الحاقة إلى وصفه أهوال الآخرة بقوله جل قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة:٢٥] إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠] إلى قوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٦] إلى قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠] يقول: إنه الوحي لا غيره.

=

حضورهم ومشاهدهم، ومدبرها أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فيعدونه ويسمعون له، ثم قد يصرف الاعتبار إلى أن تكون آية على قطع المؤمن أيام الدنيا فالدنيا هي البحر، والسفينة جسمه، وباطن العبد هو المحمول فيها، العقل صاحب سياستها، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبيره محيط بها، والإيمان أمنتها، والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه، والعمل الطيب يصلح شأنها. ذكر ذلك ابن برجان. [نظم الدرر للبقاعي (٨/٣٠٥)].

ثم قال جل قوله: ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة:٤٨] أي: هذا القرآن، وما جاء به، وما يتلى عليكم منه ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [الحاقة:٤٩-٥٠] من كفر به؛ أي: في الدنيا والآخرة وفيما بينهما.

ثم قال جل قوله وقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ﴾ [الحاقة:٥١] هنا هو الموت؛ أي: هو الكائن والواجب كونه لا محالة بعد الموت، كما قال عز قوله في سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] أي: حال الموت في دار البرزخ ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ﴾ [الواقعة:٨٩-٩١].

كما قال رسول الله ﷺ: «**يفرش له قبره ويوسع له فيه، ثم يقال له: نم صالحًا**»[١].

وفي أخرى: «**نم نومة العروس**»[٢].

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤].

ثم قال جل قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥] أي: الحق الواجب لكونه حال الموت.

ثم قال ﷻ في الموطنين: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٦] لينفك يومئذٍ.

ومنه قوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١-٤٢] سيَّرهم في البحر في السفن، وسيرهم في البر على ما خلق لهم من مراكب الأنعام والدواب، الراجع عليه الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هو نوح ﵇ ومن معه في قوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ قريش والعرب، وكل من توجه إليه الخطاب بالقرآن العزيز.

يقول الله جل قوله وهو أعلم: كما حملنهم في الفلك المشحون يومئذٍ قبل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩٧٠)، والبخاري (٦٨٥٧)، ومسلم (٩٠٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٧٠٣)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (ص٦٤).

إيجادهم حين لم يكونوا شيئًا مذكورًا إلى أخرجناهم كل جيل منهم على نوبته إلى دار الدنيا، واستخلفناهم فيها ومتعناهم فيها إلى حين، كذلك نحملهم في فلك الدنيا التي هي أجسامهم إلى الآخرة، ونحملهم في مدة البرزخ على أمثالها.

كما قال جل قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فنُزُلهم المشقة لهم من أعمالهم، كما أنزلناهم في دار الدنيا على أرزاقهم المقدرة بهذا، وما هو في معناه أتتهم الرسل - عليهم السلام - الذين ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس:١٤] فكذبوهم، فكان من شأنهم ما قصّه الله جلَّ ذكره.

ثم قال عز قوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1] [يس:٣٠].

ثم عرض ﷻ بحال من ذهب منهم في دار البرزخ بقوله جل قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١].

ثم أعلم ﷻ ببعض حالهم بقوله جل قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] والإحضار عبارة عن التنغيص فيما هنالك وسوء الحال، كما قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨].

وقال أيضًا ﷻ: ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:٦٨] وبالإيماء يكتفي الألباء.

ثم جعل يسرد ﷻ عليهم ذكر الآيات على صدق ما أتتهم به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بقوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ على ذلك ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] وهم عدم مقدرون في أصلاب آبائهم.

ثم صرف ﷻ وجه الخطاب في الظاهر إلى الإخبار عن الفلك المشاهد،

---

(١) قوله ﷻ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِم﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: يا حسرة العباد على أنفسها، قال قتادة، وحكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم في بعض القراءات متلوًا. الثاني: إنها حسرتهم على الرسل الثلاثة، قاله أبو العالية. الثالث: إنها حسرة الملائكة على العباد في تكذيبهم الرسل، قاله الضحاك. وفيه وجه رابع: عن ابن عباس أنهم حلوا محل من يتحسر عليهم. النكت والعيون [(٣/٤٤٢)].

بقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] أي: من مركب الأنعام والدواب المشاهدة.

يقول عزَّ من قائل: فكما خلقنا لهم الفلك المشاهد ومراكب الأنعام تحملهم في هذه وهذه، كذلك إذا امتناهم والموت بحر بعيد غوره نخلق لهم من مثل مراكبهم التي هي الأجسام، أو مثل ما خلقنا منه مراكبهم؛ يعني: مثالات لأجسامهم الحاملة لهم في الدنيا، وهي المماثلة في الحقيقة، ومراكب الأنعام والدواب لا يماثل الفلك والأجسام إلا في أنها حاملة لما حملته فحسب.

وهذه الخالقة للأجسام أحق حقيقة وأعرق في وصف المثل والمثال، وإنما انسرد الخطاب على تصديق قوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢] وإحياء الموتى يتوجه الخطاب به إلى إحياء الأجسام يوم البعث، وإلى إحياء الموتى حال موتهم، وهؤلاء في هذا الموطن، وهنا معنى أيضًا بسياق الإيماء على إحيائه بالحياة الآخرة الجسمانية يوم البعث.

بقوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس:٣٣] ثم أتبعه بقوله جل قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] أنبأ ﷻ فيما تقدم ذكره من الإحياء بعد الموت حال الموت.

كذلك قال عز من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر:٧٩] ينبؤهم ﷻ بركوبهم إياها على الصراط وفي الجنة.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ توجة بالخطاب إلى أنه بخلقهم من ألبانها ولحومها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٨٠] أي: في الآخرة، وفي هذه يخاطب المؤمنين، وقد تقدم ذكر ركوبها قبل، فهذا الحمل هو في الآخرة.

ثم قال جل من قائل: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١] فإنه قد يصرف الاعتبار من قوله ﷻ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢] إلى مراكب الجنة خَيلها وإبلها وجميع مراكبها، يركبونها مسخرة مزينة لهم، لا تبول ولا تروث ولا تنفر إلى الزيارة

الكريمة، وحيث شاء من بيوتهم في الجنة، فإذا رجعوا رجع من شاء منهم في السقر، تجري بهم في أنهار السلسبيل والتسنيم والكافور، وطينها المسك الأذفر، وحصبائها الياقوت، وقصب حافاتها العقيان والزبرجد، قد تجري بهم تلك السفن برياح الرحمة في أنهار لا حدود لها، يشرفون منها على سواحل ممالكهم وكريم منازلهم [بأقاربهم][1] وولدانهم، يلقون هنالك ﴿تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان:٧٥].

فصل

اعلم أن كل شيء مسخر لبني آدم في هذه الدار من كل ما شمله.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

وقوله جل قوله: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2] [البقرة:١٦٤].

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فهو آية الله ﷻ يعلم بذلك عباده إنه في الدار الآخرة يسخر لهم كل شيء سخر لهم ها هنا أو لم يسخره، حتى إن نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - يسخرها لهم فلا تعدوا عليهم.

قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٣٨-٤٢] إلى آخر المعنى.

فكان هذا مصداقًا لما أنبأ به رسول الله ﷺ: «**إن المؤمنين ليشفعون لإخوانهم**

---

(١) في الأصل: بقهارمتهم.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» والبيهقي في «الأسماء والصفات» وابن عساكر عن معاذ ابن عبد الله بن حبيب الجهني قال: رأيت ابن عبّاس سأل تبيعًا ابن امرأة كعب: هل سمعت كعبًا يقول في السحاب شيئًا؟ قال: نعم، سمعته يقول: إن السحاب غربال المطر، ولولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض. قال: وسمعت كعبًا يذكر أن الأرض تنبت العام وتنبت نباتًا عامًا قابلاً غيره. وسمعته يقول: إن البذر ينزل من السماء مع المطر فيخرج في الأرض. قال ابن عباس: صدقت، وأنا قد سمعت ذلك من كعب. [الدر المنثور (١/٣٣٢)].

الذين في النار، يقولون: ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا ويصومون ويحجون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم فيها ممن عرفتم فأخرجوه منها، قال: فيذهبون فيعرفونهم بدارات وجوههم ومواضع السجود منهم، فيخرجونهم...»(١).

أما في الجنة فكل شيء مسخر لهم طائع، شمل ذلك قول الله ﷻ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ [ق:٣٥].

وأما أهل النار فبالضد في ذلك، سلط عليهم كل شيء غير مسخر لهم حتى إنهم ليسلطون على أنفسهم بالذم لها والسب واللعن؛ لأجل عظيم الندم، والاعتراف بما كانوا عليه يأكلون أيديهم ندمًا حتى تفنى، ويسلطون على أنفسهم من كل وجه من النكال - نعوذ بالله العظيم من أحوال أهل النار في النار - فهذا من الحق المخلوق به السماوات والأرض.

فصل

في الاعتبار بالماء ينزله الله جل ثناؤه من السماء

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ ثم قال جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المُوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

فأثبت لنفسه ﷻ بموجب الحق والدليل على أنه الحي المحيي المميت، وإنه القادر على كل شيء، وإنه المنزل الماء من السماء وأنه المنشئ المريد لا يكون شيء من ذلك ألا بمشيئته وإذنه في ذلك، ما شاء من ذلك كان وما لم يشأ لم يكن، وإنه الواحد؛ لأنه المنزل الماء من السماء؛ إذ لو كانت السماء له دون الأرض لمانعه مدعيها، لو كانت له الأرض ولم يكن له السماء لوقع التمانع في توصل الأحكام وتفصيل القضايا وترتيب الأفعال الكائنة عن ذلك، ولولا أنه الإله الواحد الأحد في السماوات والأرض لم يتصل، ولانخرم النظام فلم يتسق الإحكام، ولفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٧٩)، والآجري في الشريعة (٨٠١) بنحوه.

وقال أيضًا ﷻ: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

ثم قال وقوله الحق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج:٦-٧] فهذه دلائل على مدلولات أغنى باجتلابها إياها عن ذكرها.

فصل

قد تقدمت إشارة إلى التنبيه على الاعتبار بالماء، وأنه آية على نزول الأمر، وإن تصريفه فيما يخلقه الله ﷻ وتعالى منه آية على تصريف الله ﷻ الأمر، وما يكونه عنه في جميع الكائنات، وكذلك هو أيضًا آية على تصريف الوحي يوحيه إلى رسله - صلوات الله عليهم وسلامه - وينزل به كتبه ويصرفه في الهدايات والإضلال على درجات ذلك ومحاله.

وكذلك هو آية على إحياء الله الموتى وبعثهم يوم البعث، ونشرهم يوم النشور، وكذلك هو أيضًا آية على أن الساعة آتية لا ريب فيها، ولا مرية في العلم بها، دل على ذلك همود الأرض وموتها في وقت معلوم، ثم نزول الماء وإحياؤها به في وقت من الزمان معلوم منتظر، كذلك الساعة لموعد لا يخلفه الله.

ولما قال الكفار: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٧١] أجابهم رب العزة ﷻ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠].

جعل الله الجليل جلَّ ذكره حول السنة مقتضى لدلالات أول الإحياء، ثم الإماتة، ثم الإحياء، كذلك اليوم والليلة، وقد تقدمت إلى ذلك إشارة، وذلك كله دليل حق وشاهد عدل على أن الله ﷻ هو الحق المبين بأن الحق خلق به المخلوقات، وبثَّه في المعلومات، وصور علمه بصورة المخلوق.

وكما لا يكون فعل إلا من فاعل ولا يوجد المصنوع إلا من صانع كذلك لا يكون إنزال الماء وتصريف الرياح وتسخير السحاب وإماتة الأرض، ثم إحياؤها بإخراج ما يخرج منها على اختلاف ضروبه وتباين أجناسه، ثم إيجاد الموجودات عن ذلك بغير موجود أوجد ذلك وفاعل فعله، وذلك أيضًا آية على إنه على كل

شيء قدير، وبكل شيء عليم، المنشئ بكل سماء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، القائم على كل شيء ومصرفه ومقدره، له الأسماء الحسنى والصفات العلا والمثل الأعلى، العلي الكبير.

لما صرف الماء هذا التصريف، ونوَّع ما صرفه هذا التنويع، واقتدر على المقدورات كلها التي خرست الألسن عن وصفها، وإن أبلغت وعجزت الفهوم عن الإحاطة بها ولو أوغلت، بل عجزت عن وصول بالعلم وتحقيق بذهن إلى تحصيل حقيقة جزء من أجزاء ذلك وإن حرصت، كلا بل رجعت حسيرة عن بعض مرادها، ونكصت عن مقموعة على أعقابها.

فبينما هي كذلك قائمة بين الطمع والرجاء، تتقلب في غيب المشقة والعناء؛ إذ ناداها العلي الأعلى يخاطب منها رجم الظنون بقوله الحق جل قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] فرجعت إليه إيمانًا، وشهدت له إيقانًا قائلة له: أنت المطلوب في كل وجهة، والمقصود بكل طلبة، والمراد بكل معنى، آمنا بك وبكل ما جاء من عندك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾[آل عمران:٨].

ربنا عليك وإليك أنبنا، فافتح لنا وعلِّمنا من لدنك علمًا، واجعلنا من أولي الألباب، وهو أيضًا آية على إحياء الله الموتى حال موتهم.

من ذلك: بعض ما توجه إليه قوله الحق جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤] فشجرات الدنيا وثمراتها لها أحايين معلومة وآجال منتظرة، وذلك آية على اعتبار قد تقدم ذكره من نشء الدنيا إلى الآخرة، إن شجر الجنة وأوراقها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها أبدًا على الولاء وعموم الأحايين.

فأحايين الدنيا سنون ومدد متراخية، وأحايين الآخرة غير منفصلة، بل متصلة، يخلف المثلُ المثلَ دون زمان محسوس، وأقرب من ذلك ما ضربه الله ﷻ به مثلاً الكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا الله، وكل كلمة طيبة بعد تصحيح العقد شهادة الحق تعطي أكلها أبدًا على الولاء، متى قالها، متى شهد بها، متى عمل بمقتضاها،

متى تحركت بما هو كلام طيب شفتاه أتته أكلها ذلك الحين، بل أسرع من حين قوله إياها معًا وعلمه بها، وهو أسرع الحاسبين.

وقال جل قوله: «**وإذا أتاني يمشي، أتيته هرولة**»[١].

فانظر - وقفنا الله وإياك - قربها بالشبه على قدر قربها بالتوجه وجودًا، وشرعة.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا، وأن الرجل ليتصدق بالتمرة من كسبٍ طيبٍ فتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، فيربيها كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله حتى تعود التمرة مثل جبل أُحد**»[٢] فتفهم - رحمنا الله الرحيم وإياك - وألقن الخطاب، وأنه ينشئها وينميها تربية وتغذية إلى يوم الدين.

فصل

وفيما لا يسقط ورقة من الشجر تفاضل في ذلك، فمنه ما لا يسقط ورقه كالنخل وغيره شبهه، ومنه ما لا يعرى من ورقه إن سقط بعضه خلفه سواه من الورق كشجر الزيتون والبلوط والبطم وشبهه، ومن الشجر ما يؤتي أكله في حين حياة الأرض بالماء، ومنه ما يؤتي أكله حين مماتها.

ومن النبات ما يكون إقباله وانحطاطه من العام حين حياة الأرض وحين موتها، كذلك وهذه آية على أن حياة في حال الموت، وموتًا في حال الحياة، ومن الشجر والثمر والفواكه ما يؤتي أكله في بطن، ومنه ما يؤتي أكله بطنًا بعد بطن وشيئًا بعد شيء، وهذه آية على أن هذا الحق ينشأ كغيره إلى ما يؤتي أكله كل حين على العموم دائمًا على الولاء.

ومن النبات والشجرة ما يفضل بعضه بعضًا، وأنه قد يكون من الفاضل ما لا يسقط ورقه ولا يعدم ورقًا، وقد يكون ذلك في المفضول أيضًا موجودة فيما هنالك كحياة فرعون وآله. قال الله ﷻ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

وقال جلَّ قوله: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٩١٩٦)، والطبراني في الأوسط (٧٠٨)، وابن بشران (٩٣٧).

أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يعني: ما دون يوم القيامة.

قال الله جل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] [النحل:٦٣] يعني: يوم القيامة.

كما قال جل قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] بالإضافة إلى عذاب البرزخ، وهو أيضًا آية على النبوة والاصطفاء، ثم لو أن ما يخرجه الله جلَّ ذكره بالماء من الأرض متفاضلاً آية على الاختصاص والاصطفاء والولاية من الله لعباده من شاء منهم بذلك في الدنيا والآخرة، وإن ذلك حق ينشئه الله ﷻ من الأرض من بقاعها وأماكنها وبلادها ومعادنها.

ثم نباتها على اختلافه وتفاضله في مضاره ومنافعه وطعومه وروائحه، ثم حيوانه بهيميه ووحشيه وإنسيه، ثم أناسيه مؤمنةُ وكافرةُ مخلصةُ ومنافقةُ، وإنهم درجات عند ربهم كما تفاضلت بقاع الأرض فكانت لما كان عنها أمًا، وتفاضل ما يصرف الله الماء؛ إذ كان لهم أبًا، فالتفاضل موجود في الأم، وما كان عنها بالماء الخلقة فتبًا للمبطلين الذين أنكروا الخصوصية وكذبوا المرسلين فقالوا: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ﴾ على بشر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ [يس:١٥].

﴿أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] وما [...][2] من يموت الخصوصية والاصطفاء تفاصيل الدرجات في الآخرة جزءً وفصلاً.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

---

(١) ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون اليوم عبارة عن زمان الدنيا، فيكون المعنى: فهو قرينهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده، فيكون للحال الآتية، ويكون الوليّ بمعنى الناصر. والمراد: نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه؛ لأن الشيطان لا يتصوّر منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة، وإذا كان الناصر منحصرًا فيه لزم ألا نصرة من غيره، ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا، وهو على وجهين: **الأوّل**: أن يراد البعض الذي قد مضى، وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية. **الثاني**: أن يراد البعض الحاضر وهو وقت نزول الآية. والمراد: تزيين الشيطان لكفار قريش، فيكون الضمير في «وليهم» لكفار قريش؛ أي: فهو وليّ هؤلاء اليوم، أو على حذف مضاف؛ أي: فهو وليّ أمثال أولئك الأمم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة وهو عذاب النار. [فتح القدير (٤/٢٣٥)].

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

وقال عز من قائل، وقد تقدم ذكر الماء بعد إرساله الرياح، وإنشائه السحاب، وإخراجه به من كل الثمرات وجميع أنواع النبات، وإحيائه به الأرض بعد موتها، وخلقه منه الأنعام والأناسي، ثم قال بعد ذلك: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾ [الفرقان:٥٠] يشير بهذا الخطاب إلى الاختصاص، وإثبات الوحدانية وصفاتها وأسمائها وصفات النبوة والرسالة، وإلى ما جاءت به، وإنه الحق من عند الله، ثم مع هذا يدل الاصطفاء والاختصاص.

فصل

على حقائق الدرجات من ذلك وجود تدقيق التفضيل في موجودات ما يكون عن الماء والأرض، فمن المختصين من يكون خصوصيته بفضيلة واحدة لاثنين ولأكثر ولأقل، وعلى قدر كبر الفضيلة في نفسها وصغرها وبالضد في الإبعاد واللعن يعتبر ذلك بما يكون في وجود ذلك من رذيلة وخساسة، وإذاية وطعم خبيثة ورائحة، وضر وسرف، يسرت له على درجات ذلك واختلافه حتى يتحقق قول الصادق المصدق - صلوات الله وسلامه عليه - حيث يقول: «**إن لله ثلاثمائة شريعة، وأربع عشر شريعة لا يأتي الله عبد بواحدة منهن إلا أدخله الجنة**»[1].

أو كما قال ﷺ: «**وإنما هو الماء ينزله الله ﷻ من كلام ينزله من عنده، ككلامه العلي ينزله من لدنه، ثم يصرفه تصريفًا**»[2].

فتنبه لذلك وتفطن - وفقنا الله وإياك - لما يرضيه سبحانه ﷻ وله الحمد، أخفى الصنعة في المصنوع، وحجب القدرة بالمقدور، وأكن المكنون بالكناية وأغمض وأحكم السر بين المحكم والمتشابه، فما من معنى ولا معلم في الجملة إلا وفي الجزء نظيره، وإن خفي لصغره فبطن لخفائه.

وما في الجزء شيء ولا وجود معنى إلا وهو حق دال على حق له وجود كامل

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٩٨٥)، وفي الأوسط (٨٧٠٩). قال الهيثمي (٣٦/١): فيه عبيد الله ابن زحر، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الشافعي في المسند (٨٢/١) بلفظ: «ما من ليل ولا نهار إلا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء» عن المطلب بن حنطب.

في الآخرة ذلك؛ لأن باقي الجملة مقارن ما في الجزء، وإن تفاوت ما بينها لعظمه فبعد على بادي الرأي، فخفي على تميز، وتعذرت معرفة مقارنته، كذلك ما في المتشابه سر إلا له في المحكم أصل يدل عليه ونظير يشير إليه وإن خفي موضعه واستترت إشارته، وتفصيل هذه الجمل يطول وشرحها يكثر، ومن بلغ هذا القدر لم يعسر عليه - إن شاء الله - استعراض ذلك إيمانًا ثم تعلمًا؛ ليجعل الحاضر مرآته، والشاهد والغائب موضع عبرته، والمقصود بالبيان مطلوبه.

وربما خفي المطلوب في الحاضر وظهرت مثالاته في الغائب بظهور أكثر المعاني فيما هنالك وخفائها هنا؛ لأجل دقيقها، فعلى هذا فليجعل الغائب أمامه وشاهده وموضع عبرته؛ لتصل له معرفة الأشباه والأمثال شاهدًا وغائبًا، وخفية مواقعه الإسهاب والإطالة أن يضطر تسلق سبل الاعتبار حال حقائقها إلى عبارة يتوهم إنها من الخطل، ويظن بالمعنى المعبر عنه من أجل ذلك ما ليس به لما قد يغلب على ظن السامع من رأي كاذب، لا سيما غير الفطن المجرب، فلذلك منع من إثباته في كتاب، وذم مستقصى به زمام، وبالله نستعين على ما يرضيه وإياه نستجير.

فصل

إن قال قائل: الإيمان بالغيب معهود، كشهادتنا أن الله حق، وأن الملائكة حق، والنبيين حق، والساعة حق، ونحو هذا من الشهادة، فإن ذلك موجود حاضر وإن لم يُرَ، وهو الآن معدوم وسيكون في المستقبل، وأما ما ذكرته فنوع آخر تنكره المشاهدة، ولا يكاد العقول تستقر على حال الإقرار به.

فالجواب: إن ذلك كذلك، لكن ما ذكرته من الغيب فهو أولى بحال الإيمان بالغيب، وهو المنصوص عليه من مطالبة المكلفين بالإيمان، وكما أن الغيب ظاهر بالإضافة إليه كذلك له باطن، وإن عقلاً لا يقضي بأن للفعل فاعلاً وللصنعة صانعًا، وأن خالق الأرض والسماوات وفاعل النور والظلمات أحق أن يتبع، ويُبتغَى مرضاته، وتطاع أوامره لعقل غير صحيح.

وكذلك التفريق بين العادة وخوفها، والمعهود من القدر والمعجزات، وكذلك الاستدلال بقوى الحيوان والنبات، وأفاعيل ما يحدث في الأرض والسماوات على

اتصال حكم الشيء في طريق العبرة إلى وجود الملائكة والجن، وغير ذلك من الأمور الغائبات.

وكذلك الاستدلال بتقضي الآجال، وحدوث الأحكام عندها على الساعة، وما يكون إخبارًا عنها وفيها، ثم أدرج القرآن العزيز غير ما هي من وراء ذلك، وكشف عنها رسول الله ﷺ، وهي أحوال البرزخ، ولا يكون أحوالاً إلا المحول عليه بحدها، وأحدها على سبيل الجزاء نعيمًا وعذابًا وإكرامًا وإهانة، ولا يكون ذلك مؤثرًا لا يحس، وعلم ووجد لما يجده من ذلك، ولا يكون إلا بحياة موجودة.

آية ذلك: النوم والرؤيا واليقظة، وما عسى أن يبعث حالته اليقظان حالة يقظته، وما يجده من التفاوت بين الحالتين، ولو وقف الإيمان على الاعتبار بمجرد المشاهدة لعدمت صفة الإيمان بالغيب.

ألا ترى أن النائم تشاهده مضطجعًا خافتًا في موضعه لا يبصر ولا يسمع ولا ينتقل ولا يطعم ولا يشرب، ولا هو في حال يسر معها ولا يحزن ويألم ويلذ، وهو في غيب حاله تلك؟ وربما اجتمعت له هذه الأحوال كلها على حال مخالفة لما نشاهده نحن منه.

وكذلك الميت حال موته مشاهدتنا نحن له أنه ميت في حال البلى والهمود، وتقطع الأعضاء وامتزاجها بالتراب، وكونها طعمًا لما شاء الله، وهو عند أهل الآخرة على خلاف ذلك، ينعم أو يعذب أو يحزن أو يسر، ويقوم ويقعد ويجادل عن نفسه؛ لأنا نحن لا نرى هذه الأحوال من الأموات، فهذه حياة النوم، وإنما يرى بحياة كحياة الملائكة وأهل الآخرة.

ومن تلك الحياة أُعطي الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - والصديقين خصوصًا، أرادهم الله جلَّ ذكره بها فرأوا ذلك إيمانًا ومكاشفة وربما مشاهدة، إنما هما وصفان يتعاقبان على الموصوف فيظهر هذا عند خفاء هذا، ويخفى هذا عند ظهور هذا، وتلك دار وحياة وصفات يدرك فيها وبها الوصفان معًا، فافهم.

وقد أخبر بذلك الصادق الحق ﷻ الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة، وأوصاف الحياة وكل شيء عنده بمقدار، فيعطي من شاء ما يشاء تفضلاً، ويمنع من

يشاء ما يشاء ابتلاء، هذه درجة أولى من الغيب آمن بها، ثم انظر في الدال على ذلك الغيب وابحث على ذلك المطلوب في ذلك الدال عليه، تجده غيبًا في غيب الإضافة إلينا، وهو موجود في كل سبيل، فاعلم ذلك واعمل عليه يفتح لك وهو الفتاح العليم.

ألا تسمع إلى قوله ﷻ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور:٣٥] ولِمَ مثَّل نوره ﷻ وما وجد فيه وما انبسط عليه بشجرة الزيتون، ثم زيتها ما دال إلا ليبعث ﷻ على التفكر في خلق السماوات وما بينهما المنبسط فيه النور، وأيضًا فإن لها دهنًا يعالج بتعمل ويستخرج بتعب، كذلك معنى النبوة والوحي لا ترى نوره ألا بتعمل الذكر وتردد الفكر.

ثم قال ﷻ: ويضرب به الأمثال للناس كي يتفكرون في الأمثال ويستخرج الأمر المراد بها.

كما قال الله جل قوله في موضع آخر: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

وقال أيضًا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ﴾ [النحل:١٠-١١] إشارة منه ﷻ إلى أنه يغذينا به ينشئنا عنه، وإلى أنه يغذينا بألبان الأنعام ولحومها، ويخلقنا عنها وينشئنا.

ثم قال ﷻ: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل:١١] يعلمنا ﷻ أنه يخلقنا مما تنبت الأرض، وإنه أخرج من الأرض جنات، وأجرى عيونًا وشق أنهارًا من الماء المنزل من السماء، يعرِّض بوجود الجنة فيما علا، وأنه أخرج من الماء المنزل فيما هنالك مشبهًا بما أنزله عنه، كالماء يكون عن الإنسان فيخلق عنه إنسانًا، ومن الأنعام كذلك، ومن الدواب وجميع ما يتناسل، جعل الله جلَّ ذكره ذلك آية على وجود الجنة من حيث ينزل الماء إلى ما على ذلك، وعدد في ذلك نعمته علينا في ذلك.

كذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣] وفي ذلك أيضًا تنبيه على أنه كما ينبت جنات ما ها هنا وزرعه، وما تقوم به الدار، كذلك الجنة في الآخرة، وكما الفلاحون هم الغارسون ها هنا، والمتعاهدون والعامرون بها،

والقائمون على حراستها بالنظر منها بتوابع ما يصلحها فكذلك هناك، غير أن الفلاحين فيما هنالك هم العابدون لله، الشاكرون، الذاكرون، الحامدون له والغارسون، هم الملائكة - عليهم السلام - يعملون بإذن الله تعالى لمن يعمل بطاعة الله، وكما ينبت بالماء ها هنا منه ما يكون ابتداء خلقًا وانباتًا بدئيًا.

ومنها ما يكون غراس واكتساب وتعمل، فكذلك في الجنة منه ما يكون مخلوقًا مبتدئًا فأيضًا الجنة، ومنه ما هو مخلوق عن اكتساب العباد بالطاعة لله ﷻ والتسبيح والتحميد والذكر.

قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله غرست له نخلة في الجنة، ومن قال: الحمد لله فكذلك، ومن قال: الله أكبر فكذلك، ومن قال: لا إله إلا الله فكذلك، وقال: من صلى اثنى عشر ركعة في اليوم والليلة من غير الفريضة بنى الله له قصرًا في الجنة، ومن بنى لله بيتًا** - أو قال: «**مسجدًا**» - **بنى الله مثله في الجنة**»[1].

ومصداق ذلك من القرآن العزيز قوله ﷻ: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:١٧].

﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**﴾[2] [الحاقة:٢٤].

وقوله ﷻ: ﴿**نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:١٩].

وكما أن الذي في الدنيا من ذلك على الأغلب العباد الغراس والسقي والعمارة والتعاهد هو أفضل لاجتماع ابتداء الخلقة فيه والاكتساب، فكذلك موجودات الجنة التي يكون منها جزاء لأعمال العباد أرفع في الدرجات، وأفضل وجودًا لاجتماع

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فِي الايام الخالية؛ أي: الماضية، وهي أيام الدنيا، وقيل: أي: الخالية من اللذائذ الحقيقية وهي أيام الدنيا أيضًا، وقيل: أي التي أخليتموها من الشهوات النفسانية، وحمل عليه ما روى عن مجاهد وابن جبير ووكيع من تفسير هذه الأيام بأيام الصيام، وأخرج ابن المنذر عن يعقوب الحنفي، قال بلغني أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم وخمصت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية، والظاهر أن ما على تفسير الأيام الخالية بأيام الصيام غير محمولة على العموم، والعموم في الآية هو الظاهر. [تفسير الألوسي (٢١/٢٢٨)].

الخلقتين فيه جزاءً موعودًا به، وهي أيضًا بما لها من باطن كالزيتون يستصبح به فيكون منه نور يستضاء به، كذلك المستخرج من العلم من الوحي، وما جاءت به النبوة له نور في باطن العالم به هو أثقب من نور السراج، وأفضل عائدة في أكرم هداية.

وكذلك أيضًا للنمو والزرع والأعناب باطن مستجن فيها، كما قال الله ﷻ وقوله الحق: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧] فالواجب أن كل ظاهر من الموجودات له باطن مستجن فيه، يظهره الله جلَّ ذكره إذا شاء كالحياة في الموت، والموت في الحياة، والليل في النهار، والنهار في الليل، وهي آية بما هي.

وجميع ما ينشئه الله جلَّ ذكره من الماء، وما خلقه من دابة السماوات والأرض سائره في سنن خلقه على شرعة هي مفطورة عليها، لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها على إرسال الله تعالى الرسل - عليهم السلام - وشرعت الشرائع ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

فصل

في الاعتبار بما بث فيها من دابة

قال الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة:١٦٤].

ولما أن كان كل دابة خلقها ﷻ من السماء قرن بينهما في الذكر، وقال عز قوله في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٣-٤].

وقال جل من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

وقال عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ

وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢] فوصف ﷻ المتدبر بما بث فيها من دابة باليقين، إذا أحسن العبرة وسلك عن سواء قصة النظر، والتذكر كما وصف ﷻ الناظر في الماء، وفيما يفصله إليه إذا أحسن العبرة، ووفق في النظر بالعقل عنه.

فصل

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] يعني: السماوات والأرض، فاقتضى هذا الخطاب أنه بث في السماوات أيضًا دوابًا نص على أنه بثهن في السماء كما نص على بثهن في الأرض، والملائكة في السماوات على جميعهم صلوات الله وسلامه، وهم موصوفون بالطيران.

قال الله جل من قائل: ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى﴾ [فاطر:١] وهم أيضًا - عليهم السلام - مشاة.

قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء:٩٥] المعنى: فيمكن أن يكون عنى بقوله جل قوله: ﴿فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] الإنس والملائكة - عليهم السلام - وجميع دواب الأرض والجن، وغير ذلك.

وقد جاء ذكر البراق، وإنه يضع حافره عند منتهى طرفه[١].

وجاء أيضًا: أن الملائكة - عليهم السلام - كانوا يوم بدر على خيل[٢].

وكذلك في غزوة حنين قال أنس ﷺ: لقد رأيت الغبار ساطعًا في سكة بني غنم من موكب جبريل، على جميعهم السلام.

وكما في السماوات خيل فليس ببعيد وجود غير الخيل بها من الدواب، وإذا كان يوم القيامة وبدلت السماوات جنانًا، فمعهود وجود الدواب فيما هنالك، وما ذلك أو بعضه ببعيد.

وقد ذكر ذلك الصادق ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه، فهو أيضًا لا محالة حق، وما خلق الله ﷻ في الأرض نوعًا مما هو الخير إلا خلق مثليه في السماء التي هي أدنى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٨٠)، وابن حبان (٤٥)، والحاكم (٣٣٦٩)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والطيالسي (٤١١)، والترمذي (٣١٤٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٤١٤).

إلينا، ثم على التضعيف إلى أعلاهن سماء، غير أن الذي في الأرض من ذلك من نفس واحدة خلق زوجها منها، ثم بث منهما ما شاء من النسل.

قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [النساء:١] أي: أنزلها ﷻ في الماء الذي ينزله من السماء وباخره من النطر، وقد يمكن أن يكون معنى إنزاله إياها استئناسها من توحشها منا وسخرها لنا، ومع هذا فإنه إذا كان في الماء كل شيء مختزنًا فأنزله فمن السماء أنزلهن، وإذا أرسل ﷻ الرياح بأمره وأنزل الماء من السماء بإذنه إلى الأرض فخلق ﷻ ما شاء من طائر ودابة وكل شيء حي، فكل ذلك موصوف بإنه مبثوث في السماء.

ولذلك قال جل قوله على إثر ذلك: ﴿هُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] يجمعها ما تصاعد في الأجواء، وما رَست في الأرض.

وكذلك قال جل قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] وإنما كان محتويًا كل شيء في السماء بواسطة الماء، فحكم جميع الحيوان حكم جميع الجنات التي أخرجها بالماء ينزله من السماء إلى الأرض، لما كان على جنات أو مرصدة لأن تكون كذلك كالشبيه من الآباء والأمهات، وربما هجس في خاطر ما يكون في الأرض موجودات للدود والحيَّات والخشاش، ولا يوصف بأنه من الجنة، ولا يكون منها.

فالجواب: هو في معنى قول الله عز من قائل: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾[1] [الرعد:١٧] المعنى إلى آخره.

وإنما كان الزبد في الماء بازدواجه بالأرض وبها في الجو من النار والبرد الموجود عن نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فإذا كان يوم القيامة خلص الله جلَّ ذكره الطيب من الخبيث، ثم جعل هذا في الجنة وهذا في النار، هذا كله آيات بينات عن وجود العالي؛ إذ العدم ظلمة ومجهل، والوجود نور ومعلم،

---

(١) الزّبد: الخبث الذي يظهر على وجه الماء وكذلك على وجه القدر «رَابِيًا» أي: عاليًا مرتفعًا فوق الماء، فالماءُ الصَّافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار، وجوانب الأودية هو الباطل. [تفسير اللباب لابن عادل (٩/٤١٥)].

نصَّ الله على ذلك بقوله الحق عن قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

ثم وجود القوى في الجماد والنبات آيات على وجود الملائكة - على جميعهم السلام - ووجود الجن، ثم وجود العلوم والعقول والأحلام والأفكار والحيَّات على أنواعها بجميع صفاتها ومعانيها، آيات مبينات عن وجود أسمائه الحسنى وصفاته العُليا بعد تحصيل العقد بأن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

واستشعار النفس معنى قوله الحق: ﴿لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنيع وصفه عن سواه ﴿الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] أحكم كل شيء وأودعه دلالة عليه، وحمَّله الشهادة له بما هو أهله، فكل شيء في السماوات والأرض يسبحه بعلائه وعظمته عن سفال نفسه وحقارتها.

وهو معنى قوله الحق جل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] وهو أيضًا عبرة إلى أن في النار لأهل النار أمطار يمطرونها وصواعق يصعقونها.

قال الله ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١) [الرحمن:٣٥-٣٦].

وقال جل قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٣٢-٣٤].

وقال عز من قائل في المطر: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠] لا مأوى لهم يأوونه دون ذلك ولا كِنٌّ يكنهم، وفيه أيضًا من العبرة إلى أن في الجنة ضد ذلك إلى أن كل ما ينسب إلى الرحمة ويعرف بها.

كذلك قال ﷻ - وهو أعلم - على إثر ذلك: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

---

(١) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فيه أربعة أقاويل: **أحدها**: إن الشواظ لهب النار. **الثاني**: إنه قطعة من النار فيها خضرة. **الثالث**: إنه الدخان. **الرابع**: إنها طائفة من العذاب. وأما النحاس ففيه أربعة أقاويل: **أحدها**: إنه الصفر المذاب على رؤوسهم. **الثاني**: إنه دخان النار. **الثالث**: إنه القتل. **الرابع**: إنه نحس لأعمالهم. [النكت والعيون (٤/٢١٢)].

وهو أيضًا آية على أن النبوة من الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بينهما، وأن الرسالة حق من ذلك سنن الأنبياء وشرائع المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - حق من ذلك الحق الذي تقدم ذكره.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] وهو أيضًا عبرة بما فيها من تصاعد الجملة من جماد إلى نبات إلى حيوان إلى إنس إلى جان إلى ولي إلى نبي إلى ملك، هذا أبين بيان وأنور آية على أن صانعها يصعد إليه التوحيد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كما صعد من أبعاض الجمل كلها، ألا إلى الله ترجع الأمور؟.

فالكمال إليه صاعد، والكثرة إلى الوحدة صائرة، وكذلك كثرة الصفات إلى الموصوف بها وتغاير الأسماء للمسمى بها غير موجد ذلك كثرة في الموصوف المسمى.

آية ذلك: إن أحدنا متكثر الجملة من حيث هو جسم مركب من أعيان أجزاء، ومن حيث هو جملة بها ظهرت ذاته فهو واحد، ويكون أحدنا متكثر الأسماء والصفات والكنى والألقاب، والموصوف المسمى واحد من حيث هو هذا فيمن يجوز عليه الكثرة، فكيف بمن يستحيل عليه وصفها، وهو المسبح المنزه عنها؟!

كذلك الاعتبار في كل أمة التفاضل بوجود فيها إلى أن يصعد تفاضلها إلى التوحيد لسانه أو يقارب ذلك، فهذا دليل على الاصطفاء والاختصاص بالولاية والنبوة والرسالة زائدًا إلى ما فيه من الدلالة على الوحدانية ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥].

فصل

في الاعتبار بما أظهره الله ﷻ في الإنسان من نشأته إلى انقضاء أمده

خلق الله جلَّ ذكره آدم وذريته بقدرته إلى ما شاء في سابق علمه فبثهم أولاً في سبع.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:١٧].

وقد تقدم كيف سنن الاعتبار من السبع الدُّنى إلى السبع العلا، وإن من كل سماءين من الطرائق التي هي مجاري الأمر العلا ضعفين ما بين السماءين التي تحتها، فتلك سبع في سبع، ثم خلقه من سبع هواء وماء ونار، ثم ريح، ثم أرض، ثم نبات، ثم ماهو الغذاء كألبان الأنعام ولحومها.

قال الله ﷻ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١] من سلالة من ماء مهين، ثم نقله في الخلقة من السلالة في سبع.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] ثم هو تقلب في التدبير من حيث التعبد في سبع.

قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] إلى قوله جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠].

ونظيرتها في سورة المعارج، ثم بعد يسير إلى سبع: يموت، ثم يُحيى، ثم يُسأل فيثبت أو يفتن، ثم يجزى بخير أو شر، ثم يروح ذلك عليه بكرة وعشية، ثم يحيى الحياة الآخرة حياة الأجسام ثم يُبعث.

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥].

وأضرب جلَّ ذكره عن ذكر ما في حال الموت، بيّنه رسول الله ﷺ قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٦] بعد ذلك.

ثم يفضي ذلك إلى سبع: بعث، ثم حشر، ثم عرض، ثم حساب، ثم سؤال، ثم ميزان، ثم إجازة على الصراط، ثم دار القرار.

فصل

قال الله جلَّ ذكره: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨].

وقال جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبصِرُونَ﴾

[الذاريات:٢١]. وقال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٤]. وقال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

سبحانه ﷻ وله الحمد، أحسن تقديره وأتقن تركيبه، وقسَّم أجزاءه ورتب أعضاءه، وأحكم تدبيره فأبدع تصويره وصنعه بشرًا، وشق له سمعًا وبصرًا، وجعل له يدين ورجلين وظهرًا ووركين وبطنًا وجنبين ولسانًا وشفتين، ثم هداه النجدين.

وهذه كلها أعضاء مركبة لضروب المنافع لا غناء له عنها، ولا حياة له إلا بها، وهي كلها من جهات الافتقار والحدث؛ إذ القديم ﷻ ليس بمفتقر إليها ولا إلى شيء غيرها، والمنافع والمضار لا تجوز عليه من حيث هي صفات نقص وفقر وعجز.

كذلك هيَّأ له آلات لقبول الغذاء الذي يكون به حياته وبقاه، وجعل ﷻ لغذائه بلطيف حكمته وعلي قدرته موالج ومسالك ومنافذ ومحابس ومخارج، ثم نفخ فيه الروح وألزمه الحركة والسكون، وجعل الرحم مسكنه والبطن منزله بحيث توارى عن العيون، وخفى عن الظنون، مطبقًا عليه في مضايق الأمعاء وظلم الأحشاء، مغشي الوجه بالسابياء، فقل كيف خفي على ما هو فيه من ضنك المحل الذي لو رد إليه بعد خروجه عنه لعاجله الهلاك قبل الاستقرار فيه.

آية جعلها ﷻ على الحياة في القبر؛ إذ مدة الكون في البطن برزخ بين الموت الأول وبين وجود هذه الحياة، بل أوصل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إليه في مضائق الأحشاء حصة من الغذاء، وحفظه من الآفات، وحماه من العاهات بحيث لا يصل إليه رفق الآباء والأمهات؛ ليتم ﷻ فيه مراده، وينفذ فيه حكمه وعلمه.

ثم نقله من ضنك ذلك المحل وضيق ذلك المنزل إلى دار المحنة ومحل الابتلاء والفتنة، ولما أفضى إليه بكى فقال: ما الذي عليه بكى، وإلى أرحب ما كان فيه أفضى؟ كلا، ما بكى حتى يلقاه قبل المبرة فيه الأذى، وتلك آية على وجود الابتلاء الذي وجد له، والمحنة التي أعدت له ومقدمة معرفة ما هو صائر إليه من الفزع يوم ينفخ في الصور ويبعث من في القبور.

لما يؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكا الطفل ساعة يولد

وإلا فمــا يبكــيه مــنها وإنهــا لا وســع ممــا كــان فــيه وأرغــد

ثم تلمظ[1] لما جاء يستدعي على الرضاع، فلم يألُ في إجهاد حلمة الثدي مصًّا للبن أمه، فلما أساغه وسري في جسمه سكنت حرارة جوعه، فسكن فقلت: ليت شعري، كيف اهتدى لمصِّ ثدي أمه وهو لا يرى ولا يسمع ولا يعقل ولا يعلم ولا يعي ولا يفهم؟

ومن أين علم أن هناك لبان يغذوه، وإنه بالمص يستخرجه وبالإساغة يتم غذاءه، ويهدي جوعه ولم يعرف شيئًا من ذلك؟! بل الذي خلقه فقدره هداه إلى ما له قدَّره، وهذه آية على تثبيت الله ﷻ الذن آمنوا يوم القيامة، وفي عرصة المحشر؛ إذ لا اختيار لأحد ولا رأي يدبره، بل الأمر كله لله.

يقول الله جل من قائل: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ**﴾ [إبراهيم:٢٧].

﴿**فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾[2] [البقرة:٢١٣] بما فطرهم عليه من الإسلام، وأضل الظالمين عن ذلك، وفي الأغلب أنه لا رأي في ذلك للعقل، وإن كان فالرأي والكسب في ذلك وغيره لله جلَّ ذكره.

كلا ما اهتدى لذلك بتمييزه ولا بعلمه، بل هداه إلى ذلك خالقه ومصوره ومربيه ومدبره، وجاعله سبب حياته ونموه وبلوغه إلى منازل رزقه وإتمام أجله،

---

(١) أي: حرَّك لسانه.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿**فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾ فاختلفوا في يوم الجمعة فأخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد فهدى الله أمة محمد بيوم الجمعة، واختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس وهدى الله أمة محمد للقبلة، واختلفوا في الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلي وهو يتكلم ومنهم من يصلي وهو يمشي فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام فمنهم من يصوم النهار ومنهم من يصوم عن بعض الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم فقالت اليهود: كان يهوديًا، وقالت النصارى: كان نصرانيًا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. [الدر المنثور (٤٨٨/١)].

كما هداه ﷻ إلى فطرته، وأضله عن هدايته؛ ليبلغه إلى تمام كلمته وما سبق له في علمه من شقاوة أو سعادة لأجل هداية تكون منه أو ضلالة.

ثم هو لا يزال ينتقل في مراتب إنشائه منقلة منقلة كما يقربه إلى أجله مرحلة مرحلة حتى بلغ به مداه، وركب فيه العقل وصحة التمييز والفطنة وحسن التدبير، ومعرفة العلل وعلم مخارج الأسباب، ومآل كثير من الأمور، ثم رفعه في درجات ذلك حتى أبان فضله على سائر الحيوان، وسخر له أصناف العالم ليتصرف في منافعه ومصالحه التي بها قوامه.

وتلك آية الله تعالى أنه سخر له أن اهتدى موجودات الآخرة فاعبر - وفقنا الله وإياك - من مقامك هذا موطئ قدميك ومَلمح بصرك وموضع مشاهدتك، كيف ضمن الخالق الرازق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه له جميع أصناف العالم رزقه وسخرها لمصالحه، فالأرض قراره ومسكنه.

ومما ينبت من النبات والشجر والحيوان معاشه ومعاش ما يعنون به وتستسخره، وتتصرف في منافعه من الأنعام والحيوان والأنهار والعيون مشربه وشربها، ثم اقضِ بذلك على مثاله إن اهتدى إتمام النعمة وتسخيرها هنالك له، كما قال عز من قائل: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [الفرقان:١٦] وبالضد إن لم يهتدِ.

ثم ارضَ، وما تضمنه متصلة بالأزمنة، والأزمنة متصلة بالفلك، والفلك متصل به فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وكذلك هو متصل بفتح الله برحمته، فالأزمنة من أجل ذلك مختلفة بالحر والبرد الكائنين عن نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - فسبحان الله وله الحمد ما أعجب تقديره، وأتقن تدبيره وأمضى يسره وفقره.

انظر إلى تسخيره إياها واعجب لهذي، وهي لعباد الله أعدى عدو وجعل هذين النفسين منها منها أبدًا متتابعين متعاقبين، منصرفين إقبالاً وإدبارًا لمصالح العباد مع ما يفتحه الله من رحمة من عنده كلما فار أحد النفسين وعدى وأدى أعاد عليه عاقبة بواسطة فتح رحمته.

وتلك آية منه على الحق الواجب كونه في الدار الآخرة الذي عبر عنه رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم يجعل فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويقال لها: هل**

امتلأتِ؟ وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الرحمن فيها قدمه، فتنزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط»[(١)].

ولولا تعاقب ذلك النفسين وتصرفهما بما صرفهما به وسخرهما له ما طلعت ثمرة ولا نبتت شجرة، ولفسدت البلاد وهلكت العباد؛ ذلك لأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لهذا خلقهم، وبهذا التدبير أنعشهم، وإذا شاء جعل أمره على ما هو مشبوه العلم القدير، فسبحانه وبحمده جعل عيشهم فيما كان يكون به هلاكهم، والأزمنة متصلة بالرياح الهابة في الجهات الأربع على حكمته المقسومة في تدبيره الكريم، وفتح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - واستخدامه لها في مصالح العباد.

والرياح مقسمة على الطبائع الأربع، والطبائع عبارة عن حدود جعل الله جلَّ ذكره لتناهي الفتحين حين ارتكاض ذينك البحرين، فحد لهذا أن يكون حارًا يابسًا، وقدر أن يكون الماء المنزل من فتح رحمته باردًا رطبًا، غلب به رحمته على غضبه بأن رطَّب اليابس وبرَّد الحار.

ثم فَصل خلقه عن ذلك الماء، وأخرج فيما خلقه عنه وعن الأرض بواسطة ذينك الفتحين شبه الآباء والأمهات والأعمام والأخوال في الأبناء، وفي اللذاذات والحلاوات والمرارات والمنافع والمضار، وجميع المعاني كلها بأوزان موزونة وحدود محدودة، وللطبع من الأوصاف المذمومة، فالرياح أول لهذا التنزيل.

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم:٤٦] و﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] وهي اللواقح أيضًا فتلقح للأجواء ماء، وينشر الله السحاب على ما في الأجواء من نفسيين.

فمنها: حارة تلقح الأجسام والثمار.

ومنها: باردة تبرد الأنفاس وتشد ما حلته الحرارة.

ومنها: رطبة ترطب ما أيبس الحر والبرد.

ومنها: يابسة تشد ما ترطب، فافرط لتنشيفها الرطوبات الزائدة، والرياح متصلة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، وأحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والنسائي فى الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

بالرحمة بواسطة المشيئه العالية.

قال الله جل قوله وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهي متصلة بالسحاب، قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى﴾ [الأعراف:٥٧] ومثله كثير.

والسحاب متصلة بالماء، والماء متصل بالفتح من عنده ﷻ بالرحمة منه، والسحاب مسخر بين السماء والأرض تجمع الرياح، منها ما تفرق، منها ما انطبق، وتزجها سوقًا فتحملها إلى البلدان البعيد، وتصرفها بإذن باعثها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بحكمة جاعلها ورحمة منشيها ﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [النور:٤٣] وبالأمطار التي تكون عن الفتح من منزلها بحياة العباد.

والبلاد والأمطار متصلة بالأزمنة التي لو تأخرت عنها هلكت العباد، وأقشعرت البلاد، والأزمنة أيضًا متصلة بالشمس وبحركة الفلك وبالقمر؛ إذ سلطان الصيف والنهار للشمس، وسلطان القمر لليل والشتاء، والشمس والقمر متصلان بدور الأفلاك، والفلك متصل بالسماء من علو، ثم بفتح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - من سفل.

صنعة عجيبة ظاهرة، وحكمة بليغة زاهرة، وآية بينة واضحة، ودلالة قائمة لائحة، خصمت ألباب المبطلين، ودحضت حجج المعطلين، ورفعت شكوك الجاحدين، وأنارت بصائر المبصرين في الله رب العالمين، وفي الحق المخلوق به السماوات والأرض والدار الآخرة جنتها ونارها سعيرها وزمهريرها، وعدها ووعديها على تفصيل ذلك كله أنه ﴿الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

فصل

قد تبين بحمد الله وعونه أن خالق الإنسان وما به قوامه من السماء والأرض وما بينهما هو الله رب العالمين وحده لا شريك له، وإن به قوام الإنسان من أرض وسماء وأفلاك ونجوم وشمس وقمر وهواء وليل ونهار، وما يختلفان به ويتقلبان به

آيات مبينات على أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا.

ومما يزيد في ذلك إيقانًا إن شاء الله: عِلمك بأن الله ﷻ خلق الإنسان مضطرًا إلى الأرض، ولا يمكنه الاستقرار إلا عليها؛ لتعذر استقراره على الهواء، وامتناع رقيه إلى السماء، فلو كان خالق السماوات غير خالق الأرض التي منها معايشه وعليها استقراره لم يكن ليخلقه مضطرًا إلى الأرض وهي في ملك غيره يمنعه منها ويدفعه عنها.

وكذلك خالق الإنسان هو خالق النبات والشجر والحبوب والثمار، ولولا ذلك لم يخلق الإنسان مهيًّأ للغذاء الذي لا يحيى إلا به، وليس في ملكه ما يعدوه وغيره من الحيوان، ولو جعل غير ذلك لكان غير موصوف بالحكمة.

وكذلك خالق الإنسان خالق الجبال والعيون والأنهار والبحار؛ لأنه لولا الجبال لمادت الأرض بمن عليها ميد السفينة بأهلها، فلم يكن لذلك الاستقرار عليها، ولولا الأنهار والعيون والينابيع لمات الحيوان عطشًا، ولولا البحار لما كان للأنهار موضعًا تنصب إليه وتجتمع فيه، ولو كان ذلك كذلك لغرقت الأرض بمن عليها وفسدت، وفسد جميع من فيها.

لو ارتدعت الأنهار لأجل أسداد تلقاها فيمنعها عن الجري إلى مغيضها، لولا ذلك لغرق لذلك مفروش الأرض، ولأضرَّ بمناكبها، ولولا أن خالق البحر يمسكه ويردعه عن الأرض لفاض عليها ولأغرق جميع ما فيها، ولم يكن يحبس الإنسان عليه طريق بسفينة، ولا فلك تجري فيه، لولا أن خالق الكل ﷻ يكيفه ويمسكه، ويسخره لتجري الفلك فيه بأمره، وليبتغوا من فضله فيشكروا نعمه، ويتذكروا أياديه ومنته.

وكذلك خالق الإنسان والأرض وما فيها هو خالق السماء والأفلاك والشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والأزمنة والدنيا والآخرة؛ لأن الأرض ومن فيها لا تقوم إلا بالسماء وما اتصل بها من جميع ما ذكرناه، وكثير مما لم نذكره اكتفاء بما ذكرناه، فلو كان خالق السماء غير خالق الأرض وما فيها، والأرض وما فيها لا تقوم إلا بالسماء وما اتصلت بها لم يخلق خالق الأرض ومن فيها، وما اتصل بها من حيوان ونبات محتاجًا لذلك كله إلى السماء، وهي في ملك غيره بمنعه منها

ويستبد بها دونه، فكانت الأرض تهلك ومن فيها، وكل شيء مما تقدم ذكره يهلك على سبيله؛ لأنه جل وعلا قد أفقر الموجودات علوها وسفلها بعضها إلى بعض، وأحوج بعضها إلى بعض، وهو الغني الحميد.

فوضح بهذا زائد إلى ما تقدم من البرهان الواضح أن خالق الأرض وما فيها من نشء ونبات وحيوان، وما اتصل بذلك كله من شمس وقمر ونجوم وسحاب ورياح وأزمنة وفتح رحمة وغير ذلك ما غاب وبطن، وما تقدم وجوده أو تأخر وما كان دليلاً على شيء أو مدلولاً عليه فيما علا من ذلك كله وسفل مما دق أو جل، كل معتبر على ما تقدم من الاعتبار، مالك ذلك كله ومدبره وماسكه، الحق الذي هو الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد، رب الدنيا والآخرة الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣-٤].

ومن تمام العبرة، وكما ليس في العالم شيء يقوم بنفسه فيستغني عن غيره، فكذلك ليس في الإنسان عضو يقوم بنفسه ويستغني عن غيره من الأعضاء، وذلك أن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لما خلق الإنسان مضطر إلى الغذاء الذي لا تقوم حياته إلا به، وضمن للعالم القيام بمرافقه ومنافعه من الغذاء وغيره، فكذلك هيَّأ للإنسان آلات وقوى مسخرة لاقتضاء ذلك لذلك الغذاء عند الحاجة إليه، فإذا اقتضى ذلك اضطر إلى التماسه في مظانه، واحتاج فيه إلى نفسه وإلى غيره، فإذا وجده لم يسلم إليه على الكفاية له إلى المؤنة.

بل هو مضطر فيه إلى تمون ما لا يصلح مأكولاً إلا به، فإذا حصل له ذلك هيَّأ له الخالق جل وعلا النفس على استعمال جارحتي بطشه الذي يتناوله بتقلبه، ثم ينقله بإحداهما إلى فيه، فإذا حصل له هنالك توكلت به الآلات المهيئة لطحنه وترقيقه، فإذا لطف دفعته الآلات الموكلة بدفعه إلى المريء، فإذا حصل فيه دفعه المريء إلى المعدة المهيأة لقبوله، فإذا حصل فيها انضمت وانغلق الذي في أسفلها الذي يقال له: البواب سمي بذلك؛ لانفتاحه مرة وانغلاقه أخرى، فلم يخرج منه شيء حتى يتم نضجه وهضمه بالآلات والقوى المهيأة لذلك.

فإذا نضج وصار شبيهًا بالعُصارة التي تهيأ نفوذها في المسالك انفتح المنفذ، فنفذ ما فيه إلى المعاء المتصل بأسفل المعدة، ثم ينفذ منه إلى سائر الأمعاء المستديرة

وغير المستديرة، ثم يجذب الكبد ذلك الغذاء بفوهات وقوى مركبه موصولة من الكبد إلى الأمعاء كبيرة، ويندفع الثفل إلى الأمعاء المهيأة لتقبل ذلك وإمساكه في تجاويف مجوفة منه وفي المعاء المستقيم مدة طويلة حتى يستخرج جميع جوهره باستقصاء، فيجذبه الكبد إليها في أوراد وعروق موصولة بها، فما حصل من ذلك الصفو في الكبد طبخته حتى يستحيل دمًا، إلا أنه دم يتولد معه فضلتان، كما يتولد في كل ما يطبخ وينضج فضلتان كدردي الزيت العكر، والآخر كالرغوة.

فرتب البارئ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المرار والطحال لتصفية الدم من تيك الفضلتين، فيجعل سبحانه وله الحمد للمرارة عنقًا تجذب به الفضلة الأخرى التي يكون عنها السوداء، وبقى في الكبد الدم، إلا أن بعد فيه فضلة مائه، ورطوبة تخرجه عن حد ما يوافق كون اللحم عنه؛ ليصير من الغلظ والمتانة إلى تلك الصورة التي يقال لها: اللحم.

وما كان في الكبد منه صافيًا خالصًا من الأخلاط التي تفسده تقبلته العروق المنبثة وتقسمته بمقدار شعابها بالحصص على مقاديرها، ثم أرسلته إلى عروق أُخر مرتبة لتقبل ذلك منها عروق متشعبة في النواحي المجاورة، ثم أرسلته العروق إلى عروق أخر أصغر منها وأرق حتى إن منها ما هي أرق من الشعر، فلا تزال المتشعبة في أعضاء الجسم ومفاصله تقسم هذا الدم بالحصص، وترسله في نواحي الجسم حتى تعمر به جميعه، فيكون له غذاء وقوام من ماء يرسخ في العظام والمخاخ، ويتصل بالعصب والبشر والشعر، فلا يبقى في الجسم موضع شعرة إلا وقد وصلت إليه حصته من ذلك الدم الذي به نموه وبقاؤه بقدرة خالقه ولطف بارئه ومنشئيه.

وما بقي من الثفل الذي به استخرج منه جميع ما فيه من الغذاء دفعته الآلات الموكلة بدفعه شيئًا شيئًا حتى يخرج في غير الهيئة التي دخل فيها في المعدة بقدرة خالقه ولطيف حكمته.

وكذلك ما يبقى في الكُلى من الفضلة المائية طبخته وصيرته بولاً، ودفعته إلى المثانة فأحكمت طبخه، ثم أبرزته في الآلات المهيأة لإبراز البول في وقت الحاجة إليه ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

فصل

وإذا عكست هذا الترتيب بالنظر وعطفت آخره على أوله وجدت الآخر منه مفتقرًا محتاجًا إلى الأول، كما افتقر الأول ليشتمل الافتقار جميعه.

بيان ذلك: إن أصناف العالم والمراد بالعالم جميع ما خلق الله ﷻ مسخر للقيام برزق الإنسان ومنافعه على ما وضح قبل هذا، فإذا عكسنا هذا الترتيب آخره على أوله كما لنا من الاعتبار وجدنا عروق الإنسان الصغار الدقاق التي تأخذ عن التي فوقها محتاجة إلى التي تحتها؛ لتأخذ عنها ما ألزمت إرساله إليها.

ثم كذلك تحتاج العروق التي تحتها ليأخذ عنها ما تسلمه إليها لتسلمه إلى ما يليها، محتاجة إلى الكبد لتأخذه عنها، كما يحتاج الكبد إليها لتورده عليها، ثم كذلك القول في الكبد والمعدة والمريء والفم، والأداة التي هي المنهضة إليها المهيئة لها.

كما أن أصناف العالم المسخرة للقيام برزقه في أن الأسفل من ذلك محتاج إلى الذي فوقه ليأخذ عنه، كما احتاج ما فوقه إلى ما تحته لتسلمه إليه، والذي تحت هذا محتاج إليه ليأخذه عنه ماله؛ ليأخذه كاحتياج الذي فوقه ليسلم إليه ما أمر به، وجعل تسليم هكذا، فالأرض مسخرة لضمه وإنباته، والسماء يسقيه والماء ليغذوه، والريح لتلقحه وتعديل رطوبته، والشمس لتقويته وتصليبه.

وكذلك القول في سائر أصناف العالم في تعلق بعضها ببعض، وتعلق ذلك بالحاجة إلى الإنسان الذي ضمنت القيام برزقه كالقول في هذا سواء، فتفهم هذا تجده كذلك إن شاء الله.

قال الله عز من قائل: ﴿**اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ...**﴾ [الجاثية:١٢].

﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:١٣] أي: ما سفل آيات على ما علا، وما ظهر شاهد لما بطن، وبالفكر الصائب يستخرج الرأي ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

ثم اعتبر حاجة الإنسان بعضه إلى بعض في غير الغذاء أيضًا تجد الجسم محتاجًا بعضه إلى بعض.

بيان ذلك: القلب محتاج إلى البدن؛ لأنه كالحامل له، به يبقى وبه يقوم، والبدن يحتاج إلى القلب؛ لأنه كالآلة له، به تظهر أفعاله وبه تصح.

ثم الجسم محتاج كله إلى كله، كل واحد من أعضاء المنافع محتاج مفتقرًا إلى الآلات التي لها الأفعال العجيبة، كالعصب الذي يحركه، والمفاصل والأصابع التي يتهيأ له بها القبض والبسط والتقلب والنهوض والقيام والقعود، وكالمعدة والكبد والطحال والمرارة والمثانة والرئة، وسائر أعضاء المنافع وآلاتها.

ثم جميع أعضاء الآلات آلات المنافع محتاجة إلى الجسم، والجسم محتاج إليها لما ذكرناه، محتاج بعضها إلى بعض لاشتراكها في قيام بعضها ببعض، فقد تبين والحمد لله رب العالمين بهذا حاجة الإنسان بعضه إلى بعض في غير أسباب الغذاء، وهو في الانعكاس وانعطاف بعضه على بعض في الاحتياج والافتقار كالذي فوقه، ثم الجسم محتاج إلى الأرض، والسماء والعالم وسائر أصنافه محتاجة إلى الإنسان على ما تقدم، بعض هذه الأصناف محتاجة بعضها إلى بعض وهذا قد تقدم ذكره.

وقد تبين بما ذكرنا ووضح بما استدللنا أن العالم كله آية بعضها لبعض، ليس منه شيء يقوم بنفسه، بل حاجة الافتقار تعمه، وسلمه من مقدار الصوابة والبعوضة والخردلة والذرة فما دونها، وما فوقها إلى مبلغ حدوده علوًّا وسفلاً، وأقصى نهاياته من ظاهره وباطنه في كل زمان وعلى كل حال.

وفي ذلك أبين بيان أن كل ما لا يقوم بنفسه وهو مضطر إلى غير ذلك كيف يقدر على شيء من ذات نفسه، بل وجوده العلم الضروري إلى أن لهذا العالم الذي شمل جميعه الافتقار وعمه الاحتياج وضغطه القهر صانعًا لا يشبهه، ولا يفتقر إلى شيء منه، وهو الغني الحميد رب العالمين.

وقد كان فيما تقدم من النظر في جملة المخلوقات، وإنها كرجل قائم يصلي

إلى ربهم، عامدًا إلى ربه، قانتًا لعظمته، ما يشرف بذي اللب على هذه المشاهدة، لكننا ذهبنا لبعض التفصيل ليستبين الدليل ويستقيم السبيل، هذا شفاء من الحيرة، وزيادة في الإيمان والإيقان ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فصل

في العبرة بتصريف الرياح وتسخير السحاب

قال الله جل ثناؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقال الله جل من قائل: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [الروم:٤٨] أصل الرياح كلها إنها واحدة قسمها الله بأمره العلي إلى أربعة يبعثها بمشيئته من أربع نواحي، ثم بين كل ريحين ريح، وهي التي يقال لها: النكباء، ثم بيَّن كل ريحين أيضًا ريح إلى أن يعم محيها ويشمل مهابها دائرة فلكها.

قال رسول الله ﷺ: «**الريح من روح الرحمن** - وفي أخرى: «**من نفس الرحمن**» - **وأمر الله** ﷻ **يصاحبها، وينصر الله بها من يشاء ويهلك من يشاء**»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**نصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور**»[٢] والعقيم التي تعقمت من رحمة الله ﷻ، ومنهن مبشرات.

قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] وهي تسير السحاب؛ أي: تبعثه بإذن الله تعالى وتطرده فتظهره.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٨٨)، ومسلم (٩٠٠)، وأحمد (٢٠١٣)، والطيالسي (٢٦٤١)، وابن أبي شيبة (٣١٦٤٦)، وعبد بن حميد (٦٣٧)، والنسائى (١١٥٥٦)، وأبو يعلى (٢٦٨٠).

(٢) أخرجه الشافعى (٨١/١)، والبخاري فى الأدب المفرد (٧٢٠)، وأبو الشيخ فى العظمة (٨١١١٥)، وابن حبان (١٠٠٧)، والحاكم (٧٧٦٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين. والبيهقي (٦٢٥٦) وأحمد (٩٢٨٨)، والنسائى فى الكبرى (١٠٧٦٧)، وأبو يعلى (٦١٤٢). قال المناوي (٦٠/٤) قال الحاكم: صحيح وأقره الذهبى وقال النووى فى الأذكار والرياض: إسناده حسن.

واللواقح منهن ما قد شاء الله ﷻ أن يخلق بهن في الهواء سحابًا، وقد يكون لقاحها ظاهرًا بأن يخرج من البحر فيمتلئ ماء حكمًا وعينًا، فلا يجري على موضع من الجو إلا خلق الله منها السحاب، وخلق الماء في السحاب، فلا يزال السحاب ينتشر وينبسط، والهواء ينماع ويتجمع إليها. قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا نشأتْ بَحْرِيَّة ثُمَّ تَشَاءمَتْ فَهِي عَيْنٌ غُدَيْقَةٌ**»[1].

حدث ﷺ عن معهد من معاهد رحمة الله ﷻ، وعادة أجراها ﷻ من فتوحاته وتهاويل البحار أبدًا؛ لانخراق الرياح عليها وتحركها فيها، فيكون العصف من داخله ومن خارجه، وحينئذٍ يأتي الموج من كل مكان، والروح أول للريح، والريح أول للهواء، والهواء بما فيه من الروح والأمر بمشيئة الله جلَّ ذكره أول الروح، والريح أول للماء في الهواء، والماء أول لسائر موجودات الدنيا عند وجود كل حي وكل نبات وشجر وحيوان وغير ذلك.

يقول الله جل من قائل: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ [الحجر: ٢١].

وثم قال ﷻ: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ [الحجر: ٢٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٧٥٧) ومالك (٤٥٢) بلاغًا بنحوه، وأبو الشيخ (١٢٤٧/٤) بنحو حديث الطبراني وسنده. قال الهيثمى (٢١٧/٢): تفرد به الواقدي. قلت: وفى الواقدي كلام وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله لا بأس بهم، وقد وثقوا. وقال ابن عبد البر (٢٤/ ٣٧٧): هذا حديث لا أعرفه بوجه من الوجوه فى غير الموطأ. وقال السيوطى فى تدريب الراوي (٢١٢/١): صنف ابن عبد البر كتابًا فى وصل ما فى الموطأ من المرسل والمنقطع والمعضل. قال: وجميعُ ما فيه من قوله: بلغني، ومن قوله: عن الثقة عنده مما لم يسنده أحدٌ وستون حديثًا كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف، ثم ذكرها، وهذا منها. وقال الكتاني فى الرسالة المستطرفة (١٥/١): قال الشيخ صالح الفلاتي: وقد رأيت لابن الصلاح تأليفًا وصل هذه الأربعة فيه بأسانيده.

ومن غريب الحديث: **نشأت بحرية:** ظهرت سحابة من ناحية البحر وارتفعت. **تشاءمت:** أخذت نحو الشام. **غُدَيْقَةٌ:** مصغر غدقة، وهي العين التى كثر ماؤها وفاض.

فصل

ما من ريح تهب إلا معها أمر من الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إلا وهي مرسلة بأمر معلوم، هذا بمعهود الوجود والشرع، فقد يكون ذلك من الأمر المعهود، فلا تكاد النفوس تنكره، وقد يكون من النادر في البشارة والنذارة لكن الأمر له أجل معلوم يظهره الله تعالى فيه، كنزول الماء من السماء، والكائن عنه هو لآجال مكتوبة قريبة أو بعيدة، إلا أن الماء ينزله الله ﷻ فأول ما يظهره الله عنه أن يشرب ذلك الماء ويغتسل به، ويروي الأرض بعد يبسها، ثم ما يظهر عن ذلك من نبات لأمد قريب، كما قال الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣].

ثم ما يكون عن ذلك من جنات وثمر، وكنزول إلى أجل أبعد من ذلك، ثم ما يخلقه ﷻ عنه من حيوان وأنعام وأناسي إلى أجل هو أبعد من ذلك جدًّا، ثم ما يكون عن ذلك الحيوان والأناسي من أعمال وآثار، وإلى غير ذلك إلى أجل أبعد.

ثم يقول الله جل من قائل في الماء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الفرقان:٥٠].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي: بالغياث، ثم عطف ﷻ بالواو في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم:٤٦] فالرياح متصلة بالفتح من عند الله ﷻ من رحمته، وهي متصلة بمحبته وابتلائه، وما يكون عن فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

يقول الله جل من قائل: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم:٥١].

وقال جل قوله: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧].

وقال جل قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ

الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [البقرة:٢٦٦] أي: فيما يفسد الأعمال الموجهة إلى الله ﷻ من رياء أو من عجب أو أذى أو غير ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في منبعث الإعصار والصر، والعقم في الرياح وغيرها من آفاتها، فعقمها آية على هبوبها في دار البوار.

ذكر أن الريح التي أرسلت على عاد فأهلكتهم إنما أرسل منها على مثل حلقة الخاتم ويخرج يومئذٍ عظمها لتسعر بها جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - فيدخل بعضها في بعض فتمزق لحومهم، وتشق جلودهم دون مانع يمنعهم منها، ولا كِن يكنهم، ولا ناصر ينصرهم، نعوذ بالله العظيم من عذابه وعقابه.

كما أن ما ينسب منها إلى الرحمة ها هنا آية على رياح الرحمة في دار القرار وجنة الخلد تهب فيها بإذن الله ورحمته فتثير المسك، وتأتيهم بما يشاؤونه، ويأتى السحاب فيقول: يا أولياء الله، ما تشاءون؟ فيمطرهم، فيكون عن ذلك أمانيهم دون زمان مؤجل ولا أمر مرتقب أجله.

آية ذلك: أن يكون عن الماء ينزله الله ﷻ من السماء، فيكون عنه كل نبات وشجر وجنات وثمر، ثم كل شيء من ولدان وجنات وجواري ورجال ونساء وخيل وأنعام إلى غير ذلك من خيرات الدنيا كل ذلك إلى آجاله وإبّانِه، فينشؤوا دون زمان ولا أجل مؤجل، وهي أيضًا - أعني: السحاب - والرياح آية على أن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا للجملة.

كذلك عز من قائل: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] وكما تصبح وجه الأرض بعد نزول الماء من السماء وهي صاحية، وقد تبين فيها المزيد، فعلى تلك النسبة تكون الجنة عقيب الماء، وهبوب رياح الرحمة فيها وبالضد في دار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - في آثار أمطار الحميم

---

(١) ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ يعني: ريحًا بها نار؛ أي: فأتته السموم الحارة فأحرقت بستانه، ولم يكن له قوة أن يغرس مثل بستانه، ولم يكن عند ذريته خير يعينونه فيبقى متحيرًا، فكذلك الكافر إذا لقي ربه أحوج ما كان، فلا يجد خيرًا ولا يدفع عن نفسه ولا يكون له معين، ولا يعود إلى الدنيا كما لا يعود الشيخ الكبير شابًا. [بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٢١)].

والغسلين والغساق، وهبوب رياح العقيم منها.

قال الله ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠] إلى آخر المعنى حيث وقع.

ومن عجيب اقتدار الله تعالى بالرياح والتقويم: إنه جلَّ ذكره قد خلق الأرض والسماوات وقدَّر فيها أقواتها، وأوحى في كل سماء أمرها بتنفيذ جميع ما ينبته عن الماء والرياح والهواء والأرض، ويخلق ما يشاء خلقه، ثم يجعل من النبات هشيمًا ما شاء، ومن حياتها حطامًا، ومن حيوانها أمواتًا، ويسلط ﷻ الشمس فتبخر رطوبات ذلك كله، فيصعد ذلك منه بإذن الله تبارك وتعالى، وتحمله الرياح في الهواء فتذروه وتنسفه، فيعده الله هواء كما كان أول مرة، فيكون مخزونًا ذلك كله في الهواء.

ثم إلى مثلها يرسل الله الرياح مبشرات بغياثه وبشرًا بين يدي رحمته، فينزل الماء من السماء بمثلها هكذا منذ خلق السماوات والأرض إلى يوم الانقراض يصعدها نباتًا وحيوانًا، يجعل النسيم والأرواح في منازلها ويحلها محلها، ويمزج معاني الأجسام في الأرض والسماء رطوبات، ثم أهوية معاني في خزائنه، فإذا كان يوم القيامة وأراد ربك ﷻ إعادة كل شيء أخذ من شيء أن يرده فيرجع ما ذهب منه أول على طريقه التي ذهب منه، على اختلاف ذلك وامتزاجه فيما هو كلمح البصر أو هو أقرب، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠].

يقول عز من قائل لما خزنه في الأرض من أرضيات أجسامهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى:٢٨] إلى قوله عز قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١].

ويقول جل من قائل للجملة منهم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني وهو أعلم بما تقدم ذكره، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ﴾ [العنكبوت:١٩-٢٠] يعني: ما كان من الأمم الخالية والقرون السالفة إلى قوله جل قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] لو نظرتم بحقيقة النظر لرأيتم.

قال الله جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله﴾ أي: التي تدل وتنبئ عما هو كائن يومئذٍ ﴿وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[العنكبوت:٢٣] في اليوم الآخر وفي البرزخ، ليس شيء خلقه الله أو هو خالقه في هذه الدار إلا وهو يعيده كأوله؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم، ويجعل الطيب وأهل السعادة في الجنة.

قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾[1] [البقرة:١٦٥] ﷻ لما دلَّ ﷻ على نفسه وبيَّن ألوهيته، واستشهد على وحدانيته بما نصب على ذلك من المعالم والآيات البينات، أرجع الخطاب إلى معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

وهم على ذلك من علمهم أنه لا ند له يجعلونها ويحبونها كحبهم لله ﷻ، جعلهم لها وحبهم لها شيء لا تحقيق له، وإنما هو أمر ظنوه وحدثوا أنفسهم به وزين لهم الشيطان أعماله تلك فألزموا قلوبهم ذكره حتى ألفوه وعملوا عليه، وورث الخلف السلف على ذلك فضلوا وهم يعلمون.

أعرب الله جلَّ ذكره عن حالهم هذه بقوله الحق ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] فعلمهم المستقر في قلوبهم هو أنهم ليسوا شركاء ولا أندادًا، لكنهم يتبعونهم ضلالاً وتخرصًا، زعموا أنهم يشفعون ويقربونهم إلى الله زلفًا كذبًا لزعمهم - سبحانه وله

---

(١) ﴿وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا﴾ يعني: بعض الناس وصفوا لله شركاء وأعدالاً، وهي الأوثان ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ معناه: يحبون الأوثان كحبهم لله تعالى؛ لأنهم كانوا يقرون بالله تعالى، وقال بعضهم: معناه: يحبون الأوثان كحب المؤمنين لله تعالى ﴿والذين ءامَنُواْ أَشَدُّ حُبًا لِلهِ﴾ لأن الكفار يعبدون أوثانهم في حال الرخاء، فإذا أصابتهم شدة تركوا عبادتها، والمؤمنون يعبدون الله تعالى في حال الرخاء والشدة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿والذين ءامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ﴾ فإن قيل: إذا كان المؤمنون أشد حبًّا لله، فما معنى قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾؟ قيل له: يحتمل أن بعض المؤمنين حبهم مثل حبهم وبعضهم أشد حبًا، وفي أول الآية ذكر بعض المؤمنين، وفي آخر الآية ذكر المؤمنين الذين هم أشد حبًّا لله، والحب لله أن يطيعوه في أمره وينتهوا عن نهيه، فكل من كان أطوع لله فهو أشد حبًّا له. [بحر العلوم للسمرقندي (١/١٤٠)].

الحمد - زعموا عنه وكذبوا عليه حال غيبتهم، ولما واجههم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالرسول ﷺ والكتاب، وأكذب زعمهم وأبطل ظنهم لجوا في باطلهم واستمروا على ضلالهم ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦].

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ﴾ [ص:٦٦].

عبرة: الضلال كله من أصل واحد، وإنما هو شبه يشبه بها على من هو منه ضلال، ألا ترى أنه من عصى الله من الموحدين المستجيبين لله والرسول والكتاب منقطع الحجة، مقرًّا بالخلاف لربه، معترفًا بالضلال عن رشده؛ لينفذ الله جلَّ ذكره أمره المقدر وكلماته الصادقة، فيفرز ﷻ الدواب واستاقها غائبة عن مرادها ربها، نسأل الله تعالى العفو والعافية والتوبة والعصمة المحيطة، وأن يأخذنا بمعنى من معانيه إليه، إنه لا حول ولا قوة لعباده إلا به.

ثم جعل ﷻ يصف اجتماع علمهم واستقرار الحقيقة عندهم، وشدة ندمهم على سوء اختيارهم لأحوالهم تلك عند تبرؤ الأنداد منهم، ورجوع كل حق إلى حقيقته يوم القيامة عند نزول الموت بهم، يحقق علمهم بـ﴿أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ الله شَدِيدُ العَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥] هناك تحل بهم الندامة على ترك الاستجابة وإهمال الأنفس، والركون إلى غير الوثيقة في الأمر، فتحيق بهم الحسرات، وما ذاك بنافعهم.

فانتظم قوله جل قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] بما تقدم ذكره من معنى وإن بَعُد.

كما انتظم إلى ما جاوره من الخطاب قوله عز قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية؛ لما فيه من التعجيب ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] لأولي الألباب؛ أي: أعجبوا لهاء ولاء على عظم ما أريناهم من الآيات وأظهرنا لهم من البينات على ثبوت الوحدانية.

ومن الشواهد على تحقيق ذلك بما في أنفسهم وفي سواهم: فاتخذوا من دون الله أندادًا، وهم يعلمون أنه لا ند له ولا شريك له في خلق السماوات والأرض ولا في خلق أنفسهم، فما أعجب شأن هؤلاء! وما أعظم افتراؤهم!.

يحذر ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المؤمنين من الركون إلى المعاصي والإقدام

على الخطايا، فإن هذا الشأن منهم أظهر، والحجة ألزم إذا علمهم أحصر، وإقرارهم أظهر وأقرب، ولأجل حقيقة هذا الاقتدار منه لم يكلف أحدًا إلا وسعه.

وقد جعل في وسعه التوبة مما كان والاعتراف بالذنب، ومن تكليف ما لا يطاق أن يقدر هو ﷻ على عبده بعمل فلا يكون ذلك العمل من ذلك العبد، وإنما موضع التكليف وصدق الاستجابة وصيانة الذوات عن مواطن الهلكات، وكف النفوس عن شهواتها، والأخذ منها لها، واستشعار ذلك حتى يمحو الله خطاياه وأعماله المقدرة عليه بالسوء؛ فيبدلها حسنات بأن يوفقه لمحابه والعمل بمرضاته، ثم كذلك حتى يكون له ذلك ديدنًا وعادة.

فإنه ﷻ يمحو ما يشاء ويثبت وقد أحصى كل هذا علمه السابق، ولذلك قال وقوله الحق: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] فمتى وقع لم يكلفه ألا يكون ما قد كان، إنما يكلف ﷻ صدق التوبة وحقيقة الندم والعزم من ذاته على ترك العود، فمتى وقع فكذلك أيضًا حتى يكون الشيطان هو الحسير.

أتبع ذلك ما هو في معنى ما تقدم ذكره من التحفظ والتحرز من مواطن الهلكة، واستشعار عزيمة الصبر قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[1] [البقرة:١٦٨].

وانتظم أيضًا في الدعاء لهم من حال كفرهم؛ إذ هو كبير الإثم قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ [البقرة:٢١] المعنى كله إلى ذكر الأنداد لمتخذيها كما تقدم، والتحرز من الشيطان الذي أخرج آدم ﷺ من الجنة بعد أن كان، وما أصاب

---

(١) ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ أي: آثاره كما حكي عن الخليل، أو أعماله كما روي عن ابن عباس أو خطاياه كما نقل عن مجاهد، وحاصل المعنى: لا تعتقدوا به وتستنوا بسنته فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام، وعن الصادق من خطوات الشيطان الحلف بالطرق والنذور في المعاصي وكل يمين بغير الله تعالى، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة بتسكين الطاء، وهما لغتان في جمع خطوة وهي ما بين قدمي الماشي، وقرأ علي - بضمتين وهمزة، وفي توجيهها وجهان: **الأول**: ما قيل: إن الهمزة أصلية من الخطأ بمعنى الخطيئة، والثاني: إن الواو قلبت همزة؛ لأن الواو المضمومة تقلب لها نحو أجوه وهذه لما جاورت الضمة جعلت كأنها عليها، قال الزجاج: وهذا جائز في العربية، وعن أبي السماك أنه قرأ بفتحتين على أنه جمع خطوة، وهي المرة من الخطو. [الألوسي (٢/٩٤)].

بني إسرائيل ونبوتهم مع التوصية بالأخذ للنفس بالأوثق، وهي الاستجابة لله والرسول والكتاب، والتحذير من التقليد من نبذ الهدى، واتباع الهوى بقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] أي: وإن كانوا على غير هدى يتبعونهم.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة:١٧١-١٧٦].

وقوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1] [البقرة:١٧١] انتظم هذا المثل المضروب في صدر السورة من تشبيههم بالفراش والدواب التي تقع في النار المستوقد تهافتًا في

---

(١) ﴿وَمَثَلُ الذين كَفَرواْ كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاء وَنِدَاء﴾ على حذف مضاف تقديره: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق، أو مثل الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينعق، والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها، فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه، وقيل: هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته، أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قوله: «إلا دعاء ونداء» لأن الأصنام لا تسمع إلا أن يجعل ذلك من باب التمثيل المركب. [تفسير البيضاوي (١/٢٠٧)].

الهلاك جهلاً وطيشًا، شبههم ﷻ هنا بالغنم ينعق بها راعيها ولا تعقل من نعقه سواء أنها تسمع صوتًا لا يفهم.

وفي غير هذا الموضع حطهم درجة عن فهم الأنعام؛ إذ الأنعام قد ألهمت نداء راعيها وزجره، فهي على الأغلب تنزجر وترجع، وإن كان قد وصفها ﷻ بأنها لا تعقل؛ لذلك وصفهم بالصمم والبكم والعمَى، وإنهم لا يعقلون، والفراش لم يلهم إلى ذلك، وإنما عندهم التصميم دون الازدجار، فأخبر جل وعلا عن أولئك الممثلين بالفراش بأنهم لا يرجعون، ومن إغراقهم في استحقاق اسم الذي وصفهم به أن الأنعام ليست بموصوفة بالعقل وهي مع ذلك تنزجر، ولا ينتفعون بصفاتهم.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لله﴾ [البقرة:١٧٢] إلى قوله: **﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [البقرة:١٧٣] أباح ﷻ لجميع الناس أن يأكلوا، وضمنه لهم بشريطة العبادة لله والإخلاص له والإيمان بقوله ﷻ: **﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ الله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [النحل:١١٤].

وجميع الناس في الأرض بمنزلة أبيهم آدم ﵇؛ خلقه الله ﷻ وأدخله الجنة وزوجه وقال لهما: **﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾** [البقرة:٣٥] وموضع النهي لهم على الإجمال هو ألا يطيعوا الشيطان ولا يتبعوا خطواته، وخاطب ﷻ المؤمنين بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، وأن يشكروا الله ربهم، فإن كان هذا الخطاب لجملة المؤمنين فهو محمول على أن جملتهم خليفة أبيهم آدم ﵇ في الأرض، وتبقى عليهم خصوصية ملك الأملاك.

وأقام الأربعة المنصوص عليها بالتحريم على جملة المؤمنين مقام تحريم الشجرة في الجنة على آدم ﵇، والأربعة هي: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله تعالى.

وعلل جلَّ ذكره تحريم أكل الخنزير بأنه رجس، ونص على الخمر بأنها رجس، وكذلك على الأنصاب والأزلام، ونص رسول الله ﷺ على الحُمر الأهلية بأنها رجس، فحيثما كان الرجس فمحرم سوى ما أجازته الأملاك بوجه صحيح؛ فهو محرم على غير المالك إلا بطيب نفس مالكه، ثم قد فتح الاضطرار إباحته على وجه ما.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة:١٧٤] إلى قوله ﷻ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥].

انتظم ذكر الكتمان بما تقدم من ذكره جلَّ ذكره في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة:٤٠] إلى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤١-٤٢].

ثم استاق ﷻ بعد قصص بني إسرائيل وفي أثناء ذلك يخاطب المؤمنين، ويأمر بأوامر وينهى عن مناهي.

ثم ثنى على ما تقدم ذكره من الكتمان قوله جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

ثم ذكر ﷻ توبة من كتم ولبس بالباطل، فشرط فيها الإصلاح لما أفسده، والبيان لما كتمه، والإقلاع وترك العودة بمقتضى لفظ التوبة.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [البقرة:١٦١] فجمع بهذا العموم كفر العناد والشرك وكفر الكتمان وغيره، ثم أقام ﷻ الدلالة على ما أخبر به من تحقيق الوحدانية وإثبات الإلهية بتوابع ذلك، وقد تقدم فيما مضى.

ثم ثنَّى ﷻ على ذلك ها هنا ذكر الكتمان تعظيمًا لشأنه وتشديدًا عنه، يعرض في ذلك كله لعباده المؤمنين بما أجاب أولئك في نبوتهم وكتابهم تأديبًا منه لهم بغيرهم وتعليمًا بسواهم، وهو الرؤوف الرحيم.

فصل

قوله عزَّ من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩] قيل: معناه: وتلعنهم الملائكة - عليهم السلام - والمؤمنون، وقيل: يلعنهم كل شيء، وهو الأوجه؛ إذ كل ما أوجده الله جلَّ ذكره شاهد له دال عليه، لا يعرف الكتمان ولا هو من شأنه، بل جميع الموجودات يشهد عند من استشهدها وترشد من استرشدها، ويؤدي شهادتها عند ألباب المعتبرين وعقول المتفكرين، قد كتمت

الكتمان وأظهرت النصيحة والتبيان، فمن كتم الحق عن طالبه لعنه كل شيء من ليس من شأنه الكتمان.

وأقل ما في ذلك أنه تباعدت صفاته من صفاتها كما تباعدت من صفات الحق المبين ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢] هذا إلى المعهود المعلوم من أن كل ما رضي الله عنه رضى عنه كل شيء وبالضد، وأحوال الناس مختلفة في الفطن عن الموجودات والفهم عنها.

أما الكفار فهم عمي صم بكم أموات غير أحياء، إن بعثوا من موتهم ذلك بالتنبيه والنصيحة لا يشعرون إيان يبعثون، وأهل الغفلة من عموم المؤمنين كالعمي عن هذا البيان، والبكم عن النطق به والصم عن سماعه إلا قليل، كأنما ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤] لكنهم إن بعثوا من نومهم ذلك أوشك أن ينتبهوا ويشعروا به، وربما يستيقظوا ولم يشعروا لما أوقظوا له وشعورهم على قدر حياتهم، فالموجودات من حق هؤلاء بكم، وهم في غيبة عن حضرتها ومشاهدتها.

وأما العباد من المؤمنين المعتبرين فهم كالرجل المبصر من وراء غمامة، وهم مع ذلك صم عن سماعها، لكن عن ذلك يلقون بعض معارفها، ويلقنون بعض مراداتها بمعاني تسبق إلى أفهامهم، وإشارات تومئ بها إلى ذواتهم شبيهة بالتوسم والتفرس، وهم متفاوتون في فهم إشاراتها وتلقي معارفها على مقادير أفهامهم وصفاء بواطنهم، وإقبالهم على استرشاد الموجودات، يتفاضلون في حظوظهم منها كما يتفاضل المخاطبون الأبكم والشديد الخرس؛ لكثرة تأنسهم بمذاهبه، ومعرفتهم بمواقع إشاراته.

وأما أهل العبرة من الصديقين والأولياء، فالرجل الموصوف بالسمع والبصر وهو في بواديها ومواطن حضرتها لكنه كالذي في بصره خفش، وفي سمعه طرش هذا حالهم المستصحبة لهم، قد تبدَّى جلَّ ذكره لهم من علاماتها وحقائق إشاراتها وسماع هواجس تسبيحاتها؛ وليس ذلك عن وعد وعدوا ولا عن قصد وتعرض لذلك.

ثم يرجعون من أنفسهم إلى أحوالهم المصاحبة لهم من خفش وطرش، وهم على درجات ومقامات في خفة ذلك ورقة، وكشفه عنهم، متفاوتون في صفاء

أحوالهم على مقادير منازلهم ومحالهم في مقاماتهم في الصديقية والولاية، وذلك بحكمة من الله ﷻ في أوليائه، وليشرفوا بحالهم تلك على رفيع محل النبوة والرسالة فيصدقوا بها، ويثيبهم أيضًا ويسرهم على صدق محادثة يحادثون بها، وتكليم يكلمون به في سرائرهم، ونفث ينفث في روعهم.

وأما أهل النبوة المحجورة والوحي الممنوع من سواهم فكالسميع المتكلم البصير، وهم أيضًا على ذلك يتفاوتون.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] فلقد كلمتهم البرايا وسمعوا خطابها، وناطقتهم الخرس وتبينوا تسبيحاتها، ونشأ بهم الحق حتى كلم بعضهم العلي الأعلى ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وقال جل قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ فوق بعض ﴿دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] فأرفعهم درجة في تكليمه جل ثناؤه وتعالى علاؤه وشأنه عن موسى ؑ.

وبالجملة: فلا يعتمدن المعتمد في تكليم الموجودات على الأصوات وتعرف اللغات، إنما كلام يلقي سامعه فهمه؛ لأنه مراد به حسب، فافهمه.

قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] لما علموا قدر ما باعوه من دينهم، وما أخذوا باشترائهم عوضًا مما باعوه لزم وجود الصفقة في الشراء والبيع، واليهود اشتروا بالهدى الذي هداهم الله برسوله ﷺ وبكتابه وبفرقانه الضلالة، وهو كفرهم وكتمانهم ما ورثوه من أنبيائهم، ولبسهم الحق بالباطل، فكانوا بذلك مشترين العذاب بالمغفرة.

فصل

قوله جل قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] قد يعبر بلفظ الصبر على الجرأة عن حكاية عن العرب، فعلى هذه يكون معنى قوله جل قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ما أجرأهم عليها في الدنيا، وهو معنى قائم بنفسه صادق تأويله، وإن كان فيه تحريف يسير، وحقيقة وجود الصبر هو من بين أمرين.

مثال ذلك: أن يهم العبد بالشيء من هواه ليس لله رضا، فتعزم نفسه عليه بالإنفاذ وشهوته تزعجه وعدوه يزين له، والفضل من الشياطين تارة وإيمانه يأبى ذلك عليه، وعظة الله في قلبه تزجره فيتردد بين هذين، فهو في جنس نفسه وانبساطها على الإنفاذ، فتيقنت أن المحمود من ذلك معنى الصبر.

ومنه قتل النفس صبرًا إنما هو إمساك المقتول عن التفلت والهرب عن القتل، فحاله تلك التي أبدلها من مراده الذي هو الهرب والنجاة هو المعبر عنه بالصبر، فأهل النار - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - ليس لهم عليها صبر، ولو جعل الله لهم عليها صبرًا لكان ذلك بهم رحمة، ومعونة لهم على ما هم بسبيله، وكان يحمل عنهم صدق الصبر الكبير من آلامهم، بل قد استوى في حقهم الجزع والصبر، وجنح بهم الأمر إلى خالص الجزع حتى قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١].

وإنما ذلك - والله أعلم - أن الله خلقهم خلقًا يحملون به عذاب النار، ألا ترى أن أحدًا لو جعل في نار الدنيا على ما هي عليه من الضعف بالإضافة إلى تلك ما يبقى فيها إلا ريثما يلتهب لهبًا وسعرًا وأكلاً له وإعدامًا دون زمان؟! وأهل النار - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - قد كتب عليهم البقاء فيها حتى تتخللهم ظاهرًا وباطنًا كما تتخلل زبر الحديد ها هنا حتى يكون نارًا، بل أحر من النار، فهو أبدًا يلتهب عليه اللهب منها فتتوقد، كما قال عز من قائل: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**واطلعت في النار فإذا عذاب الله شديد، لا تقوم له الحجارة ولا الحديد بمقدار ما ترزأ النار منه شيئًا**»(١) يخلف الله ﷻ مثله كما تقدم في النظر في أجسام أهل الدنيا ما تخلل منها الهواء، يخلفه الله جلَّ ذكره بالغذاء دون غذاء أيضًا، كالجبال والصخر وجميع الموجودات ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يقول ﷻ على هذا: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

---

(١) تقدم تخريجه.

والصور باقية، والأحشاء ذائبة، ولا بد من أن يعذبون في النار - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - وبقدرته على سنته تلك فيهم بمقدار عدل محصل عند الله ﷻ موزون، فيحين لذلك نضج جلودهم، وصهر ما في بطونهم؛ لعظائم ترد عليهم، فيجدد ذلك منهم بقوله عز قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥] أي: في النار يوم القيامة، تفاعل حريقها وشدة شأنها وهم دائمون على ذلك بمعنى ما تقدم، هذا معناه والله أعلم، نعوذ بالله العظيم من أهوال النار ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

وقد يمكن أن يكون المعنى في قوله عزَّ قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ زائدًا إلى ما تقدم من ذكر التعجب من صبرهم على نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - التعجب أيضًا من قدرة الله ﷻ على إحالة هذه الحقائق في حقهم، يشير إلى ذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:١٧٦] أي: بالواجب وجوده الحقيقي كونه لا محالة، كما يقال: «الله الحق والملائكة حق والساعة حق والجنة حق والنار حق...» إلى آخر الشهادات كلها ما وجد العبد الصبر مكابدة من نفسه فهو التصبر.

وإنما الصبر الحق ألا يجد في نفسه حرجًا ولا طعمة مرارة ولا كراهة، فيكون الصبر هنا يقرب من معنى الذهول عن حال غير ما هو فيه، فعلى هذا يكون ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

﴿وَاللهُ﴾ ﷻ ﴿يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

لذلك أعقب بقوله الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى حالهم تلك ﴿بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:١٧٦] أي: بالحق الكائن الموجود في الدار الآخرة من صبرهم على النار وبقائهم عليها، فكما أنهم في الدنيا يأكلون النار ويذهلون عن مذاقها والإحساس بها كذلك في الآخرة لهم صبر عليها يتعجب منه هو بقاء فيه وإبقاء على ذلك.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾ [البقرة:١٧٧-١٨٠].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله عز قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] و«البأساء»: الشدائد.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] و«البأس»: الشدة في القتال.

قال الله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح:١٦].

وقال: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ [الحشر:١٤].

﴿وَحِينَ البَأْسِ﴾ شدة القتال.

معنى هذا الخطاب منتظم بما تقدم من ذكر تحويل القبلة، وإنكار يهود لذلك بقوله جلَّ قوله وهو أعلم: ﴿لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾[1] [البقرة:١٧٧] ها هنا أو ها هنا، إنما البر طاعة الله ﷻ في الأخذ والترك في الائتمار له في جميع ما يأمر

(١) قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿لَّيْسَ البرَّ﴾ بنصب الراء على معنى خبر ليس، وقرأ الباقون بالرفع على معنى اسم ليس، من قرأ بالرفع فهو الظاهر في العربية؛ لأن ليس يرفع الاسم الذي بعده بمنزلة كان، وأما من قرأ بالنصب فإنه يجعل الاسم ما بعده ويجعل «البر» خبره. [بحر العلوم للسمرقندي (١/١٤٨)].

به، وحمل النفوس على ما يكرهها في ذلك.

وقد يكون مع هذا خطاب يخاطب به ﷻ المؤمنين يقول ﷻ قوله: ليس البر كل البر الصلاة إلى الكعبة دون بيت المقدس دون إقامة الصلاة على حقيقة الأمر فيها والمعنى المراد بها، ودون إقامة ما سواها من الطاعات واجتناب المعاصي، وإنما البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في المواطن كلها بشرط الإيمان في وجوبه.

﴿وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[1] [البقرة:١٧٧] وتوجيهه في وجه، وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد إلى ما اشترطه، ومن أوفى على ذلك فهو الصادق المتقي.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة:١٧٤] وذكر بعض المفسرين في ذلك أنه على المال، ولهذا نظير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٨ - ٩].

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد:٥] بمعنى في الدنيا عن الإيمان، وفي الآخرة للعذاب.

---

(١) ﴿وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى﴾ الآية دالة على الأمر بالإنفاق على هؤلاء والترغيب فيه، وهي في النفقة التي ليست من حق المال؛ أعني: الزكاة، ولا هي من حق الذات من حيث إنها ذات كالزوجة، بل هذه النفقة التي هي من حق المسلمين بعضهم على بعض لكفاية الحاجة وللتوسعة وأولى المسلمين؛ بأن يقوم بها أشدهم قرابة بالمعوزين منهم، فمنها واجبة كنفقة الأبوين الفقيرين والأولاد الصغار الذين لا مال لهم إلى أن يقدروا على التكسب أو ينتقل حق الإنفاق إلى غير الأبوين، وذلك كله بحسب عادة أمثالهم، وفي تحديد القربى الموجبة للإنفاق خلاف بين الفقهاء، فليست هذه الآية منسوخة بآية الزكاة؛ إذ لا تعارض بينهما حتى نحتاج للنسخ، وليس في لفظ هذه الآية ما يدل على الوجوب حتى يظن أنها نزلت في صدقة واجبة قبل فرض الزكاة. [التحرير والتنوير (٢/٢٥٨)].

وقوله جلَّ قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨].

وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢١].

وقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقوله جلَّ قوله: كلا ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٣-١٥].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:١٦] يعني: اليوم والآن، وما يعبر عنه به عن معناه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] يعني: اليوم في حالهم هذا، وقد تقدم ذكر العذاب المستقبل.

قال رسول الله ﷺ: «**الذي يشرب في آنية الذهب** - وفي أخرى: «**الفضة**» - **إنما يجرجر في بطنه نار جهنم**»(١).

هذا كله حق أخبرنا الله ﷻ بصدق قيله وعليّ علمه وكريم مشاهدته أنهم لا يأكلون في بطونهم إلا النار، وأنهم ليسوا بغائبين عن جهنم، وأنها محيطة بالكافرين، والذي يشرب في آنية الذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم.

وليس هذا بأعجب مما أخبرنا به عن الشهداء في سبيله بأنهم أحياء يرزقون، فرحين مستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وإنهم وجدوا ربًّا رحيمًا كريمًا مكرمًا، وإنه نهانا ﷻ أن نقول فيهم أمواتًا، وقد كانت المشاهدة في هؤلاء الشهداء غير الذي ورد به الخبر.

أفترى أن نترك صدق قيله ﷻ بمشاهدة لا ندري باطنها، وإنما الشاهد أعضاء مقطعة وعظام نخرة وهو على الحقيقة ينعم ويفرح ويأكل ويشرب ويلذ ويسر ويعلم ويسمع ويبصر؟ إنما يوجد حقيقة ما أخبر الله تعالى ورسوله ﷺ بغير هذه الحياة،

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم (١/١٠)، والبخاري (٥٣١١)، ومسلم (٢٠٦٥)، والدارمي (٢١٢٩)، وأبو يعلى (٦٩٣٩)، وأبو عوانة (٨٤٥٥)، وابن حبان (٥٣٤٢)، والطبراني في الكبير (٨٤٤) وفي الشاميين (١٠٨)، والبيهقي (٩٨).

كالشهيد إنما وجد حياته تلك الحياة الأخرى.

ألا ترى العالم المؤمن الموقن لما أعطي من تلك الحياة حظًّا حصل له من العلم والمعرفة لما نريد ثباته ما أسهر ليله وأنحل جسمه، وتجشم صعود العقاب، وحال بينه وبين الأهل والوطن والأولاد، وربما قضى عليه وحده بالقتل، ومن أنزل حياته هذه بالإضافة إلى تلك منزلة ما وصف رسول الله ﷺ أراح قلبه.

وصدق قوله ﷺ: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[1].

ولهذه العلة يتنبه بهذه الحقيقة، ولا تيقظنا لها ولا شعرنا بخفيها، ذلك منا بموت مخامر خامر صفاتنا في حياتنا هذه كالحياة التي نروم العبارة عنها والتبيان لها المخامرة لذلك الموت المشاهد من الشهيد فيما هنالك، وربما علم أحدنا بها وشعر لها لكنه في وجودها كالمسحور والنائم المأخوذ عن الشيء يجد الطعم عن المأكولات بخلاف المشاهدة.

وهذا موجود في العالم الضارب في اليقين بحظ يجد موجودات للآخرة وصدق الوعد والوعيد حقًّا، ويلزم قلبه ويعجز جوارحه، وتكع نفسه عن التقدم إلى الأخذ بالأوثق، فهو يتلاوم ويبكي على نفسه، ويشكو إلى ربه وإخوانه ونحو ذلك؛ لأنه لم يبلغ الحياة التي نعم بها غيره، وأعطى الجهد من نفسه، وجد الجد كله في الحق المعتقد في هذا إن كل ما يجده الطاعم هذه المطعومات والمشروبات والأحوال التي تقدم ذكرها ماء باردًا أو مطعمًا لذيذًا أو شفاء أو سلوًا عن الأخذ منه بالجزم لما خلق الله له بعضًا من الإدراك، وأخذ عن وجود حقيقه ما هو حقيقة، وإن كنا نجده في حقنا في اليقظة الموت الموجود فينا.

وإنما يصفو أحدنا منها في الدار الآخرة، وأبقيت علينا ها هنا كل ما تصيبه من الكتاب، وأول ما يجد حقائق هذه المطاعم والمشارب وغير ذلك من الحقائق حال الموت، وبعده في دار البرزخ، وهو موجود عن اسمه المصور ﷻ وتعالى يصور ما يشاء كيف يشاء في ذوق الذائق ورؤية الرائي وعلم العالم، كما يرى ذلك في هذه

---

(١) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٨/٨٩)، وقال: لم أجده مرفوعًا، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

الدار أول مرة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى...﴾[1] [البقرة:١٧٨] هذه الآية من الآي المدعى فيها

(١) قال القرطبي في «تفسيره» فيها سبع عشرة مسألة: الأولى: روى البخاري والنسائي والدارقطني عن ابن عباس قال: «كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] قتل بعد قبول الدية، هذا لفظ البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، قال: سمعت مجاهدًا، قال: سمعت ابن عباس يقول، وقال الشعبي في قوله تعالى: ﴿الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ قال: أنزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا فقالوا: نقتل بعبدنا فلان بن فلان، وبأمتنا فلانة بنت فلان، ونحوه عن قتادة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ﴾ أي: فرض وأثبت، وقد قيل: إن ﴿كُتِبَ﴾ هنا إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء، والقصاص مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه، ومنه القاص؛ لأنه يتبع الآثار والأخبار، وقص الشعر اتباع أثره، فكأن القاتل سلك طريقًا من القتل فقص أثره فيها ومشى على سبيله في ذلك، ومنه ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] وقيل: القص القطع، يقال: قصصت ما بينهما، ومنه أخذ القصاص؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به، يقال: أقص الحاكم فلانًا من فلان وأباءه به فأمثله فامتثل منه؛ أي: اقتص منه.

الثالثة: صورة القصاص هو أن القاتل فرض عليه إذا أراد الولي القتل الاستسلام لأمر الله، والانقياد لقصاصه المشروع، وأن الولي فرض عليه الوقوف عند قاتل وليه وترك التعدي على غيره، كما كانت العرب تتعدى فتقتل غير القاتل، وهو معنى قوله ﷺ: «**إن من أعتى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة: رجل قتل غير قاتله، ورجل قتل في الحرم، ورجل أخذ بذحول الجاهلية**» قال الشعبي وقتادة وغيرهما: إن أهل الجاهلية كان فيهم بغي وطاعة للشيطان، فكان الحي إذا كان فيه عز ومنعة فقتل لهم عبد، قتله عبد قوم آخرين، قالوا: لا نقتل به إلا حرًا، وإذا قتلت منهم امرأة قالوا: لا نقتل بها إلا رجلاً، وإذا قتل لهم وضيع قالوا: لا نقتل به إلا شريفًا، ويقولون: «القتل أوقى للقتل» بالواو والقاف، ويروى «أبقى» بالباء والقاف، ويروى «أنفى» بالنون والفاء، فنهاهم الله عن البغي فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ.﴾ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وبين الكلامين في الفصاحة والجزل بون عظيم.

الرابعة: لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر، فرض عليهم النهوض =

=

بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك؛ لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعًا أن يجتمعوا على القصاص، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود، وليس القصاص بلازم إنما اللازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتداء، فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح على ما يأتي بيانه، فإن قيل: فان قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ معناه: فرض وألزم، فكيف يكون القصاص غير واجب؟ قيل له: معناه إذا أردتم، فاعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاح، والقتلى: جمع قتيل لفظ مؤنث تأنيث الجماعة وهو مما يدخل على الناس كرهًا، فلذلك جاء على هذا البناء كجرحى وزمنى وحمقى وصرعى وغرقي، وشبههن.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بالأُنثَى.﴾ اختلف في تأويلها، فقالت طائفة: جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه، فبينت حكم الحر إذا قتل حرًا، والعبد إذا قتل عبدًا، والأنثى إذا قتلت أنثى، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر، فالآية محكمة وفيها إجمال يبينه قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] وبينه النبي ﷺ بسنته لما قتل اليهودي بالمرأة، قاله مجاهد، وذكره أبو عبيد عن ابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضًا أنها منسوخة بآية المائدة وهو قول: أهل العراق.

السادسة: قال الكوفيون والثوري: يقتل الحر بالعبد، والمسلم بالذمي، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى﴾ فعم، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ قالوا: والذمي مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد، فإن الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم، فدل على مساواته لدمه؛ إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه.

واتفق أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبي ليلى على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به، وهو قول داود، وروي ذلك عن علي وابن مسعود - رضي الله عنهما - وبه قال سعيد بن المسيب، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عيينة، والجمهور من العلماء لا يقتلون الحر بالعبد؛ للتنويع والتقسيم في الآية.

السابعة: والجمهور أيضًا على أنه لا يقتل مسلم بكافر، لقوله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب، ولا يصح لهم ما رووه من حديث ربيعة أن النبي ﷺ قتل يوم خيبر مسلمًا بكافر؛ لأنه منقطع، ومن حديث ابن البيلماني وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبي ﷺ مرفوعًا، قال الدارقطني: لم يسنده غير إبراهيم بن أبي يحيى وهو متروك الحديث، والصواب عن ربيعة عن ابن البيلماني مرسل عن النبي ﷺ، وابن البيلماني ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث، فكيف بما يرسله؟ قلت: فلا يصح في الباب إلا حديث البخاري، وهو يخصص عموم قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى.﴾ وعموم قوله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

=

=

الثامنة: روي عن علي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن البصري أن الآية نزلت مبينة حكم المذكورين؛ ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يقتل حر عبدًا أو عبد حرًا، أو ذكر أنثى أو أنثى ذكرًا، وقالا: إذا قتل رجل امرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفوا أولياءه نصف الدية، وإن أرادوا استحيوه وأخذوا منه دية المرأة، وإذا قتلت امرأة رجلاً فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإلا أخذوا دية صاحبهم واستحيوها، روى هذا الشعبي عن علي، ولا يصح؛ لأن الشعبي لم يلق عليًا.
وأجمع العلماء على أن الأعور والأشل إذا قتل رجلاً سالم الأعضاء أنه ليس لوليه أن يقتل الأعور، ويأخذ منه نصف الدية من أجل أنه قتل ذا عينين وهو أعور، وقتل ذا يدين وهو أشل، فهذا يدل على أن النفس مكافئة للنفس، ويكافئ الطفل فيها الكبير، ويقال لقائل ذلك: إن كان الرجل لا تكافئه المرأة ولا تدخل تحت قول النبي ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم**» فلم قتلت الرجل بها وهي لا تكافئه ثم تأخذ نصف الدية، والعلماء قد أجمعوا أن الدية لا تجتمع مع القصاص، وأن الدية إذا قبلت حرم الدم وارتفع القصاص، فليس قولك هذا بأصل ولا قياس، قاله أبو عمر ﷺ، وإذا قتل الحر العبد، فإن أراد سيد العبد قتل وأعطى دية الحر إلا قيمة العبد، وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد، هذا مذكور عن علي والحسن، وقد أنكر ذلك عنهم أيضا.
التاسعة: وأجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل، والجمهور لا يرون الرجوع بشيء، وفرقة ترى الاتباع بفضل الديات، قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبو ثور: وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس، وقال حماد بن أبي سليمان وأبو حنيفة: لا قصاص بينهما فيما دون النفس بالنفس وإنما هو في النفس بالنفس، وهما محجوجان بإلحاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأخرى والأولى، على ما تقدم.
العاشرة: قال ابن العربي: ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا: يقتل الحر بعبد نفسه، ورووا في ذلك حديثًا عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل عبده قتلناه» وهو حديث ضعيف، ودليلنا قوله تعالى: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ**﴾ [الإسراء: ٣٣] والولي ها هنا السيد، فكيف يجعل له سلطان على نفسه، وقد اتفق الجميع على أن السيد لو قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المال، وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً قتل عبده متعمدًا فجلده النبي ﷺ ونفاه سنة، ومحا سهمه من المسلمين ولم يقده به، فإن قيل: فإذا قتل الرجل زوجته لِمَ لم تقولوا: ينصب النكاح شبهة في درء القصاص عن الزوج؛ إذ النكاح ضرب من الرق، وقد قال ذلك الليث بن سعد، قلنا: النكاح ينعقد لها عليه، كما ينعقد له عليها، بدليل: أنه لا يتزوج أختها ولا أربعًا سواها، وتطالبه في حق الوطئ بما يطالبها، ولكن له عليها فضل القوامة التي جعل الله له عليها بما أنفق من ماله؛ أي: بما وجب عليه من صداق ونفقة، فلو أورث شبهة لأورثها في الجانبين، قلت: هذا الحديث الذي ضعفه ابن العربي وهو صحيح، أخرجه النسائي وأبو داود، وقال البخاري عن علي بن المديني: سماع الحسن من سمرة صحيح،
=

وأخذ بهذا الحديث، وقال البخاري: وأنا أذهب إليه، فلو لم يصح الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان، وحسبك بهما!، ويقتل الحر بعبد نفسه، قال النخعي والثوري في أحد قوليه وقد قيل: إن الحسن لم يسمع من سمرة إلا حديث العقيقة، والله أعلم، واختلفوا في القصاص بين العبيد فيما دون النفس، هذا قول عمر بن عبد العزيز، وسالم بن عبد الله، والزهري، وقران، ومالك، والشافعي، وأبو ثور، وقال الشعبي والنخعي والثوري وأبو حنيفة: لا قصاص بينهم إلا في النفس، قال ابن المنذر: الأول أصح. الحادية عشرة: روى الدارقطني وأبو عيسى الترمذي عن سراقة بن مالك قال: حضرت رسول الله ﷺ يقيد الأب من ابنه، ولا يقيد الابن من أبيه، قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه من حديث سراقة إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بصحيح، رواه إسماعيل بن عياش عن المثنى بن الصباح، والمثنى يضعف في الحديث، وقد روى هذا الحديث أبو خالد الأحمر عن الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عمر عن النبي ﷺ، وقد روي هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلاً، وهذا الحديث فيه اضطراب، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل ابنه لا يقتل به، وإذا قذفه لا يحد. وقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم في الرجل يقتل ابنه عمدًا، فقالت طائفة: لا قود عليه وعليه ديته، وهذا قول الشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي، وروي ذلك عن عطاء ومجاهد، وقال مالك وابن نافع وابن عبد الحكم: يقتل به، وقال ابن المنذر: وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسنة، فأما ظاهر الكتاب فقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ والثابت عن رسول الله ﷺ: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم**» ولا نعلم خبرًا ثابتًا يجب به استثناء الأب من جملة الآية، وقد روينا فيه أخبارًا غير ثابتة، وحكى الكيا الطبري عن عثمان البتي أنه يقتل الوالد بولده للعمومات في القصاص، وروي مثل ذلك عن مالك، ولعلهما لا يقبلان أخبار الآحاد في مقابلة عمومات القرآن، قلت: لا خلاف في مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمدًا مثل أن يضجعه ويذبحه أو يصبره مما لا عذر له فيه ولا شبهة في ادعاء الخطأ أنه يقتل به قولاً واحدًا، فأما إن رماه بالسلاح أدبًا أو حنقًا فقتله ففيه في المذهب قولان: يقتل به، ولا يقتل به وتغلظ الدية، وبه قال جماعة العلماء، ويقتل الأجنبي بمثل هذا، ابن العربي: سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشي يقول في النظر: لا يقتل الأب بابنه؛ لأن الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟ وهذا يبطل بما إذا زنا بابنته فإنه يرجم، وكان سبب وجودها وتكون هي سبب عدمه، ثم أي فقه تحت هذا، ولم لا يكون سبب عدمه إذا عصى الله تعالى في ذلك، وقد أثروا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقاد الوالد بولده» وهو حديث باطل، ومتعلقهم أن عمر ﷺ قضى بالدية مغلظة في قاتل ابنه ولم ينكر أحد من الصحابة عليه، فأخذ سائر الفقهاء ﷺ المسألة مسجلة، وقالوا: لا يقتل الوالد بولده، وأخذها مالك محكمة مفصلة فقال: إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه، وشفقة الأبوة شبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد إلى القتل تسقط القود، فإذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله، قال ابن المنذر: وكان مالك والشافعي وأحمد وإسحاق

يقولون: إذا قتل الابن الأب قتل به. الثانية عشرة: وقد استدل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله: لا تقتل الجماعة بالواحد، قال: لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد، وقد قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾. والجواب أن المراد بالقصاص في الآية: قتل من قتل كائنًا من كان ردًا على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قتل من لم يقتل، وتقتل في مقابلة الواحد مائة افتخارًا واستظهارًا بالجاه والمقدرة، فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة وذلك بأن يقتل من قتل، وقد قتل عمر ﷺ سبعة برجل بصنعاء وقال: لو تمالا عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعًا، وقتل علي ﷺ الحرورية بعبد الله بن خباب، فإنه توقف عن قتالهم حتى يحدثوا، فلما ذبحوا عبد الله بن خباب كما تذبح الشاة، وأخبر علي بذلك قال: «الله أكبر! نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب، فقالوا: كلنا قتله ثلاث مرات، فقال علي لأصحابه: دونكم القوم، فما لبث أن قتلهم علي وأصحابه» خرج الحديثين الدارقطني في «سننه» وفي الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار» وقال فيه: حديث غريب، وأيضًا فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا الواحد لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم وبلغوا الأمل من التشفي، ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ، والله أعلم. وقال ابن المنذر، وقال الزهري وحبيب بن أبي ثابت وابن سيرين: لا يقتل اثنان بواحد، روينا ذلك عن معاذ بن جبل وابن الزبير وعبد الملك، قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة مع من أباح قتل جماعة بواحد، وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه. الثالثة عشرة: روى الأئمة عن أبي شريح الكعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم معشر خزاعة قتلتم هذا القتيل من هذيل وإني عاقله، فمن قتل له بعد مقالتي هذه قتيل فأهله بين خيرتين: أن يأخذوا العقل، أو يقتلوا» لفظ أبي داود، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وروي عن أبي شريح الخزاعي عن النبي ﷺ قال: «من قتل له قتيل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية» وذهب إلى هذا بعض أهل العلم، وهو قول أحمد وإسحاق. الرابعة عشرة: اختلف أهل العلم في أخذ الدية من قاتل العمد، فقالت طائفة: ولي المقتول بالخيار إن شاء اقتص، وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل، يروى هذا عن سعيد ابن المسيب وعطاء والحسن، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال الليث والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور، وحجتهم حديث أبي شريح وما كان في معناه، وهو نص في موضع الخلاف، وأيضًا من طريق النظر فإنما لزمته الدية بغير رضاه؛ لأن فرضًا عليه إحياء نفسه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: ترك له دمه، في أحد التأويلات، ورضي منه بالدية ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف في المطالبة بالدية، وعلى القاتل ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: من غير مماطلة وتأخير عن الوقت ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها ولي الدم على ما يأتي بيانه. وقال آخرون:

=

ليس لولي المقتول إلا القصاص، ولا يأخذ الدية إلا إذا رضي القاتل، رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه، وبه قال الثوري والكوفيون، واحتجوا بحديث أنس في قصة الربيع حين كسرت ثنية المرأة، رواه الأئمة قالوا: فلما حكم رسول الله ﷺ بالقصاص وقال: «القصاص كتاب الله، القصاص كتاب الله» ولم يخير المجني عليه بين القصاص والدية، ثبت بذلك أن الذي يجب بكتاب الله وسنة رسوله في العمد هو القصاص، والأول أصح لحديث أبي شريح المذكور. الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ اختلف العلماء في تأويل «من» و«عفي» على تأويلات خمس: أحدها: أن «من» يراد بها القاتل، و«عفي» تتضمن عافيًا هو ولي الدم، والأخ: هو المقتول، و«شيء» هو الدم الذي يعفى عنه ويرجع إلى أخذ الدية، هذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة من العلماء، والعفو في هذا القول على بابه الذي هو الترك، والمعنى: أن القاتل إذا عفا عنه ولي المقتول عن دم مقتول وأسقط القصاص فإنه يأخذ الدية ويتبع بالمعروف، ويؤدي إليه القاتل بإحسان. الثاني: وهو قول مالك أن «من» يراد به الولي «وعفي» يسر لا على بابها في العفو، والأخ يراد به القاتل، و«شيء» هو الدية؛ أي: أن الولي إذا جنح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فإن القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه، فمرة تيسر ومرة لا تيسر، وغير مالك يقول: إذا رضي الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه، وقد روي عن مالك هذا القول، ورجحه كثير من أصحابه. وقال أبو حنيفة: إن معنى «عفي» بذل، والعفو في اللغة: البذل، وقال قوم: وليؤد إليه القاتل بإحسان، فندبه تعالى إلى أخذ المال إذا سهل ذلك من جهة القاتل، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة، كما قال ذلك عقب ذكر القصاص في سورة المائدة: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] فندب إلى رحمة العفو والصدقة، وكذلك ندب فيما ذكر في هذه الآية إلى قبول الدية إذا بذلها الجاني بإعطاء الدية، ثم أمر الولي باتباع، وأمر الجاني بالأداء بالإحسان، وقد قال قوم: إن هذه الألفاظ في المعينين الذين نزلت فيهم الآية كلها وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة، ومعنى الآية: فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات، ويكون «عفي» بمعنى: فضل. روى سفيان بن حسين بن شوعة عن الشعبي قال: كان بين حيين من العرب قتال، فقتل من هؤلاء وهؤلاء، وقال أحد الحيين: لا نرضى حتى يقتل بالمرأة الرجل وبالرجل المرأة، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «القتل سواء» فاصطلحوا على الديات، ففضل أحد الحيين على الآخر، فهو قوله: ﴿كُتِبَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعني: فمن فضل له على أخيه فضل فليؤده بالمعروف، فأخبر الشعبي عن السبب في نزول الآية، وذكر سفيان العفو هنا الفضل، وهو معنى يحتمله اللفظ، وتأويل خامس: وهو قول علي ﷺ والحسن في الفضل بين دية الرجل والمرأة والحر والعبد؛ أي: من كان له ذلك الفضل فاتباع بالمعروف، و«عفي» في هذا الموضع أيضًا بمعنى فضل. السادسة عشرة: هذه الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدي، وهل ذلك على الوجوب أو الندب؟ فقراءة الرفع تدل على الوجوب؛

=

النسخ، وليس كذلك.

وسنة القصاص جارية على ما أنزلها الله جلَّ ذكره في التوراة والإنجيل كما ذكر في سورة المائدة قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة:٤٥].

أنزل الله جلَّ ذكره القرآن على هذا الحكم، كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾ [المائدة:٤٨].

وإنما جاء القصاص في هذه الآية المذكورة أولاً؛ لأن قومًا من العرب أعزة عالين، فكانت سنتهم أن القبيلة الذليلة إذا قتلت من القبيلة العزيزة عبدًا كان

=

لأن المعنى فعليه اتباع بالمعروف، قال النحاس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ شرط والجواب ﴿فَاتِّبَاعٌ﴾ وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه اتباع بالمعروف، ويجوز في غير القرآن «فاتباعًا» و«أداء» بجعلهما مصدرين، قال ابن عطية: وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة «فاتباعا» بالنصب، والرفع سبيل للواجبات، كقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ وأما المندوب إليه فيأتي منصوبًا، كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود ولا دية، فجعل الله تعالى ذلك تخفيفًا لهذه الأمة، فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا، قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ﴾ شرط وجوابه؛ أي: قتل بعد أخذ الدية وسقوط الدم قاتل وليه ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال الحسن: كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلاً فر إلى قومه فيجئ قومه فيصالحون بالدية فيقول ولي المقتول: إني أقبل الدية، حتى يأمن القاتل ويخرج، فيقتله ثم يرمي إليهم بالدية، واختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية، فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعي: هو كمن قتل ابتداء، إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة. وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل ألبتة، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو، وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعفى من قتل بعد أخذ الدية» قال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة، وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما يرى، وفي «سنن» الدارقطني عن أبي شريح الخزاعي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أصيب بدم أو خبل - والخبل عرج - فهو بالخيار بين إحدى ثلاث، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتص، أو يعفو، أو يأخذ العقل، فإن قبل شيئًا من ذلك ثم عدا بعد ذلك، فله النار خالدًا فيها مخلدًا».

حكمهم أن يقتل من القبيلة الذليلة حرًّا، وإن قتلت أنثى كان المقتول بها ذكرًا، فأنزل الله حكمه بالعدل ألا يقتل بالقتيل إلا قاتله جناية أو قودًا، وبالأنثى قاتلها ذكرًا كان أو أنثى(١).

ثم نصَّ بعد هذا على الرخصة في أخذ الدية وخص المتقاضي على الاتباع بالمعروف والغارم على الأداء بالإحسان قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:١٧٩] أحد وجهي الخطاب معناه وهو الأظهر: إرادة التشديد والزجر حرمة للدماء بقتل القاتل من كان، وهو الحق والصواب والحكمة.

والوجه الثاني، وهو الأظهر في آخر الآية: القصاص من الأنفس.

قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة:١٧٩] إنه القصاص من الأنفس، وتلك سنة أولي الألباب من كانت ذنوبه بكثرة الضحك يقاص منها بكثرة البكاء، ومن سهر في البطالة فليسهر في العبادة والاجتهاد، ومن كانت مما جره عليه كثرة الأكل والشرب والتمتع بذلك فعليه بالصيام ليذهب لحمًا نبت على ذلك، ومن كانت ذنوبه بكتمان علم فليبين عن الله جلَّ ذكره، وليصلح ما أفسد بإلباسه الحق بالباطل، وما صنع من تبليغ العلم، ومن كانت ذنوبه بنكاح حرام فليلزم نفسه نكاح الحلال؛ ليقابل كل ضرب من الذنوب بما يشابهه ويصلحه من الطاعات، وليستعن على ذلك بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين.

فيه ينتظم هذا المعنى وبه خاطب من كان قبلنا، وهو قتل النفس وذبحها بالعبادة ومنعها من شهواتها قوله ﷻ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ**﴾ [البقرة:١٨٠] إلى آخر المعنى.

الخير ها هنا هو المال، والمكتوب هو أن يوصي العبد إذا حضره الموت أو

---

(١) قال النسفي: كلام فصيح لما فيه من الغرابة؛ إذ القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل ظرفًا للحياة. وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بينة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة؛ لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان القصاص حياة وأي حياة أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل فتذكر الاقتصاص ارتدع فسلم صاحبه من القتل وهو من القود، فكان شرع القصاص سبب حياة نفسين. [تفسير النسفي (٩٣/١)].

خاف لوالديه أو لأقاربه أن ينفذوا وصيته ويمضوا عهده، وأرادوا بذلك راحته بعد وفاته، فذلك أقرب لإراحته، وتوصيتهم بالمعروف في ذلك وبتقوى الله ولزوم الطريقة المثلى كذلك الأب والأقارب أحق بالصلاة عليه للمعهود في نصيحتهم، ورغبتهم في إدخال السرور عليه بعد الموت.

وكذا يوصي والديه وذويه وبنيه بالمعروف في القول والعمل على طاعة الله ﷻ ونحو هذا، ويكون هذا منتظمًا بقوله جلَّ ذكره: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة:١٣٢].

وقوله ﷻ: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر:١-٣] وهو كثير في القرآن العزيز.

وبذلك استمسك زكريا ﷺ لما منع الكلام أوصى إلى قومه حين خرج عليهم ﴿**أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًا**﴾ [مريم:١١] كذلك قال: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة:١٨٠] وليس في الآية نسخ بشيء من القرآن، وإنما كان المسلمون في أول الهجرة قد آخى رسول الله ﷺ بينهم؛ لغربتهم من عشائرهم، فآخى بين المهاجرين والأنصار، فكانوا يتوارثون بذلك حتى تدارك الناس واستحكم الأمر، ونزلت آية المواريث، ونزل قوله الحق: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾ [الأنفال:٧٥] فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث**»[1].

يقول: إن أهل المواريث قد أجلهم الله ﷻ من مواريثهم مجالهم، وبقي الأقارب وأولي الأرحام، فلا تواصوا الوارث بوصية فتعطونه من المال فوق حقه المفروض له، فميراثه الذي أعطاه ﷻ وسماه، فكانت له وصية يتقرب بها، فليوصِ إلى أبويه وأقاربه بتنفيذ وصيته وإمضاء عهده من بعده، وليأمرهم في ذلك

---

(١) أخرجه الطيالسي (١١٢٧)، وأحمد (٢٢٣٤٨)، والترمذي (٢١٢٠) وقال: حسن صحيح، والطبراني (٧٦١٥)، وابن أبي شيبة (١٧٦٨٨)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والنسائي (٣٦٤١)، وابن ماجة (٢٧١٤)، وعبد الرزاق (٧٢٧٧)، والبيهقي (١١٩٨٢)، والدارقطني (٣/٤٠).

بالمعروف وينهاهم عن المنكر فذلك حق على المتقين.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة:١٨١-١٨٥].

يعضد هذا التأويل قوله بعد هذا: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٨٢].

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ....﴾[(١)] [البقرة:١٨٣] أعلم الله جلَّ ذكره عباده بكتب الصيام عليهم صيامًا

(١) واختلفوا في هذا التشبيه؛ فقال سعيد بن جبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان في ابتداء الإسلام. وقال جماعة من أهل العلم: أراد أن صيام رمضان كان واجبًا على النصارى كما فرض علينا، فربما كان يقع في الحر الشديد والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم ويضرهم في معايشهم، فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع، وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين، ثم إن ملكهم اشتكى فمه فجعل لله عليه إن هو برئ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعًا فبرئ فزاد فيه أسبوعًا، ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يومًا. وقال مجاهد: أصابهم موتان، فقالوا: زيدوا في صيامكم، فزادوا عشرًا قبل وعشرًا بعد، قال الشعبي: لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يشك فيه، فيقال: من شعبان، ويقال: من رمضان، وذلك أن النصارى فرض عليهم شهر رمضان فصاموا قبل الثلاثين يومًا وبعدها يومًا، ثم لم يزل القرن الآخر يستن بسنة القرن الذي قبله حتى صاروا إلى خمسين يومًا، فذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
=

مجملاً لا يدري من لفظ الصيام ما هو قدره إلا ما قال الله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فتوجه على المسلمين أن يصوموا صيام من كان قبلهم، فكانوا يصومون ويفطرون قبل غروب الشمس كصيام أهل الإنجيل.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾[البقرة:١٨٦-١٨٩].

فبيَّن الله ﷻ هذا المجمل بقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] وكانوا يصومون إذا أفطروا، رفع أحدهم يده عن الطعام أو نام عنه لم يرجع إليه إلى مثلها، فضر ذلك ببعضهم، فبيَّن الله ﷻ بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وكانوا لا يمسوا النساء ولا يجامعوهن في الصيام، وكانوا مع ذلك يتهافتون فيه ويحرجهم ذلك، فبيَّن الله جلَّ ذكره ذلك بقوله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ

=

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يعني: بالصوم؛ لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: لعلكم تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع. [تفسير البغوي (١/١٩٥-١٩٦)].

عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾[1] [البقرة:١٨٧].

وكان رسول الله ﷺ حين وروده إلى المدينة وجد يهود يصومون يوم عاشوراء ويُصوِّمون صبيانهم وصغارهم، فبيَّن الله ﷻ ذلك المراد منه بقوله جلَّ قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وكان ذلك من فعلهم اقتداء بصوم أهل الكتاب حتى أنزل ﷻ هذه الآية، فنسخ الله عنهم بعض أحكام صيام أهل الكتاب، وليس من القرآن في هذا كله شيء منسوخ.

وقال عز من قائل فيه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:١٨٤] وهذا اللفظ مجمل يحتاج إلى بيان، فجاء بيانه في أثناء الآية.

قوله جلَّ قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال - عزَّ قوله - في صدر الخطاب: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] هذا خطاب لمسألة [تتعلق][2] بجهلنا بعدة الأيام كم هي! وإنما قال جلَّ قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فلما قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ علمنا أنه للأيام المعدودات، وإنه من شهد الشهر فعليه صيامه، ومن كان مريضًا أو على سفر فعليه أن يصوم عدة ما أفطر أيامًا أخر من غيره.

وفي الخطاب: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[3] فوجب على

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ «ليلة» نصب على الظرف، وهي اسم جنس فلذلك أفردت، والرفث: كناية عن الجماع؛ لأن الله ﷻ كريم يكنى، قاله ابن عباس والسدي، وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وقاله الأزهري أيضًا، وقال ابن عرفة: الرفث ها هنا الجماع، والرفث: التصريح بذكر الجماع والإعراب به، وتعدى: «الرفث» بـ«إلى» في قوله تعالى: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وأنت لا تقول: رفثت إلى النساء، ولكنه جيء به محمولاً على الإفضاء الذي يراد به الملابسة في مثل قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١].

(٢) زيادة لتمام السياق.

(٣) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال: الأول: وهو قول أكثر المفسرين: إن المعنى وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم لكونهم مقيمين صحيحين إن أفطروا فدية هي طعام مسكين، والفدية في معنى الجزاء وهو عبارة عن البدل القائم عن الشيء، وأنه ههنا عند أهل =

المريض والمسافر عدة أيام أخر، وبقي على المطيقين - وهي الحامل - إذا خافت على ما في بطنها أفطرت وأطعمت وإن كانت هي مطيقة للصوم، وكذلك المرضع إذا خافت على رضيعها أفطرت وأطعمت، وأما الهرماء والزمنى الذين لا ترجي صحتهم فهم يطعمون ولا يكلفون صومًا؛ لعذرهم الدائم بهم.

وفيه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يقول وهو أعلم بما ينزل من إطعام مسكين أو صيام نافلة: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ أي: من ألا يفعل ﴿وَأَن تَصُومُوا﴾ خير منه على صيام التطوع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤] يعرض بحسن عائدة الصوم وجميل مغبته.

قال رسول الله ﷺ لأبي أمامة، وقد سأله عملاً يلزمه: «**عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له**»[1] قال: وكان لا يُرى في دار أبي أمامة دخان نهارًا إلا أن يحل به ضيف.

يقول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] فيسهل

العراق نصف صاع من بر أو صاع من غيره، وعند أهل الحجاز ومنهم الشافعي مدّ من غالب قوت البلد لكل يوم ويصرف إلى الفقير والمسكين، قالوا: كان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعوّدوه، فاشتد عليهم فرخص لهم في الإفطار والفدية. الثاني: إن هذا راجع إلى المسافر والمريض، وذلك أن المريض والمسافر منهما من لا يطيق أصلاً، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ومنهما من يطيق الصوم مع الكلفة، وهو المراد بقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ قالوا: هذا أولى ليلزم النسخ أقل، فإن نسخ التخيير بين الصوم والفدية عن المريض المطيق أقل من نسخ التخيير عنه وعن الصحيح المقيم. الثالث: إنه نزل في الشيخ الهرم. عن السدي: وعلى هذا لا تكون الآية منسوخة، ويؤيده القراءة الشاذة «**يطوّقونه**» تفعيل من الطوق؛ إما بمعنى الطاقة أو القلادة؛ أي: يكلفونه أو يقلدونه، والتركيب يستعمل فيمن يقدر على شيء مع ضرب من المشقة والكلفة، وبعضهم أضاف إلى الشيخ الهرم الحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما وولديهما، واتفقوا على أنا لشيخ إذا أفطر فعليه الفدية، وأما الحامل والمرضع إذا أفطرتا، فقال الشافعي: عليهما القضاء والفدية لحق الوقت، وقال أبو حنيفة: لا يجب إلا القضاء كيلا يلزم الجمع بين البدلين. تفسير النيسابوري (١/٤٢٩-٤٣٠).

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٩٤)، والنسائي (٢٢٢٠)، وابن خزيمة (١٨٩٣)، وابن حبان (٣٤٢٥)، والطبراني (٨١٠)، والحاكم (١٥٣٣)، والبيهقي في الشعب (٣٨٩٣) وفي السنن الكبرى (٨٢٦٣)، وعبد الرزاق (٧٨٩٩)، وابن أبي شيبة (٨٨٩٥)، والنسائي في الكبرى (٢٥٣٠).

عليكم الصوم لأجل ذلك، فتكونوا صائمين على يسر منحناكموه كالذين كانوا من قبلكم على العسر الذي كلفناهموه، ولكم على هذا اليسر ضعفي ما لهم من الأجر.

ثم عطف بالواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ [البقرة:١٨٥] يعرض وهو أعلم ﷻ بما بلغه إلينا رسول الله ﷺ: «**رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما**»[١].

و«**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢].

وقوله ﷺ: «**إن لله في كل ليلة من رمضان عتقاء**» وذكر عددًا أنسيته، قال «**فإذا كان ليلة القدر عتق بضعف جميع ما تقدم، فإذا كان آخر ليلة من رمضان أعتق فيها بعدد جميع من أعتقه في جميع الليالي من شهر رمضان**»[٣].

فقال عز من قائل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ يعني: لشهر رمضان وليالي القدر ويوم الجمعة وصلاة العصر ودين الإسلام، والتصديق بجميع الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه على جميعهم - وعند صلاة العيد والبروز له، وتكبيرهم ذا الكبرياء والعظمة وقد كفرت عنهم خطاياهم، فكان من تكبيرهم وبروزهم إليه أول عمل من كونهم شاكرين ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥] فلا تسأل عن منال ينيلهم الغفور الشكور.

فصل

ينتظم إيجاب الصوم وكتبه إياه على عباده، وإعلامه إياهم في خطابه هذا يمتن عليهم بقوله الحق: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٠] بإتمام شرائعكم وإكمال مناسككم، وإتمام دينكم الإسلام الذي تضمنه سؤال إبراهيم ﷺ وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما وعلى نبينا السلام ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥] أي: تبلغون درجة الشكر، وتعملون في رفع الدرجات.

---

(١) أخرجه الطبراني (٥٤٤٥)، وأحمد (٧١٢٩)، والحاكم (٤١٢)، والبيهقي في الشعب (٣٦٢٠)، وإسحاق بن راهويه (٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، والترمذي (٦٨٣)، وأبو داود (١٣٧٢)، وأحمد (٧١٧٠)، والنسائي (٢٢٠٣)، وابن ماجة (١٣٢٦)، وابن حبان (٣٤٣٢).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٠٤).

فذكر فيما تقدم دين الإسلام والتوحيد والشهادة على ذلك، والقبلة والصوم والصبر والجهاد والحج، والنظر والاعتبار والحلال والحرام، ونهاهم عن الكفر واتباع خطوات الشيطان وإلباس الحق بالباطل والكتمان، وذكر البر وشروطه والقصاص، وندب إلى الدية، ونصَّ على التوصية بالمعروف.

ثم ذكر الصوم وعظم قدره، وأظهر حرمة الشهر الذي فرض فيه الصوم، وجعل عاقبته وإكمال عدة المغفرة واستقبال العمل على سبيل الشكر وإجابة الدعوات وقضاء الحاجات، بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه**»[١].

وقوله ﷺ: «**ثلاث لا ترد دعوتهم...**» وذكر «**الصائم حتى يفطر**»[٢].

قوله ﷻ: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة:١٨٦] نظم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه هذا بالمجاورة بقوله: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ [البقرة:١٨٣] وذكر جلَّ ذكره ما جاء في ذلك؛ لقرب حكم الاستجابة من حال الصائم، ثم قال رسول الله ﷺ ما تغني الإشارة إليه عن الإكثار طلبًا للاختصار.

السؤال على ضربين:

أحدهما: سؤال يعرف، ويعلم الجواب من ذلك بأنه قريب ممن دعاه.

والضرب الآخر: هو استدعاء بقول الله ﷻ: «**هل من سائل فيُعطى؟ هل من داعٍ فيستجاب له؟**»[٣] فالدعاء للإجابة، والسؤال للمثوبة والإعطاء.

يقول: «**دعوت الله، ودعوت إلى الله**» فالدعاء إلى الله ﷻ هو تحبيبه إلى عباده، وإدخالهم في عبادته، والعمل بطاعته.

يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا...**﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٩٧٤١)، والترمذي (٣٥٩٨) وقال: حسن، وابن حبان (٨٧٤)، وابن ماجة (١٧٥٢)، والبيهقي (٦١٨٦)، وابن خزيمة (١٩٠١)، وإسحاق بن راهويه (٣٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٨)، والطبراني في الكبير (٨٣٩١)، وفي الأوسط (٢٧٦٩)، وأحمد (١١٦٩٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٨)، وأبو نعيم في المعرفة (٢٦٤٨).

[فصلت:٣٣] ودعاؤك إليه التضرع وإظهار الحاجات والفاقة، كما قالوا: الدعاء زينة للآلات وحلية للأدوات.

وإظهار الحاجات إلى رب العالمين والعباد في الدعاء على ثلاث ضروب بعد اجتماعهم في أصله:

- **فدعاء بالأقوال**: وهو دعاء العامي.
- **ودعاء بالأفعال**: وهو دعاء الزاهد.
- **ودعاء بالأحوال**: وهو دعاء العارف، وهذه المنزلة مشتركة بين الدعاء والاستدعاء، فالدعاء ما تقدم ذكره، وهو النداء والتضرع وإظهار الفاقة، والدعاء بالأحوال والأفعال هو الاستدعاء؛ لأنه انتظار بحالة الاضطرار، ولا بد للداعي من استدعاء في دعائه، وهو إظهار الاضطرار والافتقار، ولا بد من استعمال معنى السؤال؛ ليجمع له ذلك.

ولما كانت حقيقة الدعاء وفائدته إظهار الفاقة والفقر إلى الله ﷻ، فإنما يفتقر العبد إلى الله ﷻ عند رؤية الحقيقة وضرورة الحاجة إليه، فيكون علمه حينئذٍ بموضع الاستدعاء نفس العبودية، ويكون الدعاء على هذا استدعاء بالحال.

ومثل هذا قول الله جلَّ قوله: ﴿**الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا**﴾ [الأنفال:٦٦] فإنما خفف ﷻ عنهم، والاضطرار الذي كان حالاً علم الله ذلك منهم، وهو الذي ضيعه الغافلون قبلهم فحاق بهم المكروه.

قال الله ﷻ: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...**﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿**أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً**﴾ [الأنعام:٤٤].

وقوله جلَّ قوله: ﴿**فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا**﴾ [الأنعام:٤٣].

وقوله: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**﴾ معناه: بالإيمان، والعمل بطاعتي ﴿**لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة:١٨٦] أي: يصلحوا لأن أختصهم وأتولاهم بولايتي، فألحقهم بمن توليت شأنهم وعصمتهم ووليت أمرهم، فيكونون يسمعون بي، ويتضرعون بي، وينطقون بي، ويمشون بي، وأجعلهم في مواطن محادثتي وتكليمي، وهناك إن دعوني أجبتهم، وإن سألوني أعطيتهم، وإن استنصروني نصرتهم.

فصل

اعلم - أرشدنا الله وإياك، وعلمنا من علمه، وأجزل حظنا من معرفته - أن هذه المنزلة لا مطمع فيها إلا بفضل الله ﷻ وتعالى، ورحمته يقصد بها عبده، ومن شأنهم تفريغ القلوب له، والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصة وعامة، والذكر الكثير في الذكر في العمل له بمرضاته بوفاق الأخلاق فيه، وعلم بالمطلوب رضاه وإيمان به، ولا يقتصد في الإيمان به دون مشاهدة الحضرة في كل موطن وعلى كل حال، كما قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] وإنما هو أن ترضيه، فإذا فعلت ذلك أرضاك.

قال الله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠] وهو أن ترضيه فيرضيك، كما قال جلَّ قوله: «**إذا تقرب عبدي مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1].

وهو ذو الفضل العظيم، المنان بالنعم قبل استحقاقها، ثم هو العزيز، لا يعطي عبده جزاءه إلا بعد اجتهاد العبد فإذا وضع العبد أول قدم في الاجتهاد أعطاه أيضًا في العون على قدر ذلك، فهو ﷻ إن أرضيته أرضاك، وإن أطعته فيما أمرك به ونهاك أفضل عليك ووهبك أن تسأله فيعطيك، وتدعوه فيجيبك، هو الأول في ذلك كله، والآخر والظاهر والباطن.

فصل

إذا أسلم العبد وشهد شهادة الحق وأن لا إله إلا الله جلَّ ذكره أدخله في الولاية الأولى، فحرم على المسلمين دمه وماله وعرضه إلا بالحق، وجعل حسابه عليه، وكان له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، فإذا أطاعه جازاه بطاعته،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩٨)، ومسلم (٢٦٧٥) وأحمد (١٢٣٠٩)، وعبد بن حميد (١١٦٨) وأبو يعلى (٣١٨٠) والروياني (١٣٤٦) وأبو يعلى (٦٦٠١)، وابن حبان (٣٧٦)، والطبراني (٦١٤١).

وإذا ذكره ذكره، وإذا عصاه استعتبه وانتظره، وإذا ابتلاه عادَه وكان معه بالتولي.

ومن هنا قال الله جلَّ ذكره: «**ابن آدم، مرضت فلم تزرني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني، وعريت فلم تكسني**»(١).

وفي أخرى: «**وكنت محبوسًا فلم تزرني، وضيفًا فلم تأوني**». وفيه: «**أما أنكم لو فعلتموه بعبادي لفعلتموه بي**»(٢).

ثم إذا ارتقى بهمته صعد إلى مقام الإحسان في إسلامه وإيمانه، فعبد الله ﷻ بالمشاهدة كان معه بالولاية العليا.

قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل:١٢٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة:١٩٥].

وهو الدخول في السلم كافة، والإحسان جميع ذلك، فيزيل سلطان الشيطان عنه، فهو إن همَّ بسوء تداركه بعصمته وكلأه بكلاءته، وباعده من مواطن الهلكات، وكان حارسًا له من الآفات، وفرغه له وشغله به عمن سواه، وصار فيمن ﴿**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة:٢٢] جعلنا الله الرحيم برحمته منهم، ولا جعل حظنا من صفاتهم وصفهم، إنه حكيم عليم.

قالوا: دفع الملمات ثلاث خصال: الدعاء، وصدق التقى، ورحمة المبتلى، وكانوا يستدفعون البلايا بالصلاة.

قال الله ﷻ: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ....**﴾(٣) [البقرة:١٨٧]

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه في سابقه، ولم أقف عليه هكذا بهذا اللفظ.

(٣) الرفث كناية عن الجماع، قال ابن عباس: إن الله تعالى حيي كريم يكنى كل ما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث فإنما عنى به الجماع، وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء، قال أهل التفسير: كان في ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد قبلها، فإذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والنساء إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن =

كل ما كان من تكيلم النساء في معنى الجماع فهو رفث، أحل الصيام ثلاثة أحوال، وكان أوله على شرع من كان قبلنا، وقد تقدم ذكر هذه الثلاثة الأحوال أنها نُسخت بالقرآن العزيز، فالمنسوخ بالقرآن هو شرع من كان قبلنا وكتابهم كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣] فكان ذلك نسخًا للكتاب المتقدم لا نسخًا للقرآن.

ألا تسمع إلى قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] يخاطب جملة الأمة؛ أي: رجع لكم عما لزم من كان قبلكم، كما قال الله - عزَّ قوله - في غير هذا الموضع: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: إلى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] فهذا النسخ جاء في القرآن نسخ لما في كتابهم من ذلك لا للقرآن.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] أي: مناهيه؛ إذ قال عزَّ قوله في حدوده: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وهي المناهي، ومتى قال عزَّ قوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] فهي حدود الطاعة.

ومفهوم هذا: اجعلوا بينكم وبين حدود المناهي سترًا من المباحات، واتركوا ما اشتبه من ذلك عليكم إلى ما لا يشتبه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧] ما كان من الآيات التي هي أفعال وصنائع مما جعلها ﷻ شواهد على ما هي عليه مما يجب له، فهي آيات له على العلم والمعرفة به، وما كان منها مما هو من قبيل التكليف والوجود منها في سبيل الأوامر والنواهي، فتلك آيات على إصابة العمل

الخطاب ﷺ واقع أهله بعدما صلى العشاء، فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة، إني رجعت إلى أهلي بعد ما صليت العشاء فوجدت رائحة طيبة، فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فهل تجد لي من رخصة؟ فقال النبي ﷺ: «ما كنت جديرًا بذلك يا عمر» فقام رجال واعترفوا بمثله، فنزل في عمر وأصحابه هذه الآية. [تفسير البغوي (٢٠٦/١)].

بطاعته، واستحباب القرب والولاية والدخول في خاصة عباده، فمن نظر في آياته التي أودعها الصنعة وتفكر في الحكمة آتاه علمًا وحكمًا، ومن توقى مناهيه واجتنب محارمه فهو من المتقين، ومن استعمل نفسه بهما وشغلها بما يرضيه وحافظ على ذلك ووافى عليه فقد لبس التقوى، واستجاد حلتها وريطتها[1] وسربالها.

فصل

لما قال الله عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧] جعل ﷻ يسرد ذكر آياته ويبينها، ونواهيه وأوامره، ويوقف على حدوده، فقال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ﴾ [البقرة:١٨٨] يعلم بذلك أن حكم الحاكم لا يحلل حرامًا ولا يحرم حلالاً.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ زيادتها ونقصانها واستوائها، فأجابهم: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] كما قال - جلَّ قوله - في موضع آخر: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥].

﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَن تَأْتُوا البُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩] وهذا منتظم معناه ما تقدم من قوله جلَّ قوله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

وذكر نقلة الحديث أن سبب ذلك مذكور في الحديث، قيل: كان أحدهم متى خرج في حاجة فلم تنقضِ له دخل بيته من ظهره ولم يدخل من بابه، والفائدة في هذا النهي: ألا يأتي أحد أمرًا إلا من قِبَل وجهه ومن حيثما أتاه، فتلك سنة الله جلَّ ذكره في مخلوقاته في الدين والدنيا.

ثم ذكر القتال في سبيل الله والإنفاق، وجعل الحد في رفع الجهاد من الفتنة، وأن يكون الدين لله، ذكر ﷻ هذا ها هنا يخاطب بذلك الرسول وأصحابه، عليهم السلام.

وقال جلَّ قوله في موضع آخر من كتابه العزيز: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

---

(١) ريطتها: قَدْ يُسَمَّى كُلُّ ثَوْبٍ رَقِيقٍ رَيْطَةً. انظر: المصباح المنير (٤/٣٠).

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ كله ﴿لله﴾ [البقرة:١٩٣] وهذا خطاب يتوجه إلى بقية الأمم فيما يستقبل، وهذا لقوله لقوله عزَّ قوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤] للرجل الصالح قبل خروج الدجال - لعنه الله - ثم لعيسى ابن مريم ﷺ، يومئذٍ تتم الكلمة الحسنى على هذه الأمة في قوله عز قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:٣٣].

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٠-١٩٥].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

﴿مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١] بل يصرف بالعدوان إلى الظالمين، هكذا حتى يظهر الدين الذي هو الإسلام على الدين كله، وتضع الحرب أوزارها.

قوله ﷻ: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ﴾(١) [البقرة:١٩٤] متصل المعنى

---

(١) فيها مسألتان: المسألة الأولى في سبب نزولها: قيل: نزلت سنة سبع حين قضى ﷺ عمرته في ذي القعدة، ودخل مكة وقضى نسكه. والمعنى: شهر بشهر، وحرمة بحرمة، وذلك أصل في كل مكلف عاقه عذر عن عبادة ثم قضاها، فإن الحرمة واحدة، والثواب سواء، وقيل: إن المشركين قالوا: يا محمد، نهيت عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم، فأرادوا قتاله فيه، فنزلت الآية؛ أي: إن استحلوا قتالك فيه فقاتلهم، فإن الحرمة بالحرمة مكافأة. تنبيه: قال علماؤنا: هذا يدل على أن لك أن تبيح دم من أباح دمك، وعرض من أباح عرضك، ومال من أخذ مالك؛ لكن من أباح دمك فلا تأخذه إلا بحكم حاكم، لا باستطالتك وأخذك بيدك، وأما من أخذ مالك فخذ ماله إذا تمكنت منه إن كان من جنس مالك إن ذهبًا فذهب، أو طعامًا فطعام، إذا أمنت أن تعد سارقًا، فإن لم يكن من جنسه فالصحيح أنه يتحرى القيمة =

بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٧].

لما عاب المشركون على المسلمين القتال والقتل في الشهر الحرام قال عزَّ من قائل: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ﴾ الذي قاتلوهم فيه بما كانوا يفتنون المسلمين في الشهر الحرام والبلد الحرام والبيت الحرام ويقتلونهم ويخرجونهم.

قال جلَّ قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] أرجع ﷻ الخطاب إلى ذكر الجهاد بقوله عزَّ من قائل: لا تبخلوا بالإنفاق في سبيل الله، ولا تجبنوا عن قتال عدوكم، فلذلك رأى مهلك الفاعلة؛ لما فيه من غلبة العدو والاستيلاء منه على من قعد عن الجهاد والتزامه الذلة والصغار، وسبي الأهل والأولاد وأخذ الأموال، والخروج عن الدين والأوطان.

وبوجه آخر أن يكون ذلك مخاطبة لمن أذنب ذنبًا فاستعظمه، فلا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يظن أن ذنبه فات التوبة وكبر عن الدخول في حكم العفو، وتلك ضلة من ضلال الشيطان، يزين مآتي الذنب ويمني بالعفو، ويدلي بالغرور، وبعد ذلك يعظم ذلك ويقنط صاحبه، ولا يقنط من رحمة الله إلا الضالون.

وليتب إلى ربه، ويراجع الغفور الرحيم، فإنه - عزَّ جلاله - لا يتعاظمه ذنب يغفره وإن عظم ذلك الذنب، وعلى هذا التوجيه يكون معنى ذلك: ترك التوب من أحدكم إلقاء بيده إلى التهلكة، وأحسنوا في توبتكم وإنفاقكم وقتالكم وأعمالكم إن الله يحب المحسنين.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن

=

بقدر ذلك، وإما إن أخذ عرضك، فخذ عرضه ولا تتعداه لأبويه ولا إلى قريبه؛ ولا تكذب عليه، وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تقابل بمثلها، فلو قال لك: يا كافر، فقل له: أنت الكافر، وإن قال لك: يا زان، فقل له: يا كاذب، يا شاهد زور؛ فإن قلت له: يا زان، كنت كاذبًا وشاهد زور وأثمت، وإن مطلك، وهو غني، فقل له: يا ظالم، قال رسول الله ﷺ: «لَيُّ الغني يحلُّ عِرضه وعقوبته» أما عرضه فبما فسرناه، وأما عقوبته فبالسجن حتى يؤدي. [الأحكام الصغرى ص ٥٣].

تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [البقرة:١٩٦-١٩٨].

﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله﴾ [البقرة:١٩٦] هذا منتظم بذكر الحج وبيانه في فعل رسول الله ﷺ من إقرانه العمرة بالحج، وأمر من لم يسق الهدي أن يحل حتى يهل يوم التروية، ومن ساق الهدي فلا يحل منهما جميعًا، هكذا مع العافية والوصول إلى بيت الله والتمكن، فإن من أحصر بعدو أو مرض فليفعل ما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية، قلد الهدي ووجَّهه نحو البيت مرسلاً وحلق.

ومن أذاه هوامه أو كان مريضًا ففعل ما لا يجوز له فعله مع الصحة ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ومع الأمن ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِن الهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦].

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[البقرة: ١٩٩-٢٠٦].

قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1] [البقرة: ٢٠٠] كانوا يذكرون آبائهم بمناقبهم ومفاخرهم.

يقول الله جلَّ قوله: فإذا قضيتم حقه فيما أنعم عليكم من إتمام مناسككم فاذكروا الله بنعمه وآلائه وكريم أياديه قبلكم، وهدايته إياكم من ضلالكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، وبما أرسل به إليكم رسوله ﷺ ونصركم به على من بين ظهرانيكم [فأراد][2] عز جلاله أن يذكروا آباءهم مع ذكره وأنه معنى ذلك أن يجعلوا ذكر ربهم مكان ذكر آبائهم، وأن يمعنوا في ذلك.

ثم ذمَّ ﷻ من قصر علمه على الدنيا وجعلها مبلغه ومنتهاه بقوله جلَّ قوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ * وَمِنْهُم...﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠١].

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني: أيام منى، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] أي: اتقوه في نياتكم وتوجيهها أعمالكم وهيآتكم أيام منى، واتقوه في أوامره ونواهيه.

لذلك أتبع هذا الخطاب قوله عزَّ قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [البقرة: ٢٠٤] إلى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦] ومن كانت هذه حليته فهو منافق خالص.

---

(١) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وسبب نزولها أنهم كانوا إذا اجتمعوا في الموسم تفاخروا بآبائهم، فيقول أحدهم: كان يقرى الضيف ويضرب بالسيف، ويطعم الطعام وينحر الجزور، ويفك العاني ويجر النواصي ويفعل كذا وكذا، فنزلت. وقال الحسن: كانوا إذا حدثوا أقسموا بالآباء فيقولون: وأبيك، فنزلت. وقال السدي: كانوا إذا قضوا المناسك وأقاموا بمنى يقوم الرجل ويسأل الله فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم الجفنة كثير المال، فأعطني بمثل ذلك! ليس يذكر الله، إنما يذكر أباه ويسأل الله أن يعطيه في دنياه، فنزلت. [تفسير البحر المحيط (٢/٢٧٣)].

(٢) ما بين [ ] غير واضحة بالأصل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٧-٢١٢].

والمخلص الموفق من صفته في معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧].

وهذا بمقابلة ما وُصف به المنافق بقوله عزَّ قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

ثم عرض لهم برفع همتهم صعودًا إلى منزله الولاية، وعلمهم الإخلاص ودلهم على جملته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(١) قرئ بإسكان الطاء ورفعها، فمعنى

---

(١) أصل السلم بالكسر، والفتح الاستسلام والطاعة، ويطلق أيضًا على الصلح وترك الحرب والمنازعة، وهو أيضًا راجع إلى هذا وإنه يذكر ويؤنث، واختلف في المخاطبين فقيل: أمر للمسلمين بما يضاد حال المنافقين؛ أي: يا أيها الذين آمنوا بالألسنة والقلوب دوموا على الإسلام فيما تستأنفونه من أيامكم، ولا تخرجوا منه ولا من شيء من شرائعه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تلتفتوا إلى الشبهات التي يلقيها إليكم أهل الغواية، والكائن في الدار إذا علم أن له في المستقبل خروجًا منها لا يمتنع أن يؤمر بدخولها في المستقبل حالاً بعد حال، ومعلوم أن المؤمنين قد يخرجون عن خصال الإيمان بالنوم والسهو وغيرهما من الأحوال، فلا يبعد أن يأمرهم الله بالدخول في الإسلام فيما يستأنف من الزمان، أو أمرهم بأن يكونوا مجتمعين في نصرة الدين واحتمال البلوى فيه، ولا تتبعوا آثار الشيطان بالإقبال على الدنيا والجبن والخور في أمر الدين مثل ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦] أو =

الإسكان: من الخطوة واحد الخطوة، ألا يسلكوا مسالك ويتبعوا أثره، ومعنى رفعها: الخطايا، لا تتبعوا خطاياه ولا ما يأمركم به من فحشاء ومنكر وإثم ظاهر وباطن في عقودكم وأعمالكم ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٥] عداوته.

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ فيما أمركم به في شيء يكرهه الله الذي شريتم أنفسكم له ابتغاء مرضاته ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩] وعيد منه ﷻ لا يمتنع منه شيء، ولا يعجزه فائت حكيم ﷻ في إيقاع العقوبة على المصرين والمنافقين والكافرين، حكيم في قبول التوبة من التائبين، وفيما ينيلهم من ثواب أعمالهم وكريم حالهم، هل ينتظرون توبة المصرين على ذنوبهم والمنافقين والكافرين من الناس إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام يوم العرض على الحساب والملائكة؛ أي: للموت لقبض نفوسهم، وقضاء الأمر بالسعادة للمتقين والتائبين، والشقاوة للكافرين والمنافقين.

فصل

ذكر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الذكر الذي هو أوجب الواجبات، لأجله شرعت الشرائع ونهجت المناهج واتخذت المواسم لرفيع الذكر، وليجعل لكل مقام نوع من الذكر.

قوله عزَّ قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨].

كان النبي ﷺ يقول عند المشعر الحرام: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**»[1].

= يكون المراد بالدخول في السلم ترك الذنوب والمعاصي، فإن من مذهبنا أن الإيمان باقٍ مع الذنب والعصيان، أو يكون المراد الرضا بالقضاء والتلقي لجميع المكاره بالبشر والطلاقة كما ورد في الخبر: «**الرضا بالقضاء باب الله الأعظم**» أو يكون المراد ترك الانتقام وسلوك طريق العفو والإغماض. [تفسير النيسابوري (٢/٩)].

(١) أخرجه مالك (٩٤٨)، والبخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، والترمذي (٩٦٥)، وأحمد (٤٣٣٥)، وابن أبي شيبة (١٤٥٠٥)، والدارمي (١٨٥٠)، والبيهقي (٨٦٠٩)، =

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩] أي: إن الله قد أوجب لكم المغفرة في مقامكم ذلك حتى إنه ليهب مسيئهم لمحسنهم، ويتجاوز عن الذنوب العظام، ويباهي بهم الملائكة - عليهم السلام - ويخزي إبليس لعنه الله، ويذله ويدحره مما يريه من كرامة عباده وعظيم أفضاله عليهم.

ثم قال عزَّ من قائل ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:٢٠٠] على معنى قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣] أي: أكثروا من ذكره على كل أحوالكم وفي كل أحيانكم، غلب هذا التوجه لفظ الذكر والأمر به، ويتوجه أيضًا إلى معنى المحبة، دل على صحيح هذا التوجه [لتثبيته][1] الذكر بذكرهم آبائهم كما قال القائل:

وَلَـو أَنَنِـي أَسـتَغفِرُ اللهَ كُلَّمَـا ذَكَرتُكِ لَـم تُكتَب عَلَيَّ ذُنُـوبُ

ومن ذلك أن يكون هذا الذكر على الإلحاح والعزة، دلَّ على هذا قوله جلَّ قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ يوافق هذا قول النبي ﷺ: «**ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له**»[2].

فيكون معنى هذا الخطاب ها هنا: سلموا الله حوائجكم، واعزموا في مسائلكم إياه كما تعزمون على آبائكم أو أشد، فإنه أرحم من آبائكم وأعطف عليكم وأقدر على قضائها، دل على تصحيح هذا الوجه قوله - عزَّ من قائل - يذم من قصرت همته وقلَّ علمه بربه، فيرضى منه بالأدنى في مسألته، وهو الواسع الكريم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا....﴾ [البقرة:٢٠٠].

فصل

من الذكر ما هو مؤقت، ومنه ما هو دائم، فالمؤقت منه: العبادات المؤقتة،

= وابن حبان (٦٠١١)، والدارقطني (١٠٤/٣)، وابن ماجة (٢٦٢٨).

(١) في النسخة (ف): «لتثبيت».

(٢) أخرجه مالك (٥٠٠)، والبخاري (٦٣٣٩)، وأبو داود (١٤٨٥)، والترمذي (٣٨٣٦)، وأحمد (١٠٢٢٨)، والحميدي (١٠١٠)، والطبراني في الأوسط (٢٠٩٢) وفي الشاميين (٣١٧٩).

وذلك بالجوارح؛ كالقراءة في وقتها، والصلاة في أوقاتها، والصوم والزكاة والحج، وسائر الفرائض المؤقتة من أعمال الجوارح، وكل نوع من العبادات والطاعات يعود إلى الذكر بالحقيقة؛ إذ لا تصح طاعة ولا عبادة إلا بنية، والنية هي الذكر بالقلب، وهو أن يعلم أنه جلَّ ذكره افترض عليك هذه الطاعة وندب إليها، وإنه هو المقصود فيها بالطاعة والعبادة، والتوجه بها إليه، وكل فعل يخلو من ذلك فهو باطل.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥] ونهى عن الصلاة حال السكر لأجل هذه العلة، ونهى رسول الله ﷺ عن الصلاة حال النوم وحين مدافعة الأخبثين لأجل ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1] ومحل النية القلب.

قال النبي ﷺ: «**إنما لامرئ ما نوى**»[2].

وأما الذكر الدائم فهو ذكر القلب، وحضوره يطرد الشيطان، ويذهب النسيان والغفلة، وذلك على وجوه:

- فتارة يذكر الله لعظمته وعلائه وكبريائه، ويتولد منه الهيبة والإجلال.
- وتارة يذكره لعظيم قدرته وأليم أخذه وشديد بطشه، فيتولد من ذلك الخوف والحذر.
- وتارة يذكره بالفضل والرحمة، فيتولد من ذلك الرضا.
- وتارة يذكر وعده، فيتولد منه الشوق.
- وتارة يذكره بأن له الملك والخلق والأمر والمشيئة الماضية، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فيتولد من ذلك الغبطة والسرور بأنه عبد لمن هذا وصفه ونعته، فيتولد عن ذلك أيضًا الصبر والحب.
- وتارة يذكره؛ لأنه الكافي للمهمات الموجودة وحده لا سواه في جميع الملمات، المتكفل بالأرزاق وإيصالها إلى المفتقرين وذوي الحاجات إليها، فيتولد عن ذلك التوكل والتفويض.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

- وتارة يذكره بما نصب من العبر والعلامات، وما استشهد به من الشواهد وأقام من البينات وأثار من آيات، فيتولد عن ذلك زوائد اليقين.

- وتارة يذكره بأن بيده مفاتح الأمور، مبادئها منه ظهرت وإليه تعود، فيتولد عن ذلك فناؤه عن نفسه وبقاؤه بربه.

ثم اعلم - وفقنا الله وإياك - أن أفضل الذكر: الذكر في الذكر، وهو عند الغفلة أن يذكر في ذكره إنعامه وفضله وإحسانه، ويلزم نفسه الإعظام والإجلال، وألا يطالب نفسه بذكر الحقيقة، فقد قالوا: حقيقة الذكر العجز عن الذكر، وقالوا: لم يذكر اللهَ العبدُ إلا عند الغفلة، ولولا الغفلة لم يقدر على الذكر كما قيل: لو يعلم اللسان من يذكر بحقيقة الذكر لجف في الحنك.

شاهد هذا من القرآن العزيز قوله جلَّ قوله: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ**﴾ [الحشر:٢١].

وقوله ﷻ: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ [الأعراف:١٤٣] ولو **تجلى** المذكور جلَّ ذكره للقلب بالذكر حال الذكر لانصدع وتدكدك كما تدكدك الجبل للمجتلى، وإنما ذلك على قدر إرادته ومشيئته.

ومن أحسن الذكر: ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جلَّ ذكره ذلك الخفي عن الاستئثار المتمكن في الأسرار من الذكر في الذكر أن يكون القلب فارغًا من الكل، فلا يبقى فيه غير الله جلَّ ذكره، فيصير القلب بيت الحق، ويمتلئ منه فيخرج الذكر عن غير قصد ولا تدبير، وحينئذٍ يكون الحق المبين لسانه الذي ينطق به.

فإن بطش هذا الذاكر فيكون يده التي يبطش بها، وإن مشى يكون رجله التي يمشي عليها، وإن سمع كان سمعه الذي يسمع به، قد استولى المذكور الحق على الفؤاد فامتلأ به، وعلى الجوارح فصرفها إليه، جعله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه على إشارته وموضع تكليمه ومحادثته من غير اتحاد ولا حلول، بل قدرة من عزيز عليم، فكذلك يخرج الذكر من غير تكلف، وتتخرج الأعمال بالطاعة له في كل ما يكون منه من تصرف وقدر.

وصرف الله ﷻ قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك في قوله: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا**﴾ [القصص:١٠] أي: فارغًا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام،

فكادت أن تبدي به من غير قصد لها منها لذكره ولا تدبير، بل كان تركبها للتبريح به تعليلاً وصبرًا لما ربط الله جلَّ ذكره على قلبها لتكون من المؤمنين بما أوحى إليها من قبل في شأن موسى ﷺ وبأنه من المرسلين.

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ الله مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١] لم يُرِدْ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بذكر السؤال ها هنا مشافهتهم، وإنما أراد سؤال الحال، كقوله جلَّ قوله: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا....﴾ [الفرقان:٦١] فأحاله ﷻ على سؤال المخلوقات واسترشاد المبتدعات، وكما تقول العرب: «سل الدار، سل الأطلال» ونحو هذا: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بما أعلمناك من شأنهم، وما قصصنا عليك من أمرهم ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة:٢١١].

كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾ [الجاثية:١٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ [الجاثية:١٧].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ الله مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ يعرض بهم حيث بدلوا ما أنعم الله عليهم من الرسالة والكتاب وتلاوته بآرائهم، وكتموا وغيَّروا، وألبسوا الحق بالباطل، وتهديد لهذه الأمة تأديبًا لهم بغيرهم؛ أي: لا يغترن أحدكم بما يراه من الصفح والمهل والإكرام، فليحذر الذين لا يتقون أن يصيبهم مثلما أصاب بني إسرائيل من تبديل النعمة بالنقمة، والإكرام بالإهانة، والعزة بالذلة ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١].

ثم قال عز من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:٢١٢].

كقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩].

وقوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١١٠].

ثم قال عز قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [البقرة:٢١٢] أي: الذين

اتقوا في إيمانهم فوق هؤلاء يوم القيامة، بشَّر ﷻ وتعالى علوّه وشأنه أوليائه الذين قال فيهم جلَّ قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾ [يونس:٦٤] وهذه التلاوة من البشرى لهم في الحياة الدنيا، وكما أن التقوى درجات، وأول درجة منها يدخل بها [العبد][1] في الإسلام، ويستحق بها اسم الإيمان، وكذلك ينالون من هذه البشارة حظوظه، قسمه على درجاتهم من التقوى والإيمان.

﴿وَالله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢] الرزق قد يكون العلم والعبادة، وقد يكون القوت، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فأرزاقها بغير حساب المتقون الذين هم أهل التقوى تحقيقًا، ورزقهم في الدنيا والآخرة، كذلك يرزق المؤمنون الجنة بأعمالهم، ويدخل المتقون فيها بغير حساب.

ثم ذكر جلَّ ذكره كيف كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين لمن آمن وأصلح، منذرين لمن عتى وأبى أن يرجع إلى معلوم الهدى، والمعلوم من التوحيد والتقوى.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ

(١) زيادة لتمام السياق.

لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[البقرة:٢١٣-٢١٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾[1] يقول للعرب ولمن سواهم من الأمم: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم...﴾ [البقرة:٢١٤] أرجع ﷻ وتعالى علوّه وشأنه معنى الخطاب إلى ذكر البلوى والإخبار.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

كما قال جل ثناؤه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣].

قوله سبحانه وبحمده: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ...﴾ [البقرة:٢١٥] أرجع معنى الخطاب إلى ذكر النفقة.

قوله تعالى: ﴿وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ

---

(١) قال قتادة والسدي: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] وقيل: نزلت في حرب أحد. وقال عطاء: لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة اشتد عليهم الضر؛ لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ وأسر قوم النفاق، فأنزل الله تعالى تطييبًا لقلوبهم. [تفسير البغوي (١/٢٤٤-٢٤٥)].

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾[البقرة:٢١٧-٢٢٠].

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[(١)] [البقرة:٢١٦] انتظم هذا الخطاب بذكر القتال، أرجعه ﷻ إلى أوله؛ ليستوعب لهم معاني الآيات إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله﴾ [البقرة:٢١٨].

ثم ذكر جلَّ ذكره سؤالهم عن الخمر والميسر، فأخبرهم بالحقيقة في ذلك، وأن إثمهما أكبر من نفعهما، والمنافع المشار إليها في الخمر اجتماعهم عليها وتآخيهم فيها.

---

(١) قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] أخبر سبحانه أن مقاومة النفس ومخالفتها صعب على صاحبها، لكن في درب كل خلقٍ دنا في نيران المجاهدة انفتاح كنز من كنوز الحقائق من الفِراسات والكرامات والمناجاة والمكاشفات والمشاهدات؛ لأن النفس الحجاب الكلي يحجب القلب عن مشاهدة الملكوت، ورؤية أنوار الجبروت، وسنة الله قد مضت بأن من خالف نفسه وهواه فقد استنَّ محجة المثلى، وأدركَ ممالك العليا، ورقي مدارج المكاشفات، وبلغ معارج المشاهدات؛ لأن مخالفة النفس هي موافقة للقلب، ومَنْ وافق قلبه أنس سعادة الكبرى، ونال منزلة الأعلى؛ لأن مَنْ باشر أنوار القلب فقد باشر أمر الحق، ومَنْ أدركَ الحق بوصف الإلهام باشر سره نور الحكمة، ومَنْ أدركَ نور الحكمة فقد أبصر نور معرفته، ومَنْ أبصر نور معرفته عاين حقيقة الكل بالكل، وقد استمسك بالعروة الوثقى، وهي مشاهدة مولاه، فأين هذه المنزلة والمرتبة في هوا حسن حظوظ البشرية، وحصول النفس عند توقانها نفائس الشهوة، بل الأمر المعظم في قتال النفس، وقمع شهواتها، وقلع صفاتها عنها حتى تصير مطمئنة ساكنة تحت قضاء الحق، وبقي القلب فارغًا عن وساوسها، وسرَّ عالم الملكوت بنور البصيرة، كما قال ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

ثم قال جلَّ قوله: وما تكون عن تلك المنافع من الإثم أكبر من تلك المنافع، نص على ذلك ﷻ في سورة المائدة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يعني: الرجس ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠-٩١] فأحال لهم منافعها ضررًا، فأين تقع منفعة تآخيهم واجتماعهم عليها من تقاطعهم لسببها وقتلهم وقتالهم فيها.

وقد روي «**أكثر**» بالثاء بثلاث نقط بدلاً من «أكبر»، قرأه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[(١)].

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٦٦] وهذا إشارة عزم على المعتدين الظالمين في كتاب الله ﷻ ما علموه أو علموا أوجه الحكمة فيما يرد فيه من مأمور به أو منهي عنه اعتقدوه وآمنوا به، وما لم يعلموه أو علموه ولم يتوجه لهم كيف وجه الحكمة فيه فليكلوه إلى العالم الأعلى ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢١٩] هذا منتظم بمعنى ما تقدم ذكره من النفقة، كقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:٢١٥].

ولما كان سؤالهم هنا عن النفقة: ما هي؟ وما قدرها؟ قال جلَّ قوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿العَفْوَ﴾ وهو الفضل؛ لقول رسول الله ﷺ: «**وخير الصدقة عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول**»[(٢)].

فالطيب الحلال والتوسط في الأمور كلها ممدوح، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧] أي:

---

(١) في قراءة عبد الله: «عن قتال فيه» على تكرير العامل، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] وقرأ عكرمة: «قتل فيه قل قتل فيه كبير». الكشاف (١٩١/١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٠)، ومسلم (١٠٣٤)، وأبو داود (١٦٧٧)، وابن حبان (٣٣٤٦)، والحاكم (١٥٠٩) والبيهقي (٧٥٦١)، وأحمد (٨٦٨٧)، وابن خزيمة (٢٤٥١).

إنا جعلنا بين الطرفين قوامًا.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠].

فصل

ذكر بعض من تقدم - رحمة الله على جميعهم - أن هذا منسوخ بالأمر بالزكاة.

قال: وكذلك كل نفقة مذكورة في القرآن، وليس هذا بناسخ ولا منسوخ أيضًا، إنما كان سؤالهم من الإنفاق، وفيما يتطوعون به من المتصدق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ثم زاد ذلك تبيينًا بقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥].

وليس كذلك خطاب الأمر بالزكاة المكتوبة الموجوبة المفروضة، إنما أجابهم ﷻ عن الإنفاق، فقال: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المعنى كما بيَّن رسول الله ﷺ: «نفسك، ثم أباك، ثم أمك»[1] فأدِّ مالك فما فضل عن ذلك فقل به هكذا وهكذا وهكذا.

ولو كان الأمر بالزكاة ناسخًا لسائر النفقة لكان الأمر بصلاة الفريضة ناسخًا لصلاة النافلة، والأمر بصيام رمضان مانعًا بالنسخ من صيام التطوع، فلا يكون من الآية صلاة نافلة ولا صيام مرغب فيه، فكذلك الحج وجميع الرغائب من الخيرات، فلِمَ هذا واجب عزم وهذا مرغَّب فيه مندوب إليه؟ ولكل خطاب معنى مراد به.

فصل

موجودات الدنيا كلها لا تخلو من أن تكون أفعالاً لله ﷻ انفرد بها لا شريك له، كالذي أوجده ﷻ من المخلوقات، وابتدعه من المبتدعات أجمعها كالسماوات والأرض والجبال والنجوم والسحاب والأفلاك والرياح والماء ينزله ﷻ وتعالى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٤٠)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧) وقال: حسن، والطبراني (٩٥٧)، والحاكم (٧٢٤٢) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (٧٥٥٢)، وابن ماجة (٣٦٥٨).

علاؤه وشأنه من السماء، وما ينميه من أنواع النبات، ويخلفه عنه من جميع الحيوان.

وبالجملة: فالخلق كلهم بالأمر، أو يكونوا أفعالاً للعباد يخلقهم الله بواسطة يكتسبونها بقدرهم التي أقدرهم الله ﷻ، ففي القسم الأول الاعتبار والنظر حتى يعود بواسطة الاعتبار آخره، وفي القسم الثاني الأمر والنهي، ثم هذا القسم الثاني على قسمين:

أحدهما: يفعله المكلف، وهو مأمور به أو مندوب إليه، عليه إن لم يفعله وعيد، وله متى فعله على ما أمر به وعد، كالصلاة والصوم والجهاد وأنواع البر فرضها ونفلها، ومنها ما لا بد للمكلف منه ليقيم بها جسمه ويصل بها نسله، كالأكل والشرب والنكاح والأموال والأولاد، وما يتبع ذلك أو جر إليه، فهذا القسم بالإضافة إلى قسمه دنيا وذلك آخرة، فجعل الله ﷻ يبين لهم ما هو إلى الدار الدنيا أقرب، وما به تعمر بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة:٢٢٠].

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ﴾ الله ﴿آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي: التبري والتولي لعلهم يتذكرون فيرجعون.

كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾ [الأنعام:٦٨] إلى قوله: ﴿وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٦٩].

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾[البقرة:٢٢١-٢٢٥].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢] إلى آخر معناه.

ثم قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾[1] [البقرة:٢٢٤] بين الناس، فهو في معنى الآخرة على ما تقدم من ذكر معنى الآخرة، ويتوجه بهذا النهي إلى وجهين:

أحدهما: ألا تكثروا بالأيمان في أكثر أموركم، فتلك ذريعة إلى الحنث والندم.

والوجه الآخر: فتجعلوا الله عرضة لأيمانكم ألا تحلفوا بالله ألا تصلحوا بين الناس، فمن يفعل هذا فهو المتألي على الله ألا يفعل الخير ولا يبر، وألا يتقي، فهذا هو الحالف أن يعصي الله ﴿وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٤] فراقبوه واستحيوا منه، فهو أحق أن يُستحى منه إلا في الحيض، هو: الدم، ومتى انقطع الدم وجب التطهر منه شرعًا واجبًا.

قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله﴾ [البقرة:٢٢٢] وأمره المشار إليه في هذا الخطاب، وهو أعلم بما نزل في معنى قوله: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَن تَأْتُوا البُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] لأجل نزاهة هذا الخطاب.

قال رسول الله ﷺ في حديث ثابت عنه: «**إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أعجازهن**»[2] وجاء بغير هذا اللفظ.

وقال ﷻ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] أي:

---

(١) نزلت في الصديق ﷺ لما حلف ألا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها، أو في عبد الله بن رواحة حلف ألا يكلم ختنه بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته. [تفسير البيضاوي (١/٢٥٦)].

(٢) أخرجه الدارمي (٢٢١٣)، والنسائي في الكبرى (٨٩٨٢)، وابن ماجة (١٩٢٤)، والطبراني (٣٧١٦)، والبيهقي (١٣٨٩٤)، والحميدي (٤٣٦)، وابن أبي شيبة (١٦٨١٠)، وأحمد (٢١٩٠٧)، وأبو عوانة (٤٢٩٤)، وابن حبان (٤٢٠٠)، والبزار (٣٣٩).

كيف شئتم منهن، قالوا: لكن في صمام واحد.

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] تعريضًا بما تقدم معناه كما جاء في قصص قوم لوط إنهم أناس يتطهرون ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨].

ذكر ﷻ الإيلاء والطلاق والرجعة والرضاع والإنفاق على الأزواج والأولاد، والعدة والخطبة للنكاح، ونهى عنه حال العدة، ورخص ﷻ في التعريض ومنع من التصريح، وذكر ﷻ الطلاق قبل المسيس، وكيف الحكم فيه، وذكر ﷻ إمتاع النساء، وهي بحسن الفعل والأخذ بالفضل في التعامل كله وخاصة في النكاح؛ لما فيه من عهد وميثاق، واتصال النفوس والذوات بعضها إلى بعض.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ

أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٣٧].

وحضَّ على ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(١) وعرَّض بالوعيد في عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٧].

ثم أرجع ﷻ الخطاب بما هو بيّن للآخرة بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] الصلاة الوسطى: هي صلاة الصبح وصلاة العصر، يشهدهما ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهدون بهما عند ربهم - صلوات الله وسلامه عليهم - يقولون عندما يسألهم الرب عزَّ جلاله

(١) ﴿وَلَا تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ النسيان هنا الترك مثل: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ والفضل: هو فعل ما ليس بواجب من البر، فهو من الزوج تكميل المهر، ومن الزوجة ترك شطره الذي لها، وإن كان المراد به الزوج فهو تكميل المهر. [تفسير البحر المحيط (٤٥٥/٢)].

وتعالى علاؤه وشأنه: «**كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون**»[(١)].

قال رسول الله ﷺ: «**من قعد بعد الصلاة يذكر الله فهو في صلاة**»[(٢)].

وفي أخرى: «**صلت عليه الملائكة ما دام في مصلاه ذلك حتى يقوم**»[(٣)]. وفي أخرى: «**ما لم يحدث**».

معناه: ما لم يحدث كلامًا أو شغلاً أو أمرًا ليس من شأن الصلاة، وهذا خطاب منتظم بخطابه ﷻ المؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٣] بدأ جلَّ ذكره بذكر الصلاة وختم بذكرها إعلامًا من ﷻ بعظم قدر الأعمال التي تكون للآخرة، وبخاصة منها الصلاة.

ألا تسمعه ذكر الصلاة والصبر وهما أصلان لأعمال الآخرة؟ لذلك يستعان بها على مكابدة أعمال الآخرة، والمقصود الأول من ذلك كله: الصلاة، كذلك فعل في سورة المؤمنين؛ صدَّر بذكر الصلاة وختم بذكرها، وفعل مثل ذلك في سورة «المعارج».

﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ**

---

(١) أخرجه مالك (٤١١)، والبخاري (٥٣٠)، ومسلم (٦٣٢)، والنسائي (٤٨٥)، وأحمد (٨٣٤١)، وابن حبان (١٧٣٧)، والبيهقي في سننه (٢٢٧١) وفي الشعب (٢٧٠٨)، والطبراني في الشاميين (٣٢٠٤)، وابن خزيمة (٣٢١)، وأبو عوانة في مستخرجه (٨٧١).

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٤٠٧١)، وعبد بن حميد (٤٦٥)، والطبراني (٦٠١١)، وابن حبان (١٧٥٢)، وأبو يعلى (٧٥٤٦).

(٣) أخرجه مالك (٣٨٠)، وأحمد (٨١٠٦)، وأبو داود (٤٦٩)، والنسائي (٧٣٣)، وابن حبان (١٧٥٣)، والطيالسي (٢٤١٥)، وأبو عوانة (١٣١٥)، والبيهقي (٢٨٤٣).

يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة:٢٣٨-٢٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ...﴾[١] [البقرة:٢٤٠].

ذكر بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا العِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ....﴾ [الطلاق:١].

وليست هذه ناسخة لتلك، بل عدة المتوفي عنها زوجها أربعة أشهر وعشر، وعدة المطلقة ثلاثة قروء، وكما عدَّة اللاتي لم يحضن كبرًا واللاتي لم يحضن صغرًا ثلاثة أشهر، فليس الغرض في الآية الإعلام بالعدة لما تقدم من الإعلام.

وإنما ذكر أن الزوج متع المرأة بسكنى سنة، ووصى بذلك متعة لها، وقد قال جلَّ قوله في المتعة: إنها لحق على المتقين وعلى المحسنين، فنهى عن إخراجها عن ذلك المسكن الذي متعها به، وجعله وصية في ماله ينفذ عنه بعده.

فإن قال قائل: «**لا وصية لوارث**»[٢] قيل له: هذا حكم مستثنى من الوصية بذكر الإمتاع، والورثة مكلفون إمضاء ذلك عن الميت، فإن تشاحوا فيحسب من ثلثه الجائز له بعد موته، ويكلفون أيضًا بألا يخرجوها، فإن خرجت من ذاتها لم يثرب عليها، ولم يلحق الأولياء ولا الورثة خرج من أجل ذلك ما لم يكن الخروج لرتبة

---

(١) ﴿وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم على تقدير: والذين يتوفون منكم يوصون وصية، أو ليوصوا وصية، أو كتب الله عليهم وصية، أو ألزم الذين يتوفون وصية، ويؤيد ذلك قراءة «كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعًا إلى الحول مكانه» وقرأ الباقون بالرفع على تقدير: ووصية الذين يتوفون، أو وحكمهم وصية، أو والذين يتوفون أهل وصية، أو كتب عليهم وصية، أو عليهم وصية، وقرئ «متاع» بدلها. [تفسير البيضاوي (١/٢٧٣)].

(٢) تقدم تخريجه.

﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢٤١] هذه مطلقة مدخول بها، وقد تقدم ذكر المتعة قبل هذا.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٢٣٦] فهذه مطلقة قبل المسيس، وهي لا عدة عليها.

فصل

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة:٢٤٠] أي: متاعًا سكنى الحول وصية لأزواجهم، فيكون متاعًا نعتًا للأزواج، وقد يكون نصبًا على التفسير.

وقد قيل: إن نكاح المتعة لا يتوارث به، ذُكر ذلك عن ابن عباس، فالله أعلم فإن كان كذلك فلذلك أجاز الوصية لهن.

وعموم الخطاب في آية الوصية في لفظ الأزواج: يعطي الموارثة ونكاح المتعة كان مباحًا في أول الأمر لمكان الضرورة، ولما زالت الضرورة منع منه رسول الله ﷺ ونهى عنه، وأمر بفراقهن، وأبقى الله ذكره في القرآن مثبتًا لوقت الضرورة أيضًا، وكانت الضرورة المقدمة كثرة الرجال وقلة النساء؛ لخروج الرجال من أوطانهم دون أهاليهم إلا من شاء الله بحكم الهجرة إلى الله ورسوله، وفي آخر الزمان ما يكون الضرورة لقلة الرجال وكثرة النساء.

قال رسول الله ﷺ: «**من أشراط الساعة كذا وكذا**» وذكر فيها: «**ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد من الرجال يلذن به من قلة الرجال، يقول: هذه زوجتي، ويقول: هذه [أمتي]...**»[1].

وذكر رسول الله ﷺ عيسى - صلوات الله وسلامه عليهما - وقال فيه: «**ويزيد في الحلال**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) نحوه.

(٢) أخرجه الطبراني في الشاميين (٥٤٢)، وابن عساكر (٥٠٢/٤٧)، والدارقطني في العلل (١١/ =

كذلك بلغ ﷺ إلى بني إسرائيل فيما أرسل به إليهم، فقال: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:٥٠-٥١].

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣] ذكر الأكثر من المفسرين أن هؤلاء قوم خرجوا من ديارهم حذر الطاعون، فأماتهم الله ثم أحياهم الحياة الجسمانية.

وذكر في بعض كتب النبوات أن نبيًا من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - قال: بينا أنا قاعد بين ظهراني قوم من بني إسرائيل أخذتني يد الله فأخرجتني إلى البرية، وإذا بعظام كثيرة في موضع متسع، فقال لي: «تنبأ على هذه العظام وقل: أيتها العظام النخرة والأجسام - أو قال: اللحوم - البالية، لتنمي بإذن الله» أو قال ما معناه هذا، قال: فجعل العظم ينتشر إلى العظم، واللحم يكسو العظام إلى أن كملته الأجسام.

ثم قال لي: «تنبأ على الأرواح» وذكر كلامًا لست أذكره، قال: فأقبلت من الرياح الأربعة، وسمعت هدة عظيمة، ثم قاموا على أقدامهم فكانوا كجحفل عظيم، ثم قال: «هكذا إحياء بني إسرائيل من بعد موتهم في كلام الله» غير هذا فالله أعلم أهم هؤلاء أم غيرهم، أم كما قال المفسرون، أو يجمع المعنى فيهما، أو يتفرق كل على الله يسير آمنًا بما هو الحق عند الله ﷻ.

والأظهر أن هذا الخطاب منتظم بقوله الحق: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤].

ثم نظم هذا الخطاب وإن كان قد حال بين هذين الخطابين بمعانٍ من الخطاب وضروب من الأحكام، كالمعهود من القرآن العزيز، وإن هؤلاء قوم خرجوا من مخافة الطاعون فأماتهم الله ﷻ بالطاعون، ثم أحياهم بعد موتهم حياة الشهداء؛ إذ كان موتهم بالطاعون، ثم خاطب رسوله بما بينه وبينه من علم ما أنبأنا به من ذلك.

=

٢٢٨) بنحوه. وما بين [ ] غير واضح في (ق).

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ...﴾ [البقرة:٢٤٣] المعنى إلى آخره.

ألا ترى كيف أعقب ذلك قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٤] أي: قاتلوا في سبيل الله كي تنالوا الشهادة، فهو العليم بمن يقتل في سبيله، السميع لقول القائلين فيهم: إنهم أموات، وقد نهوا عن ذلك إثباتًا لحكمه وتحقيقًا لوعده إياهم.

قوله ﷻ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ لما كان الجهاد عدته وعمدته إنفاق الكريمتين: النفس والمال، نظمه بذكر مجاوره، وأتبع ذلك مما هو في معناه: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ وما توجه من القرض إلى معنى الإنفاق فالقبض والبسط في ذلك معهود، كقوله جلَّ قوله: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:٢٦].

والمتوجه منه إلى بغي الجهاد والقتال، فتقديره والله أعلم: قاتلوا في سبيل الله، والله يقبض يد العدو ويبسط أيديكم عليهم بقبض بلادهم وأرزاقهم، وتُزادون عليهم في ذلك، فحضَّ ﷻ على الإنفاق على وجوهه، ولزوم التفويض لله والتوكل عليه، بمعنى: إنه ليس يموت أحد إلا بأجله، ولا فقره وعدم حاله عن كثرة إنفاق، ولا حياة النفوس وغناها بالمال عن قلة الإنفاق وعدم القتال ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] [البقرة:٢٤٥].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ

---

(١) أي: يسلب قومًا ويعطي قومًا، أو يقتر ويوسع. قاله الحسن، أو: يقبض الصدقات ويخلف البذل مبسوطًا، أو يقبض؛ أي: يميت لأن من أماته فقد قبضه، ويبسط؛ أي: يحييه لأن مَن مدَّ له في عمره فقد بسطه، أو يقبض بعض القلوب فلا تنبسط ويبسط بعضها فيقدّم خيرًا لنفسه، أو يقبض بتعجيل الأجل ويبسط بطول الأمل، أو يقبض بالخطر ويبسط بالإباحة، أو يقبض الصدر ويوسعه، أو يقبض يد من يشاء بالإنفاق في سبيله ويبسط يد من يشاء بالإنفاق. قاله أبو سليمان الدمشقي وغيره، أو يقبض الصدقة ويبسط الثواب. قاله الزجاج. [تفسير البحر المحيط (٢/٤٧٥)].

ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥-٢٤٨].

أعقب ذلك بمعنى ما هو في معنى ما تقدم، قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الملأ: كبار الناس أصحاب المشورة والرأي ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [البقرة:٢٤٦] القصة إلى آخرها.

هذا ضرب مثلاً في معنى ما تقدم، وانتظم معنى هذا وهذا بمعنى ما في قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة:١٩٥] فمن بخل عن الإنفاق في سبيل الله [حينًا][1] وحين عن قتال العدو، خلفه العدو في داره، وأخرجه من أهله وماله.

وفي امتثال طاعة الله جلَّ ذكره بالجهاد غنى الدنيا والآخرة، ولهذا وما هو أعرق وصفًا من هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] ثم إلى آخر السورة.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ

(١) زيادة لتمام السياق.

ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥٣].

قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ....﴾(١) [البقرة: ٢٥٣] إلى آخر المعنى.

---

(١) في الدَّرجات وجوهٌ: أحدها: إنَّ المُراد منه بيان أَنَّ مراتِب الرُّسل، ومناصبهم متفاوتة؛ وذلك لأنَّه تعالى اتَّخذ إبراهيم خَليلاً ولم تكن هذه الفضيلة لغيره، وجمع لِدَاوُد بين المُلْكِ والنُّبوَّةِ، ولم يحصل هذا لغيره، وسخَّر لِسُليمان الجِنّ والإنس والطير والريح ولم يحصل هذا لأبيه داود، وخصّ محمدًا ﷺ بأنَّه مبعوث إلى الجن والإنس، وبأَنَّ شرعه نسخ سائِرَ الشَّرائع. الثاني: إنَّ المراد منه المعجزات، فإنَّ كل واحد من الأنبياء أوتي نوعًا آخر من المعجزات على ما يَليقُ بزمانه، فمعجزات موسى هي قلب العصا حيّة واليد البيضاء وفلق البحر، كان كالشّبيه بما كان أهل ذلك العصر مُتقدّمين فيه، وهو السّحر ومعجزات عيسى، وهي إبراءُ الأكمه والأبْرَص وإحياء الموتى كالشَّبيه بما كان أهل ذلك العصر مُتقدِّمين فيه وهو الطِّبُّ، ومعجزة محمد ﷺ وهي القرآن كانت من جنس الفصاحة والبلاغة والخطَب والأشعارِ، وبالجملة فالمعجزاتُ متفاوتةٌ بالقلَّةِ والكثرة وعدم البقاء، وبالقوة وعدم القُوَّةِ. الثالث: إن المراد بتفاوت الدّرجات ما يتعلّق بالدُّنيا من كثرة الأَتباع والأصحاب وقوَّة الدَّولة، وإذا تَأَمَّلْتَ هذه الوجوه علمت أَنَّ محمدًا ﷺ كان جامعًا لِلْكُلِّ، فمنصبه أعلى ومعجزاته أبقى وأقوى، وقومه أكثر ودولتُهُ أعظمُ وأوفر. الرابع: إنَّ المراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو محمَّد ﷺ لأنَّه هو المفضل على الكُلّ، وإنما قال: «وَرَفَعَ بَعْضَهُم» على سبيل الرَّمْزِ لمن فعل فعلاً عظيمًا، فيقال له: من فعل هذا الفعل؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم ويريدُ به نفسهُ، =

نظم ﷻ ذكر الرسل بما في باطن التلاوة من ذكر الرسالة والنبيين - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وبما تقدم من قوله: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦] ثم ذكر أن الذين خلفوهم من بعدهم اختلفوا واقتتلوا، وأعلم ﷻ بذلك أن تلك سنته.

ومن هنا كان رسول الله ﷺ ينذر أصحابه ويحذرهم أن يكون وقوع ذلك على أيديهم بقول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[1] لقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] في الأمم، فالاختلاف موجود لا محالة، دلَّ على ذلك الوجودان: الوحي والكون، أما الكون: فما نحن فيه، وأما الوحي: فما نصَّ عليه بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٤-٢٥٧].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ

=

وذلك أفخمُ من التَّصريح به. [تفسير اللباب لابن عادل (٣/٢٣٥)].

(١) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، والطيالسي (٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧١٧٦)، وأحمد (١٩٢٣٧)، والنسائي (٤١٣١)، وابن ماجة (٣٩٤٢)، والدارمي (١٩٢١)، وابن حبان (٥٩٤٠)، وأبو داود (٤٦٨٦)، والترمذي (٢١٩٣) وقال: حسن صحيح.

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[(١)] [البقرة:٢٥٤] أرجع ﷻ الخطاب إلى الأمر بالإنفاق والتوصية به بما علم العليم الحكيم في ذلك من حسن العاقبة وعظيم الكفاية، والدفاع به عن حوزة الإسلام، ونفع ذلك في الدنيا والآخرة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] لأنفسهم لم يدخروا لهناك خُلة ولا شفاعة تنفعهم، بل كل خُلة تكون هناك في حقهم عداوة، وكل شفاعةٍ إغراء بهم ولعنًا وطردًا عن كل إسعافٍ ورجاء، نعوذ بالله العظيم من سوء العاقبة.

قوله ﷻ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿العَلِيُّ العَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥] انتظام هذه الآية من القرآن العظيم بما تقدم قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] إنه يبين لظلمهم العظيم، يقول: كيف لا يكونون ظالمين وقد كفروا بمن هكذا وصفه ونعته، وهذه أسماؤه وصفاته، وقد تقدم أنها أعظم آية في القرآن.

قال ابن عباس ﷺ: هي أشبه شيء بالرحمن، وانتظم معناها من العلم والمعرفة بمعنى قوله جلَّ قوله: ﴿الم﴾ [البقرة:١] ثم إلى ما يفصل عنها من معاني الأسماء ومقتضياتها، ثم إلى ما يفصل عن الأسماء ومعاني الصفات، ومن حيث دلالات الأفعال ومبتدعات الحكمة بقوله جلَّ قوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

ثم إلى ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين وأعمالهم والنبوة والرسالة وما جاءت به من أمر ونهي ووعد ووعيد وجزاء من أطاع وعصى في الآجل والعاجل بتوابع ذلك كله ومعانيه كذلك ما هذا سبيله بالقرآن العظيم إذا ذكر الله ﷻ بأسمائه

---

(١) قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لا بيعَ فيه ولا خلةَ ولا شفاعةَ» بالنصب من غير تنوين، ومثله في «إبراهيم»: «لا بيعَ فيه» وفي «الطور»: «لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ» وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي جميع ذلك بالرفع والتنوين. قال ابن عباس: لا فدية فيه، وقيل: إنما ذكر لفظ البيع لما فيه من المعاوضة وأخذ البدل. والخلة: الصداقة. وقيل: إنما نفى هذه الأشياء؛ لأنه عنى عن الكافرين، وهذه الأشياء لا تنفعهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [زاد المسير (١/٢٥٩)].

أو بصفة من صفاته ملأ كل شيء علوًّا وسفلاً وهو الحق المبين، وقوله الحق، والحق من أسمائه، والصدق من صفاته، والكافرون هم الظالمون، قوّلوا الشواهد غير ما قالته، وشهدوا عليها بغير ما شهدت به، وأحالوا المخلوقات في حقهم لا في حقها إلى غير ما بصرت عليه، فأضافوا النعمة إلى غير وليّها، وحرفوا وجهتها في حقهم عن قيّمها.

فصل

شهدت الشواهد واتضحت به الدلائل أنه الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الحي القيوم، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا، كما أعلمت الأسماء وعرفت الصفات أنه هو الله، وهو الاسم الجامع للأسماء سواه، وأنه العلي العظيم سبعة أسماء بها ثبات الأسماء هن أدلة على الذات العلا.

وقد تقدم أن جميع الأسماء في عموم السبع الصفات التي هي: الإلهية والقدرة والحياة والوحدة والعلم والإرادة والملك، وهذه الآية مضمنة جميع ذلك كما تضمنت أم القرآن جميع ما في القرآن بوجه ما، فلذلك عظمت هذه الآية وعظم قدرها، ولما تجمع فيها من أوصاف نعوت الجلال وصفة العظمة والكبرياء وأنه المحيط بكل شيء، والقائم عليه المقتدر على كل شيء، عظم لذلك التنزل بها، وأوجب نفور الشياطين عنها مع تحصيل تعظيم قدرها، ومشاهدة تحقيق عملها.

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ...﴾ [البقرة:٢٥٦] ذكر الأكثر من أهل العلم أن قوله جلَّ قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ منسوخ حكمه بآية القتال والسيف، وليس ذلك كذلك، بل حكم هذا محكم في بابه، وذلك أن حكم القتال والسيف إنما يتناول الظاهر.

قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله**»[1] ففي حكم قوله جلَّ قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [الصافات:٣٥] يتناول موضع التبيين، وذلك ظاهر لا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٥)، ومسلم (٢١)، وأحمد (١٠٥٢٥)، وأبو داود (٢٦٤٠)، والترمذي (٢٦٠٦) والنسائي (٣٩٧١)، وابن ماجة (٣٩٢٧)، والطيالسي (١١١٠)، وأبو يعلى (٦٨٦٢).

يبلغه مطالبه مخلوق، ولذلك وكَّل ﷺ حسابهم إلى الله جلَّ ذكره.

ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ علموا - صلوات الله وسلامه عليهم - أن ذلك اليوم تُبلى فيه السرائر، فأجابوا - صلوات الله عليهم - بأنهم لا يعلمون ذلك، وقالوا صلوات الله وسلامه على جميعهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩].

هذا إلى أن في قوله جلَّ قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾[1] [البقرة:٢٥٦] فالحجة البالغة له المعهود من أن الإيمان محله القلب، وكذلك المعهود من معنى الكفر، وإنما يكونان ظاهرين لما يصدر عنهما، فيكون إسلامًا وما يضاده، ولذلك أعقب هذه الآية قوله عزَّ قوله: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦] لما يصدر عن القلوب، عليم بما تكنه القلوب من ضمائرها.

ولو كان ما قالوه صحيحًا وعري الخطاب عن تحقيق ما عبَّرنا عنه أيضًا لم يكن بنسخ، وإنما هو مرصد لوقته، فالقتال والانتصار لا يمكن في كل وقت ولا على كل حال، فإذا تمكن الإمكان وجب الجهاد الظاهر والقتال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومع الضعف وعدم القدرة ووجدان الوهن والاضطرار يرتفع الوجوب، فهذا هو النسخ الصحيح ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] إلى قوله: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] الإماتة والإحياء على ضروب، وعلى انقسام ذلك يكون انقسام الحياة والموت، فمن ذلك حياة الدين، وهي ما عنى بقوله الحق: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا

---

(١) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ فيه سبعة أقوال: أحدها: إنه الشيطان. والثاني: إنه الساحر. والثالث: الكاهن. والرابع: الأصنام. والخامس: مَرَدَة الإنس والجن. والسادس: إنه كل ذي طغيان طغى على الله، فيعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده أو بطاعة له، سواء كان المعبود إنسانًا أو صنمًا. والسابع: إنها النفس لطغيانها فيما تأمر به من السوء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. [النكت والعيون (١/١٩٠)].

يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:١٢٢] ليس بخارج منها، فهذه حياة الدين وموته، عبَّر عن حال موته بكونه في الظلمات، وعن كونه حيًّا بكونه ماشيًا في الناس بنوره؛ يعني: يهديهم به فيهتدون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٦٠].

ومنها الحياة الجسمانية على ضروب؛ منها: الإحياء بمعنى تجديد الحياة على الدوام، كإمساكه جل وعلا كل شيء، وهو موجود على اسمه القيوم، ومذكور هذا في قوله - جلَّ قوله - حكاية عن جبار إبراهيم ﷺ الذي ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

ومعنى ذلك هنا: إمضاء المشيئة بالقدرة، فعلى قدر ما أوتي من ذلك يكون وصفه بالملك، ولما كان هذا الملك مما عهده الله ﷻ من إمضاء مشيئته في ملكه أن يقتل من شاء قتله ويترك من شاء فلا يقتله، وذلك أن الله ﷻ ييسر ذلك لمحاج إبراهيم ﵇ في ربه أن قال له: أنا ربك قال له إبراهيم ﷺ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

معنى ذلك: إني أحضر رجلين أقتل أحدهما وأترك الآخر، فأكون بذلك قد أمتُّ المقتول وأحييت المتروك، وهذا المعنى موجود في قوله جلَّ قوله: ﴿مَن قَتَلَ

نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

رجع الكلام: وكان إبراهيم - صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء والرسل - مؤيدًا بالحجة البالغة، فأجابه ﷺ بأن قال له: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

معنى ذلك: إن قتل أحد الرجلين وترك الآخر هو استمرار الحياة، وذلك هو المعهود منه ما كان موصوفًا بالبقاء، كالشمس معهودها أن يطلعها الله ﷻ من المشرق، وذلك على استمرار الوجود ما أدامها الله ﷻ كذلك، فإن كنت أنت تقدر على ما يقدر هو عليه فأطلعها من مغربها، وخالف لنا فيها استمرار وجودها حتى تخرق بذلك عادة إطلاعها من مشرقها، وهو مثل ضربه الله ﷻ للمقتول والمتروك قتله.

فمعنى ذلك والله أعلم: إن كنت تحيي وتميت كما أمتَّ المقتول بأن قتلته؛ فذلك بمنزلة غيوبة الشمس، وهي بمنزلة الروح، فأطلعها من نفس المقتول حيث غربت؛ أي: كما قتلت هذا المقتول؛ فلذلك ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨] أي: إنه وقف على هذه العظيمة ومنع الهداية.

وجاء أن سُنيًّا ناظر قَدريًّا فقطع القدري تفاحة من شجرة، ثم قال: ألست أنا الذي قطعت هذه التفاحة؟ فقال له السني: إن كنت أنت الذي قطعتها فردها مكانها كما كانت. فأسكته وانقطع.

فصل

قال الله جلَّ قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا....﴾ (١) [البقرة:٢٥٩] عطف ﷻ بحرف العطف وأدخل كاف التشبيه في قوله ﷻ: ﴿أَوْ كَالَّذِي﴾.

والمعنى والله أعلم: إنه تعجب من حُسن محاجة إبراهيم ﷺ وهدايته، وانتظم

(١) وفي المراد بالقرية قولان: **أحدهما**: إنها ببيت المقدس لما خربه بختنصر. **والثاني**: إنها التي خرج منها الألوف حذر الموت. وفي الذي مرَّ عليها ثلاثة أقوال: **أحدها**: إنه عزير. **والثاني**: إنه أرمياء. **والثالث**: إنه رجل كافر شك في البعث. [زاد المسير (١/٢٦٥)].

ذكر هذا المشاهد بذكر إبراهيم عليه السلام في حُسن تثبيته على إيمانه وتقدير الكلام: هل رأيت كإبراهيم في هدايته ومحاجَّته ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] في تثبيته وحُسن تلقينه الهداية والإرشاد، وما يكون من معنى هذا.

ويمكن أيضًا أن يكون تعجيبًا من الجبار الذي آتاه الله الملك في ضلالته وعسر انقياده، وإعراضه عن الحق بعد البيان عجب منه أن آتاه الله الملك ثم حاج في ربه، ويدعي الربوبية من دونه، كما قال جلَّ قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧] الآن آتيناه الملك وأقعدناه مقعد التمكين من قبل، وجعل يحاج إبراهيم هنا ويقول: هل رأيت هكذا، أو كالذي مرَّ على قرية، وهو بوجهٍ يعطي تقلب المعنى الأخير، وبوجه وهو الأظهر للمعنى الأول، وإنما يرجحه قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة:٢٦٠].

فصل

ذكر أن المذكور في هذه القصص المبتلى بهذه المحنة كان نبيًّا، وأنه دانيال أو أرمياء أو عزيرًا - عليهم السلام - أو غيرهم والله أعلم، غير أنه ممن يخاطب بهذا ويريه الله من آياته أنها بالله ﷻ، وبما جاء من عند الله سؤاله ذلك؛ أعني: قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] ويعيدها بعد خرابها، ذلك ظاهر ليس منه بمعنى الشك في أن الله يحيي قرية بعد موتها، فذلك خاطر معدوم عند أهل التوسط في الإيمان، فكيف بمن هو أهل للنبوة؟!

وإنما هو خاطر يعرض لأهل المكاشفات بالآيات الذين عودهم جلَّ ذكره أن يجري على أيديهم قدرته الفائقة، وخرق العادات قبل مشاهداتها تحقيرًا منهم لأنفسهم [وما رأوا][1] عليها حتى يكون الله هو المعدد ذلك من لدنه، وذلك مشهور من قولهم: «إياك أن تترقى من ذات نفسك صدقًا حتى يكون الله ﷻ يرقيك إليه» بل شأنهم الوقوف عند جدهم، والسلوك على سبيل السنة، وشاهده جري العادة في

---

(١) ما بين [ ] مصوب من النسخة (ف).

المقدور الحاضر.

كذلك فعل زكريا عليه السلام لما نادته الملائكة عليهم السلام ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران:٣٩] بغلام اسمه يحيى، جعل يخاطب ربه ﷻ يقول: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠] فلزم موضع السنة ومجرى العادة، ولم يصعد لتلك حتى صعد به.

وكذلك فعلت مريم - عليها السلام - لما بُشرت بعيسى عليه السلام قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران:٤٧].

وذكر في كتاب «النبوات»: إن الله جلَّ ذكره لما بشر إبراهيم بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب قال: «رب ليت إسماعيل يكبر بين يديك» هذا إعظام منه للنعمة، وتحقير للنفس أن [يستأهل][1] أحدهم بذلك من الله العلي العظيم.

فصل

قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] ومن أين يحيي؟ كما قال زكريا عليه السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ [آل عمران:٤٠].

وكذلك قول مريم عليها السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران:٤٧].

قال الله جلَّ قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ إماتة لا حياة فيها، فمن هنالك قال لما سأله: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فأعلمه ﷻ أنه لبث مائة عام ميتًا، ولم يكن الله جلَّ ذكره سلط عليه البلاء، فلم يتغير لذلك جسمه، فبينما هو يتعجب لبعد الأمر وطول المكث، مع زوال الذكر وسلامته من البلاء زاده الله عجبًا، فقال: ﴿انظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: وقد كان عهدك به إسراع الفساد إليه والتغير، وها هو لم يبلَ ولم يتغير كالمعهود.

قال الله جلَّ قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ فقد كان من المعهود أن يكون بقاؤه أطول من بقاء الطعام والشراب، فها هو قد محقه البلى واستوعبه الفناء.

---

(١) غير واضحة بـ (ق) والتصويب من (ف).

ثم عطف بالواو في قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ على محذوف هو والله أعلم؛ لنبين لك أعاجيب آياتنا في سواك، ولنجعلك وما معك آية للناس.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نخلقها خلقًا ونظهرها، وعلى هذه القراءة فالحمار وقد كان بالغ فيه البلى إلى أن فني، فإن العظام من آخر ما يبقى من الأجسام، فخلقها ﷻ خلقًا آخرًا، وعلى القراءة التي هي «ننشزها» أي: بعد الخلق لها نحركها بعضها إلى بعض، واللحم يكسوها، وننشز بعضها إلى بعض [التئامًا][1] واجتماعًا بالقدر إلى المراد منها[2].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ﴾ يريد عجيب الإبداع، قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

تنبيه:

وأنه من بلغ أنه يريد الله ﷻ آياته مشاهدة ومخاطبة لمطلبه بوساطة الملائكة - صلوات الله وسلامه عليهم - ليس يعزب عليه العلم بأن الله ﷻ يحيي موتى الأجسام بعد موتها، ولا يبعد عليه معرفة قدرة الله ﷻ على خلقها آخرًا كما خلقها أولاً، وإنما بيَّن له من إبقاء ما بالمعهود بقاءه، بل المعلوم أن يسرع إليه في أدنى مدة

---

(١) في (ق) (يومًا) والتصويب من (ف).

(٢) أمَّا قراءةُ الزَّاي فمن «النَّشْزِ» وهو الارتفاعُ، ومنه: «نَشْزُ الأَرْضِ» وهو المرتفع، ونشوزُ المرأةِ وهو ارتفاعها عن حالها إلى حالةٍ أخرى، فالمعنى: يُحرِّك العِظام، ويرفعُ بعضها إلى بعضٍ للإحياء.

قال ابن عطية: «وَيَقْلَقُ عندي أَنْ يكونَ النشوزُ رفعَ العِظَامِ بعضها إلى بعضٍ، وإنما النشوز: الارتفاعُ قليلاً قليلاً» قال: «وانظر استعمال العربِ، تَجده كذلك؛ ومنه: نَشَزَ نَابُ البَعِير «و» أَنْشَزُوا، فَأَنْشَزوا، فالمعنى هنا على التدرُّج في الفعلِ» فجعل ابنُ عطية النشوزَ ارتفاعًا خاصًا. مَنْ ضَمَّ النونَ جعلهُ مِنْ «أَنْشَزَ» ومَنْ فَتَحها، فَمِنْ «نَشَزَ» يقال: «نَشَزه» و«أَنْشَزَه» بمعنى. ومَنْ قرأ بالياءِ، فالضميرُ لله تعالى. وقرأ أُبي «نُنْشِئُها» من النَّشْأَةِ. ورجَّح بعضهم قراءة الزاي على الراء، بِأَنْ قال: العِظامُ لا تُحيَا على الانفرادِ؛ بل بانضمام بعضِها إلى بعضٍ، والزايُ أَوْلى بهذا المعنى؛ إذ هو بمعنى الانضمام دونَ الإحياءِ، فالموصُوفُ بالإحياءِ الرجلُ دونَ العظامِ، ولا يقال: هذا عظمٌ حيٌّ. وهذا ليس بشيءٍ؛ لقوله: ﴿مَن يُحيِي العظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ولا بُدَّ من ضميرٍ محذوفٍ من قوله: «العِظام» أي؛ العظامِ منه، أي: من الحمارِ، أو تكونُ «أَلْ» قائمةً مقامَ الإضافة، أي: عظامِ حمارِك. [تفسير اللباب لابن عادل (٢٧٨/٣)].

فساده وبلاء ما يبلى.

وقد كان معهودًا أن يكون أوفر حظًّا من صفة الإبقاء بكثير؛ ليجعل من علم نفسه وطعامه وحماره وشرابه أنه تبارك وتعالى كيف يقصر طول المدة لما يشاء، ويطول قصرها لما يشاء، ويقضي في قصر المدة ما ليس من العادة أن يقضيه في أطول الطول، وإنه القادر على تقصير مدة الدنيا حتى تكون للسائر في طريقه خطوة واحدة، حتى تكون في القصر كطرفة العين، وأن يطول مسافة اليسير حتى لا يقطع مسافة أبدًا.

كذلك إن شاء ﷻ أسكن الكثير في القليل، وسجن الواسع والرحب في الضيق الحرج، وإن شاء جمع الجملة في ذرة من ذرات العالم، وضمن الخليقة كلها في حبة الخردلة.

وكذلك إن شاء الله ﷻ أسمع الميت الرميم سر الخطاب، وأفهمه دقيق المعنى من المراد، ومنعه الحي السوي، بل إن شاء الله ﷻ ألا يسمعه وقع الصواعق، ويمنعه سمع سلق الأصوات المفزعة، ويريه حقيقة ما قد كان، ويقضى بما هو كائن في المستقبل كرأي العين، ويعجزه عن رؤية ما حضره، ويمنعه مشاهدة ما شاهده، ويقبض البعيد المتناهي حتى يجعله كالشبر، ويبسط الشبر حتى لا يقطع مسافة أبدًا، هو ﷻ القابض الباسط؛ لذلك قال الممتحن بهذه الآيات: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥] وأن في ملكوت السماوات والأرض وما خلقه ﷻ ما تقدم ذكره ما ذكره وأكثر جدًّا ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠].

ولقد أخبر الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عن الأموات أنهم في الدار الوسطى من أحوالهم وحياتهم وعلمهم وذكرهم على درجات؛ قال جلَّ قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٥].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا﴾ طول مدتهم في الثرى ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٤٦] فهؤلاء هم الكفار الأموات في الدنيا، والذين لا علم عندهم في هذه الحياة الدنيا.

وقال - جلَّ قوله - في المؤمنين أصحاب العلم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥].

ثم أخبر ﷻ بمنبعث جهلهم هذا من حيث يقوله ﷻ، كذلك كانوا يؤفكون عن الحق، فأفكوا يوم البعث عن حقيقة ما لقوه في الدار الوسطى من عذاب وإقراع ورضّ ورضخ، ونزل من حميم وتصلية جحيم، وأنواع العذاب الأليم.

ثم أخبر ﷻ عن أهل العلم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦] أي: في الدنيا، فكذلك لم يعطوا - أعني: المكذبين - في الدار الوسطى من الحياة إلا ما ألموا بها وأحسوا العذاب، ومن العلم إلا ما علموا به ما صاروا إليه من فقد ما فاتهم.

ثم لما بعثوا إلى الدار الآخرة أفكوا عن العلم بما لقوه، وشذَّ عنهم ذكر ما أصابهم فيما هنالك، فيقسموا ما لبثوا ساعة، حتى إنهم عند قيامهم للنشور للنفخة الثانية يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فيقول المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢] أي: من الأمن للمؤمنين والفزع والحزن للمكذبين، ثم قال: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فيما بلغوا، والمؤمنون هم العادون يومئذٍ بالإضافة إلى الكافرين.

قال الله جل من قائل يخاطب الكافرين: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣] أي: المؤمنين الذين قالوا: قد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث.

كذلك قال جلَّ قوله: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٤] في الدنيا لعملتم في الدنيا الحق، ووقفتم عليه علمًا في الأخرى وفيما بين ذلك، وهم في ذلك على درجات، فقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ القائلين ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أعرق في الكافرين من القائلين: ﴿يَوْمًا﴾.

من ذلك قول الله جلَّ قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه:١٠٢-١٠٣].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٤] فكلما كانوا في الدنيا أشد كفرًا كانوا في الدار الوسطى أشد عذابًا كانوا في الدار الآخرة أبعد من العلم والذكر، وأعجب تأفيكًا عن حقائقهم، فاعجب لهذا كيف أفكوا عن فظيع ما لقوه حتى نسوه فلم يذكروا ذلك الخزي والعذاب الأليم الذي عبَّر عنه من قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٢-٩٤].

قوله جلَّ قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦] وعن ذكر ما أخبر به رسول الله ﷺ أنه يعدوهم هنالك من تعذيب وصياح سمعه كل شيء إلا الثقلين، ومن رضخ وشدخ وحيات تأكل أحدهم، فإذا فرغوا منه أعيدوا فأخذوا في أكله هكذا إلى يوم القيامة، وقول الجنازة: «يا ويلها، إلى أين يذهب بها؟ يسمعها كل شيء إلا الثقلين»[1].

يقول الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥] وأبقى ﷻ موضع العبرة، فكذلك يؤفكون في الدار الوسطى، ثم في الدار الآخرة كذلك والله أعلم؛ لأن العلم بما جاءت به الكتب والرسل والإيمان والتصديق بذلك هو الحياة في الدار الدنيا.

كما قال جلَّ من قائل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] وبذلك كانوا أهل العلم والإيمان أيضًا أحياء في الدار الوسطى، وفيما هنالك بتحقيق العلم الذي كان ها هنا حياة، بالإضافة إلى الأولى التي اكتسبوا فيها.

ألا تسمعه جلَّ من قائل: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] ثم هم بعد من ذلك على درجات، نسأل الله الرحيم أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٥١)، وأحمد (١١٥٦٩)، وعبد بن حميد (٩٣٣)، والنسائي (١٩٠٩) بلفظ: «إذا وُضِعتْ الجنازةُ واحتملها الرجالُ على أعناقهم، فإنْ كانتْ صالحةً قالتْ: قدموني وإنْ كانتْ غيرَ صالحةٍ قالتْ لأهلِها: يا ويلَها أين تذهبون بها؟! يسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ، ولو سمعه الإنسانُ لصُعِقَ».

يجعلنا من عليتهم إنه هو العليم الكريم.

ثم في الدار الآخرة تتلاحق صفات الحياة ومزيد العلم، فبذا وما هو أعلى وأكرم من هذا يتبين للنبي ﷺ المار على القرية، فقال عند ذلك: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] [البقرة:٢٦٠].

تنبيه:

لا بد من مقدمة الإيمان مع التبري من الحول والقوة، كذلك فعل إمام المعتبرين والملائكة - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - قد تقدم في المثل الأول بمعنى إمرار الحياة في الثاني إحياء الجسم بما أراه من حماره، ثم ما أتبع ذلك من علوم في مقابلة قوله: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] استبعاد لذلك على سبيل السنة ومعهود العادة، وهذا مثل في إحيائه ﷻ الموتى حال موتهم، عبَّر عنه قوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧] إلى قوله: حياة الأجسام، وتلك حياة في حال الموت، وقد تقدم القول في إثباتها، ولخفائها يضطر عنه قائم بها أن يقف بها وبحقائقها عن معهود العقول إلا بعد التثبيت والاعتصام بهداية الله ﷻ.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ في سبب سؤاله هذا أربعة أقوال: **أحدها**: إنه رأى ميتة تمزقها الهوام والسباع، فسأل هذا السؤال، قيل: كان رجلاً ميتًا، وقيل: كان جيفة حمار، وقيل: كان حوتًا ميتًا. **والثاني**: إنه لما بشر باتخاذ الله له خليلاً سأل هذا السؤال؛ ليعلم صحة البشارة، فقد روي عن سعيد بن جبير أنه لما بشر بذلك **قال**: ما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك، فسأل هذا السؤال. **والثالث**: إنه سأل ذلك ليزيل عوارض الوسواس. **والرابع**: إنه لما نازعه نمرود في إحياء الموتى سأل ذلك؛ ليرى ما أخبر به عن الله. [زاد المسير (١/٢٦٨)].

قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة:٢٦٠] ولأنه من وراء الإيمان ومعهود العقول طلب لذلك مثلاً يطمئن إليه قلبه، فأراه الله جلَّ ذكره مثلاً وقف به على العلم بمطلوبه.

ثم قال له بعدما بيَّن ما شاء من التبيين: ﴿وَاعْلَمْ﴾ مع هذا ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] لا يمتنع عليه ممتنع، ولا يعجزه في الأرض ولا في السماء فائت، حكيم في فعله بما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، يبقي حكم هذا حال غيبة عينه، ويقدم حكم حال هذا حين ظهور عينه، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وكل ذلك قد أحاط اختزانه له وعلمه به وأحصاه كتابه، كذلك يخلق في حال الموت حياة، وفي حال الحياة موتًا.

فصل

اعلم - وفقنا الله إياك - أن أول ما تقدمه بين يديك نظرك في كتاب ربك عز جلاله على نحو ما تقدم الإيمان، والإلقاء بالنفس بين يديه ﷻ، والتبري من الحول والقوة، فمتى ما ادعيت علمًا سواء ما هو علمكه أسلمك لنفسك ووكلك لصفاتك.

ثم اعلم - علمنا الله العليم الحكيم من علمه وأجزل حظنا من معرفته - أن إبراهيم ﷺ هو الذي قال فيه الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١].

وقال جلَّ قوله فيها أيضًا: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] فهو جلَّ ذكره لا يعلمه إلا من هناك، ولا بد له من حيث أحله من معالم قد أراه إياها من ملكوته، وإنما تقدمت إليك لتأخذ أهبته، وما لم يصل من معرفته أن الله خلق الدنيا نبذة من الآخرة صغيرًا من كبير، وقليلاً من كثير على المزج واستصحاب رحمه الله ﷻ، لولا ذلك لكانت هذه جهنم الصغرى.

وإن النار لما اشتكت إلى ربها ﷻ فاستأذنته أن تتنفس بنفسين فقدرهما ﷻ تدوار دوائر حكمه التدوار أحكم ذلك إحكامًا وقدره تقديرًا على مطالع بروج ومواقع نجوم، واختلاف ليل ونهار، فما تطلع شمسها من قصمة أو تنزل عليها إلا

فُتِح باب من جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها.

وقدر ﷻ رحمته من كريم تدبيره قامعة لنفسي جهنم؛ ليصحب ﷻ هذه الرحمة إياها وكَّلها به، فهي لا تفور حرًّا وبردًا ولا تهيج سمومًا وحميمًا إلا أعقب ﷻ ذلك منها بمقامع لها منه، فتقول يومئذٍ: «**حسبي حسبي، وينزوي بعضها إلى بعض**»[1].

ذلك بحكمته مستصحبًا في أثناء تداويرها قسرًا قسرها بها، وقهرًا منه قهريًا على تعديها الحد الذي جعله [....][2] ببعضها وهو الواحد القهار، هذا إلى إرادته بالرحمة ومشيئته بالرأفة في جعله لانزوائها وازديادها أوزانًا معلومة ومقاديرًا مقسمة قدرها على تداوير محكمة بخطوطٍ مقسمة كتابًا كتبه ﷻ على نفسه: «**إن رحمتي تسبق غضبي**»[3] كلما وضع فيها منها ما قدمه سبحانه وله الحمد من رحمته عند فورانها بزمهريرها أو سعيرها أورد ذلك عليها بحكمه، وقبضها عن انبساطها بحلمه، فذاهبها ينتقص ووواردها يتزيَّد بتزيُّد الوارد وانهزام الذاهب، فيتحقق الوارد ثم يتزيد ويفور فيعود عليها به منها، فكذلك إلى مثلها.

هكذا جعل ﷻ هذا آية على ما هنالك من حق موجود لا محالة اضطرت عقول المعتبرين إلى معرفة وجوده، كاضطرارها بواسطة تسيير النظر إلى القضاء بوجود الفعل عن فاعل فعله، وله ﷻ رحمة من لدنه أصحبها تدبيره، هذا أظهرت لما عمَّت أجواء الرياح والسحاب والأرض أعلمها في الماء، يفتح بهذه الرحمة بابين من الجنة؛ أحد البابين: ما تقدم ذكره، والباب الثاني: فتحه بالرياح اللواقح، فيخلق ﷻ السحاب، وينزل الماء برحمته فيحيي به الأرض بعد موتها، ويكسر ببرده حرارة السعير، ويلين برطوبته يبس الزمهرير، ويخرج به نبات كل شيء.

وهذه رحمة لم يجعلها في مواعيد تداوير الدوائر، بل جعلها ﷺ غيبًا في تفضله برحمته فتحًا يفتح به على عباده عند حاجتهم إلى ذلك وضرورتهم إليه،

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٩٤٩)، ومسلم (٢٨٤٨)، وأحمد (١٢٤٠٣)، وعبد بن حميد (١١٨٢)، والنسائي في الكبرى (٧٧٢٥)، وأبو عوانة (٤٦٣)، وابن حبان (٢٦٨).

(٢) ما بين [ ] بياض في (ق) وكشط في (ف).

(٣) تقدم تخريجه.

وغياثًا يغيثهم به عند شدائدهم عن هذا المعنى.

قوله جلَّ من قائل: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...**» إلى قوله: «**مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**»(١) ولنقتصر على هذا القدر من التقدمة، فهو الذي يحتاج إليه فيما نحن بسبيل تبيانه.

فصل

قوله جلَّ قوله: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾(٢) [البقرة:٢٦٠] هذا مثل ضربه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لخليله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين.

ثم لما بلغه بما جعله آية على هذا المطلوب، وهي الطير المعلمة والجوارح المكلبة قال الله ﷻ: ﴿**تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ**﴾ [المائدة:٤] كالبزاة والشواذق وغيرها من الجوارح القابلة للتدريب والتعليم، وربما كان المقصود بهذا الطير من الدواجن المرباة، كالدجاج والحمام والطواويس فإنه أوجد، وشبهها ﷻ قابلة للتعليم، مبتغية للإحسان، مسرعة الاستجابة، وإنما يضرب الأمثال بالمعهود الموجود تنبيهًا على موجود علمه من وراء ما ضرب له المثل.

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٠)، ومسلم (٧١)، والنسائي (١٨٣٣)، وأحمد (١٧١٠٢)، والشافعي (٨٠/١)، وأبو داود (٣٩٠٦)، وابن حبان (١٨٨)، وأبو عوانة (٢٦/١)، والبيهقي (٦٢٤٣).

(٢) قوله: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ**﴾ اعلم أنّ الطير يطلق على الواحد مرادفًا لطائر؛ فإنّه من التسمية بالمصدر وأصلها وصف فأصلها الوحدة، ولا شك في هذا الإطلاق ولا وجه للتردد فيه، وجيء بـ«من» للتبعيض لدلالة على أنّ الأربعة مختلفة الأنواع، والظاهر أنّ حكمة التعدّد والاختلاف زيادة في تحقّق أنّ الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عدّدت الأنواع، ولعلّ جعلها أربعة؛ ليكون وضعُها على الجهات الأربع: المشرق والمغرب والجنوب والشمال؛ لئلَا يظنّ لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتي الإحياء، ويجوز أنّ المراد بالأربعة أربعة أجزاء من طير واحد، فتكون اللام للعهد إشارة إلى طير حاضر؛ أي: خذ أربعة من أجزائه ثم ادعهنّ، والسعي من أنواع المشي لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنّهنّ أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة؛ لئلا يظن أنّهن لم يمتن تمامًا. [التحرير والتنوير (٤٤٥/٢)].

يقول الله ﷻ وهو أعلم: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أملهن إليك بالإحسان مع التدريب والتعليم والاستجابة للمراد كما فعلت أنا بالذوات؛ أصرتهن إلي، وأخرجتهن في قبضتي، وسقت إليها الإحسان، وأخذت عليها الميثاق والعهد، فأنا إذا أرسلتها انبعثت، وإذا دعوتها أقبلت مسرعة، وبالمشاهدة تعلم أنت استجابة هذه الطوائر لك بعد التدريب على المراد والتعليم.

فصل

واختصاص الذكر بأربعة طوائر هو - والله أعلم - مثلاً للمضروب به مثلاً، وهو الخارج عن الجسم حين الموت يزمها خامسها، وهو المثال الخالف للجسم بتوابعه بعد الموت الباطن المعروف بالعبد المخلوق من باطن ما خلق منه الجسم، وأربعته: الروح والنفس والعقل والهواء، كالجسم الحامل لهذا الباطن خلقه الله جلَّ ذكره من أربعة طوائر خامسها: الجسم، هو زامها وحاملها، وهو الدم المشابه في طبعه الهواء، كالروح المشتق من الهواء، والبلغم المشابه للماء، والسوداء المشابهة الأرض، كالنفس المشتقة من الأرض، والصفراء المشابهة فيما طبعت عليه النار كالهواء المشتق من النار.

وقال الله جلَّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] فلا بد لهذا العبد أن يذوق الموت، وموته مفارقته للجسد، وانفصال أربعته عنه كما موت الجسم مفارقة هذا الباطن إياه، ثم انفصال أربعته عنه، ثم يحيي الله ﷻ هذا العبد الباطن ويجمع أربعته ويركبها في مثال الجسم.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠-٦١] يومئذٍ يدعوها الله ﷻ فتجيبه من أصولها ومواطن اختزانه إياها إلى مراده ﷻ من عمارة مثال الجسم الذي هو ليس يعبر له بوجه ما لا يقول فيه: إنه هو، وقد تقدم من تحقيق وجوده ذلك ما فيه كفاية لمن لقن.

وهذا لكل عبد مكلف، غير أنهم على درجات في تحقيق هذه الحياة وتفاضلها إلى يوم القيامة، تتأدى طوائر الأجسام التي كان موته بفراقها وفراق هذا الباطن، فتأتيه سعيًا إلى مراده منها، وبها من أصولها في العالم من هواء وماء ونار بإيصار

ذلك كله إلى الهواء على أصوله التي انتزعها منها، ومن تراب قد أنشأ أربعته فيما لا يعلمه إلا الله، يدعوها ﷺ فتجيبه بإذنه، ويظنون مع هذا أن لم يلبثوا إلا قليلاً، وقد برز منها من الأرض وبلائها من الأجواء في أنواع الموجودات، وصرفها بين أنواع الناشئين على كتابه السابق إلزام لذلك كله من علمه، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦١].

قال رسول الله: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم**» إلى قوله: «**وأخذ أهل اليمين بيمينه، ثم قال: يا أهل اليمين، ألست بربكم؟ قالوا: بلى**» وفي ضمن الخطاب: «**وأنتم عبيدي، ثم أخذ أهل اليسار بيده الأخرى...**»[١].

وقال أيضًا: «**إن الله خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء**»[٢] وذكر فيه أخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل اليسار بيده الأخرى، وذكر التقدير كما تقدم.

وفي أخرى: «**إنه لما خلق آدم مسح بيده اليمنى على ظهره واستخرج منه ذرية، وقال: ألست بربكم؟...**»[٣] بمعنى ما تقدم.

قال الله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢].

ولما فرغ من تقريرهم أماتهم، ثم بثهم في خزائن السماوات والأرض حتى أخرج كلاً على نوبته وحينه في الوجود، ولما خلقهم هذه الخلقة التي عمروا بها الدنيا في أعمارهم إلى آجالهم المكتوبة وأرزاقهم المحتومة فكانت تلك موتة أولى المعينة بقوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١] هذه الحياة التي هي الدنيا، فإذا هو أماتهم الموتة الثانية التي هي الآتية بعد هذه الحياة قبض الأنفس، والنفس هي الجامعة للطوائر الأربعة المذكورة، وأجلها ذلك العبد المقرر الذي قد مات أولاً فعمر فيه مدة حال البرزخ، ومن العجب المعجب أنه ليس يغير هذا بوجه

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

ما هو الذي أقر وأشهد فيما هنالك على نفسه.

يقول الله جل من قائل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يعني: الآن ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يعني: يوم التقرير الأول ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] بما أنبأتكم به.

فهو ﷻ يخاطب هؤلاء بما خاطبهم به يومئذٍ، ويطالبهم بذلك الإقرار، وهو الحق هو هو، غير أنه قد تعدى بقرار الجسم وعمل بعمله وعاش برزقه وفي أجله، وهو العبد المقرر أولاً، فرد بما هو يومئذٍ روح بما هو الآن قد تغذى وعمل وارتزق.

لذلك يقول الله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] التي لم تستعصَ ولا خترت العهد وأدت الأمانة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٨] أي: بما كلفتِ من إيمان وعمل به، مرضية من ربها لأجل ذلك ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:٢٩] أي: الذي أقروا ووفوا بعهده ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٣٠] في دار البرزخ.

ثم في حال الحياة الأخرى نجمع أيضًا أطوار الجسم أربعة فيؤمر أيضًا ذلك العبد فيدخل في الجسم، فيكون حياته كما قبل حيى به في الدار الدنيا، سبحانه وله الحمد، يعلم السر في السماوات والأرض وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يفوته شيء، أحكم كل شيء خلقه ببطن وظهر، ثم يظهر ما كان أبطنه ويبطن ما كان أظهره، ويفرق ويجمع، بدأ خلق الإنسان من طين إلى أن سوَّاه ونفخ فيه من روحه، فهو الإنسان أولاً وهو الإنسان آخرًا، وهو المبطن وهو المظهر في اليوم الآخر ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤] يعبر عنه تارة بالروح بوصف ما، وبالنفس تارة لأمر ما، وبالنَّسمة ثالثًا لأمر ما، ويجمع ذلك كلمة العبد، وهو اسمه الأكبر.

فصل

ولهذه الأربعة الباطنة التي هي مرتبطة بالباطن الجامع لهن كالأربعة المرتبطة بالجسم الظاهر، غير أنه يخالف هذه بجنسه علاج الطب من صفات موجودات ما وجد الجسم وتوابعه منه بإذن الله جلَّ ذكره، وفي هذا جاء قول رسول الله ﷺ:

«**تداووا عباد الله**»[١].

وقوله: «**ما خلق الله من داء إلا خلق له دواء**»[٢] فإذا وافق الدواء الداء برأ الداء بإذن الله، وإنما يكون الدواء موافقًا للداء بإذن الله وتوفيقه ﷻ إذا كان العلاج على ما ينبغي، وساعد المريض ومن يخدمه، والأشياء المحيطة به من مكان وزمان وهواء وغذاء إلى غير ذلك، فإنه كما أن أهل النار أعاذنا الله الرحيم برحمته منها يأكلون ويشربون من النار وعلى دركاتها يتقلبون فكذلك ساكنوا الدنيا؛ لشبهها بها، كما أن في الوجود من رحمته ما لم يضمه تدوار الدوائر، فيكون بذلك الفتح برحمته اليقين بأن دون غد الليلة، بل هو بامتنان وفضل.

وكذلك حض على التوكل، ووصف المتوكلين بأنهم هم أتباع الأنبياء والفائزون من أممهم ومطلوب مطلوبهم بالتوكل لا محالة، كما وجود فتحه بالرحمة لا محالة لعباده، وإن كان بغير وعد لكن بفضل منه وإحسان، وكما أن الوجود كله قد عمه مقتضيات الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا فكذلك وجود التداوي بالرُّقى، وذكر الأسماء أسماء الله ﷻ، وقبول الكلام الطيب.

وهذان الوجهان معدومان في جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - لتميزها بما هو منبعث نفسها عنه، يعيد ذلك فيها ويبديه على دوائر محكمة دون رحمة تتخلل ذلك إلا ما شاء الله، إن ربك حكيم عليم، نعوذ بالله من أحوال أهل النار في الدنيا والآخرة وهو الكريم الغفار.

وأما تحالف الأربعة التي هي صفات الباطن: فهي تعالج بالصبر عن الشهوات، ولزوم طاعة الله جلَّ ذكره على سنن الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وهذا السابق إلى مثال رحمة الله ﷻ ومحل رضوانه، كذلك أهل الجنة من الجنة هم يأكلون ويشربون، وفي أجوائها يتقلبون «**يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**»[٣].

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٣٢)، وأحمد (١٨٤٧٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٧٥٥٣)، وابن ماجة (٣٤٣٦)، وابن حبان (٤٨٦)، والطبراني (٤٦٤)، والطحاوي (٤/٣٢٣)، والحاكم (٤١٦) وقال: صحيح.

(٢) أخرجه بنحوه الحاكم (٧٤٢٥)، والبيهقي (١٩٣٥٥)، والطيالسي (٣٦٨)، والطبراني (٩١٦٣).

(٣) تقدم تخريجه.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤].

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ...﴾ [البقرة:٢٦١] صرف ﷻ الخطاب إلى ذكر النفقة التي تقدم ذكرها في سبيل الله، كما نظم ذلك بذكر الإحياء والإماتة بما تقدم ذكره من ذلك.

فصل

إذا ورد ذكر الإنفاق مقرونًا بذكر سبيل الله فهو الجهاد، وإذا جاء معرًا من ذلك فهو في سبيل طاعة الله ﷻ؛ لذلك نظم ﷻ ذكر الإنفاق؛ فجَمل بذكر الإنفاق في سبيل الله، فقال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى...﴾ [البقرة:٢٦٢].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ أي: قول معروف للسائل يوجب مغفرة ربه خير من نفقة أو صدقة لا يقوم خيرها بشرها بما يتبعها صاحبها من منّ أو أذى؛ لذلك وهو أعلم ختم الآية بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿وَالله غَنِيٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٣] غني بصدق هذا المآل، حليم يعرض ﷻ بعصيان عبيده وبغضهم.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ

مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[1] [البقرة:٢٦٤] هذا منتظم بالمعنى والمجاورة لما تقدم، أكد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الآية في التوصية، وبالغ في النصيحة لأهل الإنفاق ألا يبطلوا صدقاتهم بآفات يتبعونها إياها فيما يكون بذلك المرائين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثم ضرب ﷻ لذلك مثلاً محكمًا فقال: ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا**﴾ [البقرة:٢٦٤] يقول الله جلَّ قوله: مثل إنفاق المرائي المكذب مثل زارع بذر بذره على صفوان عليه تراب يسير؛ فلم يجد البذر لعروقه مساغًا، فاختطفه الهواء والشمس بعد نباته؛ إذ لم يكن له من الأرض ما يمده من أسفله، وأصابه مطر وابل فجرد يسير التراب عنه، وذهب بالبذر فبقي الصفا صلدًا.

مثَّل - جلَّ جلال ربنا وتعالى علاؤه وشأنه - التراب اليسير الذي يستر الصفا بقول المرائي وبظاهر حاله، ومثل باطنه بما لا ينفد فيه عروق الزرع ولا ينبت عليه، وهو الصفا، فإن ما فات من عمله ما يقوم في إبطاله مقام المطر الوابل في إزالة ذلك التراب والذهاب بالبذر عن أصوله.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ

---

(١) قوله: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى﴾ يحتمل أمرين: **أحدهما**: لا تأْتُوا به باطِلاً وذلك أَنْ يَنْوي بالصَّدقة الرِّياء والسُّمعة. قال القرطبيُّ: إنَّ الله تعالى عبَّر عن عدم القبول، وحرمان الثواب بالإبطال، والمراد الصَّدقة الَّتي يمُنُّ بها ويُؤذي لا غيرها، فالمَنُّ والأذى في صدقة؛ لا يُبطلُ صدقةً غيرها. قال جمهور العلماء في هذه الآية: إنَّ الصَّدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ أو يُؤذي بها، فإنَّها لا تقبل. وقيل: إنَّ الله جعل للملك عليها أمارة فهو لا يكتبها. قال القرطبيُّ: وهذا حسنٌ.

والثاني: أن يأتوا بها على وجهٍ يوجب الثَّواب، ثُمَّ يتبعوها بالمَنِّ والأذى فيزيلوا ثوابها، وضرب لذلك مثلين: أحدهما: يطابقُ الأوَّل وهو قوله: ﴿**كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلَا يُؤْمِنُ بالله**﴾ إذْ من المعلوم أنَّ المراد من كونه عمل هذا باطلاً أَنَّه دخل في الوجود باطلاً، لا أَنَّهُ دخل صحيحًا ثم يزول؛ لأَنَّ الكُفر مقارنٌ له فيمتنع دخوله صحيحًا في الوجود. والمثال الثاني: وهو الصَّفوان الَّذي وقع عليه تراب، ثمَّ أصابهُ وابلٌ فهذا يشهدُ لتأويل المعتزلة؛ لأنَّه جعل الوابلَ مُزيلاً لذلك التُّراب بعد وقُوع التُّراب على الصَّفوان، فكذا ها هنا: يجب أن يكون المنُّ والأذى مزيلين للأجر والثَّواب بعد حصول استحقاق الأجر. [تفسير اللباب لابن عادل (٣/٣٠٤)].

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥-٢٦٨].

ثم مثَّل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مثل إنفاق المؤمن يريد به وجه الله والدار الآخرة، وعبر عن احتسابه في ذلك وحسن توجيهه بالعمل بقوله جلَّ قوله: وتثبيتًا من أنفسهم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ من إتباع عمله بعضه بعضًا حسنًا بعد حسن، ومحافظته على أعماله ﴿فَآتَتْ﴾ على ذلك ﴿أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا﴾ الكثير من ذلك المعبر عنه بالوابل فالقليل؛ أي: من العمل المعبر عنه بقوله جلَّ قوله: ﴿فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ويُعطي ذلك طيب ترابها، ومات شجرها؛ لذهاب عروقها سفلاً وبسوق فروعها علوًّا، كذلك يقين المؤمن البقي في الرخاء شكور، وفي الشدائد صبور؛ لثبات علمه وقوة يقينه، وطيب نفسه بطول ما أدبها في ذات الله سبحانه وصابرها على طاعته، كالفارس المنتخب لغرسه ربوة من الأرض نزلت عن الجبل فسلمت من حرارته وحدوبته ويبوسته، وارتفعت عن البطنان[1] ومستنقع المياه، فعوفيت من إجحاف السيول وما يمر عليه من إفراط رطوبات المناقع وعفنها، ثم نقى ربوته هذه من الشائكات وغير ذلك من غرائب نباتها المردية لغِراسه وسوَّاها، وحسَّن عمارتها والقيام عليها.

---

(١) قيل: البُطْنانُ ما كان من تحت العَسيب، وظُهرانُه ما كان فوق العسيب. انظر: تاج العروس (٧٩٧٣/١).

ثم أكّد ذلك ﷻ بمثلٍ ثالث جمع فيه المعنين، فأبلغ ﷻ في النصيحة، وألطف في التحذير عن اتباع العمل بما نهى عنه، ومثّل ذلك ﷻ بأحوالنا التي نجدها ضرورة من أنفسنا؛ ليفهَم عنه من أراده بالأهام، وقال جلَّ قوله وقوله الحق: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة:٢٦٦].

يقول جلَّ قوله لعباده: أيحب أحدكم أن يكون كمن اتخذ لنفسه جنة طاب ثراها، وانتخب بقعتها وتهمم في غراسها بأنواع الغروس لما يرجو المنفعة منه، ثم شقَّ في خلالها نهرًا يسقيها منه، وعمل ذلك حال فتوته ونشاط شبيبته إرصادًا منه بها زمان شيخوخته وكبره حين ضعف قواه وامتناع جبلته، وعدم تصرفه ولحاق ثقل الظهر به بذرية ضعاف لا حائط لهم سوى هذه الجنة أي أعدها لنفسه ولهم فأتاها من عند الله ﷻ ما أهلكها عن آخرها.

كيف ترون حال هذا؟ فكذلك العامل على ما لا ينبغي، والمتبع علمه ما يفسده ويبطله، فيقوم بعمله من ذلك مقام الإعصار من النار لجنة من ذلك الغارس؛ لأجل ذلك قال السلف ﷺ: المحافظة على العمل مع العمل أشد من العمل، والمحافظة على العمل بعد العمل أشد من ذلك، كذلك قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦].

ومن المحافظة على العمل: أن يكون الإنفاق من طيب المال وخالصه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾(١) إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ

---

(١) قوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ الخبيث﴾ الجمهور على «تَيَمَّموا» والأصل: «تتيمموا» بتاءين فحذفت إحداهما تخفيفًا، إمَّا الأولى وإمَّا الثانية، وقرأ البزِّيُّ هنا وفي مواضع أُخر بتشديد التاء على أنه أدغم التاء الأولى في الثانية، وجاز ذلك هنا وفي نظائره؛ لأنَّ الساكن الأول حرف لين، وهذا بخلاف قراءته ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ [النور: ١٥] فإنه فيه جمع بين ساكنين، والأول حرفٌ صحيحٌ، وفيه كلامٌ لأهل العربية، يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.
قال أبو علي: هذا الإدغام غير جائزٍ؛ لأنَّ المدغم يسكَّن، وإذا سكِّن وجب أن تجلب همزة الوصل عند الابتداء به كما جلبت في أمثلة الماضي، نحو: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ [البقرة: ٧٢]
=

حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧] أي: غني عن دني ما تنفقون، حليم يقبل الزكى الذي يراد به وجهه الكريم.

ثم نظم إلى ذلك ذكر داعيهم إلى ما ينقصهم ويبغضهم عند ربهم من التخلق بذميم الأخلاق من البخل والمنع والمن بما أغناهم الله ﷻ به من فضله، ولو شاء لجعلهم الفقراء السائلين بقوله جل من قائل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨] هذه الآية أصل المعرفة اللقنين وإعلام لمنبعث الحاضرين.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة:٢٦٩-٢٧٢].

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] الحكمة: هو الصواب في القول والعمل، وعلى التحقيق فالحكمة:

و﴿ارْتَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] و﴿اطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: ٤٧] لكن أجمعوا على أنَّ همزة الوصل لا تدخل على المضارع.

وقرأ ابن عباس والزُّهريُّ: «تُيَمِّمُوا» بضم التاء وكسر الميم الأولى، وماضيه: يمَّم، فوزن «تُيَمِّمُوا» على هذه القراءة: تفعِّلوا من غير حذفٍ، وروي عن عبدالله «تُؤَمِّموا» من أمَّمت؛ أي: قصدت.

والتيمم: القصد، يقال: أمَّ كـ «رَدَّ» وأمَّم كـ «أخَّر» ويمَّم وتيمَّم بالتاء والياء معًا، وتأمَّم بالتاء والهمزة، وكلُّها بمعنى قصد، وفرَّق الخليل - رحمه الله - بينها بفروقٍ لطيفةٍ، فقال: «امَّمْتُه» أي: قصدت أمامه، و«يمَّمْتُه»: قصدته من أيِّ جهةٍ كان. [تفسير اللباب لابن عادل (٣٠٨/٣)].

إصابة الحق بين المتشابه، وفعل ما هو الأولى والأفضل مع وجود الموانع، والحكمة أيضًا: فهم القرآن الحكيم، هو من أخرج معاني الشمال من معاني اليمين، وقوَّم نفسه عن عوجها، ويراضها من رعونتها وصعوبتها، فيسلك باليسرى منها مسلك اليمين.

وهذا تفسير لما تقدم، وأصل وجود الحكمة في هذا العالم الدنيوي ومنبعثها: فعل الله جلَّ ذكره في فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - في تعاقب نفسيها على ما مضى إيماؤه[1] وتقسمه ذَيْنِكَ[2] النفسين على أربعة أجزاء الدوائر منهما، وإيراده فتح رحمته عليهما، ثم كيف مازج بين ذلك بحكمته وأحالهما أن يكونا [.....][3] بلطيف تدبيره وعجيب حكمته بما قارن بين المتعاصيات وزاوج بين المتنافرات.

وربما كثر عن الوحدة، ووحد الكثرة، وأوجد عن ذلك حكمة بالغة أنواعًا من جنات دلَّ بها على ما هنالك، وضروبًا من موجودات جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - آية على وجودها في الدار الآخرة، ولم يَخلُ الشهي اللذيذ من مكروه ينفر عنه، ولم يدع الكريه الفظيع من مراد فيه وبه يدعو إليه؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

رفع قدر الحكمة، وأعلم أنه لا ينال عليّها إلا بالتذكر والتفكر، وتكرير الذكر على الفكر والفكر على الذكر، ومنه: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

ثم أرجع ﷻ على معنى النفقة ذكر الوفاء بها، وما كان من نذر بطاعة الله ﷻ، وما عقب ذلك بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠] أي: ما للظالمين الذين ينفقون أموالهم في سبيل شهواتهم لا على ابتغاء مرضاة الله ولا بنيات لله سليمة يثبت عليها نفسه، وكذلك الذين يعقدون على أنفسهم عقود النذور ولا يوفون بها ما لهؤلاء من الله من أنصار.

---

(١) أي: إشارته.

(٢) يقال في التثنية، بالتشديد والتخفيف.

(٣) ما بين [ ] غير واضح في الأصل.

قوله تعالى: ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ**﴾[1] بقوله جلَّ قوله وهو أعلم: إن تبدوا الصدقات ليتأسى بكم ويُقتدى بأفعالكم فنعما هي، وهي أفضل على هذا الشرط، ومتى عريت الصدقة من ابتغاء فضيلة الاقتداء ألا يكون إلا لأهل العزم والقوة الموصوفة بالأمانة فالإخفاء أسلم وأقرب إلى العافية، وعطف بالواو، وقوله: ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ على المعنى الذي في قوله ﴿**فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢٧١] وهو التزكي والتقرب.

وتقدير المحذوف، والله أعلم: وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم؛ أي: أقرب إلى السلامة مع ما يطهركم بها ويزكيكم.

عطف بقوله جلَّ قوله: ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ موضع العلانية هو الفريضة، وموضع السر هو النافلة، إلا ما رجحته معاني القرب الموجبة للقرب ورضا الله تعالى ورفعة الفضيلة.

فصل

يجتمع للمتصدق عدة معاني في أسماء الله سوى تحقيق عبوديته:

- **منها**: اسم الصدق؛ لأنه صدق بظاهره وباطنه؛ إذ المال هو دنيا العبد، وحب الدنيا هو الغالب عليه في الأغلب، وعلى ذلك وقعت المبايعة ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ [التوبة:١١١].

- **ومنها**: اسم الكرم والسخاء والسماحة، واسم العطاء، واسم الهبة، وهو الخير والزكاة والقرب.

---

(١) قوله تعالى: ﴿**فَنِعِمَّا هِيَ**﴾ في «نعم» أربع لغات: «نعم» بفتح النون وكسر العين مثل: عَلِمَ. و«نعم» بكسرها، و«نعم» بفتح النون وتسكين العين، و«نعم» بكسر النون وتسكين العين. وأمَّا قوله: ﴿**فَنِعِمَّا هِيَ**﴾ فقرأ نافع في غير رواية ورش وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل: «فنعما» بكسر النون والعين ساكنة، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص، ونافع في رواية ورش ويعقوب بكسر النون والعين، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف: «**فنعما**» بفتح النون وكسر العين، وكلهم شددوا الميم، وكذلك خلافهم في سورة «النساء». قال الزجاج: «ما» في تأويل الشيء؛ أي: فنعم الشيء هي. وقال أبو علي: نعم الشيء إبداؤها. [زاد المسير (١/٢٨٠)].

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢] هذا خطاب راجع معناه إلى المؤمنين الموصوفين بالمنّ والأذى والبخل والشح والزنا والكفر بالله، وأهل الإهمال في الثبات عند توجيه الأعمال، وتعمد إخراج رديء المال وخبيثه دون طيبه، هذا انتظامه بالمجاورة، وأما المعنى: فهو راجع إلى كل مذموم من خلق وعمل في دنيا أو دين.

ثم أرجع ﷻ الخطاب إلى ذكر الإنفاق بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢] الخير هو ها هنا: الطيب، وتوجيهه على وجهه، وأراه - والله أعلم - عنى بذلك: من ليس عنده ما ينفق إلا على نفسه، فعوده بهذه النفقة على نفسه أعظم الأجر.

قال رسول الله ﷺ: «**من له درهم فليعد به على نفسه، ثم على ولده، ثم على عياله، ثم على خادمه، ثم على قريبه، ثم على جاره، ثم فليقل هكذا وهكذا**»(١).

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ لم يسمِّ الله جلَّ ذكره إنفاقًا إلا ما كان لوجهه الكريم «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»(٢) وما كان لغيره أو لغير نية حميدة فاسمه التبذير والإسراف.

ثم أرجع ﷻ الخطاب إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ثم أرجع الخطاب إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ [البقرة:٢٧٢].

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩) وقال: حسن غريب، وأحمد (٨٣٣٠)، والدارمي (٢٧١٧)، والبيهقي في الشعب (١١٦٦).

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣-٢٧٦].

لما بيَّن أن الإنفاق هو ما وجه إليه نظم ﷻ إتمام البيان بحيث يكون موقع الإنفاق، فقال عز من قائل: ﴿لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ الله لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾[1] بتجارة ولا عمل في ابتغاء الرزق ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣] هذه هي الدرجة العليا في المعطي ومواقع الإنفاق بعد قوت النفس والعيال.

---

(١) في سبب النزول وجوه: الأول: لما نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ الله﴾ بعث عبد الرَّحمن بن عوف بدنانير كثيرةٍ إلى أصحاب الصُّفة، وبعث عليٌّ - كرم الله وجهه - بوسق تمرٍ ليلاً، فكان أحبَّ الصَّدقتين إلى الله تعالى صدقة عليٍّ فنزلت الآية، وقدَّم الله تعالى ذكر الليل؛ ليعرف أنَّ صدقة اللَّيل كانت أكمل، رواه الضَّحَّاك، عن ابن عبَّاسٍ.

الثاني: روى مجاهدٌ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت هذه الآية في عليٍّ ﷺ كان عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهارًا، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانيةً، فقال ﷺ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟» فقال: أن أستوجب ما وعدني ربِّي، فقال ﷺ: «لَكَ ذَلِكَ».

الثالث: قال الزَّمخشريُّ: نزلن في أبي بكر الصديق ﷺ حين تصدَّق بأربعين ألف دينار؛ عشرةٌ باللَّيل، وعشرةٌ بالنهار، وعشرةٌ في السِّرِّ، وعشرة في العلانية.

الرابع: قال أبو أمامة وأبو الدَّرداء ومكحولٌ والأوزاعي: نزلت هذه الآية الكريمة في الذين يربطون الخيل للجهاد، فإنها تعتلف ليلاً ونهارًا وسرًّا وعلانية، فكان أبو هريرة ﷺ إذا مرَّ بفرسٍ سمين، قرأ هذه الآية. وروى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِيمَانًا وتَصْدِيقًا بوعدِهِ، فإنَّ شِبَعَهُ وريَّه ورَوْثَهُ وبَوْلَهُ في ميزانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

الخامس: إن الآية الكريمة عامةٌ في الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة تحريضًا لهم على الخير. وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السِّرِّ أفضل؛ لأنه قدم اللَّيل على النهار، والسر على العلانية في الذكر، وتقدم نظير هذه الآية ومدلولها، وهو مشروطٌ عند الكل بألَّا يحصل عقيبه الكفر، وعند المعتزلة ألَّا يحصل عقيبه كبيرةٌ محبطةٌ. [تفسير اللباب لابن عادل (٣/ ٣٣٤-٣٣٥)].

كما أن حسن الدرجة وعلياها في حال المعطى حسن التوجيه لله جلَّ ذكره، وابتغاء المال، وطلاقة الوجه والبشر، والتأنيس حين الإعطاء، وقول المعروف؛ مثل أن يقول المعطي: «يا أخي، هذا حقك، وإنما هو مال الله أعطاك، ولك المنُّ علي بأخذه مني وقبولك له عني، فإياه فاحمد دون من سواه، فهو وهبك» وشبه هذا من المقال.

ثم ختم هذا بقوله عز قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٧٣] الخير هنا عبارة عن جميع ما تقدم من الشروط في المال والمعطى له وأحوال المعطي ومقالته.

ثم أعقب ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤] هذه مبايعة من الله تعالى [عباده، جاءنا بها][1] في قوله جلَّ قوله ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] فذكر ﷻ الجهاد في سبيله.

واقتصر ها هنا على ذكر المنفقين أموالهم، التاركين لحظوظ أنفسهم، فهي مبايعة من وجه رفع الله ﷻ قدر الإنفاق في سبيله على وجوهه المرضية، وجعل المنفقين على ذلك الآمنون يوم الفزع الأكبر والهول الأعظم، آتاهم أجرهم على ما أتوه من أموالهم وحظوظ أنفسهم الأمَّارة بالسوء، وآمنهم من مقاساة الأهوال والخوف والحزن وسوء الحساب، ذلك لما آمنوا السائلين المفتقرين لما في أيديهم من منٍّ وأذى وجهامة وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] نظم ذكر الربا بذكر الإنفاق ما هو القوت للنفس والعيال وغيرهم، فهو خطاب لمكتسبه ومنفقه وآكله، وإعلامًا منه ﷻ أن حال آكله في الدار الوسطى دار البرزخ فزعًا جزعًا، وسوء حال حياة المتخطبة حيًا أو حال القائم على تلك الحال، فعبَّر القرآن العزيز عن حال بواطنهم وسوء حياتهم هنالك في هذه الجهة.

---

(١) اضطراب في النسخة (ق)، صُوب من النسخة (ف).

وعبر رسول الله ﷺ بقوله عن سوء أحوالهم في أجسامهم وحزنهم في أنفسهم، فقال ﷺ: «**رأيت قومًا بطونهم كالبيوت، فيها الحيات تُرى من ظاهر بطونهم، يحطون على سابلة آل فرعون، كلما مروا بآل فرعون غدوة وعشيًا ليعرضوا عليها داسوهم بأرجلهم فيثردونهم ثردًا**»[1].

فهذه صفة أجسامهم وتزايل أعضائهم وحل تركيبهم، كقيام المتخبط من المس في باطن تركيبه وفساد خلقه من باطن هذا متى عذبوا في قبورهم بما اكتسبوا من ذنوب الربا، ولهم لكل ذنوبهم عذاب يشبه وصفه وصف ذنوبهم.

قال الله ﷻ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩].

و﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

فصل

يجب الإيمان بوجود الأعمال كلها من طاعة وعصيان، وأن لها وجودًا مقصورًا على صورة جزأيه من ثواب وعقاب، وعلى قدر رفعته في الإحسان وإسفاله يكون تصويره في الحسن والقبح، وذلك يعرض عليه يوم تعرض عليه أعماله، يشاهد مع ذلك مقامه على كل عمل؛ لذلك لا يستطيع أن ينكره؛ لأنه في حالته حينئذٍ كأنه قائم على ذلك العمل إلا من كان أسس عمله على الكذب في دار الدنيا فهو يباهت، وهم المنافقون والمراؤون بأعمالهم.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ﴾ [المجادلة:١٨].

وقال جلَّ قوله في الكافرين: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام:١٣٠] وقد يكون من الكافرين إنكار وحلف؛ لعدم علمهم في الدنيا، فيحشرون على ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦٧٧)، وأحمد (٨٦٢٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤)، وابن ماجة (٢٢٧٣).

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٧-٢٨١].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] كان الكافرون وباقي الجاهلية يديرون بينهم نوع ربا قبيح نهى عنه الشرع وقبّحه؛ مثل: بيعهم حبل الحُبلة، والثمر يسلمون[١] فيه إلى سنتين وثلاثة، وبيعهم الملاقيح والمضامين[٢]، وبيع الملامسة[٣] والمنابذة[٤].

وكان أحدهم ينكح ابنته قبل أن تولد فيأخذ صداقها، فإن ولدت امرأته أول ما تلد أنثى فهي زوجته، إلى غير ذلك من أنواع ضلالاتهم وأباطيلهم، فأنزل الله ﷻ تحريم الربا، وكان قد بقي على المؤمنين أنواع من الربا؛ كالمزابنة[٥] والمخابرة[٦] والمحاقلة[٧]، فنهى عن المعاومة[٨]، وعن بيع الثمر حتى يزهو، ومهر البغي وحلوان الكاهن، وبيع الخمر، وبيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة متفاضلاً، وكذلك البر

---

(١) السَّلم: بيع شيء موصوف في الذمة بثمن عاجل. انظر: المعجم الوسيط (٩٢٤/١).

(٢) أولَاد المَلاقيح والمَضامينِ نُهِيَ عن بَيْعها، كانوا يَتَبايعون ما في بُطُون الأمهات وأصلاب الآباء، فالمَلاقيحُ: هُنَّ الأمَّهات، والمَضامينُ: هُمُ الآباء. انظر: العين (١٧٤/١).

(٣) بيع المُلامَسَةِ: وهو أن يقول: إذا لَمَسْتُ المَبيعَ فقد وجب البيع بيننا بكذا. انظر: الصحاح في اللغة (١٤٨/٢).

(٤) الْمُنَابَذَةِ فِي الْبَيْعِ: هِيَ أَنْ تَقُولَ: إذَا نَبَذْتَ مَتَاعَكَ أَوْ نَبَذْتُ مَتَاعِي فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ بِكَذَا. انظر: المصباح المنير (١٢٦/٩).

(٥) المُزابَنةُ: بيعُ التَّمْرِ في رأْس النَّخْل بالتَّمرْ. انظر: العين (٨٩/٢).

(٦) الْمُخَابَرَة: هِيَ مُزَارَعَةُ الْأَرْضِ عَلَى الثُّلُثِ وَالرُّبُعِ. انظر: المغرب (٧٩/٢).

(٧) الْمُحَاقَلَةُ: هِيَ بَيْعُ الزَّرْعِ فِي سُنْبُلِهِ بِحِنْطَةٍ. انظر: المصباح المنير(٤٢٨/٢).

(٨) المُعَاوَمَةِ: هِيَ أَنْ تَبِيْعَ الزَّرْعَ عامَكَ بما يَخْرُج من قابلٍ. انظر: المحيط في اللغة (١٢٧/١).

بالبر والشعير بالشعير، إلى غير ذلك، وكل ما أدى إلى خب وخداع، فأنزل الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ...﴾** [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

قال رسول الله ﷺ **«ما فشا في قوم الربا إلا حرموا بركة السماء»**(١).

ثم لأهل التقوى في المعهود بين الناس ربا لا يرضونه، وهو السلم إلى أجل بعيد، وبيع العينة(٢) وما تحيَّل به المتحيلون من أكل أموال الناس لأجل ضرورة يضطروهم وشدائد تعروهم، ووجوه سواها تقارب الربا وتجاوره جعلوا ذلك بدلاً من السلف والتوسعة، والعود بالفضل الذي ربوا إليها وأمروا بها، سكت الشرع عن تعيين ذلك، ومعناه داخل في النهي، جاء النهي والوعيد عامًّا كل في مقامه ودرجته، شمل ذلك قوله جل من قائل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [البقرة:٢٧٨].

قال الله تعالى: **﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾** [الروم:٣٩].

قوله ﷻ: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**(٣) [البقرة:٢٨١] وعيد منه ﷻ وجّهه أولاً إلى من لم ينتهِ عن الربا،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٠٩)، وأبو يعلى (٤٩٨١) بلفظ: «ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله».

(٢) الْعِينَةُ: أَنْ يَبِيعَ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ إِلَى أَجَلٍ ثُمَّ يَشْتَرِيَهُ فِي الْمَجْلِسِ بِثَمَنٍ حَالٍّ؛ لِيَسْلَمَ بِهِ مِنْ الرِّبَا. انظر: المصباح المنير (٦/٤٦٧).

(٣) للآية تفسيران: **الأول**: أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا بتصفية الطباع، وإسقاط الوسواس، ومنعه من أن يرد على القلوب، فإن الشيطان مشغول بالعذاب، فلا يتفرغ لإلقاء الوسواس، فلم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف. عن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. الثاني: إن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقص، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى إن صاحب الدرجة الناقصة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة، فيكون هذا في مقابلة ما ذكره الله تعالى من تبريء بعض أهل النار من بعض، ولعن بعضهم بعضًا، وليس هذا ببديع ولا بعيد من حال أهل الجنة، فإن أولياء الله تعالى في دار الدنيا أيضًا بهذه المثابة بحسن توفيق الله تعالى ونور عنايته وهدايته، كل منهم قد قنع بما حصل له من نعيم الدنيا وطيباتها لا يميل طبعه إلى =

وبالعموم على كل نهي تقدم ذكره العلماء - رضي الله عنا وعنهم - إن هذه الآية من آخر ما نزل، فإن كان ذلك كذلك فإنها خاتمة، والتنزيل كما ختم بها جميع ما جاءت به هذه السورة من أمر ونهي، وهي حاكمة من هذه الجهة على ما أنزل قبلها ويأتي بعدها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

=

زوجة لغيره أحسن من زوجته، ولا إلى لا مشتهى ألذ مما رزقه الله، وكل هذا نتيجة ملكه الرضا بالقضاء، والتسليم لأمر رب الأرض والسماء، فيموتون كذلك ويحشرون على ذلك، وفقنا الله لنيل هذا المقام ببركة أولئك الكرام.

ونظم معنى هذه الآية بما تقدم من ذكر البيع بميزه الربا، فذكر الدين وأحكامه بعد ذكر الإنفاق، وبخاصة ذكر الربا والوعيد عليه، وكيف تكون توبة التائب منه؛ إذ الأموال موضع الإنفاق، والربا يدخل إليها من باب التوسع في أنواع التبايع، فذكر ﷻ ذلك نظمًا بذكر الأشهاد والشهادة، ووعظ الكتاب وذكر الرهن والأمانة فيه، وفيما أغفل الأشهاد والكتاب في عقده، وأكد ﷻ التوصية بالتقوى إلى قوله: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٣].

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٤-٢٨٦].

قوله جل من قائل: ﴿لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٨٤] أشبه هذا قوله جلَّ قوله بدء التأليف: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٤].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٨٤] جوابًا منه ﷻ لقول العبد مخاطبًا له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

ومفهوم الجواب منه: مبايعة من الله لعباده، كيف جزاؤه إياهم على نياتهم الباطنة والظاهرة في عبادتهم إياه وطلب المعونة؛ لذلك وهو أعلم صدر الخطاب بوصف نفسه، وكان وصف الملك أولاً في هذا الموضع لمعنى العباد وأرضاه الجزاء عليها؛ إذ الملك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

وعطف ﷻ بالواو استئنافًا لفرض شروط المبايعة في قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾.

فصل

ذكر ابن عباس ﷺ في قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٨٤] إنه منسوخ بقوله جلَّ قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وتابعه على ذلك عطاء وقتادة، وقاله ابن مسعود ﷺ.

وروي عنه أيضًا أنه قال: لم تنسخ، ولكن الله ﷻ إذا جمع الخلائق يقول جلَّ قوله: «إني أخبركم بما كتمتم في أنفسكم» فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم، وأما أهل الشرك والتكذب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب والريب.

قال: فكذلك قوله جلَّ قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

وروي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت لسائل سألها عن هذه الآية: سألت رسول الله ﷺ في تلك، فقال ﷺ: «**هذه مبايعة الله العبد، فما يصاب من مصيبة أو يشاك من شوكة في نفسه وأهله وماله حتى إنه ليضع البضاعة في كمه فيفقدها فيفزع لذلك، ثم يصيبها فيؤجر على ذلك حتى يخرج المؤمن من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير**»[(١)].

وما ذكراه - رضي الله عنهما - من أنها لم تنسخ صحيح الظاهر، والذي يقوم عليه الحجة أن قوله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ [البقرة:٢٨٦] أنه بيان لمعنى المبايعة المذكورة؛ إذ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ...﴾ [البقرة:٢٨٤] يحتاج إلى تفصيل، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] تفصيل لذلك المجمل.

روى عمران بن الحصين أو غيره قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٩/٣)، وأحمد (٢٥٨٧٧)، والترمذي (٢٩٩١) وقال: حسن غريب.

والطاعة، فلقنني فيما استطعت.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير وحسن ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦] أي: افتعلت من سوء ظاهر بجوارحها إن كان ذلك مما لا يتم إلا بعمل الجوارح أو باطن بجوانحها إن كان ذلك السوء قد يتم في الباطن، كالكفر والشرك والنفاق.

يعبر ﷻ بوزن «فعل» قوله جلَّ قوله: ﴿كَسَبَتْ﴾ من الخير؛ إذ قد يفضل ﷻ بأن الخير كله خاطره وتردده في الباطن، وخارجه عن الجوارح للعبد مكتوب مدخر ثوابه، وإن الشر لا يكتب على العبد بسيئة إلا بعد الترداد والعزم عقدًا عليه إن كان من العقود، وإن كان مما لم يتم إلا بالظهور على الجوارح فبعد أن يظهر وينفعل، وهو قبل أن يظهر إن رجع عنه وتركه لله جلَّ ذكره كتب له ثواب ذلك حسنة، وإن تركه لعارض عرض أو لأمر لم يكتب عليه سيئة، هكذا جاء قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله فيما رواه عنه جلَّ عن ربه ﷻ من رواية أبي هريرة وعروة - رضي الله عنهما - عنه يقول الله ﷻ: «**إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتب عليها، وإن عملها كتبتها سيئة وأغفر**»[1].

وفي أخرى: «**فأنا أغفرها ما لم يعملها**»[2].

الخطرات من المؤمن يكرهها، ولا يملك إيرادها ولا إصدارها، فذلك معفو عنه، والحمد لله رب العالمين، وخطرات الخير له مكتوبة، فتاب الله علينا إن شاء الله رب العالمين، والحمد لله رب العالمين.

بل المرجو من فضل الله ﷻ أن للمؤمن في خطرات الشر التي لم يملكها وهو يكرهها رحمة من الله ﷻ، وحسنة يثاب عليها؛ لكراهته إياها وحزنه لأجلها، يشهد

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (١٢٨)، والترمذي (٣٠٧٣) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٣٨٠)، وأحمد (٧٤٩٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٨٥).

على صحة هذا قول النبي ﷺ لأصحابه وقد سُئل عن الشيء يجده أحدهم في نفسه يود أن يكون حممة ولا يجده، فقال ﷺ: «**أو قد وجدتموه؟ الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة، ذلك محض الإيمان**»(١).

فموضع حقيقة الرجاء في هذا قوله ﷺ: «**ذلك محض الإيمان**» فوقع موجود العبد من أجل ذلك إنكارًا له، وحزنًا إلى خالص الإيمان، وهو ثوابه، فالثواب عليه من أرفع الثواب، ولما كان هذا لوجود ما لا يملك جلبه ولا دفعه أول حال ظهوره لم يتعين عليه ثواب سوى المدح لواجده الكاره المتحرز من أجله مقابلة لتذممه ذلك.

قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ...﴾ [البقرة:٢٨٥] أشبه هذا الخطاب ما ذكره ﷻ في سورة أم القرآن قوله جلَّ قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**...﴾ [الفاتحة:٦] إلى آخرها.

وأثنى على ما ذكره في أثناء السورة، كقوله جلَّ قوله: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [البقرة:١٣٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا**﴾ [البقرة:١٣٧] ونحوه.

كذلك اشتق ما فيها من دعاء في أم القرآن في أنه سأل وتضرع، وأنه مضمون الاستجابة، كالذي في تلك قوله في أم القرآن: «**ولعبدي ما سأل**»(٢).

وقوله جلَّ قوله في هذه: «**قد فعلت، قد فعلت، قد فعلت، نعم، نعم، نعم**»(٣) وهي سبعة أسئلة مجابة لله الحمد من قبل ومن بعد:

- يقول العبد: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ [البقرة:٢٨٦] يقول الله

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩٧)، وأبو داود (٥١١٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٠٣)، وابن حبان (١٤٧).

(٢) أخرجه مالك (١٨٨)، ومسلم (٣٩٥)، وعبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣) وقال: حسن، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤)، والدارمي (٣٣٧٢)، وأبو يعلى (٦٤٨٢)، وابن خزيمة (٥٠١)، والحاكم (٣٠١٩) وقال: صحيح على شرط مسلم، والضياء (١٢٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٣١)، والتِّرْمِذِيّ (٤٨١) والنَّسائي وفي الكبرى (١٢٢٣) وابن خزيمة (٨٥٠).

ﷻ: «**قد فعلت**»[1].

قال رسول الله ﷺ: «**رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه**»[2].

مصداقه في القرآن العزيز: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦].

- **وثانيه**: يقول العبد: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾[3] [البقرة:٢٨٦] قد أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في مواضع من كتابه العزيز ذلك إن كان منه في الأول، منها قوله: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقوله جلَّ قوله: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج ٧٨].

وقوله ﷻ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فهاتان يقوله جلَّ قوله «**قد فعلت**»، ولما كان سائر الأربعة التي هي العفو والمغفرة والرحمة والنصرة معرض سائلها للإجابة والحرمان؛ لكنه يفضل ﷻ بإدخال قارئ هذه الآيات في إيجاب الإجابة كما فعل بقارئ أم القرآن من تصحيح القسمة، وإنفاذ الوعد الكريم بالإجابة بخاصة في هذين الموضعين لأم القرآن وأواخر سورة البقرة.

كما بشَّره الملك - صلوات الله وسلامه على جميعهم - في قوله ﷻ: «**أبشر يا محمد بقرآن أوتيته من كنز تحت العرش لم يؤته أحد قبلك: أم القرآن وخواتيم**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه بلفظه الطبراني (١٤٣٠) وفي الشاميين (١٠٩٠)، وبنحوه الحاكم (٢٨٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي (١٩٧٩٨)، والطبراني في الصغير (٧٦٥). استكرهوا: حملوا على فعله قهرًا.

(٣) قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا**﴾ أي: عبئًا ثقيلاً يأسر صاحبه؛ أي: يحبسه مكانه، والمراد به التكاليف الشاقة، وقيل: الإصر الذنب الذي لا توبة له، فالمعنى اعصمنا من اقترافه، وقرئ «آصارًا» على الجمع، وقرأ أبيّ: «**ولا تحمّل**» بالتشديد للمبالغة ﴿**كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا**﴾ في حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، أو على أنه صفة لإصرًا؛ أي: إصرًا مثل الإصر الذي حملته على من قبلنا، وهو ما كلفه بنو إسرائيل من قتل النفس في التوبة أو في القصاص؛ لأنه كان لا يجوز غيره في شريعتهم وقطع موضع النجاسة من الثياب ونحوها، وقيل: من البدن وصرف ربع المال في الزكاة. [تفسير الألوسي (٢/٤٠٥)].

سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أوتيته»(١) فكل ما نسب إلى ما تحت العرش علوًّا، فهو عبارة عن خلوص الرحمة؛ إذ كان على صفة الرحمانية، وكل ما سفل كان أقرب إلى الابتلاء.

ألا ترى أن أسفل سافلين هو موضع العذاب الصرف، فالجنة تحت العرش، والشمس حال سجودها موصوفة بأنها تحت العرش، وهو موضع سجودها خلافًا لموضع طلوعها وجريها، وصفها النبي ﷺ على ذلك «**إنها تطلع على قرن شيطان**»(٢) و«**بين قرني شيطان**»(٣) وعلى هذا كله قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:٥].

﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾ [الفرقان:٥٩].

وقوله: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»(٤) لسبقته: «بسم الله الرحمن الرحيم» فافهم وألقن عن ربك ﷻ فصل الخطاب.

فصل

صدق الاعتبار وصح النظر على صادق الوحي، والحمد لله رب العالمين.

أم القرآن اشتملت على جميع ما في القرآن مجملاً، كذلك اشتملت سورة البقرة على جميع ما في القرآن تفصيلاً لمجمل أم القرآن، ثم في سائر القرآن إنما التفصيل والتبيين والشرح، والله الموفق لإصابة الصواب بمنّه وفضله العظيم.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٩١٣)، والنسائي (٩٢٠)، وابن حبان (٥٧)، وابن أبي شيبة (٦٣)، والحاكم (٢٠٠٩)، والطبراني (١٢٠٨٩)، والبيهقي في الشعب (٢٢٦٩)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣١٦٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٢١٦)، والضياء (١٨٨٣)، وعبد بن حميد (٢٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (٦١٢)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٩)، وأحمد (٧٠٧٧)، وأبو داود (٣٩٦)، والنسائي (٥٢٢)، والبيهقي (١٥٩١)، وأبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠).

(٤) تقدم تخريجه.

تفسير سورة آل عمران

مدنية كلها

فيها من المنسوخ خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران:١-٦].

قوله جلَّ قوله: ﴿الم﴾ [آل عمران:١] قد تقدمت الإشارة إلى معنى ما جاءت به الحروف في أوائل السور من أجله - والله أعلم - آيات على حروف أم الكتاب ودلالات عليها، وقد تقدمت الشواهد على ذلك من القول العزيز مقرونة بها.

قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢] الألف واللام في أوائل هذه الأسماء لا محالة للتعريف والعهد، عرَّف عباده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأنه الله لا إله إلا هو الحي القيوم، فكأنه قال: «الم هو الله...» وجاء من هذا أن «الم» فسر بها هذه الجملة كما قال ﷻ وتعالى قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:٨] والحياة العلية معبر معناها عن وجود الأسماء كلها، وعن الكمال الأرفع والوجود الأعلى، كما أن القيومية معبر معناها عن القيام خلقًا وأمرًا وشهادة وغيبًا.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اسم الله الأعظم: الحي القيوم**». وفي

أخرى: «اسم الله الأعظم بين هاتين الآيتين»[١].

قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهي جملة محكمة فصَّلت مجمل محكم قوله ﷻ: ﴿الم﴾ كما تقدم، والله أعلم.

ثم نسق عليها بعد قوله جلَّ قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[٢] [آل عمران:٣] إلى ما يأتي بعد هذا، فاعرفه - وفقنا الله وإياك - كما تعرَّف إليك، فقد فتح لك باب معرفته في تعريفه بنفسه، فالاسم الأول جمع معاني ما سواه من

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦٥٢)، وابن أبي شيبة (٢٩٣٦٣)، وأبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٣٨٥٥)، والطبراني (٤٤٠)، والبيهقي في الشعب (٢٣٨٣)، وعبد بن حميد (١٥٧٨).

(٢) قال الكلبي والربيع بن أنس وغيرهما: نزلت هذه الآيات في وفد نجران وكانوا ستين راكبًا قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: **العاقب**: أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، **والسيد**: ثمالهم وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم، **وأبو حارثة بن علقمة** أسقفهم وحبرهم، دخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين صلى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات جبب وأردية في رجال بلحارث بن كعب، يقول من رآهم: ما رأينا وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**» فصلوا إلى المشرق، فسلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله ﷺ: «**أسلِما**» قالا: أسلمنا قبلك، قال: «**كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير**» قالا: إن لم يكن عيسى ولدًا لله فمن يكن أبوه؟ وخاصموه جميعًا في عيسى، فقال لهم النبي ﷺ: «**ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟**» قالوا: بلى، قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟**» قالوا: بلى، قال ﷺ: «**فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟**» قالوا: لا، قال: «**ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟**» قالوا: بلى، قال: «**فهل يعلم عيسى عن ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟**» قالوا: لا، قال: «**فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا ليس بذي صورة وليس له مثل، وربنا لا يأكل ولا يشرب**» قالوا: بلى، قال: «**ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟**» قالوا: بلى، قال: «**فكيف يكون هذا كما زعمتم؟**» فسكتوا، فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. [تفسير البغوي (٢/٥)].

الأسماء؛ إذ جميعها شارحة له منبهة عليه.

ثم الاسمان بعده جمعها معاني الأسماء كلها الذاتية والفعلية؛ إذ لا يوصف بحقيقتها سواه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ولا يُعرف كمالها إلا به سبحانه، ثم اسمه المعبر عن الوحدانية في عزة الربوبية وعظمة الألوهية هو الذي بحقيقته قام كل شيء، وتماسك كل كائن علوًّا وسفلاً دنيا وآخرة، وبالإخلاص والتصديق والشهادة بمقتضاه كان الفوز كله، ومن أجل الخيبة الإقرار بالتحقيق والشهادة له كانت الخيبة الجمعاء والخسران الكبير.

فصل

والمعرفة هي أن تعرفه بأياديه الكاملة وصفاته العالية وأسمائه الحسنى، وأي يد هي أكمل ونعمة هي أعظم من أن جعلك عبد الرب؟ هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم، ذلك المجد الذي لا يُدانا، والفخر الذي لا يطاول؛ إذ جعل لك ذلك عوضًا من أن تكون عبدًا لما لم يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنك شيئًا ضلالاً عن القصد بعيد، وحرمان من حظ الدنيا والآخرة شديد.

واعلم أن المعرفة معرفتان: معرفة حق ومعرفة حقيقة، والمعروف بهما واحد أحد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣-٤].

فمعرفة الحق: هو ما أبدى للخليقة من أسمائه وصفاته آثاره في موجوداته، ونصوصًا ومعاريض في كتبه على ألسنة رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

وأما معرفة الحقيقة: فلا سبيل إلى بلوغ كنهها؛ لامتناع علاء الصمدية، وعزة عظمة الربوبية، وقصور الأوهام عن تحقيق معرفة الأحدية، ولأنه لا شبه له ولا مثل له فيقاس عليه.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] ومن عرف لم يعرف منه إلا ما يحبه لأجله، ولذلك كانت المعرفة من علامات المحبة، ومن عرف فمن علامات معرفته أن يرى العارف نفسه في قبضة العزة تجري به لطائف القدرة، ولذلك كان شأن العارف المحقق السكون تحت جري الأحكام

والطمأنينة لتصريف القضاء له وعليه.

قوله ﷻ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ [آل عمران:٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤] معهود.

«أنزل» على وزن «أفعل»: الإنزال من علو إلى سفل.

و«نزل» على وزن «فعل»: من التنزيل الذي هو التيسير والتعريف هو التفهيم، والقرآن منزل على ما هو عليه إنه كلام الله جلَّ ذكره، ليس كمثله كلام، عظيم نزله روح القدس[1] منه ﷻ بالحق إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول ﷺ إلى لسانه تلاوة وقراءة، قرآنًا عربيًا بالألسن حديثًا صادقًا مقطعًا على مخارج الحروف، وهو أيضًا منزَّل عما هو كتاب الله العلي الأعلى الذي هو كتاب القلم من اللوح المحفوظ.

قال رسول الله ﷺ: «**وكتب في الذكر كل شيء**»[2] فنزل ﷻ حروف الكتاب إلى الحروف المقطعة في أوائل السور، ثم نزل ﷻ تلك أيضًا إلى أن جعل ما أنزل

---

(١) قال البغوي في «تفسيره»: اختلفوا في روح القدس، قال الربيع وغيره: أراد بالروح الذي نفخ فيه، والقدس: هو الله أضافه إلى نفسه تكريمًا وتخصيصًا نحو: بيت الله، وناقة الله، كما قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وقيل: أراد بالقدس: الطهارة؛ يعني: الروح الطاهرة سُمي روحه قدسًا؛ لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث، إنما كان أمرًا من أمر الله تعالى.

قال قتادة والسدي والضحاك: روح القدس جبريل عليه السلام قيل: وصف جبريل بالقدس؛ أي: بالطهارة؛ لأنه لم يقترف ذنبًا، وقال الحسن: القدس هو الله وروحه جبريل قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وتأييد عيسى بجبريل - عليهما السلام - لأنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد به الله إلى السماء، وقيل: سُمي جبريل عليه السلام روحًا للطافته ولمكانته من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: روح القدس هو اسم الله تعالى الأعظم به كان يحيي الموتى ويري الناس به العجائب، وقيل: هو الإنجيل جعل له روحًا كما جعل القرآن روحا لمحمد ﷺ لأنه سبب لحياة القلوب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فلما سمع اليهود ذكر عيسى عليه السلام فقالوا: يا محمد لا مثل عيسى - كما تزعم - عملت، ولا كما تقص علينا من الأنبياء فعلت، فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٩)، والطبراني (٤٩٧)، وأحمد (١٩٨٨٩)، وابن حبان (٦١٤٠)، والروياني (١٤٠)، والحاكم (٣٣٠٧) وقال: صحيح الإسناد.

منه علينا كتابًا نكتبه بحروف مجموعة مؤلف ومكتوبة لنا.

قال الله جلَّ قوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١].

﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:١-٣] أي: أنزلناه من أم الكتاب إلى أن جعلناه قرآنًا عربيًا على لسانكم؛ لتعقلوه وتفهموا المراد به ومنه، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] أي: بعيد عن أفهامكم، عليٌّ لا تدركه عقولكم لولا تنزيلنا إياه.

والحروف المقطعة في أوائل السور آيات على أم الكتاب، وواسطة بينه وبين أم الكتاب المنزل، وكذلك كل رسول أتى بكتاب من عند ربه تنزل عليه من أم الكتاب ومن كلام رب العزة جلَّ ذكره إلى لسان الرسول المرسل إليهم بلسانهم؛ ليبين لهم مراد الله منهم، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.

فصل

أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ووُضع في بيت العزة، ومن هناك نجم إنزاله نجومًا، وكان ذلك في الوجود بمنزلة الماء، يرسل الله ﷻ الرياح مبشرات ونشرًا، ثم يوجد السحاب، وبعد ذلك ينزله إلى الأرض بقدر ما يشاء، وكما أنزله ﷻ إلى السماء الدنيا كذلك أنزله إلى قلب الرسول ﷺ، ثم بعد يرتله ترتيلاً بالتنزيل والإنزال عليه متى نزلت نازلة، أو عنَّ أمر مبهم قد شاء أن ينزل فيه قرآنًا، أو يكون أمرًا ما يريد الله ﷻ أن يبديه أنزل عليه في ذلك ما هو الشفاء والرحمة للمؤمنين.

وكان في وجود الحق كالفطرة لكل شيء خلقه على الإسلام كل عالم بقسط معلوم من تلك الفطرة، شاهد ذلك: ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ يعني: إنه يكون له ذلك بمثابة الدمع ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:٧٤].

ثم النبات من ذلك في درجة، ثم الإنسان في درجة، شاهد ذلك على العموم: قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨] أي: طوعًا شرعًا؛ أي: إنه لا يسجد إلا كما يسجد من دونه من العوالم، ويجعل طوعه بالسجود والعبادة لغيره.

فصل

لما كانت النبوة قد فاقت علم الفطرة وعلت على معاليها وجب من وجود حكمة الله تعالى أن يتقدم للنبي والرسول - صلى الله عليهما - من معنى النبوة جملة الرسالة بما يقوم مقام الفطرة للخليقة، فإن النبي ﷺ يأتي بما ليس في طاقة البشر علمه، والإتيان به من حيث هو نبي.

يقول الله جلَّ قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

ثم بعد يفصل الله ﷻ في حال الابتلاء ما أجمله قبل تفصيلاً بعد تفصيل؛ ليبين للناس ما نزل إليهم، وقد نص ﷻ على ذلك للعقول الصائبة، وكان قد قبض بساط الخطاب بقوله جلَّ قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ فأجاب ﷻ رسوله ﷺ، والمراد بالإعلام: ما هم، ومن شأنه بذلك كذلك؛ أي: كذلك فعلنا؛ أي: أنزلناه جملة واحدة عليك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ فإذا نزلت النوازل وسألوك ابتدأناك بما شئنا فتعرفه حينئذٍ؛ لأن جملته مستقرة في فؤادك، ثم قال ﷻ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢] أي: قطعنا إنزاله تقطيعًا لأوقات الحاجة إليه.

ثم عطف ﷻ بالواو على معنى ما تقدم، فقال جلَّ قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] فدخلت الواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ عطفه على ما في قلبه من معنى، كذلك دخلت الواو التي في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ عطفًا على قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٤] ذكر الأكثرون من المفسرين أن الفرقان اسم من أسماء القرآن، وقولهم هذا يصح من جهة أن القرآن فرق ما بين الهدى والضلال، والحلال والحرام، والمواعظ والأحكام، وتسمية الشيء بما يقاربه

أو يكون منه بسبب صحيح جائز.

وقصد القول في ذلك إن شاء الله تعالى: إن الفرقان زائد إلى ما قالوه، نور في بصر القلب عن روح، تنزل به الملائكة على الأنبياء - عليهم السلام - فيه يفرق بين المشتبهات، ويميز به بين المشكلات في غيابات غيبها، وهو كالتصور في ظاهر الكائنات المسميات، فالفرقان بين موجودات المعاني بأنوار البصائر، والتفريق بين الصور يكون بحواس الإبصار، وكما نزل الفرقان وأنزله كذلك نزل القرآن وأنزله.

قال الله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] أعلم الله ﷻ أن شخصًا واحدًا محيط بجميع المعلومات جملة وتفضيلاً، ثم كتب جلَّ ذكره في الذكر كل شيء جملة محيطة بكل كائن إلى يوم القيامة، فكان بذلك محكمًا تم فصله بعد بالتنزيل والتبيان، فكان فرقانًا.

من أجل ذلك قال الله ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ....﴾ [هود:١].

وكما أنزل الفرقان على محمد ﷺ كذلك أنزل على الرسل قبله صلوات الله وسلامه على جميعهم.

قال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨].

وقال أيضًا جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ والفرقان ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٩].

وبما قاله رسول الله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[(١)].

فالفرقان أيضًا نور يؤتيه الله أهل العلم والتقوى، يفرقون به بين المشتبهات، ويبصرون به صور المعاني باطنًا، يميزون بها في بواطنهم بعضًا من بعض.

قال الله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا...﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن

---

(١) تقدم تخريجه.

رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

ومن قويت هذه الصفة في باطنه ثم ظهرت على لسانه أوتي فصل الخطاب، وتميزت صور معاني الموجودات في باطنه، فمتى نظر أبصر الحقائق، ومتى نطق عبر عن صور المعاني بالكلام القريب.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:٤] آياته هنا: تنزيله الكتاب المبين من حروفه إلى الحروف المقطعة المرسومة في أوائل السور التي هي آيات على تلك، وواسطة بينها وبين حروف القرآن، وتنزيله أيضًا الفرقان من لدن علمه المحيط بتعالي التفصيل وتفصيل التفصيل إلى أن جعله ﷻ نورًا في قلوب عباده، وفرقانًا في أثناء كتابه يقرؤونه بألسنتهم، ويميزون به معاني خطابه في بواطنهم، هذا خاص قوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾.

وعلى العموم بالقول في آياته في السماوات والأرض ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤] فالفرقان على هذا هو كلام الله جلّ قوله، وقول الله وإن كان منزلاً مُقرٌّ بالأسماع والأفهام ذلك قوله ﷻ: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] كذلك قال الله من قبل، وقال الله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ﴾ [النحل:٥١].

قول الله لا محالة ولا مرية فيه نزَّله روح القدس من لدنه إلى الروح الأمين إلى قلب الرسول ﷺ، ثم إلى لسانه الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ثم عنه إلى أصحابه إلى تابعيهم ينقله خلف عن سلف، والمنقول كلام الله وقوله العلي العليم، يتبين لنا بالحروف والأصوات المحمولة في الهواء بتقطيع الألسنة لها في مخارجها من القراء الناقلين، وهو غير حال فيهم إلا حفظًا وعيًا له، وعلى ذلك فقد وصفه ﷻ بما يوصف به الحال بقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وأما الصفة؛ فلا يجوز عليها انتقال ولا حلول ألبتة، كذلك قال: ﴿هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

فعلى هذا كلامه صفته العلية، فكلامه القرآن الذي نزله منه روح القدس، وقراءتنا وإن كانت مخلوقة محدثة؛ لأنها صفات لنا موجودة بنا توصف؛ أعني: القرآن

بأنها قرآن، وعلى هذا جاء قوله الحق: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا﴾ [الزخرف:٣].

وفي الفصل الذي قبل هذا قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا﴾ [يوسف:٢] من أجل هذه الشبهة حدث الجدال واشتجر الخصام، ولم يزالوا جاثيين على الركب يُخطِّئ بعضهم بعضًا ويُكفِّر بعضهم بعضًا.

وفصل الخطاب في ذلك: القرآن المنزل من ربنا ﷻ نزَّله لا يلحقه القول بالخلق ألبتة، ثم هو القرآن الذي قرأه لنا، لا ينطلق القول فيه بالخلق تعزيزًا وتعظيمًا له من أن هذه القراءة منا حاملة وناقلة لمعظم مُرفَّع عن القول بذلك، ومن حيث هي قراءة موجدة لنا عن نفس مقطع بواسطة لسان موزع للتقطيع على مخارج حلقية وهوائية وشفوية إلى غير ذلك فهي مخلوقة، والتعزيز والتوقير أولاً، ولهذه الشبهة امتنع كثير من السلف أن يصفوه بأنه مخلوق أو غير مخلوق؛ لنظرهم إلى هذا الفصل من الحملة أولاً تارة عملت في الجملة بخاصتها.

وهذه المسائل إنما اشتبهت فأشكلت من أنها تركبت من معاني احتملت فيها، فكانت في ذلك كخلقة آدم ؛ خلقه ربه ﷻ من تراب وماء، ثم أعمل فيها حرّ الشمس وبرد الهواء، ثم نفخ فيه من روحه، فكل عمل منه بخاصته، ومن موضع احتماله بتكوينه من تراب وماء وحر وبرد ما، ولا منفوخ فيه ما لا يوصف بموت، يحيا فلا يموت أبدًا، كذلك المخلوقات سواه لها وصف من حيث انفرادها موجود بها، وصف من حيث الاشتراك موجود بها ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

لذلك متى وصف آدم من حيث هو فالذم أقرب إليه، ومتى وصفه من حيث هو له وصفه محمود الوصف من الاصطفاء والاجتباء ونحو هذا.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:٥] كلام متصل معناه بمعنى اسمه الحي القيوم؛ إذ العلم من وصف الحياة والقيومية وبخاصة فيما هنالك لما ذكر الوحي والفرقان وتنزيلها، وجعل ذلك من آياته اتصف ﷻ بقوله الحق: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:٥] نزاعًا إلى حفظه في الذكر، وأنه يحتوش نبيه عند ذلك من الحق لما تباعد عنه الشياطين وآفات النفوس التي تذهل عن الذكر

ويذهب بجمعه.

قال الله جلَّ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢] أي: لا يخفى شيء دقَّ أو جلَّ في الأرض ولا في السماوات على من هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم، الخالق لكل شيء وموجده، مدبره ممسكه، كل ذلك في قبضته وتقليبه.

سرد قوله الحق عزَّ قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٦] على شمول علمه وإحاطة قدرته ومشيئته الشهادة والغيب، فاتصل بها معنى كاتصاله بها تلاوة، ويصورهم في الأرحام في ظلمات ثلاث، لم تعجزه صورة قط يصورها ما كرر شكلاً ولا ردد صورة، فقد خلق أول خلقه في البدء الأول ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام:١٤١].

سبحانه وله الحمد، أحاط بكل شيء علمًا ومشيئة وحكمًا، ما أراد قط إيجاد شيء إلا أوجده، ولا شاء شيئًا إلا أحكمه على ما قد شاءه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧] ذكر

---

(١) مناسبة هذا لما قبله أنه: لما ذكر تعديل البنية وتصويرها على ما يشاء من الأشكال الحسنة، وهذا أمر جسماني، استطرد إلى العلم، وهو أمر روحاني. وكان قد جرى لوفد نجران أن من شُبَهِهِمْ قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فبيّن أن القرآن منه محكم العبارة قد صينت من الاحتمال، ومنه متشابه وهو ما احتمل وجوهًا، ونذكر أقاويل المفسرين في المحكم والمتشابه، وقد جاء وصف القرآن بأن آياته محكمة، بمعنى: كونه كاملاً، ولفظه أفصح، ومعناه أصح، لا يساويه في هذين الوصفين كلام، وجاء وصفه بالتشابه بقوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] معناه: يشبه بعضه بعضًا في الجنس والتصديق، وأما هنا فالتشابه ما احتُمل وعجز الذهن عن التمييز بينهما، نحو: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠] ﴿وَأُتُوا بِهِ =

العلماء من السلف - رحمة الله على جميعهم - في المحكم والمتشابه غير ما وجه واحد، فمنهم من قال: المحكمات هن الناسخات، وهن التي فيهن التحليل والتحريم، وما أوجب الله الإيمان به والعمل. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ﷺ.

وقال غيرهم: هو ما لم ينسخ. قاله الضحاك.

=

مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي: مختلف الطعوم متفق المنظر، ومنه: اشتبه الأمران إذا لم يفرق بينهما، ويقال لأصحاب المخاريق: أصحاب الشبه، وتقول: الكلمة الموضوعة لمعنى لا يحتمل غيره نص، أو يحتمل راجحًا أحد الاحتمالين على الآخر، فبالنسبة إلى الراجح ظاهر، وإلى المرجوح مؤول، أو يحتمل من غير رجحان، فمشترك بالنسبة إليهما، ومجمل بالنسبة إلى كل واحد منهما، والقدر المشترك بين النص والظاهر هو المحكم، والمشترك بين المجمل والمؤول هو المتشابه؛ لأن عدم الفهم حاصل في القسمين. قال ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة، والربيع، والضحاك: المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ، وقال مجاهد، وعكرمة: المحكم: ما بيَّن تعالى حلاله وحرمه فلم تشتبه معانيه، والمتشابه: ما اشتبهت معانيه. وقال جعفر بن محمد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والشافعي: المحكم ما لا يتحمل إلَّا وجهًا واحدًا، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهًا. قال ابن زيد: المحكم: ما لم تتكرر ألفاظه، والمتشابه: ما تكررت، وقال جابر بن عبد الله، وابن دئاب، وهو مقتصى قول الشعبي والثوري وغيرهما: المحكم ما فهم العلماء تفسيره، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه: كقيام الساعة، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج عيسى.

وقال أبو عثمان: المحكم، الفاتحة، وقال محمد بن الفضل: سورة الإخلاص؛ لأن ليس فيها إلَّا التوحيد فقط، وقال محمد بن إسحاق: المحكمات ما ليس لها تصريف ولا تحريف، وقال مقاتل: المحكمات خمسمائة آية؛ لأنها تبسط معانيها، فكانت أمَّ فروع قيست عليها وتولدت منها، كالأم يحدث منها الولد، ولذلك سماها: أم الكتاب. والمتشابه: القصص والأمثال، وقال يحيى بن يعمر: المحكم الفرائض، والوعد والوعيد، والمتشابه: القصص والأمثال، وقيل: المحكم ما قام بنفسه ولم يحتج إلى استدلال، والمتشابه ما كان معاني أحكامه غير معقولة، كأعداد الصلوات، واختصاص الصوم بشهر رمضان دون شعبان، وقيل: المحكم ما تقرر من القصص بلفظ واحد، والمتشابه ما اختلف لفظه، كقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠] ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] و﴿قُلْنَا احْمِلْ﴾ [هود: ٤٠] و﴿فَاسْلُكْ﴾ [المؤمنون: ٢٧] وقيل: المتشابهات ما لا سبيل إلى معرفته، كصفة الوجه، واليدين، واليد، والاستواء، وقيل: المحكم ما أمر الله به في كل كتاب أنزله، وقال أكثر الفقهاء: المحكمات التي أحكمت بالإبانة، فإذا سمعها السامع لم يحتج إلى تأويلها؛ لأنها ظاهرة بينة، والمتشابهات: ما خالفت ذلك، وقال ابن أبي نجيح: المحكم ما فيه الحلال والحرام.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما وعنه - قال: هن الثلاث الآيات التي في آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء:٢٣] إلى آخر الثلاث الآيات من سورة سبحان.

وقالوا في المتشابهات: إنها المنسوخات. روي ذلك عن ابن عباس ﷺ، وما يؤمن به ولا يعمل به، والأمثال والأقسام.

وقال مجاهد ﷺ: المتشابه مثل قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

وأرى معنى قوله هذا ما يهدي به هؤلاء وما يضل به هؤلاء هن متشابهات في حقنا نحن، إنما هي مشيئة الله ﷻ ذلك وإلا فيما يهدي به المهتدون، فهو في حقهم غير متشابه، بل هو لبيانه عندهم اهتدوا به، وهو مثل قول ابن عباس والضحاك وقتادة ﷺ.

وقال آخرون: هو الذي يشبه بعضه بعضًا. وبه قال أبو عبيدة.

وقال محمد بن إسحاق: هو ما يتشابه في التأويل على المتأولين؛ يعني: ما أغمضه بعض الإغماض لتفاضل الناس في الاستنباط.

وقال ابن جبير ﷺ نحو هذا: هن آيات يشتبهن على المتأولين، فيتأولها كل آية على ما يعتقد من فواتح السور، هذا ما انتهى وهي تحتمل الوجوه، وإن كان الحق لا يكون إلا في وجه منها فيهدي الله ﷻ من يشاء.

وقال غيره: هو الذي يؤمن به ولا يعمل بما فيه، كقوله جلَّ قوله: ﴿المص﴾ [الأعراف:١] ﴿المر﴾ [الرعد:١] ونحو ذلك من فواتح السور. هذا ما انتهى إلينا من مذاهب أهل التفسير، اختصرنا بعضها؛ لتشابه أقوالهم وتقارب مذاهبهم.

وقد قسم الله تبارك وتعالى الحق من عباده، فأولاهم بالصواب من عبَّر تفصيل خطاب عن حقيقة المراد، وقد قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٧] أي: في قلبك؛ أي: في صدرك، و«قرآنه» أي: نجعله قرآنًا عربيًا على لسانك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨-١٩] أي: على لسانك وألسنة العلماء من العالمين.

والمحكم على ضربين:

- محكم يقارنه التفصيل: وهو الذي نعرفه نحن بالمجمل، وهي الحروف المقطعة.

قال الله جل من قائل: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ [هود:١-٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود:٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت:١-٣] وقد تقدم الكلام.

- ومحكم يقارنه المتشابه: وهو قوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧] فقد أخبر ﷻ أن الآيات المحكمات هن أم الكتاب، وهو معنى ما تقدم ذكره؛ إذ المجمل هو ما احتمل فيه الكل، وبالتفصيل يبلغ المراد به.

وهو في حديث رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ أول ما خلق القلم ثم اللوح المحفوظ، فقال للقلم: اكتب، قال: ما أكتب يا رب؟ قال: اكتب علمي في خلقي**»[١].

فهذا الكتاب احتمل فيه كل شيء كائن وغير كائن، وكيف يكون الكائن ومتى وبِم، ولِم لا يكون؟ وبأي سبب لا يكون؟ وهل يكون بسبب أو لا؟ وكيف يكون الكائن إذا كان؟ وكيف كان يكون ما ليس بكائن لو كان هذا إلى ما يعلم الله العليم الحكيم ولا يعلمه سواه؟.

وفي رواية أخرى: إنه قال جل قوله للقلم: «اكتب» قَالَ: «مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ:

(١) تقدم تخريجه.

[اكتبْ مقاديرَ كلِّ شيء وَمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يوم القيامة»][١] فالكتاب الأول الذي قال له جلَّ قوله: «اكتب علمي في خلقي» محكم لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات، ولا تلحق كنهه الأوهام.

ثم فصَّل منه ما عناه بقوله جلَّ قوله: «اكتب ما هو كائن» ثم فصَّل منهما ما عناه بقوله جلَّ قوله: «اكتب المقدار» وهو مقادير الكائنات يكونها وكيف تكون، وعلى أي وجه يكون ابتداءً وبسبب، والسبب لِم يكون وبِمَ؟ ونحو هذا، فإن كانت الكتب الثلاثة في اللوح المحفوظ مفصولة الذوات بعضها من بعض فذاك وإلا فهي معلومة مفصلة.

وأسر ﷻ في الكتابين الثاني والثالث المحو والإثبات لمشيئته العالية، ولذلك قال جلَّ قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] وهو الكتاب الأول الذي تقدم الكلام فيه.

وعن ذلك إثارة النسخ في الكتب المفصلة منه، وفي الشرائع المشروعة، وعن ذلك كان انقضاء المدة في الكائنات ووجود الحوالات، وذلك بتداوير محكمة التدوار بتقدير العزيز العليم، ذلك عليه يسير، يعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المعلومات بعلم واحد، كذلك يكتبها بكتاب واحد جملة واحدة، كما هو واحد لا ريب فيه المعلومات فيه محكمة، ثم فصلها ﷻ بعد إذ شاء كيف شاء جملاً محكمة مفصلة الذوات تفصيلاً بعد تفصيل، فالجملة الأولى أم التفصيل كله الذي تحتها، ثم ما تحت كل تفصيل أم لما تحته.

ولا تزال الجمل محكمة يصحبها التفصيل، يصحب الجمل وكل محكم هكذا إلى غير غاية يدركها الإنسان، وكذلك التفصيل يصحبه منه التدبير، والتدبير يصحبه التفصيل كذلك، وهو أعلم ﷻ.

قال عز قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:١٢].

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ [الرعد:٢].

وأما من قال: «إن النسخ هو المتشابه» فهو لما يقف عليه إن شاء الله تعالى

---

(١) ما بين [ ] سقط من النسخة (ق) واستدرك من (ف) ومصادر الحديث.

النسخ، قالوا ثلاثة أضرب:

أحدها: أن ينسخ المأمور به قبل الامتثال، وهو النسخ على الحقيقة، وقد جاء في القرآن العزيز شرعًا لنا أيتها الأمة، وهو في قوله جلَّ قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ [المجادلة:١٢].

ثم نسخه ﷻ قبل أن يمثل رحمة منه وفضلاً بقوله جلَّ قوله: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ...**﴾ [المجادلة:١٣] المعنى إلى آخره.

وعلى هذا الضرب جاء ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، وهو قليل، وجاء من هذا الضرب أيضًا متوجهًا على إبراهيم ﵇، وهو أمره ﷻ بذبحه ولده، ثم نسخه ﷻ عنه قبل امتثال الفعل.

والقسم الثاني: يسمى نسخًا تجوُّزًا، وإنما النسخ الحقيقي ما تقدم ذكره، ولكنه نسخ لا محالة، وهو ما نسخه الله عنا وقد كان أوجبه على من كان قبلنا في كتابه، وأمرنا نحن به أمرًا جميلاً، ثم نسخ ذلك عنا بما شاءه، كنسخه التوجه إلى البيت المقدس بالتوجه إلى البيت الحرام، وإنما كان مأمورًا به من كان قبلنا ونزل عليهم في كتابه.

ثم قال للرسول ﷺ في القرآن العزيز: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام:٩٠] فوجب علينا اتباعهم حتى ينسخ ﷻ ما شاء من ذلك بما شاء، في ذلك قال عز من قائل: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة:١٠٦] أي: ما ننسخ عنكم مما أوجبته على من كان قبلكم من آية نأتِ **بخير** منها أو مثلها.

ومن ذلك أيضًا: نسخه ﷻ وجوب صوم يوم عاشوراء بوجوب شهر رمضان ونحو هذا، فكان ذلك نسخًا لما تقدم في شرع من كان قبلنا لا نسخًا للقرآن.

والقسم الثالث: الذي ذكروه ما أمر به المسلمون حين الضعف والقلة من الصبر على الانتصار والمغفرة الذين لا يرجون أيام الله ونحو هذا.

قالوا: ثم نسخ ذلك عنهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد والقتال ونحو هذا، وهذا ليس بنسخ، وإنما هو نسي كما قال ﷻ: ﴿**أَوْ نُنسِهَا**﴾

فالمنسوء هو الأمر بالقتال، وقد تقدم الكلام في هذا.

ألا ترى أنه بقي رسمه إرصادًا للمعنى الذي عناه رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[1].

وهذا كله كان في حياة رسول الله ﷺ متوقعًا، وقد انقطع الوحي ونزل الشرع منازله، ولا مبدل لكلمات الله، فلو كان النسخ والمنسوخ هو المتشابه؛ لعدم المتشابه في القرآن، وآمن كونه من الضرب الثاني من المحكم، وهو الذي يقارنه المتشابه، والمحكم هو إمام المتشابه، وهو مفصول ومفصَّل من المحكم، فالمحكم أم للمتشابه وجامع له، والمتشابه يؤمه يقول: يأتم به، كذلك قال الله جلَّ قوله: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران:٧].

والمتشابهات من الكتاب المحكمات منه أُمٌّ لها، والمتشابه على ضروب، منها: أن يكون بمعنى المشكل والمختلط، كما قال ﷻ ووصف بعض الموجودات: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**﴾ [الأنعام:١٤١] أي: مؤتلف بعضه ببعض، مختلط، متداخل.

وهو على غير ذلك متشابه لا يشبه بعضًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿**يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ**﴾ [الرعد:٤] كذلك في الرائحة، كذلك في النفع والضر وغير ذلك، فهذا الضرب منه يحتاج إلى التوقيف والبحث من أين منبعث الخطاب، وإلى حيث الوجهة به حتى يتخلص صحيح المتميز ويبدو منه سواء المراد، وعلى قدر قرب المتشابه وخفاء المراد به ما هو يحتاج فيه إلى ترداد التذكر والتفكر، وهذا الضرب كثير الموجود متسع.

ومنه قوله ﷻ: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ**﴾ [الزمر:٢٣] فلكونه متشابهًا ربما جاء ذلك في ذكر الأسماء والصفات الكاملة العلا؛ لنزول ما في

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥)، والترمذي (٢٨٣٨)، وابن ماجة (٣٩٨٦)، وأبو يعلى (٦١٩٠)، والطبراني (٦١٤٧)، والدارمي (٢٨١١)، وأحمد (٣٨٥٧)، والبيهقي في الشعب (٩٥٣٩).

الخطاب لما يراد به من التقريب للأفهام والتيسير لما جاء به أيضًا من الامتحان والابتلاء، فتقشعر لذلك جلود الذي يخشون ربهم خشية من ربهم ﷻ أن يصفوه بما لا يجوز عليه، فإذا تذكروا على أمهات ذلك المتشابه لانت جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله تعالى أُنسًا به وحُبًّا له، وفرحًا برحمته وتوسعته في ذلك.

ووصفه ﷻ الكتاب بأنه مثاني يثني بعضه على بعض، فيظهر خطابًا ما ثم يبطنه، وفي حال إبطانه هذا يظهر غيره، وهكذا قبله بالمجاورة لما بطن قبله وجه، ولما ظهر بعده وجه هذا بالمجاورة، وله بالمعنى وجوه في ظهوره وانثنائه.

وقد يكون إبطانًا قريبًا كما يثني الحبل فاتله، وهو قليل، ويسمى ذلك المقدم والمؤخر والظاهر والباطن، وقد يكون ظهور الثاني بعيدًا من ظهور الأول، كما يظهر صانع الديباج في صنعته أنواع تدبيجه ويبطنها، وإنما هذا على سبيل التقريب، وليس المخبر كالمعاين.

وقد يكون المراد بوصفه ﷻ أنه مثاني؛ يعني: الآيات أو المعاني أو الكلمات أو كل ذلك، وهو أن يقرأه العبد ويثني على الله ﷻ كلامه العليّ تلاوة عنده ذاكرًا له بما يتلوه من معاني الكتاب، كما قال الله عز من قائل: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفي؛ نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾** [الفاتحة:٢] **يقول الله: حمدني عبدي...**»[١].

كقوله جلَّ قوله في أواخر سورة البقرة: «**قد فعلت، قد فعلت، نعم، نعم، نعم**»[٢] وذلك في معنى الذكر، وهذا في معنى السؤال والدعاء، فإنه ليس ببعيد أن تعم رحمته جميع تُلاة الكتاب كما قال جلَّ قوله: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾** [البقرة:١٥٢].

وكما قال جلَّ قوله: «**أنا جليس عبدي ما ذكرني، وما تحركت بي شفتاه**»[٣].

قال: قال جلَّ قوله هذا في الذكر، وقد حصل الإجماع أن قراءة القرآن أفضل

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم (١٨٢٤)، والبيهقي (٥٠٩)، والديلمي (٤٥٣٣).

الذكر، فعلى هذا ونحوه يكون الكتاب كله مثاني؛ إذ يثني بعضه على بعض، ويثني كلامه العُلا على معاني تلاوة عبده، وهذا الضرب من المشابهة، والذي قبله مفتقر إلى معرفة التوصل في الخطاب والتفصيل وحسن التمييز في تلفيق مفترق معاني التنزيل على مقادير حكمة الترتيب، وذلك على قدر إجزال الحظ لهذا العبد من المعنى الذي يسمى الفرقان، فإن هذا القرآن أشبه ترتيب نظمه تفضيل الماء المنزل من السماء إلى الأرض إلى ما يكون عنه من نبات وحيوان وأناسي إلى غير ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾[1] [الرعد: ٤]

---

(١) فيه خمس مسائل: **الأولى**: قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ في الكلام حذف، المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات، كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾ والمعنى: وتقيكم البرد، ثم حذف لعلم السامع، والمتجاورات المدن وما كان عامرًا، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر. **الثانية**: قوله تعالى: ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: قرى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والتمر، فيكون البعض حلوًا، والبعض حامضًا، والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد، وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته، فإنه نبه سبحانه بقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف، وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع، فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما، وهذا أيضًا من دلالات كمال قدرته، جل وعز تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا. **الثالثة**: ذهبت الكفرة - لعنهم الله - إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع، وادعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض، وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً، والدليل على أن الحادث لا بد له من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه، وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مخصص خصصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، واستيفاء هذا في علم الكلام. **الرابعة**: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ قرأ الحسن «وجنات» بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات، الباقون: «جنات» بالرفع على تقدير: وبينهما جنات ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع، ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفًا على الجنات، أي على =

إلى آخر المعنى، فالماء أولاً هو المحكم بمنزلة الحروف المقطعة، وأسماء الله المذكور في القرآن ما يفصل إليه الماء مما تقدم ذكره، كالذي تفصلت إليه الأسماء من معنى ومراد به، فهذا متشابه أمه المحكم الذي فصل منه.

وضروب من المتشابه أيضًا هو مما يفصل إليه المحكم الأول، وهو الحلال والحرام، ومتعرفه إن كان ناهيًا في العلم متبحرًا في الأصول والفروع، عالـمًا بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، عارفًا بوضع الأدلة من جهة العقل والشرع، عالـمًا بطريق

=

تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل، وخفضها الباقون نسقًا على الأعناب، فيكون الزرع والنخيل من الجنات، ويجوز أن يكون معطوفًا على «كل» حسب ما تقدم في «وجنات» وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما «صنوان» بضم الصاد، الباقون بالكسر، وهما لغتان، وهما جمع صنو، وهي النخلات والنخلتان، يجمعهن أصل واحد، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلاً، نظيرها قنوان، واحدها قنو، وروى أبو إسحاق عن البراء قال: الصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق، النحاس: وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان، والصنو المثل، ومنه قول النبي ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه» ولا فرق فيها بين التثنية والجمع، ولا بالإعراب، فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية إلا بجمع ذا وذاك معًا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد، قاله النحاس والبخاري، وقرأ عاصم وابن عامر: «يسقى» بالياء، أي يسقى ذلك كله، وقرأ الباقون بالتاء، لقوله: «جنات» واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة، قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن، لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ ولم يقل بعضه، وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما «ويفضل» بالياء ردًا على قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾ و﴿يُغْشِي﴾ الباقون بالنون على معنى: ونحن نفضل، وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول لعلي رضي الله عنه: «الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ و﴿الأُكُلِ﴾ الثمر، قال ابن عباس: يعني الحلو والحامض والفارسي والدقل.

وروي مرفوعًا من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في قول تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ قال: «الفارسي والدقل والحلو والحامض» ذكره الثعلبي، قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل، ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر، والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد، ومنها شجر ينضج طول الدهر قطران ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى.

الإيجاب وطريق المواضعة في اللغة والشرع، عالمًا بأصول الديانات وأصول الفقه، عالـمًا بأحكام الخطاب من العموم والخصوص والأمر والنهي والمفسر والمجمل والنسخ والنص وحقيقة الإجماع، عالمًا بالآثار والأخبار وطرقها والتمييز بين صحيحها وسقيمها، عالمًا بأقوال العلماء من الصحابة والتابعين بعدهم - رضي الله عنا وعنهم أجمعين - وما اختلفوا فيه وما اجتمعوا عليه، عالمًا من النحو والعربية ما يفهم به معاني كلام العرب، ويكون مع ذلك فهمًا فطنًا تقيًّا دينًا، فعلى هذا مداره بعد توفيق الله له وبذل الاجتهاد منه، فإذا كان العالم هكذا قل هذا المتشابه في حقِّه ورق، وذلك على قدر ارتفاعه في صحيح العلم واحتوائه على ما تقدم من النعوت وبالضد.

قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما متشابهات لا يعلمها كثير من الناس**»[1].

وضرب من المتشابه هو الحروف المقطعة في أوائل السور من القرآن العزيز، أشبهت لكونها حروفًا لحروف القرآن وحروف أم الكتاب التي هي أم لها فكانت من المتشابه من هذه الجهة؛ إذ قد أخبر الله جلَّ ذكره إنها آيات الكتاب المبين وآيات الكتاب الحكيم، وآيات القرآن والكتاب المبين، وإنها أحكمت ثم فصلت إلى ما هو القرآن العزيز.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران:٧-٩].

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٢٩)، والترمذي (١٢٠٥)، وأحمد (١٨٣٩٨)، والنسائي (٤٤٥٣)، وابن ماجة (٣٩٨٤)، والدارمي (٢٥٣١).

[هود:١] دليل على أنها بمعنى المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧] ثم المتشابه هو ما لا يفهم المراد به من لفظه.

ثم على ما تقدم ذكره من المتشابه وما يأتي إن شاء الله تعالى فهذا الضرب من المتشابه لا سبيل لأحد من الأمة، والله أعلم أن يعرف القدر الذي عبرت عنه الحروف من أم الكتاب، ومجال أفهامنا برد التنزيل من حروف الكتاب إلى الحروف المقطعة «الـم» و«الر» و«المر» ونحو ذلك، ثم المقدار الذي هو تنزيلها مما هي عليه حروف القرآن العزيز المجموعة، ثم التسليم والإيمان وإذ أمه ومحكمه الأولى الكتاب الكريم المحفوظ الذي ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] صلوات الله عليهم أجمعين.

وإنما قلنا: «مجال أفهامنا» نريد القرآن وحروفه بعد اعتقادنا ما تقدم ذكره من أنها آيات على ما علاها مشيرة بوسائطها إلى ما دونها في القرآن العزيز وفي حروفه وفي معاني خطابه من محكم فيه ومجمل وظاهر وعموم وخصوص ومفصل وموصل وأمر ونهي وفحوى وخطاب ومعنى خطاب إلى ما وراء ذلك، وضرب من المتشابه يأتي في تفصيل ذكر الصفات العلا والأسماء الحسنى، وذكر بعض الأفعال وما كان في ذلك من تنزل الخطاب وضرب أمثال، وعبارة عن مكان أو زمان أو معية أو ما يوهم التشبيه، فيحكم رأي قوله جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

وقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ...﴾ [الإخلاص:١] إلى آخرها.

وضرب من المتشابه ثاني: تفصيل ذكر النبوة ووصف إلقاء الوحي، وما هو أمه، ولحكمة قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤].

وقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة:٢٦٨].

وضرب من المتشابه مما يقارب بين اللمتين: لمة الملك عليه السلام ولمة العدو -

لعنه الله - وأم ذلك قوله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ لذلك قال جلَّ قوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] أي: عنه مما يلقي العدو ويريد الإلباس والتزيين.

قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ أي: ميل عن الحق وعدول إلى الباطل، فيتبعون ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧].

وبالجملة: فإن تشابه القرآن هو تصادقه وتعاضده، ومشتبهه هو المشكل منه، ومتى قال القائل: تشابه لي كذا وكذا، فهو من أشبه يشبه فهو المتشابه، وإذا قال: تشابه علي كذا وكذا، فهو المشتبه الذي هو الإشكال والتحير؛ ذلك لأجل شبه بعضه ببعض، وعند إعمال النظر والتفكر في المتشابه والمشكل يُلقى الشيطان، وواعظ الله في قلب المؤمن يزجر، وعند وجود الاعتدال وقصد الحق تبيين الآيات، وتدل الدلائل مع وجود الزيغ والميل إلى الباطل، والتقوى يلقى الشيطان ويخفي إشارات المرشدات ويعرض العصمة عنه، فيعمل كلٌّ على شاكلته، وقد تقدم إلماع إلى تلقي المتنبئ والنبي، وإنهما بمعنى المريد والمراد.

فأما مثل النبي والمتنبئ كمثل المريد والزائغ، وكل هادي من محله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي: اتباع عزم وعقد، دليل ذلك قوله: ﴿ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧] أي: ما يفتن عن الحق الذي عني به قوله.

وعلى التفصيل فالفتنة بما هنا يتناوله ما هو طريق الإيمان والعلم بالله والرسالة، فيتبعون بذلك عن صحيح العلم والإيمان، وابتغاء تأويله أي رؤية تأول إليه معجلاً، كقول المكذبين: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] متى هذا الفتح.

﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

وأما أهل العلم والإيمان والهداية والصراط السوي فحمدوا الله عليه، وما أعجزهم سألوه المزيد من نعمته، وردُّوا علمه فيه إليه، وأخلصوا الإيمان له مما أدركوا علمه وبما عجزوا عنه، فأثنى الله ﷻ عليهم لصحة سبيلهم وتحقيقهم في

طلب العلم، ووصفهم بأنهم أولوا الألباب.

ثم استغاثوا - رضي الله عنا وعنهم - متعوذين به مما أصاب أولئك في ابتغائهم فيما ترك إليهم من كتاب ربهم من زيغ وفتنة بقولهم: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾[1] [آل عمران:٨].

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم:٧] وما يبتغي عبد مزيد النعمة بمثل الإقرار بالتقصير، والإرزاء على النفس، ورد النعمة إلى الله جلَّ ذكره والشكر على ذلك.

التأويل على ضربين:

ضرب منه معلوم: من أَوَّلت الشيء أَحَدتُه[2] من أوله ورددته إليه، كتأويل الرؤيا أولتها؛ أي: صرفتها إلى أولها من أم الكتاب الذي ابتدأت منه.

ومن ذلك تأويل الأمثال تأولتها: صرفتها إلى ما ضربت له أمثالاً، ومن أجل ذلك ألحقت الأمثال بالمتشابه.

قال الله ﷻ: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت:٤٣].

والضرب الثاني من التأويل: مأخوذ من المآل، وما يرد منه إلى ما يؤول إليه، فما كان من الخطاب في وصف الأسماء الحسنى والصفات العليا والنبوة وضرب الأمثال، فصرفه إلى أوليته أولى به، وما كان من خطاب في وصف الجزاء العاجل والآجل، والثواب والعقاب والموت وما بعده، ثم البعث وما بعده يصرف إلى مآله أولى به، وفي ذلك الشفاء والرحمة إن شاء الله.

وفي مثل هذا قال الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى**

---

(١) ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ سألوا بلفظ الهبة المشعرة بالتفضل والإحسان إليهم من غير سبب ولا عمل ولا معاوضة؛ لأن الهبة كذلك تكون، وخصوها بأنها من عنده، والرحمة إن كانت من صفات الذات فلا يمكن فيها الهبة، بل يكون المعنى: نعيمًا، أو ثوابًا صادرًا عن الرحمة، ولما كان المسؤول صادرًا عن الرحمة، صحَّ أن يسألوا الرحمة إجراءً للسبب مجرى المسبب، وقيل: معنى رحمة توفيقًا وسدادًا وتثبيتًا لما نحن عليه من الإيمان والهدى. [تفسير البحر المحيط (١٥١/٣)].

(٢) يقال (حِدتُ بِهِ) و(أَحَدتُه) مثل ذهب وذهبت به وأذهبته. انظر: المصباح المنير (١٥٨/١).

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ....﴾ [الأعراف:٥٢-٥٣].

فإذا كان بمعنى المآل كان الوقف على اسم الله جلَّ ذكره؛ لأنه لا يعلم متى يموت العبد، ولا متى تكون الساعة والحساب وانقراض الدنيا وابتداء يوم الآخرة إلا الله؛ إذ المستقبل كله غيب.

وإذا كان بمعنى رد المعنى إلى أوله، فالوقف على قوله جلَّ قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧].

وفي حرف أُبي وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1] زيادة، ويقول: ولما قد أعلمتنا بما في علم الراسخين في

---

(١) قال الشريف الرَّضي: فبين العلماء فيه اختلاف: فمنْهُم مَنَ جعلَ الوقف عند اسم الله تعالى واستأنف قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فمَنْ ذهبَ إلى هذا المذهبِ منهم يُخرج العلماء عن أن يعلموا كُنْه التأويل وحقيقته، ويطّلعوا طلعه ويستنْبطوا غوامضُه، ويستخرجوا كوامِنُه، وحطّهم بذلك عن رتبة قد استحقوا الإيفاء عليها واطّلاع شرفها؛ لأنّ الله سبحانه قد أعطاهم من نهج السبيل، وضياء الدليل ما يفتتحون به المبهم، ويصدعون المظلم، وكل ذلك بتوفيق الله إيّاهم ونصب منار الأدلة لهم، فعلمهم بذلك مستمدٌ من علم الله سبحانه، فلا معنى للوقوف بهم دون هذه المنزلة، والإحجام عن إيصالِهم إلى أقصى هذه الرتبة. وأمّا الذين يجعلون الوقف عند قوله تعالى: ﴿وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فيوفّون الاستثناء حقّه بإدخال العلماء فيه، ويجعلون لهم مَزْية العلم بتأويل القرآن، ومعرفة مداخله ومخارجه، وسلوك محاجّه ومِنْاهجه، وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس ومجاهد والربيع. فأمّا المحققون من العلماء فيقفون في ذلك على منزلةٍ وسطى وطريقةٍ مُثْلى، فلا يخرجون العلماء هاهنا عنْ أنْ يعلموا شيئًا من تأويل القرآن جملةً، ولا يعطونهم منزلة العلم بجميعه، والاستيلاء على قليلهِ وكثيرهِ بل يقولون: إنّ في التأويل ما يعلمه العلماء، وفيه ما لا يعلمه إلّا الله تعالى من نحو: تعيين الصغيرة ووقت الساعة، وما بيننا وبينها من المدة، ومقادير الجزاء على الأعمال، وما أشبه ذلك، وهذا قول جماعةٍ من متقدمي العلماء: منهم الحسن البصري وغيره، وإليه ذهب أبو عليّ الجُبّائيّ؛ لأنّه يجعل المراد بالتأويل في هذه الآية مصائر الأمور وعواقبها، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: مصيره وعاقبته؛ لأنّ أصل التأويل من قولهم: آل يؤول إذا رجع. وفي قول الراسخين في العلم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] دَلالة على استسلامهم فيما لم يعلموا من تأويل المتشابه، وما استبدّ الله بعلمه من قبيل ما ذكرنا: كوقت القيامة، وتميز الصّغائر من الكبائر، إلى ما أشبه ذلك، فقد بان أنّ
=

=

في تأويل المتشابه ما لا يعلمونه، وإن كانوا يعلمون كثيرًا منه. وقال قاضي القضاة أبو الحسن بعد ذكره طرفًا من الخلاف في هذه الآية: وما يقوله من حمل العطف على حقيقتِه، وجعل للعلماء نصيبًا من علم التأويل على تفصيله أو جملته إمّا أنْ يكون المراد بذلك عنده: وما يعلم تأويله إلا الله وإلا الراسخون في العلم، ومع علمهم بتأويله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أو يكون المراد أنّهم يعلمون تأويله في حال قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ومَنْ قال بذلك استدلّ بظاهر العطف وأنّه يقتضي مشاركة الثاني للأول فيما وُصِفَ به الأول وأُخْبِرَ به عنّه، وقال: إذا أمكن ذلك وأمكن حمل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ على الحال أو على خبرٍ ثانٍ وَجبَ القول بذلك، ولِكلا الوجهين مسرحٌ في طريق اللغة، وإنّما ينبغي أنْ ننظر من جهة المعنى، فإنْ ثبتَ بالدليل صحة أحد المعنيين قُضِيَ به، وإلّا لم يُمْتنع أنْ يرادا جميعًا إذا لم يقع بينهما تنافٍ. فأمّا من قرأ حمئة من الحمأة، فإني قرأت بذلك على شيوخ القراءة لابن كثير ونافع وأبي عمرو وحفص عن عاصم، وأمّا من قرأ حامية من الحمْي فإني قرأت به لحمزة والكسائي وأبي بكر بن عياش عن عاصم وعبد الله بن عامر، وقد ظن بعض الناس أنه لا يجوز إلّا أنْ يكون تمام الكلام ومقطعه عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ﴾ [آل عمران: ٧] وأن الواو للاستقبال دون الجمع، قال: لأنّها لو كانت للجمع لقال: ويقولون: آمنا به، فيستأنف الواو كما استأنف الخبر، واحتج على هذا القول مَنْ قال بالقول الأول، بأن قال: هذا جائز، وقد وُجد مثله في القرآن وهو قوله تعالى في معنى قسم الفيء: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلله وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ثم أعقب ذلك بالتفصيل وتسمية من يستحق هذا الفيء، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ [الحشر: ٨-١٠] وهؤلاء لا شك داخلون في مستحقي الفيء كالأولين، والواو ها هنا للجمع. ثم قال سبحانه: ﴿يقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] ومعناه قائلين: ربنا اغفر لنا ولإخواننا، فكذلك قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] يكون معناه: والراسخون في العلم يعلمون تأويل ما نصبت لهم عليه الدلائل، ونحيت لهم إليه المذاهب من المتشابه قائلين: آمنا به. واذا كان ذلك سائغًا في اللغة وجب حمله على موافقة دلالة الآية في وجوب ردّ المتشابه إلى المحكم، فيعلم الراسخون في العلم تأويله إذا استدلوا بالمحكم على معناه، ولو كان العلماء لا يعلمون شيئًا من تأويل المتشابه البتّة ما كان لما روي أن رسول الله ﷺ علّم أمير المؤمنين ﵇ التفسير معنًى، لأن معنى التفسير والتأويل إنما يكون لما غمض ودقّ ولم يعلم بظاهره وهذه صفة المتشابه، وأمّا المحكم

=

العلم من القصور عن علم أكثره والعجز عن بلوغ الكنه منه.

نظم به ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] أي: ما علمناه منه وما لم نعلم في كلا الوجهين، قد ذكر ﷺ المعنيين معًا من الطريقين في قوله جلَّ قوله حاكيًا عنهم ابتهالهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا....﴾ [آل عمران:٨].

وقال جلَّ قوله في مقالة القائلين: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ﴾ [يونس:٤٨] وهم يتبعون ما يؤول إليه من جزاءٍ ووقتٍ وكيف: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ

=

الذي يعلم بظاهره فلا حاجة بأحدٍ إلى تعليمه؛ لأن أهل اللسان فيه سواءٌ، ولولا أن الأمر على ذلك لما كان لدعاء النبي ﷺ لابن عباس بأن يعلمه الله التأويل معنى؛ لأنا نعلم أنه لم يرد ﷺ تعليمه الظاهر الواضح، فلم يبق إلا الغامض الباطن. ومن وجه آخر: إن حقيقة الواو الجمع، فوجب حملها على سنن حقيقتها ومقتضاها، ولا يجوز حملها على الابتداء إلا بدلالة، ولا دلالة هاهنا توجب صرفها عن الحقيقة، فوجب حملها على الجمع، حتى تقوم الدلالة، وكان أبو حاتم السجستاني يقول: إن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهَ﴾ [آل عمران: ٧] لأنه قد حذف من الكلام «أمّا» وكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به، وزعم أنه إنما جاز حذفها؛ لأنه قد جرى ذكرها وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] قال: و(أما) لا تكاد تجيء في القرآن مفردة حتى تثنى أو تثلث أو تُزاد على ذلك، كقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] وكقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩] ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠] ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٢] فلما قال سبحانه: ﴿فَأَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] قدّرنا أنّ «أمّا» مرادة مع (الراسخين في العلم) فكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم. وكلام أبي حاتم في ذلك غير سديدٍ ولا مطردٍ؛ لأنه قدّر في الكلام حذف (أمّا)، وذكر أنها تقع في القرآن كثيرًا مكررةً، ولعمري إن الأمر كما قال من وقوعها مكررة في القرآن، وما علمناها جاءت فيه مرادةً محذوفةً، وكان ينبغي أن يُرينا من القرآن موضعًا هي فيه مرادة وقد حذفت؛ ليكون شاهدًا على ما ذكره، فأما أن يستشهد بتكريرها على حذفها فذلك غير مستقيم، ولو كان الأمر على ما قال لكان وجه الكلام أن يقول تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ فيعلم أن الموضع لأمّا، وإلا لم تكن على ذلك دلالة، ولا يجوز الوقف على العلم في الوجهين جميعًا؛ لأن ما بعد العلم يكون حالاً في أحد الوجهين وخبرًا في الآخر، والوقف التام على «به» وقد أوردنا في هذه المسألة ما فيه بلاغٌ مقنعٌ بتوفيق الله تعالى. [حقائق التأويل ص١٦٣] بتحقيقنا.

﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩] وقد يأتي بعض التفصيل ما لم تكن العقول أن تعهده، ولا آنست إليه أكثر القلوب، ولولا رحمة الله في التنزيل ببعض الخطاب لما جوزه الإيمان، كذكره ﷻ الاستواء على العرش وإلى السماء بحرف «ثم».

وقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى﴾ [الزمر:٤].

و﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

وكقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٩٥].

محكم هذا وأمه قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وكذلك قوله عز قوله يخاطب إبليس - لعنه الله - جوابًا لقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء:٦٢-٦٣] إلى قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء:٦٤].

فمحكم هذا وأمه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ....﴾ [النحل:٩٠].

قوله عزَّ من قائل: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

الرسوخ والولوج والدخول من ظاهر إلى باطن، من قولهم: رسخ السهم في الأرض إذا ثبت فيها ودخل فيها، فالرسوخ في العلم هو الدخول من ظاهره إلى باطنه؛ وذلك بأن يعبر بما عقله وأبصره ظاهرًا إلى ما لم يبصره ولا عقلها ظنًّا، فيبصر ببصيرته ما غاب عنه.

وإنما موقع بصره سماء وأرض وأفلاك تستدير وشمس وقمر ونجوم وهواء ورياح وسحاب ونبات وحيوان، وغير ذلك من موجودات الدنيا، فيعبر من جميع ذلك إلى الخالق، ومعرفة الصانع ﷻ وأسمائه وصفاته، ومعرفة الدار الآخرة

وموجوداتها من جنة ونار وموجوداتهما، فهذا هو الرسوخ في العلم، والولوج من ظاهره إلى باطنه، وهم أضداد المعتدين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران:٤].

والسبيل المرتضى في طلب التأويل أن يبذل المجتهد جهده في طلب الحق، ويرغب إلى الله جلَّ ذكره في إصابة الصواب، فما فتح الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عليه من الحق المبتغى حمد الله تعالى على ذلك، وما اغتم عليه منه ردَّ علم تأويله إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ والراسخين في العلم، فذلك أسلم من الفتنة وأجدر له أن يعلمه الله ويفتح عليه، فطالب التأويل في الكتاب والسنة طائع، وفعله ذلك طاعة كبيرة وقربة إلى الله تعالى وزلفى إذا صحَّت النية، وسلم المقصد من الزيغ والفتنة.

وقد دعا رسول الله ﷺ لابن عباس ﷺ: «**اللهم حفِّظه الكتاب وعلمه التأويل**»[1].

فصل

قُراء القرآن صنفان: مؤمن به، وكافر مكذب به؛ فالكافر المكذب لا يجد فيه إلا ما يضله ويزيده خبالاً؛ إذ قلبه زيغ به عن سبيل القصد.

قال الله جل من قائل: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

وفي هذا الصنف قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً.....﴾ [الأعراف:١٤٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٢)، والطبراني (١١٥٣١)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٦)، وابن سعد (٢/ ٣٦٥)، والحاكم (٦٢٨٠) وقال: صحيح الإسناد.

ثم قُراء المؤمنين ثلاثة أصناف: فقارئ القرآن ليقال: إنه قارئ، أو لينال به ما بأيدي أهل الدنيا وليستدرؤوا به الولاة، وذلك حظهم منه أصابهم أم أخطأهم، وهؤلاء هم القارئون والدارسون ليسوا بالتالين.

وصنف منه قرأه متبركًا مخلصًا؛ ليتقرب بنية استرضاء ربه ويكثر حسناته، وما يصلح به في معاده، فذلك له - إن شاء الله تعالى - فهذا قارئ للكتاب دارس له تالي.

وصنف منهم قرأه ابتغاء صحيح العلم وطلبًا لكمال اليقين، فنظر بقلبه واستفرغ جهده، وتابع التفكر فيه والتذكر، وأدام التدبر عارفًا بربه ﷻ عالـمًا بمعاني الخطاب ومواقع الابتلاء، فهذا من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧-١٨] وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته.

فصل

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن المتفكر في القرآن لا يجد فهم معاني الوحي وحقيقة الأبناء، ولا يشهد المخاطب، ولا يظهر له سرائر العلم من غيب القدرة وفي قلبه أحد هذه الخصال بدعة أو إصرار على ذنب، أو يكون في قلبه كبرًا وهوى، أو قد استكن فيه حب الدنيا، أو يكون غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف اليقين، أو يكون معتقدًا لمقرأ شيخ منهم يتتبع حروفه واختياره ويكون قد اعتمد على قول مفسر ليس عنده علم إلا بظاهر.

أو يكون راجعًا إلى معقوله قاضيًا بمذهب أهل العربية في باطن المراد وسر الخطاب؛ إذ هؤلاء كلهم قد حجبوا بما هم عليه موقوفون؛ لأن ذلك يتردد في بواطنهم مزيدهم على مقادير علومهم وغرائز عقولهم، وهم مشركون بعقولهم عند أهل التوحيد الأعلى، داخلون في الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل على الصفا، وهو نفاق عن خالص التوحيد الأعلى.

وهو على ذلك مقام لا ينتقل عن حال التوحيد الأول، وإن كان مانعًا عن الوصول إلى أعلاه، بل إذا كان العبد مصغيًا إلى كلام ربه، ملقي السمع شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئًا

من حوله وقوته، معظمًا للمتكلم، واقفًا في حضوره، مفتقرًا إلى التفهم بحال مستقيم وقلب سليم، وقوة علم وتمكين سمع لفصل الخطاب، وشهادة غيب الجواب بدعاء وتضرع وتَبؤس وتمسكن، وانتظار الفتح عليه من عند الفتاح العليم.

وليستعن على ذلك بأن تكون تلاوته على معاني الكلام، وعلى شهادة وصف المتكلم الوعد بالتشويق والوعيد بالتخزين، والوعظ بالتخويف والإنذار بالتشديد، فهذا القارئ أحسن الناس صوتًا بالقرآن، «فقد كان رسول الله ﷺ إذا خَطَبَ فوعظ وأنذر احمرَّ وجهه، وَاشْتَدَّ كلامه كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ حَتَّى يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»[١].

وفي هؤلاء قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٠-١٣].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُم مِّنَ الله شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٠] الوقود بفتح الواو: الحطب، وبرفعها: اللهب.

لما ذكر التالين لكتابه المؤمنين بآياته، وابتهالهم في سؤالهم إياه ألا يزيغ قلوبهم، ويغير هدايته إياهم، وذكر إقرارهم بأنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه، وإنه لا يخلف الميعاد ذكر ﷻ الكافرين وقرن بذكره إياهم المعد لهم.

قال الله جلَّ قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبوا بِآيَاتِنَا﴾[٢] [آل

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

(٢) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لما ذكر أن من كفر وكذب بالله مآله إلى النار، ولن يغني عنه ماله ولا =

عمران:١١] أي: إن هؤلاء سلكوا في دينهم على تكذيب آياتنا، كدأب من كان قبلهم فأهلكنا أولئك بذنوبهم، فهل ينتظر هؤلاء إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم.

ثم قال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ [آل عمران:١٢] هذا إنذار منه ﷻ للكافرين بمآل حالهم وعاقبة كفرهم، وبشارة للمؤمنين بالفتح عليهم والنصرة لهم، فقد كان من ذلك ما شاء الله كفتح جزيرة العرب وإهلاك كسرى، وكثير من أجناس أنواع الكفر، وسيكون إن شاء الله إهلاك قيصر واجتياح ممالك الدجال - لعنه الله - ويأجوج ومأجوج.

ثم صرف ﷻ وجه الخطاب إلى كفار قريش بقوله جلَّ قوله: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا**﴾ يريد ﷻ في غزوة بدر ﴿**يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ**﴾[1] [آل

ولده، ذكر أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وترتب العذاب على كفرهم، كشأن من تقدّم من كفار الأمم، أخذوا بذنوبهم وعذبوا عليها ونبه على آل فرعون؛ لأن الكلام مع بني إسرائيل، وهم يعرفون ما جرى لهم حين كذبوا بموسى من إغراقهم وتصييرهم آخرًا إلى النار، وظهور بني إسرائيل عليهم، وتوريثهم أماكن ملكهم، ففي هذا كله بشارة لرسول الله ﷺ ولمن آمن به. [تفسير البحر المحيط (٣/١٥٣)].

(١) هذه الآية تحتمل وجوهًا أربعة: **الأول**: أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبًا من ألفين. **والاحتمال الثاني**: إن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفًا وعشرين، والحكمة في ذلك أنه تعالى كثر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم؛ ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم. فإن قيل: هذا متناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿**وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ**﴾ [الأنفال: ٤٤] فالجواب: إنه كان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، فقللوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلما تلاقوا كثرهم الله في أعينهم حتى صاروا مغلوبين، ثم إن تقليلهم في أول الأمر، وتكثيرهم في آخر الأمر أبلغ في القدرة وإظهار الآية. **والاحتمال الثالث**: إن الرائين هم المسلمون والمرئيين هم المشركون، فالمسلمون رأوا المشركين مثلى المسلمين ستمائة وأزيد، والسبب فيه أن الله تعالى أمر المسلم الواحد بمقاومة الكافرين، قال الله تعالى: ﴿**إِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ**﴾ [الأنفال: ٦٦]. إن قيل: كيف يرونهم مثليهم رأي العين، وكانوا ثلاثة أمثالهم؟ الجواب: إن الله تعالى إنما أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذي علم المسلمون أنهم يغلبونهم؛ وذلك لأنه تعالى قال: ﴿**إِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ**﴾ فأظهر ذلك العدد من المشركين للمؤمنين تقوية لقلوبهم، وإزالة للخوف عن صدورهم. **والاحتمال الرابع**: إن الرائين هم المسلمون، وأنهم رأوا المشركين على الضعف من عدد المشركين، فهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد؛ لأن هذا يوجب نصرة المشركين بإيقاع الخوف في =

عمران:١٣] من قرأ «ترونهم» بالتاء منقوطة باثنتين من فوقها، فمعناه: إن الكفار كانوا يُرَوْنَ للمؤمنين مثليهم.

ومن قرأ بالياء؛ فمعنى ذلك: إن الكفار كانوا يرون المسلمين مثل أنفسهم؛ أعني: مثل الكفار، وهذه القراءة أحق؛ إذ قد ثبت أن المؤمنين كانوا يومئذٍ ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان الكافرون يومئذ يزيدون على ألف.

وقرأ ابن عباس وغيره: «يُرونهم» برفع الياء.

وقرأها أبو عبد الرحمن: «تُرونهم» برفع التاء(1).

جمع ذلك قوله الحق: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾(2) [الأنفال:٤٤] وكان ذلك حين العزم على الزحف والمهاجمة، وكان قد كثر المؤمنين في أعينهم، ثم عند العزم قلل هؤلاء عند هؤلاء وهؤلاء عند هؤلاء؛ ليقضي الله أمره.

قال الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] قرئ بفتح الدال وخفضها، مردَفين بغيرهم مردِفين لسواهم، ولو كان رؤيتهم لهم مثلي المؤمنين لم يبلغوا عددًا يرهبهم.

وحقق ﷻ الرؤية برؤية العين تعجيبًا منه وإظهارًا للآية، وهو تكثير الملائكة - عليهم السلام - للمؤمنين؛ إذ المعهود في جري العادة أن الملائكة - عليهم السلام - ليسوا بمرئيين اليوم للإنس، فكانت آية لهم على إرادة نصرة الله نبيه، وعلى إظهاره دينه لو تعقلون، فلذلك - والله أعلم - ما أكد الرؤية برأي العين.

=

قلوب المؤمنين، والآية تنافي ذلك، وفي الآية احتمال خامس، وهو أنا أول الآية قد بينا أن الخطاب مع اليهود، فيكون المراد ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة والشوكة. [تفسير الرازي (١٢٩/٤)].

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣/٦)، وتفسير البحر المحيط (١٦١/٣).

(٢) قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين. قال ابن مسعود ﷺ: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا. [تفسير البغوي (٣٦٤/٣)].

يقول الله جلَّ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِالله وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١] من وحي وتنزيل الملائكة - عليهم السلام - لنصر المؤمنين، والله على كل شيء قدير.

فهذا خطاب يجريه عن كون ذلك من آياته على إظهار ما أظهره، وإن ذلك يومئذٍ كان خارجًا عن معهود العرف وجري العوائد.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:١٣] طريق العبرة في ذلك رؤيتهم المؤمنين يومئذٍ على قلة عددهم مثلي عدد أنفسهم على كثرتهم، لو نظروا بعقولهم علموا أن الملائكة - عليهم السلام - من حزب الله ﷻ، فلا يكونون أبدًا إلا مع من أراد الله ﷻ.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[آل عمران: ١٤-١٨].

قوله جلَّ ذكره: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤].

نصَّ الله جلَّ ذكره على أن هذا كله متاع الحياة الدنيا، وإن ذلك مزين للناس فلن يزهد أحد فيه إلا بعد إعطاء الجهد والمبالغة في المجاهدة والمصابرة.

وعرض جلَّ ذكره أن المحب لمتاع الدنيا يورث حبها الجبن عن القتال، ويرغبه الحب في البقاء في الحياة الدنيا، وذلك يغشي البصائر ويلهي القلوب عن

النظر في العاقبة، ويصد عن التفكر في آيات الله، والنظر في كتابه العزيز وملكوت السماوات والأرض، وفقدان هذا هو ترك الاستعداد لحسن المآب.

قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥] كيف لا تكون الآخرة خير من الدنيا، وقد نشأت الدنيا إلى الآخرة نشئًا عظيمًا لا يقدر العباد قدره إلا إيمانًا به وتسليمًا.

ألا ترى أن الدنيا لم تكن قبل بل كانت وما فيها عدمًا، ولما أذن الله لجهنم - أعاذنا الرحيم برحمته منها - أن تتنفس نفسيها الموجودين فيما ها هنا، خلقها خالقها ﷻ على ذلك مع فضل رحمته، فنشأ عدمها إلى وجود، وكذلك ينشأ وجودها هذا إلى وجود في الآخرة، كما نشأت النطفة إلى جنين ثم إلى خلق آخر ثم إلى الاستواء، كذلك تنشأ الدنيا في الآخرة إلى وجود هو أتم وأكمل وأفخم، قد أخبرنا بذلك الصادق الحق ﷻ، وأعربت به الدلائل وشهدت به الشواهد، فذلك وجود حق لا محالة.

وبوجهٍ آخر: إن الله - جلَّ ثناؤه - خلق كل ما ذكره من موجودات الدنيا، وبخاصة ما ذكره جلَّ ذكره في هذه الآية من ذهبٍ أو فضة وخيل ونساء أو أنعام وحرث، خلق ذلك كله من تراب هذه أرضها وهو معرض عنها.

قال الله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧] وهي ملعونة.

قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان من ذكر الله، أو آوى إليه**»[١].

وفي الخبر: «**لما أهبط الله آدم** ﷺ **قال: يا آدم قد لعنت الأرض لعمارتك إياها، فلا تنال منها شيئًا إلا نكدًا**»[٢].

وموجودات الجنة مخلوقة من أرضها التي هي فضة أو ذهب ومسك أو نور،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤١١٢)، والبيهقي في الشعب (١٧٠٨)، والطبراني في الأوسط (٤٠٧٢).

(٢) لم أقف عليه.

وأحجارها اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، لا يشبه مسمى فيه مسمى ها هنا إلا دلالة، وإنه على تلك فما خلق من هذه - أعني: الجنة - كالذي خلق من هذه الأرض، مع إرادة الله ﷻ إياها وحبه لها ونظيره منها.

ولذلك يقول جلَّ قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠].

﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

فصل

وصف ﷻ السماوات بوصف فيه فخامة، وللنفوس إليه التفاتة؛ لحكمة الله ﷻ في ذلك بالغة وبلاغة فائقة، والعرض الترغيب في شهوات الآخرة، المعهود أنه متى يوصل بين قرينين عظم أمر المغلوب ورفع قدره، والمراد من ذلك مدحة الغالب وإظهار تفضيل الفاضل، كقول الشاعر:

وَحَلِيلِ غانِيَةٍ تَرَكتُ مُجَدَّلاً ... تمكُو فَرَائِصُهُ مكَاءَ الأَعلَمِ[1]

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْءَمِ

جَادتْ يَداي لَهُ بِمَارِقِ طَعنة ... لَيسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنا بِمُحَرَّمِ

فوصفه بالشجاعة والكرم وكمال الخلقة وإنه قتله، على ذلك أوقع ﷻ ذكر التزين على حب الشهوات، ولم يوقعه على الشهوات نفسها؛ لأن ذلك أبلغ، إذ لو أوقعه على نفس الشهوات لم تزين في الغالب إلا لواحدها، وإنما أوقعه على حبها، وذلك أعظم للمحنة وأشد الابتلاء، ولزم بذلك تزينها لواجدها وفاقدها، فهذا يشح على ما في يديه، وهذا يطلبها وتتقطع نفسه عليها حسرات؛ ليكون التضايق والتزاحم، ويقع التقاتل وتعظم الفتنة؛ ليكن الهرج.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٦] إلى قوله: ﴿بِالأَسْحَارِ﴾[2] [آل عمران:١٧] هذا من الفقه إنه من آمن

---

(١) المُكاءُ: الصَّفير، قال: والأَصوات مضمومة إلا النِّداء والغِناء. انظر: لسان العرب (١٥/٢٨٩).

(٢) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ لما ذكر أن الجنة للمتقين ذكر =

بالله ورسوله ﷺ واليوم الآخر وحل الإصرار، فإنه مغفور له إن شاء الله تعالى؛ إذ لا يعقد على ذنب بقلبه، وما كتب عليه من ذنب فيما سبق فهو عامله، ولا يضر ذلك مع التوبة منه وحل الإصرار عليه.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ﴾ أي: في الأول ﴿بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٩] وهذا هو الذي يدرأ بالحسنة السيئة، فهو بفضل الله تعالى ووعده إياه من أهل مغفرته.

ذكر ﷻ أعمالهم وما هم عليه، فذكر ﷻ الصبر، ويحتاج إليه في ثلاثة مواطن: صبر على طاعة الله ﷻ، وصبر على المصائب، وصبر عن معصية الله.

والقنوت: الخشوع، وهو العبادة نفسها، وربما كان في مواطن ما طول القيام في الصلاة والمنفقين، وقد مضى ذكرها قبل.

والاستغفار: هو طلب المغفرة، والتنصل من الذنب والإقرار به والاعتذار منه، والعزم في طلب العفو وترك الأخذ به، والتزم برجائه في بر فضل ربه ﷻ أن يلحقه بمن لم يذنب، وليرغب في سعة رحمته في أن يلحقه بما يبدل سيئاته حسنات.

وخصَّ جلَّ ذكره وذكر الأسحار لهذه الأحوال لبركة التنزل العلا، ووصفه إيمانًا بذلك واحتسابًا واستجابة لدعائه الكريم، قوله: «**من يستغفرني أغفر له**، من

=

شيئًا من صفاتهم، فبدأ بالإيمان الذي هو رأس التقوى، وذكر دعاءهم ربهم عند الإخبار عن أنفسهم بالإيمان، وأكد الجملة بـ «إن» مبالغة في الإخبار، ثم سألوا الغفران ووقايتهم من العذاب مرتبًا ذلك على مجرد الإيمان، فدلَّ على أن الإيمان يترتب عليه المغفرة، ولا يكون الإيمان عبارة عن سائر الطاعات كما يذهب إليه بعضهم؛ لأن من تاب وأطاع الله لا يدخله النار بوعده الصادق، فكان يكون السؤال في ألا يفعله مما لا ينبغي، ونظيرها: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران: ١٩٣] فالصفات الآتية بعد هذا ليست شرائط بل هي صفات تقتضي كمال الدرجات. وقال الماتريدي: مدحهم تعالى بهذا القول، وفيه تزكية أنفسهم بالإيمان، والله تعالى نهى عن تزكية الأنفس بالطاعات، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] فلو كان الإيمان اسمًا لجميع الطاعات لم يرض منهم التزكية بالإيمان، كما لم يرضها بسائر الطاعات، فالآية حجة من جعل الطاعات من الإيمان، وفيها دلالة على أن إدخال الاستثناء في الإيمان باطل؛ لأنه رضيه منهم دون استثناء. انتهى. [تفسير البحر المحيط (١٦٣/٣)].

يسألني فأعطيه، من يقرض غير عديم ولا ظلوم»[١].

ثم الصدق وهو يُحتاج إليه في كل مقام، وألا يخلو منه حال هو ملاك الأمر وقيامه، فالزمه.

قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:١٨] فيصلح أن يكون ﴿**قَائِمًا**﴾ نصبًا على الحال، وهو تعالى لا تحول الأحوال عليه إنما هو وصف له بأنه لم يزل كذلك، ويكون أيضًا نعتًا للضمير الذي في «أنه».

وعلى البدل يتأخر ﴿**قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ في ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ وشهدت له بذلك الملائكة وأولوا العلم.

وتكرار الشهادة يمكن أن يكون لعظم الشهادة، كما جاءت مكررة في الأذان، وكما جاء ذكر الصلاة مكررًا في صدر سورة «المؤمنين» وسورة «المعارج» إشعارًا لتعظيم الصلاة، ويمكن أن يكون تكرار الشهادة إشعارًا باستئناف شهادة أخرى، حذف أولها الذي هو ذكر الشهادة الأخيرة، وأظهر من الشهادة ما يدل عليها.

﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)**﴾ [آل عمران:١٩-٢١].

والمشهود به قوله جل من قائل: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران:١٩] وهو موضع نصب.

وذكر بعضهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران:١٩] أنه بدل من الأول، فيكون التقدير: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام بدل؛ لأن

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨)، والبيهقي (٤٨٣٧)، وأبو عوانة (٣٧٧).

التوحيد والعدل هو الإسلام، والإسلام هو التوحيد والعدل.

ويجوز أن يكون بدلاً من «أنه» الأولى ويكون بدل الاشتمال؛ لأن الإسلام مشتمل على التوحيد والعدل والشرائع والسنن، وغير ذلك الثاني يشتمل على الأول.

ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿**بِالْقِسْطِ**﴾ في موضع خفض، ويكون بدل الشيء من الشيء وهو هو؛ لأن **القسط** هو العدل، والعدل هو الإسلام، والإسلام هو العدل، وأي القولين كان فهو حسن، والله أعلم بحقيقة الحق والصواب.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾[(١)] [آل عمران:١٩] شهادة الله جلَّ ذكره وهي الشهادة الكبرى، وهو أكبر الشاهدين شهد بشهادة الملائكة، وأولي العلم من عباده، ففصَّل ﷻ بأن جعل شهادتهم تلوًا لشهادته، وهي منزلة تنقطع الآمال دونها لعلائها، وتبطل الأماني دون توهمها.

سبحانه وله الحمد ما أكرمه، فلا تقصرن بنفسك دونها طلبًا لغايتها، ولا ترضَ لها بأيسرها، فإن لم ترزق ذلك فالزم الاقتدار، وأحسن الاتباع شهادتك لشهادة الذين شهد الله لهم بالعدالة في شهادتهم فالزم، فالشهادة على الشهادة الصحيحة المستفيضة جائزة بقوله جلَّ من قائل: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ [آل عمران:١٩] هذا إخبار منه - عزَّ جلاله - أن أول

---

(١) قوله تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام؛ أي: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد ﷺ إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ يعني: بيان نعته في كتبهم، وقال الربيع: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلاً من أحبار بني إسرائيل، فاستودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة بينهم، وهم الذين أوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين حتى أهرقوا بينهم الدماء، ووقع الشر والاختلاف، وذلك من بعد ما جاءهم العلم يعني بيان ما في التوراة ﴿**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ أي: طلبًا للملك والرئاسة، فسلط الله عليهم الجبابرة. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت في نصارى نجران، ومعناها: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ يعني: الإنجيل في أمر عيسى عليه السلام وفرقوا القول فيه إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله ﴿**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ أي: للمعاداة والمخالفة ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾. [تفسير البغوي (١٩/٢)].

وجوب الشهادة إجماع وإصفاق على دين الإسلام.

وإنما خرق الاجتماع اختلاف جاذب بعد انعقاد، وأول من خرقه إبليس - لعنه الله - بعد أن اجتمعت الخليقة كلها على ذلك، فأصفقت ناطقها وصامتها علوها وسفلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣] ثم هدى الله الذين آمنوا، وهو آدم ﷺ وذريته.

قال الله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣] فاختلفوا، فكان خارق ذلك الإجماع العقل القاصر والهوى المتبع، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ثم هدى الله من أهل الكتاب حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فاختلفوا بغيًا بينهم، ثم بعث الله رسوله محمدًا ﷺ على جميع الأنبياء والرسل قبله بالكتاب ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ ﷻ؛ أي: لما اختلف فيه من كان قبلكم من أهل الكتاب وغيرهم، واختلاف من اختلف، وهداية من اهتدى بإذنه ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

سبحانه وله الحمد أتقن كل شيء صنعًا، وأحكمه هداية وفطرة وإقامة على الحق الذي هو أهله، فأنار البينات وأكثر من الشواهد والدلالات، وأخبر عن ذلك بالصدق الذي هو كلامه، وشهد بالحق فشهد كل شيء لشهادته، وهو أكبر الشاهدين وأصدق القائلين.

فصل

الإسلام على ضربين: إسلام لله الواحد القهار لا شريك له فيه، ولا تكذيب ولا رد بل خضوعًا وإذعانًا بالعبودية المحضة.

والإسلام اقتداءً وائتمامًا بمن اختصه الواحد القهار ﷻ، والطاعة لله ﷻ ثم بمن أرسله، والإيمان بما جاء من عند الله والإيفاء به، واستسلامًا وتوقيرًا وطاعة محضة.

فهذا الإسلام الأخير راجع إلى الأول؛ لأنه إيمان بما أرسله الله ﷻ، وطاعة لمن آمن بطاعته، وإكرامًا وإكبارًا لمن اختصه وأكرمه، وذلك تكليف منه للعقول

ابتلاءً منه لها وشرع شرعه، وعن هذا الإسلام نكص المبلس الملعون، وفاخر بالخلقة وعَنَدَ وأبى واستكبر، فكان بذلك من الكافرين.

فمن خضع لمن اختصه الله ﷻ وأطاعه، وأطاع الله ﷻ فيه وله، وعلى القدر الذي حدَّه له من ذلك فيه، فلم يغل ولم يقصر، فقد أسلم ولحق بإسلام الخليقة، وبما انعقد عليه الإجماع الأول في السماوات والأرض ومن فيهن.

وفي هذا الإسلام أيضًا: ﴿اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩] ولاختلافهم هذا الثاني لم يصح لهم الأول، وسماهم الله ﷻ: فاسقين كافرين.

فصل

ثم ينشأ الإسلام إلى ما هو أعلى منه، وهو أن يسلم العبد قلبه وجوارحه وظاهره وباطنه لله ﷻ على سنن إمامه، فلا يترك خاطرًا يكرهه الله أن يتمكن في قلبه، فيشغله عما يرضاه ملكه جلَّ، وتشتغل جوارحه وجوانحه ظاهرًا وباطنًا بما يقربه من الله، فهذا هو الإسلام الأعلى والهداية الكبرى، ومن لم ينتهِ إليه فهو لا يزال مع خطوات الشيطان، فهو يمحو السيئات ويثبت الحسنات إلا ما شاء الله.

قال الله جل من قائل فيما هذا معناه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ أي: جملة واحدة ظاهرًا وباطنًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨] إلى قوله: ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩].

لذلك اتبع ذكره الإسلام قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في الإسلام بجميع الأنبياء والرسل - عليهم السلام - ثم الإقرار برسالتك ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[1] إلى قوله عزَّ قوله: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠].

قوله عزَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

(١) ﴿فَقُلْ أَسْلَمْت وَجْهِيَ لِلهِ﴾ أي: انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خص الوجه؛ لأنه أكرم الجوارح من الإنسان وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء خضع له جميع جوارحه، وقال الفراء: معناه أخلصت عملي لله ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي: ومن اتبعني أسلم كما أسلمت، وأثبت نافع وأبو عمرو الياء في قوله تعالى: «اتبعني» على الأصل، وحذفها الآخرون على الخط؛ لأنها في المصحف بغير ياء. [تفسير البغوي (٢/٢٠)].

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [آل عمران:٢٢] هذه أعمالهم في الدنيا، فأي الأعمال لهم في الآخرة أراه؛ يعني: ما قدموه من عمل كقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾ [يس:١٢].

كما قال رسول الله ﷺ: «**يموت ابن آدم وينقطع عمله إلا من علم علمه أو مسجد بناه...**»[1].

﴿**وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [آل عمران:٢٢] أي: من شافعين يخرجونهم من عذاب النار.

فأول الآية في الكفار والكفر، ثم في الإخبار عن الكفر الأصغر الذين أضافوه إلى الغفلة عن آيات الله قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، جمع مقامهم على أعمال أهل الكفر، فهم متى أنكر أهل العمل بطاعة الله والقائمون بالقسط قتلوهم وعذبوهم وألحقوا بهم الأذية.

﴿**يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ**﴾ [آل عمران:٢١] أي: بآياته على الإسلام كل شيء له، وآياته في حكمته، وآياته الدالة على تصديق رسله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - من المعجزات الدالات على صدقهم والجملة، فهاتان الآيتان نظيرتان للشهادتين التي تقدمت في الوعيد على منع القيام بالقسط، وقتل المقسطين من الناس، المظهرين لشهادة التوحيد ومعالم الإسلام، وذكر ما يؤول إليه حال الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، ثم كذلك إلى قوله: ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [آل عمران:٢٥].

وقد تقدم الكلام في قولهم: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾ [آل عمران:٢٤] في سورة «البقرة» فأغنى عن تكراره.

قوله ﷻ: ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ**﴾ [آل عمران:٢٠]

---

(١) أخرجه بنحو منه البخاري في الأدب المفرد (٣٨)، ومسلم (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢٤٢)، والنسائي (٣٦٥١).

ذكر أكثر العلماء - رحمة الله عليهم - أنها منسوخة بآية السيف، وكذلك نظائرها من القرآن العزيز قد تقدم الكلام بأن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقتٍ ما؛ لعلة توجب ذلك الحكم، ثم تنتقل بانتقال ذلك السير والعلة إلى حكم آخر، فليس بنسخ إنما النسخ: الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله بعد نسخه.

وقد ذهب من أنزل عليه القرآن ﷺ، فبأي قرآن أو بأي رسول من عند الله ﷻ ينسخ، وإنما سمي: ناسخًا ومنسوخًا من لم يحط علمًا بما به سُمي نسخًا، وإنما سماه الله ﷻ باسم النسيء.

قال الله ﷻ: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة:١٠٦] وهذا باب كبير دون حكمه في القرآن العزيز، كقوله جلَّ قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥].

وقوله جلَّ قوله: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ....**﴾ [الجاثية:١٤] حيث وقع من الكتاب العزيز، وإنما بعث الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ والإسلام غريب، وأهله قليل عددهم مستضعفون في الأرض، فأنزل الله من كتابه وأمره عليه وعلى أصحابه ما يحسن بتلك الحال رأفةً منه بهم ورحمةً؛ إذ كان الأمر بالانتصار، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رفعه من أول الأمر على ذلك الضعف، والاختفاء بشأن الإسلام من تكليف ما لا يطاق.

فلما قوي الإسلام وأعزه بنصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحال من الذبِّ عن الإسلام، والانتصار له والدعاء إليه، والأمر بالقتال والعزم عليه، والترغيب فيه والمطالبة للكافرين، والتعوذ لهم بكل مرصد، وهو كثير في القرآن العزيز.

وقال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[1].

فكيف يتوهم وجود نسخ فيما هذا سبيله، ولا بد من الكثرة للإسلام وقد أدركنا ذلك وشاهدناه، ثم نحن نرتقب كثرة الإسلام على الكافرين والظالمين، فمن الواجب إذًا أن يرجع وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكثرة القوة

---

(١) تقدم تخريجه.

الإسلام والإيمان بعد ضعفه وكرَّة بعد مرة، ونحو هذا بما هو مصداق لقول الله ﷻ: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤] ولا تضع الحرب أوزارها إلا بعد أخذ رومية وقسطنطينية.

وبالجملة: فلا تضع الحرب أوزارها إلا بعد هلاك يأجوج ومأجوج بعيسى ابن مريم ﷺ وعلى جميع الملائكة والأنبياء والرسل، وهذا بيان شافٍ وأمر واضح أن حكم القتال والانتصار غير ناسخ لحكم المسالمة والمهادنة، وإنما هي مداولة، ولكل دولة أمرها قائم في الكتاب، فوجب امتثال كل أمر في وقته وحينه.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٢-٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ﴾ أي: الكتاب المحفوظ؛ لأن الألف واللام هنا للتعريف والعهد، وقد يكونان هنا لتعريف الجنس، دلَّ على هذا التوجيه قوله جلَّ قوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:٢٣] أي: القرآن والكتب قبله التي فيها ذكر محمد ﷺ؛ ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم.[١]

---

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيبًا مّنَ الكتاب﴾ أي: التوراة أو جنس الكتب السماوية، و«من» للتبعيض أو للبيان، وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير. ﴿يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد ﷺ وكتاب الله القرآن أو التوراة لما روي أنه ﷺ دخل مدراسهم، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ فقال: على دين إبراهيم، فقالا:
=

قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ**﴾ [آل عمران:٢٦] إلى آخر الآيتين، ظاهر تلاوة هاتين الآيتين إقرار وإيمان بما تضمنتا، ومشاهدة على ما جاء فيهما من إظهار القدرة وتصريف المشيئة، ومعناهما: الدعاء.

ألا ترى إلى قوله جلَّ قوله: ﴿**قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ**﴾ أنه دعاء لا محالة وسؤال بأسماء مقتضية لمعاني المسؤول، وهو أمر منه ﷻ لعبده أن يقول من ذلك ما أمره به من سؤال وتضرع ودعاء، واستاق ﷻ ذلك في معرض التلاوة، فكان تقديره على معنى الدعاء والسؤال: اللهم أنت مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء.

إننا - أيتها الأمة - من ملكك ما تملكنا به رقاب أعدائنا، وتنزع الملك من أيديهم، وأعزنا بعزة الإيمان والإسلام، وأذل لنا رقابهم وحكمنا فيهم، وأورثنا ديارهم وأموالهم، كما تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي، تُديل هذا على هذا، وهذا على هذا[١] من غير عمل بطاعة، ولا ذنب أذنب هذا سوى إظهار قدرتك وتصريف مشيئتك، فآتنا ما نسألك بغير حساب بيدك الخير، وأنت على كل شي قدير.

وقد كان يحسن على ظاهر الدعاء أن تكون رأس الآية الأخيرة من وصف القدرة لكنه لما صرف المشيئة في الأولى ظاهرًا وصفها ختم هذه بوصف القدرة، ولما صرف القدرة ظاهرًا في الثانية ختم هذه بوصف المشيئة، وهو العليم الحكيم.

﴿**لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ**

=

إن إبراهيم كان يهوديًا، فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم، فأبيا فنزلت. وقيل: نزلت في الرجم. [تفسير البيضاوي (١/٣٣٣)].

(١) هكذا في الأصل.

قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:٢٨-٣٢].

قوله ﷻ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٢٨] وأوعد ذلك بالبراءة ممن فعله - نعوذ بالله من ذلك - وأرخص في حال التقية إبداءً للملاطفة، وإظهارًا للولاية مع حراسة الباطن والقلوب.

ثم أوعد على خلاف ذلك جل بقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٩] من الجزاء العاجل والآجل قدير[1].

ونظم ذلك بقوله الحق عزَّ قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠] أي: بالتقدم بالتحذير، وإعلامهم بمراده منهم في إرخاصه لهم في إعطاء طوارهم في حال التقية منهم، ولو شاء الله لأعنتهم.

---

(١) قوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم، من مودة الكفار وموالاتهم ﴿أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ وقال الكلبيُّ: إن تُسرُّوا ما في قلوبكم لرسول الله ﷺ من التكذيب أو تُظْهِرُوه لحَرْبِهِ وقتاله يعلَمه الله، ويجازكم عليه. قوله: «وَيَعْلَمُ» مستأنف، وليس منسوقًا على جواب الشرطِ؛ لأن علمه بما في السماوات وما في الأرض غير متوقِّف على شرط؛ فلذلك جِيء مستأنفًا، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ وقدَّم هنا الإخْفَاءَ على الإبداء وجعل محلهما الصدور بخلاف آية البقرةِ، فإنه قدَّم فيها الإبداء على الإخفاء، وجعل محلهما النفس، وجعل جواب الشرطِ المحاسبة تفنُّنًا في البلاغة، وذكر ذلك للتحذير؛ لأنه إذا كان لا يخفى عليه شيء فكيف يَخْفَى عليه الضميرُ؟! قوله: ﴿والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو تمام التحذير؛ لأنه إذا كان قادرًا على جميع المقدورات كان لا محالة قادرًا على إيصال حق كل أحد إليه، فيكون هذا تمام الوعدِ والوعيد، والترغيب والترهيب. [تفسير اللباب لابن عادل (٢١/٤)].

فصل

. موالاة الكافرين تخرج عن الدين إذ «المرء مع من أحب»(١) ولا يظهر ذلك لفاعله بكماله إلا بعد الموت، دلَّ على ذلك تعليقه الجزاء ﷻ بيوم تجد كل نفس ما عملت من خير وشر، وأول ظهور ذلك في القيامة الأولى، فليتقِ عبد ربه، ولا يدخلن ولاية من حاد عن سبيله قلبه.

ألا تسمعه يقول عزَّ من قائل: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ...﴾ [المائدة:٨٠-٨١].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...﴾ [المائدة:٥١].

ولما أهلك الله قوم شعيب ﷺ تولى عنهم؛ أي: لم يقف بديارهم بجسمه، ولا بقلبه بل منعه التأسف عليهم والتحزن لشأنهم، وإن كان قد وجد من ذلك ما يجد النصيح المشفق.

ثم قال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

الولاية ثلاثة منازل، وهي واحدة في الحقيقة وإن تفصَّلت:

الأولى: ولاية الخلقة ومعاني التدبير، وهداية الفطرة وتركيب الحياة.

قال الله ﷻ: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس:٣٠].

قال جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧].

و﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

ولا يكاد الاسم يتناول هذه الدرجة إلا بتقصي المعنى، كيف وقد فرض الله ﷻ علينا البراءة في موضعها مع انفرادها، ثم تنشأ الولاية فيتحقق فيه وتظهر.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٩)، ومسلم (٢٦٣٩)، وابن أبي شيبة (٣٧٥٦١)، وأحمد (١٢٠٣٢)، وأبو داود (٥١٢٧)، والترمذي (٢٣٨٥) وعبد بن حميد (١٢٦٥)، وأبو يعلى (٢٨٨٨)، وابن حبان (١٠٥)، والطبراني (٩٧٨١) وفي الأوسط (٧٤٦٥)، والدارمي (٢٧٨٧).

قال الله ﷻ: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨] تولاهم جلَّ ذكره بصدق شهادتهم وحسن توجيههم نياتهم إليه، وخلوص توحيدهم له بالإلهية، وتحقيقهم وتحنفهم إليه وتوليهم إياه دون من سواهم.

ثم تنشأ الولاية بدخولهم في السلم كافة ظاهرًا وباطنًا بطهارة الغيب وشهود القلب وسلامة النفس، وصدق النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعامة المسلمين وخاصتهم، واجتنابهم صغير الإثم وكبيره ظاهره وباطنه، واشتغال السر بذكره وطلب معرفته، والقيام على النفس بالحسبة لله جلَّ ذكره واستيفاء الأوقات بالموافقة وصدق المراقبة.

ثم لا تصح الولاية إلا بالبراءة ممن تولى قومًا فهو منهم، ومتى تولى الله جلَّ ذكره عبدًا أحبه على قدر توليه إياه.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(١) [آل عمران:٣١] سرد ﷻ ذكر المحبة على ذكر الولاية، كما سرد جلَّ ذكره الولاية على ذكر معنى المعرفة، من لدن قوله جلَّ قوله: ﴿الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١-٢] إلى ما بين ذلك من ذكر إنزال الوحي والفرقان، وإيمان

---

(١) قال الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد إنا نحب ربنا فأنزل الله هذه الآية. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: وقف النبي ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف وهم يسجدون لها، فقال: يا معشر قريش، لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ولقد كانا على الإسلام، فقالت قريش: يا محمد إنا نعبد هذه حبًا لله ليقربونا إلى الله زلفى، فأنزل الله هذه الآية. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت حين زعمت اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه. وقيل: نزلت في نصارى نجران زعموا أنهم يعظمون المسيح ويعبدونه حبًا لله وتعظيمًا له. والحاصل أن كل من يدعي محبة الله تعالى من فرق العقلاء فلا بد أن يكون في غاية الحذر مما يوجب سخطه، فإذا قامت الدلائل العقلية والمعجزات الحسية على نبوة محمد ﷺ وجبت متابعته، فليس في متابعته إلا أنه يدعوهم إلى طاعة الله وتعظيمه وترك تعظيم غيره، فمن أحب الله كان راغبًا فيه؛ لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب والإعراض بالكلية عن غيره. [تفسير النيسابوري (٢/٢٤٠-٢٤١)].

من آمن بذلك وكفر من كفر به، وما يؤول إليه عاقبة الفريقين، وشهادة الحق الذي شهد بها.

وذكر ﷻ الإجماع على معنى ذلك وخرقه والاختلاف، ولقرب معنى الولاية من معنى المحبة نظمها بها، وهي أصل النصيحة والدين النصيحة، فإذًا المحبة الشأن كله على قدر تمكنها من القلوب تسرع بالطاعة إلى المحبوب.

والمحبة أيضًا واحدة تنفصل إلى ثلاثة منازل، وبين ذلك وسائط ودرجات منها إليها محبة الخلقة، وهي فطرة وضرورة، وكما تقدم في وصف الولاية الأولى ومحبة المخلوقين هي السابقة لكنه أمضى حكم حبه المؤمنين، وأوقف حب من علم ﷻ أنه بالكفر يختم له عمله، وعند الامتحان يكرم العبد أو يهان، والله جلَّ ذكره لم يزل عالمًا بما يكون وما قد كان، غير أن حكمه هذا أجراه في سنته التي لا تحويل لها ولا تبديل.

قال الله جلَّ ذكره في كتابه: «**ألا وإن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

وقال الله جلَّ قوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ [البقرة:٢٥٧] فحين كفره يبعده الله من حبه ويلعنه، ثم يبدله من رحمته إليه حب الطاغوت.

قال ﷻ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله**﴾ [البقرة:١٦٥] فأخبر ﷻ بأنه جعل لهم حبًا يحبون به الأنداد بدلاً من حبهم له، ثم تنشأ المحبة بالإيمان وتتزايد بالمعرفة، وتتمكن بالولاية واستيعاب الأوقات بالإشغال بطاعة الله ﷻ.

قال الله عزَّ من قائل: «**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»(٢).

فصل

فليس الحب شيئًا يتناول أو يكتسب إلا بالتحبب والترضي، وكثرة الذكر

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧)، والبيهقي (٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

والنظر في النعم، ويزداد التوقف والاستينار على معالم العلم، وتكرار التفكر فيمن أجاد هذا الصنع المعجب، ونصب هذه الدلائل وأقام الشواهد، وتعرف ما هي دلائل عليه وله شواهد، وتتبع مجاري أسمائه في موجودات السماوات والأرضين وما بين ذلك، والبحث عن معاني صفاته الكاملة الحسنى في الموجودات، والنفقة في كتابه الحكيم ووحيه العزيز، وتعرُّف حكمته وصدق كلماته، ثم استعمال معالي الأخلاق، والتعبد عن معاني الأسماء والصفات على ما يحبه ويرضاه، ونحو هذا.

قال الله ﷻ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾** [مريم:٩٦] أي: ودًّا يودونه به، وودًّا في قلوب العالمين.

كما جاء: «**إن الله إذا أحب عبدًا قال: يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبه، ثم ينادي جبريل** ﵇ **في السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، قال: فيحبونه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[1].

قيل: إنه ينزل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه حبه الماء، فلا يشرب أحد من الماء، ولا يأكل من نبات الأرض إلا أحبه، فيحبه إذ ذاك كل شيء وبالضد.

وقال رسول الله ﷺ وقد مرت به جنازة: «**مستريح ومستراح منه**» فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «**المؤمن يستريح من أذى الدنيا ونصبها إلى رحمة الله ﷻ، والكافر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»[2] كما تستريح الموجودات من الكافر - أعاذنا الله الرحيم برحمته من ذلك - كذلك تبكي على المؤمن.

قال الله ﷻ: **﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾** [الدخان:٢٩].

وقال رسول الله ﷺ «**ما من مؤمن إلا له في السماء بابان: باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه**»[3].

---

(١) أخرجه مالك (١٧١٠)، والبخاري (٣٠٣٧)، ومسلم (٢٦٣٧)، وابن حبان (٣٦٥)، والطبراني (٥٧١) وفي الأوسط (٥٠٠١)، وأحمد (٧٨٤٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: غريب.

فصل

حكى بعض أهل العلم باللسان أن حبَّ وأحب بمعنى سواء، وإنهما لغتان في معنى الحب.

وعندي - والله أعلم - أن معنى أحب له [...][١] ومعنى ذلك أن قوله: أعزه يعزُّه وأجله يجلُّه، كقولك: أحبه يحبه، وكقولك: أجله يجلله، واللام والجيم أصليتان في «جلَّ» كالباء مع الحاء في «حب» ومعنى يجلله ويجله: جعلته ذا جلالة، كما يحببه ويحبه: جعلته ذا حب، وأحببته في حبي.

ومعناه في هذا الموضع: أحببته في حبي، وجعلت له حبًّا يحبني به، ولإظهار الأصلية التي هي الباء، وتكرارها مزيد معنى من المحب لما كان من المتكلم به هو المحب الأصلية منه، وحب أن يكون المزيد من ذلك.

والمعنى فيه - والله أعلم - بما قال جلَّ قوله: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ**﴾ فهذا حب موجود معبر عنه ﴿**فَاتَّبِعُونِي**﴾ [آل عمران:٣١] وفي اتباعه ﷺ حب زائد على الحب المعبر عنه الحاصل قبل، فكان اتباع الرسول ﷺ حب في الله انضاف إلى حبِّ الله الذي هو الأول، والذي به ومنه خوطبوا.

وهو أيضًا حب على حب؛ لأنهم بذلك أحبوه - جل وعلا - أو أحبوا من أحب وائتموا بمن اصطفى، فأوجب لهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بذلك مزيد حب، فأظهر ﷻ الأصلية إشعارًا بذلك، فقال جلَّ قوله: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران:٣١] أي: يجعل لكم حبًا تحبونه، وتحبوني زيادة إلى حبكم، وحبًّا تحبون به الحب له وفيه، فهذا معنى تكرار الباء فيما ها هنا، والله أعلم.

ولم يخلق الله ﷻ صورتين لمصور واحد فاعلم ذلك.

ولما عرض على سليمان ﷺ جياد الخيل، وشغله ذلك عن صلاة العصر

---

(١) ما بين [ ] غير واضح بالأصل. وقال القرطبي في تفسيره (٦٤/٤): يقال أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب قال الجوهري: وهذا شاذ لأنه لا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر قال أبو الفتح: والأصل فيه حبب كظرف فأسكنت الباء وأدغمت في الثانية. قال ابن الدهان سعيد: في حب لغتان: حب وأحب وأصل حب في هذا البناء حبب كظرف.

فتذكر وصلاها، ثم قال ﷺ: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص:٣٢] ولم يقل ﷺ: «أحببت الخير» بل قال: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ﴾ وهذا هو الحب اللازم الغالب وجده.

كما قال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فلأن أشد للمحنة وألصق للابتلاء، فأحبوا لذلك الشهوة ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤] من كانت معه، ومن فقدها حبًا غالبًا على النفوس إلا من عصم الله، وقليل ما هم.

فصل

الذين يبلغهم الله ﷻ هذه الدرجة من المحبة هم خصوص الخصوص، وقد قال جلَّ قوله في الذين آمنوا: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا لله﴾ [البقرة:١٦٥] فهذا الحظ الذي ينال باتباع الرسول ﷺ كما تقدم هو حب مزيد، مضاف إلى الحب الأول، وحب للحب الذي هو الله، وفي الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

يقول الله جلَّ قوله: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها**»[1] فهذا هو الحب في الحب والحب للحب.

عبَّر عن ذلك حيث قال جلَّ قوله: «**لا يزال العبد تقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي سمع به...**»[2].

وإذا تحصل هذا للعبد فهو الحب كله الذي قالوا فيه ﷺ: «الحب تعويض الصفات» أي: إن الله جلَّ ذكره يعوضه من صفات نفسه صفاتًا منسوبة إليه - جل ثناؤه - في سمعه وبصره، وبطشه ومشيه، وكلامه وصمته إلى غير ذلك.

وسئل بعضهم عن المحبة فقال: «هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب» وهو معنى ما تقدم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

من علامات محبة المحب لربه جلَّ وعلا: أن يؤثر رضا ربه على رضاه وطاعته على طاعة نفسه، وأن يقطع نفسه وهواه وأهله وولده والناس أجمعين في طلب محبة ربه ورضاه، وهذا معنى ما قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يجد أحدكم حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما**»[١].

وفي أخرى: «**حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه وولده وأهله وماله والناس أجمعين**»[٢].

وهذه درجة الإيثار، ولا يكون هذا إلا إذا دخل الحب سويداء القلب وهي حبة القلب، وحينئذٍ يحب الحب كله ما لم يكن الإيثار، فالحب منه في الفؤاد، وهو تجويف أول خارج القلب.

ومن علامات محبة الله جلَّ ذكره عبده: أن يتولى سياسة أموره وحركات جوارحه وأعماله، فيجد أخلاقه على السماحة وجوارحه على الموافقة يصرح به عن هواه، ويزجره عن ركوب هلكته على التهدد والزجر، فإن شاء إتمام نعمته عليه بلغه درجة التعويض كما تقدم.

عبَّر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: «**إذا أحب عبدًا جعل له واعظًا من نفسه**»[٣] فإذا رفعه إلى درجة التعويض لم يكن لهذا العبد همةً إلا في خدمته، ولا رغبة إلا في الأنس به، يشوقهم إليه والشوق إليه يحدوهم، عزمهم وثيق والفتور منهم بعيد، لا يميلون إلى غرور ولا يترخصون في تأويل، ولأن من صفاتهم الموافقة لزومهم الخوف؛ لعلمهم أن رضاه في أن يخاف.

قال الله ﷻ: ﴿**وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٧٥] ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:١٩٧] وهذا كلام على ضرب من التجوز فيما سبيله التحقيق في

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (١١٧١٨)، والطيالسي (١٩٥٩)، وأحمد (١٢٠٢١)، وابن ماجة (٤٠٣٣)، وابن حبان (٢٣٨)، والطبراني (٨٠١٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وأحمد (١٢٨٣٧)، وعبد بن حميد (١١٧٥)، والنسائي (٥٠١٤)، وابن ماجة (٦٧)، والدارمي (٢٧٤١)، وابن حبان (١٧٩).

(٣) أخرجه هناد (٥٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٦٤).

العبارة، بل الله جلَّ ذكره لما كان المتولي لسياستهم، وكان الخوف من سيماء العبودية ألزمه قلوبهم أو حضرة أحوالهم، وهو يتولى الصالحين.

وأيضًا فإنه من أحب محبوبًا خاف فوته، فبان فرق ما بين الخوفين هذا خوف المعاقبة، وهذا خوف الفوت، وهذا راجع إلى الأول.

وللمحبة ثلاثة منازل:

الأولى: محبة العالم تتولد من معرفة إحسان الله ﷻ، ومشاهدة عطفه.

الثانية: منبعثها عن نظر العبد إلى عظمة الله وجلاله، وإحاطة علمه وقهر قدرته، وهو حب الصادقين المتحققين.

الثالثة: منبعثها معرفة العبد تقدم حب الله ﷻ له بلا علة، وكذلك أحبه هو بلا علة، فهذه المحبة لله وبالله ومحبة الصديقين العارفين، ثم ظاهر أتباع المحبوب وباطنها أن يكون فتنته بالحبيب، فلا يبقى عليه علة له ولا في نفسه، فحقيقة حال هذا ميل دائم وقلب هائم بوجود محبة من المحبوب، وإيثار له على من سواه وعلى القول بالتحقيق، فما عاش أحدًا إلا مع مزج الحب، فإذا توحد الحب بالقلب وتمكن فيه قتل.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ هنا محذوف مقدر مستدل عليه بالظاهر بعده، هو قوله ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

الحاصل من هذا الخطاب: محبة الله ﷻ يستوجبها العبد بالعمل بالطاعة وابتغاء مرضاة الله ﷻ، والاقتداء به في معالي الأخلاق، ثم برسوله في سنته، وبذلك استوجب وعد الله سبحانه بإدخاله محبته وإلحاقه بالدين أسكن ودَّه في قلوبهم وشغلهم به وفرغهم إليه، فكان هو هم من حيث هم لا من حيث هو؛ لذلك قيل لهم: أولياء الله وربانيون.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا

رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٧].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[1] [آل عمران:٣٣-٣٤] اصطفى من اصطفاء صفايا الملوك في البلاد أموالاً استخلصوها لأنفسهم دون غيرهم، وهو مثل: اصطنع من الصنيعة، واصطرف من الصرف، واصطحب من الصحبة، صفاهم وطهرهم بما اصطفاهم فصافوه، فهم المصطفون من عباده، والمجتبون من أهل ولايته.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ نصب «ذرية» على المدح والاختصاص بذرية آدم عليه السلام عامة لما دونها، وذرية إبراهيم عليه السلام شاملة لما دونها منها آل عمران، ومنها محمد ﷺ وعلى الأنبياء جميعهم.

آل عمران قسمان:

* **الأول:** أبو موسى عليه السلام المنزل عليه التوراة، فآله على هذا من دنا منه بالبيعة والنسب، وإلا فهو عام شامل أيضًا لمن دونه.

* وآل عمران أيضًا هو والد مريم ابنة عمران - صلوات الله عليهم - كان لعمران الأول موسى وهارون وأخت ذكرها الله سبحانه في القرآن العزيز، وكان لعمران الآخر هارون ومريم وامرأة زكريا أختها.

قيل: إنها كانت ابنته.

وقيل: كانت من غير عمران.

---

(١) ذرية بعضها من بعض في الدين والحقيقة؛ إذ الولادة قسمان: صورية ومعنوية، وكل نبي تبع نبيًا في التوحيد والمعرفة وما يتعلق بالباطن من أصول الدين، فهو ولده كأولاد المشايخ والولد سر أبيه، ويمكن أن يقال: آدم هو الروح في أول مقامات ظهورها، ونوح هو هي في مقامها الثاني من مقامات التنزل وإبراهيم هو القلب الذي ألقاه نمرود النفس في نيران الفتن، ورماه فيها بمنجنيق الشهوات، وآله القوى الروحانية، وعمران هو العقل الإمام في بيت مقدس البدن، وآله التابعون له في ذلك البيت المقتدون به، وكل ذلك ذرية بعضها من بعض لوحدة المورد واتفاق المشرب. [تفسير الألوسي (١٢/٣)].

وقيل: كان اسمها حنة.

وقيل: بل كانت حنة أم مريم امرأة عمران، فلذلك قال عباد بني إسرائيل لمريم - عليها السلام - لما جاءت بعيسى عليه السلام تحمله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨].

عمَّ الله ﷻ إلى آل عمران بالذكر، وخصَّ الآخر منها بالوصف بعد أن جمعهم جلَّ ذكره بذكر الاصطفاء، ثم تمدح جلَّ ذكره بأنه سميع عليم لم يزل تبارك وتعالى سميعًا عليمًا، لكنه خصَّ بذكر السمع والعلم ما ها هنا؛ لأجل سماعه دعاء امرأة عمران واستجابته لها، وعلمه بها وبخالص نيتها في توجيه نذرها إليه، فتقبل منها وكفلها أفضل الحاضرين يومئذٍ زكريا وزوجته التي هي أخت مريم، بعد أن اقترعوا عليها أيهم يكفلها فوقعت علامة القبول لزكريا، وقد كان حكم القرعة يقطع به ويجري عليه أحكامهم؛ لأن الزمان يومئذٍ كان زمان نبوة، ووحي مجدد؛ إذ مهما تعطيه القرعة لا اختيار لأحد الفريقين فيه، بل هو حكم من الله ﷻ وقضاء من عنده.

اذكر قصة يونس عليه السلام وإنه كان من المدحضين بالمساهمة، وهو الآن عندنا جائز متى لم يقع بين الفريقين تمانع في جواز ذلك ولا تنازع.

فصل

جادت امرأة عمران بذي بطنها لربها كما جاد إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، فكان إتمام كلمته ﷻ أن نشر عليها من رحمته وألطفها بكراماته؛ كأن يظهر لها من المقدور الغائب ما يحفظها به، ويرزقها منه بغير كدٍّ ولا نكد، ويدخل عليها زكريا محرابها فيجد عندها رزقًا لم يعهده ولم يجرِ على يده فيستكشفها عن ذلك، فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧] الحساب هنا عبارة عن الكدِّ والتعب في طلبه.

لذلك قيل في رزق أهل الجنة: إنه بغير حساب، غير أن الله - جلَّ وتعالى - يعلم شهوة أحدهم فيُؤتى به أحسن مما اشتهاه، وربما أتحفهم برًا مما لم يعهدوه ولم يجرِ لهم على بال، فيجعل لهم ﷻ من الغبطة به والسرور والشهوة فيه ما لم يعهدوا مثله.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٨-٤٤].

قال الله جلَّ من قائل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران:٣٨] فهذا هو المطلوب الأول بالولد كونه طيبًا رضيًا، أغبط زكريا عليه السلام أبويها فيها، فحركه ذلك إلى سؤال الله عز وجل الولد، فكان اطلاع الله إياه على ذلك سببًا للدعاء، والدعاء سببًا لوجود يحيى بن زكريا عليهما السلام.

وقد جاء ذكر سؤال ربه عز وجل الولد على أوجه من الخطاب متفقة في المعنى، كقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا...﴾ [مريم: ٤] إلى قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦].

وقول الله عز وجل: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقوله في هذه السورة: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨] في كل ذلك يذكر أنه يستجيب له دعاءه، ومجيء الدعاء مختلفًا دليل على تكراره حتى حان حين المطلوب، وفي هذا من الإشارة من الفقه والأسوة، أمر الله جلَّ ذكره استعمال التكرار والإلحاح في الدعاء والإكثار من السؤال، وإذا كان شأن الأنبياء - عليهم السلام - تكراره فكيف بغيرهم؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت ولم**

يستجب لي»[1] ولذلك - والله أعلم - سأل الآية على كون ما وعد به ﷻ حين بشرى الملائكة إياه بمطلوبه، وقد كان في سؤاله ربه ﷻ قوله: ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾ [مريم:٥-٦] أي: يرث منهم الحكمة والنبوة؛ إذ الأنبياء - عليهم السلام - لا يورثون مالاً، وإنما يورثون العلم والحكمة والهدى والتقوى.

وقوله ﷻ: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي**﴾ [مريم:٥] أولياء الأنبياء والرسل - عليهم السلام - عباد الله الصالحين.

قال رسول الله ﷺ وذكر قرابته «**ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»[2] إنما خاف ﷺ أن يحين حينه وتبقى الأنبياء - عليهم السلام - والقرابات والأتباع بعده لا معلم لهم، ولا من ينوب منهم مناب النبوة والمعاهدة والسياسة بالوحي، وهذا عظيم الرُّزء[3]؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**من أصيب منكم بمصيبة فليذكر المصاب بي**»[4] فلذلك يهون عليه، وإن بني إسرائيل كانت الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - يسمونهم خلف بعد سلف.

وقال عزَّ من قائل: ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٧] يمكن أن يكون لم يسبق من يسمى يحيى، أو لم يكن قبله من يسمى بيحيى صدقًا، يكون بذلك اسمه هو مسماه، وهذا أوجه ما وجه إليه هذا الخطاب، والله أعلم.

وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: قال عيسى عليه السلام عندما ذكر يحيى عليه السلام: إني أقول لكم لم يولد في الإنس أشرف من يحيى، ولكن الأصغر في الملكوت أشرف منه، وكل كتاب أوتي منتهاه إلى يحيى، وإن يقبل غيره هو في مثابة الناس القادم، فمن كانت له أذن سامعة فليسمع، ومما توجه إليه اسم يحيى أن الله ﷻ

---

(١) أخرجه مالك (٤٩٧)، والبخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٧١١٠)، وأحمد (٩١٣٧)، وأبو داود (١٤٨٤)، والترمذي (٣٣٨٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٣٨٥٣)، وابن حبان (٩٧٥)، والطبراني في الشاميين (٣١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢١٥)، وأحمد (١٧٨٣٧)، وأبو عوانة (٢٧٦).

(٣) الرُّزْءُ وَالرَّزِيئَةُ: الْمُصِيبَةُ الْعَظِيمَةُ. انظر: المغرب (٣٣٧/٢).

(٤) أخرجه الطبراني (٦٧١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٥٣)، وابن سعد (٢٧٥/٢)، والدارمي (٨٥).

وتعالى علاؤه وشأنه هو الذي سماه.

ولصدق قوله وتحقيق حديثه لا بد له أن يحيا في المستقبل؛ لأنه من الله ﷻ أنه يحيا فقد حيي في الدار الدنيا بالنبوة والحكمة والكتاب الذي أتاه والتقى والعفاف المحض، ثم حيي بالشهادة في الدار الوسطى، فهو عند الله جلَّ ذكره حي هذا غير مدافع فيه، وهذا قد شركه غيره؛ أعني: في النبوة والحكمة والحياة بالشهادة.

وقد بقي وعد الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأنه يحيى مستقبلاً لم يجعل الله له سميًا قبل ذلك الوقت، وكيفما كان من ذلك ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

قوله جلَّ ذكره: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ الله وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١] [آل عمران:٣٩] أي: مصدقًا بعيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليهم - هو كلمة الله جمع له بين البشارة بابنه يحيى، والبشارة بأنه يخلق عبدًا وكلمة له، وأن هذا المولود مصدقًا به، وأنه يكون سيدًا؛ أي: موطوء العقب في مقابلة قوله ﷺ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ ويعود على موروثه بركة، وذلك بسدِّ ثلم[٢] قومه، هذا في مقابلة قوله ﷺ: الوراثة وخوفه ضياع الأتباع.

سُئل رسول الله ﷺ: ما السؤدد؟ فقال: «**هو العقل**»[٣].

ولا ينال شيء من الخير إلا بصحبة **العقل**، فكان ﷺ - أعني: يحيى - أشبه عيسى ﷺ في أنه لم يأتِ النساء.

ونصب قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ على الحال، ويكون أيضًا نصبه على المدح

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الحصور أصله من الحصر وهو الحبس، والحصور في قول ابن مسعود ﷺ وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ﷺ وعطاء والحسن: الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن، وهو على هذا القول فعول بمعنى فاعل؛ يعني: إنه يحصر نفسه عن الشهوات، وقيل: هو الفقير الذي لا مال له، فيكون الحصور بمعنى المحصور؛ يعني: الممنوع من النساء. وفيه قول آخر: إن الحصور هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه. واختار قوم هذا القول لوجهين: **أحدهما**: لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء، **والثاني**: إنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء. [تفسير البغوي (٣٥/٢)].

(٢) ثَلَمَ الإناءَ والسيفَ ونحوَه: كسر. انظر: لسان العرب (٧٨/١٢).

(٣) أخرجه الحارث في مسنده (٨٢٧).

والاختصاص، وإنما يتم في عيسى عليه السلام بإتيانه المنتظر منه، ورفع الله عيسى عليه السلام، وهما معًا الآن في حال الحياة عنده.

قوله تعالى فيما حكاه عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠] ولو كانت البشرى له بالولد بدءًا كبشرى مريم بعيسى عليه السلام، كأن يكون إعظامه لإتيان الولد في حال الكبر وعقم المرأة، لكنه كان هو الداعي السائل الراغب في الولد، وهم أهل العلم بالله جلَّ ذكره وأهل القرب منه، فكيف يتوجه هذا من مثله؟!

أراه - والله أعلم - أن قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠] تعجبًا منه من عظم اقتدار الله جل جلاله على مراده من جميع الوجوه، وسروره بمنزلته من ربه إذا بلغت رتبته عليه السلام عنده جل جلاله، ومنزلته منه أن يخرق له العوائد، ويظهر له من المقدور الغائب بدعائه وسؤاله إياه، كتعجب امرأة إبراهيم عليه السلام صلوات وسلامه على جميعهم لما بشر بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فصكت وجهها إعظامًا لذلك، وتعجبًا من القدرة القاهرة والأمر العلي منه جل جلاله.

ثم ضحكت سرورًا منها بعظيم المنزلة من الله عز وجل، وسني المرتبة التي أهلها لها، و﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢] فأناب الله أهل ذلك البيت بشياع العلم فيهم إن أجابتها الملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - بإذن الله جل جلاله وأمره.

﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي: وأنت امرأة بلغ من علمك بالله عز وجل إنك تعجبين من أمره وعظيم قدرته وتصريف أمره على مشيئته ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود:٧٣] لإيمانكم وعلمكم مجيد للعطاء كريم الجزاء، يرفع أوليائه وأهل طاعته ثم جعلها كلمة باقية في عقبهم آخر الدهر، وأمر الله هو شأنه.

قوله عز وجل لزكريا عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٨-٩] الكاف الأولى في قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ﴾ للتشبيه والتسوية بين الحكمين في المشار إليه بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى ما عند زكريا عليه السلام من العلم بالله،

وقدرته على ذلك إذا شاءه سنته الطاهرة، يفعل ما يشاء من ذلك بتوسط الأسباب وبإطراحها، وإخراج أحكامه على حكم الكلمة؛ معنى ذلك: إن هذا وهذا علي هين، هذا حكمي وهذه قدرتي.

ألا ترى أن الأسباب والوسائط لا بد لأوائلها أن تكون عن عدم أسباب ووسائط، فحكم الكلمة هو الأصل، وحكم السنة فرع له، وإلى حكم الكلمة تعود الأحكام كلها معنى وإيجادًا، ثم آراه آية على ذلك في الوجود بقوله جلَّ قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٩] وكذلك قوله لمريم عليها السلام، كذلك الإشارة إلى علمها بمقدور الله الغائب أنه عنده كالحاضر الموجود المعهود، وعلَّمها أيضًا بعلم الله الذي هو شأنه.

وقول الملائكة - عليهم السلام - لامرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم:٩] أي: هذا هكذا هو عند ربك كالمعهود عندك؛ أي: إنه جل جلاله إذا استأثر بالفعل قبض، وإذا أجراه على سنته بسط.

كما قال عزَّ من قائل لمحمد ﷺ: ﴿فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤].

ومن قولهم: حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى على الأشياء بلا علاج، وصنعه في مصنوعاته بلا مزاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وما تصور في وهمك فالله بخلافه، وهكذا فاسلك في نظرك عند تعرفك كلمة ﴿كَذَلِكَ﴾ حيث جاءت تطلب المشبه بها والمشار إليه، وأضف إليها جملة ما يأتي في ذلك المشار إليه، فهو خطاب باطن مبني على خطاب باطن مبني على خطاب ذلك النص الظاهر، فاعلم ذلك.

قوله عز وجل فيما حكاه عن عبده زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [مريم:١٠] قد تقدم أنه عليه السلام لم يسأل الآية؛ لبعد ذلك عندهن ولا لأنه لم يقع العلم له بنداء الملائكة - عليهم السلام - كما ذكر بعض السلف المصنفين، بل النبي ﷺ محفوظ عليه في موضع إيمانه، وموضع فهمه محفوظ على الملائكة - عليهم السلام - تبليغهم عن ربه جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه، وإذا أوحى الله عز وجل لنبي من الأنبياء - عليهم السلام - أعطاه من العلم بما أوحى إليه ما يكافئ ذلك الوحي، وعلى قدر

المراد به وله.

وشأنه ﷻ في المؤمن أنه عنه يفهمه ومنه يعلمه، فكيف به إذا رفعه إلى منزلة النبوة والرسالة، فأسمعه ﷻ كلام ملائكته - عليهم السلام - جهارًا، أو عوده محادثته وتكليمه باطنًا سرًّا إلى سر سره، وتعاهده بأن يثبت في روعه، فأزح - وفقك الله - الارتياب وترقَ صعدًا في الأسباب.

بل كان سؤاله الآية عليه السلام - والله ونبيه أعلم - أن يعرفه أول تكوين الولد، وحين استقرار النطفة مقرها، وأن يجعل له على ذلك آية، فيحدث عند ذلك من الذكر والشكر ما يوافق ذلك ويطابقه، فجعل ﷻ آية ذلك أن يصاب بما يمنعه الكلام ثلاثة أيام سويًا؛ أي: وهو سوي الصحة.

واستثنى عليه السلام من الكلام الرمز والإشارة والإيحاء، فلما أصابه عليه السلام ذلك علم أن النطفة قد علقت، وأن الكون قد توجه إليها، وأمره ﷻ في تلك الحال ملازمة الذكر والتسبيح بكرةً وعشيًا شكرًا لله جلَّ ذكره على ما أولى؛ ليكون المزيد في النعمة حال الخلقة من قبيل الشكر عليها، وهو الذكر لله تعالى والعمل بطاعته، فأخرج الله جلَّ ذكره المطلوب الذي كان الشكر من أجله من قبل ذلك طهارة وطاعة له، ولم يجعله جبارًا عصيًا.

ألا ترى أنه ﷻ عقل لسانه عن الكلام الذي هو أشد أعضاء الإنسان تفلتًا إلى المكروه، وحرس عليه التسبيح والذكر، فكانت تلك آية على المدلول عليه بها من نحو ذلك، فافهم والله عليم حكيم.

﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ [مريم:١٥] كان عليه السلام قتل شهيدًا فهو حي بعد، وإنما يموت في مستقبل الأمر، ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ إشارة إلى المعنى بتسميته بيحيى ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا﴾ يوم البعث الآخر.

قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[1] [آل عمران:٤٢] كرر ﷻ وتعالى علوه وشأنه ذكر الاصطفاء في

---

(١) ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يراد بهذا الاصطفاء غير الاصطفاء الأول، وهو ما كان آخرًا من هبة عيسى عليه السلام لها من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وجعلها =

شخص واحد.

ومعنى ذلك - والله أعلم - أن الاصطفاء الأول هو ما يسبقه لأوليائه قبل معاني النبوة، والاصطفاء الذي حَمَّلها بجملة أحكامه في ذواتهم أولاً، ثم يفصلها ﷻ بعد تفصيلاً بالوحي والإنباء، وذلك مقوم النبوة في درجتها مقام الفطرة على الإسلام للمسلمين خاصةً، ثم لجميع الموجودات عامة.

سُئل رسول الله ﷺ: متى كنت نبيًا؟ قال ﷺ: «**وآدم بين الروح والجسد**»[١].

وأعرق من هذا في القدم ﷺ: «**إن الله خلق الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء**»[٢].

ومصداقه قول الله ﷻ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...**﴾ [آل عمران:٨١] هذا ما ذكره من شرح جبريل عليه السلام صدره صبيًا، واستخراج قلبه وغسله بماء زمزم بعد استخراجه منه العلقة السوداء، وقال: «**هذا حظ الشيطان منك**»[٣] وأفرغ الإيمان والحكمة فيه حتى ملأه.

وجاء: «**إن الله ﷻ أوحى إلى أرميا عليه السلام: إني قبل أن أخلقك اخترتك، وقبل أن أصورك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ**

=

وإياه آية للعالمين، ويحتمل أن يراد به الأول وكرر للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهن، وعلى الأول يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه السلام للتنبيه على أن كلاً منهما مستحق للاستقلال بالتذكر وله نظائر قد مرَّ بعضها، وعلى الثاني لا إشكال في الترتيب وتكون حكمة تقدم هذه المقاولة على البشارة الإشارة إلى كونها عليها السلام قبل ذلك مستعدة لفيضان الروح عليها بما هي عليه من التبتل والانقياد حسب الأمر، ولعل الأول أولى كما قال الإمام لما أن التأسيس خير من التأكيد. [تفسير الألوسي (٣/٣٠)].

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٧٥) والترمذي (٣٩٦٨) والحاكم في المستدرك (٤١٧٤) والبيهقي في دلائل النبوة (١٨) والطبراني في الكبير (١٢٤٠٧).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٢١٣)، والطبراني (٧٩٤٣) وفي الأوسط (٧٦٣٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤٣١)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٥٧)، وأحمد (١٢٨٤٢)، وابن حبان (٢٤٩)، وأبو عوانة (٢٥٧)، وأبو يعلى في مسنده (٣/٣٣٢)، والحاكم (٣٩٠٩)، والبيهقي في الدلائل (٤٦)، وعبد بن حميد (١٣١١).

أشدك نبهتك ولأمر عظيم اجتبيتك»(١).

ثم الاصطفاء الثاني حال يوم أهلها لكراماته، وتكليم الملائكة - عليهم السلام - إياها، وعلى سنن النشء بين ذلك حتى يكمل ﷻ النعمة على عبده المراد به، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثيرون، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد...**»(٢).

قوله ﷻ: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [آل عمران:٤٣] القنوت ها هنا: العبادة نفسها، فأشبه وجوهه طول القيام في الصلاة بمحاورته ذكر السجود.

وقيل: إنها لما خوطبت بهذا قامت لله ﷻ حتى تفطرت قدماها، فهذه صلاة الفضيلة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ يريد - والله أعلم - بما أراده المحافظة على صلاة الجماعة، كذلك قال جلَّ قوله لبني إسرائيل في الكتاب الذي هو التوراة وفي القرآن، ونحن المراد معهم في ذلك: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبورًا**»(٣).

﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا**

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٠)، ومسلم (٢٤٣١)، والترمذي (٣٨٨٧)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٧٦)، وأحمد (١٩٥٤١)، والطيالسي (٥٠٤)، والنسائي في الكبرى (٨٣٥٣)، وابن حبان (٧٢٣٧)، وعبد بن حميد (٥٦٧)، والطبراني (١٨٦٣٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٦٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٢)، ومسلم (٧٧٧)، وأحمد (٤٦٥٣)، وأبو داود (١٠٤٣)، وابن خزيمة (١٢٠٥)، والبيهقي (٢٨٦٠)، وابن أبي شيبة (٦٤٥٢)، والترمذي (٤٥١)، والنسائي (١٥٩٨).

إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٩].

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ....﴾[1] [آل عمران: ٤٥] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦] هذا كلام منظم بذكر الاصطفاء الثاني، تقديره والله أعلم: أو اصطفاك على نساء العالمين؛ إذ قالت الملائكة.... إلى آخر المعنى، والجملة متضمنة المعنى بذكر الاصطفاء.

قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ [آل

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: لم يقل اسمها؛ لأن معنى كلمة معنى ولد، والمسيح لقب لعيسى ومعناه: الصديق، قاله إبراهيم النخعي، وهو فيما يقال معرب وأصله الشين وهو مشترك، وقال ابن فارس: والمسيح العرق، والمسيح الصديق، والمسيح: الدرهم الأطلس لا نقش فيه، والمسح: الجماع، يقال: مسحها، والأمسح: المكان الأملس، والمسحاء: المرأة المسحاء التي لا إست لها، وبفلان مسحة من جمال، والمسائح: قسي جياد واحدتها مسيحة، واختلف في المسيح ابن مريم مماذا أخذ، فقيل: لأنه مسح الأرض؛ أي: ذهب فيها فلم يستكن بكن، وروي عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، فكأنه سُمي مسيحًا لذلك، فهو على هذا فعيل بمعنى فاعل، وقيل: لأنه ممسوح بدهن البركة، كانت الأنبياء تمسح به، طيب الرائحة، فإذا مسح به علم أنه نبي، وقيل: لأنه كان ممسوح الأخمصين، وقيل: لأن الجمال مسحه؛ أي: أصابه وظهر عليه، وقيل: إنما سُمي بذلك؛ لأنه مسح بالطهر من الذنوب. وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيخ، يقال: مسحه الله؛ أي: خلقه خلقًا حسنًا مباركًا، ومسخه؛ أي: خلقه خلقًا ملعونًا قبيحًا، وقال ابن الأعرابي: المسيح الصديق، والمسيخ الأعور، وبه سُمي الدجال، وقال أبو عبيد: المسيح أصله بالعبرانية مشيحًا بالشين فعرب كما عرب موشى بموسى، وأما الدجال فسمي مسيحًا؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، وقد قيل في الدجال مسيح بكسر الميم وشد السين، وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة، وبعضهم يقول: مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف، والأول أشهر، وعليه الأكثر سُمي به؛ لأنه يسيح في الأرض؛ أي: يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض محنة، وابن مريم يمسحها منحة، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول.

عمران:٣٣] من اصطفائه إياها أن جعلها تحمل بروح منه وكلمة منه ورحمة منه، وآية من آياته المسيح عيسى - صلوات الله عليه - على المعنى الذي قصه ﷻ في كتابه المنزل من قوله جلَّ قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا....﴾ [مريم:١٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١].

وهذه هي الكلمة التي ألقاها - جلَّ وتعالى - إلى مريم، والله أعلم باصطفائها بأن أغناها عن البعولة، وفرغ قلبها من ذلك لعبادته، وقطع ﷻ عنها الخواطر المشتغلات، وأقام لها أمره العلا وروحه القدس في حملها بخير البشر مقام البعل، فسميت: العذراء والبتول، وجعلها ﷻ وابنها آية للعالمين، على أن الله قادر على أن يخلق من غير ذكر، وأنه يصرف مقدوراته على مشيئته، وعلى أنه من أعلام الساعة، وذكر لها ورحمة منه أن ينصر به دينه القويم.

فصل

سماه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بالمسيح؛ لوصف صدق هو حامله، وحقيقته حق موجودة فيه المسيح الشبيه، والمسحة: قليل الشيء.

قال الشاعر:

وَعَضُّ زَمانٍ يا اِبنَ مَروانَ لَم يَدَع ... مِنَ المالِ إِلّا مُسحَةً أَو مُجَلَّفُ

يقول: لم يدع من المال إلا القليل منه، أو هو مجلف؛ أي: مقطع لا يشبه ماضيه بباقيه المجلف المقطع المغير صورته.

قيل للشاة المقطوعة الرأس واليدين والرجلين: جلف.

وكذلك المسحة: الخلف الشبه.

قال الشاعر:

على وجه ليلى مسحة من حلاوة

وقال رسول الله ﷺ: «لأن يطلع عليكم من وراء هذه الثنية رجل عليه مسحة

ملك»[(١)] فطلع عليهم جرير بن عبد الله البجلي - رحمة الله عليه - يومئذٍ مسلمًا، وكان يقال فيه من حسنه: يوسف هذه الأمة.

فاسم المسيح مبالغ من هذا مسح رسول الله ﷺ سبل الهداية، ومعاني القرب والخصوصية التي شاء اصطفاؤها على كل بشرى حتى تكامل عليه مما ذلك سبيله الروح، والكلمة إنه كان يخلق ﷺ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، فيكون طيرًا بإذن الله، وكان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويأتي بالآيات البينات، كان الإخبار بالغيوب له وطنًا، وما أيد به من روح القدس والنطق بالحكمة وتكليم الناس في المهد، هذا إلى ما يتكامل فيه حين نزوله ﷺ الذي عبرت عنه نبوة أشعياء - عليهم السلام - بقوله ﷺ: «**كفوا عن المرء الذي الروح في منخريه**»[(٢)] فإنه هو العلي.

ومصداقه في قول رسول الله ﷺ: «**فلا يحل لكافر أن يجد ريح نفسه أن يعيش**»[(٣)].

ومصداق هذا ما جاءنا أيتها الأمة، قول الله جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا**﴾ [مريم:٢١] أي: لنصر دين الله وإحيائه بعد إماتته، وكل الذي جاء به من مقدور غائب وآية، وإنما ذلك كله آيات على ما هو أعظم من ذلك وأكرم جدًّا، فالذي يحيي به إن شاء الله: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [المائدة:٨٣].

ومسيح الضلالة - لعنه الله وكبته وقصر مدته - على الضد من ذلك مسح على سبيل الضلالات، وبما يجمع فيه من أرواحها الخبيثة وأكذوباته الفظيعة وأفعاله، المشبه على الأكثرين إلا من عصم الله من شبهه.

جاء عن رسول الله ﷺ: «**إنه يمر بالقرية فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتخصب، فتأتيهم مواشيهم أدر ما كانت قط ألبانًا وأحفله ضروعًا،**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦٠٧)، والنسائي في الكبرى (٨٣٠٤)، والطبراني (٢٤٨٣)، وأحمد (١٩٦٩٩)، والحميدي (٨٣٦)، والحاكم (١٠٠٤)، وأبو نعيم في المعرفة (١٥١٦).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠)، والحاكم (٨٦٤٦)، وابن ماجة (٤٢١٣).

ويأتي القرية فيدعوهم فيعصونه، فيأمر السماء فتمحل والأرض فتجدب»[١] ثم على الضد.

اعلم - وفقنا الله وإياك وعصمنا وجميع المسلمين من فتنته - أن هذا الفعل على الحقيقة ليس بمضاف إليه، ولا وجوده عن أمره ذلك يأمر به، لكنه أمر من أمر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ويظهر ﷻ على يديه كما يظهر ما يكون عن فعل الساحر من التخييل والأخذ بالقلوب، ومن كائنات خارجة عن الحال.

وهذا الظاهر على يدي الدجال الملعون حقيقة السحر، ومنتهاه أشار الوحي إلى ذلك على ما سيأتي بعد إن شاء الله، وكل من قدر الله جلَّ ذكره وقضائه بما أراده الله ﷻ من فتنته، كما أن ضروب المعجزات المظهرة على أيدي الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم أجمعين - من فلق البحر وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونبع الماء من بين الأصابع وحنين الجذع والناقة، وغير هذا من الآيات البينات ليس من فعل الرسل والأنبياء - صلوات الله عليهم - بل هو فعل الله ﷻ لما يريده من هداية قوم أرادهم ﷻ بذلك، وإلزام حجة لمن أراده الله بعذابه وهلاكه، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته.

ومع هذا فإنه آية من الله ﷻ وافق به حين خروجه - لعنه الله - وكما وافق به خروجه كذلك وافق بظهوره كلامه الذي عبَّر عنه قول رسول الله ﷺ: «**فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت»**[٢] وبالضد.

وإنما ذلك وظائف أوجبها الله - جلَّ وتعالى - على السماء والأرض يومئذٍ، وعبادات فرضها ﷻ عليهن، يكون يومئذٍ ظهور الدجال - لعنه الله وكبته - يوم اقتضاء الله تلك العبادات، يطابق ذلك ما أراده من فتنة قوم وهداية آخرين، وإعزازًا بقوم وإذلالاً بآخرين، كإيجابه علينا صلاة الصبح حين انصداع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، وصلاة الظهر حين نزول الشمس والعصر قبل أن تصفر، والعشاء

---

(١) أخرجه مسلم (٧٥٦٠)، والترمذي (٢٤٠٦)، وابن ماجة (٤٠٧٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٤٩)، والحاكم (٨٦٢٠)، والطبراني (٧٦٤٤)، وابن عساكر (٢/٢٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

الأولى بعد غروبها، والأخير بعد غروب أثرها في أفق المغرب.

وكما لا يجوز لنا أن نعتقد أن الشمس أوجبت علينا هذه العبادات، ولأنها فعلت هذه الأفاعيل بحلولها هذه المحال أوقات اقتضائها منا، كذلك لا يجوز لنا أن نعتقد في هذه الأفاعيل التي تظهر عند مجيء الدجال - لعنه الله وكبته - أنها من فعله، كذلك ما ظهر من الغيوم التي تكون عند طلوع الأنواء من النجوم، والآثار التي تحدث بإذن الله ﷻ عند نهايات ما، وحلول محال ما على مقام ما، أنها كائنة على ظهور ما ظهرت عند ظهوره وحديث عند حدوثه، بل الواجبات أوجبها رب العالمين على تلك الأوقات وعلى ما حدث عنده، كما أوجب على المكلفين عباداته عند حلول أوقاتها، وأوجب حلول أوقاتها مجيء أمره، ووجب أمره بكلمته، وهو رب كل شيء ومليكه.

بيان آخر: وقد يكون ما يأتي به - لعنه الله - حقيقة سحر مشابه السحر حتى وصل إلى حقيقة لم يكن للسحر أن يصعد إلى حقيقة وجودها، كما يشاء وجود المعجزات من حقيقة الوجود المعتاد على أيدي الرسل الحق إلى حقيقة لم تكن لحقائق المعهود من العوائد أن تبلغ إليه.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من أمر من يوم خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة أعظم أمر من الدجال**»[1].

وكما مسح عيسى ﷺ سبيل الهدايات، فصعد به ذلك إلى حقيقة توحد بها بإذن الله تبارك وتعالى، ولم يكن لبشري قبله أن يبلغها، فكذلك الدجال - لعنه الله - في مسحه سبل الضلالات.

يؤيد ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه خطب الناس يومًا، فقال: «**أنذركم الدجال، وكل نبي قد أنذر قومه، وهو فيكم أيتها الأمة يكون قبل خروجه سنون خمس حتى يهلك كل ذي حافر**» قال له رجل: فيما يعيش المؤمن يا رسول الله؟ قال: «**مما يعيش منه الملائكة، ثم يخرج وهو أعور، وأكثر من تبعه النساء واليهود**

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٠٢)، وابن ماجة (٤٢١٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٧)، والحاكم (٦٣)، والطبراني (١٧٩٠٥).

والأعراب، يرون السماء تمطر والأرض تنبت»[١].

ووافق ما رواه المغيرة بن شعبة - رحمه الله - قال: كنت أكثر الناس أن أسال رسول الله ﷺ عن الدجال، فقال لي ﷺ: «وما يصيبك منه أنه لا يضرك» قلت: يا رسول الله إنه يجيء بكذا ويجيء بكذا، فقال رسول الله ﷺ: «هو أهون على الله من ذلك، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج بعدي فالله خليفتي على كل مسلم»[٢].

رجع الكلام إلى تمام حديث رسول الله ﷺ: «يقول الأعراب: ما تبغون؟ ألم أرسل السماء عليكم مدرارًا، وأحيي لكم أنعامكم شاخصة ذُراها، خارجة بطونها وخواصرها، دارة ألبانها، ويبعث معه من الشياطين على صور الآباء والأمهات ممن مات، فيأتِ أحدهم إلى ابنه وإلى أخيه أو ذوي رحمه، فيقول: تعرفني؟ ألست بفلان؟ اتبعه فإنه ربك يعمر أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاحتراق السفعة يرد كل منهل إلا المسجدين»[٣].

وقال رسول الله ﷺ في غير هذه الرواية: «له جنة ونار فناره ماء بارد وجنته نار»[٤] وهذا على وجود السحر، ولكل شيء نهاية، وهذه نهاية السحر لا يعطى ذلك غيره.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ

---

(١) أخرجه الطبراني (٢٠٤٠٩)، وابن حبان (٦٩١٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥٢).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠)، وأبو داود (٤٣٢٣)، وابن ماجة (٤٢١٣)، وأحمد (١٨٠٩٦)، والحميدي (٣٩٠).

(٣) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٤) أخرجه الطبراني (٧٦٤٤)، وفي الشاميين (٨٦١)، والحاكم (٨٦٢٠).

خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٠-٥٥].

قوله ﷻ فيما حكاه عن عبده ورسوله عيسى: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

هذا مصداق ما حدث به رسول الله ﷺ عنه من «**أنه** عليه السلام **عند مجيئه يزيد في الحلال**»[1].

وهو من إتمام كلمته فيه من قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١] فهو ﷺ نبي رحمة، وإتمام لما تقدم على يد غيره من نعمة لمن آمن به وصدق وعده ونصره، قفَّى الله ﷻ أنبيائه ورسله - عليهم السلام - وجعل محمداً ﷺ بين جيئتيه عليه السلام هو الخاتم، وعيسى عليه السلام هو المقفى والعاقب، وكل رسول مقفى لمن بعده وعاقب له.

فصل

سماه ﷻ بكلمة له؛ إما إضافة الكلمة إلى نفسه ﷻ فيما خصَّه به من معناها من إيجاد عنها كما شاء من آية وخلق وولاية، والكلمة علة الخلق ومقدار الهاء، وبها حدث المحدث، وبتمامها وقعت النهاية، وتمامها بالسنة، وسنة الله تعالى لا تحويل ولا تبديل عن مقصودها من إتمام الكلمة، وفي السنة: هو القدر خيره وشره حلوه ومره؛ لذلك قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ وصف الملائكة ﴿وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] هذا وصف السنة، وكل نفس منفوسة فهي كلمة.

قال الله عزَّ من قائل يوم أخذ الميثاق من ذرية آدم عليه السلام فقبض قبضة بيمينه، فقال: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**» وقال الله جلَّ قوله في أهل القبضة الأخرى وكلتا يديه يمين مباركة: «**هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الشاميين (٥٤٢)، وابن عساكر (٥٠٢/٤٧).

(٢) أخرجه مالك (١٥٩٣)، والبخاري في التاريخ الكبير (٩٧/٨)، وأحمد (٣١١)، وأبو داود =

وقال - جلَّ قوله - لإبليس لعنه الله: اذهب ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨].

وقال في مصداق ذلك: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

وآدم عليه السلام كلمة الله، قال له: «كن» هذه كلمة فيكون، هذه هي السنة في نسله، وما يكون منتظم من عمل أو رزق أو سعادة أو شقاوة إلى يوم القيامة، ثم في دار القرار، وعيسى - صلوات الله عليه وسلامه - كلمة، قال الله ﷻ له: «كن» فكان، ثم يكون أيضًا في جيئته الأخرى، بها تتم كلمته فيه ثم ما يكون منه، وله تجمع الخليقة بعد الموت، ثم بعد البعث والنشور، ثم في دار القرار على بقاء الأبد.

لذلك قال - وهو أعلم - عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان:٢٧].

وقوله ﷻ: ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩] تفصيلاً، فالسنة لكل كائن، والكلمات لا تبديل لها ولا تغير. ولا يجوز عليها النسخ ألبتة، ولا مبدل لكلمات الله، وإنما هو الصدق والحق في إتمامها، والعدل والقسط فيما هو متمم لها من سنة سبق كونها بالتقدير، إنما النسخ في الكتاب، والمحو والإثبات فيما أحاط به الكتاب، الذي عبَّر عنه: «**اكتب علمي في خلقي**»[1].

وهذه كلمته عن علمه ومشيئته، فما كان من الكائنات على سبيل السنة يكون المحو والإثبات كما سبق به كتاب القلم، قال الله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] وعلمه المحيط هو أم الكتاب، والإيمان بكلمات الله جلَّ ذكره من علي الإيمان.

قال الله ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ﴾.

وقال جلَّ قوله: ﴿فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ﴾

(٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، وابن حبان (٦١٦٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٥)، والحاكم (٧٤)، والضياء (٢٨٩).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٣٨).

[الأعراف:١٥٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم:١٢] فتخصيص تسميته عبده هذا بكلمة منه من الله؛ لما فيه من آيات دالات عليه ﷻ، ولله المثل الأعلى، ولما فيه من رحمة لعباده المؤمنين، فأحيا به دين الإسلام بعد موته.

فصل

سماه الله ﷻ بأنه روح منه، قد تقدم أن معنى إضافته إليه اختصاصه إياه خلقًا وأمرًا وولاية، ورضا به وكل ما هو حي، فملك الأرحام عليه السلام ينفخ فيه الروح، أو ما هو معناه وصفات الله جلَّ ذكره أعرب عنها وجود الموجودات، وشهدت له بها الشواهد كالقدرة والعلم والإرادة والحياة والسمع والبصر وغير ذلك، والروح فقد نطق بها القرآن العزيز بإيجاده إياه دلالة على الروح العلي جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه.

قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:٣٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢] عبَّر عن هذا كثير من الشواهد.

وفي الآثار: «**أنه أكبر خلق الله ﷻ**».

وقوله ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم:١٧] ظاهره: إنه رسول إليها من هذا الخلق الرفيع قدره، ذكر أنه جبريل عليه السلام فالله أعلم، آمنا بما هو الحق من عند الله، وعلى ما هو عليه من رفعة القدر، فإنه أمة من الأمم يفضل بعضه بعضًا، فهذا المرسل إلى مريم عليه السلام مما هو خاص رفيع أضافه إلى نفسه ﷻ، وكذلك الروح المنفوخ به في آدم عليه السلام، وإن النافخ في مريم - عليها السلام - قد نصَّ عليه أنه رسول من عند الله، فقد قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١].

وقال جلَّ قوله في آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢] فقد جمعهما معاني ذكر الخلقة، مع كون الخطاب بأنه وصف عن نفخ الله ﷻ كما هو بائن عن الله جلَّ ذكره، فهو غير له، وما كان غيرًا فهو خلق له وعبد.

وفي قوله جلَّ قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] شفاء لمن لقن عن حقيقة الخطاب، وإنما تواصل المخلوقون باجتباء الله إياهم وقربهم منه ومشيئته

فيهم، فاعلم ذلك.

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله﴾[1] [آل عمران:٥٢] الحرف الذي هو «إلى» في قوله: ﴿إِلَى الله﴾ يشير إلى التأجيل؛ ولذلك قال عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ الله﴾ [الصف:١٤].

كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله﴾ أي: أولى وأحرى.

وقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله﴾ دلت على التأجيل، واسم الله ﷻ على لقائه، أو ما يكون من نحو ذلك ما قد كان النص، فعزروه في الدنيا على ما كان، وبقي عليهم ما أنبأهم به من غيب ذلك، يدل على ذلك ما ذكرناه.

قوله عزَّ قوله: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ [الصف:١٤] وكانت الطائفة التي كفرت اليهود، ومن كان من سواهم ممن تابعهم على كذبهم.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] والذين آمنوا معه - عليهم السلام - فلم يؤيدوا على عدوهم، وإنما يظهروا عليهم بتأييد الله إياهم في جيئيته الأخيرة إن شاء الله، فهذه إشارة القرآن العزيز إلى غيبة ذلك، والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [آل عمران:٥٤] مكرت اليهود عليه بأن يقتلوه بزعمهم، وأبى الله ذلك فمكر له عليهم وهو خير الماكرين، كرمه عن إهانتهم وطهَّره

---

(١) قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله﴾ في الآية أقوال: الأول: إن عيسى ﷺ لما دعا بني إسرائيل إلى الدين، وتمردوا عليه فرَّ منهم وأخذ يسيح في الأرض، فمرَّ بجماعة من صيادي السمك، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زيدي وهم من جملة الحواريين الاثنى عشر، فقال عيسى ﷺ: الآن تصيد السمك، فإن تبعتني صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد، فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئًا، فأمره عيسى بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه، واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤوا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى ﷺ. والقول الثاني: إن قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله﴾ إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلبًا لقتله. [تفسير الرازي (٤/٢٢٠)].

من رجسهم، وشبه عليهم أمره؛ ليبلغهم من جزاء أعمالهم ما نووه ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ [آل عمران:١١٢] وسخط والله عزيز حكيم.

قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾[1] [آل عمران:٥٥] انتظمت كلمة «إذ» بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ [آل عمران:٥٤] التقدير: ومكر الله؛ إذ قال: يا عيسى... المعنى إلى آخره.

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ إشارة إلى التأجيل.

قد تقدم في الأخبار عن النصارى: أجعلك وأجعل من آمن بك واتبعك فوق الذين كفروا، يكون هذا في المستقبل من شأنك والآتي من جيئتيك عند يوم القيامة.

فصل

الوفاة مأخوذ معناها من الوفاء، أو من التوفية ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

وقد يكون من الإشراف على الشيء، أوفيت على كذا بمعنى: أشرفت، وفينا زيد بموضع كذا يفعل لذا أوفى عليه عمرو، ويخبر عن ذلك فيقال: وافاه بموضع كذا، كأنما المراد منه ﷻ بإيجاد الخليقة في الأرض بعدما ينيلهم مقدوره المقدر

---

(١) قوله: ﴿وَجَاعِلُ الذين اتبعوك فَوْقَ الذين كَفَرُواْ إلى يَوْمِ القيامة﴾ فيه وجهان: الأول: إن المعنى: الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة، فيكون ذلك إخبارًا عن ذل اليهود، وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة، فأما الذين اتبعوا المسيح ﵇ فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقته، فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث إن صريح العقل يشهد أنه ﵇ ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال، ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود، فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكًا يهوديًا ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة، وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك. الثاني: إن المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والدليل. واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ هو الرفعة بالدرجة والمنقبة لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة. [تفسير الرازي (٢٢٨/٤)].

لهم وعليهم، فبها الإنباء بما يكون، والإعلام بما هو الحقيقة في الدار الآخرة، وبما يجر إلى ذلك من علم ما هو مغيب عنهم، فمن توفي فقد وفَّى أجله ورزقه وعمله يوفيه، وقد وافاه أجله، وأوفى عليه رسول من عند الله جلَّ ذكره يزعجه من هذه إلى تلك، وبذلك يعلمه مما هو الآن لا يعلمه مما هو مغيب عنه.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وَكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١] وهو من أوفى عليه يوفي إيفاءً وتوفية، فهو يتوفاهم يتفعل ذلك دونهم؛ إذ ليس لهم في الموت كسب، ولا فيما يكون عن الموت، فيُوفي ملك الموت المحتضر هو أن يبدي له صفحته ويريه من رؤية الملائكة - على جميعهم السلام - وإعلام الآخرة ما لم يبدُ له قبل ولم يره.

وقد يضيف ﷻ الفعل إليه، فيقول عزَّ من قائل: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ما شاء أن يراها مما يرى النائم ﴿فَيُمْسِكُ الَتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢] فكان توفيته عيسى ابن مريم - صلوات الله عليه - ما أراه في سماواته من عجائب ملكوته وملائكته، وغير ذلك من أحكام رفعه إليه ﷻ.

ويضاد الرفع: الخسف؛ وذلك أن الرفع هو أن يلحق كثيفه بخفيفه فيصعد علوًا، والخسف يلحق خفيفه بكثيفه فلا تطيق الأرض، فتنخسف به ويذهب إلى باطنها، كما كان قبل يرسب في الماء والهواء المرفوع؛ إذ شابه أحكام الرفعة في حال الحياة الدنيا احتمله الماء فمشى عليه، وقد يرفع أن يحتمله في الهواء فيمشي فيه.

قال رسول الله ﷺ: «**كان عيسى يمشي في الماء ولو ازداد يقينًا لمشى في الهواء**»[1].

فلقد رفعه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فهو الآن يمشي في الهواء، وأمشى ﷻ رسوله محمدًا ﷺ ليلة الإسراء في الهواء ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد (٩٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٨)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٨٠٢).

الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

والإسراء على ذلك أيضًا، وقرينه النوم، والنائم يبسط حقيقة على ما شاء أن يريه، ويشهده إياه وهو مقيم في موضعه الذي نام فيه.

والإسراء الأعلى: هو أن يلحق ثقيله بخفيفه ويُسار به، فلا تعجزه مسافة بعدت ولا صعود، وإن علا المرتقى ولا سفل، وإن عرب الهواء، وربما كان من عجائب الله ﷻ في ذلك ألا يُفقد في مكانه، ولا يُعدم شخصه في مستقره، وهو في ذلك في الوجود كالملك ﵇ إنه ليكون في مصافه الذي جعله الله فيه، وينزل إلى الأرض بالرسالة من عند ربه ﷻ، أو ما يكون من أمره.

وأدنى الإسراء: أن يكون رؤيا رفعة، وكالنوم المستثقل جدًّا.

والموت: هو أن يفصل بين الخفيف فيطير عنه، والثقيل منه يثبت في المكان.

والذي قتلته اليهود وصلبته وما شبه به عليهم، فظنوا أنه هو وليس به، هذا خبر من الله ﷻ صدق وقول حق **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً﴾** [النساء:١٢٢].

وما ذكر أن عيسى ﵇ وافق بعض أصحابه على أن يجعل عليه شبهه فيُقتل مكانه، فخبر الله أعلم بحقيقته، ولو كان المقتول عدو لهم، فكان يكون لهم بذلك بعض الشفاء وفوز بعض الظفر، وكان يعدم - صلى الله عليه - من أصحابه الذي أوقع شبهه عليه.

وقد جاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل أنه قال لأصحابه - صلوات الله وسلامه عليه - قبل أن يُرفع: «الآن أذهب إلى الذي بعثني، وليس فيكم من يسألني حين أذهب» وهذا يدل من كتابهم أن ذهابه عن أصحابه بغير علم منهم، ولأجل ذلك لم يسأله أحد منهم حيث يذهب؛ إذ لا يعلم حين ذهابه.

قال ﵇: «وسينفعكم ذهابي؛ لأني إن لم أذهب لا يأتيكم الفارقليط، وإن ذهبت سأبعثه إليكم وسأجيء في الثالث» فظن النصارى أن قوله هذا: «سأجيء في اليوم الثالث» من يوم قتله الذي زعموه، فحكوا على ذلك حكاية إنهم وجدوا القبر الذي دفنوه فيه خاليًا، فذكرت لهم عجوز أنها رأته حين قام من قبره، وكلمها في هذيان لهم كثر، وإنما ذلك على ما جاء به دانيال ﵇، وقد أراه الله ﷻ وتعالى علوه وشأنه آياتًا وأمورًا هائلة مستغلقة.

قال: فقلت للملك: يا سيدي متى تنقضي هذه العجائب؟ قال: في زمان وزمانين ونصف زمان.

فكان دانيال عليه السلام في زمن شرع موسى - عليهما السلام - وهو الزمان الأول، وزمانين: شرع عيسى عليه السلام وشرع محمد ﷺ، ثم نصف زمان هذه كثرة إقباله ثانية، فذلك نصف زمانه.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٥] رجع الكلام إلى كلام عيسى عليه السلام.

ثم قال: «فستلبثوا يسيرًا ولا تروني، وستلبثون أيضًا يسيرًا وتنظرون؛ لأني منطلق إلى الرب» فمجيئه في الثالث هو مجيئه في زمن محمد ﷺ كما تقدم، وهو ثالث زمان موسى عليه السلام وأربع في العدد؛ إذ هو نصف زمان؛ لأنه آخر لأول تقدم له، وكما شبه عليهم في قتله كذلك شبه عليهم في مجيئه بعد ثلاث، وهذا كله يثبت أن المقتول المصلوب هو المثال المشبه به عليهم.

وكما يقع المغتاب في عرض أخيه المؤمن وهو لا يحس ذلك، ولا يشعر به ما لم بلغ إليه، وكذلك هو المقتول المصلوب بهذه المنزلة، ولم يحس عيسى عليه السلام منهم كما المغتاب من عقوبته في دار البرزخ أن يطعم لحم المظلوم بذلك، ولا يكون عذابًا للمظلوم، فأظهر الله ﷻ من مقدوره الغائب حقيقة ذلك شخصًا ظاهرًا جعل عليه شبهه.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

﴿وَتَمَّتْ﴾ على ذلك ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

وذكر أيضًا في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل أنه عليه السلام أخذ ثلاثة رجال من حواريه سماهم بأسمائهم، ثم صعد بهم في جبل منيف دون أصحابه، قالوا: وبدل صورته لهم، وأشرق وجهه إشراق الشمس المنيرة، وصارت كسوته أنصع بياضًا من الثلج، وتراءى لهم موسى وإلياس - عليهما السلام - وهما يحدثانه، فقال أحد الحواريين لعيسى: يا سيدي ما أحسن بنا المكث في هذا المكان، فإن كان يوافقك

نصبنا هنا هنا ثلاث قباب لكل منهم قبة.

فبينا هم كذلك إذ أظلتهم سحابة بيضاء، ونادى من السحابة صوت: هذا عبدي الحبيب الذي ارتضيته فاسمعوا له، فلما سمع التلاميذ جزعوا وخروا سُجدًا على وجوههم، فتدانى منهم عيسى عليه السلام، وقال: قوموا ولا تخافوا، فعند قيامهم لم يبصروا إلا عيسى - صلوات الله عليه - وحده، ثم قال لهم عليه السلام: سيأتي الناس ويجبر الصدع.

فهذا كتابهم يخبرهم بأنه رفع من بينهم، ولم يبقَ إلا ما شبه به عليهم، وأن الصوت قد بلغ به إليهم عهدًا، وجدد به لهم ذكرًا، وأمرهم أن يسمعوا وهم لا يعقلون.

واتفق هذا مع ما جاء به القرآن العزيز أنه ما قتلوه ولا صلبوه، وأنه رفعه الله عز وجل إليه، وأنه شبه عليهم لو كانوا يؤمنون.

ولما نزلت الآية التي في سورة الأنبياء - عليهم السلام - قوله: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ...**﴾ [الأنبياء:٩٨] إلى قوله: ﴿**وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ قال ابن الزبعرى: أنا أخصم محمدًا، وأكثر في ذلك من القال.

فلما كان من غد ذلك اليوم وأصبحت قريش إلى بواديها عند الكعبة، قال لرسول الله ﷺ: يا محمد أنت تزعم أن الله أنزل عليك ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ [الأنبياء:٩٨] فقد عبدت النصارى المسيح عيسى ابن مريم، وعَبَدَ غيرهم الملائكة، أفتقول: إن هؤلاء في جهنم؟ فأنزل الله جلَّ ذكره: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ...**﴾ [الأنبياء:١٠١] إلى قوله: ﴿**وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٣].

وأنزل الله جلَّ ذكره في ذلك في ذمِّهم: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾ [الزخرف:٥٧] برفع الصاد من الصَّد عن سبيل الهدى، وبكسر الصاد يصِدون: يكثرون الصياح والكلام، ما ضربوه لك إلا جدلاً.

إلى قوله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾ [الزخرف:٥٩-٦٠] فأخذ جل وعلا بالشفاء ما في الصدور، ولو شاء لجعل منا على ما نحن عليه من نسل آدم ملائكة في الأرض

يخلفون، ذلك عليه يسير هين، وهو على كل شيء قدير.

المِثل والمَثل والمثال: هو نفس الشيء الذي هو مثل له بوجه، وبوجه آخر ليس به، يعبر بأحدهما عن الآخر، وهذا موجود في القرآن العزيز.

العبارة بالرسول عبارة عمن اتبعه واهتدى به واقتدى، فالرسول مثل لمن أُرسل إليه فاهتدى به؛ إذ المهتدون يمتثلون أمره ويستنون بسنته، ويعملون بعمله؛ ليكونون منه ويكون منهم، فكان عيسى عليه السلام مثلاً لبني إسرائيل، ولما لم يهتدوا به رفعه الله عنهم، وأبدل فيهم مثلاً له، وزين لهم الشيطان سوء عملهم فعزموا على قتله وصلبه بزعمهم، فمكر الله بهم والله خير الماكرين، ولن يضر الله شيئًا ولا رسوله، والحمد لله رب العالمين.

أنفد لهم عزمهم فما ضرهم، وطهَّر رسوله عليه السلام برفعه من بينهم، وأورث ذلك الضلال خلفهم؛ ليبقى على الأولين أوزار الآخرين، ويلحق الآخرين شؤم الأولين بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٥٧].

يقول الله وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ...﴾ [النساء:١٥٧] إلى قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨].

فصل

ذهب الأكثر من المعتبرين وأهل الكلام على اللسان العربي أن اشتقاق الحواريين من الحواري؛ وهو البياض، وقالوا: إنهم كانوا يبيضون الثياب يقصرونها، فسموا من أجل ذلك بالحواريين، والأشبه في اشتقاقه أن يكون مشتقًا من الحور الذي هو الرجوع.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: ظن أن لن يرجع معاد إلينا.

وأما قولهم: «سميت الحواري؛ لبياضها» فليس إلا لأنها حارت إلى ذلك، وقد كان أولها في منبتها أن تتمحص لنا بها بالماء والأرض، ثم يخرج الله ﷻ عنها نباتها، فعادت باستعمالها وتخليصها من قشرها، ونخالتها إلى ما كان أصلاً لها.

وسميت الحوراء: «حورًا» لأنها حارت؛ أي: كانت حية في دار الدنيا، ثم ماتت وحارت راجعة بعد الحياة الآخرة.

ثم سموا نساء الجنة بذلك الاسم؛ إذ كل نسائها تبع للحائرات منهن - أعني: نساء الدنيا - وإنما خلقت الجنة للإنس والجن وسائر موجوداتها تبعًا لما خلقتا من أجله، كذلك خلقت النار لكفارهما، نعوذ بالله منها.

كذلك الحواريون مأخوذ اسمهم من الحور الذي هو الرجوع، وتسمية الله الذي هو الرجوع الأسماء ليست لصناعات الدنيا، بل هي على الأغلب لما وجدت له من عمل بأول الآخرة أو شقاوة أو سعادة أو ما إلى ذلك، وتصريف ذلك من حار يحور حورًا؛ أي: رجع، فإذا أنسبته فهو حاري على وزن فعلي، وحواري على وزن فعالي.

ولما ندب الناس رسول الله ﷺ - أعني: المسلمين - ليلاً في غزوة الخندق، فكانت ليلة شديدة البرد كما وصفها الله جلَّ ذكره ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩] فقال ﷺ: «من يأتني بخبر القوم؟» فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير ﷺ وعن جميعهم، فقال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حواري وإن حواريّ الزبير»[١] ذلك لانتدابه مرة، ثم رجع انتدب ثانية، ثم رجع فانتدب ثالثة.

و﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ [الصف:١٤] ولم يجدوا سبيلاً إلى نصرته يومئذٍ؛ ليغلب الكفار والفاسقين يومئذٍ، ولم يبلغ وقت نصرتهم بعد، وكانت نعمة من الله ﷻ عليهم فرفعه من بينهم، وحين جيئته الآخرة ﷺ يأتي أيدًا مؤيدًا بروح القدس.

كما قال ﷺ: «فلا يحل للكافر يجد ريح نَفَسه أن يعيش»[٢].

وكما أنبأك أشعياء ﷺ من أمره: كفوا عن المرء الذي الروح في منخريه، فإنه هو العلي.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم عند البيت رأيت رجلاً أدمًا كأحسن ما رأى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٣)، ومسلم (٢٤١٥)، وأحمد (١٤٦٧٥)، والترمذي (٣٧٤٥)، والحاكم (٥٥٥٨)، وابن أبي شيبة (٣٢١٦٨)، والطبراني (٢٢٨)، وعبد بن حميد (١٠٨٨)، وابن ماجة (١٢٢)، وابن عساكر (١٨/٣٦٠).

(٢) لم أقف عليه. وهكذا اللفظ في الأصل.

راءٍ من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما رأى راءٍ من اللمم، يقطر رأسه ماء - أو يهراق ماء - متوكئًا على عواتق رجلين أو على منكبي رجلين، فقلت: من هذا؟ قيل: هذا المسيح ابن مريم، ثم رأيت خلفه جددًا رُجلاً قططًا [ممتلأ] [1] الجسم، أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية، متوكئًا على عواتق رجلين أو على منكبي رجلين، فقيل: من هذا؟ فقيل: الدجال» [2].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنه يبعث معه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء، فيلقى الرجل فيقول: ألست بربكم؟ ألست أحيي وأميت؟! فيقول له الملك الذي عن يمينه: كذبت، فلا يسمعه أحد، فيجيبه الآخر الذي عن شماله ويقول: صدقت، يسمعه الناس، وهو إنما يصدق صاحبه في قوله: كذبت**» [3].

وقال في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: سيكون يومئذٍ حزن لم يكن من ابتداء الدنيا ولا يكون، ولولا قصر تلك الأيام لم يسلم أحد من الناس، ولكن قللت تلك الأيام لأجل الصالحين.

فأشبه هذا قول رسول الله ﷺ: «**السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كاحتراق السعفة**» [4].

رجع الكلام: فمن قال لكم يومئذٍ: إن المسيح ها هنا أو هناك فلا تصدقوه، فإنه سيأتي من يشبه بالمسيح وبالأنبياء، ويأتون بآيات عظيمة حتى يشك من يظن به صلاح، فقد أنذرتكم، فإن قيل لكم: هو في المفاز، فلا تخرجوا إليه، وإن قيل لكم: هو مخفي، فلا تخرجوا إليه، فإن فارًا من الإنسان سيخرج مخرج البرق الذي يندفع من المشرق فيرى في المغرب، فحيثما كان الجثمان فإليه تجتمع العقبان.

---

(١) في الأصل (موثواء) وهو لفظ غريب.

(٢) أخرجه مالك (١٦٧٥)، والبخاري (٥٩٠٢)، ومسلم (٤٤٣)، وأحمد (٦٢٤٣)، والطبراني في الأوسط (١١٢٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٥٣٣٠)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٩١)، وابن حبان (٦٣٣٧). اللمة: الشعر المتدلي الذي جاوز شحمة الأذنين، فإذا بلغ المنكبين فهو جمة.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٩٧٩)، والطبراني (٦٤٤٥)، وابن عساكر (٢/٢٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٠٩٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٥٩/٩)، وابن حبان (٦٨٤٢)، وأبو يعلى (٦٦٨٠)، والديلمي (١٣٠٦). السعف: ورق النخل وجريده.

وبعد انقراض ذلك الحزن تظلم الشمس، ويبلى يومئذٍ جميع أجناس الأرض، وينظرون إلى الملك مقبلاً في سحاب السماء في قدره عظمة شديدة.

فصل

جاء عن رسول الله ﷺ في مسيح الهدى ﵇ وفي مسيح الضلالة - لعنه الله وكبته وقصر مدته - ما جاء، وإنه ينبعث معه الشياطين أمثال الآباء والأمهات، وإنه يجيء معه ملكان أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله يشبهان نبيين من الأنبياء.

وأما الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل، فإنه أشار بل كاد أن يصرخ بأن أحدهما يشبه عيسى ابن مريم في قوله: ها هو المسيح ها هنا أو هناك فلا تصدقوا، فإنه سيأتي من يشبه المسيح، وبالأنبياء ويأتون بآيات عظيمة حتى يشك من يظن به صلاح، فإن كان هكذا، فإن النبي الآخر المشبه به هو محمد ﷺ؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**يمكث أربعين يومًا فعاث يمينًا وشمالاً، يا عباد الله أثبتوا**»[1] وكيف بالثبات إلا من عصمه الله؟! حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا.

وجاء أيضًا عن رسول الله ﷺ: «**إن أهل الكهف يبعثون معه**»[2] واعتقد ذلك أولو العلم ممن سلف.

ويدل على صحة ذلك قول رسول الله ﷺ: «**من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[3].

وآخر هذه العشر آيات: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف:١٣] إلى ما يكون اختلاف في عدد الآي، فيكون معنى قوله ﷺ: «**من قرأهن عصم من الدجال**» لقرب [وقت][4] بعثهم، وما تجر إليه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وابن ماجة (٤٢١٣)، وأحمد (١٨٠٩٦)، والطبراني (٧٦٤٤)، وفي الشاميين (٨٦١)، والحاكم (٨٦٢٠) وقال: صحيح على شرط مسلم، وأبو نعيم في المعرفة (٥٨٣٧). عاث: أفسد.

(٢) لم أقف عليه هكذا.

(٣) أخرجه مسلم (١٩١٩)، وأحمد (٢١٧٦٠)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٨٧)، والحاكم (٣٣٩١) والبيهقي (٥٧٩٣).

(٤) في الأصل (تركه).

الشواهد من ذلك الزمان.

وجاء عنه أنه قال: «**من قرأ أواخر سورة الكهف عصم من الدجال**»[1] ومن أواخر آياتها ذكر الخضر وذي القرنين عليهما السلام، ومصداق هذا تسميته ﷺ إياه: «ذي القرنين».

يشير إلى هذا المعنى قول رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**وإنك لذو قرنيها**»[2] يعني: الأمة؛ أي: إنك خليفة في أولك ونسلك خليفة في آخرها، وفي هذا اعتقد قوم أنه حي، وأنه تكون منه رجعة فيفعل ما يفعل الوصي، فإنهم ادعوا أن رسول الله ﷺ جعله وصيًا وهذا لم يثبت، وإنما يكون في نسله، ومنهم يكون الرجل الصالح المهدي المبشر به، فهذا أوقع أولئك في هذيانهم من قولهم بالرجعة.

وكان ذو القرنين عليه السلام هو الذي بنى السد دون يأجوج ومأجوج، فمنعهم ذلك من الانبساط على الأرض، وقال عليه السلام لما فرغ: ﴿**هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**﴾ [الكهف:٩٨].

والإشارة في قوله: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي**﴾ فجعله وعدًا، وإنما كان في حقه وعدًا لما وعد به من النصر لدين الإسلام يومئذٍ، فإخبار رسول الله ﷺ بخروجهم، وهذا إنذار في حق هذه الأمة، وليس بوعد في جنتهم.

فصل

لعل من سمع ما تكلمنا به يحسبه هذيانًا؛ لخروجه عن المعهود، فلا يتعسرن عليك هذا - رحمك الله - فإنه الجد ليس بالهزل، وما تكلمنا به فلم يعدم إذًا خطاب القرآن وحديث رسول الله ﷺ، وإن كان الأكثر في غفلة عما يراد بهم، فعليك بالإيمان والتسليم، ولم يُجعلا - أعني: مسيح الهدى عيسى ابن مريم عليه السلام، ومسيح الضلالة لعنه الله - كل واحد منهما إلا آية، وأعظم دلالتيهما على أمر

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩)، وأحمد (٢٧٥٥٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٨٦)، وابن حبان (٧٨٥)، والروياني (٦١٣)، والخطيب (١/٢٩٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢٢٧)، وأحمد (١٣٧٣)، والحاكم (٤٦٢٣) وقال: صحيح الإسناد، وابن حبان (٥٥٦٨)، والطبراني في الأوسط (٦٨٥)، وأبو نعيم في المعرفة (٣٢٥).

الساعة والبعث وما فيما هنالك، فافهم.

قال رسول الله ﷺ وذكر عشر آيات قبل قيام الساعة: «**أولها: طلوع الشمس من مغربها**»[١] وطلوع الشمس من مغربها إشارة من الله - جلَّ ذكره - بأن يوم الدنيا قد يُقضى، ويوم القيامة قد أظل.

ولذلك قال إبراهيم ﷺ للجبار الذي حاجه في ربه لما قال: أنا ربك، قال إبراهيم ﷺ: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ [البقرة:٢٥٨] فكان ذلك علمًا للدجال في نبوة إبراهيم، كما كان السامري علمًا له في نبوة موسى - صلى الله عليهما - كما كان ابن صياد علمًا في نبوة محمد ﷺ وعلى جميعهم.

فأجاب إبراهيم ﷺ ذلك الجبار بقوله ﷺ: ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ أي: إن هذا لا يتهيأ لك إلا بأن تطلع الشمس من مغربها ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ [البقرة:٢٥٨] لعجزه عما كسر به حجته عليه، وبقي بنا إبراهيم صلوات الله وسلام عليه متوجهًا إلى معنى ما تقدم.

وروى إياس بن عبد الله المزني قال: غزونا مع رسول الله ﷺ أول غزاة غزاها - غزوة الأبواء - حتى إذا كنا بالروحاء نزل بعرق الظبية فصلى، ثم قال ﷺ: «**أتدرون ما اسم هذا الجبل؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا حمت جبل من جبال الجنة، اللهم بارك فيه وبارك لأهله فيه**».

وقال للروحاء: «**هذا سجاسج وادٍ من أودية الجنة، لقد صلى في هذا المسجد سبعون نبيًا، ولقد مرَّ بهذا موسى ﷺ عليه عباءتان قطويتان على ناقة ورقاء، في سبعين ألف من بني إسرائيل حاجين البيت العتيق، ولا تقوم الساعة حتى يمر به عيسى ﷺ عبد الله ورسوله حاجًا أو معتمرًا، ويجمع الله له ذلك**»[٢].

قال كثير: فحدثت هذا الحديث محمد بن كعب القرظي، فقال لي: ألا أرشدك في حديثك؟ قال: قلت: بلى، قال: كان رجل يقرأ التوراة والإنجيل فأسلم فحسن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، والطيالسي (١٠٦٧)، وأحمد (١٦١٨٨)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢١٨٣) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (١١٤٨٢)، وابن ماجة (٤٠٥٥)، وابن حبان (٦٧٩١)، وعبد بن حميد (٣٢٦).

(٢) أخرجه الطبراني (١٣٤٩٠)، وابن عدى (٥٨/٦).

إسلامه، فسمع هذا الحديث من القوم، فقال: ألا أرشدكم في هذا الحديث؟ قالوا: بلى، قال: أشهد أنه لمكتوب في التوراة التي أنزلها الله على موسى، وأنه لمكتوب في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم عبده ورسوله، وإنه يمر بالروحاء حاجًا أو معتمرًا، ويجمع الله له ذلك، ويجعل حواريه أهل الكهف يمرون معه حجاجًا، فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا، من إسناد أبي يحيى عبد الله بن أبي ميسرة.

وفي الذي روى عن رسول الله ﷺ أنه رآه على عواتق رجلين أو على منكبي رجلين لمن لقن الخطاب أعظم دليل أنه محمول مؤزر بحمله، من شاء الله هدايته في الدنيا وشهد له.

وذكر في مسيح الضلالة - لعنه الله - أنه متكئ على رجلين أو على عواتق رجلين، وقد مضت الإشارة في المشبهين بهما، فهو على حالة التهمة المحيلة محمول على مؤزر لا يراه على حقيقته من نقص وغدر وكذب وكفر إلا أولوا اليقين التام والعلم والعصمة.

وإلى هذه الدقيقة الإشارة بقول رسول الله ﷺ: «**بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن**»[1] يعني: كامل الإيمان تام اليقين رصين العلم.

وقوله ﷺ: «**يا عباد الله، فاثبتوا حين يأتيكم أمر الله**»[2] فيكشف لكم عن تخييله وباطله وتوصيته؛ لثبوت أن الحق بأيديكم والباطل والتخييل عنده.

وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل: قال ﷺ: لو لم أقبل عذرًا لهم لم يكن قبلهم ذنب، ولكن لا عذر لهم اليوم، فلو لم أطلع عندهم من العجائب ما لم يطلع غيري لم يكن لهم ذنب، فإذا أقبل الفارقليط الذي أبعث إليكم من عند ربي الروح الصادق المنبثق من الرب، هو يؤدي الشهادة عني وأنتم تشهدون؛ لأنكم معي من أول الأمر، وإنما أقول لكم هذا؛ لئلا يواقعكم الشك.

ومن نظر في قول الله ﷻ في الثلاثة الأمثال، من لدن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٣)، ومسلم (٢٩٣٣)، وأبو داود (٤٣١٦)، والترمذي (٢٢٤٥) وقال: حسن صحيح، والطبراني (٤٣٠)، وأحمد (٢٥١٣٣)، والحاكم (٨٦١٤)، وإسحاق بن راهويه (٩)، وابن عساكر (١٩٦/٦٢).

(٢) تقدم تخريجه.

حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة:٢٥٨] إلى آخر المثل المضروب لإبراهيم ﷺ.

قوله: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] وليضف إلى ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ وفيما بين ذلك وقف على تبيان الأمثال مع إعلام الأنباء والأخبار.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٥٦-٦٤].

قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨] نبّه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه على ما قصه من قصص، وعلمه من علم، وأودعه من حكمة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥] والآيات هنا ما نص عليه، وما عرَّض به، وأعرض إليه في القرآن العزيز والذكر الحكيم هو - والله أعلم - ما تلاه ﷻ من اصطفائه إبراهيم وآدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، وبخاصة ما تلا علينا ﷻ من ذكر مريم وابنها عيسى، وزكريا وابنه يحيى - عليهم الصلاة والسلام - وما هما مؤهلين له في المستقبل.

وهذا كله منتزع من الذكر الحكيم، الذي قال جلَّ قوله للقلم: «اكتب علمي في

خلقي»[1] أحكمت آياته، ثم فصلت إلى ما فصلت إليه، ثم إلى ما فصلت على لسان رسول الله ﷺ، ثم على ألسنة العلماء من أمته.

قال الله ﷻ: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٤٤].

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ...**﴾[2] [آل عمران:٥٩] المَثل والمِثل كالشبه والأثر والبدل، والبدل: العشق، والمثل: نفس الشيء، وهو ما يعبر عنه بالمثل [والعين والشبه] ونحو هذا، وكذلك المثال: مثال الشيء: صفاته وما هو منه، وبه قرأ علي بن أبي طالب وطلحة بن مصرف - رضي الله عنهما: ﴿**مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ**﴾ [الرعد:٣٥].

ويروى عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أيضًا: «**أمثال الجنة**».

وبالجملة: فالمثل هو ما يشبه به الشيء؛ ليفهم، فيضرب له مثلاً من غيره يكون ذلك المضروب به المثل معلومًا عند المضروب له المثل، فيُفهِّم ذلك المجهول بالمعلوم، فضرب الله ﷻ مثلاً للجنة التي غيبت عنا بما هو عندنا معهود بأنهار من

---

(١) ما بين [ ] مضطرب غير واضح بالأصل، ولعل المثبت أقرب للصواب، والله أعلم.

(٢) قال القرطبي في «تفسيره»: دليل على صحة القياس، والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب، والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد، فإن آدم خلق من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أب، ولأن أصل خلقتهما كان من تراب؛ لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طينًا، ثم جعله صلصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جعله بشرًا من غير أب، ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي ﷺ قوله: «إن عيسى عبد الله وكلمته» فقالوا: أرنا عبدًا خلق من غير أب، فقال لهم النبي ﷺ: «آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم ﵇ ليس له أب ولا أم» فذلك قوله تعالي: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ**﴾ أي: في عيسى ﴿**إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ في آدم ﴿**وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾ [الفرقان: ٣٣] وروي أنه ﷺ لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: «كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولدًا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب» فقالوا: من أبو عيسى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ الله عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٦١] فدعاهم النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم نارًا، فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلام أو الجزية أو الحرب» فأقروا بالجزية.

ماءٍ ولبن وعسل وخمر، وأن فيها من كلِّ الثمرات.

هذه هي صورة الدنيا غير أنها لا تطيب للمؤمن إلا رضوان الله ﷻ ومغفرته، فضمن ذلك المثل فهو خير من جهةٍ ما، وتقريب الأفهام من أخرى، ولما كان ما هنا من موجود أنهار ماء ولبن وعسل وخمر ورضوان وجنات ونعيم أصل من موجود الجنة، كان مثلاً ومثالاً؛ إذ الدار الآخرة لهذه الدار الدنيا بالإضافة إلى وجودها، كالقافية والأولى والمثال وما يعبر عنه به.

وعلى القول بالتحقيق فإن هذه الدار التي هي حجاب وحاجز ومثال وآل للدار الآخرة، وهذه الحياة حجاب وحاجز دون الحياة الوسطى التي هي أول لتلك الحياة الآخرة، ومثال لها وآل، ولولا هذه لكانت تلك، وإنما الدار الوسطى - أعني: البرزخ - محله ينزل فيها الأولى حتى بعدم الآخرة.

وعلى هذا فهي - أعني: الوسطى - أكبر من هذه جدًا وأوسع وأحق حقيقة، وهي صغرى بالإضافة إلى الدار الآخرة رجع الكلام، ولأجل هذه المقاربة أشكل على بعضهم، فقال: المَثل: الخبر، والمِثل: الشبه، والمثال أيضًا: المماثلة، والمثال: الفراش، وجمعه: مُثُل.

وفي الحديث من وصف الجنة: «**يفرش لأحدهم سبعين مثالاً، على كل مثال حوراء تفوق الشمس حسنًا**»[1].

والتمثيل: التشبيه، والتمثيل أيضًا: المثلة، والمثلة: العقوبة.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾ [الرعد:٦] والمثول: القيام، ومنه: «من أحب أن يمثل له الرجال صفوفًا» يعني: قيامًا.

ومنه: «تماثل فلان من مرضه» إذا أفاق، والماثل: اللاطي في الأرض.

ومنه: قول الشاعر:

ومـــــنها مـــــستبين وماثـــــل

والأماثل: الأشابه، وفي الحديث: «**أشد الناس بلاءً: الأمثل فالأمثل**»[2].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢١٥)، وأحمد (١٤٨١)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، =

وأماثل القوم: أعيانهم، والطريقة المثلى: المستقيمة، والتمثال: الصورة، والجمع: تماثيل، وقد يكون مثل الشيء نفسه.

قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة:١٣٧] أي: بما آمنتم به.

وقال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] أي: ليس كهو شيء؛ لأنه لا مثل له ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

قال جلَّ قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

وأما تشبيهه ﷻ عيسى بآدم - صلوات الله وسلامه عليهما - بحرف التشبيه، وما ماثل ﷻ بينهما من أجله، فلذلك لو كان وافق بينهما في أصل الخلقة ومعاني صفات لهما.

ذكر بعض المفسرين من أهل التحصيل والنظر في معاني القرآن أنه وجد عيسى شبيهًا بآدم عليه السلام في خمسة عشر خصلة؛ أشبهه في التكوين كانا بعد أن لم يكونا، وفي أنهما مخلوقين من العناصر التي ركب الله عليها الدنيا، وتساويا في فقد الأب، وفي العبودية، وفي النبوة، وفي المحنة؛ وذلك أن عيسى عليه السلام قاسى من اليهود ما قاسى، وعانى منهم ما عاناه، وعارضه إبليس - لعنه الله - في المقار، وقاسى آدم عليه السلام من إبليس ما قاساه، وكانا معًا يأكلان ويشربان، وتساويا في الفقر والفاقة إلى الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] فنسله يخرجه ﷻ بعضهم من بعض إلى أن تقوم الساعة.

وتساويا في التركيب والتأليف، وتساويا في الأجزاء والأبعاض، وتساويا في الرفع والإنزال، وذلك أن آدم عليه السلام رفع إلى الجنة ثم أنزله إلى الأرض، ورفع عيسى عليه السلام، وسينزل إلى الأرض ونزوله من أشراط الساعة.

=

والترمذي (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٤٠٢٣)، وابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم (١٢١).

وتساويا في الإلهام؛ حيث قال آدم لما عطس: «الحمد لله»، وقال عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ﴾ [مريم:٣٠].

وتساويا في العلم؛ بيان ذلك: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] وقال - جلَّ من قائل - في عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨].

وتساويا في نفخ الروح فيهما، وتساويا في الموت ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [العنكبوت:٥٧] فنال بهذه الفائدة الكاف والتشبيه، وإلى هذا كله فإني أرى - والله أعلم - أن التمثيل المقصود بالإخبار عنه، والتشبيه هو أن هذا كله له، وهذا كله له، خلق جل جلاله آدم من تراب، ثم قال: «كن» كإرادتي فيك ومشيئتي منك فكان، ثم هو يكون إلى قيام الساعة.

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ فنسله جل جلاله يخرجه جل جلاله بعضه من بعض إلى أن تقوم الساعة، كذلك خلق جل جلاله عيسى عليه السلام حين نفخ الروح في مريم - عليها السلام - بكلمة ألقاها إلى مريم أن كن بمشيئتي منك وإرادتي فيك فكان، ثم هو يكون إلى أن ينزله جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه إلى الأرض حكمًا مقسطًا وإمامًا عدلاً؛ ليتم جل جلاله بكلمة فيه إلى أن يقبضه عليه السلام، وهذا هو المقصود.

والله يقول جلَّ قوله: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

وإنما تولى الإخبار عن آدم عليه السلام، واجتزى به عن الإخبار عن عيسى عليه السلام، وما تقدم ذكره من قول المفسرين، فهو أيضًا حق وصدق.

وما يدل على نزوله إلى الأرض القرآن العزيز؛ قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً﴾[1] [آل عمران:٤٦] فقد تقدم تكليمه إياهم في المهد، ويبقى عليهم

---

(١) فيه مسائل: أولاً: أن تكلمه حال كونه في المهد من المعجزات، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات، فما الفائدة في ذكره؟ والجواب من وجوه: **الأول:** أن المراد منه بيان كونه متقلبًا في الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلهًا. **والثاني:** المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه، ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة. **والثالث:** قال أبو =

أن يكلمهم كهلاً؛ لأنه ﷺ رُفع قبل أن يبلغ الكهولة، بل كان رفعه في سن الثلاثين ونحوها صلوات الله وسلامه عليه.

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا...﴾ [آل عمران:٦١] إلى قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:٦٣] فينتظم هذا بما تقدم ذكره مجاورةً ومعنى.

أما المعنى كما استصحب ذكره من إثبات عبوديته وخلقته إياه، وإنه عبده بمثابة عبودية آدم عليهما السلام.

قال جلَّ قوله: ﴿جَاءَكَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] والذين امتروا في عيسى ﷺ هم اليهود وكذبوه وردُّوا أمره، ثم النصارى غلوا فيه وقالوا قولاً عظيمًا.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٦١] عيسى بعدما أعلمناك به هذا الحق فباهلهم، ثم علمهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كيف المباهلة؛ وهو أن يقول وقد جمع الرجال والنساء والأبناء، ثم يقول المبتدئ والله: إن هذا الذي أنزله الله من قصصه في عيسى ابن مريم ﷺ لحق: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦٢] العزيز عن افترائكم العلي عن عظيم كذبكم، وجهلكم الحكيم في حكمه وتنزيله، فلعنة الله على الكاذبين.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [آل عمران:٦٣] عن المباهلة، والمباهلة: الابتهال إلى الله ﷻ

=

مسلم: معناه أنه يكلم حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة، وذلك لا شك أنه غاية في المعجز. **الرابع**: قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.
ثانيًا: نقل أن عمر عيسى ﷺ إلى أن رفع كان ثلاثًا وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير فهو ما بلغ الكهولة. الجواب من وجهين: الأول: بينا أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل التام، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين، فصحَّ وصفه بكونه كهلاً في هذا الوقت. والثاني: هو قول الحسين بن الفضل البجلي: إن المراد بقوله: ﴿وَكَهْلاً﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ويكلم الناس ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه ﷺ سينزل إلى الأرض. [تفسير الرازي (٤/٢١٠-٢١١)].

بالدعاء والتضرع في فصل الحكم هنا وسؤال الحاجة، فإن الله عليم بالمفسدين، وهذه الآية أصل الملاعنة، ومصداق لما بيّنه رسول الله ﷺ من ذلك، ويمكن أن يكون ذكره صفة العزة في الآية بجعل عباده للمباهلة، هو العزيز فلا تناله الأحكام، الحكيم في حكمته، له المثل الأعلى في السماوات والأرض.

فصل

ثم أمر جلاله وتعالى علاؤه وشأنه نبيه ﷺ بأن يصرف الخطاب إلى الكتاب دعاء إلى الله ﷻ، وإلى إعطاء كل ذي حق حقه من السواء والعدل في العبودية، وإفراد الوحدانية لله وحده لا شريك له، وجدلاً ومحاجة في الاقتداء بالأولى، وسلوك الطريقة المثلى، ونصحية لله جلَّ ذكره ولرسوله ﷺ ولكتابه مع التبليغ إلى الاتباع، وتوبيخًا لهم أن أوتي أحد مثلما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم، تكتمون الحق وتلبسونه بالباطل، وتؤمنون بما أنزل الله على رسوله وجه النهار وتكفرون آخره؛ ليرجع بزعمهم من آمن عن إيمانه، ويثبت من كفر على كفره، وأنتم تعلمون أن الهدى هدى الله.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٦٩ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [آل عمران: ٦٥-٧٤].

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [آل عمران:٧٣-٧٤].

ثم هكذا يكسر ﷺ عنهم مذاهبهم، ويغلب الحجاج عليهم، ويؤنبهم على ترك الوفاء بالعهد.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾ [آل عمران:٧٥-٧٧].

ويوعد على ذلك أشد الوعيد بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً...﴾[1] [آل عمران:٧٧] إلى قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾ [آل عمران:٧٨-٨٠].

---

(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أولئك لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخرة﴾ أنها نزلت فيمن أخذ مالاً بيمينٍ فاجرةٍ. ورُوِي عن النَّبي ﷺ: «إنّ الله يُؤَيِّد هذا الدِّين بأقْوَامٍ لا خَلَاقَ لَهُم» ومعنى ذلك على وجوهٍ: أحدها: إنّه لا خلاق له في الآخرة إلّا أن يَتُوب. الثاني: لا خلاق له في الآخرة إلّا أن يَعْفُوا الله عنهُ. والثالث: لا خلاق له في الآخرة كخلاق من سأَلَ الله تعالى لآخرته، وكذلك لا خلاق لمن أخذ مالاً بيمينٍ فاجرةٍ كَخلاق من تورَّع عن ذلك، ونظير هذه الآيةِ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. [تفسير اللباب لابن عادل (٢/٤٥٦)].

ثم ضرب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وجه الخطاب إلى معنى ما تقدم من ذكره، من اللبس والكتمان، وتبديل الوحي وإنزاله عن منازله، والكذب على الله ﷻ وكتابه ورسوله وهم يعلمون الحق، ثم صرف وجه الخطاب أيضًا إلى ما تقدم من معنى المحافظة على دين الإسلام، والتمسك بالتوحيد الخالص، والتبري من أن يكون أنزل به سلطانًا، ومن رام ذلك دعا إليه كائنًا من كان بقوله جلَّ قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران:٧٩].

والمراد الأول بذلك عيسى ابن مريم وعزير وكل الأنبياء والملائكة صلوات الله وسلامه على جميعهم، والعلماء بل الذي أمرهم أن يقولوا الأتباع: كونوا ربانيين؛ أي: طائعين لله عابدين له عاملين بما يحب ويرضى، والتزموا ذلك ذكرًا وقولاً وعقدًا وعملاً حتى يعرفون به وينتسبون إليه، ومن أكثر من شيء عرف به، واعلموا ذلك وأَعلِموا به وادرسوه ودرِّسوه إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠].

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾[آل عمران:٨١-٨٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...﴾ [آل عمران:٨١].

الميثاق: ما استوثق به من شهود على المستوثق منه أو يمين، والعهد والوصية

فيه من معنى الميثاق حكم اللزوم والارتباط والعهود كثيرة، والأهم منها عهد الربوبية، ويقابله عهد العبودية، وفي ضمن عهد الربوبية التوحيد عقدًا وقولاً وعملاً، ثم ينبسط على المعرفة بأسماء الله وصفاته، وما يجوز عليه وما يستحيل لديه.

وعهد النبوة منطوٍ في العهد الأول، وفي عهد النبوة ومعرفة خاصة النبوة، والفرق بين المرسل والمدّعي والمتنبئ والنبي في النبوة وصف يلحق بالنبوة، وقد تقدم ذكره، ويأتي عليه الإنباء؛ لأنه من صفاتها، والمقصود بهم في الإرسال إلى العباد: التبليغ عن الله جلَّ ذكره والتبيين عنه.

ثم ينبسط هذا العهد على معرفة الشرائع ومناهج الإسلام كلها، وسبل المحنة والابتلاء، ومعرفة الجزاء العاجل والآجل، والمقصود المراد بالمرسل أحد المعنيين السمع والطاعة، وحسن الاقتداء والإيمان والإسلام، ثم التبليغ وإقامة الحجة والإعذار والإنذار؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ثم عهد العلم والمراد به من العالم: التبليغ والاتباع والتبيين، والرفق بالمتعلمين، والصبر على إقامة ذلك، ومقابلتهم من العلم بما تحتمل أفهامهم وعلى مقدار منازلهم وأحوالهم، فالعهد الأول منتظم للثاني والثالث كما العهد الثاني منتظم للثالث.

وكذلك ما خاطب القرآن العزيز على نحو ذلك حتى إن ذكر الأعلى طوى فيه ذكر ما هو دونه، فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران:٨١] وحذف ﷻ ذكر ميثاق أممهم، واللام في قوله: ﴿لَما﴾ للتأكيد في الميثاق، والميم اسم لما أخذ عليهم الميثاق من أجله وهو الكتاب والحكمة، وعطف بحرف «ثم» على محذوف مقدر، تقديره والله أعلم: فعلمتم به والتزمتم، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم.

والمقصود الأول بذكر الرسول ﷺ هنا هو محمد، ثم عامة الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - على أزمانهم ونوبهم بدل الأول على الثاني، ويبشر بمن بقي، ويصدق الثاني الأول ومن سبقه.

والمراد بذكر الرسل - عليهم السلام - هنا أممهم، فهو جلَّ ثناؤه لما أراد أخذ الميثاق على النبيين أحضر معهم الأمم، وخاطب الأنبياء - عليهم السلام - وطوى

خطاب أممهم في ذكرهم، وأحضر كلاً نفسه وما المراد به، وعهد إليهم ﷻ بعهد الربوبية، وما كان ذلك من العهود، ثم بعهد النبوة وما تضمنه، ثم بعهد العلم وما تضمنه أيضًا.

ثم قال لجميعهم: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي: بالعبودية للربوبية والشهادة بالوحدانية، والسمع والطاعة والاقتداء بالنبوة والرسالة ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: ثقل ميثاقي، واحتمال الكره في إقامة عهودي، وتنفيذ ما أمرتكم به، ولكم إن أطعتم الرضا بالجنة، وعليكم إن أبيتم اللعن والعذاب ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

والمراد الأول بالإشهاد للرسل - عليهم السلام - والأئمة، ثم الجميع يشهدون على أنفسهم، والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الأول والآخر والظاهر والباطن.

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد الإقرار والإشهاد والشهادة ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨٢].

ثم قال - جل من قائل - يخاطب الجميع: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[(١)] [آل عمران:٨٣] ذكر في غير

(١) قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ﴾ قال الكلبي: وذلك أن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبيّ ﷺ فقالوا: أينا أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبيّ ﷺ: «كِلَا الفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِ» فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فنزلت هذه الآية. قرأ عاصم في رواية حفص «يَبْغُونَ، يُرْجَعُونَ» كلاهما بالياء، وقرأ أبو عمرو «يبغون» بالياء و«ترجعون» بالتاء، وقرأ الباقون كلاهما بالتاء على معنى المخاطبة، فمن قرأ بالياء يعني: أفغير دين الله يطلبون من عندك، ومن قرأ بالتاء يعني: أفغير دين الله تطلبون. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ أي: أخلص وخضع ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الكلبي: أما أهل السماوات فأسلموا لله طائعين، وأما أهل الأرض فمن ولد في الإسلام أسلم طوعًا، ومن أبى قُوتِل حتى دخل في الإسلام كرهًا، وما أفاء الله عليهم مما يسبون فيجاء بهم في السلاسل فيكرهون على الإسلام. وقال مجاهد: يسجد ظل المسلم ووجهه طائع، ويسجد ظل الكافر وهو كاره. وقال مقاتل: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني: الملائكة ﴿وَالأَرْضِ﴾ يعني: المؤمنين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يعني: أهل الأديان يقولون: الله ربكم وخالقكم، فذلك إسلامهم وهم مشركون، معنى قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خضعوا من جهة ما فطرهم عليه ودبرهم، لا يمتنع ممتنع من جبلة ما جبل عليها، ولا يقدر على تغيير ما خلق عليها طوعًا وكرهًا. ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كما خلقكم؛ أي: كما بدأكم فلا تقدرون على
=

هذا الموضع عهدًا آخر أخذه ﷻ عن الجميع، أظهر فيه ذكر الميثاق، وذكر عهد الربوبية، وأبطن فيه عهد الرسالة وما تضمنته وميثاقها، فقال جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢].

ثم حذف ﷻ ذكر الرسل - عليهم السلام - والأئمة والأمراء والاقتداء فقالوا: بلى، وهو جواب على تقدير، والتقدير معهوده أن يكون بعد معرفة تقدمت للمقرر، وربما قدر فيه، فالجواب: «بلى شهدنا» أي: بما أعلمتنا أو بما تقدم لنا قبل.

ثم أظهر ﷻ ما كان أبطن بعد الإظهار، وقال: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] في هذا محذوف تقديره: إنا فعلنا هذا من تقديركم على صحيح معنى الربوبية في العبودية منكم، وصحيح القول والعقد بالرسالة والرسل، وما جاؤوا به من أمر ونهي وكتاب، واقتداء وائتمام بهم وإيمان بذلك كله، وإسلام لله ﷻ من أجل أن يقولوا كذا وكذا.

لم ترسل إلينا رسولاً ولا أنزلت علينا كتابًا فاستصحبنا الغفلة، هذا كأن يكون جوابهم أو ما يكون في معناه في عهد النبوة والرسالة ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٣] فهذا أيضًا كأن يكون قولهم في عهد الربوبية والتوحيد والنبوة.

ولذلك قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1] [النساء:١٦٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

=

الامتناع، كذلك يبعثكم كما بدأكم. قرأ عاصم في رواية حفص «يرجعون» وقرأ الباقون بالتاء. [بحر العلوم للسمرقندي (٢٨٦/١)].

(١) قال الزمخشري: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، واحتجاجهم عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كسائر الأنبياء الذين سلفوا، انتهى، وقدم نوحًا وجرده منهم في الذكر؛ لأنه الأب الثاني، وأول الرسل، ودعوته عامة لجميع من كان إذ ذاك في الأرض، كما أن دعوة محمد ﷺ عامّة لجميع من في الأرض.

لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٧٤].

قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء»[١] فخلق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه الخلق يومئذٍ.

كما جاء: «إن الله خلق خلقه في الهواء صورًا كالهباء»[٢] ومعنى قضائه القضية والله أعلم: أخذه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أهل اليمين يمينه.

وقوله جلَّ قوله: «هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون»، وقوله جلَّ من قائل: «هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[٣] في القبضة الأخرى.

وأما أخذه ﷻ ميثاق النبيين كما ذكره القرآن العزيز، وقال - جلَّ من قائل - في أخذ الميثاق على العلماء: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

قوله جلَّ من قائل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

وقال عزَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ...﴾ [الحج:١٨].

قد تقدم الاعتبار بجملة العالم فأغنى عن تكراره خشية الإطالة، لكنه ينبغي لمن نظر في هذه المسألة أن يعرض ما تقدم ذكره من ذلك على نظره، وله فيه أحسن العون - إن شاء الله - فأول معرفة المؤمن بتسبيح الموجودات وسجودها وصلاتها هو الإيمان بذلك والتصديق بما أخبر الله ﷻ، وأنه العليم الخبير بحقيقة ذلك.

ثم اعتقاد ما قاله السلف - رحمة الله على جميعهم - الذين تكلموا على أصول الديانات، وأنهم قالوا ﷺ بأنها تشهد بما هي عليه من افتقار الخلقة، ونقص الحدث على أنفسها بما هي عليه، وتشهد لبارئها ﷻ بالعبودية عليها، وكمال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) تقدم تخريجه.

الربوبية فيه وخالص الوحدانية، فشهادتها على أنفسها بما هي عليه دلت وخضعت وقنتت وسجدت؛ وذلك سجودها وشهاداتها له بما هو له أهل لتنزيه وتسبيحه وتلك فطرتها، وبما شهدت به من خالص الوحدانية، آمنت بطاعتها له في نفس وجودها أسلمت، وجملة هذا كله هي صلاتها.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

ومن ذلك أن تعلم أن أصل المحنة ومنبعثها على الأغلب هو تكليف حركة عن سكون أو سكون عن حركة، فحركة النفس على الأغلب إلى الهواء وهو محبوبها، وتكونها عن الحق وهو عليها ثقيل، فأتى الشرع آمرًا لها بالسكون على الهوى والتحرك إلى الحق، فعلى هذا السبيل - وفقنا الله وإياك لما يرضيه - تطلب السجود من النبات والجماد والحيوان، فإن الأصل كله واحد والشريعة سواء.

غير أن من ذلك ما جمد في الجامد وأعرب في المعرب، وحركة التدوار مركبة من حركة وسكون، ابتداؤها من سكون إلى سكون انتهاؤها، وما بين ذلك حركة وسكون؛ لذلك انعطف سير بعضها على بعض، فكانت حركة نحو الوسط، وكذلك الحركة المستقيمة من حركة وسكون، لكن بطن فيها السكون، وظهرت الحركة والمنحنى والمعوج ما بين ذلك، وعلى الأغلب فهي على هذا ساجدة حال سكونها جارية على سيرها، وجريها وسيرها عمل لها وعبادة منها لربها - عزَّ جلاله - من حيث هي متوجهة إلى ما وجهت له.

هذا سجود كل ذي حراك من حيث حركته وسكونه سواء اعتمادها على القصد لعبادة بارئها ﷻ فيما بينها وبينه، وأما سجود الجمادات والنبات وهو جامع لهذه الموجودات كلها، فله اعتبار من جنس هذا، وذلك أنها أجسام مركبة من أجزاء مجمعة والتجميع والتفريق عرضان متعاقبان، واعتبار التجميع حياة كما اعتبار التفريق من هذه الجهة عدم، والعدم سكون على جهةٍ ما، إلا أنه أعرق منه في معناه.

ولما كان عن الكلمة «كن» وإخباره بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:٤١] ثم معهود اسمه القيوم والقائم، ومشيئته في إبقاء

الموجودات إلى أجلها لم يكن بين التجميع والتفريق فصل، ولا زمان محسوس، ولا إرادته ﷻ في إظهار الموجودات بخلاف إرادته إبطان الموجود، وإظهار الأعدام والعدم.

ولما بطن التفريق في الموجودات أشبه الأعدام وجود السكون في الخط المستقيم، ومعلوم أن حركة الساكن عبادة وسكون المتحرك عبادة، تقف - رحمنا الله وإياك - بفهمك على هذا الاعتبار بتصحيح من نظرك فهو خفي، فمتى أشكل عليك أو عزب[1] فهمه، فاعلم يقينًا أن صنع الله ﷻ حارَ إلى كل مصنوع حال فنائه، جارٍ كجري الماء إلى مصبه، فإذا شاء صانعه ﷻ إبقاءه أبطن الإعدام وأظهر الإيجاد، وبالضد فخلقت على تلك الحال حال العدم.

قال ﷻ في مصداق ما ذكرناه: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] فأخبرك نصًا بإبطان العدم حال الإيجاد.

وسئل رسول الله ﷺ عن الجبال، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا...﴾ [طه:١٠٥] وهذا هو سيرها.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧] فهذا إعدامها إذا شاء ذلك أظهر الإعدام وأبطن الوجود، ولها صلاة وسجود وتسبيح وعبادة وقنوت، هو أظهر من هذا يظهره الله جلَّ ذكره لمن شاء من عباده، وهو المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] والله أعلم بما أراده يظهره، أو يظهر منه ما شاء لمن شاء من خصوص عباده.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩] يريد الله ﷻ من ذلك لرسله وأنبيائه - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وأوليائه أكثر، وقد تقدم في بعض ما مضى من الاعتبار أن سبيله في وجود الموجودات ها هنا على سبيل النشأ من صغير إلى كبير، وإنما يظهره الله في الآخرة، فالجماد جمد على أكثر صفات الحياة، وانشرح ذلك في النبات، ثم في الحيوان، ثم في الإنسان، ثم في

---

(١) عَزَبَ الرَّجُلُ يَعْزُبُ: إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَهْلٌ. انظر: المصباح المنير (١٢٧/٦).

المؤمن، ثم في الولي، ثم في النبي، ثم في الملك.

وأصل الموجودات الماء، والماء عن الهواء، والهواء عن الروح، والروح عن الكلمة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] فاعلم ذلك وأيقن أن السلام المؤمن أسلم له كل شيء وآمن به علوًا وسفلاً، ثم الإيمان والإسلام بعد حاص الماء قدره من المشيئة فيه يُحَاصُ كل نشأ إليه[1] ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[آل عمران:٨٥-٩٠].

قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] [آل عمران:٨٦] المعنى الأولى بهداهم أهل الكتاب هم الذين آمنوا بالكتاب والنبوة، وفي كتابهم ونبوتهم أن هذا الرسول حق وجاءهم بالبينات، ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

كيف يهدي الله من قد لعنه وأبعده عن هدايته وغضب عليه وأعرض عنه؟! نسأل الله العفو والعافية والمغفرة.

---

(١) عبارة فيها اضطراب تم تصويبه.

(٢) اعلم أن الله تعالى استعظم كفر القوم من حيث أنه حصل بعد خصال ثلاث: **أحدها**: بعد الإيمان، **وثانيها**: بعد شهادة كون الرسول حقًّا، **وثالثها**: بعد مجيء البينات، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلاحًا بعد البصيرة وبعد إظهار الشهادة، فيكون الكفر بعد هذه الأشياء أقبح؛ لأن مثل هذا الكفر يكون كالمعاندة والجحود، وهذا يدل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل. [تفسير الرازي (٤/٢٨٩)].

وكلمة ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ المعني به: استبعاد في مشيئة الله ومجرى سنته من آمن ثم كفر، ثم آمن ثم كفر، ثم ازداد كفرًا لم يكن الله ليغفر له ولا ليهديه سبيلاً.

وفي باقي حال الخطاب يتوجه إلى المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا، وقد أعقب بذكرهم في مثل هذا الخطاب في موضع آخر من كتابه سيأتي ذكره إن شاء الله؛ لذلك قال في هؤلاء وهؤلاء: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧-٨٨].

ومن رحمته - عزَّ جلاله - لم يحجر عليهم القبول ولا منعهم التوبة ولا منعهم أن يكسبوها، فقال جلَّ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [آل عمران:٨٩] فتوبة يهود وأهل الكتاب: تبيان ما كتموه، والإيمان بما كفروا به وإصلاح ما أفسدوه.

وتوبة المنافقين: الإيمان بما كفروا به وتصديق ما كذبوه من الحق، والإخلاص في الإيمان، والإقلاع عن المراءاة وما جرَّ إليها.

هذا وهذا من سورة البقرة وسورة النساء مفصلاً مبينًا، ومعتمد هذا الوعيد على حال الخاتمة هناك يتحقق الاستبعاد من التوفيق وسبل الضلال منهم، وكل ما جاء من عزم وعيد بأنه تعالى لا يغفر لا يتوب ولا يقبل توبة تائب، فمعتمد ذلك على حال الخاتمة إلى ما وراء ذلك.

وربما تعجل من ذلك بشؤم الذنوب ورجس الإصرار، وعدم الانتباه إلى التوبة، واستصحاب الإعراض عن التذكير بقوله جلَّ قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران:٩٠] معناه: لن يوفقوا لتوبة تُتقبل منهم متى شاؤوها، ولذلك كانوا في تفعلها كالذي تخبطه الشيطان من المسّ، فهو يعمل على غير نية، ويؤسس بنيانه على شفا جرف هار، وصفهم رسول الله ﷺ، فقال يصف قومًا في آخر هذه الأمة: «يتهوكون كما تتهوك اليهود في الظلمة يقرون بالذنب ولا ينتهون»[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٦٣٠) بلفظ: «يَتَهَوَّكُونَ فِيهَا تَهَوُّدَ الْيَهُودِ فِي الظُّلَمِ».

ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩١-٩٧].

ثم أبان الحق وفصل الحكم، وأظهر أمر الآخرة بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران:٩١]. (١)

قوله ﷻ: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢] لما ذكر ﷻ الإسلام، وأن لا دين سواه مقبول عنده، وتقدم أن الإسلام هو الدخول في السلم كافة لله، وللرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، وكان كل شيء قد أسلم لله ينفق مما عنده.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣].

وقال جلَّ قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

---

(١) من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيامة نقيرًا ولا قطميرًا، ومعلوم أن بتقدير أن يملك الذهب فلا ينفع الذهب ألبتة في الدار الآخرة، فما فائدة قوله: ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَبًا﴾؟ الجواب فيه وجهان: **أحدهما**: إنهم إذا ماتوا على الكفر فلو أنهم كانوا قد أنفقوا في الدنيا ملء الأرض ذهبًا لن يقبل الله تعالى ذلك منهم؛ لأن الطاعة مع الكفر لا تكون مقبولة، **والثاني**: إن الكلام وقع على سبيل الفرض، والتقدير: فالذهب كناية عن أعز الأشياء، والتقدير: لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء، ثم قدر على بذله في غاية الكثرة لعجز أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله، وبالجملة فالمقصود أنهم آيسون من تخليص النفس من العقاب. [تفسير الرازي (٢٩٥/٤)].

ذكر ﷻ الإنفاق، فنظمه بما تقدم من ذكره في مفتتح تلاوة التنزيل، قوله جلَّ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:٣] ثم ما أثنى عليه من ذكره جلَّ ذكره إلى تمام السورة، ثم إلى قوله: ﴿وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢] أي: بطيبه وحلاله ومقداره، وحيث يوضع، والنية في توجيهه.

ثم صرف وجه الخطاب إلى أهل الكتاب، ونظمه بما تقدم من خطابه، وإياهم على لسان رسوله ﷺ لما أراد الله ﷻ خطاب المؤمنين خصَّهم بخطابه مواجهة، ثم عبَّر فعرض بأهل الكتاب؛ إذ لم يستأهلوا مواجهته بأن يخاطبهم، فقال جلَّ قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران:٩٣].

ثم حذف ﷻ هنا موضع إنكارهم مفهوم ما تلاه علينا، فأجابهم ﷻ على ذلك من إنكارهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كتابه ورسوله بما لم يأذن به ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران:٩٤] والتعريض بأهل الكتاب.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا﴾ يا أيها الذين آمنوا ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ قويمًا قائمًا على الإسلام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥].

وتعرض ﷻ بالرعاية لأهل الكتاب برفع هممهم صعدًا إلى أن يؤمنوا، فيضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وليكونوا أمة واحدة على دين واحد يعبدون ربًّا واحدًا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو.

ثم بيَّن لهم ﷻ الرعاية إلى أول الأمر، وأن ما كان عليهم من إصرٍ وغلٍّ إنما كان بشؤم ذنوبهم وعقوبة عتوهم على أنبيائهم، قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] [آل عمران:٩٦] يدعوهم ﷻ إلى

---

(١) اعلم أن قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ يحتمل أن يكون المراد كونه أولاً في الوضع والبناء، وأن يكون المراد كونه أولاً في كونه مباركاً وهدىً، فحصل للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان: الأول: إنه أول في البناء والوضع، والذاهبون إلى هذا المذهب لهم أقوال؛ أحدها: ما روى الواحدي رحمه الله تعالى في «البسيط» بإسناده عن =

استقبال البيت الحرام وصفهم بالبركة لما تحط عنده من الأوزار، وتجاب عنده من الدعوات.

وقال - جلَّ قوله - فيه: «إنه بيتًا» أي: مسجدًا قبله.

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ﴾ أي: مساجدكم في الأرض المقدسة ﴿قِبْلَةً﴾ [يونس:٨٧] والمساجد بيوت الله.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦].

وقال جلَّ قوله فيه: ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ممن توجه إليه بمقصود الصلاة لله وحده، فإن الله ﷻ مواجه مخاطب له مناجٍ راضٍ عنه، وعن عمله ذلك فيه آيات بينات، منه: آية بناء إبراهيم أبيهم - صلوات الله وسلامه عليهم - وأنه مقامه فيه، وموضع قدميه ﷺ في الحجر الصلب خلد الله تلك الآية على الأبد.

ومن الآيات أيضًا: إنه من دخله كان آمنًا، وأنه بلد لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا منشد له حرام أمن يتخطف الناس من حوله، وهم فيه آمنون.

ومن آياته: جعل الله ﷻ أفئدة الناس تهوى إليه بالزيارة، وإقامة المناسك لله حوله وعنده، تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنا، كرامة أكرم بها بيته الحرام

=

مجاهد أنه قال: «خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرضين» وفي رواية أخرى: «خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى» وروي أيضًا عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى بعث ملائكته فقال: ابنوا لي في الأرض بيتًا على مثال البيت المعمور، وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم». وثانيها: إن آدم ﷺ لما أهبط إلى الأرض شكا الوحشة، فأمره الله تعالى ببناء الكعبة وطاف بها، وبقي ذلك إلى زمان نوح ﷺ، فلما أرسل الله تعالى الطوفان رفع البيت إلى السماء السابعة حيال الكعبة، يتعبد عنده الملائكة، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك سوى من دخل من قبل فيه، ثم بعد الطوفان اندرس موضع الكعبة، وبقي مختفيًا إلى أن بعث الله تعالى جبريل ﷺ إلى إبراهيم ﷺ، ودله على مكان البيت وأمره بعمارته، فكان المهندس جبريل والبناء إبراهيم والمعين إسماعيل عليهم السلام. [تفسير الرازي (٣٠٦/٤)].

وبلده المكرم، وإجابة لخليله القانت الحنيف ﷺ جعل الله ﷻ بيته الحرام أمنة لأهل الأرض، فإذا أصيب هذا البيت أتى الناس ما يوعدون، ومن لم يتظلل بظل الله جلَّ ذكره ولم يقبل كرامته ولم يسمع لدعائه وكفر بآياته، فإن الله غني عن العالمين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ [آل عمران:٩٨-١٠٣].

أعلم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أن هذا عنده معلوم متوارث عرفانه، فقال جلَّ قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:٩٨] أي: شهيد على خلاف أعمالكم عليكم، أظهر ذلك بقوله الحق: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾[١] [آل عمران:٩٩] فانتظم هذه الآيات، ومعنى ما جئن به بمعنى ما تقدم من سورة البقرة عندنا، أمر ﷺ بصرف القبلة إلى البيت الحرام.

وقوله هناك جلَّ قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا

---

(١) إن قلت: كيف تبغونها عوجًا وهو محال؟ قلت: فيه معنيان: أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجًا بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك. والثاني: إنكم تتعبون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يصدّ عنها إلا ضال مضلّ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم أمورهم، وهم الأحبار ﴿وَمَا الله بِغَافِل﴾ وعيد. [الكشاف (٣٠٣/١)].

قِبْلَتَكَ...﴾ [البقرة:١٤٥] فأعلم ﷻ بخطابه هذا بما يكون منه يوم القيامة، فانتظم هذا بقوله: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾** [البقرة:١٤٦-١٤٧].

قوله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ...﴾** [آل عمران:١٠٠] إلى قوله: **﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [آل عمران:١٠١] الفريق الذي نهى الله عن طاعته من أهل الكتاب هم الكفار منهم، واليهود قد قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، وقال هؤلاء في هؤلاء: ليسوا على شيء، وهؤلاء في أولئك: ليسوا على شيء وهم يتلون الكتاب.

وفيه: إنهم كانوا على هداية لو اتبعوها وبينوا ما عندهم ولم يكتموه، فهذه هي الفرقة التي من أطاعهم من المؤمنين كان كافرًا في طاعته إياهم، وفيما انتحله من نحلهم والفرقة الأخرى؛ إذ لفظ الفريق هو من الافتراق: المؤمنون، فإنهم أهل الكتاب.

قال الله ﷻ: **﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾** [آل عمران: ١٠١].

وقال: **﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله....﴾** [آل عمران:١١٣] أي: على الإسلام يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، إلى قوله جلَّ قوله: **﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران:١١٥].

وقال - جلَّ قوله - في موضع آخر: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾** [آل عمران:١٤٩] فلم يخص ﷻ شيئًا من شيء.

قوله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ...﴾**[1] [آل عمران:١٠٢] إلى قوله جلَّ قوله: **﴿وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾**

---

(١) قال سيدنا أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] تلف النفس في =

[آل عمران:١٠٩] انتظم معنى هذه الآية بما مضى دلهم قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ على حقيقة الهداية وحق تقاته، كقوله: ﴿**مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦] من حق الله شيئًا أن يتقيه حق، لكنه قد جعل ﷻ بعضه فوق بعض درجات في القوة والعلم والصبر، وهو لا يكلف نفسًا إلا ما أتاها بعد أداء الواجب المفروض بحقيقة التقوى، على مقدار البشرية هؤلاء لأهل الغلبة عن عباده الذين مدحهم واجتباهم.

ثم هم بعد على منازل من التقوى على مقدار حظوظهم من حقيقة التقوى، وما آتاهم ﷻ من الأيدي والأبصار والملائكة - عليهم السلام - يقولون: «**ربنا ما عبدناك حق عبادتك**»[(١)] فمن لم يستفرغ جهده وينقضي وسعه، وقد وقع في المحظور بعد ذلك.

وبوجه آخر: أن يكون معنى قوله: ﴿**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ فيما سبيله المناهي كلها من الكفر والشرك والمعاصي ونحوها، وقوله جلَّ قوله: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن:١٦] أي: في العمل بطاعة الله وابتغاء مرضاته، وفي نوافل الخير.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا**»[(٢)] للمناهي لا رخصة في إتيانها، والعمل بطاعة الله ما عدا الفرائض على قدر الطاقة، وقد بين الله ﷻ ذلك فيما اتبعه من التلاوة في الموضعين، فقال جلَّ قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ....**﴾ [آل عمران:١٠٢].

=

مواجبه. وقال القاسم: بذل المجهود، واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنَّ أوابل طرف الوصول التلف. وقال الواسطي: هو إتلاف النفس في مواجبه. وقال ابن عطاء: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه. وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع فضله فيما رغمنا فيه من استعمال مواجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى.

(١) أخرجه الحاكم (٤٥٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٦).

(٢) أخرجه الشافعي (١/٢٧٢)، والبخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧)، وأحمد (٧٤٩٢)، والنسائي (٢٦١٩)، وابن ماجة (٢)، وابن حبان (٣٧٠٤)، وابن خزيمة (٢٥٠٨).

وقال - جلَّ قوله - في الموضع الآخر: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن:١٦].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] إن لم يكن الموت كسبًا لنا، فإن ما هو كسب لنا لزوم الإسلام واعتقاده وتفعله، ومن عاش على شيء صادقًا به مات عليه لا محالة.

فصل

في هذه الآية من الفقه عن الله جلَّ ذكره أنه من أسلم لله وجهه بحبٍ وودٍ وإخلاص وصدق، ملازمًا صابرًا مؤثرًا للطريقة المثلى بصدق من عزمه وحقيقة من ذاته، فالله أكرم من أن يخذله عند موته، بل الله أسرع منه إليه بالحبِ والودِ وأصدق وعدًا وأوفى عهدًا، وإنما قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس»[1].

فقد أخبر الصادق الصدوق ﷺ بحقيقة المعنى قوله ﷺ: «فيما يبدو للناس» وهذا لم يصحح بينه وبين الله ﷻ أصل وجهته، وأهمل عقد البيعة، ولم يسدد نيته بالإيثار والحب بالولاية لله والبراءة ممن سواه في الأصل والفرع، فافهم فإنها مزلة، كيف لا يكون هكذا وهو القائل ﷻ: «أنا عند حسن ظن عبدي بي»[2]؟!

وهذه عبارة عن عباده الذين هم عباده؛ ليظنوا به ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ما شاؤوا، فإن عنده ما يربوا على آمالهم، ويزيد على علومهم من حسن المثوبة وكريم المآرب، وعلى ما ذكرنا جاء وعد الصادق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:٥-٧].

أن العبد إذا أخلص في العمل بطاعة الله ييسره عليه، ولا يجعل له منازعة إلى سواه، ثم ييسر له ذلك عند الموت فختم باليسرى، ثم فيما بعد الموت ييسره إلى ما يقتضي ذلك، وبالضد نسأل الله عفوه ومعافاته ومغفرته، وهو القائل جلَّ قوله:

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١١٢)، وعبد بن حميد (٤٥٩)، والروياني (١٠٥٢)، والطبراني (٥٨٠٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠١٦).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله﴾ [التوبة:١١١].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢].

﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قوله عزَّ من قائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[1] [آل عمران:١٠٣] حذر ﷺ المؤمنين مما أصاب أهل الكتاب من الفرقة والتحازب.

---

(١) قال تعالى: ﴿واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن نعم الله على الخلق إما دنيوية وإما أخروية، وإنه تعالى ذكرهما في هذه الآية، أما النعمة الدنيوية فهي قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ وفيه مسائل: المسألة الأولى: قيل: إن ذلك اليهودي لما ألقى الفتنة بين الأوس والخَزْرَج وهَمَّ كلٌّ واحد منهما بمحاربة صاحبه، فخرج الرسول ﷺ ولم يزل يرفق بهم حتى سكنت الفتنة، وكان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مئة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام، فالآية إشارة إليهم وإلى أحوالهم، فإنهم قبل الإسلام كان يحارب بعضهم بعضًا ويبغض بعضهم بعضًا، فلما أكرمهم الله تعالى بالإسلام صاروا إخوانًا متراحمين متناصحين وصاروا إخوة في الله، ونظير هذه الآية قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرض جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا كان معاديًا لأكثر الخلق، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معاديًا لأحد، والسبب فيه أنه ينظر من الحق إلى الخلق فيرى الكل أسيرًا في قبضة القضاء والقدر فلا يعادي أحدًا؛ ولهذا قيل: إن العارف إذا أمر أمر برفق ويكون ناصحًا لا يعنف ويعير، فهو مستبصر بسر الله في القدر. المسألة الثانية: قال الزَّجاج: أصل الأخ في اللُّغة من التوخي وهو الطلب، فالأخ مقصده مقصد أخيه، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين صاحبه ما في قلبه، ولا يخفي عنه شيئًا، وقال أبو حاتم: قال أهل البصرة: الإخوة في النسب والإخوان في الصداقة، قال: وهذا غلط، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ولم يعن النسب، وقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ إخوانكم﴾ [النور: ٦١] وهذا في النسب. المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله؛ لأنه تعالى خلق تلك الداعية في قلوبهم، وكانت تلك الداعية نعمة من الله مستلزمة لحصول الفعل، وذلك يبطل قول المعتزلة في خلق الأفعال، قال الكعبي: إن ذلك بالهداية والبيان والتحذير والمعرفة والألطاف. [تفسير الرازي (٤/٣٢٧)].

قوله: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أنذرهم مما كان منهم من القتال والمحاربة في جاهليتهم أن يعودوا إلى ذلك حال غفلتهم، وذكرهم بما فعل أهل الكتاب من ذلك في بيوتهم.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران: ١٠٤-١١١].

وقوله جل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] هذا كله تخويف مما أصاب أولئك وإنذار منه ﷻ، فقد كان من ذلك ما شاء الله، نسأل الله الغفور الرحيم لنا معشر هذه الأمة عصمته ومعافاته ومغفرته.

قال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع»(١).

وفي أخرى: «حذو القذة بالقذة»(٢).

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يريد ﷻ أهل الكتاب، ولمن عتى وكفر من غيرهم.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ﴾ أي: في ذلك اليوم هو وقوع

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٤٠٤) وقال: صحيح، وابن أبي شيبة (٣٧٣٧٦).

(٢) أخرجه الطيالسي (١١٢١)، وأحمد (١٧١٧٥)، وابن قانع (١/٣٣٣)، والطبراني (٧١٤٠).

الوعيد عليهم بالعذاب العظيم، وإنما تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين يوم يبشر هؤلاء بالجنة وهؤلاء بالنار ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ أي: يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ ﴿**فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٦].

أهل الكتاب كفروا بعد إيمانهم، ومن عتى وكفر من غيرهم، كلٌّ يذوق من العذاب على مقدار كفرهم، ومن وصف جنايته في الإسلام على نفسه ﴿**لَا ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ**﴾ [غافر:١٧].

ـــِ ثم قال جلَّ قوله: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾ [آل عمران:١٠٨] أي: بالواجب كونه الواقع، ويكون أيضًا معنى ذلك مع ما تقدم إنه يتلوها عليه بواسطة الملك بروح القدس إلى قلب الرسول ﷺ.

كما قال جلَّ قوله: ﴿**وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ**﴾ وهذا طريق إنزاله بالملك والروح القدس عليهما السلام ﴿**وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**﴾ [الإسراء:١٠٥] أي: بالكافرين الواقع.

كما قال جلَّ قوله: ﴿**أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ [النساء:١٦٦] أي: بما هو كائن.

﴿**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:١٠٨].

ومن كتاب الحرث بن أسد، قال أبو غالب: كنت بدمشق فجيء بسبعين رأسًا من رؤوس الحرورية، فنصبت على درج المسجد، فجاء أبو أمامة صاحب النبي ﷺ، فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم خرج فقام عليهم، فجعل يهريق عبرته ساعة فقال: «ما يصنع إبليس بأهل الإسلام؟» ثلاث مرات، ثم قال: «كلاب جهنم» ثلاث مرات، ثم قال: «شر قتلى قُتل تحت ظل السماء» ثلاث مرات، ثم قال: «خير قتيل من قتل هؤلاء تحت ظل السماء» ثلاث مرات، ثم أقبل علي فقال: يا غالب أتقرأ سورة آل عمران؟ قال: قلت: نعم، قال: فقرأ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ....**﴾ [آل عمران:٧].

ثم قال: هؤلاء كانت بغيتهم فتنة وزيغ بهم، ثم قرأ: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾[1] [آل عمران:١٠٦] قال:

---

(١) ذكر الله تعالى القسمين أولاً، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فقدم البياض على السواد في اللفظ، ثم لما شرع في حكم هذين القسمين قدم حكم السواد، وكان حق الترتيب =

فقلت أهم هولاء؟ فقال: نعم، ثم قال: «**تفرقت بنو إسرائيل على أحد سبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا السواد الأعظم**» قال: «**عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا**» وقال: «**السمع والطاعة خير من المعصية والفرقة**»(١) يغضبون لنا ثم يقتلونا.

قال: قلت: أرأيت الذي تحدث أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أو شيء تقوله عن رأيك؟ فقال: إني إذًا لجريء إن حدثك ولم أسمعه من رسول الله ﷺ، مرة أو مرتين حتى قالها سبعًا.

تنبيه:

تفرق أهل قادح في التوحيد والنبوة والرسالة، وتفرق هؤلاء من هذه الأمة خطأ من جهة التأويل، فهو تفرق دون تفرق، وإن خرج بهم إلى الكفر فهو غير مقصود لهم ولا معتمد منهم.

قوله ﷻ: ﴿**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:١٠٨] هو ﷻ لا يتصور من حكمه الظلم؛ لأنه لا يصادف ملكًا لسواه يظلم فيه ومن سواه، فإن الفعل منسوب إلى فاعله كما يضاف الكلام إلى المتكلم، وقد أراد الله ﷻ وقوع الظلم من العباد؛ ليكونوا به ظالمين فهم يظلم بعضهم بعضًا.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل:١١٨] فقد تبرأ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من الظلم، وحرمه على

=

أن يقدم حكم البياض. والجواب عنه من وجوه: أحدها: إن الواو للجمع المطلق لا للترتيب، وثانيها: إن المقصود من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب، قال ﷺ حاكيًا عن رَبِّ العزة سبحانه: «خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم» وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض؛ لأن تقديم الأشرف على الأخس في الذكر أحسن، ثم ختم بذكرهم أيضًا تنبيهًا على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال: «سبقت رحمتي غضبي» وثالثها: إن الفصحاء والشعراء قالوا: يجب أن يكون مطلع الكلام ومقطعه شيئًا يسر الطبع ويشرح الصدر، ولا شك أن ذكر رحمة الله هو الذي يكون كذلك، فلا جرم وقع الابتداء بذكر أهل الثواب والاختتام بذكرهم. [تفسير الرازي (٣٣٤/٤)].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٣٥)، وفي الأوسط (٧٢٠٢)، وابن أبي شيبة (٣٧٨٩٢).

نفسه وعلى غيره.

فصل

العدل ثلاثة فصول:

الأول: هو ما استأثر به ﷻ من الملك والجبروت والكبرياء والوحدانية والربوبية والإلهية وعزة الصمدانية، فهذا الفصل هو وصفه؛ إذ هو هو، فهذا وجود ليس كمثله شيء، ولهذا لا يصل إليه اسم الظلم ولا معناه؛ إذ له الحكم كله وله الملك كله، وهو المالك له أن يفعل في ملكه ما يشاء ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الروم:٢٧] فلا يوصف بظلم.

الثاني: من العدل هو ما جعله بينه وبين عباده من الحكم، كقوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ [البقرة:٤٠].

وقوله جلَّ قوله: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ**﴾ [البقرة:١٩٧] فلن تكفروه، فهذا أيضًا ونحوه قد تقدم إلى عباده في الظلم بالتحريم له والنهي عنه والأمر باجتنابه، وأوعدهم ﷻ عليه بأشد الوعيد، فلا يتصور منه الظلم في أصل القضية، ولا في الحكم فيها للعلة المتقدمة، ولأنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قد تبرأ منه ومن فاعله؛ لذلك يقول جلَّ قوله: ﴿**لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ**﴾ [ق:٢٨].

وفيما رواه أبو هريرة - رحمه الله - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يعتذر الرب تبارك وتعالى إلى آدم يوم القيامة ثلاث معاذير، فيقول جلَّ قوله: يا آدم، لولا أني لعنت الكذابين وأبغضت الكذب والخلف وأوعدت عليه لرحمت اليوم ذريتك من شدة ما أعددت لهم من العذاب، ولكن حق القول مني إن كُذبت رسلي وعُصي أمري لأملأن جهنم منهم أجمعين، يقول جلَّ قوله: يا آدم، إني لا أُدخل النار من ذريتك إلا من قد علمت في علمي لو رددته إلى الدنيا لعاد إلي شر مما كان عليه ولم يرجع ولم يعتب**»[1].

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٧/٤٥٣)، والطبراني في الصغير (٨٥٥).

ذلك لأنه لم يزل يعلم منهم الظلم قبل أن يوجدهم، وعلى ذلك أوجدهم، فقال فيهم: «هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[1] فكتبهم القلم العلي في اللوح المحفوظ كما كان علمه فيهم بأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم.

ويقول جلَّ من قائل: «يا آدم قد جعلتك حكمًا بيني وبين ذريتك، فقم عند الميزان فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم من رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة، حتى تعلم أني لا أدخل النار إلا كل ظالم»[2].

وقد أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿وَلله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [آل عمران:١٠٩].

والعدل الثالث: عدل حكم القصاص بين العباد.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: ١١٢-١١٩].

قوله ﷻ: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ...﴾[1] [آل عمران:١١٨] الآيتين، أشبه هذا الخطاب ما تقدم من قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٢٨] غير أن هذا ظاهر، هذا هو في أهل الكتاب، وذاك في جملة الكفار.

وأهل الكتاب كفارًا أيضًا بنص الكتاب والكفار غير المؤمنين، ومن دون المؤمنين هم غيرهم قد بيَّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون، هذا مبين معناه في قوله جلَّ قوله: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩] هذه كلها آيات على ما تضمرونه، وهي من نصائحه ﷻ.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠-١٢٥].

---

(١) نزلت في رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من يهود للجوار والحلف والرضاع قاله ابن عباس، وقال أيضًا هو وقتادة والسدي والربيع: نزلت في المنافقين، نهى اللهُ المؤمنين عنهم شبه الصديق الصدق بما يباشرُ بطن الإنسان من ثوبه، يقال له: بطانة ووليجة، وقوله: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ في موضع الصفة لبطانة، وقدّره الزمخشري: من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون، وقيل: يتعلق من بقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ وقيل: «مِنْ» زائدة؛ أي: بطانة دونكم، والمعنى: إنهم نهوا أن يتخذوا أصفياء من غير المؤمنين، ودلَّ هذا النهي على المنع من استكتاب أهل الذمة، وتصريفهم في البيع والشراء، والاستنابة إليهم، وقد عتب عمر أبا موسى على استكتابه ذميًا، وتلا عليه هذه الآية، وقد قيل لعمر في كاتب مجيد من نصارى الحيرة: ألا يكتب عنك؟ فقال: إذًا اتخذ بطانة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1] يعدد ﷻ عليهم نعمه ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ يريد: التقوى الأرفع، دلَّ على ذلك قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣] ولا يتحصل الشكر إلا بعد مغفرة الذنوب أو يكفرها بالحسنات.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران:١٢٤].

ثم قال ﷻ تحقيقًا للعدد المذكور: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ ثم عطف بالواو عددًا آخر على شريط التزام التقوى منهم والصبر، فقال جلَّ قوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: من حالكم هذا من التقوى والصبر والاستعجال ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] أي: معلمين.

وقد تقدم قوله جلَّ قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] بخفض الدال؛ أي: مردِفين لغيرهم من الملائكة، ومردَفين بفتحها: مردَفين بغيرهم، فأقل الجمع على هذا من أعداد الملائكة - عليهم السلام - تسعة ألف؛ إذ المشار إليهم بقوله جلَّ قوله: «مردفين» بخفض الدال وفتحها، وقد يكون غير هؤلاء عددًا زائدًا عليهم[2].

---

(١) قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في موضع الحال، وإنما كانوا أذلة لوجوه: الأول: إنه تعالى قال: ﴿وَلِلهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فلا بد من تفسير هذا الذل بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية، وذلك هو تفسيره بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو ومعنى الذل الضعف عن المقاومة ونقيضه العز وهو القوة والغلبة، روي أن المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وما كان فيهم إلا فرس واحد وأكثرهم كانوا رجالة، وربما كان الجمع منهم يركب جملاً واحدًا، والكفار قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة. الثاني: لعل المراد أنهم كانوا أذلة في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قلة عددهم وسلاحهم، وهو مثل ما حكى الله عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل﴾ [المنافقون: ٨]. الثالث: إن الصحابة قد شاهدوا الكفار في مكة في القوة والثروة، وإلى ذلك الوقت ما اتفق لهم استيلاء على أولئك الكفار، فكانت هيبتهم باقية في قلوبهم واستعظامهم مقررًا في نفوسهم فكانوا لهذا السبب يهابونهم ويخافون منهم. [تفسير الرازي (٤/٣٧٠)].

(٢) قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الدال والباقون بكسرها، قال الفراء: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي: متتابعين يأتي بعضهم في أثر بعض كالقوم الذين أردفوا على الدواب، و﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي: فعل بهم ذلك، ومعناه أنه تعالى أردف المسلمين وأيدهم بهم، وقد اختلفوا =

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٢٦-١٣٤].

قوله ﷻ: ﴿لَيْس لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨] يمكن أن يكون راجعًا إلى كفار قريش أهل أحد.

قوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً...﴾ [آل عمران:١٣٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] وقد مضى الكلام في أضعاف مضاعفة في سورة البقرة، وأنه وصف لحالهم في دار البرزخ.

وكذلك تقدم من وصفهم؛ أعني: أكلة الربا ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] وإن هذه حالة لهم في دار البرزخ

=

في هل الملائكة هل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم: نزل جبريل ﷺ في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثيابهم بيض وقاتلوا. **وقيل**: قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين، وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصًا؟ قال: هو من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم، وروى أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالصوت فوقه، فنظر إلى المشرك وقد خرَّ مستلقيًا وقد شق وجهه، فحدث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذاك من مدد السماء». [تفسير الرازي (٣٧١/٧)].

يجعلون لآل فرعون يدوسونهم بأرجهلم فيثردونهم ثردًا، فيقومون إثر ذلك عند تلك الحالة على ذلك الوصف.

وبوجه آخر: أن يكون لهم هذه الحالة أيضًا في دار الدنيا، وذلك أن الشيطان - لعنه الله - إذا مسَّ بلمم أحدًا ثم يقوم المصاب عن تلك الحال، فهو حينئذٍ على المعهود الأغلب من وجوده غير وافر في عقله ولا ذكره، واهن القوة ضعيف الحواس الظاهرة والباطنة، وآكل الربا في سبيل دينه والعمل لآخرته والعقل عن ربه، والعلم بما خلق له على ذلك الوصف لا يشعر بما نقصه من دينه، ولا تفطن للأهبة لمصيره، فأشبه الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ قد أحاط به رجسه وغلب عليه لممه.

قوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] أعدَّ الله جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - للكافرين، على ذلك دلت دلائل الوحي الكريم كقوله جلَّ قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤-١٦].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ولذلك ما أشكل على قوم فقالوا بالإرجاء، واتكلوا على صفة الفضل، وأهملوا حكم صفة العدل في حقهم، فذهبوا إلى إسقاط العمل وقالوا: «كما لا ينفع مع الكفر عمل كذلك لا يضر مع الإيمان بالله ورسوله ذنب» فأسقطوا عن أنفسهم وظائف العبادات وخرجوا عن الدين.

وإنما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا قومًا يقولون: من مات وهو غير تائب من معصية عملها معتمدًا لها فهو من أهل النار غير خارج منها أبدًا، مع إبليس - لعنه الله - وفرعون وهامان، فهو كهؤلاء ففرط هؤلاء وفرط.

فصل الخطاب وعدل القول في ذلك والله أعلم: إن دين الله بين المقصر والمغالي، وأن دين الله هو الإسلام، والجزاء عليه من ثواب وعقاب مجموع من فضل الله وعدله، وهما صفتان له ﷻ من صفاته واسمان من أسمائه، لكلٍّ حظ من

حكمته ونصيب من عباده من قوله التام جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»[١] فالعمل مقدر، والجزاء مقدر مفروغ منهما.

وفي أخرى: «**هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي**»[٢] بكفر من كفر، ولا بإيمان من آمن وعمل.

قال رسول الله ﷺ **فيما يطابق هذا: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى يكون بينه وبين الجنة باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار**»[٣] وبالضد.

قوله جلَّ قوله: «**لا أبالي**» أي: بكفر من كفر، ثم ختم عمره بالإيمان، ولا بإيمان من آمن وعمل بطاعتي ثم ختم عمره بالكفر، ثم الكفر منه صغير وكبير، ولذلك تطرق دخول النار إلى بعض أهل الشهادة الحق، وعلى ذلك ففي النار عذاب في أقطار منها لا يصليها إلا الأشقى، وقد أعدت للكافرين، وفيها عذاب في قطر أو أقطار يطابق لصغيره بالإضافة إلى ما هنالك لصغر الكفر ليس هو بالقطر حافته ﴿**لَا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى**﴾ [الليل:١٥-١٦] فجاء بلفظ التكثير.

وقوله جل قوله: ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ**﴾ [سبأ:١٧] أنه لا يعذب الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى، فجاء بلفظ التكثير إنما يعذب الكفور، وقد مضى أن من الكفر ما هو صغير وكبير، ولم يكن الله ﷻ لينذر المؤمنين النار التي أعدها للكافرين، إلا وقد كتب أن يدخل فيها من شاء إلا يغفر له، وهم الذين لم يبلغوا أن يوصفوا بالأتقى، ولا يعذبهم أيضًا بعذاب الموصوف بالأشقى الذي كذب وتولى.

وكذلك قال عزَّ من قائل: ﴿**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [آل عمران:١٣١-١٣٢] يقول الله جلَّ من قائل: فلا تكونوا فيمن يدخلها، وسارعوا إلى درجة الأتقى مغفرة من ربكم تفهم ما بين قوله: ﴿**سَارِعُوا**﴾ و﴿**سَابِقُوا**﴾ وما بين قوله: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

عمران:١٣٣] وبين قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١] وأن السماوات سبع والأرض ثامنة، والسماء هو السمو والعلو، وهو واسع جدًا، فافهم.

قال إبراهيم لمحمد - صلوات الله وسلامه عليهما - وقد وجده في السماء السابعة، مسندًا ظهره إلى البيت المعمور: «**يا محمد هذه منزلتك ومنزلة أمتك**»(١).

قوله ﷻ: **﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران:١٣٣] ثم وصفهم - جلَّ وصفه - بصفات لا تشكل على من نظر بعقلٍ سليم.

وقال - جلَّ قوله - في موضع آخر: **﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ﴾** [الحديد:٢١] يريد الإيمان الأعلى والاقتداء الأرفع، ثم يدخل الله الجنة من لم يبلغ هذه الدرجة العليا بفضل رحمته سبحانه.

فصل

التقوى منها صغير ومنها كبير، فالأنبياء والأولياء من ولد آدم ﵇ في أعلاها؛ أعني: الحظ الذي أوتيه البشر منها، وأهل الشهادة دون عمل في أدناها وكذلك الكفر، ففي هذين الطرفين كان خلطه إياهم؛ إذ قال جلَّ قوله: **﴿لَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾** [المؤمنون:٦٣] أي: من دون كبير المنزلتين.

فمن هؤلاء يدخل النار - أعاذنا الله برحمته منها - من لم يشأ الله الغفران له، حتى إذا صفوا وهُذِّبوا وخلص منهم ذلك المعنى الذي قال - جلَّ قوله - فيه: «**اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خير، فأخرجوه منها أو أدنى وأدنى من ذلك**»(٢).

وذلك هو الإيمان بهن بالآثام وتضعيف السيئات لطول عرض الذنوب عليه، فتقل معارضته وتذهب قوته في المجاهدة ويألفها، فيقل إنكاره لها لأجل كثرة

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجة (١٧٩)، وابن حبان (١٨٣)، وأبو عوانة (٤٤٩).

ترددها عليه، فتكون منزلته في ذلك منزلة ساقطة الحديد إلى الأرض لا تزال الأرض تأكلها، وتصدأ هي ويعلوها الذرى، ويطول ذلك حتى يخرقها، وينفد عرضها ويقصر طولها، فيبطل لذلك منها ما صنعت له.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: «**ممن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير**»[١] وإنما خير الحديد مضاؤه في عمله وقيامه فيما وجد له، ثم قد نجد الصداء فيها ويغلب عليها آفة الذرى، فلا يبقى مما هو حقيقة الحديد منها على طول بلاها في الأرض وقرب الندى منها، ولزوم ذلك لها إلا شبهه باطنه لا تتميز إلا بالنار، فمثل تخليص هذه الساقطة من الحديد من ذراها الغالب عليها في نار الدنيا؛ ليخرج منها ما هو حقيقة الحديد.

وإن قلَّ ذلك منها كمثل جعل أولئك في نار الآخرة؛ ليخلص منهم الطيبات من الخبيث، وذلك المخلص منهم - والله أعلم - هو المعني بقوله عزَّ قوله: «**مثقال ذرة من إيمان وأدنى أدنى أدنى من مثقال ذرة**»[٢] نعوذ بالله العظيم برحمته من عذابه قليله وكثيره، ونسأله فإنه الرحيم أن يتغمدنا برحمته.

فالإيمان بقوته ومجاهدته وإنكاره، وغيرته على الفواحش مثال الحديد؛ لشدة بأسه وقوته، والأرض والندى في إبطاله وتعفينه، وإذهاب حقيقته كالذنوب بعد الذنوب في توهين الإيمان وإبطال عمله فما وجد له، وكما قد تُذهب الأرض الحديد جملة، وتحيله إلى نفسها كذلك تُذهب كثرة الذنوب الإيمان إهلاكًا وإبطالاً، وهذا هو الذي أحاطت به خطيئته، فينزع منه بمشيئة الله جلَّ ذكره بما هو من شبهه الإيمان عند الموت، فلا يخرج من النار أبدًا إذا لم يبقَ فيه ما يخلص منها.

وأما قوله - عز من قائل - في الجنة: ﴿**عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران:١٣٣] فقد قال رسول الله ﷺ في خبره الصادق عن إسرائه: «**فوجدت آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السابعة**» وذكر الأنبياء - صلوات الله وسلامه على جميعهم - فيما بين ذلك من السماوات على منازلهم، قال ﷺ: «**وجدت**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

موسى في السماء السادسة»[١] وذكر ﷺ أنه وجده في قبره قائمًا يصلي.

وقال ﷺ في الشهداء: «إنهم في حواصل طيور خضر تعلق بثمار الجنة»[٢].

وقال ﷻ في الشهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] جنتهم اليوم، كما قال - جلَّ من قائل - في عموم الموتى، فطوَّرهم ﷻ ثلاثة أطوار، وذكر ﷻ احتضار المحتضرين ومنقلبهم وما إليه ينقلبون ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٥] يعني ﷻ: الموت.

كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] يعني: الموت، كذلك قال جلَّ ذكره في آخر سورة الحاقة، والجنة اليوم عرضها السماوات أعدها الله جلَّ ذكره للمتقين الذين وصفهم بالإحسان.

إلى قوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[آل عمران:١٣٥-١٣٩].

ثم للمتقين الذين ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥] على علم منهم أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، هذه جنة الدار الوسطى التي بعد الموت.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٩٨٢) وفي الشاميين (٢٥٤٦)، والبيهقي في الدلائل (٦٧٢)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٦٧)، وابن حبان (٧٥٢٩).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٨٥)، والدارمي (٢٤٦٥).

ثم قال عزَّ من قائل: **﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** أي: في الدار الآخرة دار القرار **﴿وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾** [آل عمران:١٣٦] ودلت الواو ها هنا عطفًا بمعنىً على معنى، وتعظيمًا لأجرها هنالك، وإنه قد [زادكم][١].

كما قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مصدق بصدقة من كسب طيب، والله طيب لا يقبل إلا الطيب إلا وقعت في يمين الرحمن قبل أن تقع في كف السائل، فيربها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون الثمرة مثل جبل أُحد**»[٢] كما تنشأ البذرة في الأرض ينزل الله عليها الماء من السماء حتى تكون نخلة فرعها في السماء وأصلها ثابت في الأرض، فكذلك غيرها من بذرة الشجرة حتى يستظل تحتها الإنس ووحش الأرض، وتأوي إليها طير السماء.

وكما ينشئ ﷻ الثمرة في الدنيا من صغير إلى كبير، ومن فجاجة إلى نضج، كذلك الصدقة فيما هنالك حتى تكون الثمرة مثل جبل أحد، والأمر هنالك أفخم والوجود أكرم، ولا يكون القابل ها هنا المعبر عنه بالأرض، والمربي المعبر عنه بالماء والهواء والشمس كالقابل هنالك، والمربي المعبر عنه بأنه الله الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض جلَّ ذكره الرحمن الرحيم لا إله إلا هو.

أعقب هذا بقوله الحق: **﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران:١٣٨] بيان لفضل الآخرة على الدنيا، وهذا لمن نظر واعتبر بالشاهد إلى الغائب، وموعظة لمن اتقى الله فيما أمره به ونهاه عنه.

ثم أرجع ﷻ الخطاب إلى ذكر غزوة أُحد، يعزي ﷻ المسلمين في مصابهم ويعظهم؛ ليحتسبوا، ويبشرهم بقوله جلَّ قوله: **﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[٣] أي: بما تلوناه عليكم، فإنكم الأعلون في الدنيا والآخرة، كقوله

---

(١) في الأصل [نسأكم].

(٢) أخرجه مالك (١٨٤٤)، والنسائي (١١٢٢٧)، والبيهقي في الشعب (٣٣٢١)، وابن حبان (٢٦٩)، وابن خزيمة (٢٢٣٠)، والدارمي (١٧٢٨)، والحميدي (١٢٠٧).

(٣) قال القرطبي في «تفسيره»: **﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾** أي: لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر **﴿إِنْ**
=

جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة:٢١٢] وبقوله جلَّ قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾[آل عمران:١٤٠-١٤٥].

و﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ يعني: يوم أحد ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ يعني: يوم بدر ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] [آل عمران:١٤٠].

= كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: بصدق وعدي، وقيل: «إن» بمعنى «إذ» قال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد فبيناهم كذلك؛ إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلن علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر» فأنزل الله هذه الآيات، وثاب نفر من المسلمين رماه فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ يعني: الغالبين على الأعداء بعد أحد، فلم يخرجوا بعد ذلك عسكرًا إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهد رسول الله ﷺ، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت، وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨] وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾.

(١) في الآية قولان: أحدهما: إن يمسسكم قرح يوم أحد فقد مسهم يوم بدر وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أصابتكم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنى هذا﴾ والثاني: إن الكفار قد نالهم يوم =

يقول جل من قائل: وإن كانت لكم العاقبة، فإن من سنتي مداولة اليوم بين الناس؛ لحكمة معهودة لي في ذلك، أثيبهم وأعوض المؤمنين بدار خير من دارهم، وأهل خير من أهاليهم، وأدخل ﷻ الواو عطفًا على هذا المعنى المذكور، أو ما يكون عبارة عما شاء جلَّ ذكره.

وفي قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١] ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

يقول جلَّ قوله: لأبتليكم وأختبركم، فأنزل كلاً حيث أنزل نفسه من الإيمان والصبر والعمل بما يرضي، ولا يخص بذلك المؤمنين وأمحق الكافرين، فأتخذ من المؤمنين شهداء يشاهدون الدار التي ابتاعوها مني بأنفسهم وأموالهم، ورضوها عوضًا مني بذلك صبروا في ذلك لأجلي، ورضوا بي بذلك بما عندي.

فصل

قال الله جلَّ من قائل: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨] فملكوت كل شيء هو سر الصنعة في المصنوع، وخفي القدرة في المقدورة.

ومن ذلك مضافات الملائكة - على جميعهم السلام - في تدبير الأمر في رياح وسحاب وماء وهواء وأرض، وجميع مواد وتركيب من نشطٍ ونزع، ونشر وبشر، وتقسيم وإنشاء، وإرسال وإمساك، وسيارة وإلقاء، وإلهام وبرق، ووصل وتصوير، وإحياء وإماتة بإذن الله ﷻ، إلى غير ذلك من الأفاعيل التي جعلها الله تعالى إليهم، ولا يعلمون إلا بإذنه، فإن مشيئته ﷻ فوق كل مشيئة وقدرته علا فوق كل قدرة، وهم بأمره يعملون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ

= أحد مثل ما نالكم من الجرح والقتل؛ لأنه قتل منهم نيف وعشرون رجلاً، وقتل صاحب لوائهم والجراحات كثرت فيهم وعقر عامة خيلهم بالنبل، وقد كانت الهزيمة عليهم في أول النهار. [الرازي (٣٩٥/٤)].

الأُمُورُ﴾ [الحج:٧٦].

فجنة الدار الوسطى هي الحاضرة، التي قال فيها رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[1] وهي لهذه الدار جنتها بجنتها ونارها بنارها، كالمثال الذي تقدم ذكره قبل، والقافية للذوات والأولى ونحو هذا، وهي التي هي عرض السماوات والأرض، وهي ملك السماوات والأرض، عنها تنفصل معاني ما هنا من موجوداتها شقائها ونعيمها، سرائها وضرائها، خيرها وشرها.

وأما جنة الدار الآخرة والله أعلم، فهي التي عبَّر عنها قوله الحق: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الحديد:٢١] وتلك أكبر جدًا وأوسع من السماوات والأرض؛ إذ كل ما علا فهو سماء، وذلك إذا كشطت السماوات سماء سماء وبدلت الأرض غير الأرض والسماوات وسعت حقيقة تلك في هذه، فكانت كلها جنانًا، السماوات والأرض اليوم هي من الدنيا، فإذا بدلهن بغيرهن كن آخره، وزيد في ساحتهن طولاً وعرضًا كما بين الدنيا والآخرة من الزيادة التي عبَّر عنها رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم فانظر بما يرجع منها**»[2].

وقال العليم الخبير: ﴿**وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ**﴾ [الرعد:٢٦].

فصل

إن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه قد خبَّأ خبْئًا كثيرًا، وهيأ نُزلاً عظيمًا كريمًا وعد به عباده المؤمنين، وأعد لمن كذَّب رسله وعصى أمره عذابًا، جمع ذلك كله في دار القرار التي فصل هذه عنها، وأوجب في سابق حكمته وعليّ تدبيره أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٣)، وأحمد (٣٦٦٧)، والبزار (١٦٦٣)، وأبو يعلى (٥٢١١)، وابن حبان (٦٦١)، والبيهقي (٦٢٩٦)، والديلمي (٢٦١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، والحاكم (٧٨٩٨) وقال: صحيح الإسناد، وأحمد (١٨٠٤٣)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩)، والطبراني (٧١٣) والبيهقي في الشعب (١٠٤٥٩).

[تجتني][1] فرطًا، ويسبق إليها شهداء يشهدونها من هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ لما أعد له وعرف به.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٤].

وقال أيضًا جلَّ من قائل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢] أي: مقدمين إليها قبل البعث.

من ذلك قوله بعد هذا: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ﷻ: في الحياة الدنيا ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدار الوسطى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣] أي: في الدار الآخرة.

ثم هكذا سرد خطابه ﷻ في شأن غزوة أحد، إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٧٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ

(١) هكذا في الأصل.

وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ
وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ
بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ
أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي
بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى
ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ
﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ
غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ
مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ
وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا
عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن
يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن
يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ
﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ
دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ
رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن
كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ
قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٤٦-١٧١].

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾ [آل عمران:١٦٩] إلى قوله: ﴿أَنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧١] قد تقدم فيما مضى من صدر الكلام في حياة الشهداء بمبلغ العلم منا، والاستشهاد مقرون بالقرآن والحديث ومعاني الوجود معه، اعتمادًا في ذلك على صدق قيله جلَّ قوله، وهو العليم الخبير؛ إذ هذه الأحياء لا تنكشف معرفته إلا في الدرجة الثالثة من العقل بتأييد الله ﷻ، وإشعار تحقيقه المعنى الخفي منه.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤] فأخبر صريحًا بصادق قوله ﷻ: إن ذلك لا يوصل إليه إلا بالإشعار من الله ﷻ بحقيقة ذلك.

قال الله ﷻ - وهو أعلم - في المثل الذي ضربه لخليله إبراهيم ﷺ في ذلك: ﴿أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] لا يمتنع عليه شيء شهادة أو غيبًا، حكيم محكم لصنعه؛ أي: إحكام أعرق وصفًا من هذا، ربط الجسم على معاني الأصول ﷻ الأصول إلى متحدٍ يحملها، فهو في إيجاده متكثرًا وفي تكثيره متحدًا، وهو حال حياته هذه ميت بوجه حي في حال موته حي بوجه ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وأعرق من هذا وصفًا وحكمة جعله العبد الأوَّلي آدميًا ذا لحم ودم ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣] ويتمهد هذا إن شاء الله تعالى بالكلام الأول على الأول،

وهو ما لزم الموجود من وجوده باطنًا، وقد مرت قبل إليه إشارة لكن يخفى موضعه، وغيابة غيبه ذهبنا لنبيّنه متى مررنا به، فربَّ معنى غمض فأظهره تعاور العبارات، ودلَّ عليه اختلاف السبل إليه قاصدة بالإيماء نحوه.

اعلم - وفقنا الله وإياك لما يرضيه وحمانا عن جميع مناهيه - أن هذا الوجود المعني بالذكر ألزم الموجودات وجود الظلال أشخاصها، وهو الظاهر بجماع الموجودات.

قال الله ﷻ في ظاهر ذلك: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٦] فآلاء الجبال أفياؤها وظلالها، وآلاء الموجودات الظاهرة اتباعها، كذلك لها آلاء باطنة، هذه الظواهر منها دلالات عليها.

من ذلك قول رسول الله ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية أحدكم ثلاث عقد...**»[١].

ومن ذلك قوله ﷺ لأصحابه إذ كانوا يأتونه بصدقاتهم: «**اللهم صلِّ على آل فلان**» امتثالاً لقول الله جلَّ ذكره: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**﴾ [التوبة:١٠٣].

ولما جاءه ابن أبي أوفى بصدقة أبيه قال: «**اللهم صلِّ على آل أبي أوفي**»[٢] أراد ﷺ أن يعم بالصلاة ظاهر الآل وباطنه، والصلاة على فلان صلاة على آله الملازم له الذي هو مثاله؛ إذ الباطن في ضمن الظاهر، وليست الأتباع كذلك، فخصَّ آل أبي أوفى بالذكر؛ ليدخل معه ابنه ومن تبعه فيها.

كذلك الصلاة على الميت وغسله هي صلاة وطهر، ولما صار منه إلى مثاله؛ إذ ليس هو عند الله جلَّ ذكره وعند أهل الآخرة بغيرٍ للموجود الظاهر والمعتمد بالصلاة، والدعاء الظاهر عندنا نحن بادئ الرأي والرؤية يدخل الباطن في ذلك بالتبعية، وليس ذلك كذلك على الحقيقة، بل الصلاة والتبرك والدعاء بجملته؛ أعني: الباطن المزايل، والظاهر لنا حكم ذلك بحكم ظاهر، وكذلك الصلاة والتبريك على

---

(١) أخرجه مالك (٤٢٤)، والبخاري (١٠٩١)، ومسلم (٧٧٦)، وأحمد (٧٣٠٦)، وأبو داود (١٣٠٦)، والنسائي (١٦٠٧)، وابن ماجة (١٣٢٩)، وابن حبان (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، وأبو داود (١٥٩٢)، والنسائي (٢٤٧١)، وأحمد (١٩٩٤٤)، والبيهقي في سننه (٧٩٠٧).

الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وخصُّوا بالصلاة بخطير آلائهم التي باينوا بها البشر، وهي التي يصحب منهم العالمين، ويعبر بعد هذا في الغابرين، وهذا المعنى؛ أعني: وجودهم الذي وجدوا عليه حال ظهورهم هذا كان منهم ومن سواهم في بدء الأمر، وحين الإشهاد والتقدير وأخذ المواثيق.

قال رسول الله ﷺ فيما حكاه عن مسراه: «**رأيت الأنبياء في السماوات ولما حضرت الصلاة أممتهم**» فهذا فيمن كان ثم قبض، وقال ﷺ: «**رأيت آدم عليه السلام في السماء الدنيا، وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فهو إذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى**»[1] فهذه جملة بنه من مضى منهم ولم يأتي بعد؛ لذلك قيل: آل أمر فلان إلى كذا؛ أي: رجع إلى أوله، فالوجود أول آخره بالجزاء.

ومنه: تأويل الرؤيا، قولهم: فقالوا: ما أولت ذلك يا رسول الله؟

ومنه: الألِيَّة التي هي اليمين والحلف، أفعلت بمعنى: ألزمت نفسي الألِيَّة، وتأليت: تفعلت، إنما تصور التفعل في الألِيَّة؛ لأنها من الإل، وهو معنى باطن في المؤمن تحقيق بصفة الإيمان، فهو بمعنى تفعل مما فيه من الآل، مثال ذلك دخل في الآل وألزم نفسه تعظيمًا له وتحقيقًا لحقيقته.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠] والإل هنا لطيفة لله جلَّ ذكره في العبد المؤمن، كان موجود فيه بما هو إنسان، ثم تحقق بالإيمان، ثم صعد تحقيقه بعلو الإيمان وطاعة ربه إلى غاية، عبَّر عنها بقوله جلَّ قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...**»[2].

وبقوله جلَّ قوله: «**ابن آدم، مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني وظمئت**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في الإيمان (٧١٤)، والضياء المقدسي (١١٢٨) وقال: إسناده صحيح. الأسودة: الأشخاص والأجسام من كل شيء من إنسان أو متاع أو غيره.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

فلم تسقني وكنت عريانًا فلم تكسني»(١) أصله - والله أعلم - من قوله جلَّ قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] ثم ما في العالم مبثوثًا من روح الأمر، وبهذه اللطيفة استوى العبد الباطن يتزكى بالطاعة لربه جلَّ ذكره ويتردى بمعصيته.

قال الله جل من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا...﴾ [الشمس:٧] إلى قوله: ﴿زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩] و﴿دَسَّاهَا﴾ [الشمس:١٠] وربما جاء ذكره موعبًا حسب الطاقة في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

رجع الكلام: قال أبو بكر الصديق ﷺ حين بلغه ركيك ما عارض به مسلمة الحنفي القرآن العزيز: «والله ما خرج هذا من إلٍ» يريد: من نبوة نبي ولا صديقية صدِّيق.

وقد قيل: الإل هو الله جلَّ ذكره.

مرجوع مجموع هذا كله من آل وإل وألية إلى اسمه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] فآلاؤه - جلَّ ذكره - في مخلوقاته هي التي تبصرها أحداق البصائر في معالم العالم المشرقة بضياء الوجود العلي الذي لم يزحمه المكان، ولا أفاته القبل، ولا أعدمه البعد، ولا بعده البعد، ولم يعجز لوجود الموجودات أن تلحقه، سبحانه وله الحمد لم يزل على ما هو، ولا يزول على ما كان دون بداية ولا نهاية، وذلك المعني بقولنا: الألّ في الموجودات عبد وملك له ﷻ، أسلك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ذلك مسالك أسمائه، وأجراها مجاري مقتضيات معاني معالي صفاته في مصنوعاته، فالموجودات كلها عرض كالأعراض لا تبقى، وذلك الموجود لها كالحامل القائم بها.

ومن آياته: أن تقوم السماء والأرض بأمره.

وقال جلَّ قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ....﴾ [النور:٣٥].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب المفرد (٤٠٢)، ومسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] فكل مسبح في العالم وقانت وساجد ومصلٍّ للإله العلي هو خاضع سبيل الاعتبار.

وطريق البحث عن هذا المطلوب العلي هو من لدن قوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾ [النجم:٣٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٥].

ويفضي بالبحث والطلب في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ [الأعراف:٦٩] وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] مع الوقوف على نسق الآي والتدبر لما ذكرنا فيها، وفيهم قوله تعالى الآلاء وارتياد التزيد من هذه الوجوه المختلفة في هذه المسألة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

وقد أوقعت الفتنة بهذه اللطيفة المخلوقة والمحدثة المعمورة المملوكة أقوامًا بالقول في الحلول والقول بذلك كفر صراح، كيف تشبه الخليقة الحقيقة؟ بل كيف يمثل العبد المربوب بربّه الخالق العلي الكبير؟! وهو القائل جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] تمثال الموجودات، فاعلم يقينًا ليس يعبَّر الموجود.

لذلك نهينا أن نقول للشهداء: أمواتًا، وأمرنا أن نعتقد أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فمن شعر للمعنى سهل عليه المأتى، كذلك قال جلَّ من قائل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٦].

وقطع المسافات في طريق الدنيا والآخرة، فكان ﷺ يقول إذا أصبح: «**الحمد**

لله الذي جعل النهار خلفة من الليل»[1] فطريق الشكر لله فيهما ظاهر إن شاء الله، وهو العمل بطاعته واجتناب مناهيه، والتزلف إلى الله ﷻ بنوافل الخيرات.

وأما طريق التذكر وتطلاب العلم، فخلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ذلك من أعظم الطاعات زلفى بعد أداء الفرائض إحياؤه فيهما، قد تقدم في تفسيره قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ...﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] من الكلام بما فيه بطريق المبتدئ وتذكار المبتغي، والله نسأله المزيد من النعم وتوفير القسم.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

---

(١) لم أقف عليه.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٩٧].

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] أي: الأنبياء والمرسلين المؤمنين، ومن الصديقين وهؤلاء من هؤلاء.

كما قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:٣٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣] ودلَّ على قدر التخصيص لذكر النبيين والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - أنه نصب «ذرية» على المدح.

سألت أم سلمة رسول الله ﷺ وكانت أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة، قالت: يا رسول الله، لا أسمع ذكر النساء في الهجرة، فقال الله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى....﴾ [آل عمران:١٩٥] انتهى[١].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٨-٢٠٠].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٢٣)، وأبو يعلى (٦٩٥٨)، والحميدي (٣٠١)، والحاكم (٣١٣١)، والطبراني (١٩١٤١) والبيهقي في السنن والآثار (٥٥٤١).

فهرس المحتويات